المجلد السادس

من تاريخ سورية الدنيوي والديني

يتضمن هذا الجزء تاريخ سورية من اواخر القرن الحادي عشر
الى اوائل القرن السادس عشر

للحقير الفقير الى عفو ربه يوسف الياس الدبس
مطران بيروت الماروني .



طبع في المطبعة العمومية في بيروت ١٩٠٢ .

المجلد السادس

﴿ من تاريخ سورية ﴾

الباب الثاني عشر

﴿ في تاريخ القرن الثاني عشر ﴾

القسم الاول

﴿ في تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن ﴾

فاتحة الكلام

ان تاريخ سورية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مثالات يتمثل بها كل عاقل ليلزم السلم والوفاق ويكب عن الخصام والخلاف . فجل احداث تاريخ هذين القرنين او كلها حروب ومغالبات على مدن سورية خاصة بين الافرنج الذين اكثروا من الحملات حينئذٍ على بلادنا وبين المسلمين الذين كانوا يلون هذه البلاد ولو اقتدى بعض المسلمين بابي بكر الصديق في الرفق بالنصارى كما اوصى غزاته الاولين او بعمر بن الخطاب اذ لم يشا ان يصلي في كنيسة القدس لئلا يقول المسلمون بعده هنا صلى عمر . او تركوا النصارى وما يدينون كما أمروا لنجا المسلمون والنصارى من غوائل الحروب التي خربت هذه البلاد مدة قرنين ولكن قام في

مصر الخلفاء العلويون الفاطميون ونازعوا الخلفاء العباسيين الولاية على سورية واذاقوا النصارى الامرّين بعد ان كانوا يترفون بعدالة هرون الرشيد واولاده واحفاده وقام من العلويين الحاكم بامر الله فعذب النصارى واليهود وبعض المسلمين ايضاً ودك معابدهم حتى احرق كنيسة قبر المسيح ومنعوا النصارى من ان يحجوا الى القدس الا ان يدفعوا ضريبة فاحشة فلم يصبر احبار رومة روساء الدين المسيحي وملوك النصارى بالمغرب على هذا الاعتداء ودعتهم فروضهم الدينية الى العناية بتامين النصارى بسورية ومصر واخذ مذ ذلك الحين في الاهتمام بتامينهم من الاضطهاد ووقاية معابدهم من الخراب الى ان تألبت في اخر القرن الحادي عشر جموع نصارى المغرب وسارت الى المشرق

ولولا الخلاف الذي كان بين المسلمين في ذلك العصر اعني بين الملوك السلجوقيين وخلفاء مصر العلويين وبين حكام الاعمال بانفسهم كما كان بين ولاة بغداد والموصل وحلب ودمشق وحمص وغيرها لما قدر الافرنج ان يدخلوا هذه البلاد ولا جسروا ان يكون لهم بها مطمع ولو لم يكن بين النصارى مثل هذا الخلاف بين ملوك الروم في قسطنطينية وملوك المغرب وبين اصحاب تلك الحملات بانفسهم ايضاً لما استطاع المسلمون ان يخرجوهم من هذه البلاد عنوة والحق يقال ان هذه الحروب الشديدة المديدة ارتنا بسالة المسلمين وصبرهم على القتال وعصبيتهم الشديدة فلم يتركوا الافرنج يستريحون في بلادهم سنة واحدة دون حرب فكانت في القرنين سلسلة حروب تتصل احدى حلقاتها بالاخرى كما سترى وكشفت هذه الاحداث من جهة الفرنج عن ورعهم وتحمسهم في الدين في ذلك العصر وتحملهم مضض مشاق السفر واخطار الحرب. ولكن كان في جانب ذلك المحاسدة والخلاف حتى الجئوا ان يجلوا عن هذه البلاد صاغرين ويورثوا سكانها غوائل الخلاف ونالنا نحن الموارنة نصيبنا من هذه المصائب وهو احراق عمل كسروان بجملته وخراب

جبة بشري على أثر جلائهم لانهم انسوا بنا واستوطنوا بين ظهرانينا لجامعة الدين بيننا وبينهم وسترى في كل فصل من تاريخنا لهذين القرنين موعظة ناطقة بوجوب الموالاة والوفاق في امور هذه الدنيا بين الملل ولو اختلفت ديناً ومذهباً وطقساً ووجوب التنكيب عن المداوات والخصام طلباً لراحة كل فريق والسير في طريق التمدن والترقي في مدارج النجاح والفلاح هدى الله كل ضال الى سراط الحق المستقيم

الفصل الاول

في قدوم الافرنج الى سورية واستحواذهم على بعض مدنها وما كان من الحروب في هذا القرن

عد ٨١٢

في تألب الافرنج في بلادهم ومسيرهم الى قسطنطينية

كان المسلمون قد ضايقوا ملك الروم الكسيس كومنانس وانتزعوا اكثر املاكه واوشكوا ان يحصروه في قسطنطينية عاصمة ملكه فلجأ الى ملوك اوروبا واوفد اليهم وفوداً ورسائل منها رسالة الى روبرتس كنت فلاندرا الملحقة يومئذ بافرنسة والى جميع الامراء المسيحيين من الاكليريكيين والعامة يستجير بهم ويبالغ في مضايقة المسلمين له وفي احتقارهم الدين المسيحي وسطوهم على الكنائس والاديار ويسالهم الاخذ بناصره والانتصار لدينهم واستنقاذ قبر المخلص من ايديهم ويزين لهم كسب ما في المشرق من الكنوز والذخائر المقدسة والآثار الجليلة وكان في ابرشية

اميان بافرنسة وقتئذٍ حبيس اسمه بطرس عزم ان يحج الى اورشليم فامها واقام فيها اياماً وزار سمعان بطريرك هذه المدينة وحدثه سائلاً اياه عن حالهم فنم اليه البطريرك ما يقاسون خاصة من جرى مغالبة دول المسلمين على مدينتهم فساله بطرس اليس من علاج لهذه الشؤون فقال البطريرك اثامنا ابعدت بيننا وبين الهنا فلا يستجيب دعاءنا وكأن عتابنا لم يكمل بعد فاشار عليه السائح ان يرفع رسائل الى الحبر الروماني وامراء النصارى في المغرب وهو يوصل رسائله اليهم ويصنع ما يقدره الله عليه لاجابة سؤاله فراق هذا الكلام للبطريرك وكتب رسائله ودفعها الى السائح الذي قام في ذهنه ان الله يدعوه للجهاد في هذه المهمة الجلّى فاتى الى رومة ورفع رسالة البطريرك الى البابا اوربانس الثاني فاجله وابدى ارتياحه الى مساعدة نصارى المشرق فمضى بطرس السائح يفري الفيافي بايطاليا وفرنسا حافي القدمين مكشوف الراس حاملاً صليباً مغرياً الكبراء والعامة ايضاً انجدة نصارى المشرق اما الحبر الروماني فعقد مجمعاً في بلاسنس بلومندية جمع فيه اساقفة ايطاليا وبوركونيا وافرنسة والمانيا وبفيارا وغيرها حتى اجتمع حينئذٍ مئتا اسقف ونحو من اربعة الاف اكليريكي واكثر من ثلاثين الفاً من العامة فلم تسعهم كنيسة فتالبوا في ساحة في اليوم الاول من اذار سنة ١٠٩٥ وشهد المجمع نواب بعض الملوك ووفود الكسيس ملك الروم الذين تضرعوا باخبات الى الحبر الروماني وامراء المغرب ان يمدوا ملكهم وينجدوه على اعدائه حباً بخير الكنيسة والدين الذي كاد يرهق في المشرق فحث البابا المؤمنين على ان يمدوا ملك الروم واقسم كثيرون من الحاضرين ان يسيروا الى قسطنطينية لامداد الملك وعزم الحبر الروماني ان يسير الى افرنسة ويعقد فيها مجمعاً فسار بحرًا واستدعى الاساقفة الى الاجتماع في كلرمون باوفرنيا في الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ فاجتمعوا في اليوم المعين وكان عدد رؤساء الاساقفة ثلثة عشر وعدد الاساقفة والرؤساء الكبار مئتين وخمسة وعدد الباقين

من الاكايريكيين نحوًا من اربع مئة وحشد يشذ عن العد من الامراء والسفراء والوجهاء والعامة حتى ضاقت عنهم المدينة وضواحيها وبعد ان بحث اباء المجمع عن بعض المسائل المعلقة بالدين والتهذيب البيعي وقرروها عقد المجلس العاشر في ساحة فسيحة في المدينة فقام بطرس السائح وخطب في الجماعة خطبة حماسية رنانة وكان فصيحاً بليغاً سديد الحجة وكان لخطبته وقع شديد في قلوب سامعيه حتى كادوا يحاولون ان يطيروا من كلرمون الى اورشليم وخطب بعده البابا اوربانس وكان افرنسياً مولدًا حاضاً ابناء وطنه والمسيحيين اجمع على استنقاذ الارض المقدسة بفصاحة عجيبة حتى نهض السامعون اجمعون وضجوا صارخين كانه بفم واحد Dieu le veut! Dieu le veut ان الله يريد ذلك • ان الله يريد ذلك • فقال البابا فليكن هذا الكلام شعارًا لكم في كل عمل صالح تاتونه وكان لكلامه تاثير شديد حتى عزم للحال اكثر السامعين من الاكليرس والعالميين على المسير الى المشرق وكان اوبمر اسقف بوي اول من اخذ من يد البابا الصليب شعار الصليبين في حملاتهم الى المشرق وتبعه كثيرون واقام البابا براي الاساقفة اوتمر اسقف بوي رئيساً روحياً للمتجندين وسفيرًا من قبله . وريموند كونت تولوز وسان جيل رئيساً مدنياً وطاف البابا في كثير من كنائس افرنسة مدبرًا شؤونها وحاثاً على المسير الى الشرق وموزعاً بيده الصلبان وجال بطرس السائح في كل فج داعياً الى التجند واكثر الاساقفة من الحض على ذلك فعظم الاقبال على هذا التجند في افرنسة وايطاليا والمانيا وتبارى فيه الاكابر والاصاغر الرجال والنساء والاحداث والكهول حتى اضطر البابا ان يضع نظاماً لذلك وفي جملته ان لا تسافر المراة الا مع زوجها او اخوتها وكان بين الكبراء المتجندين ريموند كنت تولوز المار ذكره وروبرتس الثاني كنت فلاندرا وقد سمي بعدًا كنت اورشليم وروبرتس الثاني كنت نرمندية وغودفروا دي يليون دوك لوران واخواه بودين واستاش

وبيومند امير تريدنتو . واما عدد الصليبيين فلا يحصى وقال فوجر من شرتر الذي كان معهم ان عددهم لا يقل عن ستة ملايين ولكن عاد بعضهم من ايطاليا وبعضهم من غيرها وبعضهم مات وبعضهم قتل والموكد ان الذين بلغوا قسطنطينية كانوا نحو سماية الف مقاتل . وقالت الاميرة حنه كومنانس التي كتبت تاريخ ابيها الكسيس كومنانس « من شاء احصاء عدد الصليبيين فليحص عدد رمال البحر او نجوم السماء او اوراق النبات او ازهار الربيع » هذه مبالغة تشير بها الى الكثرة

وقد اتفق الصليبيون ان لا يسيروا في طريق واحد او حشدًا واحدًا بل ان يسيروا متفرقين وموعد اجتماعهم قسطنطينية فسار جيش منهم مقدامه بطرس السائح في طريق المانيا وكان عدد هذا الجيش نحو تسعين الفاً وفي جملتهم نساء واحداث وشيوخ واخذ امرة فريق من هذا الجيش رجل اسمه كوتيار **sans , avoir** اي الفقير او الذي لا يملك شيئاً واسمه دال على ما كان عليه من المسكنة والفقر وكان عسكره كذلك وكان المومنون يقومون باودهم ما ساروا في ارض افرنسة وقد تبعهم بعض المانيين في طريقهم ولم يتعرض لهم احد وبلغوا الى بلغريا وقد عازهم الزاد وابى واليها ان يمدهم بشيء منه فتشتتوا في المزارع والقرى وسلبوا الماشية واحرقوا بيوتاً وقتلوا بعض من قاومهم فالب البلغاريون عليهم وقتلوا منهم كثيرين وانهزم كوتيار سائرًا في الاحراج والمفاوز بمن بقي من جنده الى ان بلغوا نيسا فشفق عليهم واليها واحسن اليهم بازودة واسلحة وملابس وبلغوا اسوار قسطنطينية بعد شهرين مضنين بالتعب والجوع

واما الفريق الاخر من هذا الجيش الذي كان بامرة بطرس السائح فسار في طريق بغيارا واوستريا فاباحهم قولمان ملك اونغريا (المجر) ان يجتازوا بارضه آمنين بحيث لا يضرون باحد ويشترون ما يحتاجون اليه وبلغوا مدينة سملين فراوا على ابوابها بعض اسلحة كان اهل المدينة قد انتزعوها من الصليبيين فضربوا المدينة

وفتحوها وقتلوا من اهلها اربعة آلاف ولكن جيش الانغاريون عليهم فانهزم بطرس السائح بعسكره وساروا في الاحراج وانهوا الى نيسا فقدم لهم واليها الزاد ولكن وقع خصام بين بعض الاهلين وبعض الجند فاحرق بعض الالمانيين من الصليبيين سبع مطاحن فثار اهل المدينة بالصليبيين فقتلوا كثيرين واخذوا منهم الفي عربة واسروا كثيرين وعاد بطرس السائح الذي كان قد سار في مقدمة جيشه الى والي نيسا يساله تخلية الاسرى ورد العربات فابى واستأنف القتال ودارت الدائرة على الصليبيين فقتل منهم عشرة الاف وانهزموا في البرية نحو تراسة نادمين على ما جنوا على انفسهم وعلى غيرهم ولما علم الملك الكسيس بوصولهم الى تراسة ارسل يعتبهم على سطوهم ويعدهم بالصفح فساروا حتى انتهوا الى اسوار قسطنطينية

وحشد كاهن الماني اسمه كونسكال عسكرًا نحو خمسة عشر الفاً وكان اكثرهم من السباريت الجانين فافرطوا في السطو بانغاريا فقتلوا هنالك عن اخرهم وتالب عسكر اخر من المانيا فسطا على اليهود ونكل بهم فشتتهم الاونغاريون والبلغاريون شذر مذر واما الجيوش المنظمة فسار فريق كبير منها بامرة غودفروا دي بوليون فلم يتعرض لهم الاونغاريون والبلغاريون • وسار فريق اخر بامرة روبرتس دوك نرمندية وروبرتس كنت فلاندرا وغيرهما في طريق ايطاليا • وسار فريق اخر بامرة بيوموند امير تريدنتو بحرًا الى بلاد اليونان وسار الصليبيون من جنوب افرنسة برئاسة اويمر اسقف بوي سفير البابا وامرة ريموند كنت تولوز وكان عدد هذا الجيش نحوًا من مئة الف مقاتل وساروا في طريق ايطاليا وبلاد اليونان باحسن نظام وبكل عبادة وورع واجتمعوا جميعاً في ضواحي قسطنطينية سنة ١٠٩٦ وكان معسكر قادتهم في قرية بيوكدرا احدى ضواحي قسطنطينية وقد كان عدد من قتل ومات منهم في طريقهم الوفاً مؤلفة (ملخص عن تاريخ روهر بخر عن تاريخ غوليلمس اسقف صور وغيره من مؤرخي ذلك العصر)

عد ٨١٣

في ما كان بين الافرنج وملك الروم ومسيرهم الى انطاكية

ان الكسيس ملك الروم الذي كان قد استمد امراء المغرب ارتاع لما راى كثرة عديدهم ووجس من انقلاب ناجديه عليه واسف لانه اراهم ضعفه باستمداده لهم فعول على الحيلة والمكر بهم فرحب بهم وانسهم وقدم لهم هدايا وتقادم نفيسة واكثر من الوعود بمجاراتهم على كل ما يبتغون لكنه بالغ في تجسس احوالهم واستطلاع ما كنت سرائرهم وكان الكنت دي فرمندوا اخو ملك افرنسة قد القاه عاصف على شواطي الايبر فدس الكسيس من احضره وحاشيته الى قسطنطينية بهيئة اسير آملاً ان يكون اخو ملك افرنسة رهينة عنده لحفظ الامانة له فكان عكس ما امل فان ذلك كشف للافرنج خبث نيته واراهم لزوم الحذر منه واخذ روساؤهم يعاملون الروم معاملة اعداء فندم الكسيس على قبح فعلته واستعطف اسيره وطلب عفوه وبالغ في اكرامه وفي تقدمة الهدايا له لكنه لم يلبث ان منع الافرنج الزاد فانتشروا في القرى وضواحي المدينة ينهبون ويسلبون واستمروا على ذلك اياماً فكان لهم ما يكفيهم واتت ايام عيد الميلاد فكفوا عن السلب تديناً وصالحوا الملك فعاد يجري الارزاق عليهم وكان الملك لا يدخر وسيلة من وعد ووعيد ليحلف له غودفروا يمين الامانة والطاعة وغودفروا لا يغتر بوعده ولا يرهب وعيده واوشكا ان يتعاركا وبلغ الخبر بيومند واستبشر بان تلك وسيله لاستاط ملك الروم واقتسام مملكته وكاشف غودفروا في ذلك فلم يحسن له . وعلم الملك بذلك فازداد رهبةً وتوجساً وارسل ابنه ليكون في معسكر الافرنج فاغتروا بخدعته وصيدوا باحبولته واتى روساءهم الى قصره فبالغ في تكريمهم وتبنى غودفروا ووضع مملكته تحت حمايتهم فحلفوا له على انهم لا يخلون بحرمة الضيافة وانهم يسلمون اليه ما كان يخص مملكته من المدن التي يفتحونها ووعدهم الملك ان ينجدهم

برّا وبحرًا بجنده وسفنه وان يقدم لهم الازودة ويشاطرهم الكفاح والمخاطر والفخر في حماتهم

وكان اول من عبر البصفر منهم واحتل اسيا غودفروا وسار على اثره باقي الامراء وكان جيشهم حينئذٍ ست مئة الف مقاتل واول مدينة حصروها وافتتحوها كانت مدينة نيقية المشهورة بالمجمعين الاول والثامن اللذين عقدا فيها وكان تولاها حينئذٍ قلج ارسلان بن سليمان سلطان قونية من السلجوقيين وسماه ابو الفداء قليج . فلاقى الافرنج بجموعه فقاتلوه فهزموه في رجب سنة ٤٩٠ هـ وهي سنة ١٠٩٧ م هذا ما رواه ابن الاثير وابو الفداء . وقد ذكر المؤرخون الافرنج اخذ نيقية باكثر تفصيل فقالوا ان مهاجمات الافرنج لهذه المدينة في الايام الاولى من حصارهم لم تجدهم نفعاً ورجعوا عنها خاسرين لانها كانت محصنة منيعة واتى السلطان قلج لنجدتها بستين الف فارس فتاججت نار الوغى بينه وبين الافرنج من الفجر الى المساء فانكسر وتشتت جمعه وقتل من عسكره كثيرون وبعد هذه الوقعة شدوا الحصار على المدينة . ولم يبقَ الا ان يدخلوها فارسل الملك الكسيس كتيبة من جنده بامرة قائدين معروفين بالدهاء فدخل احدهم المدينة وارهب اهلها بما سيجريه الافرنج عليهم من الانتقام وزين لهم ان يستسلموا الى الملك ففعلوا . واذ كان الافرنج يتحفزون للدخول الى المدينة راوا اعلام الملك الكسيس تخفق على اسوار المدينة وقلاعها . فدهشوا واحتدموا وكادوا يتمزقون غيظاً اذ منعوا من ان يدخلوا المدينة الا عشرة عشرة بعد اراقة دماء كثيرين منهم في فتحها واوشكوا ان يثيروا بملك الروم لولا ان يتدارك هو الامر باعتذاره عن فعلة قائديه وبسخائه على الجنود وتقديم الهدايا النفيسة لروسائهم فاغضى الافرنج على سوء صنيعه وحذروا الاركان اليه

وفي ٢٥ حزيران من سنة ١٠٩٧ سار الافرنج بجيوشهم من نيقية منقسمين

الى عسكرين احدهما بامرة بيومند وتنكراد وروبرتس دوك نرمنديه · والاخر بامرة غودفروا دوك لوران وبينما عسكر بيومند على مقربة من دوريلا المعروفة الان باسكي شهر وثب عليهم في غرة تموز قليج ارسلان سلطان قونية السلجوقي بجيش جرار لا ينقص عن ثلثماية الف رجل واستعرت نار الحرب بين الفريقين منذ الصباح وانتهى جنود السلطان في احدى كراتهم الى معسكر الافرنج فقتلوا النساء والاطفال والشيوخ والمرضى واتصلوا الى ان احاطوا بالافرنج من كل جهة وسدوا عليهم باب الهرب وكاد اليأس يستحوذ عليهم فاذا طلائع العسكر الاخر الذي بامرة غودفروا مشرفة عليهم من اعلى جبل قريب منهم فانتعشت قلوب اخوانهم وارتاع اعداؤهم وانكشفوا مرتدين فتتبع الافرنج خطاهم يقتلون منهم فتحصن السلطان قليج في قمة جبل ظاناً ان الافرنج لا يلحقونه الى هنالك فاحدقوا بالجبل وضيقوا على من تحصنوا به وقتلوا منهم كثيرين وغنموا ازودتهم وسلاحهم وخيمهم ودوابهم وقد سرتهم رؤية الجمال التي لم يكونوا يعرفونها في اوروبا · وكان عدد القتلى من الافرنج في هذه الوقعة نحو اربعة الاف وقد اطرأ المؤرخون النصارى المعاصرون لهذه الاحداث بسالة المسلمين وثبوتهم في القتال · اما السلطان قليج فانهزم بمن بقي من جيشه واخرب كل البلاد التي راى انه لايستطيع الدفاع عنها

وفي ٣ تموز سار الافرنج جيشاً واحدًا مفكرين ان سيرهم معاً يقيهم الغدر ومباغتة اعدائهم فريقاً منهم لكنهم عرضوا نفوسهم بذلك للهلاك جوعاً في الاعمال التي اخربها قليج ولما توغلوا بهذه البلاد المقفرة الخربة عازهم الزاد واصابتهم مجاعة الجاتهم الى الاقتيات بحب الاشجار واصول النبات فهلك كثير من الجنود والدواب جوعاً وعطشاً واضطر الفرسان ان يترجلوا وبعضهم ان يركبوا الحمير والبقر وان يستخدموا الغنم والماعز والخنازير والكلاب لنقل امتعتهم وملابسهم وروى غوليلمس

الصوري في كتاب تاريخه لهذه الحرب انه مات في يوم واحد خمس مئة نفس من الافرنج واستمروا على هذه الحال التعيسة المضنكة الى ان انتهوا الى انطاكية بيسيدية ففتح اهلها ابوابها لهم واستراحوا في هذه المدينة المخضلة الزاهية اياماً وقد ذاع خبر انتصارهم وكثرة جيشهم فتوارد اليهم وفود من اعمال كثيرة يرحبون بهم ويعدون بالطاعة لهم وامدادهم بما يبتغون وجاهر النصارى في اسيا الصغرى بالانقياد اليهم

وسار جيش الافرنج من انطاكية بيسيدية نحو قونية عاصمة ملك قليج السلجوقي وبلغوا هرقلية حيث اقاموا اربعة ايام واستأنفوا مسيرهم في اوعار جبل طورس مقاسين من المشاق ما حملهم على ان يسموا هذا الجبل جبل الشيطان حتى انتهوا في خاتمة مطافهم الى ماوينريا وهي مرعش وكان سكانها نصارى وفي قلعتها حامية من قبل الحكومة انهزمت عند دنوهم من المدينة . ومضى حينئذٍ بودوين اخو غودفروا بكتيبة اولاندية وتنكراد بكتيبة ايطالية لتجسس الطرق وتهزيم الاعداء عنها ولتامين النصارى في كيليكيا وللامتيار فانتشروا في هذه البلاد وملكوها واستسلم اهل ترسيس الى تنكراد ثم استحوذ عليها بودوين فكان بينهما نزاع كاد يفضي الى القتال بينهما لولا ترفع تنكراد ونزاهته واستحوذ على ادنه فارس من بوركونية اسمه كوالف وتولى تنكراد المصيصة وانتهى الى اسكندرونة وكان يطوف في هذه البلاد بثلاث مئة فارس فيفر كل عدو منها رهبة من جيوش الافرنج

وعاد بودوين الى المعسكر العام في مرعش فونبه اخوه غودفروا على سوء معاملته تنكراد وطمعه باخذه ترسيس وكان رجل ارمني اسمه بنكراس يلي مملكة صغيرة فثار به اهلها فخلعوه وانقلب عليه الدهر حتى القي في السجن في قسطنطينية ثم فر منه وانضم الى الافرنج تحت امرة بودوين وكان يزين له الاستيلاء على ارمينية والجزيرة (ما بين النهرين) فاذعن بودوين لرايه لكن لم يشاء ان يصحبه من الافرنج

الا نحوٍ من الف رجل ومائتا فارس فسار بهم في ارمينية فلم يلف معارضاً وانفصل عنه بنكراس مستحوذًا على بعض اماكن ولم ينبئنا التاريخ ما آل اليه امره واما بودوين فاستولى على بعض المدن على عدوة الفرات فذاع اسمه وعظمت سطوته ورهبته وكانت الرها الحقت بولاية ملك الروم كما رايت وكان عليها يومئذٍ امير رومي اسمه توادورس يفي الجزية للسلاطين السلجوقيين وقد اجتمع فيها كثيرون من النصارى فاجتمع راي الامير والشعب على ان يستدعوا بودوين ويملكوه فيهم وسار اليه اسقف المدينة واثنا عشر وجيهاً من الشعب وسالوه ان يسرع الى مدينتهم ويحكم عليهم فلبي دعوتهم ولما دنا من المدينة خرج الشعب كله لملتقاه حاملين اغصان الزيتون ومترنمين بالتسابيح وكان الامير شيخاً لا ولد له فتبنى بودوين وجعله وارثاً له ثم اغتال الامير بعض الناقمين عليه واستبد بودوين بالولاية على الرها ووسع تخوم ولايته بما ناله من ارث الامير فاخذ سمياط وغيرها من المدن ثم ماتت امرأته فتزوج بنت اخي احد امراء ارمينية وسهلت له هذه الصلة بالنسب توسيع نطاق حكومته الى جبل طورس حتى دان له قسم كبير من الجزيرة وسكان عدوتي الفرات واسس هناك للافرنج كنتية الرها سنة ١٠٩٨ واستمر يدبر شؤونها الى ان استدعي ليخلف اخاه غودفروا بعد وفاته في مملكة اورشليم كما سيجي وتخلى بودوين حينئذٍ عن كنتية الرها لبودوين كنت بورج احد انسبائه. واما جيش الافرنج فسار من مرعش نحو قنسرين وكان في طليعة الجيش روبرتس كنت فلاندوا في الف رجل فاستحوذ على قنسرين بامداد النصارى سكانها فاسرع عسكر المسلمين الذي كان في انطاكية لانجاد المدينة ولما راى الافرنج تبواوها عدل عنها الى جسر الحديد الذي على العاصي ليصدوا الافرنج عن العبور الى انطاكية وكان في جانبي الجسر قلعتان مصفحتان بالحديد واجتمع هناك جيش كبير من المسلمين وكان روبرتس المذكور اول من اوقد نار الحرب بطلائع جيش الافرنج فردعن الجسر خاسراً

نحو الف رجل ثم ادركه الجيش العام فشتتوا جيش المسلمين وانهزم من في القلعتين واستحوذ الافرنج على ضفتي العاصي وساروا نحو انطاكية (ملخص عن غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب وغيره من المؤرخين المعاصرين كما روى اقوالهم روهربخر في كتاب ٦٦ من تاريخه)

عد ٨١٤

في حصار الافرنج انطاكية وفتحها

نلخص اولاً ما ذكره المؤرخون العرب في هذا الشان نقلاً عن ابن الاثير وابن خلدون وابي الفداء وغيرهم قالوا لما انتهت جيوش الافرنج الى انطاكية حاصروها تسعة اشهر وكان واليها يومئذٍ باغي سنان (وقد مر ذكره) من قبل الملوك السلجوقيين فاحسن الدفاع عنها وظهر من شجاعته وجودة رايه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره واخرج رجال النصارى من المدينة بحجة احتفار خندق ثم منعهم من العود اليها وابقى اطفالهم ونساءهم فيها وهلك اكثر الفرنج من الجوع والبرد والوباء ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد المسلمين ولما طال مقام الافرنج على انطاكية راسلوا احد المستحفظين للابراج وبذلوا له اموالاً واقطاعاً فدلهم على بعض المخارج ودخلوا منه ونفخوا البوق فخرج باغي سنان هارباً حتى اذا كان على اربع فراسخ من المدينة راجع نفسه وندم فسقط مغشيا عليه واراد اصحابه ان يركبوه فلم يكن فيه مسكة وقد قارب الموت فتركوه وساروا عنه واجتاز به رجل ارمني كان يقطع الحطب وهو باخر رمق فقتله واخذ راسه الى الافرنج بانطاكية وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق باننا لا نقصد الا البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها مكرًا منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب انطاكية وسنذكر تالبهم على الافرنج بعد اخذهم انطاكية وحصارهم لهم فيها نقلاً عن المؤرخين العرب ايضاً

واما ما ذكره المؤرخون الافرنج في حصار انطاكية وفتحها فنلخصه عن المؤلفين المعاصرين لهذه الاحداث كريموند دي اجيل او القريبين منهم كغوليلمس اسقف صور وغيره قالوا ان هذا الحصار استمر ثمانية اشهر من اوائل تشرين الاول سنة ١٠٩٧ الى اواخر حزيران سنة ١٠٩٨ وتقلبت فيها عليهم الاحوال تارة تسيء وتارة تحسن وكان المسلمون في داخل اسوار المدينة لا يسمع لهم جلبة ولا صياح فتوهم الافرنج انهم مرتعدون فشلون فلم يحتاطوا كما كان ينبغي وانتشروا في ضواحي المدينة وقراها لاهين بما لاقوا هناك من المؤن والثمار والجنات والمياه والمواشي التي لم يتمكن اهل المدينة من حرزها وفشا فيهم الفتور والانكباب على المطاوب والملاذ وحمل ذلك اهل المدينة على الأمل ونعش فيهم الشجاعة والنخوة فخرجوا على الافرنج فقتلوا واسروا كثيرين ممن كانوا مشتتين في البساتين او لاهين بما طاب لهم فندم الافرنج على سوء تصرفهم وعزموا على ان يأخذوا بثار من قتل من اخوانهم ولكن لم تكن لهم الادوات اللازمة للحصار فطال مكثهم خارج المدينة ونفد اذخارهم واتت ايام الشتاء فتمزقت خيمهم وتعسر مسيرهم من قبل الاوحال وضربت المجاعة اطنابها فيهم فاجتمع رؤساؤهم وتشاوروا وارسلوا نحوًا من عشرين الف رجل منهم بامرة امير تريدنتو وكنت فلاندرا الى الاعمال المجاورة لهم ليمتاروا طعاماً فمضى هولاء وانتصروا في مسيرهم على عدة شراذم اعترضت لهم وعادوا موقرين ازودة وذخائر كثيرة وفي مدة غيابهم خرج المسلمون على عساكر الافرنج المخيمة حول مدينتهم فاكثروا من القتل والتنكيل بهم وذكر ريموند دي اجيل المؤرخ الذي كان في جملة الافرنج حينئذ انخذالهم وما قاسوه في ذلك اليوم وعزا انكسارهم الى انتقام الله منهم لآثامهم وقد ادركهم تعالى بنجاتهم من المجاعة بما وفق غزاتهم الى جلبه من المون سدًا لجوعهم الى وقت وقد فشت فيهم الامراض وتوافر عدد الموتى حتى روى بعض الشهود العيانيين ان الكهنة لم يكفهم الوقت للصلوات

على الاموات وضاقت سهول انطاكية عن المدافن وعاودتهم المجاعة حتى اكلوا الجيف وماتت خيولهم لقلة العلف فكان لهم في بدء الحصار ستون الف فرس ولم يبق منها الا الفان وكثر الاباق فيهم فقد حمل اليأس بعضهم على الفرار الى الرها حيث ولي بودوين وبعضهم الى كيليكيا حيث تولى تنكراد وبعضهم انسل مستخفياً الى بلاده وانحاز دوك نرمندية نفسه الى اللاذقية ولم يعد الا بعد مناشدته مرات وغادر تاتيس قايد عسكر ملك الروم بجنده المعسكر بحجة ان يستنجد ويمتار حتى اضطر قادة الجيش ان يقضوا بالموت على من يفر وطفق اويمر اسقف بوي وغيره من الاساقفة والكهنة يعظون في الجيش ويحضونهم على التوبة والتكفير عن آثامهم ليراف الله بهم وفرضوا اصواماً وصلوات واقاموا محكمة تقضي على المجرمين وكان بعض النصارى يتجسسون اخبار الافرنج ويكشفون للمسلمين احوالهم فشنق بيومند بعض هؤلاء عبرة لغيرهم

وكان غودفروا قد جرح والتام جرحه وخرج بين الجنود فانعش فيهم الامل وارسل اخوه بودوين كنت الرها وبعض امراء ارمينية مالاً وذخائر لجيش الافرنج واتتهم المون من قبرس وساقس ورودس فكان لهم كفافهم وقلت الامراض فيهم فعاودتهم الشجاعة والنخوة وقدم اليهم حينئذٍ وفد من قبل خليفة مصر العلوي فاستقبلوهم بالاجلال فقالوا ان مولانا يرغب في التقرب الى الافرنج على ما بين الفريقين من اختلاف الدين وانه مستعد ان يدخل بجنده الى فلسطين وسورية ليخرج منها اعداءهم الذين كانوا على ممر الايام اعداء الداء لذرية اهل علي وانه يعلم ان جل ما يقصدونه انما هو اورشليم فهو يعد بانه يجدد كنائس النصارى فيها ويذب عن دينهم ويفتح ابواب المدينة لكل من رغب في الحج اليها بحيث ان يدخلوا اعزالاً لا سلاح معهم وان لا يقيموا فيها اكثر من شهر فان قبلوا هذا الشرط كان الخليفة مناصراً ومنجداً لهم وان ابوا مولاته قامت على قدم وساق شعوب مصر والحبشة

وجميع سكان اسيا وافريقيا من بوغاز جبل طارق الى بغداد لمناواة الافرنج وكبتهم فساء كلامهم رؤساء جيش الافرنج وقام احدهم وقال للوفد المصري قولوا لمولاكم ان ديننا بعثنا على استنقاذ الارض التي ولد فيها رب هذا الدين ولا نحتاج في ما عزمنا عليه الى نجدة من دول الارض ولا ننسى ما اجراه المصريون من وقت قريب على حجاج المغرب ولا يمحى من ذكرنا ما انزله الحاكم بامر الله على النصارى ودكه كنائسهم ولا سيما كنيسة القبر المقدس فنحن لا نقصد زيارة اورشليم بل اقسمنا على ان نملكها ونستحوذ على كل ما هنالك فقولوا لمن ارسلكم ان يختار السلم او الحرب قولوا له ان الافرنج المخيمين حول انطاكية لا يروعهم شعب مصر ولا سكان الحبشة ولا اهل بغداد وعند انصراف الوفد المصري صحبه مفوضون من قبل الافرنج الى مصر كيلا يجاهروا خليفة مصر بالعدوان

وقد حشد في هذه الاثناء امير حلب وامير دمشق وغيرهم من الامراء عشرين الف فارس ليمدوا انطاكية ودنوا منها فخرج من معسكر الافرنج نخبة من جنودهم فقاتلوا اوليك الامراء وهزموهم وقتلوا منهم الفي رجل والف حصان وقد ذكر المؤرخون المسلمون هذه الوقعة بعد اخذ الافرنج انطاكية كما سيجي وقد قدم حينئذٍ اسطول من جنوا ودخل المرفا المعروف بمرفا القديس سمعان على مقربة من انطاكية فسر الافرنج خبر قدومهم ومضى من معسكرهم كثيرون الى ذلك المرفا ليرحبوا بهم ويستطلعوهم اخبار اوروبا ويمتاروا لهم اقواتاً وبيناهم راجعون واكثرهم اعزال لا سلاح معهم فاجأهم اربعة الاف رجل من المسلمين وقتلوا كثيرين منهم وشتتوا الباقين وبلغ الخبر الى الجيش فاسرع غودفروا بنخبة من الروساء والجند لانقاذ اخوانهم فهزموا المسلمين فارسل باغي سنان والي المدينة نخبة من رجاله لامدادهم مهدداً اياهم بانه لا يفتح لهم ابواب المدينة الا ان ينتصروا فانتصر الافرنج على الفريقين معاً وابدى غودفروا وروبرتس دوك نرمندية

ايات البسالة ودام القتال النهار كله وانهزم المسلمون وغرق منهم نحو الفين في العاصي ولم تكن خسائر الافرنج قليلة وطفق باغي سنان يضطهد النصارى الذين لبثوا في المدينة وحبس البطريرك يوحنا واذاقه مر العذاب وضربت المجاعة اطنابها في انطاكية فسال باغي سنان الافرنج ان يعقد هدنة معهم فاجابوه اليها ولو لم تكن لهم مصلحة فيها وكان بعض الافرنج في مدة الهدنة يدخلون المدينة وبعض اهلها يخرجون اليهم فسنحت الفرصة لبيومند ان يصادق اميرًا اسمه فيروز كان رئيس الحرس في ثلثة ابراج وكان مسيحيًا ارمنيًا فاسلم وكشف ذات يوم لبيومند تونيب ضميره له وانه يريد ان يصالح النصارى وان يوديهم خدمة ما فحضه بيومند على اتمام ذلك فوعده فيروز ان يسلم اليه الثلاثة الابراج التي في حراسته ولمح بيومند الى انه اهتدى الى وسيلة تضمن فتح المدينة وطلب ان يكون الوالي عليها فخالفه بعضهم واذا بخبر يقول ان كربوغا (وسماه بعضهم كربوقا) امير الموصل قادم بمئتي الف مقاتل لنجدة انطاكية فوعد اكثر رؤساء الجيش بيومند ان يكون اميرًا على انطاكية وسالوه ان يسرع ما امكن باتخاذ الوسيلة التي اشار اليها لفتحها قبل وصول كربوغا فارسل بيومند للحال الى فيروز يطالبه بانجاز ما وعد فارسل فيروز ابنه الى بيومند ليكون رهينة عنده معينًا الغد ميقاتًا لتسليم الابراج فاذاع الافرنج ان جيشهم سائر لقتال كربوغا وقبل المغيب اصطفت صفوفهم وسارت في الطريق ولما سدل ستار الظلام رجعوا نحو اسوار المدينة فدرى اخو فيروز بخيانة اخيه واراد كشف سره فطعنه فيروز بمدية نفذت الى قلبه وكان الظلام حالكًا والريح شديدة والحراس نيامًا آمنين فدلى فيروز سلمًا على الاسوار فاصعد بيومند على السلم ضابطًا اسمه بيان فقال له فيروز كل شيء معد فتعالوا واراه جثة اخيه للتوثق بقوله ومع ذلك اعترى الجنود الهلع فترددوا عن التسلق فتسلق بيومند آملًا ان يتبع غيره آثاره فلم يقتفوه ولامه فيروز على ابطائهم فاسرع نازلًا محققًا لاصحابه ان لاخوف

فاخذوا يصعدون على السلالم فسلم فيروز اليهم الابراج الثلثة التي كانت بحراسته ثم استولوا على سبعة ابراج اخرى ودلهم فيروز على مدخل المدينة فدخلوا وانتشرت صفوفهم في شوارعها تصيح Dieu Le veut (هكذا اراد الله) ولما طلع الصباح ابصروا علم بيوموند يخفق على اعلى ابراج المدينة وانسل باغي سنان مستخفياً ولمان يصحبه بعض خدمه الى خارج المدينة حيث غشي عليه ولم يعد يستطيع ان يستمسك على جواده وخاف خدامه فتركوه وفيه رمق فمر به رجل ارمني احتز راسه واتى به الى الافرنج في المدينة كما روى المورخون العرب وكان فتح انطاكية في غرة حزيران سنة ١٠٩٨ انتهى ملخصاً عن ريموند دي اجيل الذي كان في هذه الحرب وعن غوليلمس الصوري وغيرهما ممّن كتبوا تاريخ هذه الحرب

عـد ٨١٥

حصار المسلمين للافرنج في انطاكية

نذكر اولاً ما دونه المؤرخون المسلمون ثم نردفه بما قاله المورخون النصارى في هذه الحرب ولا يخفى ما في هذه الطريقة من تحقيق الاخبار فلا يبقى سبيل الى الريب في ما اتفق عليه فريقان مختلفان غرضاً ونزعة وموطناً وتيسير ترجيح الصحيح على الفاسد في ما اختلفا فيه وناهيك من تفصيل الاخبار ماخوذة عن عدة من الرواة

فنلخص حصار المسلمين للافرنج في انطاكية بعد فتحها عن ابن الاثير وابن خلدون وابي الفداء قالوا . لما بلغ كربوغا صاحب الموصل ما فعله الافرنج بانطاكية جمع عسكره وسار الى الشام واقام بمرج دابق واجتمع اليه دقاق بن تتش (وسماه بعضهم تنش بالنون وبعضهم تتش بالتاء ونظن هذه الرواية اصح) صاحب دمشق وطغتكين اتابك (هذه الكلمة بمعنى ابي الامراء وكان الملوك السلجوقيون يلقبون بها بعض عمالهم وخلع بعض هؤلاء العمال الطاعة لمواليهم واستقلوا في اعمالهم ومنهم

الاتابك الذين انشاوا دولة في سورية وسيجي ذكرهم) وجناح الدولة صاحب حمص وهو زوج ام الملك رضوان(وقد مر بنا ذكرهم) وغيرهم من الامراء والقواد وساروا حتى نازلوا انطاكية وانحصر الفرنج بها بعد ان كانوا ملكوها اثني عشر يوماً وعظم خوفهم ولم يكن لهم ما يأكلونه وتقوت الاقوياء منهم بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر فارسلوا الى كربوغا يطلبون منه الامان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم ما طلبوا وقال لا تخرجوا الا بالسيف واساء كربوغا السيرة في من معه من المسلمين واغضب الامراء وتكبر عليهم فخبثت نياتهم عليه واضمروا له في نفوسهم الغدر ولما ضاق على الافرنج الامر وقلت الاقوات خرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين فولى المسلمون هاربين وكثر القتل فيهم ونهب الافرنج خيامهم وتقووا بالاقوات والسلاح وعن ابن الاثير خاصة انهم خرجوا من الباب متفرقين من خمسة او ستة ونحو ذلك فقال المسلمون لكربوغا ينبغي ان تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فقال لا تفعلوا امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم جميعاً ولما تكامل خروج الافرنج ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغا اولاً من الاستهانة والاعراض عنهم وثانياً من منعهم عن قتل الافرنج وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب احد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهزم كربوغا معهم وظن الافرنج ذلك مكيدة اذ لم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا ان يتبعوهم وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة فقتل الافرنج منهم الوفاً وغنموا ما في العسكر من الاقوات والاموال والاثاث والدواب والاسلحة فصلحت حالهم وعادت اليهم قوتهم

وانبأنا ابن الاثير ايضاً بما ذكره كثيرون من مؤرخي النصارى كما سياتي وهو وجدان الافرنج حينئذٍ الحربة التي طعن بها جنب المسيح فقال وكان مع الافرنج راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم ان المسيح عليه السلام كانت

له حربة مدفونة بالقسيان الذين بانطاكية وهو بناء عظيم فان وجدتموها ظفرتم وان لم تجدوها فالهلاك محقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة فيه وعفا اثرها وامرهم بالصوم والتوبة ثلثة ايام وفي اليوم الرابع حفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر فقال ابشروا بالظفر فخرجوا في اليوم الخامس الخ

واما ما رواه المؤرخون النصارى فهو ان الافرنج بعد ان دخلوا انطاكية عكفوا على الطرب والقصف واقام الكبراء مراقص ونسوا الله الذي اسبغ عليهم احسانه ولكن ما لبث الطرب ان تولاه الكرب فانهم مذ اليوم الثالث بعد دخولهم المدينة شاهدوا من اعلى الاسوار فرساناً ترمح نحو المدينة ومن ورائهم حشد غطت خيامه شواطي العاصي وكانت القلعة المنيعة ما برحت بيد المسلمين فخيم هذا الجيش حول انطاكية وقائدهم كربوغا امير الموصل ولم يكن للافرنج وقت لاعداد الاقوات فكانت فيهم مجاعة اكلوا بها الحمير والخيل والبغال والجمال بل الجلود العتيقة ايضاً وكان عند الدوك غودفروا قليل من المون وزعه على الاخرين ولما نفد لم يبق له الا ان يعزيهم ويشجعهم بكلامه وفر بعضهم واسلم بعضهم طلباً للقوت ومات بعضهم جوعاً وقتل المسلمون بعضهم وفر اسطفانس كونت بلوا (بافرنسة) وسار بطريق اوروبا فالتقى بالكسيس ملك الروم قادم لنجدة الافرنج بمئة الف جندي يصحبه عشرة الاف لاتيني بامرة كوي اخو بيومند فاخبره بحصار كربوغا انطاكية وبكثرة جيشه وقال ليبرىء ساحته من عار الهزيمة انه لو دفع جيش الملك قوتاً لجيش كربوغا لما ناب كل جندي منه فلذة صغيرة فارتاع الكسيس او تظاهر بالارتياع فعدل عن مسيره وعاد الى قسطنطينية ولم يوقفه عن العود تضرعات اخي بيومند اليه واستحوذ اليأس والقنوط على الافرنج بانطاكية حتى اضطر بيومند ان يحرق بعض البيوت ليخرج الرجال منها وقال غوليلمس الصوري ان كثيرين منهم اوشكوا ان يكفروا به تعالى ويتذمروا من انه كافأ تحملهم المشاق حباً به باهماله

لهم في هذه الشدائد المبرحة وظهر بينهم من يدعي انه كانت لهم مناظر سموية شاهدوا فيها يسوع المسيح ووالدته والقديس اميروسيوس ونفوس من قتلوا في الحرب يحققون لهم النصر والظفر قريباً واستحلفهم اوعز سفير البابا بالايمان عن صحة ما يزعمون فحلفوا وعزا بعض المؤلفين الحدثاء النصارى هذه المناظر الى مخيلتهم التي قام فيها ان الله لا يترك من تجندوا حباً به وقاسوا هذه المشاق والمخاطر دون آية سموية تفرج ضيقتهم وتزيل بوسهم وحقق اخرون ان ما هذه المناظر الا رؤى سموية لا تستغرب على قدرة من هو على كل شيء قدير او على رافته بعباده في هذه الضيقة القصوى وترى حالهم تغيرت بعد هذه المناظر واقسم روساوهم الا ينفكوا عن القتال والجهاد الى ان ينقذوا اورشليم

واتى كاهن من ابرشية مرسيليا اسمه بطرس برتلمي الى مجلس رؤساء الجيش فقرر ان القديس اندراوس الرسول ظهر له ثلاث مرات وامره قائلاً اذهب الى كنيسة اخي بطرس في انطاكية واحفر في جانب المذبح الكبير فتجد الحربة التي طعن بها جنب المخلص وهي تنجي هذا الجيش وتنصره كاما جعلوها علماً في مقدمة رجالهم واستحلف سفير البابا هذا الكاهن فحلف على صحة قوله وفرض الصوم والصلوة ثلثة ايام ثم عينوا اثني عشر رجلاً من الكهنة والفرسان الثقات وفي جملتهم ريموند دي اجيل المورخ الذي كتب هذا الخبر مفصلاً للعناية بهذا الكشف فاشتغلوا عدة من الفعلة في الحفر في المكان المعين فحفروا اكثر من اثني عشر قدماً وعند المساء ظهرت تلك الحربة قال ريموند المذكور لما ظهرت هذه الحربة بادرت انا كاتب هذه الخبر الى تقبيلها بكل عبادة وورع وانتشرت البشرى في الجيش فانستهم الجوع وازالت الخوف من قلوبهم واصبح الضعيف منهم بطلاً والوغد كمياً وارسلوا بطرس السائح الى كربوغا يقول له « انصرف عن المدينة ولك ثلثة ايام تستعد فيها للرحيل وان ابيت واصررت على الحصار فجنود النصارى لا يباغنون عدوهم ولا

يسترقون النصر بالخديعة فيبيحونك اختيار الحرب ان شئت وان احببت حجب اراقة الدم الكثير فاختر عددًا من شجعان جيشك وهم يختارون عددًا يوازيه من جيشهم وقاتل انت ان شئت احد امراء النصارى والله يولي النصر من شاء وان شئت الحرب عامة فنبه الى ذلك باشارة ۰ فلما سمع كربوغا هذا الكلام لبث مدة صامتاً مدهوشاً محتدماً من هذه الجسارة ثم قال قل لمن ارسلك ان على المغلوب ان يقبل الشروط التي توضع عليه لا ان يفترض شروطاً فمثلهم من الصعاليك الاوغاد يروعون النساء بخزعبلاتهم واما رجال الحرب في اسيا فلا يهولهم سقط الكلام وسيعلم النصارى ان هذه الارض ارضنا ومع ذلك ساراف بهم ان اسلموا وانا ناسي ان هذه المدينة جعلتها المجاعة في حوزتنا فقل لاصحابك ان يسرعوا باغتنام عفوي والا اخرجتكم بالسيف من انطاكية واراد بطرس السائح ان يجاوب فمد كربوغا يده الى سيفه وامر ان اطردوا هؤلاء الاوغاد فعاد بطرس يخبر قومه بما كان في وفادته واستعدوا للقتال

وصرف الجيش ليلته بالصلوة وتقدم منهم في الصباح مائة الف الى مائدة الخلاص وخرجوا منقسمين الى اثني عشر صفاً وفي مقدمتهم ريموند المؤرخ حاملاً الحربة التي وجدوها وساروا الهوينا ولما رآهم كربوغا ظن انهم خرجوا طالبين عفوه لكنهم راوا علماً اسود على قلعة انطاكية وكان علامة لما يعتمد عليه الافرنج فعلم انهم خرجوا محاربين وكان من جيشه الفا رجل يحرسون معبر العاصي فهزمهم الافرنج عند دنوهم من المعبر فاوقعوا الرعب في قلوب سائر الجيش فاخذوا بالفرار فقطع كربوغا راس احد الفارين عله يوقفهم وارسل يقول لامراء الافرنج ان يحجبوا الدماء ويختاروا عددًا منهم وهو يختار عددًا موازياً فيقتتل الفريقان وكان ابى هذه الطريقة في الامس فانكرها عليه الافرنج اليوم واستعرت نار الحرب ولم تكن ساعة الا وانهزم جيش كربوغا وسابقهم هو الى الفرار واستمر ولهان الى ان

عبر الفرات وكان في معسكره كثير من المون والاسلحة والملابس فظلوا اياماً ينقلونها الى انطاكية وقتل من الافرنج في هذه الوقعة اربعة الاف رجل . ولما راى من كان في القلعة من رجال المسلمين ما كان في جيش كربوغا استسلموا الى رؤساء الجيش وتنصر بعضهم وذهب بعضهم يروون ما راوا من سطوة الافرنج وكثرة عديدهم في انحاء سورية حتى تملك الرعب قلوب السوريين وقال ريموند دي اجيل لو مشى الصليبيون نحو اورشليم على اثر انتصارهم لما وجدوا من يعترضهم او يناوئهم لكنهم صرفوا اهتمامهم الى اعادة البطريرك يوحنا الى كرسيه وكرامته وفتحوا الكنائس واقاموا الكهنة فيها وخصوا نصيباً من غنائمهم من معسكر كربوغا بشراء آنية للكنائس وتجهيزها وانفذوا رسائل الى اصحابهم في المغرب يبشرونهم بما كان لهم من توفيق الله ويحضونهم على اللحاق بهم لمشاطرتهم الفخر والاجر وكان الكثيرون منهم يرون ان يسيروا للحال الى اورشليم ومن هؤلاء الدوك غودفروا على ان الكثيرين من روساء الجيش ارتأوا ان ينتظروا مرور ايام الحر اذ كانت الوقعة المذكورة في حزيران ويرجئوا سفرهم الى ايام الخريف فاصابهم وباء مات به في شهر واحد خمسون الف نفس واعظم من اسفوا عليه حينئذٍ اويمر اسقف بوي سفير البابا ودفنوه في كنيسة القديس بطرس بانطاكية في المحل الذي وجدوا فيه الحربة المذكورة . انتهى ملخصاً عمن كتبوا تاريخ هذه الحروب من المؤلفين المعاصرين لها او شهدوها كريموند دي اجيل وغوليلمس الصوري

عد ٨١٦

ذيل في اقوال العلماء في الحربة التي وجدت حينئذٍ في انطاكية

ان كثيرين من المؤلفين الذين كانوا في جملة الافرنج الصليبيين او المعاصرين لهم وغيرهم أثبتوا ان هذه الحربة هي الحربة نفسها التي طعن بها الجند جنب المخلص وهو على الصليب معتمدين على ان الكشف عنها كان بوحي ومويدين رايهم بالآيات

التي اجراهـا الله بواسطة هذه الحربة على ان بعض اهل النقد منهم بايل وجول سيمون وتيار وغيرهم ممن هم على شاكلتهم من علماء هذا العصر قد انكروا انها الحربة نفسها التي طعن بها جنب المخلص فلم نرَ ان نغضي عن هذا المبحث صامتين بل ان نورد في هذا الذيل اقوال المؤرخين والعلماء في هذا الصدد

ان اندراوس اسقف كريت الذي كان في القرن السابع انبأنا (في مقالته في ارتفاع الصليب فصل ٥) ان الحربة التي طعن بهـا جنب المخلص دفنها اليهود مع الخشبة التي صلب عليها وغيرهما من ادوات الصلب وقد حقق كثيرون ان القديسة هيلانة والدة الملك قسطنطين الكبير وجدت عند تنقيبهـا عن خشبة الصليب ثلاثة صلبان والحربة والمسامير ولم نعد نعلم ما كان من امر هذه الحربة الى ان تكلم فيهـا القديس غريغوريوس اسقف طور (بافرنسة) في القرن السادس وعدها (في كتابه في مجد الشهدا فصل ١٧) من جملة الذخائر الموجودة في ايامه وانبأنا بيدا المكرم في القرن التاسع (في كتابه في الاماكن المقدسة) انهـا كانت محفوظة في اورشليم في صليب من خشب بكنيسة القبر المقدس ثم وجدت هذه الحربة في كنيسة القديس بطرس بانطاكية كما رايت وحقق وجدانها واثبت انها الحربة نفسها التي طعن بها جنب المخلص ريموند دي اجيل الذي كان في جملة الموكول اليهم الكشف عنهـا والذي كان يحملها عند جمانهم على جيش كربوغا وقد اكد ذلك روبرتس كنت فلاندرا في رسالة الى امرأته موصياً اياهـا ان تبني ديرًا اكراماً للقديس اندراوس لانه هداه الى المحل الذي كانت فيه الحربة التي طعن بهـا المخلص وهذه الرسالة مثبتة في تواريخ فلاندرا وحقق ذلك كاهن اسمه توداوودس **tudebudus** كان شاهدًا عيانياً لوجدان هذه الحربة وحملها كلم في القتـال وانتصارهم واودع ذلك كتابه الموسوم بتاريخ السفر الى اورشليم وقد اثبت تاريخه هذا دوشان في المجلد الرابع من مؤلفي تاريخ افرنسة وقد ذكر وجدان هذه الحربة انسلموس دي

ريبامون ribemont الذي توفي في حصار عرقا فانه كتب رسالة الى مناسا رئيس اساقفة رنس (بافرنسة) قال فيها ما ترجمته « بينا كنا في حالة تعيسة جدًا مدّ الله يد عونه لعبيده وهداهم بحنوه الى الحربة التي طعن بها جنب المخلص وكانت مخبؤة تحت بلاط كنيسة القديس بطرس وطولها يوازي طول رجلين ولما سعدنا بوجدان هذه الدرة الثمينة احيي الرجاء قلوبنا » وقد كتب رؤساء الجيش رسالة الى البابا اوربانس الثاني ومما قالوه فيها « قد ضايقنا الجوع وغيره من المحن الكثيرة حتى نحر كثيرون منا خيلهم وحميرهم التي كانت معهم واقتاتوا بها على ان رحمة الله لطفت بنا ونجدتنا فان القديس اندراوس اوحى الى احد عباد الله وهداه الى المحل الذي كانت الحربة التي طعن بها لونجينس جنب المخلص مخبوءة فيه فوجدنا هذه الحربة المقدسة في كنيسة القديس بطرس بانطاكية فهذا الاكتشاف واوحية اخرى كثيرة اعادت الينا قوتنا وشجاعتنا حتى ان من كان اليأس والرعب قد استحوذا عليهم عادوا موعبين نخوة وجسارة واخذ يحرض بعضهم بعضاً على القتال وبعد ان بقينا محصورين ثلثة اسابيع واربعة ايام اعترفنا بخطايانا يوم عيد القديسين بطرس وبولس وخرجنا من المدينة مصطفين للقتال وكنا اقل عددًا من جيش اعدائنا العرمرم حتى ظنونا نحاول الهرب لا اننا نستنزلهم للقتال »

وقد انبأنا ريموند دي اجيل المذكور والبر المورخ من اكس وغوليلمس اسقف صور انه وقع في جيش الصليبيين عند حصار عرقا خلاف في ما اذا كانت هذه الحربة هي الحربة التي طعن بها جنب المخلص فان ارنول خودى دوك نرمندية اخذ يذيع بينهم ان هذه الحربة ليست الحربة نفسها التي طعن بها جنب المخلص واستمال بعضهم الى رايه ولما سمع ذلك بطرس برتلمي الذي كان الوحي اليه بوجدانها احتدم واخذ يقسم على صحة ما كان من الوحي فانقسم الشعب فعرض عليهم بطرس المذكور ان يضرموا نارًا فيدخل هو فيها حاملاً الحربة فان نجا من النار ولم يمسه ضر

تحتم عليهم ان يصدقوا ان هذه الحربة هي هي الحربة التي طعن بها المخلص وان اهلكه النار فيريد ان يموت ضحية لكذبه فاضرموا نارًا عظيمة واجتمع العسكر والشعب واخذ هذا الكاهن الحربة وجثا فصلى ثم دخل النار المتاججة حافياً حاملاً الحربة ولبث مدة ثم خرج سالماً ولم يمسه ضر ولا حرق بجسمه او ثوبه فتهافت الشعب عليه بعضهم للتبرك به وبعضهم ليمتحنوا حقيقة حاله فآذوه اكثر من اذية النار له وقد ذكر بعضهم شهادات الكثيرين ممن شهدوا هذه الآية بانفسهم وقد اخذ الصليبيون هذه الحربة معهم من انطاكية الى اورشليم ثم نقلت هذه الذخيرة الثمينة من اورشليم الى قسطنطينية ثم باع بودوين الثاني فلذة منها الى البنادقة بمبلغ عظيم من المال كان في اقصى الحاجة اليه ثم شرى منهم القديس لويس ملك افرنسة هذه الذخيرة ووضعها في المعبد المعروف بالمعبد المقدس بباريس **La sainte chaqeLLe** واما ما بقي من هذه الحربة فاستمر محفوظاً في قسطنطينية في كنيسة القديس يوحنا الى ان فتح هذه العاصمة السلطان محمد الثاني الفاتح سنة ١٤٥٣ فامر ان تحفظ خزينة الملك وزينة الكنائس والذخائر وبعد وفاة السلطان محمد الثاني اختصم ابناه بايزيد وزيزيم وتغلب بايزيد على اخيه فتنحى اخوه في رودس عند رئيس الفرسان المسمى بطرس ابوسون فرغب بايزيد في ان يصادق الرئيس المذكور ليمنع اخاه من العود الى منازعته الملك وروى بوسيوس في تاريخ فرسان القديس يوحنا في اورشليم (ك ٧ فصل ٨) ان الرئيس المذكور حث السلطان بايزيد ان يهدي الى البابا اينوشنسيوس الثامن الحربة المقدسة فارسلها اليه بايزيد مع سفير ورافق هذا السفير كويدو بلانكفور ابن اخي بطرس الرئيس المذكور فبلغا الى رومية سنة ١٤٩٢ فارسل البابا كردينالاً لملاقاة هذا السفير ولما انتهوا الى رومة لاقى البابا هذه الذخيرة مصحوباً بالكرادلة وحشد من الكهنة والشعب الى الباب المعروف بباب الشعب واخذ الذخيرة بيده ووضعها في كنيسة القديس بطرس

وهذه الاخبار ماخوذة عن مذكرة كتبها ثلاثة علماء من الرومانيين دونوا فيها كل ما كان هناك في ايامهم وقد روى ذلك ايضاً الكردينال مرقس فيكوريوس الذي كان بانكونا (بايطاليا) عند ما مر سفير بايزيد حاملاً هذه الهدية النفيسة الى الحبر الروماني وقد فند الاب اونورا الكرملي كل ما ورد على هذه الذخيرة من الاعتراضات في مولفه في قواعد الانتقاد في المجلد الثالث منه انتهى ملخصاً عن معجم التاريخ لكوردان وعن معجم الصليبيين لاولت دومسنيل من طبعة الاب مين

عـد ٨١٧

في سير الافرنج من انطاكية الى اورشليم

لم يذكر المؤرخون الافرنج فتح المعرة وحمص وشيزر بعد انتصارهم بانطاكية ولكن ذكره ابن الاثير وابن خلدون وابو القدا فقالوا ما ملخصه لما انهزم المسلمون امام الافرنج عند انطاكية سار الافرنج الى معرة النعمان فنازلوها وحصروها وقاتلهم اهلها قتالاً شديداً فعمل الافرنج برجاً من خشب يوازي سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضر ذلك المسلمين ولكن تداخل بعضهم الفشل والهلع وظنوا انهم اذا تحصنوا ببعض الدور امتنعوا فيها فنزلوا من السور واخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه ورآهم غيرهم ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم ايضاً من السور وتبعهم غيرهم حتى خلا السور فصعد الافرنج اليه على السلالم ودخلوا المدينة واعملوا سيوفهم في اهلها ثلاثة ايام فقتلوا ما يزيد على مائة الف وسبوا السبي الكثير وملكوه واقاموا اربعين يوماً وساروا الى عرقا فحصروها اربعة اشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها وساروا الى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة وخرجوا على طريق النواقير الى عكا فلم يقدروا عليها هذا ما ذكره المؤرخون العرب المذكورون

واما ما وايناه في كتب المؤرخين الافرنج التي لدينا فهو انهم استمروا متربصين في

انطاكية ينتظرون حلول اجل سفرهم الى اورشليم في الربيع سنة ١٠٩٩ وكان بعض رؤساء الجيش يحملون حملات خصوصية على بعض المدن فربما كان من ذلك فتحهم المعرة ومصالحة والي شيزر وحمص لهم على هاتين المدينتين كما روى المؤرخون العرب ولما حل او فات ايضاً الميقات المضروب للسفر الى اورشليم كثر التذمر في الجيش الافرنجي من هذا الابطاء ولا سيما اذ بلغهم ان خليفة مصر الفاطمي سير جيشاً فاستحوذ على اورشليم قبل ان يسبقهم الافرنج اليها فعولوا على السير ومشى في مقدمة الجيش كنت تولوز ويصحبه من الرؤساء تنكراد وروبرتس كنت نرمندية وكان الرعب من سطوتهم وانتصاراتهم قد تولى قلوب سكان البلاد فبادروا الى ملاقاتهم النصارى ليستمدوا عونهم والمسلمون ليسألوهم العفو والرضى عنهم وكان الفريقان يقدمان للجيش ما يحتاجون اليه من المون والماوى وغيرهما وزادهم سروراً ان كثيرين من اخوانهم الذين كانوا يظنونهم قتلوا قد عادوا اليهم اذ كان المسلمون قد اسروهم فخلوا حينئذٍ سبيلهم وسافر غودفروا من انطاكية في اوائل اذار سنة ١٠٩٩ بما بقي من الجيش ورافقه اخوه بيومند الى اللاذقية وودعه وعاد الى امارته في الرها خائفاً ان يسطو عليها احد ولحقهم في اللاذقية من كانوا قد اعتزلوا في الرها وكيليكية واتصل بهم هناك كثير من فرسان الانكليز وهم من الاشراف واجازوا من اللاذقية بجبلة وطرطوس فدانتا لهم وخيموا حول عرقا جميعاً وهناك كان بينهم الخلاف الذي مر ذكره على الحربة التي وجدوها في انطاكية ولما فصل هذا الخلاف بالآية التي ذكرناها في العدد السابق وعادوا الى الوفاق اقبل عليهما وفدان احدهما بعد الاخر الاول من قبل الكسيس ملك الروم يجدد مواعيد الملك بانجاده لهم ويعتبهم لاهمالهم ما وعدوه به فازدروا رسله وابلغوهم عدم تفهم بكلام مولاهم وانه نقض وعوده السابقة بتقاعده عن امدادهم في انطاكية وكانوا قد كتبوا اليه انهم لا يرون انفسهم ملتزمين بحفظ وعودهم له لا خلاله بوعوده والوفد الثاني كان

من قبل خليفة مصر الفاطمي يبلغهم ان هذا الخليفة استحوذ على اورشليم وفلسطين ويحقق لهم انه لا ينوي بهم الا خيرًا لكنه لا يستطيع ان يفتح مذ الآن فصاعدًا ابواب اورشليم الا لحجاج اعزال لا سلاح معهم فلم يجاوب روساء الجيش وفد الخليفة المصري الا برفعهم الحصار عن عرفا وحرق معسكرهم واسراعهم بالسير الى اورشليم فمروا بجانب اطرابلس وقد اراد واليها ان يعترض لمسيرهم فهزموه واصحابه واضطر ان يدفع اليهم غرامة وكثيرًا من المون وان يخلي سبيل السجنى النصارى الذين كانوا في محبسه وقد راهم ما شاهدوه لاول مرة من قصب السكر ورطب النخل والليمون وغيرها من الثمار والاشجار التي لا توجد في اوربا واقبل اليهم جمع من النصارى سكان لبنان وهدوهم الى ثلث طرق يسيرون بها الى اورشليم طريق على ساحل البحر وطريق في وسط البلاد وطريق في سورية المجوفة فآثروا طريق الساحل لقربها كل وقت من اسطول بيزا وجنوا الذي كان يمدهم في طريقهم فمروا بالبترون وجبيل وكان نصارى لبنان يلتقونهم مقدمين لهم الازودة وكل ما يحتاجون اليه من المون لجامعة الدين بين الفريقين حتى كان الحبس يخرجون من محابسهم في الجبل ويأتون اليهم داعين لله ان يتيح التوفيق لهم وعند اجتيازهم ببيروت وصيدا وصور قدم لهم المسلمون ما يحتاجون اليه كيلا يسطوا على بساتينهم وجناتهم ولما انتهوا الى عكا خرج اليهم واليها واعدًا ومقسماً على انه يسلم لهم المدينة متى استحوذوا على اورشليم فجاوزوها الى قيصرية المعروفة بقيصرية فلسطين ووقعت في معسكرهم حمامة واخذوها فوجدوا تحت جناحها رسالة من والي عكا يخبر بها ولاة المدن المجاورة له بسير الافرنج ويحضهم ان يجمعوا من استطاعوا من الرجال لمناواتهم فقرئت هذه الرسالة في مجتمع الروساء فشكروا لله واستبسروا بان الله معتنٍ بهم اذ سخر طير السماء لتاتيهم بالكشف عما تكنه سرائر اعدائهم

واقاموا بهذه المدينة اربعة ايام احتفلوا بها لعيد العنصرة ثم ساروا فاستحوذوا

على اللد المسماة قديماً ديوسبولي والمشهورة باستشهاد القديس جيورجيوس شفيعهم فيها واقاموا اسقفاً في هذه المدينة ونصبوا له عدة كهنة واتفقوا ان يخصوا كنيسة هذه المدينة بعشر ما يغنمونه في حملتهم هذه ثم ساروا الى الرملة فانهزم سكانها خوفاً منهم الى الجبل فتولوها ووجدوا فيها ما سد حاجاتهم من مؤن وغيرها واقاموا فيها اسقفاً افرنسياً مولداً اسمه روبرتس مشهوداً له بعلمه وفضيلته

ولما عرف المسلمون بدنوهم من اورشليم هاج من كان ساكناً منهم على عدوتي الاردن وتخوم بلاد العرب ونابلس وتألبوا وساروا نحو اورشليم فنكلوا بالنصارى في طريقهم وغللوا بعضهم بالقيود وانتهبوا الكنائس والمعابد واحرقوها وسار جيش الافرنج من الرملة في وادٍ بين جبلين صعب المسلك مستوعر ولكن لم يعترضهم احد في طريقهم فاستبشروا بان الله معتنٍ بهم وبلغوا عند المساء الى قرية تسمى عناتوت وسماها غوليلمس الصوري عمواص وهي المعروفة الان بعيناتا (طالع عد ٢٧٦ في المجلد الثاني من هذا التاريخ) فباتوا تلك الليلة هناك فاقبل عليهم بعض النصارى المنهزمين يخبرونهم بان المسلمين تألبوا ووثبوا على قرى الجليل ونابلس وما جاور الاردن فنهبوا واحرقوا وقتلوا كثيرين من النصارى واوفد اهل بيت لحم الى الافرنج رسلاً يستغيثون بهم ويستمدونهم فسير غودفروا تنكراد بمائة فارس مدرع فاستقبلهم الاهلون بالاحتفاء والتكريم وذهبوا توًّا لزيارة المذود الذي ولد به المخلص ونشر تنكراد علمه على كنيسة المذود في الساعة التي ولد المسيح فيها

ولما كان الصباح سار جيش الافرنج من عيناتا نحو اورشليم ولما اشرفوا على اورشليم صاحوا يا اورشليم يا اورشليم وبكوا لفرط سرورهم قال المؤرخ روبرتس الراهب الذي كان في جملتهم (كتاب ٨ من صفحة ٧٤) يا يسوع كم من الدموع انهمرت من عيون جنودك عند رؤيتهم اسرار اورشليم الارضية فانهم اجمع خروا سجداً وحيوا بهتافهم واجسادهم قبرك المقدس فانت دفنت هناك وهم يسجدون

لك جالساً عن يمين الآب وسوف تاتي لتدين الاحيا والاموات. ثم نهضوا وكرروا الهتاف **Dieu le veut Dieu le veut** وجددوا حلف اليمين على انقاذ اورشليم ومشوا حفاةً نحو اورشليم مترنمين بقول النبي انهضي يا اورشليم وارفعي الحاظك وانظري الى المخلص الذي اتى ليكسر اغلالك الى ان خيموا حول المدينة. انتهى ملخصاً عمن ذكرنا من المؤرخين المعاصرين لهذه الاحداث

عد ٨١٨

في حصار اورشليم وفتحها

نذكر اولاً جرياً على عادتنا اقوال المؤرخين المسلمين ملخصة عن ابن الاثير وابن خلدون وابي الفداء قالوا . كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش ملكه من يد العلويين اصحاب مصر واقطعه للامير سقمان بن ارتق التركماني ولما توفي صارت القدس لولديه ايلغازي (وعن ابن خلدون ايلغاري بالراء) وسقمان فلما وهن الاتراك في موقعة انطاكية طمع المصريون في ارتجاعها فسيروا اليها جيشاً في مقدمته الافضل بن بدر الجمالي فحاصرها وفيها الاميران ايلغازي وسقمان اخوه وابن عمهما سونج (ويروى سونح) وابن اخيهما ياقوتي ونصبوا عليها نيفاً واربعين منجنيقاً فعطلوا بعض مواضع من سورها ودام القتال والحصار نيفاً واربعين يوماً وملكوها بالامان في شعبان سنة ٤٨٩ هـ سنة ١٠٩٧ م واحسن الافضل قائد جيش مصر الى ايلغازي وسقمان ومن معهما وساروا الى دمشق ثم عبروا الفرات فاقام سقمان ببلد الرها وسار ايلغازي الى العراق واستناب المصريون في القدس رجلاً يعرف بافتخار الدولة فلما وصل الافرنج اليه حصروه نيفاً واربعين يوماً ونصبوا على المدينة برجين احدهما من ناحية صهيون والاخر من جهة الشمال فاحرق المسلمون البرج الاول وقتلوا كل من به فاتاهم المستغيث بان المدينة قد ملكت من جهة الشمال ولبث الافرنج في البلدة اسبوعاً يقتلون فيه المسلمين واختفى جماعة منهم بمحراب داود

فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة ايام فبذل لهم الفرنج الامان فسلموا اليهم ووفى الفرنج لهم فخرجوا ليلاً الى عسقلان فاقاموا بها وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على خمسين الفاً منهم جماعة كثيرة من الايمة والعلماء والعباد والزهاد ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الوضع الشريف واخذوا من عند الصخرة نيفاً واربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستماية درهم وماية وخمسين قنديلاً من الصغار وتنورًا من فضة وزنه اربعون رطلاً بالشامي ونيفاً وعشرين قنديلاً من الذهب الى غير ذلك من الغنائم . وكان فتح القدس سنة ٤٩٢ هـ سنة ١٠٩٩ م

وورد المنهزمون من الشام الى بغداد صحبة القاضي ابي سعد الهراوي فاوردوا في الديوان كلاماً ابكى العيون واوجع القلوب وقاموا بالجامع فاستغاثوا وبكوا وابكوا ولشدة ما اصابهم افطروا في رمضان فامر الخليفة ان يسير القاضي ابو محمد الدامغاني وابو بكر الشاشي وابو القاسم الزنجاني وغيرهم الى السلاطين السلجوقية فرقع الخلف بين هولاء السلاطين فتمكن الافرنج من البلاد وقال في ذلك المظفر الابيوردي ابياتاً منها :

مزجنا دماء بالدموع السواجمِ فلم يبق منا عرضة للمراحمِ (١)
وشر سلاح المرء دمع يفيضه اذا الحرب شبت نارها بالصوارمِ
وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات ايقظت كل نائمِ
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ظهور المذاكي او بطون القشاعمِ
يسومهم الرومُ الهوان وانتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالمِ
وكم من دماء قد ابيحت ومن دمى توارى حياء حسنها بالمعاصمِ
اترضى صناديد الاعاريب بالاذى وتغضي على ذل كماة الاعاجمِ
فليتهم اذ لم يذودوا حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحارمِ

(١) ويروى عرصة للمراجمِ

اما الذي رواه المؤرخون النصارى ممن شهدوا هذه الحرب او عاصروها فهو ان الافرنج اخذوا منذ بلوغهم الى اسوار اورشليم يستعدون لحصارها فخيم غودفروا وروبرتس كنت نرمندية وروبرتس كنت فلاندرا في شمالي المدينة في ناحية جبل الزيتون وتنكراد في ميمنتهم وبجانبه ريموند كنت تولوز تجاه الباب الغربي ثم اقام فريقاً من عسكره في جنوب المدينة بجانب جبل صهيون واستمرت جهة المدينة الشرقية خالية من عسكر لكنهم اقاموا مخفرًا على جبل الزيتون وخرج بعض النصارى من المدينة يشكون الى الافرنج سوء حالهم وتضييق المصريين وما اجروه من العذاب عليهم وما نهبوه من كنائسهم ودورهم فزاد ذلك الافرنج حمية وحماسة وفر البطريرك سمعان الى قبرس وكان في المدينة من جيش المصريين اربعون الفاً وتجند من سكانها عشرون الفاً فكان هذا العدد يربو على عدد الافرنج المقاتلين الذين بلغوا اورشليم ولم يكن معهم سلالم ولا ادوات للحصار ومع ذلك هاجموا المدينة فنقضوا السور الخارج وكان السور الداخل منيعاً فلم يقووا عليه ولم يكن معهم الا سلم واحد يوازي علو السور فتسلق عليه بعض الشجعان وقاتلوا المصريين وجهاً لوجه فتراكم المصريون عليهم وقتلوا بعضاً وحذفوا بعضاً الى اسفل فماتوا وارسل الافرنج شراذم منهم تفتش على اخشاب لاصطناع سلالم وادوات للحصار فعثروا في مغارة على اخشاب ضخمة فاتوا بها الى المعسكر ونقضوا بعض البيوت واخذوا اخشابها وكان بعض المتحمسين يدنون من الاسوار ويقبلون احجارها باكين وقائلين يا اسوار اورشليم اسقطي علينا وليغط غبارك عظامنا وانتهى اليهم وهم على هذه الحال السيئة ان اسطولاً من جنوا بلغ مرفا يافا مشحوناً ذخرًا ومعدات للقتال فسار للحال منهم ثلث مئة رجل بامرة ريموند بالت فالتقاهم شرذمة من الاعداء في اللد فهزموها وشتتوا شملها وبلغوا يافا فوجدوها خالية من السكان وراوا ان اسطولاً مصرياً سطا على الاسطول الجنوي والقى النار فيه على انهم

استطاعوا بجهدهم ان يخرجوا من السفن المون وكثيرًا من الادوات اللازمة لاصطناع المناجيق وغيرها من ادوات الحرب فاتوا بها الى اورشليم يصحبهم عدة من المهندسين والنجارين ثم اخذ تنكراد كتيبة من جنده فجال بها فعثر على بعض اميال عن اورشليم على غابة جلبوا منها ما لزمهم من الاخشاب وانكبوا ليلاً ونهارًا على اصطناع الادوات حتى كان الامراء انفسهم يبارون الفعلة في عملهم وفي جملة ما صنعوه ثلثة ابراج تحركها الات وهي منقسمة الى ثلث طبقات يقوم في الاولى العملة الذين يحركون البرج وفي الثانية والثالثة المحاربون وكانت هذه القلاع المتحركة ارفع من اسوار المدينة وقبل ان يشرعوا بحصار المدينة حضهم الاساقفة والكهنة على التضرع الى الله بالصوم والصلوة والتصدق ثم هاجموا المدينة في اليوم الثالث عشر من تموز سنة ١٠٩٩ فكانت الحرب سجالاً وفي اليوم التالي بكروا الى القتال واشغلوا الرجال وادوات الحرب ودنت الابراج المتحركة من اسوار المدينة وكان غودفروا في اعلى احدها يصحبه اخوه اوستاش وبودوين دي بورج فلا يخطىء سهم لغودفروا وابدى سائر الرؤساء ايات البسالة محاربين في مقدمة جنودهم غير مبالين بالخطر ودامت الحرب متسعرة اثنتي عشرة ساعة الى ان فصل الظلام بين المتحاربين ثم عاد الفريقان الى القتال صبح اليوم التالي بعزيمة اشد من الجلمود واقتحم الافرنج اسفل الاسوار غير مبالين بما يقذفه المسلمون من النار من اعلاها وحاول بعضهم نقض الاسوار وبعضهم التساق عليها فازداد المسلمون حماسة وحمية واكثروا من قذف النار عليهم وعلى ابراجهم الخشبية وسائر ادواتهم حتى التهبت ولا ماء ولا خل لهم لاطفائها فمات من الفرنج كثيرون بالنار والسهام وتولاهم اليأس وظنوا ان الله اهملهم وقيل ان القديس جيورجيوس ظهر لهم بهيئة فارس يرمح برمحه ويشير اليهم ان يدخلوا المدينة وقد يكون غودفروا وريموند قالا ذلك للجنود ليوقظا بهم الشجاعة فانتعشوا وعاودتهم الحمية واسرعت النساء والاحداث

والمرضى انفسهم الى محل المعركة حاملين الماء والزاد والسلاح ومعاونين الجنود على ادناء ما سلم من الابراج المتحركة الى الاسوار واخذوا يرمون منها الاحجار والنار على ادوات اعدائهم وعلى جوالق التبن واكياس العشب الموضوعة وراء الاسوار فالتهبت واثار الهواء لهيبها نحو المسلمين فهرعوا من النار والدخان وامسوا عرضة لسهام الافرنج وسيوفهم فنزل غودفروا وكثير من الرؤساء والشجعان من ابراجهم الى الاسوار ثم الى المدينة وتتبعوا المصريين في الاسواق فقتلوا كل من وصلوا اليه ولما راى تنكراد ورويرتس ما كان دخلا ببعض الشجعان الى المدينة من نافذة فتحاها وبتسلقهم الاسوار وفتح غودفروا وتنكراد الباب المعروف بباب القديس اسطفانس فدخل به فريق اخر من الصليبيين فانهزم المسلمون فتشتتوا في كل ناحية وتعاظم في اورشليم الهتاف **Dieu Le veut Dieu Le veut** واعتصم بعض المسلمين ببرج داود مع اميرهم ولجأ بعضهم الى جامع عمر فتتبعهم الفرنج وقتلوهم وقال ريموند دياجيل الذي كان شاهدًا عيانيًا ان الدم الجاري في رواق الجامع كان يبلغ لركبة الرجل وقالوا ان عدد القتلى في ذلك اليوم وما بعده بلغ الى سبعين الف قتيل وقد رأيت قول المؤرخين المسلمين ان عدد القتلى في المسجد الاقصى يزيد على خمسين الفًا وعن ابي الفداء سبعين الفًا وكان فتح اورشليم في ١٥ او ١٦ تموز سنة ١٠٩٩

وبعد الظفر ساروا حفاةً مكشوفي الرؤوس الى كنيسة القيامة باحتشاء واخبات وخشوع وانصات يشكرون الله على ما اولاهم وصرفوا قسماً من الغنائم التي اخذوها في اغاثة الفقراء والايتام وفي زينة المذابح التي اقاموها وقناديل الفضة والذهب التي غنموها من الجامع الاقصى وقعت في نصيب تنكراد فصرفها بعد المفاوضة مع غودفروا في سبيل عمل المبرات وكان نصارى اورشليم اخفوا ما كان فيها من خشبة الصليب ثم اظهروها للصليبيين فطيف بها في اورشليم بصنوف

التجلة والخشوع

وبعد عشرة ايام من فتحهم اورشليم اخذوا يتفاوضون في من يملكونه في اورشليم وعولوا على ان يختاروا عشرة رجال من نخبة الاكايروس والجند وفرضوا صوماً وصلوات وصدقات ليلهمهم الله الى انتخاب ملك يدبر شؤون هذه المملكة الحديثة وحلف المختارون العشرة امام الجنود على انهم لا يراعون في انتخابهم الا المصلحة نابذين كل غرض خاص وكل ميل او نفع شخصي واستطلعوا اولاً اراء الجنود في كل من رؤسائهم وقال غوليلمس الصوري انهم سالوا اسرات الرؤساء وخدامهم واستحلفوهم ليثبتوا لهم ما يرونه في اداب كل من المرشحين وما يعتقدونه في سيرتهم وخصالهم واميالهم واطوارهم وبعد التنقيب والتروي المديد نادوا بغودفروا دوك لوران ملكاً على اورشليم فتقبل الجنود هذه التسمية بالبهجة والسرور وشكروا الله واخذوا الملك بالاحتفاء الى كنيسة القبر المقدس حيث اقسم على ان يرعى سنن الشرف والعدل وابى ان يكلل بتاج من ذهب في مدينة كلل فيها المخلص باكليل الشوك واقتصر على ان يسمي نفسه بارون ومحامي القبر المقدس كما صنع كرلس الكبير الذي هو من سلالته اذ دعا نفسه محامي كنيسة الله ومعاوناً حقيراً للكرسي الرسولي . انتهى ملخصاً عن كثير من كتب المؤرخين الافرنج الذين اعتمدوا على تواريخ المعاصرين

عـــد ٨١٩

وقعة عسقلان وغيرها الى وفاة غودفروا ملك اورشليم

ذكر ابن الاثير وقعة عسقلان فقال « في هذه السنة (اي سنة ٤٩٢ = ١٠٩٩ م) في رمضان كانت وقعة بين العساكر المصرية والفرنج وسببها ان المصريين لما بلغهم ما تم على اهل القدس جمع الافضل امير الجيوش العساكر وسار الى عسقلان وارسل الى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم فاعادوا الرسول بالجواب

ورحلوا على اثره وطلعوا على المصريين اذ لم يكن عندهم خبر من وصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على اهبة القتال فنادوا الى ركوب خيلهم ولبسوا اسلحتهم واعجلهم الفرنج فهزموهم وقتلوا منهم من قتل وغنموا ما في العسكر من مال وسلاح وغير ذلك وانهزم الافضل فدخل عسقلان ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز فاحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج منه وعاد الافضل في خواصه الى مصر ونازل الفرنج عسقلان وضايقوها فبذل لهم اهلها قطيعة اثني عشر الف دينار وقيل عشرين الف دينار ثم عادوا الى القدس . وقد عثرنا على اخبار هذه الوقعة من جهة الفرنج في الرسالة التي رفعها غودفروا ملك اورشليم وغيره من رؤساء الجند والاكليرس الى البابا بسكاليس الثاني سنة ١١٠٠ واليك ملخص ما قالوا عن هذه الوقعة . انتهى الينا ان ملك بابل (يريدون ملك مصر) اتى الى عسقلان في جيش يشذ عن العد متهددًا ان يأسر الفرنج الذين يحمون اورشليم ويستولي على انطاكية ولما تيقنا صحة الخبر سرنا لملاقاة المصريين وتركنا في اورشليم جرحانا وحامية كافية ولما التقى الجيشان جثونا وابتهلنا الى الله لينصرنا على اعدائنا ويرفع شان كنيسته فاستجاب الله دعواتنا وخولنا الشجاعة حتى كنا نرى جنودنا يتسادعون الى اقتحام نار الوغى كغزلان ظمأى وامامها ماء قراح ولم يكن عسكرنا يجاوز خمسة الاف فارس وخمسة عشر الف راجل وجيش العدو لا يقل عن مئة الف فارس واربع مئة الف راجل فشمل الله عبيده بقدرته فانهزم امامنا هذا الجيش العرمرم قبل ان يقاتلنا وكانهم اعزال لا سلاح معهم فاستحوذنا على خزائن ملك مصر وتتبعنا اثر جنوده فقتل منهم نحو مئة الف وغرق كثيرون منهم بالبحر وكان رعبهم شديدًا حتى مات منهم الفا رجل لازدحامهم على الدخول بباب عسقلان ولو لم يتشاغل جنودنا بانتهاب معسكرهم لما تركوا منهم من يخبر . ومما يدعو الى العجب انا كنا في الامس اخذنا الوفاً من

الجمال والبقر والغنم فامر رؤساء الجنود ان يتركوها ويتفرغوا للقتال فتركوها لكن هذه الماشية لم تتركنا فكانت تقف حيث وقفنا وتسير حيث سرنا وكان الغمام يقينا حر الشمس والنسيم يروح قلوبنا فشكرنا الله على هذا الظفر وعدنا الى اورشليم » وقد ذكر المؤرخون العيانيون هذا الظفر واعتدوه عجيباً وقالوا ان قطعان الجمال والبقر والغنم المار ذكرها توهمها المصريون جنودًا في ساقة عسكر النصارى. وقال ريموند دي اجيل ان جنودنا كانوا حينئذٍ يزدادون حمية وسرورًا كلما دنوا من جيش المصريين. وقال البر من اكس انهم مضوا الى هذه الحرب كمن يمضي الى عرس او الى مادبة طرب وكان امير الرملة المسلم يعاون عسكر النصارى فدهش من حمية الافرنج وجدّ لهم في اقتحامهم المخاطر واباح بدهشته الى غودفروا واقسم على انه يتنصر حباً بهذا الدين الذي يولي مثل هذه الشجاعة

وعزم بعض رؤساء الصليبين على العود لاوطانهم فعادوا واثقين بان حكمة غودفروا وبسالة تنكراد تستتم مهمتهم وجزم غودفروا ان يؤمّن مملكته ويبسط تخومها فسير تنكراد الى الجليل فاستولى على طيبارية وعدة مدن على ضفتي الاردن فنصب حاكماً فيها وحاصر غودفروا مدينة اسوف على شاطي البحر فاقبل للسلام عليه امراء من جبال نابلس والسامرة وقدموا له هدايا من التين والزبيب وراوا ملك اورشليم جالساً على جوالق محشو بالتبن ولا حرس حوله فابدوا تعجبهم من ذلك فاجابهم غودفروا من الارض جبلنا وفي قلبها مسكننا بعد الموت فكيف تأنف ان نجلس عليها في هذه الحياة فازدادوا عجباً من هذا الجواب ايضاً

وبلغ غودفروا ان اخاه بودوين كنت الرها وبيمند امير انطاكية قادمان الى زيارة الاماكن المقدسة في اورشليم يصحبهما عدد غفير من الفرسان والجنود وزايرون اخرون من المغرب بلغ عددهم العشرين الفاً فاحتفى غودفروا باخيه ومن رافقوه وابدى لهم صنوف التكريم مدة الشتاء كلها وكان في جملة الزائرين واتبر

اسقف بيزا ارسله البابا بسكاليس الثاني قاصدًا خلفًا لاويمر الذي توفي في انطاكية ومات حينئذٍ سمعان بطريرك الروم في اورشليم وكانت وفاته بقبرس فانتخب اويمر بطريركًا فلم يقبل البطريركية الا مكرهًا كما قال عن نفسه في رسالة كتبها الى بيومند فخلع هذا البطريرك على غودفروا خلعة الملك على اورشليم وعلى بيومند خلعة الامارة في انطاكية

واغتنم غودفروا فرصة وجود الامراء اللاتينيين في اورشليم ليسن دستورًا ونظامًا لتدبير مملكته فجمع رجالاً علماء واتقياء وعهد اليهم ان يفرضوا سننًا للملكة على منهاج سنن الافرنج فوضعوا هذه السنن منها ان يكون للعدلية مجلسان احدهما يرؤسه الملك واعضاؤه من الشرفاء ويفصل الدعاوي التي تكون بين كبار العمال • والثاني يتولى ادارته حاكم اورشليم واعضاؤه من وجوه كل من المدن وينظر في دعاوى اصحاب الاملاك والعامة وحقوقهم واقيم مجلس ثالث ينظر في دعاوى النصارى الشرقيين وكانت قضاته ممن ولدوا في سورية ويتكلمون بلغة اهلها والحكم فيه بموجب شرائع البلاد وعاداته فشرائع غودفروا هذه قد زاد عليها ونقحها من خلفوه في الملك ووضعت في كنيسة القيامة وسموها مجالس اورشليم وبمقتضى هذا النظام كان الملك واحدًا غير متجزىء يتصل اليه بالارث ولو كان الوارث انثى واذا لم يكن وارث فللعلية الاكابرس ورؤساء اصحاب الاقطاعات ان يختاروا ملكًا ويلزم الملك ان يقسم على رعاية النظام قبل ان يقر له بالملك اصحاب الاقطاعات وان يتوجه البطريرك

وكان غودفروا ياتي متواترًا لنجدة تنكراد في حروبه مع امراء الجليل واتصل احيانًا بحملاته الى ما وراء لبنان حتى دمشق وغزا حوران وعاد ظافرًا وآسرًا كثيرين وغانمًا خيولاً وجمالاً واشتهر في سطوته وحكمته حتى كان القوم يشبهونه بيهوذا المكابي غيرة وبشمشون قوة وسليمان حكمة وقضى الفرنج والروم والمسلمون

ان مملكته سوف تدوم ادهاراً على ان الله لم يفسح باجله فقد اعتراه مرض عند عوده من احدى حملاته لازمه خمسة اسابيع لم ينقطع فيها عن تدبير مهامه وبانه وهو محتضر اخذ مدينة حيفا فكان ذلك خاتمة انتصاره واخر مسراته في هذه الدنيا واعترف اعترافاً عاماً بخطاياه ونال سائر اسرار الكنيسة ومضى للقاء ربه في ١٧ تموز سنة ١١٠٠ بعد فتح اورشليم بسنة واحدة ودفن في كنيسة القبر المقدس في اسفل الجلجلة

﴿ عدد ٨٢٠ ﴾

في انتخاب بودوين ملكاً وبعض الاحداث في ايامه

بعد وفاة غودفروا لم يخلُ امر الخلافة له من مصاعب فقد كان غودفروا تخلى في حياته للبطريرك وايبر المار ذكره عن حي كنيسة القبر المقدس في اورشليم وعن ربع في مدينة يافا فادعى البطريرك ان الملك المتوفى تخلى له في اخر حياته عن اورشليم كلها وخالفه رؤساء الجنود والشعب واختاروا بودوين اخا غودفروا الذي كان اميرًا في الرها فتخلى بودوين عن امارة الرهـا لابن عمه بودوين دي بورج وسار الى اورشليم في سبعماية فارس وسبعماية راجل فالتقاه عسكر في مضايق فونيقي وارادوا قطع الطريق عليه فانتصر عليهم وعن ابن الاثير : ان الذي التقاه الملك دقاق صاحب دمشق ومعه الامير جناح الدولة صاحب حمص . وعن البطريرك اسطفانس الدويهي ان محل اعتراضهم له كان معبر نهر الكلب ولما دنا من اورشليم خرج الى لقائه الشعب والاكايرس ومعهم النصارى الشرقيون بالمصابيح والصلبان يسبحون الله ويعظمون ملتقى ملكهم الجديد واخذوه بعظيم الاحتفاء الى كنيسة القبر المقدس

ولم يلبث بودوين في اورشليم الا اسبوعاً والب فرسانه ونخبة جنده وسار طالباً عدوًا يبكته او ارضاً يملكها ونكل ببعض المسلمين الذين يهينون حجاج اورشليم

او يسلبون مالهم ثم توجه نحو حبرون (الخليل) والبحر الميت واجتاز في الجبال الى ان انتهى الى المحل الذي ضرب فيه موسى الصخرة فجرت المياه والى البرية التي بين بلاد ادوم ومصر وعاد الى اورشليم فصالح البطريرك وايمر فالبسه البطريرك التاج ومسحه مسحة الملوك في بيت لحم بكنيسة المولد يوم عيد الميلاد ولما كان بعض المذال والاعداء يعيبون غودفروا بعدم لبسه تاجاً من ذهب ويسمونه ملك الحجاج وامير العباد لم يشأ بودوين ان يحذو حذو اخيه بلبسه تاجاً حقيرًا تشبهاً بالمخلص بل ابس تاج الملك مرصعاً قاضياً بلزوم ذلك في مملكة يحدق بها الاعداء من كل جهة

واول ما صرفه بودوين من العناية بملكه بعد تتويجه كان جلوسه للقضاء بحسب نظام اورشليم المار ذكره فكان يصرف كل يوم ساعات بسماع دعاوي مسوديه وفصلها وكان من اهم هذه الدعاوي خلاف كان بين تنكراد وغوليلمس دي مالون على حيفا التي كان تنكراد قد فتحها وكان غودفروا قد وهبها لغوليلمس المذكور فصالح بودوين بينهما وسلم الى تنكراد تدبير امارة انطاكية لاسر بيومند اميرها فترك تنكراد دعواه على حيفا بل تخلى لبودوين عن امارة طيبارية ايضاً ولم يكن اشتغال بودوين بتدبير شؤون مملكته يعوقه عن حملاته على بلاد المسلمين وبينما كان عائدًا من احدى غزواته الى ما وراء الاردن موفرًا غنائم وقد دنا من النهر سمع صراخاً فاقترب فوجد امراة مسلمة مطلوقة (اصابها مخاض الطلق) فطرح رداه عليها ليسترها وفرش لها طنفسة وامر ان يؤتى اليها بتمار وزقي ماء وبناقة ترضع طفلها واقام جارية تخدمها وان تسير معها الى زوجها وكانت هذه المراة من نساء واعيان المسلمين. ولما وصلت الى زوجها بكى لسروره برؤية امراته التي كان يظنها ماتت او سبيت واقسم انه لا ينسى مدى الدهر ما صنعه بودوين اليها

وفتح بودوين ارسوف وقيصرية واقام الافرنج في قيصرية احد الكهنة الآتين

معهم اسقفاً عليها وفي السنة الثانية لملك بودوين حارب المصريين في سهول حيفا فانتصر عليهم نصرًا مبيناً ولكن ساءه ما ورد اليه من الاخبار ان حشدًا كبيرًا من الحجاج الغربيين وثب بهم الاعداء في جبال اسيا الصغرى فاهلكوهم ونجا منهم غوليلمس كنت بواتيا واسطفانس كنت بلوا وغيرهما مع قليلين فسار بودوين لملتقاهم حتى بيروت

ولما بلغوا اورشليم صحبهم الى القبر المقدس فاقاموا اشهرًا في اورشليم وساروا بعد الفصح الى يافا ليعودوا الى اوروبا ورافقهم بودوين فورد عليه نبأ ان المسلمين خرجوا من عسقلان واخربوا اللد والرملة فجمع بودوين ما تيسر له من الجنود وركب اولئك الزائرون الشرفا خيولهم واخذوا سلاحهم وخرجوا معه للقتال فاذا عدد الاعداء لا يقل عن عشرين الفاً وليس مع بودوين الا مايتا فارس وقليل من الرجالة ومع ذلك اقتحم القتال فاحاط الاعداء به وبمن معه فلم يبق لهم الا ان ينتظروا الموت وقتل من الزائرين كنت بلوا وكنت بوركونيا واسر هربين كنت بورج وكونراد احد اعيان جرمانية وانهزم بودوين واختبأ بين القصب فالقى الاعداء النار فيه فكاد يحترق واسعده كده فهرب الى الرملة ولم تكن هذه المدينة الحقيرة كفؤًا لرد وثبة الاعداء فايقن الهلاك واذا برجل غريب اقبل عليه وهداه الى طريق آمن خفي فسار به ونجا وكان هذا الغريب الذي انقذ ملك اورشليم رجل المراة التي احسن اليها بودوين عند ولادتها فاراد ان يكافئه على احسانه

وبعد فرار بودوين وثب المسلمون على الرملة وجميع من كانوا فيها من النصارى قتلوا او اسروا ولما سمع الفرسان الذين كانوا باورشليم باخبار ما كان هبوا لمناصبة الاعداء واتفق حينئذٍ ان رسى في مرفا يافا مئتا سفينة من المغرب تقل جمعاً كبيرًا من الزائرين وفي جملتهم كثيرون من الانكليز والجرمانيين الذين اشتهروا بالحرب وعاد بودوين بسفينة الى يافا فانضوى اليه عسكر شديد العزيمة محنك بالحرب هائم

بالقتال فخرج على الاعداء الذين كانوا يتأهبون لحصار يافا فظهر عليهم وبدد شملهم فاستراحت مملكة اورشليم مدة من القتال . وقد ذكر ابن الاثير الوقعة الاولى في تاريخ سنة ٤٩٥ هـ سنة ١١٠٢ م فقال : في هذه السنة في رجب خرجت عساكر مصر الى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في ايديهم من البلاد الشامية فسمع بهم بردويل (كذا يسمى بودوين) صاحب القدس فسار اليهم في سبعماية فارس وقاتلهم فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وانهزم بردويل واختفى في اجمة قصب فاحترقت تلك الاجمة ولحقت النار بعض جسده ونجا منها الى الرملة فتبعه المسلمون واحاطوا به فتنكر وخرج منها الى يافا وكثر القتل والاسر في اصحابه . ان اخبار اخذ الصليبين اورشليم واقامتهم مملكتهم فيها وما يؤتيهم الله من التوفيق بعثت كثيرين ممن كانوا قد رجعوا الى المغرب قبل فتح اورشليم ان يعودوا ثانية الى المشرق وحملت الغيرة كثيرين من اعيان فرنسا وايطاليا والمانيا على ان يؤموا الارض المقدسة وانضم اليهم كثيرون من العامة رجالاً ونساءً واحداثاً حتى قيل ان عددهم لم يكن يقل عن اربعماية الف على انهم لم يتعظوا بالتجربة فساروا الى قسطنطينية وكان كنت تولوز قد مضى بعد حرب عسقلان الى اللاذقية ثم الى قسطنطينية فعهدوا اليه بقيادة هذا الجيش في اسيا الصغرى فهلك هذا الجيش في الطريق لشن الاتراك الغارة عليهم ومن نجا منهم عاد بعضهم الى قسطنطينية ووصل بعضهم الى انطاكية ولم يبق من النساء امرأة وعظمت شكاوى اللاتينيين من الروم وتذمرهم من ملكهم الكسيس كومنانس لانه كان من جهة يسعى لتخلية سبيل الاسرى من النصارى ومن جهة اخرى يجهز اسطولاً ويؤلب جيشاً ليأخذ انطاكية ويستحوذ على المدن التي تولاها الفرنج في سواحل سورية واراد ان يدفع مالاً يفدى به بيومند الذي كان أسره الاتراك في وقعة عند ملطية لا ليخلي سبيله بل ليأخذه الى قسطنطينية ويكرهه ان يتخلى له عن امارته في انطاكية على ان بيومند افتدى

نفسه بعد ان بقي اسيرًا اربع سنين وعاد الى انطاكية يرد مهاجمات الكسيس

﴿ عـد ٨٢١ ﴾

فتح بودوين عكا وحربه في يافا ووقعة حران

ذكر المؤرخون المسلمون حصار عكا وفتحها سنة ٤٩٧ هـ سنة ١١٠٤ م فقالوا ما ملخصه « في هذه السنة سار صنجيل (نظن ان المراد بهذا الاسم ريموند كنت تولوز المسمى saint Giles سان جيل) وقد وصله مدد الافرنج من البحر الى اطرابلس وحاصرها برًا وبحرًا فلم يجد فيها مطمعاً فعاد عنها الى جبيل وحاصرها وتسلمها بالامان ثم سار الى عكا ووصل اليه من الفرنج جمع اخر من القدس وحصروا عكا في البر والبحر وكان الوالي بعكا من جهة خليفة مصر اسمه بنا ولقبه زهر الدولة الجيوشي نسبة الى امير الجيوش وجرى بينهم قتال حتى ملك الفرنج عكا بالسيف وفعلوا باهلها الافعال الشنيعة وهرب من عكا بنا المذكور الى دمشق ثم سار الى مصر وملوك الاسلام اذ ذاك مشتغلون بقتال بعضهم بعضاً وقد تفرقت الاراء واختلفت الاهواء وتمزقت الاموال » هذا ما ذكره ابو الفداء وذكر مثله ابن الاثير وابن خلدون

والذي رواه المؤرخون الفرنج هو ان الملك بودوين استعان بالزائرين الذين كانوا قد اتوا من بيزا وجنوا ومعهم اسطول كبير فولى عنوة على عكاء وهي مدينة مهمة وبمنزلة مرفأ لسورية وراع هذا الفتح المسلمين في دمشق وعسقلان ومصر وطفق سلطان مصر يؤلب الجنود ويجهز اسطولاً ليكبح جيش النصارى ويقي من غزواتهم ما بقي من بلاده وما ابطأ بعد فتح عكا ان ظهر اسطول مصري تجاه يافا وزحف جيش من عسقلان الى صحارى الرملة فهب لمناوأتهم النصارى من الجليل ونابلس وجبال اليهودية وخرج بودوين من يافا في خمس مئة فارس والفي راجل لمناصبة الاعداء وكانوا الوفاً مؤلفة فاوقد بودوين نار الوغى عليهم فقتل امير عسقلان

وخمسة الاف رجل من المسلمين وغنم النصارى كثيرًا من خيولهم وحميرهم وجمالهم ومالهم وعادوا الى يافا فلما راى ذلك اصحاب الاسطول يئسوا من الفوز واقلعوا في البحر وابعدوا فثار بهم عاصف فغرق بعض سفنهم وحطم بعضها على الصخور

اما وقعة حران في الجزيرة (ما بين النهرين) فذكرها المؤرخون المسلمون فقال ابن الاثير لما استطال الفرنج بما ملكوه من بلاد الاسلام قصدوا حران وكانت لمملوك من مماليك ملك شاه اسمه قراجه واستخلف عليها محمد الاصبهاني ثم عصى مولاه فسار الافرنج اليها وحصروها واتفق امراء المسلمين وتحالفوا وساروا الى لقاء الفرنج والتقوا على نهر ابليخ فاقتتلوا فاظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الفرنج نحو فرسخين ثم عاد المسلمون عليهم فقتلوهم كيف شاؤوا وغنموا اموالهم وكان بيمند صاحب انطاكية وطنكري (كذا يسمون تنكراد والي اللاذقية حينئذ) صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمون من وراء ظهورهم فلما خرجا رايا الفرنج منهزمين فاقاما الى الليل وانهزما فتبعهما المسلمون وقتلوا من اصحابهما كثيرًا واسروا كذلك وافلت بيمند وطنكري في ستة فرسان وكان القمص (الكونت) بردويل (بودوين امير الرها) انهزم مع جماعة من قامصتهم وخاضوا نهر البليخ فوحلت خيولهم فاخذ بودوين اسيرًا وسار المسلمون الى الرها فحاصروها خمسة عشر يوماً ثم افتدى الفرنج بودوين بخمسة وثلاثين دينارًا ومائة وستين اسيرًا من المسلمين وكانت عدة القتلى من الفرنج تقارب اثني عشر الف قتيل .

واما المؤرخون الفرنج فقالوا في هذه الوقعة . في ربيع سنة ١١٠٤ عزم بيومند امير انطاكية وتنكراد والي اللاذقية وابامبا حينئذٍ وبودوين دي بورج كنت الرها وابن عمه جوسلان ان يجتازوا الفرات ويستحوذوا على حران فحاصروا المدينة خمسة عشر يوماً فاستسلمت اليهم فاختلفوا على من يتولى امرها ألبودوين كنت الرها

تكون‌ام ليبومند امير انطاكية واذا بجيش عرمرم فاجاهم من الموصل فدهش الفرنج واخذ الرعب في قلوبهم كل مأخذ فانهزموا امام اعدائهم فأسر بودوين وجوسلان وافلت بيومند وتنكراد منفردين

واستمر بيومند بعد هذه الوقعة محصورًا في انطاكية يهدده ملك الروم من جهة والمسلمين من اخرى ولم يبق عنده ما يقوم بحاجاته من اموال ورجال فدار في خلده ان يلجأ الى نصارى المغرب وكان يخشى ان يغتاله الروم في مسيره فاشاع انه توفي وحبس نفسه في نعش فجاوز اسطول الروم وهم جذلون بموته ويلعنون ذكره ولما وصل الى ايطاليا انبعث من موته الموهوم وسار توًا الى الحبر الروماني يشكو له ما عاناه حبًا بالدين ويساله كبح الكسيس ملك الروم الذي كان يسميه آفة المشرق فاعزه البابا وقدر شهامته حق قدره واصغى الى شكواه ووعده بالمساعدة لاصلاح شؤون المشرق ثم مضى الى افرنسة فعظم فيليب الاول مثواه وزوجه قسطنسا بنته وخطب في كثير من المحافل يحض على معاونة النصارى في المشرق وطاف في كثير من مدن افرنسة ثم اجتاز منها الى اسبانيا ثم الى ايطاليا فتجند معه كثيرون فسافر في جيشه من مدينة باري بايطاليا قاصدًا ثل عرش ملك الروم وحاصر مدينتهم دورازد (على بحر الادرياتيك في جنوب سكوتاري) وطال زمان الحصار وفشا الوبا بعسكره وأبق منهم كثيرون فاضطر الى عقد صلح مذل له مع ملك الروم سنة ١١٠٨ وعاد يتجهز لقتال هذا الملك فعاجلته المنية سنة ١١١١ في تريدنتو : واما بوذوين دي بورج والي الرها وجوسلان ابن عمه فاخذا الى بغداد واستمرا ماسورين خمس سنين على ما روى المؤرخون الفرنج خلافًا لما يظهر مما رويناه عن ابن الاثير عن فداء بودوين وربما كان هذا الفداء بعد مرور السنين الخمس التي ذكرها المؤرخون الفرنج • وكان تنكراد في هذه المدة يدبر حكومة انطاكية ويرد عنها حملات الاعداء • انتهى ملخصًا عن كثير من المؤرخين الفرنج

﴿ عـد ٨٢٢ ﴾

﴿ في فتح الافرنج اطرابلس وغيرها ﴾

قد روى المؤرخون المسلمون حصار الافرنج اطرابلس في عدة سنين فقال ابو الفداء في تاريخ سنة ٤٩٥ ﻫ سنة ١١٠٢ م • في هذه السنة سار صنجيل الافرنجي في جمع قليل وحصر ابن عمار بطرابلس ثم وقع الصلح على مال حمله اهل اطرابلس اليه فسار صنجيل الى انطرطوس (طرطوس) ففتحها وقتل من بها من المسلمين ثم سار وحصر حصن الاكراد فجمع جناح الدولة صاحب حمص العسكر ليسير اليه فوثب باطني على جناح الدولة وهو بالجامع فقتله ولما بلغ صنجيل قتله رحل عن حصن الاكراد الى حمص ونازلها وملك اعمالها • وروى كذلك ابن الاثير في تاريخ السنة المذكورة ثم ذكرا في تاريخ سنة ٤٩٧ ﻫ سنة ١١٠٤ م • في هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج الى مدينة لاذقية وفيها التجار والاجناد والحجاج واستعان بهم صنجيل الافرنجي على حصار طرابلس فحصروها معه براً وبحرًا وضايقوها وقاتلوها اياماً فلم يروا فيها مطمعاً فرحلوا عنها الى مدينة جبيل فحصروها وقاتلوا عليها قتالاً شديداً فلما راى اهلها عجزهم عن الفرنج اخذوا اماناً وسلموا البلد اليهم فلم تف لهم الافرنج بالامان واخذوا اموالهم واستنقذوها بالعقوبات وانواع العذاب فلما فرغوا من جبيل ساروا الى مدينة عكاء وقالا في تاريخ سنة ٤٩٩ ﻫ سنة ١١٠٦ م • كان صنجيل قد ملك مدينة جبلة ثم سار واقام على طرابلس فحصرها وبنى بالقرب حصناً وبنى تحته ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل فخرج الملك (الامير) ابو علي بن عمار صاحب طرابلس فاحرق الربض ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحروقة فانخسف به فمرض صنجيل من ذلك وبقي عشرة ايام ومات وحمل الى القدس ودفن فيه ودام الحرب بين اهل طرابلس والفرنج خمس سنين وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم وقلت الاقوات فيها

وسار ابن عمار صاحب طرابلس من الشام الى بغداد قاصدًا باب السلطان محمد (السلجوقي) مستنفرًا على الافرنج طالبًا تسيير العساكر لازاحتهم وانه استناب ابن عمه ذا المناقب في طرابلس ورتب معه الاجناد برًا وبحرًا واعطاهم جامكية ستة اشهر سلفاً وان ابن عمه اظهر الخلاف له والعصيان عليه ونادى بشعار المصريين فكتب الى اصحابه يامرهم بالقبض عليه وحمله الى حصن الخوابي ففعلوا ما امرهم وكان ابن عمار استصحب معه هدايا نفيسة قدمها للسلطان محمد فاكرمه وعامله معاملة الملوك وعرض عليه ابن عمار ما يقاسيه وقوة عدوه وطول حصره وطلب غيرة السلطان فوعده السلطان بذلك وحضر دار الخلافة وذكر ما ذكره عند السلطان فلم يجد ذلك نفعاً كما سترى وعاد ابن عمار الى دمشق سنة ٥٠٢ ﻫ سنة ١١٠٩ م وتوجه منها مع عسكر الى جبلة فدخلها واطاعه اهلها واما اهل طرابلس فانهم راسلوا الافضل امير الجيوش بمصر يلتمسون منه واليًا يكون عندهم ومعه الميرة في البحر فسير اليهم شرف الدولة بن ابي الطيب ومعه الغلة وغيرها مما يحتاج اليه في الحصار فلما صار فيها قبض على جماعة من اهل ابن عمار واصحابه واخذ ما وجده من ذخائره والاته وحمل الجميع الى مصر في البحر »

وقال ابن الاثير وابو الفداء في تاريخ سنة ٥٠٣ ﻫ سنة ١١١٠ م « في هذه السنة في حادي عشر ذي الحجة ملك الافرنج مدينة طرابلس لانهم ساروا اليها من كل جهة وحصروها في البر والبحر وضايقوها من اول رمضان وكانت في يد نواب خليفة مصر العلوي وارسل الخليفة اليها اسطولاً فرده الهواء ولم يقدر على الوصول الى طرابلس ليقضي الله امرًا كان مفعولاً وملكوها بالسيف وقتلوا ونهبوا وسبوا وكان بعض اهل طرابلس قد طلبوا الامان وخرجوا منها الى دمشق قبل ان يملكها الافرنج » ثم قال في سنة ٥٠٤ ﻫ سنة ١١١١ م « ملك الافرنج مدينة صيدا في ربيع الاخر وملكوها بالامان ونيها سار صاحب انطاكية مع من اجتمع عليه من

الفرنج الى الأثارب وهي باقرب من حلب وحصره ودام القتال بينهم ثم ملكوه بالسيف وقتلوا من اهله الفي رجل واسروا الباقين ثم ساروا الى زردنا فلكوها بالسيف وجرى لهم كما جرى لاهل الأثارب ثم سار الفرنج الى منبج وبالس فوجدوهما قد خلاهما اهلهما فعادوا عنهما وصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلثين الف دينار يحملها اليهم مع خيول وثياب ووقع الخوف في قلوب اهل الشام من الفرنج فبذلت لهم اصحاب البلاد اموالاً وصالحوهم فصالحهم اهل مدينة صور على سبعة الاف دينار وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على اربعة الاف دينار وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على الفي دينار ،

واليك خلاصة ما قاله المؤرخون الافرنج بهذه الاحداث . في سنة ١١٠٨ وقال بعضهم سنة ١١١٠ (وهو الاوجه) سار برتران بن ريموند كنت سان جيل الى المشرق ومعه سبعون سفينة من جنوا بقصد ان يتولى بعض مدن فونيقي فهاجم اولاً جبيل فملكها بعد مهاجمات ثم سار لحصار اطرابلس واتى بودوين ملك اورشليم في خمس مئة فارس يساونه على هذا الحصار فضايقوا المدينة ولم ينجدها احد فاستسلمت الى الافرنج بشرط ان يكون اهلها احراراً فمن شاء الخروج منها خرج بما امكنه حمله ومن شاء البقاء فيها لزمه ان يؤدي الجزية فامست اطرابلس وعرقا وطرطوس وجبلة عملاً رابعاً من اعمال الفرنج في سورية وتولاه برتران بن ريموند كنت سان جيل وحلف يمين الامانة لملك اورشليم . وبعد اخذ اطرابلس باشهر جمع بودوين ملك اورشليم عساكره حول بيروت وحاصرها شهرين وارغم اهلها ان يستسلموا اليه ولم يبق للمسلمين على شاطي البحر المتوسط الا عسقلان وصور وصيدا ولم يكن اهل صيدا نجوا الى حينئذٍ الا باظهارهم الخضوع وتقديمهم التقادم فكانوا يؤجلون خراب مدينتهم من سنة الى اخرى ببذل اموالهم واتفق انه عند عود ملك اورشليم من حملة على شواطي الفرات بلغه ان سيكور ابن ملك نورفج حل في يافا

يصحبه عشرة الاف رجل من مملكته فسار بودوين الى لقاء هذا الامير وكانمه ان يمده في حروبه فاجابه الى ذلك ولم يطلب اجرة الا ان يعطى فلذة من ذخيرة عود الصليب واتى معه الى اورشليم فعجب سكانها من طول قامات هؤلاء الزائرين ومن عدة حربهم وقرر مجلس الملك حينئذ ان يحاصروا صيدا فسار اسطول سيكور للحال الى تجاه صيدا وخيم بودوين ملك اورشليم وكنت اطرابلس حذاء اسوارها فحاصروها ستة اسابيع واكرهوا والي المدينة ووجهاءها ان يسلموا مفاتيح مدينتهم الى ملك اورشليم ولم يطلبوا الا ان يخرجوا من المدينة في ما يمكنهم حمله على رؤسهم ومناكبهم فخرج من سكان صيدا خمسة الاف واستمر الباقون فيها خاضعين لملك اورشليم وعاد امير نورفيج الى بلاده جذلاً بما ناله من ذخيرة خشبة الصليب ووضع هذه الذخيرة في احدى مدن بلاده

﴿ عد ٨٢٣ ﴾

ذكر مسير عساكر السلطان محمد السلجوقي الى قتال الافرنج

روى ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٠٥ هـ سنة ١١١٢ م انه في هذه السنة اجتمعت العساكر التي امرها السلطان بالمسير الى قتال الفرنج وكان من قوادهم الامير مودود صاحب الموصل والامير سكمان صاحب تبريز والامير ايلغازي صاحب ماردين وساروا الى بلد سنجار ففتحوا عدة حصون للفرنج وحصروا مدينة الرها ثم رحلوا عنها وعبروا الى جانب الفرات الشامي وطرقوا اعمال حلب وحصروا قلعة تل باشر خمسة واربعين يوماً ولم يبلغوا منها غرضاً فرحلوا عنها ووصلوا الى حلب فاغلق الملك رضوان صاحبها ابواب المدينة ولم يجتمع فيهم فرحلوا الى معرة النعمان واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق ونزل على الامير مودود فاطلع من الامراء على نيات فاسدة في حقه فخاف ان تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الفرنج سرّاً وكانوا قد نكلوا عن قتال المسلمين فلم يتم ذلك فتفرقت عساكر

المسلمين لان الامير برسق الذي هو اكبر الامراء كان به نقرى ويحمل في محفة ومات سكمان امير تبريز واتابك طغتكين صاحب دمشق خاف على نفسه فتفرقوا وبقي طغتكين ومودود في المعرة فساروا منها ونزلوا على نهر العاصي ولما سمع الفرنج بتفرق عساكر المسلمين طمعوا وكانوا قد اجتمعوا وساروا الى قامية (اباميا قلعة المضيق) وسمع بهم ابن منقذ صاحب شيزر فسار الى مودود وطغتكين وهون عليهم امر الفرنج فرحلوا الى شيزر ونزلوا عليها ونزل الفرنج بالقرب منهم فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة فلم يعطوا مصافاً للحرب وراوا قوة المسلمين فعادوا الى قامية وتبعهم المسلمون فتخطفوا من ادركوه في ساقتهم وعاد المسلمون الى شيزر

وفي سنة ٥٠٦ هـ سنة ١١١٣ م سار مودود صاحب الموصل الى الرها فنزل عليها ورعى عسكره زروعها ورحل عنها الى سروج وفعل بها كذلك واهمل الفرنج ولم يحترز منهم فلم يشعر الا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم وكانت دواب العسكر منتشرة في المرعى فاخذ الفرنج كثيراً منها وقتلوا كثيراً من العسكر فلما تاهب المسلمون للقاء جوسلين عاد عنهم الى سروج. وفي سنة ٥٠٧ هـ سنة ١١١٤ م اجتمع الامراء المذكورون وطغتكين صاحب دمشق ايردوا غارات ملك الفرنج على بلاد دمشق وقطعوا المواد عنها فراسل طغتكين الامير مودود فسار بعسكر جرار ولاقاه طغتكين الى سلمية وساروا جميعاً الى الاردن ودخلوا بلاد الفرنج والتقوا معهم عند طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج وكثر القتل فيهم والاسر وممن اسر ملكهم بقدوين (بودوين) فلم يعرف واخذ سلاحه واطلق فنجا وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الاردن كثيرون وغنم المسلمون اموالهم وسلاحهم ووصل الفرنج الى مضيق دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وانطاكية فقويت نفوسهم بهم وعاودوا الحرب فاحاط بهم المسلمون من كل جهة وصعد الفرنج الى جبل غربي طبرية فاقاموا به ستة وعشرين يوماً والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب

منهم ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون الى قتالهم فلم يخرجوا فسار المسلمون الى بيسان ونهبوا بلاد الفرنج بين عكا الى القدس وخربوها وقتلوا من ظفروا به من النصارى وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم ثم عاد الامراء عن القتال واذنوا للعساكر بالعود والاستراحة وبقي مودود في خواصه ودخل دمشق ليقيم عند طغتكين الى الربيع لمعاودة الغزو ودخل مودود الجامع يوم الجمعة ليصلي مع طغتكين ولما خرجا وثب باطني على مودود فجرحه اربع جراحات وكان صائماً فحمل الى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فقال لا لقيت الله الا صائماً فمات من يومه وقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله قال ابن الاثير « حدثني والدي قال كتب ملك الفرنج الى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً قال فيه : ان امة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يبيدها » »

واليك خلاصة ما جاء في كتب المؤرخين الفرنج عن ذلك قالوا في سنة ١١١٣ اقبل عسكر جرار من خراسان والموصل ودمشق وانتشر في الجليل فسار الملك بودوين لمناواتهم واغتر بحيلة صنعها المسلمون فاقدم على قتالهم دون ترو فكان يوم اوشك فيه عسكر النصارى ان يهلك عن اخره وملكهم ان يزول وملكهم ان يقتل الا انه قد تيسر لهم في اخر الصيف انصراف جيش اعدائهم ولكن عقب ذلك جراد رعى الزروع ومجاعة جشأت بها نفوس اهل كنتية الرها وامارة انطاكية وزلزال انبسط من جبل طورس الى برية ادوم فاخرب مدناً كثيرة فتاب النصارى الى الله وخشعوا ونادوا باصوام وواظبوا الكنائس والتضرع الى الله الى ان انقشعت ظلمات هذه المحن والمصائب

ولما راى بودوين نفسه مستريحاً من غارات اعدائه غزا في بلاد العرب حتى البحر الاحمر ودار في خلده ان يحمل على مصر فحمل عليها سنة ١١١٨ ووصل الى

جهة الفرما ظافراً غانماً ولكن اصاب بودوين الملك مرض فلم يعد لـه ولقومه حيلة الا بان يعود الى اورشليم فحملوا بودوين في محفة الى العريش ولما شعر بدنو المنية علم خدامه كيف يحنطون جثته ويحملونهـا الى اورشليم واوصى بان يخلفه في الملك اما اخوه اوسطاش او بودوين دي بورج كنت الرها وتناول اسرار الكنيسة ومضى الى لقاء ربه فاستخرج اصحابه احشاءه ودفنوها بالقرب من العريش وحملوا جثته الى القدس فدفنوها به في ٢٦ اذار سنة ١١١٨ يوم عيد الشعانين وكان تنكراد والي انطـاكية قد توفي سنة ١١١٢ في انطـاكية ودفن بها في كنيسة القديس بطرس هامة الرسل واوصى بان يخلفه روجه بن ريشار احد انسبائه بشرط ان يتخلى عن امارة انطاكية الى اميرها الشرعي ابن بيومند الذي كان حينئذٍ عند امه في ايطاليا

عـد ٨٢٤

في خلافة بودوين الثاني وما كان في ايامه

بعد وفاة بودوين الاول ودفنه اهتم اكليرس اورشليم وشعبها بانتخاب ملك يخلفه فاراد بعضهم ان يملكوا اخاه اوسطاش وقال غيرهم ان اوسطاش بعيد والاخطار حافة بهم فرشحوا بودوين دي بورج كنت الرها من انسباء الملك المتوفى وكان حينئذٍ باورشليم فاجمع رايهم عليه وناداوا به ملكاً في كنيسة القيامة يوم عيد الفصح واقام في كنتية الرها عوضاً عنه جوسلان دي كورتناي

ولم ينتهوا من حفلات الملك الجديد الا تالبت جموع من المسلمين من فارس والجزيرة وسورية وزحفوا الى عدوة العاصي بامرة ايلغازي بن ارتق والي ماردين الذي كان تولى على حلب وقال المؤرخون المسلمون في ذلك في هذه السنة (اي سنة ٥١٣ ه وهي سنة ١١٢٠ م) كانت وقعة بين ايلغازي بن ارتق وبين الفرنج بارض حلب فـانهزم الفرنج وقتل منهم عدة كثيرة واسر عدة وكان في من اسر سرجال صاحب انطاكية ثم سار ايلغازي وفتح عقيب الوقعة الاثارب وزردنا وكانت

الوقعة في منتصف ربيع الاول عند عفرين ومما مدح به ايلغازي بسبب هذه الوقعة قول العظيمي

قل ما تشاء فقولك المقبولُ   وعليك بعد الخالق التعويلُ
واشتبشر القرآن حين نصرته   وبكى لفقد رجاله الانجيلُ

وقال المؤرخون الافرنج في ذلك اجتمع المسلمون من بلاد فارس والجزيرة وسورية بامرة ايلغازي وعلم بتجمعهم روجه بن ريشار امير انطاكية فاستمد ملك اورشليم وكنت الرها وكنت اطرابلس ولم ينتظر وصولهم بل عاجل المسلمين بالقتال فقتل هو وتشتت عسكره كل التشتت واسر كثيرون وكان في جملتهم غوتيار المسجل وهو وصف ما عاناه الاسرى حينئذٍ من العذاب المبرح وقال انه لم يصف كل ما راى خشية ان يقتدي النصارى يوماً بما انزله اعداوهم بهم وقد انتشرت عساكر ايلغازي بعد هذا الظفر في اعمال الفرنج وبلغ حينئذٍ ملك اورشليم الى انطاكية وقد قتل اكثر من كان يذب عنها ولزم ان يقام الاكليرس والرهبان في حراسة الابراج اذ لم يكونوا على ثقة من الروم والارمن لاستثقالهم نير اللاتينيين فانعش وصول الملك رجاء الاهلين وزار كنائس انطاكية وعليه ثياب الحداد وطلب بركة البطريرك له ولجنوده وسار لقتال المسلمين وعلمهم خشبة الصليب والتحم القتال فظهر النصارى وانهزم ايلغازي ودبيس قائد العرب وبعد ان امن بودوين انطاكية واعمالها عاد الى اورشليم قصبة ملكه

وقال المؤرخون المسلمون في تاريخ سنة ٥١٥ ﻫ سنة ١١٢٢ م في هذه السنة عصى سليمان بن ايلغازي على ابيه بحلب وحسن له العصيان رجل من اهل حماة من بيت قرناص كان ايلغازي قد قدمه على اهل حلب فجازاه بذلك فسار ايلغازي من ماردين وهجم على حلب وقطع يدي ابن قرناص ورجليه وسمل عينيه فمات ولحقته رقة الوالد على ولده سليمان فاستبقاه وهرب الى طغتكين بدمشق فاستناب ابوه

على حلب ابن اخيه واسمه سليمان ايضاً ابن عبد الجبار . وقالوا ايضاً في السنة المذكورة كانت حرب بين بلك بن بهرام ابن اخي ايلغازي وبين جوسلين صاحب الرها فان بلك حصر هذه المدينة وبها الفرنج وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها فقصده جوسلين صاحب الرها وسروج فانتصر بلك على الفرنج وقتل منهم كثيرين واسر جوسلين وابن خالته كليام وجماعة من فرسانه وبذل جوسلين فداء نفسه اموالا كثيرة فلم يقبلها بلك وسجنهم في قلعة خرتبرت . وتوفي ايلغازي في سنة ٥١٦ ﻫ سنة ١١٢٣ م وملك بعده ابنه تمرتاش بماردين واخذ بلك حلب من ابن عمه سليمان المار ذكره فسلم سليمان حصن الأثارب الى الفرنج ليهادنوه على حلب واستولى الفرنج على خرتبرت وخلصوا جوسلين ثم سار بلك اليها واسترجعها من الفرنج . ثم توفي بلك سنة ٥١٨ ﻫ سنة ١١٢٥ م وسبب وفاته انه قبض على الامير حسان البعلبكي صاحب منبج وسار الى هذه المدينة فملكها وحصر القلعة فاصابه سهم لا يدري من رماه فقتله فحمله ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي الى حلب وتسلم المدينة ورتب امورها وعاد الى ماردين مركز ولايته واجتمعت الفرنج وانضم اليهم دبيس بن صدقة وحاصروا حلب واخذوا في بناء بيوت لهم بظاهرها فعظم الامر على اهلها ولم ينجدهم صاحبها تمرتاش لايثاره الرفاهة والدعة فكاتب اهل حلب اقسنقر البرسقي صاحب الموصل في تسليمها اليه فسار اليهم فلما قرب من حلب رحلت الفرنج عنها وسلم اهل حلب المدينة والقلعة اليه واستقرت في ملك البرسقي مع الموصل وغيرها وفي سنة ٥١٩ ﻫ سنة ١١٢٦ م سار البرسقي الى كفرطاب واخذها من الفرنج ثم سار الى غزاز وكانت لجوسلين فأجتمعت الفرنج لقتاله واقتتلوا فانهزم البرسقي وقتل من المسلمين خلق كثير

ومما قاله المؤرخون الافرنج في هذه الاحداث انه في سنة ١١٢٢ كبس بلك ابن اخي ايلغازي جوسلين كنت الرها فاسره ومعه كالبران احد انسبائه الادنين

وغللهما وساقهما الى اطراف الجزيرة ولما بلغ خبرهما الى بودوين ملك اورشليم سار مسرعاً الى الرها ليعزي اهلها ويستفك الاسيرين فاستفزه كرم اخلاقه واعتماده على شجاعته ان يقتحم المخاطر فوقع اسيرًا بيد بلك وصار شريكاً لمن عني بتخليصهما فحملت النخوة والحمية خمسين رجلاً من ارمينيا على انقاذ الملك والاميرين فدخلوا القلعة متنكرين وقتلوا الحامية التي كانت بها ولكن احاط المسلمون بالقلعة واستطاع جوسلين ان يفر منها واسرع الى اورشليم فوضع قيوده على قبر المخلص وعاد في عسكر من اورشليم والرها لينقذ الملك الاسير ولما انتهى الى الفرات علم ان المسلمين دخلوا القلعة وقتلوا الخمسين رجلاً واخذوا الملك الى قلعة حران

واغتنم المصريون فرصة اسر ملك اورشليم فتالبوا وساروا الى صحراء عسقلان قاصدين ان يزيحوا الافرنج عن فلسطين واستعد الافرنج للدفاع متقوين بشعب نينوى بالتوبة والصوم وقرع الجرس الكبير في اورشليم ايذاناً بالحرب فخرج النصارى وعسكرهم لا يتجاوز ثلثة الاف مقاتل واميره اوستاش دي اكران كنت صيدا ومدبر المملكة في غيبة الملك وحمل البطريرك خشبة الصليب في طليعة العسكر ومن ورائه كاهن حامل الحربة التي طعن بها جنب المخلص وكانوا اكتشفوها بانطاكية وكان المصريون يحاصرون حينئذٍ يافا بحرًا وبرًا ولما راى اصحاب الاسطول الافرنج ابعدوا عن الشاطي وتسعرت نار القتال بين العسكرين في البر فظهر النصارى وانهزم المصريون وتتبع الافرنج آثارهم في صحراء عسقلان الى ان دخلوا اسوار عسقلان وعاد الافرنج الى اورشليم مترنمين باناشيد التسبيح والشكر لله واما بودوين الملك فافتدى نفسه بمال ولما خلي سبيله جمع عسكرًا وزحف الى حلب وكان بين امراء المسلمين اختلاف ادى الى ان دبيس امير العرب وغيره من امراء تلك النواحي انضموا الى الافرنج فضايق بودوين حلب واوشك اهلها ان يستسلموا اليه فتسارع امير الموصل لنجدة حلب في عسكر جرار فاضطر بودوين ان يرفع الحصار ويعود الى اورشليم

فشكر ذووه الله على نجاته ثم انتهى اليه ان جيش المسلمين الذي اتى لنجدة حلب قد انتشر في امارة انطاكية فنكل باهلها ونهب وحرق فهب راجعاً في نخبة من فرسانه وجنوده فهزم الاعداء من املاك الافرنج ثم هجم طغتكين صاحب دمشق على املاك الافرنج فاسرع بودوين لقتاله فارغم ان ينكص على عقبه الى دمشق

وقد بقيت صور كل هذه السنين في يد الخلفاء العلويين اصحاب مصر فاخذها الافرنج من يدهم سنة ١١٢٥ واليك ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك كانت صور في يد الخلفا العلويين وشرع الفرنج في الجمع والتاهب للنزول عليها وحصرها فسمع الوالي الذي بها من قبل المصريين خبر تاهبهم وعلم ان لا قوة له ولا طاقة على دفع الفرنج عنها فارسل الى الآمر بذلك فراى ان يرد ولاية صور الى طغتكين صاحب دمشق وارسل اليه بذلك فملك طغتكين صور ورتب بها من الجند وغيرهم ما ظن فيه كفاية وسار الفرنج اليهم ونازلوهم وضيقوا عليهم ولازموا القتال فقلت الاقوات وسئم من بها القتال وضعفت نفوسهم وصار طغتكين الى بانياس ليقرب منهم ويذب عن البلد ولعل الفرنج اذا راوه قريباً منهم رحلوا فلم يتحركوا ولزموا الحصار فارسل طغتكين الى مصر يستنجدهم فلم ينجدوه وتمادت الايام واشرف اهلها على الهلاك فراسل حينئذ طغتكين الفرنج وقرر الامر على ان يسلم المدينة اليهم ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج منها بما يقدرون على حمله من اموالهم ورحالهم فاستقرت القاعدة على ذلك وفتحت ابواب المدينة وملكها الفرنج وفارقها اهلها وتفرقوا في البلاد وحملوا ما اطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه ولم يعرض الفرنج على احد منهم ولم يبق الا الضعيف وملك الفرنج البلد في ٢٢ من جمادي الاول سنة ٥١٨ هـ (سنة ١١٢٥ م) وكان فتحه وهناً عظيماً على المسلمين فانه من احصن البلاد وامنعها » والذي قاله المؤرخون الافرنج انه في تلك الاثناء قدم الى شواطي سورية اسطول بندقي اميره دوغ (اي والي) البندقية فافترض

الفرنج قدومه لحصار صور واتى المسلمون من دمشق الى محل قريب من المدينة لنجدة اهلها وخرج عسكر مصري من عسقلان فاخرب بلاد نابلس وهدد اورشليم فلم يُثنِ ذلك عزيمة الفرنج عن الحصار واتفق حينئذٍ قتل بلك في منبج وكان جوسلان هو القاتل له وقد طير خبر قتله الى مدن النصارى وارسل راسه الى صور فازداد الافرنج حماسة وحمية فيئس الصوريون من الدفاع فاستسلموا الى الافرنج بعد حصار خمسة اشهر ونصف فخفقت اعلام ملك اورشليم ودوغ البندقية على اسوار صور فدخل اليهـا الافرنج ظـافرين وخرج منها الصوريون في نسائهم واولادهم صاغرين وانتشر خبر الظفر فسمع صدى التهليل والشكر لله في كل من مدن النصارى ولا سيما اورشليم حيث اقيمت حفلات باهرة ذكرًا لهذا الانتصار وشكرًا لله عليه

وقد توفي بودوين في ٢١ آب سنة ١١٣٠ ويروى سنة ١١٣١ في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة لملكه اذ استوى على منصة الملك سنة ١١١٨ في عيد الفصح ودفن في كنيسة القيامة وكان متزوجاً بابنة امير من ارمنيا ورزق منها اربع بنات احداهن زوجة فولك دي انجو الذي خلفه والثانية امراة بيومند امير انطاكية والثالثة امراة ديموند كنت اطرابلس والرابعة ترهبت . وكان تقياً ورعاً هماماً زاد مملكته بغزواته

عـد ٨٢٥

في ملك فولك دي أنجو وما كان من الاحداث في ايامه

بعد دفن بودوين الثاني اجتمع الروساء والاعيان فاختاروا خليفة له في مملكة اورشليم فولك كنت أنجو وكان قد حضر الى سورية سنة ١١٢٠ وعاد الى افرنسة سنة ١١٢٥ وتزوج بابنة بودوين الثاني كما مر وتوجه البطريرك الاورشليمي اللاتيني في ١٤ ايلول سنة ١١٣١ وتوفي في ١٣ تشرين الثاني سنة ١١٤٢ ومما كان في ايامه ان البرسقي الذي كان قد ولي حلب كما مر قتله الباطنية بالموصل وكان مملوكاً

تركياً شجاعاً وكان قد اقام ابنه مسعوداً والياً بحلب فلما قتل ابوه سار الى الموصل وملك بها مكان ابيه واستخلف على حلب اميراً اسمه قيماز ثم استخلف بعده رجلاً اسمه قتلغ واساء السيرة فخلعه اهل حلب وولوا عليهم سليمان بن عبد الجبار الذي كان قد تولى حلب اولاً كما مر وعصى قتلغ في القلعة ولما سمع الفرنج باختلاف اهل حلب سار اليهم جوسلين فصانعوه بمال فرحل عنهم ومات مسعود بن البرسقي امير الموصل فولى السلطان محمود السلجوقي عماد الدين زنكي على الموصل وما يليها فزاد امارته وارسل عسكراً الى حلب ومعه توقيع السلطان محمود بالشام فاجاب اهل حلب اليه وسير قائد العسكر سليمان بن عبد الجبار وقتلغ الى زنكي فاصلح بينهما ولم يرد احدهما الى حلب ثم سار عماد الدين زنكي بنفسه الى حلب وملك منبج في طريقه واستبشر اهل حلب بقدومه فرتب امور حلب وسمل عيني قتلغ فمات • وكان في دمشق ان مات طغتكين اميرها سنة ٥٢٢ هـ سنة ١١٢٩ م وهو من مماليك تتش بن الب ارسلان السلجوقي وملك دمشق بعده ابنه تاج الملوك نوري (ويروى بوري بالباء ونوري بالنون) وفي سنة ٥٢٣ هـ سنة ١١٣٠ م سار رجل من الاسماعيلية يسمى بهرام الى دمشق ودعا الناس الى مذهبه واعانه طاهر بن سعد المزدعاني وزير نوري امير دمشق وسلم اليه قلعة بانياس فعظم امره وملك عدة حصون بالجبال وجرى بينه وبين اهل وادي التيم مقاتلة فقتل بهرام فيها وقام مقامه بقلعه بانياس رجل منهم يسمى اسماعيل واقام الوزير في دمشق رجلاً منهم ايضاً يسمى ابا الوفا فعظم امره حتى صار الحكم له بدمشق وكاتب الافرنج على ان يسلم دمشق اليهم ويسلموا اليه عوضها مدينة صور واتفقوا على ذلك وعلم الامير نوري بذلك فقتل وزيره المزدعاني وامر بقتل الاسماعيلية الذين بدمشق فثار بهم اهل دمشق وقتلوا منهم ستة الاف نفر ووصل الفرنج الى الميدان وحصروا دمشق فلم يظفروا بشيء فرحلوا عنها وخرج نوري بعسكر دمشق في اثرهم فقتلوا منهم

عدة كثيرة واما اسماعيل الذى كان بقلعة بانياس فسلم هذه القلعة الى الافرنج وصار معهم

واما عماد الدين زنكي فكان قد ارسل من حلب يستنجد نورى صاحب دمشق على الافرنج فارسل نورى الى ابنه سونج الذى كان نائباً عن ابيه بحماة يامره بالمسير الى عماد الدين زنكي فسار اليه فغدر زنكي به وقبض عليه ونهب خيامه واعتقله وجماعة من مقدمي عسكره بحلب وسار زنكي الى حماة فملكها لخلوها من الجند ثم رحل عنها الى حمص وحاصرها مدة وكان قد غدر بصاحبها ايضاً الذي يسمى قيرخان بن قراجا وقبض عليه واحضره معه الى حمص وامره ان يامر ابنه وعسكره بتسليم حمص اليه فامرهم فلم يلتفتوا الى امره فلما آيس زنكي منها رحل عنها عائدًا الى الموصل واستصحب سونج وامراء دمشق معه وبذل له نوري صاحب دمشق مالاً في ابنه فلم يجب الى طلبه

وفي سنة ٥٢٤ هـ سنة ١١٣١ م عاد زنكي من الموصل الى الشام وقصد حصن الاثارب القريب من حلب وكان اهله الافرنج يضايقون اهل حلب وجمع الافرنج فارسهم وراجلهم وقصدوا زنكي فرحل عن الاثارب وسار الى ملتقاهم فاقتتل الفريقان اشد القتال فانهزم الفرنج وقتل منهم كثيرون واسر بعض فرسانهم ثم عاد زنكي الى الاثارب واخذه عنوة وقتل واسر كل من فيه وخرب زنكي حينئذٍ الحصن المذكور وبقي خراباً الى الان

وفي سنة ٥٢٦ هـ سنة ١١٣٣ م توفي تاج الملوك نوري صاحب دمشق بسبب جرح اوقعه به بعض الباطنية وعهد بالملك بعده الى ولده شمس الملوك اسماعيل ووصى ببعلبك واعمالها لولده شمس الدولة محمد ثم استولى محمد على حصن الراس وحصن اللبوة فكاتبه اخوه اسماعيل في اعادتهما اليه فلم يقبل محمد ذلك فسار اسماعيل وفتح الحصنين وحصر اخاه محمد ببعلبك وملك المدينة وحصر القلعة فساله محمد في

الصلح فاجابه اليه واعاد اليه بعلبك واعمالها ٠ وفي سنة ٥٢٧ هـ سنة ١١٣٤ م سار شمس الملوك اسماعيل على غفلة من الفرنج فملك مدينة بانياس وقتل واسر من كان بها من الفرنج ثم سار في هذه السنة الى حماة وهي لعماد الدين زنكي كما مر وحصرها فملكها عنوة وطلب اهلها منه الامان فامنهم وملك قلعتهم ايضاً ثم سار الى شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فنهب بلدها وحاصر القلعة فصانعه صاحبها بمال فعاد عنها الى دمشق وبعد عوده وثب عليه بعض مماليك جده طغتكين فضربه بسيف فلم يعمل به فقبض على الضارب فقتله وقتل من اقر عنهم والحق بهم اخاه سونج الذي كان زنكي قد اسره كما مر فعظم ذلك على الناس ونفروا منه

وفي سنة ٥٢٨ هـ سنة ١١٣٥ م سار شمس الملوك الى حصن الشقيق في وادي التيم وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس هذا العمل وكان الافرنج راضين عن الضحاك فاخذ شمس الملوك هذا الحصن وعظم ذلك على الفرنج وقصدوا بلاد حوران وجمع شمس الملوك الجموع وناوشهم ثم اغار على بلادهم من جهة طبرية ووقعت الهدنة بينهم وبينه فعاد الفرنج الى بلادهم ٠ وفي سنة ٥٢٩ هـ سنة ١١٣٦ م اتفق جماعة على قتل شمس الملوك فقتلوه على غفلة بايعاز امه قيل ان الناس كرهوه لفرط جوره وظلمه وشكوه الى امه فاتفقت مع من قتله وقيل بل ان امه اتهمت بشخص يقال له يوسف بن فيروز فاراد شمس الملوك قتل امه فاتفقت مع من قتله ولما قتل ملك بعده بدمشق اخوه شهاب الدين محمود ولما بلغ زنكي مقتل شمس الملوك اسرع الى دمشق وحصرها وضيق على اهلها فقام برفع الحصار مملوك لطغتكين اسمه معين الدين انز واستولى على الامر بسبب ذلك ولما لم يرَ زنكي مطمعاً في اخذ دمشق اصطلح مع اهلها ورحل عنها الى بلاده

وفي سنة ٥٣٠ هـ سنة ١١٣٧ م تسلم شهاب الدين محمود صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها فان اصحابها اولاد الامير قيرخان بن قراجا المار ذكره ضجروا من

كثرة تعرض عماد الدين زنكي اليها والى اعمالها فراسلوا شهاب الدين في ان يسلموها اليه ويعطيهم عوضها تدمر فاجابهم الى ذلك فتسلمها واقطعها لمملوك جده معين الدين انز المار ذكره فلما راى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص الى صاحب دمشق تابعوا الغارات على بلدها فارسل شهاب الدين الى زنكي في الصلح فاستقر بينهما وكف عسكر زنكي عن حمص ولم يكن ذلك الا لمدة وجيزة فان زنكي نازل حمص سنة ٥٣١ هـ سنة ١١٣٨ م فلم يمكنه معين الدين انز من فتحها فرحل عنها الى بعرين وهي للفرنج وضيق عليها فاجتمع الفرنج ليدفعوه عن بعرين وجرى بينهم قتال شديد اخره انهزام الفرنج ودخول بعضهم الى حصن بعرين فحصر زنكي الحصن وضيق عليه فطلب الفرنج الامان فقرر عليهم تسليم حصن بعرين وخمسين الف دينار فاجابوه الى ذلك فاطلقهم وتسلم الحصن وفتح حينئذ المعرة وكفرطاب واخذها من الافرنج

وفي سنة ٥٣٢ هـ سنة ١١٣٩ م سار زنكي الى حماة وسار منها الى بقاع بعلبك فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق وراسله مستحفظ بانياس واطاعه وسار الى حمص فحصرها ثانية ثم رحل عنها الى سلمية بسبب نزول الروم على حلب كما سياتي ثم عاد الى منازلة حمص فسلمت اليها المدينة والقلعة وارسل فخطب ام شهاب الدين محمود صاحب دمشق وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك اسماعيل بن نوري كما مر وانما تزوجها طمعاً بالاستيلاء على دمشق ولما خاب امله من ذلك اعرض عنها انتهى ملخصاً عن ابن الاثير وابي الفداء وابن خلدون

﴿ عـد ٨٢٦ ﴾

في حملة يوحنا كنانس ملك الروم على سورية

هاك خلاصة ما قاله المورخون المسلمون في هذه الحملة كان ملك الروم قد خرج سنة ٥٣١هـ (سنة ١١٣٨م) من بلاده متجهزاً فاشتغل بقتال الارمن وصاحب

انطاكية وغيره من الفرنج فلما دخلت سنة ٥٣٢ ﻫ (سنة ١١٣٩ م) سار الى بزاغة وهي على ستة فراسخ من حلب وحاصرها وملكهـا بالامان ثم غدر باهلها وقتل فيها واسر وسبي فتنصر قاضيها وقدر اربع مئة نفس من اهلها واقام فيها عشرة ايام ثم رحل عنها بمن معه الى حلب ونزل على قويق (نهرها) وزحف اليهـا وجرى بينه وبين اهلها قتال كثير فقتل من الروم بطريق عظيم القدر عندهم فعادوا خاسرين واقاموا ثلثة ايام ورحلوا الى الاثارب وملكوها وتركوا فيها سبايا بزاغة وتركوا عندهم من الروم من يحفظهم وساروا نحو شيزر فخرج الامير اسوار نائب زنكي بحلب واوقع بمن في الاثارب من الروم واستفك اسرى بزاغة وسباياها وسار ملك الروم الى شيزر وحصرهـا ونصب عليهـا ثمانية عشر منجنيقاً واوسل صاحب شيزر ابو العساكر بن منقذ الكناني الى زنكي يستنجده فسار زنكي ونزل على العاصي بين حماة وشيزر وكان زنكي وعسكره يشرفون كل يوم على الروم وهم محاصرون شيزر بحيث يراهم الروم واقام ملك الروم محاصرًا شيزر اربعة وعشرين يوماً ثم رحل عنها من غير ان ينـال منها غرضاً وسار زنكي في أثر الروم فظفر بكثير ممن تخلف منهم ومدح الشعراء زنكي بسبب ذلك ومن هذا ما قاله مسلم بن خضر الحموي من ابيات اولها :

بعزمك ايها الملك العظيمُ ... تذل لك الصعاب وتستقيمُ
ومنها الم ترَ ان كلب الروم لما ... تبين انه الملك الرحيمُ
فجاء فطبق الفلوات خيلاً ... كأنَّ الجحفل الليلُ البهيمُ
فحين رميته بك في خميس ... تيقن فوت ما امسى يرومُ
كانك في العجاج شهاب نور ... توقد وهو شيطان رجيمُ

وممن ذكروا هذه الحملة من المؤرخين النصارى دي لارو في موجز تاريخ الملك السافل قال في سنة ١١٣٧ عاد الملك يوحنا كومنانس الى مطامعه بالاستيلاء

على انطاكية وكانت هذه الامارة بعد مقتل بيومند الثاني اميرها في حرب مع زنكي قد وقعت في يده ابنة عمرها ثلث سنين اسمها قسطانسا وقد خطبت لريموند ابن كنت بواتيا ولما علم ريموند ان ملك الروم يجهز حملة على انطاكية استنجد رئيس عصابة من الارمن وجهز بعض الجنود فلم يجده ذلك نفعاً بل فتح ملك الروم ترسيس وادنه وما جاورهما ثم حاصر عين زربه فقاومه اهلها شديد المقاومة ولكن الجئوا ان يستسلموا اليه فسامَهم وهزّم الارمن من المواضع التي كانت بيدهم وبعد ان استحوذ على كيليكيا كلها خيم على ابواب انطاكية فارتاع ريموند صاحبها واستنجد فولك ملك اورشليم لكن هذا الملك كان احوج منه الى من ينجده على زنكي امير الموصل وحلب فلم يرَ ريموند مناصاً من ان يسلم المدينة الى ملك الروم ويقر بسيادته ووعده الملك يوحنا ان يلحق بامارة انطاكية كل ما يأخذه من المسلمين وبعد التوقيع على معاهدة بهذا المعنى خفقت اعلام ملك الروم على قلعة انطاكية ومضى الملك يصرف فصل الشتاء في ترسيس

ثم افتتح الملك بعض المدن على الفرات وسار الى حلب ومعه امير انطاكية وكنت الرها وكانت حلب محصنة وفيها حامية كثيرة شديدة الباس فوثبوا على الافرنج وردوا مرات فلم توهن عزيمتهم وتعرض الملك نفسه دفعات لفقد حياته فلم ينثنِ عن عزمه لكنه خشي اخيرًا حصول مجاعة في عسكره فارغم ان يرفع الحصار عن حلب ويكتفي باخذه بعض القرى المجاورة لها ويرحل الى شيزر آملاً ان يستعيض عما خسره وقبل ان يعبر العاصي عبره فرسان المسلمين ووثبوا على عسكره فهزمهم الروم وغرق كثيرون منهم في النهر وعاد البقية الى شيزر واعتصموا باسوارها يدافعون عن بلدهم مدافعة الابطال فلم يتمكن الروم من فتح المدينة واستحوذوا على بعض ضواحيها فقط وقتلوا سكانها وخاف سكان المدينة فراسلوا الملك يوحنا بالصلح وقدموا له تقادم نفيسة فرحل عنهم الى انطاكية

وقد دخل الملك يوحنا انطاكية باحتفاء عظيم وكان معه امير انطاكية وكنت الرها يضبطان عنان جواده فاجله الاهلون اجلال ملكهم وكانت له السلطة المطلقة في المدينة على انه سال امير انطاكية ان يقيم فيها حامية من قبله فوجس الامير من ذلك وحسبه تخلية للملك عن امارته فلجأ الى حيلة سيئة العاقبة فدس الى سكان المدينة ان يثوروا ويحملوا سلاحهم فعمت الثورة المدينة وتالب سكانها واخذوا يهددون ويصيحون في الاسواق الويل لانطاكية فقد بيعت للروم وهجموا على بعض حاشية الملك فقتلوا كثيرين واتبعوا اثر من هرب الى قصر الملك فدعا الملك الامراء وقال لهم ارى هذه الجموع لم تفهم ما قصدته وقد نسبوا الي من السوء ما لم اتعمده فسيروا وخمدوا روع هولاء الثائرين واكدوا لهم انني غدا ابين لهم سوء ظنهم بي بارتحالي عن انطاكية فانني من حضر على سداد الملك واصالة رأيه ومضى الامير وكنت الرها فطيبوا قلوب الثائرين وفي الغد خرج الملك من المدينة وخيم عند ابوابها ثم سار الى قسطنطينية وفي قلبه حزازات من اهل انطاكية

فبعد اربع سنين اي سنة ١١٤٢ عاد الى سورية ومعه عمانويل اصغر ابنائه وبلغ الى اسوار انطاكية واستأنف ما كان قد طلبه من ريموند ان يقيم حامية في قلعة انطاكية فابى ريموند الاجابة الى مطلوبه فاوعز الملك الى جنوده ان ينهبوا بلاد انطاكية فاندفعوا ينهبون ويقطعون الاشجار ويتلفون الحصاد والثمار ويحرقون المزارع والقرى وكان يؤمل ان يستحوذ على انطاكية بهذه الوسيلة السيئة فزاد الناس كرها له ودار في خلده ان يسير الى اورشليم ويقضي بها فصل الشتاء فسير رسلاً الى فولك ملك اورشليم يستاذنه بان يزور الاماكن المقدسة ويعده بانه ينجده على اعدائه فلم يثق الملك باخلاص ملك الروم ووجس من دخوله اورشليم فاجابه انه يسر بقبوله لكنه يخشى ان القحط الحاصل في بلاده لا يمكنه من تقديم الازودة الكافية لجيشه فان شاء ان يحضر بعشرة الاف رجل فقط احتفى بلقياه وتكريم

مثواه فادرك ملك الروم سبب رفض قبوله مع جيشه ولم يشا ان ينفصل عن جيشه فاعاد رسل ملك اورشليم اليه وارسل اليه معهم هدايا نفيسة وقفل الى كيليكية متوقعاً سنوح فرصة لاتمام ما نوي الا انه بينما كان يوماً يروح نفسه بالصيد جرح بسهم مسم من جعبته لدى عراكه لاحد الضواري ومات من جرحه في ٨ نيسان سنة ١١٤٣ واوصى رؤساء جيشه ان يملكوا بعده ابنه عمانويل المذكور فملكوه وعاد الى قسطنطينية

وتوفي فولك ملك اورشليم سنة ١١٤٤ وفي رواية اخرى سنة ١١٤٢ وله ابنان بودوين واموري

عـد ٨٢٧

في ملك بودوين الثالث على اورشليم واخذ المسلمين الرها

بعد وفاة فولك ملك اورشليم انتخب لخلافته ابنه بودوين وهو الثالث بهذا الاسم والخامس من ملوك اورشليم ولم يكن له من العمر عند ارتقائه الى سدة الملك الا ثلث عشرة سنة وقد اثنى غوليلموس اسقف صور على حسن اخلاقه وحميد صفاته ومن اهم الاحداث في ايامه فتح عماد الدين زنكي صاحب الموصل وحلب مدينة الرها قال المؤرخون المسلمون في ذلك في سنة ٥٣٩ هـ (سنة ١١٤٥ م) فتح اتابك عماد الدين زنكي مدينة الرها من الفرنج وفتح غيرها من حصونهم في الجزيرة ايضاً وكانت مملكتهم بهذه الديار من قرب ماردين الى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وغيرها وكانت هذه الاعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين وكان صاحب راى الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر وكان زنكي يعلم انه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه فتحها فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج انه غير قاصد بلادهم فراوا انه منشغل بغيرهم فاطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات وبلغ زنكي الخبر فنادى

في عسكره بالرحيل وان لا يتخلف احد عن الرها في غد يومه فساروا الى الرها ونازل زنكي المدينة وقاتل اهلها ثمانية وعشرين يوماً وامر بنقب اسوار المدينة ولج في قتالها خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير اليه فاخذها عنوةً وقهرًا وحصر قلعتها فملكها ايضاً ونهب الناس الاموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال واعجبت المدينة زنكي فلم يشا خرابها وامر برد ما اخذ منها وجعل فيها عسكرًا يحفظها وتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات الا البيرة فانه حاصرها ولم يقدر ان ياخذها حينئذٍ (ملخص عن الكامل لابن الاثير)

واليك ما قاله المؤرخون النصارى ملخصاً عن معجم تاريخ الصليبيين بعد وفاة جوسلين الاول خلفه في كنتية الرها ابنه جوسلين الثاني وكان عاكفاً على ملاذه متقاعدًا عن الاهتمام بشؤون امارته ترك الاقامة في قصبتها الرها واقام في طوربال على عدوة الفرات لاهياً بما يلذ له وكان زنكي هائماً بفتح الرها فخادع جوسلين بما ينوى وهاجم الرها بغتة سنة ١١٤٤ واقام عليها الحصار ولم تنجدها ارملة فولك ملك اورشليم التي كانت تدبر المملكة اصغر ابنها وكان ريموند امير انطاكية عدوًا لجوسلين فلم يشاء ان يناصره فانفرد اهل الرها بمناصبة زنكي آملين ان تنجدهم امة الفرنج واستمروا على ذلك ثمانية وعشرين يوماً فلم يكن منجد ولا معين وفتح عسكر زنكي منافذ في اسوار المدينة ودخلوها فقتلوا كثيرين من سكانها رجالاً ونساء واطفالاً وشيوخاً ونهبوا بيوتها وكنائسها وجروا اسقفاً ارمنياً في شوارعها ثم جلدوه وقتلوا الاسقف اللاتيني واكايرسه وارسلوا رؤوس بعض القتلى الى بغداد واسروا من بقي من الاهلين وقال ابو الفرج بن العبري في تاريخه السرياني ان اهل الرها كبارًا وصغارًا حتى الرهبان ايضاً تسارعوا الى اسوار المدينة للذب عنها وكانت النساء يحملن الى المحاربين الحجارة والماء والزاد وعرض زنكي عليهم عند ثقب الاسوار والابراج ان يستسلموا اليه فابوا معللين نفوسهم بوصول جوسلين وملك

اورشليم اليهم وكان في اسفل بعض الابراج اخشاب اتى زنكي النار فيها فتداعت فتسارع السكان الى ذلك المحل ليمنعوا دخول الاعداء منه وخلت الاسوار من عدد كاف لصد المهاجرين فنقب جنود زنكي السور ودخلوا المدينة فانهزم سكانها الى القلعة فلم يفتح لهم الفرنج حراسها الابواب الى ان يرجع رئيسهم الذي كان قد سار للذب عن المدينة ولما عاد ازدحم الناس في الباب حتى هلك منهم خلق كثير واصيب الرئيس بسهم فمات وبعد ان استحوذ زنكي على المدينة والقلعة امر جنوده ان يغمدوا سيوفهم وسمح لبعض السريان والارمن ان يعودوا الى السكنى بالرها واطلق النساء والاولاد ولما قتل زنكي سنة ١١٤٧ عند حصاره حصن جعبر اغرى جوسلين سكانها النصارى بان يسلموها اليه فدخل اليها وملكها وحاصر قلعتها فدهمه نور الدين بن زنكي من حلب في عسكر جرار وارغمه على ترك الرها ونهب المدينة واسر اهلها وانهزم بعضهم الى اماكن اخرى واما جوسلين فقبض عليه نور الدين بحيلة وسجنه بحلب حيث توفي سنة ١١٤٩ وبذل عمانويل كومنانس ملك الروم مالاً جزيلاً لارملة جوسلين فتخلت له عن طوربال وغيرها من المدن التي بقيت لها على عدوة الفرات وراى ملك اورشليم ان لا طاقة له على حفظ كنتية الرها فارتضى بتركها لملك الروم واحضر ارملة جوسلين الى انطاكية مع اسرات الفرنج التي كانت في الرها على ان ملك الروم لم يستطع ايضاً ان يبقي لنفسه على الرها وهي في وسط املاك المسلمين فامست فريسة لنور الدين ابن زنكي وقد عادت الى ملك الولاة المسلمين بعد ان ملكها الافرنج نحواً من نصف قرن

عـد ٨٢٨

في حملة الصليبيين الثانية على سورية

في سنة ١١٤٥ سار اسقف جبلة الى البابا اوجانيوس الثالث وهو في فيتربو بايطاليا يلتمس المساعدة لكنيسة المشرق وكان يروي اخبار اخذ المسلمين مدينة الرها

وتنفجر من عينيه ينابيع الدموع فانفذ البابا اوجانيوس الثالث رسالة الى لويس السابع ملك افرنسة يحضه بها على امداد الافرنج الذين بسورية ومما قاله في هذه الرسالة ، لا نستطيع ان نقول دون اسف شديد وذرف الدموع السخيفة ان مدينة الرها وقعت في يد الاعداء هي وغيرها من المدن وان رئيس اساقفة الرها قتل واتبعوا به اكايرسه كله وذخائر القديسين اهينت ودنست والخطر يحف بكنيسة الله في المشرق ، فعزم الملك لويس ان يسير الى المشرق وكاشف بقصده بعض الولاة والاعيان فاشاروا عليه ان يستدعي القديس برنردس ويستشيره فاجابه القديس انه لا يجزم بشي قبل امر البابا له ولما حثه الحبر الروماني على ان يخطب مبيناً لزوم انجاد الافرنج في الاماكن المقدسة اندفع يخطب وصنع الله آيات كثيرة على يده واكثر من الرسائل الى انحاء كثيرة فتالبت جموع وافرة العدد وفي راسها الملك لويس السابع ومعه كثيرون من ولاة افرنسة واعيانها وكونراد ملك المانيا ومعه كثيرون من ولاة مملكته واعيانها ولما بلغ الملكان في جيشهما الى ارض مملكة الروم اكثر الملك من بعث الوفود لملتقاهم وكان هولاء الوفود يغالون في اطرائهم للملكين حتى كان كل سامع من الافرنج يشمئز من هذا الغلو ويمل من سماعه وقد روى اودون دي دويل الذي كان مرافقاً الملك لويس وكتب تاريخ رحلته هذه ان غودفروا اسقف لانكر الذي كان في معية الملك احتدم من كثرة التعظيم للملك بخطب وفود ملك الروم فقاطعهم الحديث قائلاً حسبكم اخواني ما جئتم به تكراراً في مجد الملك وعظمته وحكمته وورعه فهو عالم بنفسه ونحن عالمون به فقالوا الان سريعاً ما تريدون وكان ملك الروم يخشى ان ينل الملكان عرشه فاراد ان يلتقيهما بالترحاب والتجلة ويضمر لهما الخديعة والمكر مقتدياً بجده الكسيس كومننس وابيه يوحنا وقد روى نيقيطا المؤرخ اليوناني (في كتاب تاريخه السنوي ك ١ من مجموعة التاريخ البيزنطي الذي طبع في البندقية) اخبار معاملة الروم للملكين لويس وكونراد

منها ان الملك كونراد مرض احد انسبائه عند مروره بادرنه فتركه بها فدخل بعض جنود الروم الى مخدعه فاحرقوه فعاد ابن اخي الملك فاحرق الدير الذي حرق به نسيبه وجزى المجرمين بما جنت ايديهم وكان الروم يكمنون للافرنج في طرقهم وينتالون من تخلف منهم ولما كان الافرنج يأتون المدن ليمتاروا طعاماً كان الروم يوصدون الابواب وكانوا يدلون من اعلى الاسوار حبالاً فياخذون اولاً ما يتطلبون من الثمن ثم يعطونهم ما يحسن لهم من الخبز او الطعام وكانوا احياناً ياخذون الثمن ويغيبون عن الاسوار دون ان يعطوهم شيئاً ويخلطون الدقيق احياناً بكاس فيؤذي آكليه ولا اعلم ان كان ذلك كله بعلم الملك والذي اعلمه علم اليقين ان الملك سك نقوداً زيافاً ليعطاها الفرنج اذا باعوا شيئاً كل هذا من كلام نيقيطا المذكور

ولما بلغ ملك افرنسة الى قسطنطينية خرج للقائه جميع الشرفاء من الاكايرس والشعب وسالوه متذللين ان يتعطف ويزور الملك فهو واجد لرؤيته فسار بعدة قليلة من حاشيته فلاقاه الملك بنفسه وعانقه ثم دخلا القصر فجلسا على كرسيين لا يمتاز احدهما عن الاخر واكثر ملك الروم من الملاطفة والمجاملة والوعود وليتها صادقة ثم سار ملك افرنسة ومعه اشراف المملكة الى القصر المعد له وكان ملك الروم يادب المآدب الفاخرة له ويصحبه لزيارة كنيسة القديسة صوفيا وغيرها من غرائب القسطنطينية واما كونراد ملك المانيا فلم يشا ان يحل في قسطنطينية واقتصر ان يقابل عمانويل ملك الروم وكل منهما على جواده مع النسابة بينهما لان عمانويل كان متزوجاً باخت زوجة كونراد وسار كونراد في طريق الاناضول قبل ملك افرنسة واصحبه ملك الروم بكتائب من جيشه ليهدوهم الطريق والاولى ان يقال ليضلوهم الطريق ويغدروا بهم ولما بلغوا الى بلاد المسلمين اعلم هولاء الخونة قادة الالمان ان يعدوا زاداً يكفيهم بعض ايام لانهم سوف يعبرون برية قاحلة لياخذوهم في طريق اقرب الى قونية المدينة النضرة الفاخرة واقتادوهم في طرق وعرة خشنة ولما لم يبلغوا

غاية سفرهم بعد ايام عتبهم الملك كونراد ولامهم فتركوا المعسكر ليلاً ولم يبق من يهديهم السيل فتوغلوا في بلاد صعبة المسالك وليس من يهديهم الى طريق للخروج منها

وروى كثيرون من المؤرخين منهم ابن العبري ان الملك عمانوئيل اخبر سلطان قونية بمسير الفرنج وحسن له اغتيالهم فجمع السلطان جموعاً ودهم الالمانيين من كل جهة وهم تائهون تعبون لا زاد معهم ولا علف لخيلهم فرجموا القهقرى فتبعهم الاتراك يقتلون من تخلف عنهم او عجز عن لحاقهم واقتحم بعض شجعانهم الخطر مدافعين عن الضعفاء ودخلوا في مضيق فاكتنفهم الاتراك وفتكوا باوليك الشجعان ومن تصدوا للدفاع عنهم واصاب كونراد نفسه سهمان وهو بين فرسانه وظل القتلى والجرحى والمرضى على قارعة الطريق وكان جيش المحاربين من الالمانيين نحو سبعين الفاً عدا من اتبعهم فلم ينجُ منهم الاعشرهم وانهزم الملك كونراد وعاد الى نيقية فالتقى هناك بلويس ملك افرنسة فعانق احدهما الاخر وبكيا وقص كونراد ما جرى له منتحباً ورافق ملك افرنسة الى افسس وعاد الى قسطنطينية يقيم فيها فصل الشتاء

واما ملك افرنسة وجيشه فساروا في طريق افسس وكانت بينهم وبين الاتراك مناوشات ظهروا بها عليهم الى ان انتهوا الى طريق حجر معلق بين مهاوٍ من جهة وصخور متراكمة من اخرى وكان الجيش الافرنسي مقسوماً الى مقدمة وقلب وساقة وكانت الملكة اليونورا في مقدمة الجيش فلم تشا ان تنظر باقيه ولما تملصت من ذاك المضيق رات سهلاً رحباً اسرعت اليه في من معها لتخيم به فوثب الاتراك على قلب الجيش حيث كان الضعفاء والاعزال وجهاز العسكر واعملوا سيوفهم باوليك الضعفاء وكان الملك في ساقة الجيش وسمع الصراخ فاسرع بفرسانه والحم القتال مع الاتراك فنجا من بقي من قلب الجيش واستمر الملك والاعداء مشتبكين بالقتال

الى ان اخذ الملك باغصان شجرة من على جواده ورمى بنفسه على صخر وكان يرد النبال المرشوقة عن بعد بترسه وسيفه عامل بمن دنا منه فانقذته شجاعته وظلام الليل ولحق عسكره وهم يبكون عليه ثم ساروا نحو ساتالية وهي اضالية فكانت مناوشات بينهم وبين اعدائهم كان الظفر للفرنسيس بها ولكن اخرب الاعداء القرى في طريقهم فاصابتهم مجاعة ذبحوا فيها خيولهم واغتذوا بلحمها وانتهوا بعد مسيرة اثني عشر يوماً الى اضاليه وكان سكانها من الروم وهي من املاك ملكهم فاغلقوا ابواب المدينة ومنعوا الفرنج من الدخول اليها فكثر التذمر بينهم لانهم لم يتولوا قسطنطينية عند مرورهم بها كما كان راي بعضهم وهموا ان ياخذوا اضالية فاتى واليها يعرض على الملك انه يقدم لهم سفناً يسيرون بها الى انطاكية فقبل الملك ما عرضه الوالي ولكن مرت خمس اسابيع ولم يحضر السفن واخيرًا احضر منها ما لا يكفي لشحن العسكر كله فسار الملك وجماعته بهذه السفن وترك الملك للوالي مبلغاً عظيماً من المال ليصرفه على المرضى وتسيير جند يصحبون الافرنسيين الى ان يعبروا كيليكية على انه في غداة سفر الملك رأى الفرنج الاتراك مقبلين اليهم عوضاً عن الجنود الذين وعد الوالي ان يسيرهم ليهدوا الفرنج الطريق ويامنوهم به فدافع الفرنج عن نفوسهم مدافعة الابطال اياماً ولكن انهكهم التعب والجوع فسالوا الوالي ان يسمح لهم بالدخول الى المدينة فابى وانهزم بعض رؤسائهم والله يعلم كم قتل منهم وهرب وبقي منهم تايهين في كيليكية

واما الملك ومن سار معه الى انطاكية فلما وصلوا اليها نسوا ما اصابهم ولم يبالوا بمن خلفوهم في اضالية وعكفوا على الحفلات والملاهي وكانت الملكة اليونورا علة ذلك فهي كانت بنت اخي ريموند دي بواتيا امير انطاكية ومحبة للقصف واللهو وغير راسخة في الادب وكان ريموند عمها يريد بقاء الملك في انطاكية ليساعده على فتح حلب فاجابه الملك انه يحب قبل كل شيء ان يبلغ اورشليم ليفي نذره بالحج اليها

فتغير ريموند وجاهر بمقاومة الملك حتى هم ان يفصل الملكة ابنة اخيه عن زوجها ودرى الملك بذلك فاسرع بالخروج من انطاكية وكان ملك اورشليم واعيانها يخشون طول اقامة الملك بانطاكية فارسلوا يسالونه ان يعجل مسيره اليهم فعبر الملك سورية وفونيقي ولم يجب الى سوال كنت اطرابلس ان يمكث مدة عنده ليعاونه على توسيع تخوم ولايته ولما انتهى الملك الى اورشليم خرج لملتقاه الامراء والشعب والاكليرس حاملين سعف النخل والزيتون محيين الملك بالتسابيح التي حيي بها المخلص وطابت القلوب بقدومه وانتعش بهم الرجاء والامل ثم بلغ الى هناك كونراد ملك المانيا متنكرًا مع جماعته بهيئة حجاج وبعد ان اتم الملكان زيارتهما عقد اجتماع في عكا شهده الملكان وملك اورشليم وكثيرون من الاساقفة والامراء والاعيان واتفق رايهم في هذا الاجتماع ان يحاصروا دمشق وعين موعدًا لذلك اليوم الخامس والعشرون من ايار سنة ١١٤٨ في طبريه (ملخص عن كثيرين من المؤرخين ولا سيما غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب)

﴿ عد ٨٢٩ ﴾

في حصار دمشق

عزا المؤرخون المسلمون حصار دمشق الى ملك الالمان فقالوا ما ملخصه في سنة ٥٤٣ هـ (سنة ١١٤٨ م او سنة ١١٤٩) سار ملك الالمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج فلما وصل الى الشام قصده من بها من الفرنج وخدموه وامتثلوا امره فامرهم بالمسير معه الى دمشق ليحصرها ويملكها فساروا معه وحصروها وكان صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن نوري بن طغتكين وليس له من الامر شيء وانما الحكم لمعين الدين انز مملوك جده طغتكين فجمع العساكر وحفظ البلد واقام الفرنج يحاصرونه ثم زحفوا بفارسهم وراجلهم فخرج اليهم اهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وقوي الفرنج وضعف المسلمون فتقدم ملك

الالمان حتى نزل بالميدان الاخضر فايقن الناس بانه يملك البلدة وكان معين الدين قد ارسل الى سيف الدين غازي بن زنكي يدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه اخاه نور الدين محمودًا من حلب فنزلوا في حمص وارسل الى الفرنج يهددهم ان لم يرحلوا عن دمشق فكف الفرنج عن القتال فقوي اهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب وارسل معين الدين الى الفرنج الغرباء يهددهم بحضور سيف الدين والى فرنج الشام يقول باى عقل تساعدون هؤلاء علينا وان ملكوا دمشق اخذوا ما بيدكم من البلاد واما انا فان رايت ضعفي عن حفظ دمشق سلمتها الى سيف الدين وان ملك الشام فلا يبقى لكم معه مقام فاجابوه الى التخلي عن ملك الالمان وبذل لهم حصن بانياس وحسنوا لملك الالمان ترك دمشق فرحل عنها وعاد الى بلاده. هذا ما قاله المؤرخون المسلمون وهم غير عالمين بداخلة الفرنج

واما المؤرخون الفرنج فقالوا ان عساكرهم قصدت دمشق وحاصرتها وان ملك اورشليم كان في طلائع الجيش ومن خلفه نصارى المشرق ومن بعدهم عسكر لويس ملك افرنسة واما ملك المانيا فكان في من جمعهم من عسكره في ساقة الجيش ليحفظ المحاربين من وثوب عدو من الوراء وصبر المسلمون على القتال ببسالة عند عدوة النهر الذي يخترق البساتين ولما راى كونراد ملك الالمان ذلك اسرع بفريق من رجاله الى مقدمة الجيش وانقض على المسلمين كصاعقة فوثب عليه رجل من المسلمين طويل القامة شديد الباس فعاجله ملك الالمان بضربة سيف بين العنق والكتف فشقه نصفين فارتاع المسلمون وانهزموا الى المدينة وبقي الافرنج مالكين عدوة النهر وايقن سكان دمشق بعجزهم عن الدفاع وهموا ان يخلوا المدينة والقوا على ابواب المدينة ومداخل الافرنج حجارة ضخمة ليتيسر لهم الفرار بعيالهم واموالهم قبل ان يدركهم الفرنج

وبقي الافرنج امتلاك المدينة ولم يبق هم لروسائهم الا بان يعرفوا لمن تكون الولاية على دمشق بعد فتحها ورجح كنت فلاندرا على مزاحميه فاخذت الغيرة اشراف الفرنج في سورية من تفضيله عليهم واخذ بعضهم يعاملون على حبط مسعاهم واشاروا على رؤساء الجيش ان يتركوا موقفهم في البساتين ويرتحلوا الى جهة اخرى قاحلة والاسوار تجاهها منيعة وورد الخبر بان اميري حلب والموصل قادمان بجيش جرار وتجند عشرون الف من المسلمين وطلبوا المصاف فلم يخجل الفرنج وملك افرنسة والمانيا ان يرحلوا عن دمشق الى فلسطين وهناك تحادثوا بان يحاصروا عسقلان فلم يتفق رايهم على شيء وعاد ملك المانيا الى بلاده خجلاً آسفاً وبقي ملك افرنسة في اورشليم الى عيد الفصح سنة ١١٤٩ ثم عاد الى افرنسة دون ان يصنع شيئاً يذكر فلم تكن نتيجة صالحة من هذه الحملة بل كان منها اشتداد الضغينة بين ملوك الفرنج وملك الروم وزيادة قوة المسلمين وجراءتهم وذل النصارى ووهن قوتهم وعلة كل ذلك الحسد والطمع واختلاف الاراء الناشيء عن ذلك وقد تعزى وتاسى القديس برنردس الذي دعا الناس الى هذه الحملة وغيره من المتورعين بان من توفوا من اهل هذه الحملة ماتوا في سبيل الله وكفروا عن آثامهم وآثام غيرهم

﴿ عد ٨٣٠ ﴾

﴿ في اخذ الافرنج مدينة عسقلان ﴾

كانت مدينة عسقلان قد استمرت كل هذه المدات تحت ولاية الخلفاء العلويين بمصر وكان بقاؤها كذلك وبالاً على الفرنج وعلى ملك اورشليم خاصة اذ لم يكن حاجز يصد المصريين عن مهاجمة مملكة اورشليم في طريق عسقلان بل كانوا كل ما شاؤوا يرسلون عسكرًا الى عسقلان فينكل بالفرنج وقد قصدها الفرنج مرات فلم يتيسر لهم فتحها الى ان استغنموا فرصة الخلاف بين الوزراء في مصر وشنوا الغارة عليها فملكوها وقد روى ذلك ابن الاثير في الكامل فقال في تاريخ سنة ٥٤٨ ه

سنة ١١٥٤ م • في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوي المصري وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون الى ملكها سبيلاً وكان للوزراء بمصر الحكم في البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته وكان الوزراء يرسلون اليها كل سنة من الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها فلما كان في هذه السنة ان قتل ابن السلار الوزير واختلفت الاهواء في مصر وولي عباس الوزارة فاغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصبر اهلها وقاتلوهم قتالاً شديدًا وردوا بعض الفرنج الى خيامهم مقهورين وتبعهم اهل البلد اليها فايس الفرنج من فتح المدينة فبينا هم على عزم الرحيل اذ قد اتاهم الخبر ان البلد قد وقع بين اهله خلاف لادعاء كل طائفة منهم ان النصرة كانت من جهتهم وعظم الخلاف حتى قتل من الفريقين قتلى فطمع الفرنج وعادوا الى حصار المدينة ولم يجدوا من يمنعهم فملكوها •

وقال المؤرخون الفرنج في ذلك ان عسقلان كانت باباً لملوك مصر يدخلون منه كلما شاؤوا الى مملكة اورشليم برًا وبحرًا وكان هؤلاء الملوك يرسلون كل سنة اليها اموالاً واسلحة ويدفعون ارزاقاً لكثيرين من اهلها فهمّ بودوين الثالث بان يريح نفسه ومملكته من شر اهل هذه المدينة ويفتح باخذها سبيلاً الى مصر فحصن قلعة غزة التي كانت خربة ومهملة وعهد بحراستها الى فرسان الهيكل (وهم جماعة تألبوا في ذلك العصر) وكانت غزة بين عسقلان ومصر وبها محط نجدات ملوك مصر لعسقلان فحاول المصريون ان يملكوا تلك القلعة فلم يتيسر لهم اخذها ولم يبق لهم سبيل الى شن الغارات على بلاد الفرنج او الى انجاد عسقلان الا بالبحر وفي سنة ١١٥٢ م اتى كثيرون من الامراء الذين يدعون حق الولاية على اورشليم في جمع كبير وخيموا في جبل الزيتون فخرج النصارى اليهم وظهروا عليهم وتتبعوا آثارهم الى الاردن وعاونهم الفرنج من نابلس وغيرها فقتلوا كثيرين وعادوا الى

اورشليم غانمين شاكرين لله وحملهم هذا الظفر ان يسيروا الى ضواحي عسقلان وجناتها فارتاع منهم اهل عسقلان وهربوا الى المدينة فعزم الفرنج ان يحاصروها ودعا الملك بودوين اكابر الفرنج والفرسان واساقفة اليهودية وفونيقي فساروا وبطريرك اورشليم يحمل امامهم خشبة الصليب وحاصروا المدينة برًا وبحرًا وكان لجيرار كنت صيدا امرة اسطول مؤلف من خمس عشرة سفينة واستمر الحصار شهرين وقدم نحو الفصح جمع من الحجاج فحل في عكا ويافا فاستنجدهم الملك فاسرعوا الى معسكر النصارى وانضم بعضهم الى جنود جيرار في الاسطول فشدوا الحصار على عسقلان واتتها نجدة في البحر من مصر فلم توهن عزم الفرنج بل ازدادوا حمية ونخوة وصنعوا برجاً من خشب ارفع من الاسوار فالقى العسقلانيون ليلاً بين البرج والسور كثيرًا من المواد المحرقة فالهبوها فهب هواء حول اللهيب نحو المدينة حتى اصبحت حجارة السور كلساً فسقط بعض السور وتسارع فرسان الهيكل ودخلوا المدينة واقاموا خفرًا على الثلمة في السور كيلا يدخل غيرهم فيشاطرهم الغنيمة والفخر ولما راى حامية المدينة واهلها عدد الداخلين قليلاً وقد اشتغلوا بالنهب عن القتال وثبوا بهم فقتلوا منهم وهزموا باقيهم وسدوا الثلمة فاستولى الكدر والاسف على الفرنج وعادوا الى معسكرهم واستدعى الملك والاعيان والاساقفة للمشاورة فراى بعضهم الرحيل عن الحصار وراى غيرهم العود اليه فعادوا في الغداة الى الحصار واستمر القتال النهار كله وكثر القتلى في الفريقين فطلب العسقلانيون هدنة لدفن موتاهم ثم طلبوا الصلح على شريطة ان تفتح لهم ابواب المدينة ويباح لهم الخروج منها واخراج اموالهم واثقالهم مدة ثلاثة ايام فقبل الملك شرطهم وعمل به فخرجوا واصحبهم الملك بمن يخفرهم الى تخوم مصر ودخل في ١٢ آب سنة ١١٥٤ الملك والبطريرك والاساقفة واعيان الفرنج وعسكرهم الى عسقلان (ملخص عن تاريخ غوليلمس الصوري لهذه الحرب)

عـــد ٨٣١

ذكر غير ذلك من الحوادث في ايام بودوين الثالث

مما ذكره المورخون المسلمون في تاريخ سنة ٥٤٤ هـ سنة ١١٥٠ م ان نور الدين محمود بن زنكي غزا بلاد الفرنج من جهة انطاكية وقصد حصن حارم وهو للفرنج فجمع البرنس صاحب انطاكية الفرنج وسار الى نور الدين فاقتتلوا فانتصر نور الدين وقتل البرنس وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وملك بعد البرنس ابنه بيمند وهو طفل وتزوجت امه برجل اخر وتسمى البرنس ثم ان نور الدين غزاهم غزوة اخرى فهزمهم وقتل فيهم واسر وكان في من اسر البرنس الثاني زوج ام بيمند فتمكن حينئذٍ بيمند في ملك انطاكية

ومما قاله المؤرخون الفرنج ان في ذلك ان ريموند دي بواتيا امير انطــاكية هاجم نور الدين بن زنكي على غير روية لان الشجاعة به كانت تتصل الى الجسارة والتهور واصلى الحرب وليس معه الا قليل من الفرسان ينتظر وصول باقي العسكر فقتل في هذه الحرب وترك ارملة وابنين وبنتين فعني ايميريكس بطريرك انطاكية اللاتيني بالذب عن البلاد واتى ملك اورشليم لنجدة اهل انطــاكية واوقف تمادي نور الدين وسلطان قونية السلجوقي عن مد سلطتها في بلاد الفرنج

ومما رواه المؤرخون المسلمين في تاريخ سنة ٥٤٩ هـ سنة ١١٥٥ م ان نور الدين محمود بن زنكي اخذ دمشق من صاحبها حينئذٍ مجير الدين ابز بن محمد بن نوري بن طغتكين وكان سبب حرصه على ملكها ان الفرنج لما ملكوا عسقلان في السنة السالفة لم يكن لنور الدين طريق لازاحتهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان وقويت شوكة الفرنج بعد ملكهم عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية من النصارى بدمشق فمن اراد المقام بها تركوه ومن اراد العود الى وطنه اخذوه قهراً شاء صاحبه ام ابى وكان لهم على اهلها كل سنة قطيعة ياخذونها منهم فكان رسلهم

يدخلون البلد ويأخذونها منهم فلما راى نور الدين ذلك خاف ان يملكها الفرنج فلا يبقى للمسلمين بالشام مقام فراسل نور الدين مجير الدين واستماله وواصله بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق اليه وكاتب من بها من الاحداث واستمالهم فوعدوه ان يسلموا المدينة اليه وسار نور الدين الى دمشق فارسل مجير الدين الى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك اليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوانور الدين عن دمشق فقبل ان يجتمع لهم ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين لانه لما حاصر نور الدين دمشق ثار الاحداث الذين راسلهم وسلموا البلد اليه ودخل من الباب الشرقي وحصر مجير الدين في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له اقطاعاً في جملته مدينة حمص فسلم القلعة اليه وسار الى حمص فاعطاه عوض حمص بالس فلم يرضها مجير الدين وسار عنها الى العراق واقام ببغداد وابتنى بها داراً (عن الكامل لابن الاثير)

وفي سنة ٥٥٢ هـ وهي سنة ١١٥٨ م كان بسورية زلازل كثيرة شديدة خربت كثيراً من البلاد وهلك فيها ما لا يحصى فخرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرة وافامية وحمص وحصن الاكراد وعرقا واللاذقية واطرابلس وانطاكية وخربت اماكن كثيرة في باقي البلاد وتهدمت اسوار وقلاع ومما حكاه ابن الاثير في وصف هذا الخراب قوله كان بمدينة حماة معلم للاولاد وذكر انه فارق المكتب وجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم فلم يات احد يسال عن صبي كان له في المكتب

وفي سنة ١١٦٢ م سار بودوين الثالث ملك اورشليم الى جهات انطاكية فاصابته حمى شديدة فحملوه الى اطرابلس ثم الى بيروت فتوفي بها في ١٣ من شهر شباط واخذت جثته الى اورشليم فدفنت في مدفن اسلافه الملوك وحزن عليه الفرنج كثيراً لانه كان عادلاً حليماً شجاعاً صبوراً على الاتعاب ورعاً مكرماً لخدمة

الدين محباً لمنادمتهم ولم يكن له ولد فخلفه اخوه اموري

عـد ٨٣٢

في اموري الاول وما كان في ايامه

بعد وفاة بودوين الثاني اختير للملك في اورشليم اخوه اموري ويسمى الماريك ايضاً وتوّج في ١٨ من شهر شباط سنة ١١٦٢ وقد اثنى غوليلمس اسقف صور في تاريخه على كثير من مناقبه وفضائله ولم يغض على ذكر بعض معائبه ونقائصه ومن الاحداث في ايامه انه في سنة ٥٥٨ هـ وهي سنة ١١٦٤ م قصد نور الدين بن زنكي اطرابلس ونزل في البقيعة تحت حصن الاكراد فكبسه الفرنج فانهزم منهم الى بحيرة حمص وتلاحق به من سلم من المسلمين وكان هرب اليه شاور وزير العاضد لدين الله الخليفة العلوي بمصر واستنجده ليعود الى وزارته وبذل لنور الدين ثلث اموال مصر بعد رزق جندها ان اعاده الى الوزارة فارسل نور الدين شيركوه بن شاذي احد امرائه ومعه عسكر من سورية وشاور المذكور الى الديار المصرية فقتلوا ضرغام الذي كان قد تغلب على الوزارة بمصر بعد انهزام شاور واعادوا شاور الى الوزارة ثم غدر شاور بنور الدين ولم يفِ له بشيء مما وعد فاعاد شيركوه الى مصر واستولى على بلبيس والشرقية فاستنجد شاور بملك الافرنج على اخراج شيركوه من البلاد فارسل الملك اموري عسكراً من الفرنج الى مصر واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلثة اشهر وحاصر نور الدين حارم وهي بيد الفرنج واخذ وقتل واسر من الفرنج وكان في جملة الاسرى البرنس صاحب انطاكية والكنت صاحب اطرابلس ولما بلغت هذه الاخبار الفرنج وهم محاصرون بلبيس راسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه وعادوا الى سورية ورجع الفرنج ايضاً ثم سار نور الدين الى بانياس وفتحها وكانت بيد الفرنج من سنة ١١٤٩ الى هذه السنة وفي سنة ١١٦٦ فتح نور الدين

حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج وفي سنة ١١٦٨ جهز نور الدين عسكره وسيره الى مصر مع شيركوه فاستولى على بعض اعمالها وارسل شاور المذكور يستنجد الفرنج فساروا في اثر شيركوه الى جهة الصعيد والتقوا على بلد يسمى ايوان فانهزم الفرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ثم سار الى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب وعاد شيركوه الى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة اشهر فسار شيركوه اليهم فاتفقوا على مال يحملونه الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام فتسلم المصريون الاسكندرية وعاد شيركوه بابن اخيه صلاح الدين المذكور وعسكره واستقر الصلح بين الفرنج والمصريين على ان يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار وفي السنة المذكورة فتح نور الدين صافيتا والغربية ويروى والعربية

وفي سنة ١١٦٩ سار شيركوه بعسكر الى مصر وسبب ذلك تمكن الفرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بلبيس قهرًا ونهبوها وقتلوا اهلها واسروهم ونزلوا على القاهرة وحاصروها فاحرق شاور مدينة مصر القديمة خوفاً من ان يملكها الفرنج وامر اهلها بالانتقال الى القاهرة فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً فارسل العاضد الخليفة العلوي الى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الفرنج على الف الف دينار يحملها اليهم وحمل اليهم مائة الف دينار وسالهم ان يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال فرحلوا وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه وانفق فيهم المال واعطى شيركوه الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وارسل معه عدة امراء منهم ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب على كره منه احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته وكره

صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ولما قرب شيركوه من مصر رحل الفرنج الى بلادهم واجتمع شيركوه بالعاضد الخليفة فخلع عليه واجرى عليه وعلى عسكره الاقامات الوافرة وشرع شاور يماطل شيركوه في انجاز ما وعد من المال لنور الدين وافراد ثلث البلاد له وعزم شاور على ان يعمل دعوة لشيركوه وامراء عسكره ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل من ذلك وعزم عسكر نور الدين على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين وغيره من الامراء فنهاهم عن ذلك شيركوه واتفق ان شاور قصد شيركوه ليزوره على عادته فلم يجده بل لقي صلاح الدين فوثب صلاح الدين ومن معه على شاور والقوه الى الارض عن فرسه وامسكوه وهرب اصحابه وسمع العاضد الخليفة بذلك فارسل يطلب من شيركوه انفاذ راس شاور فقتله وارسل راسه الى العاضد ودخل شيركوه بعد ذلك القصر فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور امير الجيوش وقتل شيركوه بعد ذلك الكامل بن شاور واستتب له الامر

على ان شيركوه لم يلِ الوزارة الا شهرين وخمسة ايام واتاه اجله فاحضر العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة وسماه الملك الناصر وثبت قدم صلاح الدين على انه نائب لنور الدين وارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين اباه ايوب واهله فارسلهم نور الدين اليه واعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر وتمكن بالبلاد وضعف امر الخليفة العاضد وفي سنة ١١٧٠ سار الفرنج الى دمياط وحاصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وخرج نور الدين وغار على بلاد الفرنج فاضطروا ان يرجعوا على اعقابهم ولم يظفروا بشي. وفي سنة ١١٧٢ امر نور الدين صلاح الدين ان يقطع الخطبة العلوية ويخطب للخليفة العباسي فقطعها صلاح الدين وخطبوا للمستضي بالله العباسي ثم توفي العاضد العلوي فاستولى صلاح الدين يوسف بن ايوب على

قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه ونقل اهل العاضد الى موضع من القصر واخرج جميع من فيه من عبد وامة فانقرضت بالعاضد دولة العلويين الفاطميين بعد ان قام منهم اربعة عشر خليفة وكان ابتدا خلافتهم سنة ٢٩٦ ھ سنة ٩٠٩ م الى ان انقرضت دولتهم سنة ٥٦٧ ھ سنة ١١٧٢ م فمدة خلافتهم ٢٧١ قمرية و ٢٦٣ شمسية • وسبحان من لا يتغير ولا يزول

اما صلاح الدين الايوبي فالاظهر والاصح ما قاله فيه المؤرخون المسلمون قال ابن الاثير ان شيركوه وايوب ابني شاذي اصلهما من الاكراد الروادية وقصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد وكان ايوب اكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً لقلعة تكريت ولما انكسر عماد الدين زنكي خدمه ايوب وشيركوه فاحسن اليهما واعطاهما اقطاعات جليلة ولما ملك زنكي قلعة بعلبك جعل ايوب مستحفظاً لها ولما حاصره عسكر دمشق بعد موت زنكي سلم القلعة اليهم على اقطاع كبير شرطوه له وبقي ايوب من اكبر امراء عسكر دمشق وبقي شيركوه مع نور الدين بن زنكي وارسله الى مصر مرات الى ان تسلم وزارتها وكان ابن اخيه صلاح الدين بن ايوب معه ثم خلفه بعد موته كما رايت

وبعد خلافة صلاح الدين لعمه شيركوه وموت العاضد وقطع الخطبة للعلويين والخطبة للمستضي من العباسيين وارسال الخليفة العباسي الخلع لصلاح الدين والاعلام السوداء شعار العباسيين اظهر صلاح الدين الامتثال لنور الدين وانه يلي مصر من قبله ولكن وقعت بينهما وحشة باطنة فان صلاح الدين ساعد ونازل الشوبك وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً من ان ياخذه فلا يبقى ما يعوق نور الدين عن قصد مصر وبلغ ذلك نور الدين فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين وجمع صلاح الدين اقاربه وكبراء دولته وقال بلغني ان نور الدين يقصدنا فما الراي فقال عمر ابن اخيه نقاتله ونقصده فانكر ايوب ابوه ذلك وقال انا ابوكم لو رايت نور الدين

نزلت وقبلت الارض بين يديه بل اكتب الى نور الدين لو جاءني من عندك انسان واحد وربط المنديل في عنقي وجرني اليك سارعت الى ذلك واخذ صلاح الدين خلوة وقال له لو قصدنا نور الدين انا كنت اول من يمنعه ولكن اذا اظهرنا نحن كذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما تكون العاقبة واذا اظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل ما به الكفاية عند الله فكان كما قال ايوب

وفي سنة ٥٦٨ هـ سنة ١١٧٣ م سار صلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين ان يجتمعا عليها وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم وهو بالقرب من الكرك وخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين فرحل عن الكرك وارسل تحفا الى نور الدين واعتذر ان اباه مريض ويخشى ان يموت فتذهب مصر فعلم نور الدين مقصده وقبل عذره في الظاهر وكان صلاح الدين واهله خائفين من نور الدين واتفق رايهم على اخذ مملكة غير مصر حتى اذا هزمهم نور الدين عن مصر التجأوا الى تلك المملكة فجهز صلاح الدين اخاه توران شاه الى اليمن فاستولى عليها واستقرت في ملك صلاح الدين وثار عليه بعض اعيان مصر فعلم بهم وصلبهم عن اخرهم واتفق ان قد توفي نور الدين هذه السنة بدمشق وكان قد شرع يتجهز للدخول الى مصر واخذها من صلاح الدين فاتاه امر الله الذي لا مرد له وهو الذي بنى اسوار مدن الشام مثل دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها لما تهدمت بالزلازل وقام بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل وعمره احدى عشرة سنة وتولى تدبير الملك الامير شمس الدين محمد المعروف بابن المقدم واظهر صلاح الدين الطاعة له انتهى ماخوذًا عن ابي الفداء في تاريخ السنين المذكورة

وبعد موت نور الدين قلق اصحاب الاقطاعات بسورية وهم كل منهم ان يستبد بعمله ويزيده ما امكن فراسلوا الافرنج وعقدوا معهم عهدات على ان يفوهم

جزية ان حاربوا صلاح الدين وحاصر اموري ملك اورشليم بانياس التي كان نور الدين قد اخذها فاسترضاه الامراء المتولون دمشق بمال وباطلاق بعض الاسرى النصارى فعاد الى اورشليم وبعد ايام توفي بها في ١١ تموز سنة ١١٧٣ م

﴿ عـد ٨٣٣ ﴾

في بودوين الرابع وبعض ما كان في ايامه

وبعد وفاة اموري الاول ملك اورشليم قام بالملك بعده في ١٥ تموز سنة ١١٧٣ ابنه وسمي بودوين الرابع ولم يكن عمره وقتئذٍ الا ثلث عشرة سنة وقال فيه غوليلمس اسقف صور الذي كان ابوه قد عهد اليه في تربيته وتثقيفه انه كان منذ صغره يعشق المعالي والحق والعدل على انه اعتراه البرص ثم العمى فلم يدبر الملك بنفسه واختلف في من يدبر الملك فاختار بعضهم مليون دي بلانسي والي ناحية من بلاد العرب واختار غيرهم ريموند احد احفاد ريموند دي سان جيل كنت اطرابلس فتغلب هذا وسلم اليه تدبير شؤون المملكة. وكان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صغيرًا ايضاً مقيماً في دمشق يتنازع كثير من الامراء في حاشيته تدبير مملكته واتفق ان شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب ارسل يستدعي الملك الصالح بن نور الدين الى حلب ليكون مقامه بها فسار اليها واخذ سعد الدين كمشتكين مدبرًا لملكه فلما تمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية وعلى غيره من اعيان حلب واستبد بتدبير الملك فخافه ابن المقدم الذي كان يدبر الملك في دمشق واتفق مع غيره من الامراء بدمشق وكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملك عليهم فسار من مصر في سبع مئة فارس ولما بلغ الى دمشق خرج كل من كان فيها من العسكر والتقوه ونزل بدار والده ايوب المعروفة بدار العقيقي وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فاستماله صلاح الدين فسلم القلعة اليه فصعد اليها صلاح الدين واخذ ما فيها من الاموال وبعد ان قرر امر دمشق

واستخلف فيها اخاه سيف الاسلام طغتكين سار الى حمص فملكها وعصت عليه القلعة فترك حولها من يضيق عليها ورحل الى حماه فملكها وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك فامتنع في القلعة فارسل صلاح الدين يقول له ان لا غرض له سوى حفظ البلاد للملك الصالح بن نور الدين وانما هو نائبه ويريد ارسال جرديك في رسالة له الى حلب وسار جرديك بتلك الرسالة الى حلب واستخلف اخاه في قلعة حماه فلما وصل جرديك الى حلب قبض عليه كمشتكين مدبر الملك وسجنه . وعلم اخوه بذلك فسلم القلعة الى صلاح الدين ثم سار صلاح الدين الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح فاجتمع اهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن المدينة وارسل سعد الدين كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية اموالاً ليقتلوا صلاح الدين فقتلوا دونه واستمر صلاح الدين محاصرًا لحلب الى ان نزل الفرنج على حمص فسار اليها ورحل الفرنج عنها وملك حينئذٍ قلعتها التي كانت قد عصت عليه اولاً وسار الى بعلبك فملكها وارسل الملك الصالح من حلب الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه صحبة اخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي فوصل هذا الجيش الى حلب وانضم اليهم عسكر حلب وقصدوا صلاح الدين فارسل هو يبذل حمص وحماه وان تقر بيده دمشق وان يكون فيها نائباً للملك الصالح فلم يجيبوه الى ذلك وساروا الى قتاله واقتتلوا عند قرون حماه فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم عسكر صلاح الدين اموالهم وتبعوهم حتى حصروهم في حلب وقطع حينئذٍ صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وازال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوه في الصلح على ان يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب سنة ٥٧٠ هـ سنة ١١٧٥ م انتهى ملخصاً عن تاريخ ابي الفداء (مجلد ٣ صفحة ٥٩ وما يليها)

وما ذكره المورخون الفرنج في هذه الاثناء ان الفرنج غزوا الاعمال الواقعة وراء لبنان بامرة كنت اطرابلس والملك بودوين واتصلوا في الغزوة الاولى الى داريا على خمسة اميال من دمشق ثم غزوا ثانية من صيدا فدخلوا البقاع وبلغوا الى بعلبك التي سماها غوايلمس الصوري في تاريخه اميكارا وهو غلط وقد التبس عليه اسم بعلبك باسم تدمر وعادوا الى صيدا غانمين وكانوا يقصدون بهذه الغزوات ايقاف نجاح صلاح الدين الذي كان يتولى على حمص وحماه ويحاول فتح حلب ايضاً كما رايت ويعنى بتشييد اركان دولة الايوبيين

وفي سنة ٥٧١ ه سنة ١١٧٦ م كانت وقعة بين صلاح الدين وسيف الدولة غازي المذكور بتل السلطان وكان مع سيف الدولة صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما فانهزم سيف الدولة ومن معه مرغوبين واستولى صلاح الدين على اثقال عسكرهم وسار الى بزاعة فحصرها وتسلمها والى منبج فحصرها وفتحها عنوة وكان فيها نيال بن حسان المنبجي فاسره ثم اطلقه ثم سار صلاح الدين الى اعزاز فتسلمها ووثب عليه اسماعيلي فضربه بسكين في راسه فجرحه فامسك صلاح الدين يدي الاسماعيلي وبقي يضرب بالسكين فلا توثر حتى قتل الاسماعيلي ووثب اخر عليه فقتل ايضاً ولما ملك اعزاز رحل عنها الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين وساله اخيرًا اهل حلب في الصلح فاجابهم اليه واخرجوا اليه بنتاً صغيرة لنور الدين اخت الملك الصالح فاكرمها صلاح الدين واعطاها شيئاً كثيرًا وقال لها ما تريدين نقالت اريد قلعة اعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها اليهم سنة ١١٧٧ واستقر الصلح بين صلاح الدين وبين الملك الصالح وسيف الدولة صاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وتحالفوا على ان يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر ورحل صلاح الدين عن حلب وقصد بلد الاسماعيلية فنهبه وخربه واحرقه وحصر قلعة مصياف فارسل سنان مقدم الاسماعيلية الى شهاب الدين

الحارمي خال صلاح الدين يساله ان يسعى في الصلح فسال صلاح الدين الصفح عنهم فصالحهم ورحل عنهم وعاد الى مصر بعد ان استقر له ملك الشام وامر ببناء السور الدائر على مصر القاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ولم يزل العمل بهذا السور الى ان مات صلاح الدين (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير وابي الفداء في تاريخ هذه السنين)

لما عاد صلاح الدين الى مصر غزا الفرنج بعض الاعمال في ناحية انطاكية وعلم صلاح الدين بتوجيه عسكرهم الى تلك الناحية فاستغنم الفرصة ليسطو عليهم في فلسطين واليك ما قاله المورخان المذكوران في هذه الحملة في سنة ٥٧٣ ﻫ سنة ١١٧٨ م سار السلطان صلاح الدين من مصر الى ساحل الشام لغزو الفرنج ووصل الى عسقلان فنهب وتفرق عسكره في الاغارات وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر الا بالفرنج قد طلعوا عليه فقاتلهم اشد القتال وكان لتقي الدين ابن اخي صلاح الدين ولد اسمه احمد من احسن الشباب فامره ابوه بان يحمل على الفرنج فحمل عليهم وقاتلهم واثر فيهم اثرًا كثيرًا وعاد سالمًا وامره ابوه بالعود اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل وتمت الهزيمة على المسلمين وقاربت حملات الفرنج السلطان فمضى منهزمًا الى مصر في البرية ومعه من سلم فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديدًا وهلك كثير من الدواب واخذ الفرنج من كانوا متفرقين في الاغارات اسرى او قتلوهم قال ابن الاثير رايت كتاباً بخط يد صلاح الدين الى اخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له هذه الوقعة وفي اوله :

ذكرتك والخطي (١) يخطر بيننا وقد نهلت (٢) منا المثقفة (٣) السمرُ

ويقول فيه لقد اشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله منه الا لامر يريده سبحانه وتعالى . وما ثبتت الا وفي نفسها امر

---

١ الرمح ٢ شربت ٣ الرماح ايضاً

وقال المورخون الفرنج في ذلك سار صلاح الدين الى فلسطين ولما علم ملك اورشليم بذلك سار في من تيسر له جمعه من الفرسان الى عسقلان وبلغ صلاح الدين اليها وخيم في جوارها وراي عسكر المسلمين ان النصاوى محاصرون في المدينة فتفرقوا للاغارات والغنيمة في السهول فاحرقوا الرملة وخربوا عمل اللد وانهزم الاهلون وعظم الرعب في جبل اليهودية حتى اورشليم فخرج المحاربون النصارى وقصدوا عسقلان وتلال الرمل تحجب عنهم النظر حتى اشرفوا على المحل المخيم به صلاح الدين واندفعوا للقتال فاستدعى صلاح الدين عسكره المشتت وهيج من كان معه على القتال وكان بودوين الملك في طليعة جنده وامامه خشبة الصليب ولم يكن معه الا ثلثماية وخمسة وسبعون فارساً فصبر المصريون على القتال وقتل كثيرون من مماليك صلاح الدين وحاشيته وتمت الهزيمة على صلاح الدين وذويه فتتبع الفرنج أثرهم الى جبل جرار وكان المصريون يلقون في الطريق دروعهم وخودهم وضايقهم الجوع والعطش فمات كثيرون منهم وغنم الافرنج ما كان في معسكرهم من اثقال وسلاح وخيل وجمال واسروا كثيرون ممن كانوا متفرقين وقتلوا كثيرين وانهزم صلاح الدين راكباً هجيناً الى مصر وعزا ابو الفرج بن العبري في تاريخه السرياني انغلاب المصريين الى ريح عاصفة هبت في وجوههم واثارت الرمل على عيونهم (انتهى ملخصاً عن غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب كتاب ٢٠ وبرنردس الخازن في مكتبة الصليبيين وغيرهما)

عد ٨٣٤

في حروب واحداث اخرى في ايام بودوين الرابع

بعد ان عاد صلاح الدين مدحوراً الى مصر تقوى الفرنج وساروا من جهة انطاكية وحصروا مدينة حماة وكان توران شاه اخو صلاح الدين ينوب عنه في دمشق وليس عنده كثير من العسكر وكان كثير الانهماك في اللذات مائلاً الى

الراحات وكان بحماه شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين لكنه كان مريضاً وشد الفرنج الحصار على هذه المدينة وكادوا يملكونها قهرًا ولكن جد المسلمون في القتال واخرجوا الفرنج الى ظاهر السور واقاموا كذلك اربعة ايام ثم رحلوا عن حماه الى حارم وحاصروها اربعة اشهر فارسل اليهم الملك الصالح صاحب حلب مالاً فصالحوه ورحلوا عن حارم فارسل اليها الملك الصالح عسكرًا فسلمها اهلها اليه وكانت لصلاح الدين واستناب بها مملوكاً لابيه اسمه سرخك

وفي سنة ٥٧٤ هـ سنة ١١٧٩ م طلب توران شاه من اخيه السلطان صلاح الدين بعلبك وكان السلطان قد اعطاها لابن المقدم لما سلمه دمشق كما مر فارسل الى ابن المقدم ليسلم بعلبك الى اخيه فعصى بها فارسل السلطان وحصره ببعلبك وطال الحصار الى ان اجاب ابن المقدم الى تسليمها بعوض فعوضه السلطان عنها هذا ما رواه ابو الفداء ولم نر من ذكر العوض الذي ناله ابن المقدم عن بعلبك

وفي السنة المذكورة سير السلطان صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين عمر الى حماه وابن عمه محمد بن شيركوه الى حمص وامرهما بحفظ بلادهما فاستقر كل منهما ببلده . وفي سنة ٥٧٥ هـ سنة ١١٨٠ م سار صلاح الدين الى الشام وفتح حصناً كان الفرنج قد بنوه عند مخاضة الاحران وفي نسخة الاجران وفي الكامل الاخزان بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي

اتسكن اوطان النبيين عصبة تمين لدى ايمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجبٌ ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسفُ

يريد صلاح الدين الذي هو يوسف ابن ايوب هذا ما رواه ابو الفداء وروى ابن الاثير الخبر باكثر تفصيل فقال ما ملخصه سار صلاح الدين من دمشق الى بانياس وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار الى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود اليه عند اجتماع العساكر فقاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه الى بانياس وخيله

متكبرًا وعاد صلاح الدين فاخذ الحصن ودكه الى الارض (انتهى ملخصاً عن تاريخ غوليلمس اسقف صور كتاب ٢١)

وفي سنة ٥٧٧ هـ سنة ١١٨٢ م توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بحلب وعمره نحو تسع عشرة سنة بمرض القولنج ولما اشتد عليه وصف له الاطباء الخمر فمات ولم يستعمله واوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل فسار اليها وبعد ان استقر في ملكها كاتبه اخوه عماد الدين صاحب سنجار في ان يعطيه حلب وياخذ سنجار فاجابه الى ذلك فسار عماد الدين الى حلب وتسلمها وسلم سنجار الى اخيه عز الدين

وفي سنة ٥٧٨ هـ سنة ١١٨٣ م سار السلطان صلاح الدين من مصر الى الشأم ومن عجيب الاتفاق انه لما برز من القاهرة وخرج الاعيان لوداعه وكان كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه انشده معلم بعض اولاده قول الشاعر:

تمتع من شميم عرار (١) نجد فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه لان ذلك شعر بانه لا يعود الى مصر وكان كذلك مع طول مدة حياته واغار صلاح الدين في طريقه على بلاد الفرنج وغنم واجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه ابن اخيه ونائبه بدمشق الفرصة وسار الى الشقيف بعساكر الشام وفتحه واغار على ما يجاوره من بلاد الفرنج وارسل يبشر عمه السلطان بذلك

وفي السنة المذكورة سار صلاح الدين من دمشق ونزل قرب طبرية وشن الاغارة على بلاد الفرنج مثل بانياس وجنين والفور فغنم وقتل روى ذلك ابو الفداء وقال ابن الاثير وجاء الفرنج ونزلوا بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن اخيه الى بيسان فدخلها قهرًا وغنم ما فيها واغار على الفور فافعم اهله قتلاً واسرًا

١ بهار طيب الرائحة وقيل هو النرجس

تغير على بلاد العدو وارسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة فلم تشعر الا والفرنج مع ملكهم خرجوا عليهم وعلم صلاح الدين فسار في العساكر مجدًّا حتى وافاهم وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالاً شديداً وكادوا يزيلون المسلمين عن مواقفهم ولكن تغلب المسلمون في اخر الامر وقتلوا من الفرنج مقتلة كثيرة واسروا كثيرين منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو اعظم الفرنج محلاً بعد الملك ثم صاحب جبيل وصاحب طبرية وغيرهم من كبار فرسانهم ونجا ملكهم وروي ان هذه الوقعة كانت في مرج عيون ثم عاد صلاح الدين من محل المعركة وتجهز لمحاصرة الحصن ونادى بالزحف اليه والجد في قتاله فزحفوا واشتد القتال وكان الفرنج قد اجتمعوا بطبرية فالح المسلمون في قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج اليهم وادركهم الليل فناموا في حياله . فلما كان الغد نقبوا الحصن وعمقوا النقب واشعلوا النار فيه ليسقط فلم يسقط لانه كان عريضاً تسعة اذرع وعاد النقابون فخرقوا السور والقوا النار فيه فسقط ودخل المسلمون الحصن واسروا كل من فيه واطلقوا من كان به من اسرى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرين من اسرى الفرنج وادخل الباقين الى دمشق ولم يبرح صلاح الدين الحصن حتى هدم وعفا اثره والحقه بالارض

والذي رواه المؤرخون الفرنج ان الملك بودوين بنى سنة ١١٧٨ حصناً على ضفة الاردن في المحل المسمى معبر يعقوب ليصد غزوات العرب وغارات الاعداء وقد سمي هذا المحل بهذا الاسم لانه يظن ان يعقوب عبر الاردن في هذا المحل بعد عوده من ما بين النهرين وسلم الملك هذا الحصن الى فرسان الهيكل وحاصر صلاح الدين الحصن الحديث واغار في مدة الحصار في فريق من عسكره الى نواحي صيدا فكان هناك قتال شديد فظهر المسلمون على الفرنج وقتلوا واسروا كثيرين منهم اودون دي سان امان رئيس فرسان الهيكل وكان رجلاً شريراً

وجاءت العرب فاغارت على جنيين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب (كوكبة) فتقدم صلاح الدين اليهم وارسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا ولم يتحركوا لقتاله فامر ابني اخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج في من معهما فقاتلوا قتالاً شديدًا وانحاز الفرنج الى حاميتهم فلما راي صلاح الدين ما قد اثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم الى دمشق

وكان صلاح الدين قد امر الاسطول المصري بالمجيء الى بيروت فساروا اليها ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدها ووافاهم صلاح الدين ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة ايام وكان عازماً على ملازمتها الى ان يفتحها لكنه خاف اجتماع الفرنج عليه فتركها وعاد الى دمشق

ثم سار صلاح الدين نحو الجزيرة وعبر الفرات من البيرة فاخذ حران وحصن كيفا والرها والرقة وقرقيسيا واستولى على الخابور جميعه وعلى نصيبين وحاصر الموصل ولما راى حصارها يطول رحل عنها الى سنجار فملكها وفي سنة ٥٧٩ ه‍ سنة ١١٨٤ م اخذ حصن آمد بعد حصار وقتال ثم عاد الى الشام وقصد تل خالد من اعمال حلب وملكه ثم سار الى عينتاب فحاصرها وملكها ثم سار الى حلب وبها صاحبها عماد الدين زنكي المار ذكره وطال الحصار وكان امراء حلب وعسكرها قد اكثروا من الاقتراحات عليه وقد ضجر من ذلك وكره حلب فسلمها الى السلطان صلاح الدين على شرط ان يعوض عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج واتفقا على ذلك وسلم حلب الى صلاح الدين وكان اهلها ينادون عليه يا حمار بعت حلب بسنجار وشرط السلطان عليه ان يحضر بنفسه وعسكره اذا استدعاه ولا يحتج بحجة وكان فتحه حلب في شهر صفر ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة قال فيها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر   مبشرٌ بفتوح القدس في رجبِ

فوافق فتوح القدس في رجب سنة ٥٨٣ ﻫ سنة ١١٨٨ م كما سترى٠ولما ملك السلطان حلب ارسل الى حارم وبها سرخك الذي كان الملك الصالح قد ولاه اياها وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال وكاتب سرخك الفرنج فوثب عليه اهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الى صلاح الدين وهو بعد ان قرر امور حلب وما جاورها وجعل في حلب ولده الملك الظاهر غازي عاد الى دمشق ظافراً غانماً وقد دانت له مصر وبلاد العرب والجزيرة والقسم الاكبر من سورية ولم يبقَ من يخالفه الا الفرنج محصودين في وسط املاكه وله اسطول في شواطي مصر (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير في الكامل وابي الفداء في تاريخه)

عـد ٨٣٥

في سوء حال الفرنج في هذه المدة

قد عرفت مما مرَّ ما آلت اليه حال السلطان صلاح الدين من العظمة والمهابه وانبساط ملكه واستفحال امره واما الفرنج فكانوا حينئذٍ في اسوأ حال لان الملك بودوين الرابع كان مبلياً بالبرص وقد اشتد مرضه حتى لم يعد يستطيع حراكاً وامسى اعمى واصابته حمى وهو بالناصرة واستمر متردداً في التخلي عن الملك فاختار بحضرة اشراف مملكته والملكة امه وهرقل بطريرك اورشليم كوي لوستيان كنت يافا وعسقلان مدبراً للملكه وكان متزوجاً بسيبيلا بنت اخيه الملك اموري وابقى الملك لنفسه السلطة الملكية والحق على استيفاء عشرة الاف ريال من ذهب على انه راى بعد مدة ان كوي ليس اهلاً لتدبير المملكة وقد اسخطه ببعض اعماله فخلعه من المنصب الذي كان قد عهد اليه به ورغب في ان لا يكون له امل في الخلافة له بعد موته فتخلى عن الملك لابن اخته سيبيلا المذكورة وسماه بودوين الخامس وتوجه باحتفال وكانت اخته المذكورة قد تزوجت اولاً بالمركيز دي مونتي فراتا فرزقت

منه هذا الولد وتزوجت ثانية بكوي دي لوسنيان ولكن لم يكن عمر هذا الملك الحديث حينئذٍ الا خمس سنين وكلل في ٢٠ من شهر تشرين الثاني سنة ١١٨١ فلم يثبت العقلاء خلع كوي لبقاء الملك دون مالك لعجز بودوين الرابع من قبل مرضه وصغر بودوين الخامس فانزوى كوي دي لوسنيان في عسقلان وابى الطاعة للملك جهارًا وسمى الملك ريموند كنت اطرابلس مدبرًا للملك ابن اخته

وكان الملك يرى ان السلطان صلاح الدين يزداد كل يوم سلطة وعظمة وانبساطًا لملكه فارسل الى المغرب هرقل بطريرك اورشليم وارنود رئيس الفرسان الهيكليين وروجه رئيس فرسان الاسبيتال (جماعة او جمعية اسست للعناية بالحجاج والمرضى منهم) فمضوا اولاً الى فارونا (بايطاليا) حيث كان الحبر الروماني البابا لوشيوس وفريدريك ملك المانيا فشرحوا مذرفين الدموع حالة النصارى الغربيين في سورية والتمسوا امدادهم وانجادهم برجال واموال ليقووا على مناصبة اعدائهم وقالوا ان القبر المقدس وغيره من الكنائس يحف بها الخطر فرثى الملك لهم واشفق عليهم ووعد بانه عند عودته الى المانيا يبذل قصارى جده في امدادهم ومساعدتهم ودفع اليهم البابا رسائل توصية الى ملكي افرنسة وانكلترا فمات رئيس الهيكليين في فارونا وسار البطريرك ورئيس الاسبيتاليين الى افرنسة وبلغا الى بريس في ١٥ كانون الثاني سنة ١١٨٥ فقبلهما رئيس اساقفة بريس بالترحاب والاجلال ولما عرف الملك فيليب اغوسطس بقدومهما ابدى لهما صنوف التكريم وقدما له مفاتيح اورشليم وكنيسة القبر المقدس وجمع الملك الاساقفة والاعيان في بريس وامر الاساقفة ان يعظوا في الكنائس محرضين رعاياهم على السفر الى اورشليم وامر عماله كذلك واشار عليه اعوانه ان لا يسير بنفسه الى اورشليم بل يرسل مالاً وفرسانًا وجنودًا نجدة للصليبيين

وسار البطريرك ورفيقه الى انكلترا وبلغاها في اوائل شباط سنة ١١٨٥ فقبلهما

الملك اريكس الثاني بالاكرام وقدما له الراية الملكية ومفاتيح كنيسة القبر المقدس وبرج داود ومدينة اورشليم وسلماه رسالة البابا حيث كان يبسط له شرح الحال السيئة التي كانت عليها وقتئذ الارض المقدسة وذكر الوافد ان الملك بوعد كان قد ابرزه للحبر الروماني وحلف على ان يسير الى فلسطين وينجد الفرنج كفارة عن سعيه بقتل توما اسقف كنتربري فوعد الملك بامدادات عظيمة ولكنه اعتذر عن المضي بنفسه الى فلسطين والح البطريرك عليه بالمسير حتى بكلام خشن جارح فبقي الملك يعتذر لخنق البطريرك وهدده بان الله ينتقم منه وراى الملك قد استشاط فمد عنقه وقال للملك اقتلني كما قتلت اخي توما فخير لي ان تقتلني انت في انكلترا من ان يقتلني المسلمون في سورية ثم سكن جيش غضبهما واتفقا على ان الملك اريكس يسير الى افرنسة فيستشير فيليب ملك افرنسة وسار البطريرك بمعيته الى نرمنديا وسار ملك افرنسة اليها وقد راى الملكان ان يمدا الصليبيين بمال ورجال على ان الذين ساروا من اوربا الى سورية لنجدة اخوانهم في هذه المرة كانوا قليلين وعاد البطريرك هرقل الى اورشليم حزيناً آسفاً على انه لم يلق في المغرب حينئذٍ تلك الحمية التي كانت لاهلها قبلاً في الذب عن الدين . وقد اغتم البابا لوشيوس لان مسعاه لم يصادف النجاح الذي كان يامله فكتب الى السلطان صلاح الدين رسالة يساله بها ان يخلي سبيل الاسرى الذين في حوزته من النصارى ولم تبق لنا الايام رسالة البابا هذه ولكنها ابقت لنا جواب صلاح الدين للحبر الروماني ذكره رادولف دي ديشاتو في كتابه تاريخ الصور صفحة ٦٢١ وباجيوس في تاريخ سنة ١١٨٤ واليك ترجمة هذا الجواب عن الافرنسية . « من الملك صلاح الدين اعظم ملوك المشرق الى سيادة البابا رفعت الينا رسالة قداستكم ونحن نعلم ونوقن ان لكم المحل الاول في هذا العالم ونعلم ان الله خولكم المجد والفخار لتكونوا في العظمة التي انتم عليها ونعرف ايضاً ان النصارى اجمعين يادونكم الطاعة ويهابونكم وقد قدم لنا هذه الرسالة

سفيركم اوليفيه فيتال فاكرمناه وقابلناه في داخل قصرنا . واجبناه الى كل ما طلبه حرمة لكم ولما لكم عندنا من التوقير وقد سررنا كثيرًا بكل ما حوته رسالتكم وطلبه سفيركم من الصلح مع النصارى وتخلية سبيل الاسرى فعلى الذين هم لكم مطيعون ان يرسلوا الينا من كانوا من رعايانا اسرى عندهم ونحن نوسل اليهم بكل طيبة خاطر من كانوا منهم اسرى عندنا وعظمتكم تعلم ان الاسرى الذين عندنا من النصارى هم من الاعيان والاشراف وجنودنا الذين اسرهم النصارى هم من عامة الناس وسفلة القوم فنحن نثمن ان حسن لديكم الاسرى الذين عندنا والنصارى يثمنون الاسرى الذين عندهم ومن نقص له من الثمن يعوض عنه باسرى اخرين ويعلم الله انه لما راينا رسالتكم ووفود عظمتكم شملنا سرور لا مزيد عليه وحمدناه تعالى لذلك »

وكتب البابا ايضاً الى اخي السلطان صلاح الدين فاجابه برسالة مؤرخة في ٢٦ ايار سنة ١١٨٤ ومما قاله فيها مترجماً عن الافرنسية « قد علمت من كلام سفيركم انكم ترغبون في المحافظة على المعاهدة التي عقدها الملك صلاح الدين مع سالفكم اسكندر ذي الذكر المقدس في شان تخلية الاسرى بين النصارى والمسلمين (يظهر من كلام الملك العادل اخي صلاح الدين انه قد كانت معاهدة سابقة بين البابا اسكندر والسلطان صلاح الدين) فاذا اراد النصارى الذين في اورشليم وملكهم وسكان بلاد صور ان يطيعوا امركم مع جميع النصارى وان يحافظوا بحسب ارادتكم على القرار الذي جرى بيننا على الصلح وتخلية سبيل الاسرى الذين في سجوننا فنعد نحن ايضاً بان نتمم كل ما ترغبون فيه لتوطيد هذا الصلح ونساله تعالى ان يلهمهم ويلهمنا لنصنع بنعمته كل ما يكون عائدًا لنفع النصارى والمسلمين امين » ذكر هذه الرسالة ايضاً من ذكروا الرسالة الاولى

ان الملك بودون الرابع الابرص توفي سنة ١١٨٥ وترك خليفة له ابن اخته

بودوين الخامس وعمره تسع سنين ولكن توفي سنة ١١٨٦ ودفن في كنيسة القبر المقدس وكان اخر ملك دفن فيها فبعد وفاته جمع ريموند كنت اطرابلس اعيان المملكة في نابلس وبقي البطريرك ورئيس الهيكليين في اورشليم وقالا لامراة لوسينيان بنت الملك اموري انهما يتوجانها ملكة على رغم كل مخالف وارسلا يقولان للاعيان المجتمعين بنابلس ان يأتوا لتكليلها فابوا وارسلوا للبطريرك انهم لا يرضون ان تملك عليهم امراة فاقفلوا ابواب المدينة وسارت سيبيليا الى كنيسة القبر المقدس فاخذ البطريرك من الخازن تاجين فوضع احدهما على المذبح والاخر على راس سيبيليا ثم قال لها البطريرك مولاتي انت امراة فينبغي ان يكون معك رجل يدبر شؤون المملكة فخذي هذا التاج وتوجي به رجلاً اهلاً لتدبير المملكة فاخذت التاج ودعت زوجها لوسينيان الواقف امامها وقالت مولاي تقدم اليّ واقبل هذا التاج فانني لا ارى اجدر منك به فجثا امامها فوضعت التاج على راسه فنودي به ملكاً وبها ملكة ولما بلغت هذه الاخبار الى مسامع الاعيان المجتمعين بنابلس شق ذلك عليهم ولا سيما على بودوين كنت الرملة فقال خرب البلاد فحرامٌ عليَّ ان اسكنه لئلا الام بخرابه وانا فيه فناشد ريموند كنت اطرابلس كنت الرملة ان يشفق على النصارى وان لا يبرح البلاد ليساعد الاعيان على نجاة المملكة من الاخطار المحدقة بها وقال عندنا هنا همفروا دي تورون زوج ايزبال ابنة اموري الثانية فنسير الى اورشليم ونتوجه ملكاً فكل اعيان المملكة محازبون لنا ولا نخشى ان يقاومنا المسلمون بل هم يساعدوننا لاني عقدت هدنة معهم فاتفق راي الاعيان على ذلك على ان همفروا ابى ان يكون ملكاً وتسارع الى اورشليم فقال للملكة اوثر راحتي وحياتي على تاج الملك فاغتم الاعيان ولكن اثر السواد الاعظم منهم الاذعان للملك على خراب البلاد وترك كنت الرملة عمله وسار الى انطاكية واقام فيها ومضى ريموند كنت اطرابلس فاقام في طبرية التي له من جهة امراته واتفق مع صلاح الدين ان

ينجده اذا مسه لوسينيان بضر فهذه كانت حال الافرنج وصلاح الدين واقف لهم بالمرصاد (انتهى ملخصاً عن كثيرين من مورخيهم)

عـد ٨٣٦

في وقعة حطين الشهيرة

كان بين الفرنج وصلاح الدين هدنة كما سبقت الاشارة الى ذلك واليك ما كان بعدها على ما روى المؤرخون المسلمون قالوا في سنة ٥٨٢ هـ وهي سنة ١١٨٧ م غدر البرنس صاحب الكرك واخذ قافلة عظيمة من المسلمين واسرهم فارسل السلطان صلاح الدين يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة فلم يفعل فنذر السلطان انه ان اظفره الله به قتله بيده وفي سنة ٥٨٣ هـ سنة ١١٨٨ م جمع السلطان عساكره وسار بفرقة منها وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحبها وارسل فرقة اخرى مع ولده الملك الافضل فاغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئاً كثيرًا وسار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة وتاخرت القلعة وكانت طبرية للقومص (الكنت) صاحب اطرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته فارسل الفرنج القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه فصار معهم واجتمع الفرنج لملتقى السلطان فركب صلاح الدين من طبرية والتقى الجمعان في حطين واشتد بينهم القتال ولما راى القومص شدة الامر حمل على من قدامه من المسلمين وكان هناك تقي الدين صاحب حماه فافرج له وعطف عليهم فنجا القومص ووصل الى اطرابلس وبقي مدة يسيرة ومات غبناً واحدق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وابادوهم قتلاً واسرًا وكان في جملة من اسر ملك الفرنج الكبير والبرنس ارنولط (ارنولد) صاحب الكرك وصاحب جبيل وجماعة من السبتارية (جماعة الاسبياليين) وما اصيب الفرنج من حين خرجوا الى الشام الى الان بمصيبة مثل هذه الوقعة ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته واجلس ملك الفرنج الى جانبه وكان

الحر شديدًا فسقاه ماء مثلوجاً فسقى ملك الفرنج منه البرنس ارنولط صاحب الكرك فقال له السلطان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني ووبخ البرنس وقرعه على غدره وقصده الحرمين وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن السلطان جاشه وعاد الى طبرية وفتح قلعتها بالامان

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج ان رانود دي شاتيليون والي الكرك كان قد غزا العربية قاصدًا الحجاز ومكة المكرمة فرد عن غزواته وفي سنة ١١٨٧ اخذ قافلة كانت سائرة من مصر الى بلاد العرب وسجن المسافرين غير مبالٍ بالهدنة التي لم تكن قد انقضت مدتها ولما علم صلاح الدين بذلك ارسل يساله ان يطلق من اسرهم ويهدده بان يعامل النصارى الذين يمرون بارضه معاملته للمسلمين فابى رانود تخلية سبيل السجنى فحنق السلطان صلاح الدين وحلف على ان يبيد النصارى واعلن انتقاض الهدنة ونذر ان يقتل رانود بيده ان اظفره الله به وجمع عساكره ودخل ارض النصارى في عسكر يزيد على خمسين الف مقاتل وسارت فرقة من جيشه بامرة احد اولاده نحو الناصرة فتسارع سكان القرى الى الناصرة ينادون وصل المسلمون فهلموا للدفاع عن مدينتكم فهب الفرسان الهيكليون والاسبيتاليون واجتمع مئة وثلاثون فارساً وثلثاو اربع مئة راجل وصافوا عسكر المسلمين وكان نحوًا من سبعة الاف مقاتل وقال مؤرخو ذلك العصر ان هؤلاء الابطال ابدوا في هذه الحرب آيات البسالة واثنوا كثيرًا على شجاعتهم وجهادهم وممن امتاز منهم مرشال من الهيكليين اسمه يعقوب ماليا فانه كان راكباً جوادًا ابيض فقتل ارفاقه وهو صابر يقاتل وحده بين جثثهم والنبال المصوبة اليه يتكسر بعضها على بعض الى ان وقع به جواده فقفز وسيفه بيده ودم جراحه يسيل وهجم على صفوف الاعداء وما برح يقاتل الى اخر نسمة من حياته حتى توهم المسلمون انه الخضر اي القديس جيورجيوس وبعد مقتله كرموا جثته وتبركوا باخذ فلذات من ثيابه وسلاحه ولم

ينجُ من هذه المعركة الا رئيس الهيكليين وفارسان من فرسانه وكانت هذه الوقعة اليوم الاول من ايار سنة ١١٨٨

اما لوسينيان ملك اورشليم الذي كان يفكر اولاً بمحاربة ريموند كنت اطرابلس راى من السداد ان يكتفي بتوبيخه وان يعول على رايه وعرف ذلك ريموند فاقسم على انه نسي كل ما كان له من الاهانات واتى الى اورشليم فخرج لوسينيان لملتقاه وابدى له عواطف حبه فتعانقا على مشهد الشعب كله وتصالحا وتحالفا ان يقاتلا معاً الى الممات

وكان عسكر صلاح الدين يزداد كل يوم حتى صار معه في طبرية ثمانون الف مقاتل وحاصر قلعة هذه المدينة وكانت فيها امراة ريموند كنت اطرابلس واجتمع عسكر النصارى في الجليل في صحراء صفورية وصاروا نحوًا من خمسين الف مقاتل وكان كنت اطرابلس وطبرية من املاكه يرى ان ترك طبرية لصلاح الدين خير من تعرض عسكر النصارى للهلكة في البرية الخشنة القاحلة الواقعة بين طبرية وصفورية والاولى بالنصارى ان يصدموا المسلمين في هذه البرية وهم بعيدون عن الازودة والماء من ان يعرضوا نفوسهم للمخاطر بالخروج على المسلمين فخالف بعضهم راي ريموند هذا واثبته الملك لوسينيان ولكن ارتاى رئيس الهيكليين بان لا يعمل براي ريموند لانه خائن وبان يأمر العسكر بالمسير فامر وسار الجيش في الثالث من شهر تموز وبلغوا الى معابر ضيقة حجرة قبل ان يصلوا الى بحر الجليل فالتقاهم المسلمون هناك والعطش اخذ منهم كل ماخذ والحر يصليهم وكان كنت اطرابلس في مقدمة الجيش فارسل يقول للملك ان يسرع ليصل الى شاطي البحيرة فوثب عسكر صلاح الدين بغتة على ساقة عسكر الفرنج فشتتوا الهيكليين والاسبيتاليين الذين كانوا يحرسون مؤخر العسكر فلم يجسر الملك ان يتقدم الى ما قدام وما عاد يعلم ما يعمل فامر بضرب خيامه وسمعه الناس يقول ويلاه ويلاه خرب البلاد وازف

الاجل ولم تبرح رحى الحرب دائرة الى ان اسبل الليل ستاره والقى المسلمون النار في الهشيم المتراكم هناك فصرف النصارى ليلهم معذبين بالحر والدخان ورشق السهام والجوع والعطش وفي الغد خرج صلاح الدين من طبرية واوقد نار الحرب على النصارى وانحاز الرجالة من الفرنج الى اكمة هناك بدلاً من ان يعضدوا الفرسان المجاهدين وصبر الهيكليون والاسبتاليون على القتال في ساقة الجيش ولكن كثر العدى عليهم وكانوا في كل ساعة يزيدون عدداً فدعوا الملك لنجدتهم لكنه راى ان الرجالة انقطع عليهم طريق العود اليه وانه لم يبق حوله من يذب عنه فامر ان يرفعوا الخيام عساه ان يستطيع ان يوقف وثوب الاعداء عليه وترك كثيرون من الجنود صفوفهم واجتمعوا حول خشبة الصليب فتخلخلت الصفوف ولما راى كنت اطرابلس ما حاق بالملك والفرسان والعسكر من سوء الحال والموقف راى نفسه منفرداً والاعداء يحدقون به من كل جهة فاخترق صفوفهم وفتح طريقاً بينهم عبر به مع طلائعه وما برحت النجدات تاتي المسلمين واصاب سهم قاتل اسقف عكا الذي كان يحمل خشبة الصليب فترك الخشبة المقدسة الى اسقف اللد ووثب فريق من المسلمين على الرجالة الذين كانوا قد انحازوا الى الاكمة فلم يكن منهم غير قتيل او اسير ونجا باليان والي نابلس ومن تمكن من الانهزام واطئين الجثث وتسارع عسكر المسلمين الى المحل الذي كانت فيه خشبة الصليب وملك اورشليم فاخذوا هذه الخشبة المقدسة واسروا اسقف اللد وكل من كان معه وقبضوا على الملك وغيره من الاعيان وقل من سلم من الهيكليين والاسبتاليين من القتل او الاسر هذا ما رواه راول كوغسهال الذي كان شاهداً لهذه الحرب وقد روى ابن الاثير اخبارها كما رويناها عن راول المذكور وهذا ما قاله ابن الاثير في اخذ خشبة الصليب « واخذ المسلمون صليبهم الاعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون ان فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان اخذه عندهم

من اعظم المصائب عندهم وايقنوا بعده بالقتل والهلاك •

وفي الغداة اشخص صلاح الدين الفرسان الهيكليين والاسبيتاليين الذين اخذوا اسرى فعفا عن رئيس الهيكليين لانه برائه عزم الفرنج على مهاجمة السلطان فكان هذا النصر له وكان حول صلاح الدين جماعة من الامراء والفقهاء فاوعز الى كل منهم ان يقتل فارساً من الفرسان الفرنج فابى بعضهم تورعاً وباقيهم اخذوا يقتلون اولئك الفرسان وهم مكبلون بالاغلال وقد اقبلوا على الموت بسرور وبشاشة بل كان بعضهم يلحون بانزال العقاب بهم ويتسابقون على الموت • وفتح صلاح الدين قلعة طبرية بالامان وارسل امراة ريموند كنت اطرابلس اليه (انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم ولا سيما ميشود وروهر بخر)

﴿ عـد ٨٣٧ ﴾

في ما فتحه صلاح الدين من بلاد الفرنج بعد وقعة حطين

هذا ما رواه المؤرخون المسلمون لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار الى عكا وقد صعد اهلها على سورها يظهرون الامتناع فعجب هو والناس من ذلك بعد ما حل بالفرنج فصمم صلاح الدين على الزحف ليفتح المدينة عنوةً اذ خرج كثير من اهلها يطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل وساروا متفرقين وحملوا ما امكنهم حمله من اموالهم وتركوا الباقي فغنمه المسلمون وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه لان المدينة كانت مقصداً للتجار الفرنج والروم وغيرهم وسلم صلاح الدين البلدان الى ولده الافضل

وفي مدة مقام السلطان بعكا تفرق عسكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها واسروا رجالها وسبوا نساءها واطفالها وارسل تقي الدين ابن اخيه فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور وسير حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس

فاتى سبسيطية (السامرة) وبها قبر زكريا فاخذه من ايدي النصارى وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من بها بالامان وتسلم القلعة

وكتب الى صلاح الدين ابن اخيه عن تبنين يقول ان اهلها امتنعوا عليه ويحثه على الوصول اليه فسار اليه وحاصر المدينة وضايقها وهي من القلاع المنيعة على جبل ولما اشتد الحصر اطلقوا من عندهم من الاسرى المسلمين فلم يرضَ السلطان ذلك وبقوا مصرين الى ان ارغموا على طلب الامان فامنهم ووفي لهم وسار الى صيدا واجتاز في طريقه الى صرفند فاخذها صفوًا عفوًا بلا قتال ولما سمع صاحب صيدا بمسيره نحوه رحل عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فتسلمها صلاح الدين ساعة وصوله اليها وسار عنها من يومه الى بيروت وهي احسن مدن الساحل وانزهها واطيبها وراى اهلها قد صعدوا على سورها واظهروا القوة والجلد وقاتلوا على سورها قتالاً شديدًا واغتروا بحصانة بلدهم وبينما الفرنج يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة واتاهم من اخبرهم ان المسلمين دخلوا المدينة من جهة اخرى فارسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة وارادوا تسكين من بالمدينة فلم يمكنهم ذلك وخافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع فارسلوا يطلبون الامان فامنهم صلاح الدين على نفوسهم واموالهم وتسلم المدينة وكانت مدة حصرها ثمانية ايام

واما جبيل فكان صاحبها من جملة الاسرى الذين سيروا الى دمشق فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جبيل على شرط اطلاقه وعرف بذلك صلاح الدين فاحضره مقيدًا عنده ولما حضر سلم الى صلاح الدين حصنه واطلق الاسرى المسلمين الذين كانوا به فاطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من اعيان الفرنج واصحاب الراي والمكر وكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين

وكان صلاح الدين لما هزم الفرنج بطبرية ارسل يبشر اخاه العادل بمصر ويامره بالمسير الى بلاد الفرنج من جهة مصر فتسارع الى ذلك ونازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيه وسار منه الى مدينة يافا فحصرها وملكها عنوةً ونهبها واسر الرجال وسبي الحريم وجرى على اهلها ما لم يجرَ على احد من تلك البلاد قال ابن الاثير « كان عندي جارية من يافا وانا بحلب ومعها طفل سقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيرًا فاعلمتها ان ليس بولدها ما يوجب البكا فقالت لست ابكي له بل ابكي لما جرى علينا كان لي ستة اخوة هلكوا كلهم وزوج واختان لا اعلم ما كان منهم هذا من امراة واحدة »

وبعد ان ملك صلاح الدين ما ملكه كان امر عسقلان والقدس اهم عنده لانهما على طريق مصر فيختار اتصال ولاياته ببعضها ليسهل خروج العسكر منها ودخوله اليها ولما في فتح القدس من الذكر الجليل والصيت العظيم له فسار من بيروت الى عسقلان واجتمع باخيه العادل ونازلا عسقلان وملك الفرنج مع صلاح الدين اسيرًا فقال له ان سلمت هذه البلاد اليَّ فلك الامان فارسل الملك الى من بعسقلان من الفرنج يامرهم بتسليم المدينة فلم يسمعوا امره فلما راى صلاح الدين ذلك جد في قتال اهل المدينة ونصب المنجنيقات وزحف مرة بعد الاخرى وتقدم النقابون الى السور وملكهم يكرر المراسلات اليهم وهم لا يجيبون الى ما يقول ولكن راوا انهم كل يوم يزدادون ضعفًا وان لا نجدة لهم ينتظرونها فراسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم صلاح الدين اليها وسيرهم صلاح الدين ونساءهم واولادهم واموالهم الى بيت المقدس ووفى لهم بالامان (كل هذا خلاصة ما قاله ابن الاثير وغيره في هذه الاحداث)

وما قاله المؤرخون الفرنج لا يخالف ما قاله المورخون المسلمون فقد رووا ما ملخصه ان صلاح الدين اراد ان يستثمر الظفر الذي ناله فسار للحال الى عكا

وحصر هذه المدينة يومين فسلمت اليه وغنم ما كان في هذه المدينة الموعبة بسلع التجارة وما القاه انتصاره من الرعب في القلوب سهل له فتح نابلس واريحا والرملة وغيرها من المدن كقيسرية وارسوف ويافا وبيروت ولم يبق من مدن ساحل البحر بيد الفرنج الا صور واطرابلس وعسقلان وكان فتح عسقلان اهم عند صلاح الدين من فتح غيرها من المدن فحاصرها فوجد بها مناعة لم تكن له في الحسبان وقاتله اهلها شديد القتال وكان قد احضر معه ملك اورشليم فارسل بشير على اهل المدينة ان يستسلموا الى صلاح الدين فلا يجديهم دفاعهم فائدة وان يشفقوا على عيالهم ويحجبوا دماء النصارى ولما ضايقهم صلاح الدين واخذ النقابون يحفرون تحت الاسوار خرجت لجنة منهم فقالت لصلاح الدين لم نقدم اليك حباً بانفسنا بل شفقة على نسائنا واولادنا فما نفع حياة زايلة ونحن نتوقع حياة خيرًا منها ولا نصل اليها الا بالموت فقد اولاك الله النصر على النصارى لكنك لا تدخل البتة عسقلان ان لم تشفق على عيالنا وتخلي سبيل ملكنا فكان لهذا الكلام وقع عظيم في قلب صلاح الدين واجاب الى شروطهم لكنه لم يخل سبيل ملك اورشليم الا بعد سنة (انتهى ملخصاً عن ميشود وروهربخر)

عـد ٨٣٨

في فتح صلاح الدين اورشليم

اليك ما قاله المورخون المسلمون ان صلاح الدين فتح بعد عسقلان الرملة وغزة والخليل وغيرها وكان قد اخرج من مصر الاسطول الذي بها فاقام في البحر يقطع الطريق على الفرنج وكل ما راوا مركباً غرقوه ثم سار الى بيت المقدس وكان به البطرك المعظم عندهم وهو اعظم شاناً من ملكهم وبه ايضاً باليان بن بيرزان (يسميه الفرنج باليان دي ابالين) صاحب الرملة ومن خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع اهل تلك النواحي وغيرها في القدس وكانوا

كلهم يرون الموت ايسر عليهم من ان يملك المسلمون البيت المقدس ويرون ان بذل انفسهم ومالهم بعض ما يجب عليهم في سبيل حفظه وقد حصنوه في تلك الايام وصعدوا على سوره وعزموا على المناضلة دونه ولما قرب صلاح الدين من القدس تقدم امير من المسلمين في جماعة غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الفرنج فقاتلوه وقتلوه وجماعة ممن معه فاهم المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على القدس فراوا على اسواره ما هالهم وبقي صلاح الدين خمسة ايام يطوف حول المدينة لينظر من اين يقاتلها وعمد الى جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة صهيون ونصب المنجنيقات ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها واشتد القتال بينهم وكل يراه دينًا وحتمًا وكان خيالة الفرنج يخرجون كل يوم الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون وحمل المسلمون حملة رجل واحد فازالوا الفرنج عن مواقفهم وادخلوهم بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الاسوار ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي وتمكن النقابين من النقب اجتمع مقدموهم يتشاورون في ما ياتون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم المدينة الى صلاح الدين وارسلوا جماعة من كبرائهم في طلب الامان فامتنع السلطان من اجابتهم وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم باهل هذا البلد حين ملكتموه ولما رجع الرسل خائبين ارسل باليان بن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فاجيب الى ذلك وحضر ورغب في الامان فلم يجبه صلاح الدين اليه واستعطفه فلم يعطف واسترحمه فلم يرحم ولما ايس من ذلك قال ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة خلق كثير وانما يفترون عن القتال رجاء انك تجيبهم الى الامان وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا راينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وامتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارًا واحدًا ولا تسبون وتاسرون

رجلاً ولا امراة واذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرها من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم خمسة الاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا عليكم كلنا مقاتلين قتال من يحمي دمه ونفسه وحينئذٍ لا يقتل الرجل حتى يقتل امثاله ونموت اعزاء او نظفر كراماً

ولما سمع صلاح الدين هذا الكلام دعا اصحابه واستشارهم فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا تدرى عاقبته فاجاب صلاح الدين الى بذل الامان للفرنج واستقر ان يؤخذ من الرجل عشرة دنانير غنياً كان ام فقيرًا ومن المراة خمسة دنانير والطفل ديناران فمن ادى ذلك الى اربعين يوماً نجا ومن لم يؤدِّ ما عليه صار مملوكاً فبذل باليان عن الفقراء ثلاثين الف دينار وسلمت المدينة ورفعت على اسوارها الاعلام الاسلامية ورتب صلاح الدين على ابوابها امناء من الامراء ياخذون من كل خارج منها ما فرض عليه فقسم الامناء الاموال وتفرقت ايدي سبا ولو اديت في ذلك الامانة لملأ الخزائن وعم نفعه وادعى جماعة من الامراء ان جماعة من اقطاعه مقيمون بالقدس فاطلقهم واخذ قطيعتهم وبعضهم كان يلبس الفرنج ذي المسلمين ويخرجهم وياخذ قطيعتهم واستوهب بعضهم من صلاح الدين عددًا من الفرنج فوهبهم لهم واخذوا ما عليهم وبالجملة فلم يصل الى خزينته الا القليل واطلق صلاح الدين ملكة القدس وسارت الى زوجها الذي كان محبوساً بقلعة نابلس وخرج البطريرك الكبير ومعه من اموال البيع منها الصخرة والاقصى ما لا يعلمه الا الله وكان له من المال مثل ذلك وقيل لصلاح الدين ان ياخذ ما معه ويقوي به المسلمين فقال لا اغدر به ولم ياخذ منه الا عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور

ورد صلاح الدين بعض ابنية القدس الى ما كانت عليه في ايام المسلمين وامر بتطهير المسجد والصخرة وبعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع في تحسينه

وترصيفه ومحو ما كان في تلك الابنية من الصور ونقل الى الصخرة المصاحف الحسنة والربعات الجيدة وباع الفرنج ما لا يمكنهم حمله من امتعتهم واموالهم بارخص الاثمان واما النصارى اهل القدس غير الفرنج فطلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من الاقامة في مساكنهم وياخذ منهم الجزية فاجابهم الى ذلك (انتهى ملخصاً عن الكامل لابن الاثير)

واما المؤرخون الفرنج فرووا اخبار فتح صلاح الدين اورشليم كما رويناها عن المؤرخين المسلمين وقل ما زادوا عليها وما زادوه كان المورخون العرب اولى منهم بذكره فانهم اثنوا على سماحة صلاح الدين وكرم اخلاقه واشفاقه على الفقراء والمصابين بهذه النازلة من ذلك قولهم ان صلاح الدين عند رؤيته جمعاً من النساء والاطفال خارجين من القدس يبكون والديهم واولادهم وازواجهم الذين قتلوا او اسروا في وقعة حطين رق لهم ورد الى الامهات اولادهن والى النساء ازواجهن الذين كانوا بين الاسرى وقد راى ايضاً كثيرين تركوا امتعتهم وحملوا على ظهورهم بدلاً منها انسباءهم او اصحابهم العاجزين عن المشي فراقه عملهم واكثر جوائزه لهم وسمح للاسيتاليين ان يبقوا في المدينة للعناية بالزائرين وبمن اقعدهم مرضهم او مانع اخر عن الرحيل من المدينة ودفع الملك العادل اخو صلاح الدين فدية الفي اسير فاقتدى به السلطان اخوه وكسر اغلال كثيرين من الفقراء والايتام وقد اشار عليه بعض المسلمين ان يدك حينئذٍ كنيسة القبر المقدس وسائر الكنائس ليمنع النصارى من الحج الى القدس او من ان يتذرعوا بكريها الى الاستيلاء على هذه المدينة فأبى ان يخالفهم في بقاء الكنائس ولا سيما كنيسة القبر اقتداء بعمر بن الخطاب اذ ابقى هذه الكنائس للنصارى في صدر الاسلام وقال لو نقضنا البناء فلا يبرح النصارى يحجون الى محلها ونقضها يثير نصارى المشرق فينضمون الى نصارى المغرب واباح النصارى ان يستمروا على زيارتهم لهذه المعابد كما كانوا على شرط ان ياتوا الى القدس

دون سلاح وان يفوا ضريبته ما انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم

﴿ عـد ٨٣٩ ﴾

في حصار صلاح الدين لمدينة صور وفتحه بعض مدن غيرها

ان صلاح الدين بعد ان دبر امور القدس سار الى مدينة صور وهذا ما رواه المؤرخون المسلمون في ذلك قالوا ان انساناً من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش (وهو كونراد ابن المركيز دي مونتا فراتا السابق ذكره) خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة وادسى بعكا ولم يكن يعلم ان صلاح الدين اخذها وبلغه ان صور ما برحت بيد الفرنج فقصدها وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير ولم يكن لهم راس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم فقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذله ما معه من المال فولوه عليهم وكان شجاعاً بالحروب وقال في حقه ابن الاثير ، كان من شياطين الانس حسن الدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع في تحصين صور فجدد حفر خنادقها وعمل اسوارها وزاد في حصانتها واتفق من بها على حفظها والقتال دونها ، واتى صلاح الدين الى عكا واقام بها اياماً ولما سمع المركيش بوصوله الى عكا جد في عمل سور للمدينة وعمق خنادقها ووصلها من البحر الى البحر من الجانب الاخر حتى صارت المدينة كالجزيرة ورحل صلاح الدين من عكا وخيم بجانب صور وقسم القتال على عسكره فكانوا يتناوبون مثل ولده الافضل وولده الظاهر واخيه العادل وابن اخيه تقي الدين وكان للفرنج شواني وحراقات يركبون بها في البحر جانبي محل القتال فيقاتلون اهل البلد المسلمين من امامهم ويرمى عليهم اصحاب الشواني من جانبيهم فكثرت الجراحات والقتل في المسلمين ولم يتمكنوا من الدنو من البلد فارسل صلاح الدين عشر شواني جاءته من مصر فكانت في البحر تمنع شواني اهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذٍ من القرب الى البلد فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار

بما لم يكن في الحساب وذلك ان خمس شواني من شواني المسلمين باتت ليلة مقابل مينا صور ليمنعوا من الدخول اليها والخروج منها ولما كان السحر ناموا وما شعروا الا وشواني الفرنج قد نازاتهم وضايقتهم وقتلوا من ارادوا قتله واخذوا الباقين بمراكبهم وادخلوهم مينا صور ورمى جماعة من المسلمين انفسهم من الشواني فمنهم من سبح ونجا ومنهم من غرق وامر السلطان الشواني الباقية بالمسير الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت وتبعتهم شواني الفرنج ولما راى المسلمون الفرنج مجدين في طلبهم القوا نفوسهم من شوانيهم الى البر فنجوا ونقض صلاح الدين هذه الشواني وعاد الى مقاتلة صور في البر وكان ذلك قليل الجدوى وفي بعض الايام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين واشتد القتال بين الفريقين ودام الى اخر النهار واسر من الفرنج فارس كبير مشهور ولما راى صلاح الدين ان امر صور يطول رحل عنها الى عكا (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير)

واليك ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك ان صلاح الدين بعد ان فتح كثيراً من مدن الفرنج سار الى صور وحاصرها وضايقها وكاد يملكها لو لم يكن فيها كنراد ابن المركيز دي مونتي فراتا الذي اسره صلاح الدين في وقعة حطين وكان كنراد هذا قد اشتهر بحروبه بايطاليا مدافعة عن البابا من اعتداء الملك فريدريك بربا دوسا (ذي اللحية الحمراء) ثم سار في كثير من الفرسان الى سورية سنة ١١٨٦ لمحاربة المسلمين وعند مروره بقسطنطينية اخمد ثورة على اسحق ملك الروم وقتل رئيس العصاة فلقبه الملك بقيصر وزوجه باخته فتركها في قسطنطينية وسار الى فلسطين فوجد اهل صور عازمين على ان يستسلموا الى صلاح الدين فقوى قلوبهم وشجعهم على القتال وولى امرهم فراسله صلاح الدين بانه يخلي سبيل ابيه ويقطعه ما شاء من الاقطاع بسورية اذا فتح له ابواب صور وهدده بان يقتل اباه ان لم يذعن لطلبه فاجابه مزدرياً بكل هبة من قبله وان مصلحة النصارى اهم عنده من حياة

ابيه واذا قتل المسلمون شيخاً استسلم في الحرب فيفتخر بانه ابن شهيد وبهمة كنراد وشجاعته وتدبيره لم يتمكن صلاح الدين من فتح صور مع بذله كل جده في ذلك وقد تمكن كنراد بعد ذلك ان يخلص والده من الاسر لان اهل صور اسروا احد الامراء المسلمين فاطلقه على شرط اطلاق ابيه وكان كذلك.وكان صلاح الدين عند فتحه تبنين كما مر اقام جماعة من جنده على قلعة هونين يمنعون من حمل الميرة اليها فلما كان يحاصر صور ارسل من فيها يطلبون منه الامان فامنهم ونزلوا منها ووفى لهم بامانهم

وكان لما سار الى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهي مطلة على الاردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين وسير طائفة اخرى من العسكر الى قلعة صفد فحصروها وكان بعض الفرنج قد لجأوا الى هاتين القلعتين عند انكسارهم بحطين ففي ليلة كثر فيها الرعد والبرق والريح والمطر وثب الفرنج على المسلمين المحاصرين قلعة كوكب فقتلوهم جميعاً واخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا الى قلعتهم فقووا بذلك وامكنهم ان يحفظوا قلعتهم وخبر صلاح الدين بذلك فعظم عليه لاخذ شوانيه في صور واضطراره الى الرحيل عنها ورتب على حصن كوكب جماعة اخرى من الجنود فحصروها وفي سنة ٥٨٤ هـ سنة ١١٨٩ م سار صلاح الدين من عكا الى قلعة كوكب فحصرها ونازلها وكان يظن ان ملكها سهل فلما راها منيعة والوصول اليها متعذر سار منها الى دمشق وترك عليها من يستديم حصارها وحصار قلعة صفد والكرك لانه كان قد ملك كل البلاد الساحلية من عكا الى الجنوب ما عدا هذه الحصون وكان يود ان لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه اما الكرك فاستمر الملك العادل اخو صلاح الدين محاصرًا لها حتى فنيت ازواد الفرنج بها واكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل يطلبون الامان فامنهم وتسلم القلعة وما يجاورها كالشوبك وغيرها واما قلعة صفد فعاد اليها

صلاح الدين بعد غزوته في الشمال وضايق اهلها وفرغ زادهم فارسلوا يطلبون الامان فامنهم وتسلم القلعة وساروا الى صور ثم حاصر قلعة كوكب وصبر الفرنج فيها حتى اخذ النقابون ينقبون بسورها فاستسلموا الى صلاح الدين فامنهم وتسلم القلعة منهم وساروا الى صور روى كل ذلك ابن الاثير وقال ، اجتمع بصور من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل الى المغرب يستغيثون ويستنجدون والامداد كل قليل تاتيهم وكان ذلك بتفريط صلاح الدين في اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندماً واسفاً حيث لم ينفعه ذلك

عـد ٨٤٠

في غزوة صلاح الدين في شمالي سورية

نروي اخبار هذه الغزوة عن ابن الاثير الذي قال انه كان مع السلطان فيها سار صلاح الدين من دمشق سنة ٥٨٤ هـ سنة ١١٨٩ م ونزل على بحيرة قدس غربي حمص وطلب العساكر فاتته اولاً رجال عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين والخابور ثم تلاحقت الرجال من الموصل والجزيرة وغيرها وسار حتى نزل تحت حصن الاكراد فاقام يومين وسار بكتيبة من الفرسان فدخل الى بلاد الفرنج واغار على صافيتا والعريمة ويحمور حتى وصل الى قريب طرابلس وابصر البلاد وعرف من اين ياتيها واين يسلك منها ثم عاد الى معسكره تحت حصن الاكراد واتاه قاضي جبله وهو منصور بن تبيل وكان مسموع الكلمة وله الحرمة الوافدة عند بيمند امير انطاكية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها فاستدعى السلطان ليسلم جبلة اليه فسار صلاح الدين معه ونزل بانطرطوس (طرطوس) فاخلى الفرنج المدينة واحتموا في برجين حصينين نخرب المسلمون دورهم ومساكنهم ونهبوا ما وجدوا ودكوا احد الحصنين بعد طلب المحاصرين به الامان والقوا حجارته في البحر ونزلت

صلاح الدين الحصن الاخر محقورًا ورحل الى مرقية وقد اخلاها اهلها وساروا الى المرقب وفيها حصن لا تحدث احدًا نفسه بملكه لعلوه ومنعته واتفق ان صاحب صقلية من الفرنج سير نجدة في ستين شانية وكانوا بطرابلس ولما سمعوا بسير صلاح الدين اتوا ووقفوا في البحر تحت المرقب ليمنعوا من يجتاز بالسهام وكان هناك مضيق لا يسلك الا الواحد بعد الاخر ولما راى ذلك صلاح الدين امر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر من اول المضيق الى اخره وجعل وراءها الرماة ليمنعوا الفرنج من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن اخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة وتسلمها صلاح الدين وقت وصوله وتحصن الفرنج بقلعتها وما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بالامان

ولما فرغ السلطان من امر جبلة سار عنها الى لاذقية فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها واحتموا بحصنين على الجبل فدخل المسلمون المدينة وحصروا الحصنين ونقبوا الاسوار وعظم القتال فايقن الفرنج العطب ودخل قاضي جبله فخوفهم فطلبوا الامان فامنهم صلاح الدين وكان اسطول صقلية الذي تقدم ذكره وصل الى اللاذقية ولما راى تسليم اهلها سريعاً حنق عليهم وطلب مقدم الاسطول الامان ليحضر عند صلاح الدين فامنه وحضر وقال انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونوا مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد وترد عليهم بلادهم والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فاجابه صلاح الدين مزدرياً بكل من يجي من البحر وانهم ان خرجوا اذاقهم ما اذاق اصحابهم

وسار صلاح الدين عن لاذقية وقصد قلعة صهيون وهي منيعة شاهقة صعبة المرتقى فحصرها وضايق من فيها وتجلدوا بالقتال ولكن ارغموا اخيرًا على طلب الامان فلم يجبهم صلاح الدين اليه اولاً ثم قرروا على انفسهم قطيعة كقطيعة اهل القدس فتسلم صلاح الدين الحصن فحصنه وجعله احصن الحصون ولما ملك

قلعة صهيون تفرق جنده في تلك النواحي فملكوا حصن بالاطنوس وحصن العيد وغيرهما

وسار صلاح الدين عن صهيون الى قلعة بكاس فراى الفرنج قد اخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس ونازل قلعة الشغر فراها منيعة وحصينة ورماها بالمنجنيقات فلم تصل الحجارة اليها وبقي المسلمون عليها اياماً لا يرون فيها مطمعاً وكان الفرنج الذين بها قد راسلوا بيمند امير انطاكية يستمدونه لانهم محصورون فلم يمدهم فسلموا القلعة الى صلاح الدين فاقام بها اميرًا اسمه قلج ورحل عنها الى قلعة برزية وهي تقابل حصن افاميا (اباميا) وتناصفها في اعمالها وبينهما بحيرة من ماء العاصي وعيون تتفجر من الجبل وكانت هذه القلعة منيعة جدًا ولا يمكن ان تقاتل من جهة الشمال والجنوب اذ لا يمكن ان يصعد على جبالها من هاتين الجهتين فنصب صلاح الدين عليها المنجنيقات من جهة الغرب فلم يؤثر بها فامر بالزحف وقسم عسكره ثلاثة اقسام حتى كلما كل قسم استراح وزحف الاخر فاتعب الفرنج النهار كله واخيرًا اختلط المتقاتلون ودخلت طائفة من عساكر المسلمين مع الفرنج الى القلعة فملكوها وقتلوا واسروا من فيها

ورحل صلاح الدين الى جسر الحديد الذي على العاصي بالقرب من انطاكية وسار الى قلعة درب ساك ورماها بالمنجنيقات ثم زحف جنوده اليها وكشفوا الرجال عن سورها ونقبوا برجاً منها فسقط واستمد اهل القلعة بيمند فطال الوقت ولم يمدهم فطلبوا الامان من صلاح الدين فامنهم على شرط ان لا يخرج احد الا بثيابه بغير مال ولا سلاح ولا اثاث ثم اخرجهم وسيرهم الى انطاكية وسار الى قلعة بغراس وهي بالقرب من انطاكية فحاصرها وضايقها حتى طلب اهلها الامان فامنهم على شرط تامين اهل درب ساك

وعزم صلاح الدين على حصر انطاكية وخاف بيمند من ذلك فارسل الى

السلطان يطلب الهدنة وبذل اطلاق كل اسير مسلم عنده فاستشار صلاح الدين عماله في النواحي وغيرهم فاشار اكثرهم باجابته الى ذلك ليعود الجنود ليستريحوا ويجددوا ما يحتاجون اليه واتفق صلاح الدين وبيمند على هدنة ثمانية اشهر اولها اول تشرين الاول واخرها اخر ايار واطلق بيمند الاسرى المسلمين وكان صاحب انطاكية حينئذٍ اعظم الفرنج شاناً واكثرهم ملكاً لان الفرنج كانوا قد سلموا اليه طرابلس وجميع اعمالها بعد موت ريمند صاحبها واقام بها ابنه وعاد صلاح الدين الى حلب ثم سار الى دمشق فدخل اول رمضان فاشير عليه بتفريق العساكر فقال العمر قصير والاجل غير مامون وقد بقي بيد الفرنج حصون ككوكب وصفد والكرك فلا بد من اخذها وسار اليها واخذها كما مر في الفصل السابق

عـــد ٨٤١

في حملة الفرنج الثالثة على سورية

بعد ان ملك صلاح الدين اورشليم سير الفرنج وفوداً كثيرين الى المغرب يستنجدون ملوكه ولما بلغت هذه الاخبار المغرب عم الحزن والكآبة سكانه وكان البابا اوربانس الثالث في فرارا (بايطاليا) وكان شيخاً فاخذ الحزن به كل ماخذ حتى مرض ومات في ١٩ تشرين الاول سنة ١١٨٧ وفي ٢١ من الشهر المذكور انتخب البابا غريغوريوس الثامن واهتم للحال بانجاد الفرنج في المشرق وانفذ رسائل الى ملوك المغرب واساقفته يحضهم على اعانة اخوانهم واوفد رسلاً وقصاداً الى الممالك يعظون بذلك وسار الى بيزا ليصلح بين اهلها واهل جنوا وكانت هاتان المدينتان حينئذٍ متوفرة فيهما الثروة والقوة بحراً وبراً ولكن دهمته المنية هناك في ١٦ كانون الاول تلك السنة فانتخب للكرسي الروماني البابا اكليمنضس الثالث ومذ ارتقائه الى السدة الحبرية العظمى امر بتقديم التضرعات لله لايقاع السلم والصلح بين ملوك المغرب ولنجاة كنائس المشرق وارسل وفوداً الى الملوك والامراء ودعاة

يدعون الناس الى التجند لانجاد الفرنج في المشرق وكان في جملة هولاء الدعاة اسقف اسمه غوليلمس قال بعضهم انه غوليلمس اسقف صور صاحب التاريخ وقال غيرهم ان صاحب التاريخ كان قد مات من قبل وهذا غوليلمس اخر واسند هؤلاء رايهم الى قول احد مكملي تاريخ غوليلمس الصوري واياً كان هذا فبعد ان اوقد نار الغيرة بايطاليا سار الى افرنسة وشهد اجتماعاً التقى به انريكس الثاني ملك انكلترا وفيليبوس اغوسطوس ملك افرنسة وكانت بينهما عداوة شديدة فخطب هذا الداعي خطبة حملت المجتمعين على التفجع واستنزفت الدموع من جميع العيون حتى قام الملكان المتحاربان وعانق احدهما الاخر وبكيا واتفقا ان يسيرا الى المشرق واخذا حينئذ الصليب شعار الصليبيين وتبعهما كثيرون من الامراء والولاه والاعيان واجمع الامراء والاساقفة على فرض ضريبة سموها عشور صلاح الدين يتحتم بها على كل من لا يسير بهذه الحملة ان يودي عشر مدخوله وعشر قيمة اثاثه الى اللجن المقامة لجباية هذه الفريضة بموجب نظام سنوه لذلك واما ملك انكلترا فدعا اغنياء مملكته وامرهم ان يودوا عشر دخلهم ومن تردد عن ذلك القاه في السجن فنشأ عن ذلك بعض القلق ثم استؤنفت العداوة بين ملكي انكلترا وافرنسة واجتمعا بتحريض الاساقفة والاعيان في محل الاجتماع الاول فلم يتوافقا الى ان مات انريكس الثاني ملك انكلترا وخلفه ابنه ريشار الملقب بقلب الاسد سنة ١١٨٩ وتذكر يمين ابيه على انجاد نصارى المشرق فجد في التاهب لهذه الحملة فنشات في الانكليز حمية شديدة لتخليص الارض المقدسة لكنهم ابتداوا في اضطهاد اليهود فقتلوا جماً غفيرًا في لندره ويورك فالحاجة الى المال في هذه المهام واحراز اليهود من ذلك العصر اكثر ثروة البلاد الساكنين بها كانا يحملان الناس متواترًا على الاستعانة باموالهم لسد الفاقة الماسة واجتمع ملك افرنسة وملك انكلترا وقررا ان يكون سفرهما بحرًا وفرضا نظاماً لتسيير الجنود بمقتضاه وفي جملته منع النساء من السفر الى فلسطين وحلف احدهما

للاخر على حفظ الامانة والصداقة ما داما حيين وقررا ان يسافر ملك افرنسة من جنوا وملك انكلترا من مرسيليا فسافر ملك فرنسا من جنوا في ٣٠ اذار سنة ١١٩١ وبلغ الى شواطي فلسطين في ١٣ نيسان من السنة المذكورة وسافر ريشار ملك انكلترا من مرسيليا الى مسينة في صقلية ثم سار من مسينة في ١٣ نيسان من تلك السنة فثار باسطوله عاصف شديد نسف ثلث شواني على ساحل لاميسون بقبرص ومن نجا من الغرق وقع على الشاطي بداهية اقسى من العاصف فان اسحق كومنانس ملك الروم كان هناك وكانت قبرص من املاكه وقد حالف صلاح الدين فقبض على اوليك المساكين عند خروجهم من الماء والقاهم في السجن ليموتوا جوعاً ووصل الى هناك مركب اخر يقل اخت ريشار الملك وخطيبته بنت ملك نافارا فلم يؤذن لهما بالدخول الى المينا واذ اقبل الملك ريشار بعدة من شواني اسطوله خاصهما وطلب من ملك الروم اطلاق من سجنهم من الانكايز فابى بل هدد ملك الانكايز بان يعامله كذلك ان وضع رجله في جزيرته فاستشاط ريشار وامر بنزول عساكره الى البر فقتلوا كثيرين من الروم وهزموا الباقين وفي جملتهم ملك الروم ثم اوقعوا بالروم وقعة اخرى حتى اضطر ملك الروم ان يذعن لكل ما شرطه ملك الانكايز وحلف له يمين الامانة واقر له بتلك قبرس ولما مان بيمينه اسره وكبله بقيود من فضة وملك الجزيرة كلها ثم سار بحراً الى سورية فالتقى باحدى شواني المسلمين مشحونة بالرجال والاسلحة والزاد فغرقها بعد قتال شديد وبلغ الى عكا في ٨ حزيران سنة ١١٩١

واما المانيا فقد تكاثر وفود الفرنج من سورية اليها وارسل الحبر الروماني كثيرين من الرسل والدعاة الى نواحيها وهبت الحمية في اهلها بعد رقدتها واخذ ملكها فريدريك بربا روسا (اي الاحمر اللحية) يتاهب للمسير الى الارض المقدسة وينتقي نخبة الرجال لمعيته وقام قائد جيشه بجمع الاتين تحت رايته في راتيزبون

من عيد الميلاد الى نصف الصوم وسار الملك بحاشيته قرب عيد العنصرة سنة ١١٨٩
وقبل مسيره انفذ وفودًا الى الامراء النصارى والمسلمين الذين سوف يمر ببلادهم
حتى كاتب صلاح الدين وكان قد سبق له مخابرة معه فقال له في رسالته لا اقدر
ان ابقى صديقاً لك ومملكتي ثائرة عليّ ان لم تتخلَّ عن اورشليم وترد خشبة
الصليب فلم يكن جواب صلاح الدين الا اعلاناً للحرب وكاتب ايضاً قليج ارسلان
سلطان قونية وكان اصحابه يقولون انه تابع لبدعة الفلاسفة ويظن في اوروبا انه تنصر
وقد حفظت رسالة من البابا اسكندر الثالث يشير عليه بها كيف يتدبر بامر تنصره
وكان ملك الروم قد تزلف الى ملك المانيا فارسل يخبره بسيره في عسكره ويقال
ان ملك الروم اتفق حينئذٍ مع صلاح الدين على محاربة الفرنج . وعند اجتياز
الملك فريدريك بجيشه بالنمسا والمجر لم يلق الا التكريم وتقدمة الازواد لجيشه ولكن
لما بلغ بلغاريا اضطر جيشه ان يسير في الغابات ويتحمل المشاق والدفاع حتى قتل
البلغاريون من تخلف من الجيش او وجدوه مريضاً . ولما بلغ الملك فريدريك الى
فيليبوبولي عرف ان الرسل الذين كان قد ارسلهم الى قسطنطينية طرحوا في السجن
ولم يخل سبيلهم الا بعد عدة اسابيع وعند عودهم الى المعسكر اخبروا بما راوا من
عزم الملك اسحق والروم على قطع الطريق على الصليبيين فاخذ الملك فريدريك
ادرنة وكاليبولي وكل مدن الساحل وطلب من البندقية وانكونا وجنوا شواني كبيرة
وصغيرة لحصر قسطنطينية فذل حينئذٍ ملك الروم وتواضع ووقع على معاهدة بينه
وبين الملك فريدريك واذعن لكل ما طلبه هذا الملك منه وحلف اليمين في كنيسة
القديسة صوفيا هو واعيان مملكته على انه يحفظ كل ما وقع عليه من الشروط وقدم
رهائن لملك المانيا على صحة يمينه لكنه كتب الى صلاح الدين يقول ان حجاج المغرب
اصبحوا عاجزين عن المضرة به وانه قطع اجنحة انتصارهم وكان سلطان قونية قد
ارسل رهائن لملك المانيا فامسكهم في قسطنطينية واجتاز الالمانيون البحر عند كاليبولي

وبلغوا اللاذقية باسيا الصغرى

وفي سفر الالمانيين من اللاذقية الى قونية رسائل عديدة كتبها من كانوا في ذلك العصر واختار ميشود رسالة كتبها احد المسافرين مع الملك فريدريك الى الحبر الروماني واثبت ملخصها ومنها يتبين ما قاسوه من المشاق في هذا السفر وما عانوه من الحرب وكانوا فيها ظافرين وما اصابهم من الجوع وحربهم مع قليج ارسلان سلطان قونيه واخذهم مدينته ولم يبقوا فيها الا يومين وساروا نحو بلاد النصارى فارسل امير ارمينية الى الملك فريدريك وفودًا يستعطفه ويعد بامداده وانجاده له على ان مسيرهم في طرق جبل طورس الوعرة ومضايقه المحفوفة بالمخاطر من كل جهة قد انهكهم واضناهم وانقص عديدهم وبلغوا بشق النفس الى اطراف كيليكيا وخيموا في جانب نهر فقيل ان الملك نزل يستحم به فغرق وقيل وقع في الماء وهو عابر النهر فانتشل منه ولا روح فيه فعظم المصاب وعمت الكآبة العسكر عن اخره وتولاهم اليأس فعاد بعضهم الى بلادهم وتاه بعضهم في البرية واسف جميع مؤرخي ذلك العصر كل الاسف على وفاة هذا الملك واذهلتهم اسرار العناية الربانية

وسار من بقي من العسكر والحزن مالئ قلوبهم يحملون جثة من كان يحملهم على الشجاعة والنخوة واختاروا اميرًا عليهم فريدريك دوك دي سواب وانقسموا في سيرهم قسمين فريق اخذ طريق انطاكية وبلغوا اليها فاصابهم وباء اهلك كثيرين منهم وفريق سار في طريق حلب فوثب عليهم المسلمون وقل من نجا منهم حتى ان هذا الجيش الذي سار من اوطانه وهو لا يقل عن مئة الف مقاتل لم يبلغ منه الى فلسطين الا نحو خمسة الاف مقاتل سنة ١١٩٠ واما جثة فريدريك ملكهم فمن قائل انها دفنت في انطاكية ومن قائل بل دفنت في صور (انتهى ملخصاً عن كثيرين من مشاهير المؤرخين) واستعظم ابن الاثير حملة الافرنج هذه وشدة حميتهم وغيرتهم وتوافر عديدهم وقال في ملك الالمان خاصة « ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين

واهلك ملك الالمان لما خرج على الشام والا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين . وأثبت ان ملك الروم اخبر صلاح الدين بقدوم الالمان ووعده انه لا يمكنهم من العبور ببلاده ولما وصل ملكهم عجز عن منعه ووجدت رسالة من صلاح الدين الى الخليفة ببغداد يتبين منها هلعه وشكواه من كثرة الفرنج الوافدين في كل يوم الى الشام وقال انه كلما قتل واحدًا منهم اتى الف

عد ٨٤٢

في حصار الفرنج عكا

ان صلاح الدين كان قد ابقى لوسينيان ملك اورشليم مكبلاً بقيوده ولما اخذ الكرك وحصني كوكب وصفد خلى سبيله بعد ان اكرهه على ان يحلف يمينًا بالانجيل على انه يتخلى عن ملك اورشليم ويسير الى اوروبا فاستفتى لوسينيان العلماء في يمينه فافتوه انها لا تلزمه لصدورها عن اكراه ولان الحيلة تدفع بحيلة ولان صلاح الدين كان قد حلف لاهل عسقلان ان يطلق ملكهم فلم يطلقه حينئذٍ وكان صلاح الدين نفسه يعلم ان ملك اورشليم لا يبرّ يمينه ولم يطلقه الا لخوفه من ان يختار الفرنج ملكًا اشد باسًا منه او لامله ان يختلفوا في اقامة ملك عليهم واتى لوسينيان الى صور فلم يشأ كنراد الذي كان قد حفظها وملكها ان يعرفه ملكًا فطاف لوسينيان في ملكه يصحبه بعض الامناء له فجهز نحوًا من تسعة الاف مقاتل واتى فحاصر عكا وهذا ما قاله المورخون المسلمون في ذلك في تاريخ سنة ٥٨٥ هـ سنه ١١٩٠ م قد اجتمع في صور خلق كثير من الفرنج ووصل منهم في البحر عالم لا يحصون كثرة وساروا الى عكا ونازلوها وضايقوها واحاطوا بسورها من البحر الى البحر ولم يبق للمسلمين اليها طريق فسار اليهم السلطان صلاح الدين وقاتلهم وحمل تقي الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان عليهم فازالهم عن موقفهم والتزق بالسور وانفتح الطريق الى المدينة فادخل السلطان عسكرًا اليها نجدة وبقيت الحرب سجالاً ثم صافوا

السلطان وحملوا على قلب جيش المسلمين فازالوه واخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا خيمة السلطان فانحاز الى جانب وانضاف اليه جماعة وعطف على الفرنج الذين خرقوا القلب فافنوهم قتلاً وكانت قتلاهم نحو عشرة الاف نفس وانهزم بعض المسلمين عند خرق القلب ووصل بعضهم الى طبرية وبعضهم الى دمشق وحصل للسلطان قولنج فاشار عليه الاطباء بالانتقال من ذلك المحل فرحل عن عكا الى الخروبة فتمكن الفرنج من حصر المدينة وانبسطوا في تلك الارض ووصل اسطول المسلمين الى عكا وتمكن من انزال عسكر اليها ووصل الملك العادل اخو السلطان بعسكر مصر فقويت قلوب المسلمين .

ثم دخلت سنة ٥٨٦ هـ سنة ١١٩١م وعاد السلطان من الخروبة الى عكا وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلثة ابراج من خشب وشحنوها بالسلاح والمقاتلين فتحيل المسلمون واحرقوا البرج الاول والحقوا به البرجين الاخرين ووصل الى السلطان العساكر من كل البلاد وكان ملك الالمان سار من بلاده بمائة الف مقاتل واهتم المسلمون لذلك وايسوا من الشام بالكلية فسلط الله على الالمان الغلا والوبا فهلك اكثرهم في الطريق ولما وصل ملكهم الى بلاد الارمن نزل في نهر هناك يغتسل فغرق واقاموا ابنه مقامه فرجع من عسكره جماعة الى بلادهم ولم يصل منهم الى عكا غير تقدير الف مقاتل مع ابن ملك الالمان (الذي في كتب الفرنج ان انريكس السادس ابن فريدريك ملك المانيا لم يسر الى فلسطين والذي سار في الالمان الى عكا انما هو فريدريك دوك سواب) وكثرت المناوشات بين السلطان والفرنج على عكا وخرجوا ذات يوم من خنادقهم بالفارس والراجل وازالوا الملك العادل عن موضعه فعطف عليهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فعادوا الى خنادقهم ولولا مغص اصاب السلطان لكانت هذه الوقعة هي الفيصلة وقوي الشتاء واشتدت الرياح فارسل الفرنج مراكبهم عن عكا الى صور خوفاً عليها

ان تتكسر فانفتحت الطريق الى عكا في البحر وارسل البدل اليها فكان الخارجون منها اضعاف الداخلين اليها فحصل التفريط بذلك لضعف البدل

وفي سنة ٥٨٧ ﻫ سنة ١١٩٢ م احاط الفرنج بعكا من البحر الى البحر وحفروا عليهم خندقاً فلم يتمكن السلطان من الوصول اليهم واشتد حصارهم لعكا وطال وضعف من بها عن حفظها وعجز صلاح الدين عن كف العدو عنهم فخرج الامير سيف الدين علي بن المشطوب وطلب الامان من الفرنج على مال واسرى يقومون به للفرنج فاجابوهم الى ذلك وظهرت اعلام الفرنج على عكا وحبسوا المسلمين في اماكن من البلد وقالوا انما نحبسهم ليقوموا بالمال والاسرى وصليب الصلبوت (خشبة الصليب التي كان المسلمون اخذوها) وكتبوا الى صلاح الدين فحصل ما امكن تحصيله من المال وطلب منهم اطلاق المسلمين فلم يجيبوه الى ذلك وقتلوا كثيرين منهم واستمروا بالباقين في الاسر وبعد تقرير امر عكاء رحل الفرنج عنها الى قيسارية (انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم ولا سيما ابو الفداء)

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك ان الفرنج اخذوا في حصار عكا في غاية اب سنة ١١٨٩ ودام الحصار نحو سنتين وكان مع لوسينيان عند اول حصارها نحو تسعة الاف مقاتل ثم وصلت شواني اهل بيزا (بابطاليا) واحتلوا على شاطئ البحر وفي اليوم الثالث بعد وصولهم هاجموا المدينة واقاموا السلالم على الاسوار واوشكوا ان ياخذوها حينئذٍ لولاء شيوع الخبر بوصول صلاح الدين والانكفاف عن وثبتهم رهبةً وذعراً ثم راوا اسطولاً مقبلاً فاذا به اثنا عشر الف مقاتل من فريز والدانيمرك واسلحة وازواد وتلا هذا الاسطول اسطول اخر يقل كثيرين من انكلترا وفلاندرا وعرف صلاح الدين بكثرة نجدات الفرنج فترك غزوته في فونيقي وسار الى عكا وحل على جبل قريب اليها وهاجم المسلمون الفرنج مرات فلم يستطيعوا ان يزيلوهم عن مواقعهم فضرب صلاح الدين مصافاً عاماً وارغم الفرنج ان يتركوا

موقفهم في شمال المدينة واتصل الى اسوار المدينة واخذ بعض حرسها وحصر الفرنج في معسكرهم ورتب المدينة واقام فيها نخبة من رجاله وعاد الى معسكره وحفر الفرنج خنادق حول معسكرهم فهال ذلك المسلمين وروعهم وفود مراكب الفرنج كل يوم واتى حينئذٍ الصليبيون من مدن ايطاليا ثم من شمبانيا وغيرها من اعمال افرنسة ثم من المانيا وجهز كنراد مركيس صور اسطولاً وعسكرًا وانضاف الى الصليبيين حتى كان حول عكا اكثر من مائة الف مقاتل ولم يكن ملكا افرنسة وانكلترا وصلا بعد فاشار على صلاح الدين بعض حاشيته ان يتنحى من وجه هذا الجيش العرمرم وكان مصاف في السهل الفسيح الكائن بين المعسكرين وكان الافرنسيون والفرسان الاسبتياليون بامرة ملك اورشليم وكتاب الانجيل يحمله اربعة فرسان امامه وكان البنادقة واللمبرديون وعسكر صور على ميسرة الجيش وكان في القلب الالمانيون والبيزاويون والانكليز وكان رئيس فرسان الهيكل وغيره مع العسكر المستحفظ الذي يسير حيث تدعوه الحاجة واصطف امامهم المسلمون فكسرت في اول كرة ميسرة جيش المسلمين التي كانت بامرة تقي الدين ابن اخي السلطان وبلغ بعض الفرنج الى خيمة صلاح الدين وانهزم كثير من المسلمين حتى طبرية وفر العبيد من معسكر المسلمين وانتهبوا ما كان فيه على ان الفرنج اشتغلوا بالنهب عن القتال وتشتتوا فعطف عليهم المسلمون وقتلوا كثيرين منهم ودنا فصل الشتاء فاشار على صلاح الدين امراء جيشه ان يريح عسكره ويستريح هو مدة فمضى صلاح الدين فاقام مع عسكره في المحل المدعو الخروبة

فحسب الفرنج هذه العزلة عن الحرب خوفاً وانبسطوا في انحاء عكا وحصنوا في هذه المدة مواقفهم واصطنعوا ثلثة ابراج من خشب ولما انقضى الشتاء عاد صلاح الدين من الخروبة ومعه عساكر الجزيرة وسورية وعادت نار الحرب تتاجج فاحرق المسلمون الابراج المذكورة وبعد مغالبات كثيرة بين الفرنج والمسلمين ووصل ملك

انكلترا وملك افرنسة وبقايا عسكر ملك المانيا الى عكا ارتاع المسلمون وضايقهم الفرنج واصاب صلاح الدين مرض اعجزه عن ان يشهد الحرب مع جنوده فطلب المسلمون الامان فاجابهم الفرنج اليه وتسلم الفرنج عكا في ١٣ تموز سنة ١١٩١ بعد حصارها نحو سنتين وكان من شروط الصلح ان يطلق صلاح الدين الاسرى النصارى ويطلق الفرنج لاسرى المسلمين وان يدفع الى الفرنج مايتي الف دينار وان يرد عليهم خشبة الصليب وانقضى زمان ولم ينجز صلاح الدين وعده فهدده الفرنج بقتل المسلمين الذين في حوزتهم ان اخلف وعده ولما لم يجبهم الى طلبهم اخذوا الفين وسبعماية اسير وقتلوهم قرب محلة صلاح الدين فخرج عليهم المسلمون وقاتلوهم ولم تكن جدوى من قتالهم وقد ذكر المؤرخون المسلمون قتل هولاء الاسرى وسموهم شهداء ولما راى صلاح الدين انه لا بد من استئناف الفرنج الحرب وخشي زيادة الانخذال خلى سبيل الفي اسير من الفرنج ودفع اليهم مئتي الف دينار ورد عليهم خشبة الصليب

وفي مدة حصار عكا ماتت سيبليا بنت اموري الملك وزوجة لوسينيان ملك اورشليم وتوفي ولداها فكان ذلك سبباً للخلاف بين الفرنج فان كونراد والي صور تزوج بايزابال اخت الملكة خلافاً لرسوم الكنيسة لانها كانت مزوجة وادعى الملك واراد خلع لوسينيان وكان لكل منهما محازبون وكان في اخر الامر ان ريشار ملك انكلترا اعطى لوسينيان قبرس وسماه ملكاً عليها وقام هو في مقام ملك اورشليم وكان ملكا افرنسة وانكلترا يظهر احدهما الوداد للاخر في اول الامر ثم وقع بينهما التحاسد والغيرة ومرض فيليب ملك افرنسة فحمله مرضه والتحاسد بينهما على العود الى ملكه فعاد في اخر تموز السنة المذكورة وترك من جنوده عشرة الاف مقاتل بامرة اوغو الثالث دوك بركونيا فمات هذا الدوك في صور السنة التالية اي سنة ١١٩٢ وبقي ريشار ملك انكلترا وحده على امرة الصليبيين (انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم)

﴿ عـد ٨٤٣ ﴾

في المدن التي اخذها الفرنج من المسلمين بعد فتح عكا

هذا ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك ان الفرنج بعد تقريرهم امر عكا ساروا نحو يافا فضايقهم المسلمون في مسيرهم وارسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقتهم فاسروا جماعة وقتلوا جماعة وعاد ملك الانكليز الى الساقة فحماها وجمعها فاخذ الفرنج قيسارية وساروا منها الى ارسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها وحملوا عليهم عند وصولهم اليها حتى الحقوهم بالبحر فاجتمع الفرنج وحملت فرسانهم على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوي احد على احد ووصلوا الى سوق المسلمين وقتلوا من السوقة وغيرهم خلقاً كثيراً ثم سار الفرنج الى يافا وقد اخلاها المسلمون فملكها الفرنج ثم راى صلاح الدين تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها مما حصل لعكا فسار اليها واخلاها وخربها ورتب الحجارين في تعليق اسوارها فدكها الى الارض ثم خرب حصن الرملة وخرب كنيسة لد ثم سار الى القدس ورتب اموره وعاد الى مخيمه بالنطرون ثم تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على ان يتزوج الملك العادل اخو السلطان باخت ملك انكلترا ويكون للملك العادل القدس وكل ما بيد المسلمين من الشام ويكون لامراته عكا وكل ما بيد الفرنج فانكر القسيسون على اخت الملك ذلك الا ان يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال ثم رحل الفرنج من يافا الى الرملة على عزم ان يفتحوا القدس وكان في كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات وعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين باللقاء واقبل الشتاء وحالت الاوحال والامطار بينهما واعطى صلاح الدين الدستور لعسكره ليستريحوا وسار هو الى القدس واخذ في تحصينها وتجديد ما رث منها وكان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدي به العسكر وسار الفرنج من الرملة الى النطرون

قاصدين القدس وكانت بينهم وبين المسلمين وقعات اسر في وقعة منها نحو خمسين فارساً من مشهوري الفرنج وعاد الفرنج الى الرملة لقطع المسلمين طريق الميرة عنها

وفي سنة ٥٨٨ هـ سنة ١١٩٣ م رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا في عمارتها وكان صلاح الدين بالقدس وكان قتال شديد بينهم وبين المسلمين فاستولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ثم ساروا الى القدس وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة ولم يكن عند صلاح الدين الا بعض العساكر المصرية ولما سمع صلاح الدين بقربهم فرق ابراج البلد على امرائه وسار الفرنج من بيت نوبة الى قلونية وهي على فرسخين من القدس فصب المسلمون عليهم البلاء فعلم الفرنج انه اذا نازلوا القدس كان الشر اليهم اسرع والتسلط عليهم امكن فرجعوا القهقرى ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سرية من عسكره اليها ونازلوها وكانوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم فقتلوا منهم واسروا وغنموا وعلم الفرنج ان بعض امراء صلاح الدين عادوا اليه ولحقتهم العساكر الشرقية عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار واجتمعت العساكر بدمشق وايقن الفرنج ان لا طاقة لهم بها اذا فارقوا البحر فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على فتح بيروت فامر صلاح الدين ولده الافضل ان يسير اليها في العساكر الشرقية معارضاً للفرنج في مسيرهم الى بيروت وخيم الافضل بمرج عيون فلما بلغ الفرنج ذلك اقاموا بعكا ولم يفارقوها

ولما رحل الفرنج الى عكا سار صلاح الدين الى يافا في عسكر حلب وغيرها فنازلها وملكها عنوةً ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وزحفت العساكر الى القلعة وقاتلوا عليها اخر النهار وكادوا ياخذونها فخرج البطريرك وعدة من الفرنج ووعدوا المسلمين ان يسلموا اليهم القلعة بكرة غد ولما كان الصباح اتتهم نجدة وادركهم ملك انكاترا فاخرج من بيافا من المسلمين وبرز الى ظاهر المدينة واعترض

المسلمين وحمل عليهم فلم يتقدم احد اليه وعاد صلاح لدين الى الرملة لينظر ما يكون من الفرنج فلزموا يافا ولم يبرحوا منها

وفي هذه السنة قتل كونراد صاحب صور والذي رواه ابن الاثير ان صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية وهو سنان ليرسل من يقتل ملك الانكليز وان قتل المركيز صاحب صور فله عشرة الاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك الانكليز او لم يره سنان مصلحة ليلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ للاسماعيلية فعول الى قتل المركيس وارسل رجلين بزي الرهبان فقتلاه ولما قتل ولى صور بعد كند (كنت) من الفرنج في داخل البحر يقال له الكند هنري

واما رواية المورخين الفرنج لاخبار هذه الاحداث فلا تختلف جوهرًا عن رواية المؤرخين المسلمين لها ومع ذلك نورد ما رووه بما امكن من الايجاز تحقيقاً للاخبار وطمعاً بالفائدة من زيادة التفصيل قالوا ان النصارى بعد ان قرروا امر عكا ساروا نحو يافا وعدد جيشهم نحو ماية الف مقاتل بامرة ريشار ملك انكلترا وكان لهم في مسيرهم مناوشات مع المسلمين الذين ما انفكوا يرمونهم بالسهام ويقطعون الطرق عليهم ولم يكن عسكر الفرنج يتمكن من ان يسير اكثر من ثلثة فراسخ في اليوم ولما دنوا من قيسارية اصاب سهم الملك ريشار بفخذه وكان مسيرهم والبحر على يمينهم وعن شمالهم الجبل مشحون بجنود المسلمين وبعد ان عبروا غابة ارسوف وجدوا في الصحراء هناك مئتي الف مقاتل من المسلمين فاستمد الملك ريشار لقتالهم دون ان يتوقف عن المسير فامر جنده ان لا يتجاوزوا حد الدفاع الا ان يعلمهم بالهجوم ثم الحم بعض الفرسان الكماة الحرب فحمي وطيسها بين الجميع وكان الملك ريشار يتسارع الى حيث يرى حاجة اليه وكان القتال شديداً والقسطل حالكاً وقد دنا المتحاربون بعضهم من البعض حتى قتل كثيرون من الفرنج بايدي الافرنج انفسهم لظنهم انهم مسلمون ودارت الدوائر على المسلمين

حتى روى بهاء الدين المؤرخ المسلم الذي كان في هذه الحرب انه لم يجد حول صلاح الدين الا سبعة عشر مملوكاً من مماليكه وسار الفرنج نحو ارسوف فاتى بعض المسلمين ووثبوا على ساقة جيشهم فعاد ريشار اليهم وشتت شملهم وخسر صلاح الدين في هذه الحرب ثمانية الاف مقاتل والفرنج الفاً ولما راى صلاح الدين ان بعض الحصون الباقية بيده لا تتحمل شدة وثبات الفرنج وان الرعب استحوذ على قلوب جنوده فلا يمكنهم حفظها عمد على دكها كما رواه المورخون المسلمون

ووقع في هذه الاثناء ريشار ملك انكاترا بخطر ذلك انه سار للصيد في غاب سارون ونام في ظل شجرة فاسرعت شرذمة من المسلمين لقتله او اسره فعلا جواده واخذ يدافع عن نفسه واحتاطه الاعداء من كل جهة فصاح احد الفرسان من تبعته سماه المورخون غوليلمس براتل باللغة العربية انا الملك فانقذوني فانكف الاعداء عن الملك واحاطوا بهذا الفارس واسروه واتوا به الى صلاح الدين فارسله الى دمشق ففداه الملك بعشرة امراء من امراء صلاح الدين كانوا اسرى عند الفرنج

وبعد ان ملك الفرنج يافا وجددوا اسوارها قصدوا اورشليم لكنهم راوا انه لابد لهم قبل ذلك من ان يحصنوا اسوار بعض المدن وشرعوا في تحصين عسقلان وصادق هولاء المؤرخون على ما رواه المؤرخون المسلمون من محاولة الفرنج حينئذٍ فتح اورشليم واكراههم على الرجوع عن قصدهم وعودهم الى يافا ثم مسيرهم الى عكا واستيلاء صلاح الدين على يافا وعود الملك ريشار بحراً اليها وطرده المسلمين من المدينة وانتصاره على صلاح الدين في ظاهرها

ومما رواه المورخون الفرنج انه بينما كان الملك ريشار في عسقلان اتته الاخبار بان اخاه يوحنا يغدر به ويريد اخذ ملكه منه فجمع رجال مشورته وانبأهم بما كان وعالنهم بان مصلحة ملكه تضطره الى ترك المشرق وقال ان تركت فلسطين تركت فيها ثلث مئة فارس والفي رجل من نخبة جيشي فاسف جميعهم لاضطراره ان يبرح

فلسطين في هذه الحال وسالوه ان يختار قبل سفره ملكاً لاورشليم يجمع القلوب اليه ويزيل الخلاف فقال من ترون اهلاً لذلك فاجمع رايهم على المركيس كنراد والي صور ولم يكن الملك يحبه بل كان يقدر شجاعته ودربته حق قدرهما فرضيه وارسل ابن اخيه كنت شمبانيا يبشره بذلك وكان كنراد عقد سرًّا مع صلاح الدين معاهدة واتفقا معاً فدهش من اختيار ريشار له ملكاً ولم يقدر ان يخفي سروره ولكي يبرىء نفسه ويظهر ورعه رفع عينيه الى السماء فقال « الهي ملك الملوك مر بتتويجي ملكاً ان رايتني اهلاً والا فابعد عن راسي هذا الاكليل » وبعد ايام قليلة كان مقتل كنراد كما ذكره المؤرخون العرب ووقعت انظار اهل صور على هنري كنت شمبانيا وكان هنري نسيباً لريشار ملك انكلترا وفيليب ملك افرنسة وسالوه ان يملك فيهم وان يتزوج ارملة كنراد ايزبال بنت الملك اموري وقدمت له ايزبال نفسها مفاتيح مدينة صور فتزوجها وعرفه الفرنج ملكاً عليهم واثبته ريشار وتخلى له عن كل ما اخذه في فلسطين وراى ريشار ان مصلحة مملكته تقضي عليه بالرجوع اليها وراى صلاح الدين انه لا طاقة له على حرب الفرنج وريشار الملك فعزم الفريقان على عقد هدنة بالشروط الآتي ذكرها وسار ريشار عائداً الى بلاده وكان نجاحه في المشرق واساته الى كثيرين من الفرنج في سورية قد جلا له اعداء في كل مملكته ولذلك لما قذفت الريح شوانيه في دلماسيا قبض عليه ليوبولد دوك النمسا واراد ان يبيعه وتقدم اعداؤه لشرائه ولا سيما انريكس السادس ملك المانيا فانتصر له الحبر الروماني وحرم كل من يهينه فخلى سبيله وعاد الى ملكه (انتهى ملخصاً عن كثيرين وبعضهم من الشهود العيانيين)

عـد ٨٤٤

في الهدنة التي عقدت بين الفرنج والسلطان صلاح الدين

هذا ما قاله المؤرخون المسلمون في ٥٥٨ هـ سنة ١١٩٣ م عقدت هدنة بين

السلطان صلاح الدين وملك الفرنج وسببـذلك ان ملك الانكليز كاتب الملك العادل يساله الدخول على السلطان في الصلح فلم يجبهم السلطان الى ذلك ثم اتفق راي الامراء على ذلك لطول البيكار وضجر العساكر ونفاذ نفقاتهم فاجاب السلطان الى ذلك واستقر امر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان الموافق اول ايلول وتحالفوا على ذلك في يوم الاربعا الثاني والعشرين من شعبان (٥ ايلول) ولم يحلف ملك الانكليز بل اخذوا يده وعاهدوه واعتذر بان الملوك لا يحلفون وقنع السلطان بذلك وحلف الكند (الكنت) هري (هنري) ابن اخيه وخليفته في الساحل وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج واستحلفوا الملك العادل اخا السلطان والملك الافضل والظاهر ابني السلطان والملك المنصور صاحب حماه محمد بن تقي الدين عمر والملك الجاهد شيركوه صاحب حمص والملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك وغيرهم من الامراء والمقدمين الكبار وعقدت هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها ثلث سنين وثلثة اشهر وعن ابن الاثير ثمانية اشهر وكانت الهدنة ان يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وارسوف وعملها وعكا وعملها وحيفا وعملها وان تكون عسقلان خراباً واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في عقد هدنته واشترط الفرنج دخول صاحب انطاكية وصاحب اطرابلس في عقد هدنتهم وان تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين فاستقرت القاعدة على ذلك واذن السلطان للفرنج في زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا ثم رحل السلطان الى القدس وتفقد احواله وامر بتشييد اسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس وهذه المدرسة كانت قبل الاسلام تعرف بصند (سنت) حنه يذكرون ان فيها قبر حنه ام مريم ثم صارت في الاسلام دار علم قبل ان تملك الفرنج بالقدس ولما ملكوا القدس اعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام فلما فتح السلطان القدس اعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها الى القاضي بهاء الدين بن شداد ولما استقر

امر الهدنة ارسل ماية حجار لتخريب عسقلان وان يخرج من بها من الفرنج ورحل السلطان عن القدس الى نابلس ثم الى بيسان ثم الى كوكب ثم الى طبرية ثم الى بيروت ووصل الى خدمته بيند صاحب انطاكية فاكرمه السلطان وسار الى دمشق وفرح الناس به واقام العدل والاحسان بدمشق واعطى العساكر الدستور (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير وابي الفداء)

وقد وافق المؤرخون الفرنج المؤرخين المسلمين على ذلك وقالوا ان مدة الهدنة ثلث سنين وثمانية اشهر كما ذكرها ابن الاثير وان القدس يكون بابه مفتوحاً لزيارة الفرنج يحجون اليه دون سلاح وان مدن الساحل من يافا الى صور تكون بيدهم وكان كل من الفريقين يدعي عسقلان وقر الامر اخيرًا ان تكون خراباً وحلف رؤساء جيش المسلمين على القرآن ورؤساء جيش الفرنج على الانجيل وصادقوا على ان ريشار الملك لم يحلف بل اخذ يد المفوضين بعقد الهدنة . وبعد استقرار الهدنة سار من الفرنج من قصدوا العود الى اوروبا يحجون الى القبر المقدس الذي لم يتمكنوا من انقاذه فدخلوا المدينة افواجاً دون سلاح وبذل صلاح الدين مجهوده في رعاية حق الضيافة لهم وارسل الملك ريشار اسقف ساليسبوري ليحج عنه فعامله صلاح الدين بالتجلة والتكريم وحدثه ملياً في شان الحرب المقدسة

عد ٨٤٥

في وفاة السلطان صلاح الدين ومن ملك بعده

كان صلاح الدين بعد عقد الهدنة مع الفرنج تحسن له نفسه ان يغزو الى اسيا الصغرى وياخذ ما فيها للمسلمين ولملك الروم ويفتتح قسطنطينية ويتطرق الى الفرنج ببلادهم فانه كان يألف التعب ويانف الراحة وخرج الى شرقي دمشق متصيدًا وغاب خمسة عشر يوماً وعاد ثم خرج لملاقى الحجاج ورجع بين البساتين الى القلعة وكانت هذه اخر ركباته فقد اصابته حمى واخذ المرض في التزايد وقصده الاطباء فلم تنجع

به ادواؤهم وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته وتوفي ليلة السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ سنة ١١٩٤ م ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها ثم عمل الملك الافضل تربة قبالة الجامع وكانت داراً لرجل صالح ونقل رفاته اليها سنة ٥٩٢ هـ سنة ١١٩٧ م وكان مولد صلاح الدين بتكريت سنة ٥٣٢ هـ سنة ١١٣٨ م فيكون عمره عند وفاته ٥٧ سنة هجرية وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو اربع وعشرين سنة وملكه الشام قريباً من تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة وكان اكبر اولاده الافضل نور الدين ملك بدمشق بعده والبنت تزوجها بعد وفاته ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر ولم يخلف صلاح الدين في خزائنه غير سبعة واربعين درهماً وهذا دليل قاطع على فرط كرمه ولم يخلف داراً ولا عقاراً وقيل انه قبل وفاته امر احد امرائه ان يطوف بدمشق بكفنه منادياً هذ ما ياخذه صلاح الدين فاتح المشرق من فتوحه وكان حسن الخلق صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب اصحابه يسمع من احدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه وكان طاهر المجلس فلا يذكر احد في مجلسه احداً الا بالخير

ولما توفي صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها ولده الملك الافضل نور الدين علي وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان وبحلب ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر وببعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه من انسبايه وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه الى غير هؤلاء والملك الافضل هو الاكبر من اولاد السلطان صلاح الدين والمعهود اليه بالسلطنة واستوزر ضيا الدين ابن الاثير مصنف المثل السائر وهو اخو عز الدين ابن الاثير

مؤلف التاريخ المسمى بالكامل فحسن للملك الافضل طرد امراء ابيه ففارقوه الى اخويه العزيز بمصر والظاهر بحلب ولما اجتمع اكابر الامراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد في السلطنة ووقعوا في اخيه الافضل ملك دمشق فمال الى ذلك وحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل والعزيز

﴿ عد ٨٤٦ ﴾

في بعض الاحداث الى نهاية هذا القرن

في سنة ٥٩٠ هـ سنة ١١٩٥ م استحكمت الوحشة بين الاخوين العزيز صاحب مصر والافضل صاحب دمشق ابني صلاح الدين فسار العزيز في عسكر من مصر وحصر اخاه الافضل بدمشق فارسل الافضل يستنجد عمه العادل واخاه الظاهر صاحب حلب وابن عمه الملك المنصور صاحب حماه فساروا الى دمشق واصلحوا بين الاخوين ورجع العزيز الى مصر ورجع كل ملك الى بلده واقبل الملك الافضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الاغاني والاوتار ليلاً ونهاراً واشاع ندماؤه ان عمه الملك العادل حسن له ذلك وكان يعلمه خفية وفوض الافضل امر المملكة الى وزيره ضياء الدين ابن الاثير الجزري يديرها برايه الفاسد ثم اظهر الافضل التوبة عن ذلك وازال المنكرات وواظب على الصلوات وشرع في نسخ مصحف بيده

وفي سنة ٥٩١ هـ سنة ١١٩٦ م عاود الملك العزيز صاحب مصر قصد الشام ومنازلة اخيه الملك الافضل فسار نحو دمشق فاضطرب عليه بعض عسكره وفارقوه فعاد الى مصر بمن بقي معه وكان الملك الافضل قد استنجد بعمه الملك العادل فلما رحل اخوه العزيز الى مصر تبعه الملك الافضل والملك العادل ومن انضم اليهما طالبين مصر فساروا حتى نزلوا على بلبيس وقد ترك العزيز فيها جماعة من الصلاحية فقصد الملك الافضل مناجزتهم بالقتال فمنعه عمه الملك العادل وقصد الافضل المسير الى مصر والاستيلاء عليها فمنعه عمه العادل ايضاً وقال مصر لك متى

شتت وكاتب العادل العزيز بالباطن وامره بارسال القاضي الفاضل ليصلح بين الاخوين فاصلح بينهما واقام الملك العادل عند العزيز بمصر وعاد الافضل الى دمشق ولزم الزهد والقناعة وترك الامر لوزيره المذكور فكثر شاكوه وقل شاكروه

وفي سنة ٥٩٢ هـ سنة ١١٩٧ م بلغ الملك العادل والملك العزيز بمصر اضطراب الامور على الملك الافضل بدمشق فاتفقا على ان ياخذا دمشق من الافضل ويسلمها العزيز الى العادل لتكون الخطبة والسكة للملك العزيز بسائر البلاد كما كانت لابيه صلاح الدين فخرجا من مصر حتى نزلا على دمشق وكان الملك الافضل قد حصنها وكاتب الملك العادل بعض الامراء من داخل البلد وصاروا معه ووعدوه بتسليم البلد فدخلها الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما واجاب الملك الافضل الى تسليم القلعة ايضاً وانتقل منها باهله واصحابه واخرج وزيره ضيا الدين المذكور مختفياً بصندوق خوفاً عليه من القتل واعطى الملك الافضل صرخد فسار اليها باهله واستوطنها وبعد ان دخل الملك العزيز دمشق سلمها الى عمه الملك العادل فابقى السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز

وفي سنة ٥٩٤ هـ سنة ١١٩٩ م وصل جمع عظيم من الفرنج الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت وسار الملك العادل الى يافا واتته نجدة من مصر ووصل اليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس وهجم على يافا بالسيف فملكها وقتل من كان يقاتله بها وازل الفرنج تبنين فارسل الملك العادل الى الملك العزيز صاحب مصر فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين فرحل الفرنج عنها الى صور خائبين وعاد الملك العزيز الى مصر وترك اكثر العسكر مع الملك العادل وجعل اليه امر الحرب والصلح فطاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة فاستقرت بينهم ثلث سنين وعاد الملك العادل الى دمشق

وفي سنة ٥٩٥ﻫ سنة ١٢٠٠ م توفى الملك العزيز صاحب مصر بحمى اصابته بأثر قنطرة عن جواده واشتدت حماه وحدث به يرقان وقرحة في امعائه واحتبس طبعه فمات في السنة المذكورة بعد ان ملك ست سنين الا شهرًا فاقام بالملك بعده ولده الملك المنصور محمد وكان عمره حينئذٍ تسع سنين واتفق الامراء على احضار احد من بني ايوب ليقوم بالملك ووقع اختيارهم على الملك الافضل وهو بصرخد وارسلوا اليه فسار حثيثاً مختفيا خوفاً من عمه الملك العادل فصير اتابك اي امير الامراء عند الملك المنصور ابن اخيه واشار عليه اخوه الملك الظاهر صاحب حلب ان يقصد دمشق ويأخذها من عمه الملك العادل فسار الملك الافضل في العساكر الى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره وهو محاصر ماردين فسار الى دمشق ووصل اليها قبل الملك الافضل ثم وصل الافضل الى دمشق وزحف اليها وجرى بينهما قتال واتصل الافضل الى باب البريد ولم يمده العسكر فتكاثر اصحاب العادل واخرجوهم من البلد ووصل الملك الظاهر صاحب حلب منجدًا لاخيه الافضل مضايقاً المدينة ودام الحصار وقلت الاقوات فيها وعزم العادل على تسليم البلد فحصل بين الاخوين الافضل والظاهر خلاف ادى الى ترك حصار دمشق (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير وابي الفداء)

واما المؤرخون الفرنج فقالوا في فتحهم بيروت وغيرها ما ملخصه ان البابا شالستينوس الثالث اغتنم فرصة وفاة صلاح الدين فدعا امراء اوروبا ليهتموا باسترجاع اورشليم فلبى اريكس السادس ملك المانيا دعوته مع انه كان محروماً لانه شرى ريشار ملك انكلترا وسجنه فتالب عسكر في المانيا وايطاليا وساروا بحرًا الى سورية واخذوا بعض المدن الساحلية التي كانت بيد المسلمين منها اللاذقية وجبلة وبيروت وصيدا واسفكوا نحو تسعة الاف اسير ولكن وقع الخلاف بينهم اذ لم يكن ملك يجمع كلمتهم فان هنري دوك شمبانيا وملك اورشليم سقط به رواق او سقط هو من

شباك فانشج راسه ومات وكان بعض الفرنج المتوطنين بسورية لا يريدون نقض الهدنة بينهم وبين المسلمين الى ان نقضها الملك العادل بحصاره يافا وفتحها وبمنازلته الفرنج على تبنين وترحيلهم عنها ثم تجددت الهدنة بين الفرنج والمسلمين الى ثلث سنين وبعد وفاة ملك اورشليم تزوجت ارملة ايزبال بنت اموري الملك زيجة ثالثة باموري دي لوسينيان اخي كوي دي لوسينيان ملك قبرس وكان ملكاً سنة ١١٩٧م

الفصل الثاني

في بعض المشاهير الدنيوين في القرن الثاني عشر

عد ٨٤٧

في المشاهير السوريين

محمد بن الخضر المعري

ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات فقال هو ابن الحسن بن القاسم ابو اليمن بن ابي مهزول التنوخي المعروف بالساق من اهل المعرة قال ابن النجار . كان شاعراً مجيداً مليح القول حسن المعاني رشيق الالفاظ دخل بغداد وجالس ابن باقيا والابيوردي والخطيب التبريزي وانشدهم شعره وعمل رسالة لقبها تحفة الندمان اتى بها بكل معنى غريب يشتمل على عشر كراريس ومما ذكره من شعره

واغيد واجه المرآة زهواً ... فحرّق بالصبابة كل نفسِ
وليس من العجائب ان تاتي ... حريق بين مرآة وشمسِ

ومنه ايضاً

حامت على السفيه فزاد بغياً ... وعاد فكفه سفهي عليه
وفعلي الخير من شيمي ولكن ... ابت الشر مدفوعاً اليه

وقال وكانت وفاته بعد الخمساية فسنة الخمساية للهجرة هي سنة ١١٠٧ للميلاد فلا نعلم في اية سنة بعدها كانت وفاته

﴿ ابراهيم الغزي الشاعر ﴾

قال في حقه ابن خلكان هو ابو اسحق ابراهيم بن يحيي الى محمد الاشهبي وقال ابن النجار في تاريخ بغداد هو ابراهيم بن عثمان بن عباس الى عبدالله الاشهبي الكابي الغزي الشاعر المشهور ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال دخل دمشق وسمع بها من الفقيه نصر المقدسي سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ودخل الى بغداد واقام بالمدرسة النظامية سنين كثيرة ومدح ورثى غير واحد من المدرسين بها وغيرهم ثم رحل الى خراسان وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر شعره هناك وذكر له عدة مقاطيع من الشعر واثنى عليه انتهى كلام الحافظ وله ديوان شعر اختاره بنفسه وذكر في خطبته انه الف بيت وله قصيدة لناصر الدين بن العلا وزير كرمان ومما قاله فيها

حملنا من الانام ما لا نطيقه ... كما حمل العظم الكسير العصائبا

وقال في قصر الليل

وليل رجونا ان يدب عذاره ... فما اختط حتى صار بالفجر شائبا

وله ايضاً :

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة ... باب الدواعي والبواعث مغلق
خلت الديار فلا كريم يرتجى ... منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب انه لا يشترى ... ويخان فيه مع الكساد ويسرق

وقد توفي سنة ٥٢٤ هـ سنة ١١٣١ م ما بين مرو وبلخ من بلاد خراسان ونقل الى بلخ ودفن فيها ونقل عنه انه كان يقول لما حضرته الوفاة ارجو ان يغفر لي ربي لثلثة اشياء كوني من بلد الامام الشافعي واني شيخ كبير جاوزت السبعين واني غريب

﴿ ابن منير الطرابلسي ﴾

قال فيه ابن خلكان ابو الحسين احمد بن منير بن احمد بن مفلح الطرابلسي الملقب مهذب الدين الشاعر المشهور له ديوان شعر وكان ابوه ينشد الاشعار ويغني في اسواق طرابلس وحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة والادب وقال الشعر وقدم دمشق وسكنها وكان رافضياً كثير الهجاء ولما كثر ذلك منه سجنه بوري بن اتابك طغتكين صاحب دمشق مدة وعزم على قطع لسانه ثم شفعوا فيه فنفاه وكان بينه وبين ابن القيسراني (الآتي ذكره) مكاتبات واجوبة ومهاجاة وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتهما كما جرت عادة المتماثلين ومن شعره من جملة قصيدة :

واذا الكريم راى الخمول نزيله ... في منزل فالحزم ان يترحلا
فالبدر لما ان تضاءل جدّ في ... طلب الكمال فحازه متنقلا
ساهمت عيشك مرّ عيشك قاعدًا ... افلا فليت بهنّ ناصية الفلا
فارق ترقَ كالسيف سل فبان في ... متنيه ما اخفى القراب واخملا
لا تحسبن ذهاب نفسك ميتة ... ما الموت الا ان تعيش مذللا
للقفر لا للفقر هبها انما ... مغناك ما اغناك ان تتوسلا
لله علمي بالزمان واهله ... ذنب الفضيلة عندهم ان تكملا
طبعوا على لوم الطباع فخيرهم ... ان قلت قال وان سكت تقولا

وكانت ولادته سنة ٤٩٣ هـ سنة ١١٠٠ م بطرابلس وكانت وفاته سنة ٥٤٨ هـ سنة ١١٥٤ م بحلب ودفن بجبل جوشن بقرب المشهد الذي هناك . قال ابن خلكان زرت قبره ورايت عليه مكتوباً

من زار قبري فليكن موقناً ان الذي القاه يلقاهُ
فيرحم الله امرءًا زارني وقال لي يرحمك اللهُ

ولكن وجدت في ديوان ابي الحكم عبيد الله ان ابن منير توفي بدمشق سنة ٥٤٧ ﻫ اي سنة ١١٥٣ م ورثاه بابيات تدل على انه مات بدمشق منها وهي هزلية على عادته

أثوابه فوق اعواد تسير به وغسلوه بشطي نهر قلوط
واسخنوا الماء في قدر مرصصة واشعلوا تحته عيدان بلوط

وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الجمع بين هذين الكلامين فعساه ان يكون قد مات في دمشق ثم نقل الى حلب فدفن بها والله اعلم

﴿ ابن عساكر الدمشقي ﴾

هو الحافظ ابو القاسم علي بن ابي محمد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر الدمشقي كان محدث الشام في وقته ومن اعيان الفقهاء الشافعية غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه الى ان جمع منه ما لم يتفق لغيره وجاب البلاد ولقي المشائخ ثم عاد الى دمشق ثم رحل الى خراسان وصنف التصانيف المفيدة وكان حسن الكلام على الاحاديث صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة اتى فيه بالعجائب وهو على نسق تاريخ بغداد وقد استعظمه العلماء وقال بعضهم ان العمر يقصر عن ان يجمع الانسان فيه مثل هذا التاليف وله شعر لا باس فيه ومنه قوله على ما قيل :

الا ان الحديث اجل علم واشرفه الاحاديث العوالي
وانفع كل نوع منه عندي واحسنه الفوائد والامالي
وانك ان ترى للعلم شيئاً تحققه كافواه الرجالِ
فكن يا صاح ذا حرص عليه وخذه من الرجال بلا ملالِ

ولا تأخذه عن صحف فترمى … من التصحيف بالداء العضال

ومن المنسوب اليه ايضاً :

ايا نفس ويحك جاء المشيب … فماذا التصابي وماذا الغزل
تولى شبابي كان لم يكن … وجاء مشيبي كان لم يزل
كاني بنفسي على غرة … وخطب المنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن اكون … وما قدر الله لي في الازل

وكانت ولادته اول سنة ٤٩٩ هـ سنة ١١٩٦ م وتوفي سنة ٥٧١ هـ سنة ١١٧٦م بدمشق ودفن بها وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين

﴿ ابن الذكي الدمشقي ﴾

هو ابو المعالي محمد بن ابي الحسن الى ابان بن عثمان بن عفان الاموي القرشي الملقب يحيي الدين بن زكي الدين الدمشقي الفقيه الشافعي كان ذا فضائل عديدة من الفقه والاداب وغيرهما وله النظم المليح والخطب والرسائل وتولى القضاء بدمشق سنة ٥٨٨ هـ سنة ١١٩٣ م وكانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية والمكانة المكينة ولما فتح السلطان صلاح الدين حلب انشده القاضي المذكور قصيدة منها البيت المتداول وقد مرّ ذكره :

وفتحك القلعة الشهباء في صفرٍ … مبشر بفتوح القدس في رجبِ

وفوضه السلطان حينئذٍ الحكم والقضاء بحلب فاستناب بها زين الدين بنا الباناسي وله خطبة مشهورة القاها بامر السلطان صلاح الدين بالقدس في اول جمعة بعد الفتح وكانت ولادته سنة ٥٥٠ هـ سنة ١١٥٦ م ووفاته سنة ٥٩٨ هـ سنة ١٢٠٢ م

﴿ ابن القيسراني ﴾

هو ابو عبد الله محمد بن نصر الى خالد بن الوليد المخزومي الخالدي الحلبي الملقب شرف المعالي المعروف بابن القيسراني • وكان من الشعراء المجيدين والادباء

المتقين وكان هو وابن منير الطرابلسي شاعري الشام في ذلك العصر وجرت بينهما وقائع ونوادر وملح. وكان ابن منير ينسب الى التحامل على الصحابة ويميل الى التشيع فكتب اليه ابن القيسراني:

ابن منير هجوت مني ... خبرًا افاد الورى صوابه
ولم تضيق بذاك صدري ... فان لي اسوة الصحابه

ومن محاسن شعره قوله:

كم ليلة بت من كاسي وريقته ... نشوان امزج سلسالاً بسلسالِ
وبات لا تحمي عني مراشفه ... كانما ثغره ثغر بلا والي

قال ابن خلكان قد ظفرت بديوانه وانا يومئذٍ بحلب ونقلت عنه اشيأ منها قوله في مدح خطيب

شرح المنبر صدرًا ... لتلقيك رحيبا
أ ترى ضم خطيباً ... منك او ضمخ طيبا

ومن معانيه البديعة:

هذا الذي سلب العشاق نومهم ... أما ترى عينه ملأى من الوسن

وكانت ولادة القيسراني سنة ٤٨٧ ﻫ سنة ١٠٨٦ م بعكا وتوفي سنة ٥٤٨ ﻫ سنة ١١٥٤ م بمدينة دمشق ودفن بمقبرة باب الفراديس والقيسراني منسوب الى قيسرية فلسطين وله كتاب في الكلمات المتشابهة لفظاً من الاسماء المنسوبة طبع في لندن سنة ١٨٦٥

﴿ محيي الدين الشهرزوري ﴾

هو ابو حامد محمد القاضي كمال الدين الشهرزوري الملقب محيي الدين وقد دخل بغداد فتفقه على الشيخ ابي منصور ابن الرزاز ثم صعد الى دمشق وولي قضاءها نيابةً عن والدهِ ثم انتقل الى حلب وحكم نيابةً عن ابيه ايضاً سنة ٥٥٥ ﻫ

سنة ١١٦١ م وبعد وفاة والده تمكن عند الملك الصالح اخي نور الدين المذكور قبلاً صاحب حلب غاية التمكن وفوض اليه تدبير مملكة حلب سنة ٥٧٣ هـ سنة ١١٧٨م ثم وشى به اعداؤه وحساده الى الملك الصالح واقتضت الحال انه لزم بيته ثم رأى المصلحة مفارقة حلب فانتقل الى الموصل وتولى قضاءها ودرس بمدرسة والده والمدرسة النظامية بالموصل وتمكن عند صاحبها مسعود ابن مودود بن زنكي واستولى على جميع الامور وكان محيي الدين جوادًا سريًّا قيل انه انعم على فقهاء بغداد وادبائها وشعرائها ومحاويجها عند رسالته اليها بعشرة الاف دينار اميرية ويقال انه في مدة حكمه بالموصل لم يعتقل غريماً على دينارين فما دونهما بل كان يوفيهما عنه وله اشعار جيدة منها قوله في وصف جرادة :

لها فخذا بكرٍ (١) وساقا نعامةٍ وقادمتا (٢) نسرٍ وجؤجؤ (٣) ضيغمِ
حبتها افاعي الرمل بطناً وانعمت عليها جياد الخيل بالرأس والفمِ

وله في وصف نزول الثلج من الغيم :

ولما شاب رأس الدهر غيظاً لما قاساه من فقد الكرام
اقام يميط عنه الشيب غيظاً وينثر ما اماط على الانام

وكانت ولادته سنة ٥١٠ هـ تقريباً سنة ١١١٧ م وتوفي سنة ٥٨٦ هـ سنة ١١٩١م

﴿ تقية ابنة الصوري ﴾

هي امُّ علي تقية ابنة ابي الفرج ابي جعفر السلمي الارمنازي الصوري كانت فاضلة ولها شعر جيد قصائد ومقاطيع وصحبت الحافظ احمد ابن محمد السلفي الاصبهاني زماناً بالاسكندرية وذكرها في بعض تعاليقه واثنى عليها وكتب بخطه عثرتُ في منزل سكناي فانجرح اخمصي فشقت وليدة في الدار خرقةً من خمارها وعصبته فانشدت تقية للحال :

١ الناقة ٢ الريشتان الاثنتان في اعلى الجانح ٣ صدر

لو وجدت السبيل جدت بخدي عوضاً من خمار تلك الوليده

كيف لي ان اقبل اليوم رجلاً سلكت دهرها الطريق الحميده

ولها غير ذلك اشياء حسنة ورووا ان تقية نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخي السلطان صلاح الدين وكانت القصيدة خمرية ووصفت الة المجلس وما يتعلق بها بالخمر فلما وقف عليها الملك المظفر قال الشيخة تعرف هذه الاحوال من زمان صباها فبلغها ذلك فنظمت قصيدة اخرى حربية ووصفت الة الحرب وما يتعلق بها احسن وصف ثم صيرت اليه تقول علمي بهذا كعلمي بذاك وكان قصدها براة ساحتها مما نسبها اليه وكانت ولادتها سنة ٥٠٥ هـ سنة ١١١٢ م وتوفيت سنة ٥١٩ هـ سنة ١١٨٤ م والارمنازي نسبة الى ارمناز هي قرية من اعمال دمشق وقيل من اعمال انطاكية وقيل من اعمال حلب بينها وبين عزاز اقل من ميل ثم توطن اهلها في صور

﴿ ابن بري المقدسي ﴾

هو ابو محمد عبدالله بن ابي بري بن عبد الجبار بن بري المقدسي الاصل المصري المقام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره ونادرة دهره وله على كتاب الصحاح الجوهري حواشٍ فائقة اتى فيها بالغرائب واستدرك عليه بها في مواضع كثيرة وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه وصحبه خلق كثير واشتغلوا عليه ومن جملة من اخذوا عنه ابو موسى الجزولي وكان عارفاً بكتاب سيبويه وعلله وكان عليه التصفح في ديوان الانشاءات لا يصدر كتاب الدولة الى ملك من ملوك النواحي الا ان يتصفحه ويصلح ما به من خلل خفي ويحكى انه كانت فيه غفلة ولا يتقيد بالاعراب بل يسترسل في حديثه كيف ما اتفق حتى قال يوماً لبعض تلامذته اشترِ لي قليل هندبا بعروقو فقال التلميذ هندبا بعروقه فقال له لا تاخذه الا بعروقو وان لم يكن بعروقو فلا اريده قال ابن

خلكان ورايت له حواشي على درة الغواص في اوهام الخواص للحريري وله جزء لطيف في اغاليط الفقهاء وله الرد على ابن الخشاب في الكتاب الذي بين فيه غلط الحريري في المقامات فانتصر ابن بري للحريري وما اقصر في ما عمله وكانت ولادته بمصر سنة ٤٩٩ ﻫ سنة ١١٠٦ وتوفي سنة ٥٨٢ ﻫ سنة ١١٨٧ م وبريّ علم يشبه النسبة

﴿ اسامة بن منقذ ﴾

هو ابو المظفر اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد الى منقذ الكناني الكلبي من اكابر بني منقذ اصحاب قلعة شيزر واول من ملك هذه القلعة منهم سديد الملك ابن منقذ وكانت بيد الروم فنازلها وتسلمها بالامان سنة ٤٧٤ ﻫ سنة ١٠٨٢ م ولم تزل في يده ويد اولاده الى ان جاءت الزلزلة سنة ٥٥٢ ﻫ ١١٥٨ م وكان سديد الملك موصوفاً بالذكاء وقوة الفطنة وحكي عنه انه جرى له امر خاف منه على نفسه من محمود بن مرداس صاحب حلب فرحل الى طرابلس عند ابن عمار صاحبها فتقدم ابن مرداس الى كاتبه ابن النحاس الحلبي ان يكتب لسديد الملك كتاباً يتشوقه ويستدعيه اليه وفهم الكاتب ان ابن مرداس يقصد له شرًا فكتب كما امر وكتب اخيرًا ان شاء الله تعالى فشدد النون وفتحها فلما وصل الكتاب الى سديد الملك عرضه على ابن عمار ومجلسه فاستحسنوه واستعظموا رغبة ابن مرداس في التقرب اليه فقال هو ارى في الكتاب ما لا ترون فكتب الجواب وفي اخره انا الخادم المقر بالانعام وكسر الهمزة من انا وشدد النون ولما وصل الكتاب الى ابن مرداس وقف عليه الكاتب وسر بما فيه وطابت نفسه اذ علم ان سديد الملك ادرك المعنى فكان قصد الكاتب من تشديد النون في قوله انّ شاء الله الاشارة الى قوله تعالى « إنّ الملأ يأتمرون عليك ليقتلوك » وقصد سديد الملك بتشديد النون في قوله انّا الخادم الاشارة الى قوله تعالى « إنّا لن ندخلها ابدًا ما داموا فيها» وقد توفي سديد الملك

سنة ٤٧٥ هـ سنة ١٠٨٣ م ومخلص الدولة بن منقذ الذي ذكرنا ترجمته في القرن الحادي عشر هو والد اسامة الذي نكتب ترجمته هنا كما يؤخذ عن ابن خلكان في ترجمة سديد الملك المذكور

ولاسامة بن منقذ تصانيف عديدة في فنون الادب وقد اثنى عليه العلماء وقد سكن دمشق ثم انتقل الى مصر ثم عاد الى دمشق ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فاقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين وله ديوان شعر في جزئين موجود في ايدي الناس قال ابن خلكان قد رايته بخطه ونقلت منه ومما نقله عنه قوله في ابن طليب المصري وقد احترقت داره :

انظر الى الايام كيف تسوقنا قسرًا الى الاقرار بالاقدارِ
ما اوقد ابن طليب قط بداره نارًا وكان خرابها بالنارِ

وقوله يصف ضعفه:

فاعجب لضعف يدي من حملها قلماً من بعد حكم القنا في لبة الاسدِ

وما كتبه الى ابيه جواباً عن ابيات كتبها ابوه اليه :

وما اشكو تلون اهل ودي ولو اجدت شكيتهم شكوتُ
مللت عتابهم ويئست منهم فما ارجوهم في من رجوتُ
اذا ادمت قوارصهم فوادي كظمت على اذاهم وانطويتُ
ورحت عليهم طلق المحيا كاني ما سمعت ولا رايتُ
تجنوا لي ذنوباً ما جنتها يداي ولا امرت ولا نهيتُ
ويوم الحشر موعدنا وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيتُ

وكان مولد اسامة سنة ٥٨٨ هـ سنة ١٠٨٦م بشيزر وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ سنة ١١٨٩ م (قد اخذنا اكثر ما في هذا الفصل ملخصاً عن ابن خلكان في

وفيات الاعيان)

﴿ عـد ٨٤٨ ﴾

﴿ في بعض من عاصر هولاء المشاهير من امثالهم في غير سورية ﴾

﴿ ابو حامد الغزالي ﴾

هو حامد بن محمد زين الدين الغزالي الشافعي وقد ولد في طوس مدينة خراسان ولذا يصفونه بالطوسي وكانت ولادته سنة ٤٥٠ هـ سنة ١٠٥٩ م ووفاته سنة ٥٠٥ هـ سنة ١١١٢ م ولم يكن للشافعية في اخر عصره مثله وقد اشتهر في علمه وزهده ففي سنة ٤٨٨ هـ سنة ١٠٩٦ م ترك جميع ما كان عليه وسلك طريق الزهد والانقطاع وقصد الحج ورجع الى دمشق فاقام مدة يذكر الدروس في زاوية الجامع ثم انتقل الى بيت المقدس واجتهد في العبادة ثم قصد مصر واقام بالاسكندرية مدة ثم عاد الى وطنه بطوس وصنف كتباً مفيدة في عدة فنون منها ما هو اشهرها الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه ومنها احياء علوم الدين وهو من انفس الكتب واجلها وله في اصول الفقه المستصفي فرغ من تصنيفه سنة ٥٠٣ هـ سنة ١١١٠ م وله المنحول والمنتحل في علم الجدل وله تهافت الفلاسفة ومحك النظر ومعيار العلم والمظنون به على غير اهله والمقصد الاقصى في شرح اسماء الله الحسنى ومشكاة الانوار والمنقذ من الضلال وحقيقة القوانين الى غير ذلك ونسب اليه بعض الشعر ووزع اوقاته في اخر حياته على وظائف الخير الى ان انتقل الى ربه في السنة المذكورة ورثاه الابيوردي الشاعر المشهور بابيات منها

مضى واعظم مفقود فجعت به   من لا نظير له في الناس يخلفه

(انتهى ملخصاً عن ابن خلكان)

وقد ذكره العلامة المطران اسطفان عواد السمعاني الشهير في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية بفيرنسا واثنى عليه في علمه وورعه وعدد كتبه

وقال انها نحو ستين مجلدًا خص بالذكر منها كتابه في علم الدين قسمه الى اربعة اجزاء وكل جزء الى عشرة فصول تكلم فيها على عبادة الله واركان عقائد الدين ووصايا الاسلام والفضائل والرذائل وكتابه في المعارف العقلية تكلم به على صناعة القياس وعلى ما وراء الطبيعة وعلى الغاية والمقاصد في الاعمال وكتابه المنقذ من الضلال بين فيه ما ينافي او يوافق دين الاسلام من اقوال الفلاسفة وكتابه المظنون به على غير اهله يرد به ما يورده على سبيل الاعتراض على دين الاسلام وكتابه مشكاة الانوار تكلم فيه على الله الذي هو النور الحقيقي ثم على الانوار الثانية ويريد بها موسى وعيسى ومحمد وكتابه نصيحة الملك يخاطب به السلطان ملك شاه السلجوقي وكتابه الخاتم تكلم به على معنى الحروف العربية وعملها السحري وكتابه الموجز في علم النجوم وكتابه الحاوي ما يعزى اليه من الاشعار الادبية والفلسفية ثم ذكر له كتاباً في ما وراء الطبيعة واللاهوت مقسوماً الى سفرين تكلم في الاول على الذات والوجود والوحدة والجمع والضروري والممكن وفي حدوث الاشياء والجوهر والعرض وتكلم في الثاني على المعقولات والنفس البشرية وقواها وعلى الارواح الملائكة والشياطين وعلى اسماء الله ووحدة ذاته وعلمه وخلقه السماء والارض ووحيه وعنايته وعلى النبوة ورسالة محمد النبي وسمو مرتبة الانبياء وعلى الايمان والطاعة والفروض ويوم الدين والفردوس وجهنم وقد اخذ المطران المذكور كل هذه التعليقات عن كتبه الموجودة بالمكتبة المذكورة وجاء في كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ان كتابه المنقذ طبع بباريس سنة ١٨٤٢ ثم في القسطنطينية ومصر وان كتابه مقاصد الفلاسفة طبع منه ما يتعلق بالمنطق في لايدن سنة ١٨٨٨ وان له كتاباً يسمى عمدة المحققين وبرهان الدين طبع في القاهرة سنة ١٢٧٧ وكتابه تهافت الفلاسفة طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ وله كتاب احياء علوم الدين طبع مرتين في بولاق سنة ١٢٧٨ وسنة ١٢٨٢ هـ وفي القاهرة مرارًا وله ايضاً

المقالة الولدية يخاطب فيها غلاماً بقوله يا ولد طبعت في فيانا سنة ١٨٣٨ مع ترجمة المانية وله الدرة الفاخرة في احوال الاخرة طبعت في سويسرا سنة ١٨٧٨ مع ترجمة افرنسية انتهى

﴿ الطغرائي صاحب لامية العجم ﴾

هو على ما قال ابن خلكان العميد فخر الكتاب ابو اسمعيل الحسين الملقب مؤيد الدين الاصبهاني المعروف بالطغرائي كان غزير الفضل لطيف الطبع فاق اهل عصره بصنعة النظم والنثر وله ديوان شعر جيد ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم يصف بها حاله ويشكو زمانه واولها :

اصالة الراي صانتني عن الخطلِ وحلية الفضل زانتني لدى العطلِ

وهي تنيف على ستين بيتاً وهي مشهورة تتداولها الايدي وذكر العماد الكاتب انه كان ينعت بالاستاذ وكان وزير السلطان مسعود بن محمود السلجوقي بالموصل وانه لما جرى بينه وبين اخيه السلطان محمود المصاف بالقرب من همذان وكانت النصرة فيه لمحمود قتل الطغرائي بمكيدة من وزيره لانه راى اقبال السلطان محمود عليه وكانت هذه الوقعة سنة ٥١٣ هـ وقيل سنة ٥١٤ هـ وقيل سنة ٥١٨ اي سنة ١١١٩ م او ١١٢١ او ١١٢٥ وقد جاوز ستين سنة وفي شعره ما يدل على انه بلغ سبعاً وخمسين سنة لانه قال وقد جاءه مولود

هذا الصغير الذي وافى على كبري اقر عيني ولكن زاد في فكري

سبع وخمسون لو مرت على حجر لبان تأثيرها في صفحة الحجر

والطغرائي هذه النسبة الى من يكتب الطغراء وهي الطرة التي تكتب اعلى كتب الملوك. وعن كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ان ديوانه طبع القسطنطينية في مطبعة الجوائب وان قصيدته لامية العجم طبعت في قسطنطينية ١٣٠٠ هـ وفي اكسفورد سنة ١٦٦١ وفي فرنكفورت سنة ١٧٦٩ واصلاح ال

الصفدي الذي توفي سنة ١٣٦٢ شرح عليها سماه الغيث المسجم في شرح لامية العجم طبع في القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ وبهامشه سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لجمال الدين بن نباتة المصري الذي توفي سنة ٨٦٨ هـ

﴿ابو محمد الحريري﴾

هو ابو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي صاحب المقامات المشهورة كان احد ائمة عصره ورزق الحظوة التامة في عمل المقامات واشتملت على شيء كثير من كلام العرب وامثالهم ورموز اسرار كلامهم فاتمها خمسين مقامة وصنفها للوزير جلال الدين علي بن صدقة وزير المسترشد ونسجها على منوال بديع الزمان الهمذاني وابو زيد السروجي الذي عزا اليه هو رجل بصري نحوي لغوي صحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة واما تسميته الراوي بالحارث بن همام فانما عني بها نفسه اخذاً عن الاية كلكم حارث وكلكم همام قالوا كانت مقاماته اربعين مقامة فانكرها بعضهم عليه وقالوا هي لرجل مغربي مات بالبصرة ووقعت اوراقه اليه فادعاها فاستدعاه الوزير الى الديوان واقترح عليه انشاء رسالة فلم يفتح الله عليه فقام وهو خجل فقال فيه بعض عاذليه :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان كما رماه في وسط الديوان بالخرس

وكان يزعم انه من ربيعة الفرس وكان مولعاً بنتف لحيته عند الفكرة ويسكن في مشان البصرة ولما عاد الى بلده عمل عشر مقامات اخرى وسيرها الى الوزير واعتذر من عيه وحصره بالديوان بما لحقه من المهابة وللحريري تآليف حسان منها درة الغواص في اوهام الخواص وملحة الاعراب المنظومة في النحو وله ايضاً شرحها وله ديوان رسائل وشعره كثير غير الذي في المقامات ويحكى انه كان ذميماً قبيح المنظر فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ منه شيئاً فلما رآه استزرى

شكاه وفهم الحريري ذلك فلما ساله ان يملي عليه قال له اكتب :

ما انت اول سارٍ غره قمرٌ ورائد اعجبته خضرة الدمنِ
فاختر لنفسك غيري انني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل منه وانصرف عنه وقد ولد الحريري سنة ٤٤٦ ﻫ سنة ١٠٥٥م وتوفي سنة ٥١٥ ﻫ وقيل سنة ٥١٦ ﻫ سنة ١١٢٢ او سنة ١١٢٣ م وكان يسكن في سكة بني حرام فنسبة الحرامي الى هذه السكة والحريري نسبة الى الحرير وعمله او بيعه

وقد طبعت مقامات الحريري مرارًا واحسن طبعة هي التي اعتني بها العلامة دي ساسي الافرنسي في بريس سنة ١٨٢٢ مع شرح وافٍ ولما حصل في هذه الطبعة بعض الخطأ من مرتبي الحروف طبعت ثانية مصححة مع حواش تاريخية ولغوية في بريس سنة ١٨٤٩ بعناية العلامة وارنبورغ وطبعت ايضاً في كالكته سنة ١٨٠٩ وسنة ١٨١٢ وفي لابسيك سنة ١٨٥٦ وفي بولاق سنة ١٢٨٨ ﻫ مع شرح عليها وطبعت في بيروت مرارًا ولاحمد الشريشي (توفي سنة ٦٣٩ ﻫ سنة ١٢٢٣م) شرح لمقامات الحريري طبع في بولاق مرارًا واما كتاب الحريري درة الغواص فطبع في قسطنطينية ثم طبع في مصر على الحجر سنة ١٢٧٣ وكتابه ملحة الاعراب طبعت على الحجر مرارًا

﴿ الفتح بن خاقان ﴾

هو ابو نصر الفتح بن محمد بن خاقان الاشبيلي صاحب كتاب قلائد العقيان وله عدة تصانيف غيره وقد جمع من شعراء المغرب في قلائد العقيان طائفة كبيرة وتكلم على ترجمة كل منهم باحسن عبارة والطف اشارة ومن كتبه مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس وهو ثلث نسخ كبرى ووسطى وصغرى وهو كتاب كثير الفائدة لكنه قليل الوجود في هذه البلاد وكلامه في كتبه دال

على فضله وغزارة مهارته وكان كثير الاسفار سريع التنقل وتوفي قتيلاً في مدينة كراش سنة ٥٣٥ هـ سنة ١١٤١ م وروى سنة ٥٢٩ هـ سنة ١١٣٥ م وقيل كان خليع العذار في دنياه لكن كلامه في تأليفه كالسحر الحلال والماء الزلال انتهى ملخصاً عن ابن خلكان)

وقد طبع كتابه قلائد العقيان في بولاق سنة ١٢٨٤ هـ وطبعه الشيخ الكنت رشيد الدحداح في بريس سنة ١٨٦٠ م واما كتابه مطمح الانفس الذي قال ابن خلكان انه كان قليل الوجود في ايامه فقد طبع في قسطنطينية في مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ وعدد التراجم فيه خمس وخمسون ترجمة وهي غير المثبتة في قلائد العقيان

﴿ الزمخشري ﴾

هو ابو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري الامام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان وكان امام عصره وصنف التصانيف البديعة منها الكشاف في تفسير القرآن لم يصنف قبله مثله ومنها المحاجات بالمسائل النحوية والمفرد والمركب في العربية وكتاب الفائق في تفسير الحديث واساس البلاغة في اللغة وربيع الاسرار ونصوص الاخبار ومتشابه اسامي الرواة والنصائح الكبار والنصائح الصغار وضالة الناشد والرائض في علم الفرائض وكتاب المفصل في النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير والانموذج في النحو والمفرد والمولف في النحو وروس المسائل في الفقه وشرح ابيات كتاب سيبويه وحميم العربية والمستقصي في امثال العرب وسوائر الامثال وديوان التمثيل وشقائق النعمان في حقائق النعمان وشافي العي من كلام الشافعي والقسطاس في العروض ومعجم الحدود والمنهاج في الاصول ومقدمة الادب وديوان الرسائل وديوان الشعر والرسالة الناصحة والامالي في كل فن وغير ذلك وقد سافر الى مكة المشرفة وجاور بها زماناً فلقبوه جار الله وكان هذا علماً

عليه قال ابن خلكان الذي اخذنا هذه الترجمة عنه ان الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد متظاهراً به واول ما صنف كتاب الكشاف افتتحه بقوله :

الحمد لله الذي خلق القرآن فقيل له متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب احد فيه فغيره بقوله الحمد لله الذي جعل القرآن وجعل عندهم بمعنى خلق ورايت في كثير من النسخ الحمد لله الذي انزل القرآن وهذا اصلاح الناس لا اصلاح المصنف ومن شعره يرثي شيخه ابا مضر منصور

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها هذا الذي كان قد حشى ابو مضر اذني تساقط من عيني

ويقال انه اوصى ان يكتب على قبره هذان البيتان

الهي قد اصبحت ضيفك في الثرى وللضيف حق عند كل كريم
فهب لي ذنوبي في قراي فانها عظيم ولا يقوى بغير عظيم

وكانت ولادة الزمخشري سنة ٤٦٧ هـ سنة ١٠٧٥ م ووفاته سنة ٥٣٨ هـ سنة ١١٤٤ م وزمخشر المنسوب هو اليها قرية كبيرة من قرى خوارزم (عن ابن خلكان)

وقد ذكر العلامة المطران اسطفان عواد السمعاني في فهرست المكتبة المادبشية في عد ٤٣٩ من كتبها الشرقية كتاب المفصل للزمخشري في النحو وقال انه قسمه الى اربعة اقسام الاول في الاسماء والثاني في الافعال والثالث في الحروف والرابع في ما يكون منها مشتركاً

وجاء في كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ان للزمخشري معجم جغرافي يسمى كتاب الجبال والامكنة والمياه طبع في لايدن سنة ١٨٥٦ وان كتابه الكشاف طبع في كلكته سنة ١٨٥٦ م وفي بولاق سنة ١٢٨١ هـ وطبع بالقاهرة سنة ١٣٠٧هـ وعلى هامشه كتاب الانتصاف لناصر الدين المنير الاسكندري وشرح محب الدين

افندي الابيات الواردة في الكشاف وسمى شرحه تنزيل الزيات على شرح شواهد الابيات وطبع كتابه ببولاق سنة ١٢٨١ ﻫ وللزمخشري كتاب اطواق الذهب طبع في ڤيانا سنة ١٨٣٥ م مع ترجمة المانية ويشتمل على تسع وتسعين مقالة في المواعظ والنصائح ثم طبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٢٩٣ ﻫ مع شرح لالفاظه اللغوية وضعه الشيخ يوسف الاسير وطبع في بريس سنة ١٨٧٦ مع ترجمة افرنسية وله خمسون مقامة في المواعظ طبعت مع شرحها في مصر سنة ١٣١٣ ﻫ وقد طبع كتابه المفصل في الاسكندرية سنة ١٢٩١ ﻫ وطبع كتابه الانموذج في النحو في القسطنطينية سنة ١٢٩٨ ﻫ ثم في خرستيانيا سنة ١٨٥٩ م وكتابه اس البلاغة طبع في مصر بعد ضبط المتن على اربع نسخ طبعه يوسف شيت البشراني سنة ١٢٩٩ ﻫ وطبع كتابه المسمى مقدمة الادب في لابسيك سنة ١٨٥٠ وهو معجم عربي وفارسي وطبع كتابه ربيع الابرار ونصوص الاخبار في القاهرة سنة ١٢٩٢ ﻫ

﴿ الادريسي ﴾

هو ابو عبد الله محمد الشريف الادريسي من ولد ادريس العلويين الذين تولوا غربي افريقية الشمالية من سنة ١٧٥ الى سنة ٣١٤ اي من سنة ٧٩١ الى سنة ٩٢٦ م وقد ولد سنة ٤٩٤ ﻫ سنة ١١٠٠ م في مدينة سبتا وكان جده قد لجأ اليها بعد ان خلع من الملك واتى الادريسي هذا في صباه الى قرطبه بالاندلس وتخرج بالعلوم فيها ثم ساح في هذه البلاد وفي شمالي افريقية واسيا الصغرى واستدعاه روجر الثاني ملك صقلية الى ديوانه وكان قد جمع من كتب الجغرافيين القدماء ومن الرحالة المعاصرين مادة كبيرة فصنع كرة من فضة رسم عليها خطوط البلاد وشرح ذلك في مقالته الجغرافية التي قسمها الى سبعة اقاليم وسبعين بلادًا وتكلم فيها على حاصلات كل بلاد ومصنوعاته وحكومته وادابه سكانه وبقي من هذا الكتاب موجز طبع في العربية سنة ١٥٩٢ م برومة ثم ترجمه العلامة جبرائيل الصهيوني الماروني الى اللاتينية

وضع ترجمته في بريس سنة ١٦١٩ وسماه جغرافية النوبة ثم وجد امادي جوبر نسخة مخطوطة من هذا التاليف في مكتبة الامة بباريس سنة ١٨٢٩ فطبعها مع ترجمة افرنسية بباريس سنة ١٨٣٧ الى سنة ١٨٣٩ هذا ما اخذناه عن بعض كتب الفرنج اذ لم نرَ ابن خلكان ذكره وقد ذكر المطران اسطفان عواد السمعاني كتاب الادريسي في الجغرافية في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المادينشية وقال ان هذا الكتاب طبع برومة بالعربية سنة ١٦١٧ بعناية الامراء المادينشيين وعن هذه الطبعة ترجم جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني المارونيان هذه المقالة الى اللاتينية وطبعت بباريس وجاء في كتاب اكتفاء القنوع ان كتاب الادريسي في وصف افريقيا واسبانيا طبع بلايدن سنة ١٨٦٦ مع ترجمة افرنسية وان العلامة امادي الايطالي استخرج كل ما قاله الادريسي في وصف ايطاليا وطبعه على حدته برومة سنة ١٨٨٣ مع ترجمة ايطالية وشروح وللادريسي ايضاً وصف فلسطين وبر الشام طبع في بون سنة ١٨٨٥ وعندنا شرح للكرة الجغرافية التي صنعها الادريسي وضعه القس سمعان السمعاني وطبعه برومة

﴿ ابن رشد ﴾

هو ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد المالكي الفيلسوف الطبيب ولد سنة ٥٢٠ سنة ١١٢٧ بقرطبة في الاندلس حيث تولى جده وابوه القضاء وكان متمكناً وضليعاً في علوم التوحيد والفقه والفلسفة والطب والرياضيات ومعززًا عند ملوك مراكش والاندلس وتقلد مناصب عالية في اشبيلية وقرطبا ومراكش ودس عليه بعض حساده من العلماء عند ملك مراكش فسخط عليه ونفاه ثم رضي عنه سنة ١١٩٨ م ودعاه الى مراكش فتوفي تلك السنة وكان يشكي باختلال عقيدته وسمود المفسر لانه ترجم كتب ارسطو واوقن انه معصوم من الخطاء فزعم ان ما الفلسفة الا ترجمة كتب ارسطو لكنه فسرها بمعنى مؤذن لتشيعه لمذهب الحلول وقد فند القديس توما

الاكويني مذهبه هذا الذي نبذته ايضاً المدرسة الكلية بباريس سنة ١٤٢٠ وحرمه المجمع اللاتراني الذي عقد سنة ١٥١٢ وقد طبع كتاب تفسيره لفلسفة ارسطو مترجماً الى اللاتينية سنة ١٥٩٥ بالبندقية وله كتاب سماه الكليات في الطب طبع في المدينة المذكورة مع ترجمته للاتينية سنة ١٤٨٢ وكان الناس في اوربا زماناً طويلاً لا يعرفون كتب ارسطو الا بترجمتها الى اللاتينية عن كتب ابن رشد العربية وكانوا ينزلون اقواله منزلة اقوال ارسطو الى ان ترجمت كتب ارسطو عن اليونانية قال المطران اسطفان عواد السمعاني عند ذكره كتابه على فلسفة ارسطو الموجود مخطوطاً في المكتبة الماديشية ان هذا الكتاب نادر لان ابن رشد لم يكن له عند العرب شهرة ابن سينا وغيره من الفلاسفة ولان المسلمين المتحمسين كانوا يشتبهون بصحة عقيدته فكانت كتبه العربية نادرة حتى ان ما ترجم منها الى اللاتينية مترجم اكثره عن الترجمات العبرانية لا عن الاصل العربي

ولابن رشد ايضاً رسالة سماها تهافت التهافتين رد بها كتاب الغزالي الموسوم بتهافت الفلاسفة كما مر وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ كتاب اشتمل على رسالة الغزالي تهافت الفلاسفة وعلى رسالة ابن رشد تهافت التهافتين وعلى رسالة ثالثة لمصطفى بن خليل البرسوي الرومي توفي سنة ١٤٨٧ م الفها على سبيل المحاكمة بين تهافت الغزالي وتهافت ابن رشد . ولابن رشد ايضاً رسالة التوحيد والفلسفة رد بها مذهب الاشعريين طبعت في مونيخ قصبة بفيارا سنة ١٨٥٨ م مع ترجمة المانية وله شرح على ارجوزة ابن سينا في الطب لم يطبع ومقالة في الدرياق ومقالة في الحميات ومقالة في حركة الافلاك الى غير ذلك

﴿ عـد ٨٤٩ ﴾

ذيل في الخلفاء العلويين وملوك الروم في القرن الثاني عشر

قد اشتغلنا بذكر ملوك الافرنج في هذا القرن الثاني عشر عن ذكر الخلفا

العلويين في مصر وسورية فآثرنا تكملة لتاريخ هؤلاء الخلفاء ان نذيل تاريخ هذا القرن بذكر من كان فيه منهم الى حين انقراض دولتهم بملك صلاح الدين الايوبي وابتداء دولة الايوبيين فيه

فرغنا من كلامنا على هؤلاء الخلفاء في القرن الحادي عشر بذكر المستعلي بالله سنة ٤٩٥ هـ سنة ١١٠٢ م وقد بويع بالخلافة يوم وفاته ابنه ابو علي المنصور ولقب الآمر باحكام الله ولم يكن له من العمر حينئذٍ الا نحو خمس سنين وقام بتدبير دولته الافضل بن امير الجيوش احسن قيام وفي سنة ٤٩٨ هـ سنة ١١٠٥ م ارسل الافضل ابنه شرف المعالي فقهر الفرنج في الرملة ثم نازلوا ابنه الاخر سناء الملك في عسقلان وكانت الحرب سجالاً ثم قتل الآمر باحكام الله سنة ٥٢٤ هـ سنة ١١٣١ م وثب عليه الباطنية فقتلوه لان كان سيء السيرة في رعيته

ولما قتل الآمر لم يكن له ولد فبويع ابن عمه عبد المجيد الحافظ بن المستنصر وفي رواية اخرى ابن المستعلي ولقب بالحافظ لدين الله واستوزر ابا علي احمد بن الافضل ابن بدر الجمالي فاستبد وتغلب على الحافظ الى ان قتل هذا الوزير سنة ٥٢٦ هـ سنة ١١٣٣ م فاستقامت امور الحافظ وحكم في دولته لكنه كان عرضة لتحكم وزرائه به حتى انه استوزر ابنه حسناً وجعله وليّ عهده فحكم عليه.واستبد بالامر دونه وقتل كثيرين من امراء دولته وصادر كثيرين فلما راى الحافظ ذلك سقاه سماً فمات ثم توفي الحافظ سنة ٥٤٤ هـ سنة ١١٥٠ م

وبعد وفاة الحافظ ولي الخلافة بعده ابنه ابو منصور اسماعيل ولقب الظافر بامر الله واستوزر ابن مصال وبقي اربعين يوماً يدبر الامور فقصده العادل بن السلار من الاسكندرية ونازعه الوزارة وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة فخالفه العادل وصار وُزيرًا وارسل عسكرًا فقتل ابن مصال واستقر العادل ابن السلار حتى لم يبق معه حكم للظافر لكنه قتل سنة ٥٤٨ هـ سنة ١١٥٤ م فاخذ

الوزارة عباس بن باديس الصفاجي وكان ربيب ابن السلار واخذ الفرنج هذه السنة عسقلان من الظافر وفي سنة ٥٤٩ هـ سنة ١١٥٥ م قتله وزيره عباس المذكور

وبعد مقتل الظافر ولوا الخلافة ابنه ابا القاسم عيسى ولقب الفائز بنصر الله وله من العمر خمس سنين فحمله عباس الوزير المذكور على كتفه واجلسه على سرير الملك وبايعه الناس واخذ عباس من القصر من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة ما اراد ولم يترك الا ما لا خير فيه وتوفي الفائز سنة ٥٥٥ هـ سنة ١١٦١ م وعمره نحو احدى عشرة سنة فقد اختاره عباس الوزير صغيرًا كيلا يكون له شيء من الحكم

وبعد وفاة الفائز بنصر الله دخل القصر الصالح بن درزيك من اكابر الامراء وكان ارمنياً واختار ابا محمد عبدالله بن يوسف بن الحافظ وكان مراهقاً قارب البلوغ فبايعه الصالح بالخلافة ولقب العاضد لدين الله وزوجه الصالح ابنته فكان ذلك سبب عداوة في القصر لصالح وهو استطال على الناس وارسلت عمة العاضد الاموال الى امراء المصريين فجرحوه ومات من جراحه واوصى ان تكون الوزارة لابنه العادل ولكن وثب شاور عامل الصعيد على العادل الوزير فقتله وصار وزيرًا للعاضد سنة ٥٥٨ هـ سنة ١١٦٤ م ثم جمع الضرغام جموعاً فهزم شاور الى الشام واستقر في الوزارة وقتل كثيرين من الامراء وفي سنة ٥٦٥ هـ سنة ١١٧٠ م حصر الفرنج دمياط وارسل نور الدين بن زنكي اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الى مصر كما ذكرنا قبلاً وصار شيركوه وزيرًا للعاضد ثم توفي وخلفه ابن اخيه يوسف صلاح الدين واقام الخطبة العباسية بمصر ومات العاضد وانقرضت به دولة العلويين سنة ٥٦٧ هـ سنة ١١٧٢ م وخلفتها دولة الايوبيين اولاً في مصر ثم في سورية. وكان ابتداء دولة العلويين في المغرب سنة ٢٩٧ هـ سنة ٩١٠م وانقرضت سنة ٥٦٧ هـ سنة ١١٧٢م فكانت مدة ملكهم ميتين وسبعين سنة قمرية وميتين واثنتين وستين سنة شمسية وعددهم اربعة عشر ملكاً منهم ثلاثة بالمغرب واحد عشر بمصر والشام

واما الخلفاء العباسيون فقد ذكرنا منهم من تولوا سورية الى اخر القرن العاشر ثم ذكرنا من ولي الخلافة منهم في القرن الحادي عشر عدد ٨٠٢ وسوف نذكر من بقي منهم الى اخرهم في محل اخر ان شاء الله تعالى

وبقي علينا ان نذكر ملوك الروم في هذا القرن الثاني عشر لتعلق بعض اخبار هذا التاريخ باخبارهم وقد ذكرنا في عدد ٨٠١ جميع من ملكوا في قسطنطينية من هرقل الملك الذي اخذ الخلفاء سورية منه الى الكسيس كومنانس الذي كان في اواخر القرن الحادي عشر واوائل هذا القرن الثاني عشر فنذكر الان منهم من كانوا في هذا القرن

ان الكسيس كومنانس ادركته الوفاة سنة ١١١٨ فخلفه ابنه يوحنا الثاني وحارب السربيين سنة ١١٢٥ وانتصر عليهم وكان قد حارب اسطفانس الثاني ملك المجر سنة ١١٢٤ وحارب الاتراك سنة ١١١٩ واخذ منهم اللاذقية وقسطموني باسيا الصغرى واتفق مع ريموند دي اوتريش سنة ١١٣٨ وحارب الاتابك بسورية واحسن سيرته في مملكته حتى لقبوه مرقس اورليوس البيزنطي. وتوفي سنة ١١٤٣م

وخلفه في السنة المذكورة ابنه عمانوئيل الاول كومنانس مفضلاً على اخيه الاكبر اسحق كومنانس وفي سنة ١١٤٧ غدر بالصليبين الذين كانوا بامرة كنراد ملك المانيا ولويس السادس ملك افرنسة وعاون باتفاقه مع المسلمين على انخذالهم وقهر عساكرهم فعاقبه على غدره روجر ملك صقلية وحليف الصليبيين فدخل في عساكره بلاد اليونان ونهب ثاب وقرنتية وكان عمنوئيل في حرب متصلة مع المجريين والسربيين الذين ثاروا عليه وبدد عز الدين سلطان قونية عساكره في اسيا الصغرى سنة ١١٧٦ وتوفي عمنوئيل سنة ١١٨٠ وقام بعده ابنه الكسيس الثاني وكان عمره اثنتي عشرة سنة وكانت امه تدبر الملك على ان سوء سيرتها كان سبباً للثورة عليه وعليها فاقيم اندرونيكس كومنانس مدبرًا للملك فتوّج الكسيس وشاركه في الملك وما عتم

ان قتله سنة ١١٨٣ وملك مكانه وساء السيرة فثل عرشه اسحق الملقب انج (اي الملاك) سنة ١١٨٥ ووثب الشعب على اندرونيكس فشنقه وانقضت به سلالة كومنانس واقام الشعب مكانه اسحق الثاني انج المذكور فحارب البلغاريين وفاز ببعض النصر عليهم ولكن مقته الشعب لعكوفه على ملاذه وقسوته فثل عرشه اخوه الكسيس الثالث سنة ١١٩٥ وسمل عينيه ولكن نهض عليه الكسيس الرابع ابن اخيه وخلعه من الملك واستنجد بالصليبيين فاتوا لنجدته وملكوا قسطنطينية سنة ١٣٠٣ واقروه ولكن قتله بعد ستة اشهر دوكاس مرسوفل (الغليظ الحاجب) واخذ الملك سنة ١٢٠٤ وسمي الكسيس الخامس فثل الصليبيون عرشه وملكوا قسطنطينية واقاموا فيها المملكة اللاتينية كما سيجي

القسم الثاني

في تاريخ سورية الديني في القرن الثاني عشر

الفصل الاول

في بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة في هذا القرن

عدد ٨٠٥

في بطاركة انطاكية في القرن الثاني عشر

فرغنا من كلامنا في بطاركة انطاكية في القرن الحادي عشر بذكر يوحنا الرابع ولا نعلم علماً اكيداً من خلفه فقد روى لكويان في كلامه على هؤلاء البطاركة

في كتابه المشرق المسيحي انه يظهر من جدول لبطاركة انطاكيــة قدمه من مدة اثناسيوس الرابع بطريرك انطاكية ووضع في المكتبة الواتيكانية ان توادوسيوس او توافيلس (يسميه بالاسمين) خلف يوحنا الرابع المذكور لكنه قال ان الفرنج اخذوا في ايامه انطاكية وهذا غير صحيح ويبين بطلانه ما ذكرناه في ترجمة يوحنا الرابع المذكور وعليه فلا يمكن الاعتماد على ما جاء في الجدول المذكور عن توادوسيوس او توافيلس

وجاء في هذا الجدول ايضاً ان يوحنا الخامس خلف توادوسيوس المذكور في بطريركية انطاكية واستشهد مؤلف الجدول بنيكون ارشمندريط دير القديس سمعان العمودي وقال بعد ذلك ان يوحنا الخامس خلفه توادورس بلسامون فقال لكويان هنا خطأ غير مغتفر ولنا على اثبات عدم صحته بينات راهنة وادلة دامغة وسنورد اسماء بطاركة كثيرين كانوا قبل توادورس بلساmون الذي قال صاحب الجدول انه خلف يوحنا الخامس وقد اقام اللاتينيون على انطاكية بعد ملكهم اياها بطاركة تتالوا خلفاً عن سلف ولكن استمر الروم ينصبون بطاركة من اصحاب طقسهم فيقومون بقسطنطينية حتى سعى بودوين الثالث ملك اورشليم (الذي كان متزوجاً بتوادورا بنت اخي الملك عمنوئيل كومنانس) لدى هذا الملك بان لا يرسل الى انطاكية بطريركاً من قسطنطينية ومع ذلك انتخب رجل اسمه سوتريكس وقبل ارتقائه الى بطريركية انطاكية ابدع ضلالاً انكر به انه يجوز تقدمة ذبيحة الصليب او ذبيحة القربان لله الكلمة بل يلزم تقدمة الذبيحتين للآب والروح القدس فعقد مجمع سنة ١١٥٥ حرم به سوتريكس واقصي عن البطريركية

ولا نعلم خلفاً لسوتريكس المذكور الا اثناسيوس الذي كان مقيماً في قسطنطينية ايضاً اذ قد روى الايتوس في الكتاب الثاني من مؤلفه في اتفاق الكنائس فصل ٤٢ انه عقد مجمع في قسطنطينية سنة ١١٦٦ جلس فيه اثناسيوس بطريرك

انطاكية بعد لوقا البطريرك القسطنطيني

وروى بعضهم انه كان في جملة البطاركة الذين باركوا زواج الملك عمنوئيل كومنانس بمريم ابنة ريمون امير انطاكية وهم لوقا بطريرك قسطنطينية وصفرونيوس بطريرك اسكندرية واتاسيوس بطريرك انطاكية المذكور

وقام بعد اثناسيوس في الكرسي الانطاكي سمعان الثاني فقد اثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١١٧٨ رسالة من جيورجيوس متربوليط كورشيرا الى سمعان هذا عنوانها . الى بطريرك مدينة الله انطاكية السيد سمعان الكلي القداسة من جيورجيوس متربوليط كورشيرا ، وكان سمعان يشكو الى المتربوليط المذكور سوء حاله وما يقاسيه من المحن فاجابه بالرسالة المذكورة معزياً اياه ومثنياً عليه وكان جيورجيوس حينئذٍ في برنديسي بايطاليا مرسلاً الى رومة من الملك عمنوئيل كومنانس تلبية لدعوة البابا اسكندر الثالث لعقد مجمع في رومة وهو المجمع اللاتراني الثالث الذي عقد سنة ١١٧٩ وقد دعا اليه الاساقفة الكاثوليكيين وغير الكاثوليكيين ولما وصل جيورجيوس الى برنديسي مريضاً وكان الشتاء شديداً استمر في هذه المدينة ستة اشهر وعاد منها الى المشرق دون ان يصل الى رومة لكنه ارسل اليها نيابة عنه نكتاريوس الرئيس الذي كان يصحبه فما حك في المجمع وكابر واستمر مصراً على رأيه وعاد متفاخراً مدعياً الظفر وهنأه جيورجيوس المذكور وغيره من المشايعين لهما وكل هذا بين من رسائل جيورجيوس المذكور التي اثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ١١٧٨ وسنة ١١٧٩ ويظهر من ذلك ان سمعان البطريرك الانطاكي المذكور لم يكن كاثوليكياً لالتحامه مع جيورجيوس ونكتاريوس المذكورين . وفي سنة ١١٨٧ دعا الملك اسحق انج بطاركة القسطنطينية وانطاكية واورشليم الذين كانوا في مدينته مع غيرهم من الاساقفة وسنوا شريعة ان لا ينتخب الاساقفة في قسطنطينية كالعادة بل لا بد من استدعاء غيرهم من اساقفة الاقاليم وذلك بين

في كتاب الناموس اليوناني الروماني صفحة ٤٦٩ غير انه لا ذكر هنالك لاسماء هولاء البطاركة

وصير بعد اثناسيوس تواضورس الرابع بلسامون بطريركاً على كرسي انطاكية وكان حايزاً مناصب رفيعة في كنيسة القسطنطينية قبل ارتقائه الى الكرسي الانطاكي وقد انتخب لهذا الكرسي في القسطنطينية واستمر فيها ويظهر انه صير بطريركاً سنة ١١٨٦ وروى بارونيوس في تاريخ سنة ١١٩١ انه في هذا السنة قدم بلسامون البطريرك الانطاكي كتابه في القوانين البيعية لجيورجيوس كسيفيلينس البطريرك القسطيطيني وكتب اليه ما ياتي « الى البطريرك جيورجيوس كسيفيلينس الكلي القداسة نظم تواضورس بطريرك انطاكية » ويلي ذلك ابيات شعر قال في اخرها « هذا ما دونته اليك انا تواضورس بلسامون بطريرك انطاكية الشريفة وسائر المشرق » قال بارونيوس بعد ذلك لم يكن بلسامون بطريركاً على انطاكية الا بالاسم ولم يتمكن ان يقيم بها بل كان بطريركها اللاتيني مستحوذاً على كرسيها ولا يدع بطريرك الروم ان يدنو منه بل كان يسمح باقامة اساقفة للروم في غيرها من المدن للاهتمام بالروم الساكنين فيها وقد شهد بلسامون نفسه بذلك في كتابه المار عند شرحه حالة الكنيسة الشرقية مفنداً القانون السادس عشر من المجمع الانطاكي حيث قال « ان اللاتينيين لا يدعون الروم يضعون رجلهم في انطاكية او اورشليم او طرسوس فاورشليم استحوذ عليها المسلمون وكرسي انطاكية غصبه بطريرك اللاتين وكرسي طرسوس غصبه الارمن واما باقي الكنائس المتعلقة باورشليم وانطاكية وبعض الكنائس الشرقية المختصة بالقسطنطينية فلا تخلو من اساقفتها لان السلطان واللاتينيين والمسلمين يبيحون اساقفة هذه الكنائس ان يدبروا كنائسهم ويهتموا بالمسيحيين المقيمين هنالك »

ثم استطرد بارونيوس الى انتقاد كتاب بلسامون وتبيين ما حواه من المطاعن

بالكنيسة الرومانية ومن الاغلاط التاريخية وتحريفه بعض قوانين المجامع ومراسيم الملوك ثم روى في تاريخ سنة ١١٩٣ ان الملك اسحق انج عزل نيقيطا البطريرك القسطنطيني عن كرسيه وكان بلسامون هائماً ان ينتقل من بطريركية انطاكية الى بطريركية قسطنطينية وكان بعضهم يزعمون ان نقل البطاركة من كرسي الى اخر محظور بقوانين البيعة فأثبت بلسامون للملك وابعض الاساقفة ان هذا النقل غير محظور وان بعض الملوك اثبتوه بمراسيمهم ثم عقد الاساقفة المجتمعون هناك مجمعاً واقروا هذا الامر على ان بلسامون لم ينتفع بما اثبته لان الملك اسحق فضل عليه دوزيتاس البطريرك الاورشليمي فنقله الى كرسي قسطنطينية وقد اثبت ذلك نيقيطا كونياتس في ترجمة الملك اسحق المذكور وقد استمر بلسامون بطريركاً على انطاكية من سنة ١١٨٦ الى سنة ١٢١٤ وعن بعضهم انه توفي سنة ١٢٠٣ انتهى

عدد ١:٨

في بطاركة اورشليم في القرن الثاني عشر

اخر من ذكرنا من بطاركة اورشليم في القرن الحادي عشر هو سمعان الثاني الذي توفي سنة ١٠٩٩ وجاء في الجدول الذي وضعه دوزيتاوس لبطاركة اورشليم ان اوتيميوس خلف سمعان المذكور ولكن قد ابنا ان هذا غير صحيح وان المعتمد عليه ان اوتيميوس كان قبل سمعان وان الذي خلف سمعان انما هو اغابيوس وفي تاريخ بطاركة اورشليم في هذا القرن تشوش وغموض لا سبيل الى ازالتهما فقد جاء في كتاب الناموس الرومي اللاتيني (فصل ٤) ذكر لاغابيوس انه انتقل من كرسي سلوقية الى كرسي اورشليم ولكن قيل ان هذا النقل كان في ايام الملك باسيليوس اعني نحو سنة ٩٨٤ وروى نيكوفور كاليستس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٣٩) ان اغابيوس نقل الى كرسي انطاكية فلا يعلم متى كان اغابيوس هذا وهل كان في انطاكية اورشليم

وجاء في جدول دوزيتاوس المذكور ايضاً ان سابا خلف اغابيوس في ايام الكسيس كومنانس اي في اواخر القرن الحادي عشر واوائل الثاني عشر وانه نقل من كرسي قيصرية فيلبس الى بطريركية اورشليم وانه سار الى قسطنطينية وخدم الاسرار الالهية مع نيقولاوس بطريركها وجاء في كتاب الناموس المذكور ما يشعر بذلك ولكن روى نيكوفور كاليستس (ك ١٤ فصل ٣٩) ان الذي سار الى قسطنطينية في ايام نيقولاوس بطريركها انما كان اسقفاً على صور ولم يذكر اسمه ونيقولاوس هذا البطريرك القسطنطيني هو المسمي الغراماطيقي وقد صير بطريركاً سنة ١٠٨٤ فان صح ان بطريركاً اورشليمياً سار الى قسطنطينية واجتمع بنيقولاوس بطريركاً كان سمعان الذي ذكرناه في تاريخ القرن الحادي عشر ولا ذكر في الجداول اللاتينية لسابا في عداد بطاركة اورشليم بعد ولاية الفرنج عليها بال الكويان لم نذكر سابا هذا الا لانه ربما كان بطريركاً على اورشليم قبل سمعان او بعده ولكن لا وسيلة لنا للقطع بذلك

وجاء في جدول دوزيتاوس ايضاً ان اوخاريوس خلف سابا ولعله من سماه لاون الاتيوس (في ك ٢ في توفيق الكنائس فصل ١٨) مكاريوس وقال انه كتب مقالة يخالف بها اللاتينيين على ان دوزيتاس قال ان اوخاريوس كان بطريركاً على اورشليم يوم فتح بودوين ملك اورشليم عسقلان وهذا الفتح كان سنة ١١٤٦ م قال لكويان ربما تصحف على دوزيتاوس اسم فلكاروس بطريرك اللاتين على اورشليم حينئذٍ باسم اوخاريوس فقد اثبت كثيرون ان فلكاروس بطريرك اورشليم اللاتيني شهد حصار عسقلان ثم ذكر دوزيتاوس بعد اوخاريوس يعقوب ونعته بالثاني ولا نرى في غير جدوله اثراً ليعقوب هذا

وذكر دوزيتاوس بعد يعقوب ارسانيوس ونعته بالاول وقد غفل عن ارسانيوس الاخر الذي ذكرناه قبلاً ثم قال في كتابه السابع فصل ٢٢ ما يؤخذ

منه ان ارسانيوس هذا كان في سنة ١١٤٦ وهذا يؤيد ما قلناه آنفاً من ان دوزيتاوس لم يميز بين فلكارس البطريرك اللاتيني الذي كان سنة ١١٤٦ وبين اوخاريوس بطريرك الروم والا لكان للروم بطريركان لابرشية في وقت واحد وهما اوخاريوس وارسانيوس

وذكر دوزيتاوس بعد ارسانيوس يوحنا السابع وقال انه كان في ايام الملك عمنوئيل كومنانس وعزا اليه (في ك ٧ فصل ٢٢) مقالات في الفطير وانبثاق الروح القدس رداً على اللاتين وانه شهد المجمع الذي عقد في قسطنطينية سنة ١١٥٦ بشان ذبيحة القداس مع قسطنطين بطريركها في ايام الملك عمنوئيل كومنانس لكن المعلوم ان هذا المجمع عقده حينئذٍ لوقا كريسبورج خليفة قسطنطين المذكور ووقع عليه نيقولاوس بطريرك اورشليم ودوزيتاوس يسميه يوحنا السابع وقد اقترح بودوين ملك اورشليم حينئذٍ على عمنوئيل كومنانس ملك الروم ان لا يرقي بطريرك انطاكية الى كرسيها دون استشارة اساقفة بطريركيتها وظن ان ذلك شمل بطريركية اورشليم ايضاً وقد راينا توقيع نيقولاوس بطريرك اورشليم مع توقيع لوقا بطريرك قسطنطينية على حط سوتريكس البطريرك الانطاكي المار ذكره عن كرسيه لما بثه من الضلال والحاصل ان البطريرك الاورشليمي حينئذٍ كان نيقولاوس لا يوحنا السابع الذي لم يذكره احد الا دوزيتاوس

وذكر دوزيتاس بعد يوحنا السابع نيكوفر الثاني وقد شهد المجمع الذي عقد في القسطنطينية سنة ١١٦٦ كما روى الاتيوس (ك ٢ في توفيق الكنائس فصل ١٢) وقال ان عنده من اعمال هذا المجمع نسخة مخطوطة وقد بحث في هذا المجمع عما اذا كان اعتقاد بعض الالمانيين ان السيح مساوٍ للآب من حيث اللاهوت ولا ينقص عنه بسبب الناسوت يطابق الايمان القويم وحكم بصحة معتقدهم ثم ان ...درس للماون ذكر نيكوفور هذا في تفسير القانون السابع والثلاثين فلا مرية

بطريركيته ولكن لا يمكن القطع بسنة ترقيه او سنة وفاته

وصير بعد نيكوفور المذكور اثناسيوس الثاني ولما فتح السلطان صلاح الدين الايوبي اورشليم وطرد الفرنج منها رحل هرقل البطريرك اللاتيني عنها الى عكا فسار اثناسيوس هذا الى اورشليم واثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٨ رسالة كتبها جيورجيوس متريبوليط كورشيرا المذكور آنفاً الى اثناسيوس هذا بطريرك اورشليم عنوانها «جيورجيوس متريبوليط كورشيرا الى السيد اثناسيوس بطريرك اورشليم الكلي القداسة» والرسالة ودادية يذكره بها بمحبته له واشتياقه الى رؤيته ويعتذر له عن اتمام ذلك بامراضه واثبت بارونيوس ايضاً جواب اثناسيوس الى جيورجيوس المذكور وبه يرثي حالة اورشليم في ذلك الوقت فنقد باجيوس كلام بارونيوس هذا قائلاً ان الروم لم يقيموا اثناسيوس بطريركاً على اورشليم قبل سنة ١١٩٣ كما يتبين مما سنقوله في تاريخ السنة المذكورة وعليه فيلزم ان تكون رسالة جيورجيوس المذكورة الى اثناسيوس وجواب اثناسيوس له قد كتبا في سنة ١١٩٣ لا سنة ١١٨٨ كما ذكرهما بارونيوس ثم ذكر بارونيوس في تاريخ سنة ١١٩٣ ان انجي اسحق ملك الروم عزل تلك السنة نيقيطا موندانس عن بطريركية قسطنطينية ونقل دوزيثاوس بطريرك اورشليم الى كرسي قسطنطينية فقال باجيوس لم يكن عزل نيقيطا موندانس في هذه السنة بل في السنة السابقة وخلف لاونتيوس الراهب نيقيطا المذكور ثم اعتزل في سنة ١١٩٣ فخلفه دوزيثاوس متنقلاً من كرسي اورشليم الى كرسي قسطنطينية وهذا يخالف ما قاله باجيوس في تاريخ سنة ١١٨٨ من ان الروم لم يقيموا اثناسيوس قبل سنة ١١٩٣ لان اثناسيوس هذا كان قد توفي سنة ١١٨٨ وخلفه لاونتيوس وخلف دوزيثاوس لاونتيوس المذكور ثم نقل سنة ١١٩٣ الى كرسي قسطنطينية كما قال باجيوس نفسه فبقي قول بارونيوس ثابتاً سالماً من النقد وذكر السمعاني في المجلد الاول من المكتبة الشرقية صفحة ٦٣٠ ان الكتاب السابع والسبعين من الكتب

التي اخذها من المشرق الى المكتبة الواتيكانية يشتمل على خمس وستين خطبة لاثناسيوس البطريرك الاورشليمي وان الكتاب التسعين من تلك الكتب انطوى على ست وستين خطبة قال لكويان لا يمكن القطع بان هذه الخطب لاثناسيوس حقيقةً

وروى بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٨ ان اثناسيوس توفي في هذه السنة وخلفه لاونتيوس في بطريركية اورشليم وقد وصفه نيقيطا كونياتس (ك ٢ من تاريخه عد ٤) انه كان رجلاً عالماً فاضلاً وتوفي سنة ١١٩٢ ولا علم لنا بغير ذلك من امره

وقام بعد لاونتيوس دوزيتاوس وكان من البندقية مولدًا واتى الى قسطنطينية لطلب العلم وانبأ اسحق انج انه سوف يكون ملكاً فلما استوى على منصة الملك صرف عنايته الى اقامة دوزيتاوس بطريركاً على اورشليم بعد وفاة لاونتيوس وقد عزل هذا الملك لاونتيوس الاخر عن بطريركية قسطنطينية سنة ١١٩٣ واقام دوزيتاوس بطريرك اورشليم في مكانه بعد ان اتى له تاودورس بلسامون ان القوانين البيعية تجيز نقل البطاركة من كرسي الى اخر طمعاً بان ينقله الملك من كرسي انطاكية الى كرسي قسطنطينية فاثر الملك دوزيتاوس بطريرك اورشليم عليه وكان الشعب يمقت دوزيتاوس ويسخر منه كما روى بارونيوس نقلاً عن نيقيطا كونياتس في تاريخ سنة ١١٩٣ حتى اضطر ان يترك بطريركية قسطنطينية ويعود الى اورشليم وجاء ذكر دوزيتاوس هذا في الجدول الذي نظمه دوزيتاوس الاخر البطريرك الاورشليمي في القرن السابع عشر لبطاركة اورشليم الى ايامه

وبعد ان نقل دوزيتاوس الى كرسي قسطنطينية اقيم مكانه مرقس على كرسي اورشليم ويلقب فلورس وقال فيه نيكوفور كاليستس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٣٩) انه طرد من كرسيه ظلماً لان دوزيتاوس ترك كرسي قسطنطينية وعاد الى اورشليم

ولا يعلم ما كان لمرقس بعد ذلك ولا متى توفي دوزيناوس والمعلوم ان توافان الاول كان بطريركاً على اورشليم في اخر القرن الثاني عشر او بدء القرن الثالث عشر وهذا يظهر من رسالة انفذها اليه مرقس البطريرك الاسكندري الذي كان معاصرًا لتاودورس بلسامون ولم يذكر دوزيتاوس الثاني في جدول بطاركة اورشليم توافان هذا بل روى ان غريغوريوس الآتي ذكره خلف دوزيناوس الاول ثم صير لاونتيوس بطريركاً على اورشليم خلافاً لما مر . (انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي وعن تاريخ بارونيوس في السنين المذكورة)

عد ٨٥٢

في بطاركة انطاكية واورشليم اللاتينيين في هذا القرن الثاني عشر

راينا ان ذكر البطاركة اللاتينيين على انطاكية واورشليم في هذه القرن لايخلو من الفائدة ولذلك اردنا ذكرهم هنا بما امكن من الايجاز نقلاً عن لكويان في المشرق المسيحي

بطاركة انطاكية اللاتينيين في القرن الثاني عشر

كان لبطريرك انطاكية عند اللاتين من الكراسي الاسقفية اللاذقية وجبلة وطرطوس واطرابلس وجبيل واول بطريرك اقيم فيها منهم برنردس سنة ١٠٩٩ وكان افرنسياً من فالنس وقد طلب الملك بودوين الاول من البابا بسكاليس الثاني ان يخضع لبطريركية اورشليم جميع المدن التي يفتحها فاجابه البابا الى ذلك فشكا برنردس بطريرك انطاكية من ان هذا مجحف بحقوق كرسيه الانطاكي فامر البابا سنة ١١١٣ ان تبقى الولاية لكلا الكرسيين على ما كانت عليه قبل استيلاء الفرنج على مدن سورية وتوفي برنردس سنة ١١٣٥ على ما روى غوليلمس اسقف صور في تاريخه وروى غيره ان وفاته كانت سنة ١١٣٢ وخلفه رودلفس ويسمى الاول انتخبه الشعب وطاعه بعض الاكايرس وعصاه بعضهم واتشح بالباليوم درع الرئاسة

قبل ان يثبه الحبر الروماني مدعياً انه خليفة بطرس في انطاكية كخلافة البابا له برومة فطرده امير انطاكية منها فسار الى رومة فشفع به اصدقاوه الى الحبر الروماني البابا اينوشنسيوس الثاني فقبله وامر ان يخلع الباليوم الذي اخذه من نفسه ويعطى باليوم اخر وان يعود الى انطاكية لتسمع دعواه فيها ونصب البابا قاصداً لذلك فات القاصد بعكا فنصب اخر وعقد مجمعاً بانطاكية سنة ١١٣٦ ودعي رودلفس اليه فلم يحضر فحط عن مقامه وحبس في دير فقر منه الى رومة مستغفراً ثم ادركته المنية قيل مسمماً سنة ١١٤٢ روي كل ذلك غوليلمس الصوري

وخلف ايماريكس ويسمى اموري رودلفس المذكور واستمر في البطريركية زماناً طويلاً قال لكويان زعم غوليلمس الصوري ان الموارنة ارعوا عن بدعة المشيئة الواحدة في ايام هذا البطريرك سنة ١١٨٢ والصحيح ان هذا الارعواء لا يصدق على الموارنة باجمعهم بل على فريق منهم كان قد اغتر بكتاب توما الحاراني اسقف كفرطاب كما ذكرنا في مقدمة كلامنا على الموارنة واستمر ايميريكس حياً الى سنة ١١٨٧ كما يظهر من رسالة كتبها الى اريكس الثاني ملك انكلترا وتوفي في اخر السنة المذكورة او سنة ١١٨٨ وخلفه رودلفس الثاني على ما روى العلامة السمعاني في الجداول التي وضعها لبطاركة انطاكية وتوفي رودلفس هذا سنة ١٢٠٠

اما بطركية اورشليم اللاتينية فكانت تلي اربع متربوليطيات اولها صور ويخضع لمطرانها اساقفة عكا وصيدا وبيروت وبانياس . والثانية قيصرية ويخضع لمطرانها اسقف سبسطية وهي السامرة ولم يكن لحيفا اسقف بل كانت خاضعة لمطران قيصرية . والثالثة الناصرة ويخضع لمطرانها اسقف طبرية وكانت المطرنية لبيسان فنقلت الى الناصرة تبركاً . والرابعة بصرى ويخضع لمطرانها اسقف روم في جبل سينا وكان اساقفة بيت لحم وحبرون (الخليل) ولد يخضعون لبطريرك اورشليم

راساً

واول بطريرك لاتيني على اورشليم وايبر وكان سفير البابا مع الصليبيين فانتخبوه بطريركاً سنة ١٠٩٩ وقاومه ارنولفوس مدبر اعمال البطريركية وسار وايبر الى رومة فرده الحبر الروماني معززاً الى كرسيه ثم توفي سنة ١١٠٧ هذا ما رواه لكويان وهو اولى بالتصديق مما ذكره بعضهم من ان وايبر اعتزل البطريركية سنة ١١٠٣ او سنة ١١٠٤ واقيم بعده ابرامار رئيس اساقفة قيصرية الى سنة ١١٠٧

وخلف جيبالينس وايبر على الاصح سنة ١١٠٧ فتغلب على البطريركية ابرامار المذكور فعزله الكرسي الرسولي واثبت جيبالينس الذي توفي سنة ١١١١ فخلفه ارنولفس الذي كان يدبر مهام البطريركية وقد قاوم وايبر كما مر ثم توفي ارنولفس سنة ١١١٨ وخلفه كورماندس وبقي في البطريركية عشر سنين وتوفي سنة ١١٤٥ وخلفه فولكاريوس اوفواشر رئيس اساقفة صور وتوفي سنة ١١٥٧ وخلفه الماريكس وتوفي سنة ١١٨٠ وخلفه هرقل وكان رئيس اساقفة قيصرية فاعترض غوليلمس اسقف صور على انتخابه فحرمه البطريرك فلجأ الى رومة ومات غوليلمس فيها وفي ايام هرقل اخذ صلاح الدين الايوبي اورشليم من الفرنج وتوفي هرقل سنة ١١٩١ ويقال ان البابا شالستينس الثالث انتخب للبطريركية كيراس رئيس الكرمليين فلم يقبل وانتخب ميخائيل شماس كنيسة بريس فانتخب الى اسقفية اخرى ونصب بها فبقي كرسي اورشليم فارغاً الى سنة ١١٩٤ حين انتخب مونوماكس وسماه بعضهم اموري او الماريك وكان اسقفاً على قيصرية وتوفي سنة ١٢٠٣ وقيل سنة ١٢٠٢ انتهى

عد ٨٥٣

في اساقفة سورية في القرن الثاني عشر

توما اسقف كفرطاب

كان اسقفاً على كفرطاب كورة حلب يعقوبي المذهب اختلف مع رؤساء

ملنه فشايع اصحاب بدعة المشيئة الواحدة وكتب كتاباً سماه المقالات العشر وافتتحه بقوله « نخبركم يا اخوة لما كانت سنة ١٤٠٠ من تاريخ اسكندر بن فيلبس المكدوني (سنة ١٠٨٩ م) جرت مكاتبات ومراسلات بين بطرك الروم في مدينة انطاكية وهو الانبا يوحنا وبين توما مطران كورة حلب الماروني لانه جرى بينهما تصحيح المذهب المسيحي باعتقاد الايمان المقدس وكان الامر في اعتقاد الملكيين بالمشيئتين لذي الطبيعتين وفي تصحيح مذهب الموارنة بتأنس ربنا من لاهوت وناسوت طبيعتين متحدتين بمشيئة واحدة فلما كثر التصحيح بينهما جعلت كتب الانبا يوحنا تتوارد الى الانبا توما وكتب توما الى الانبا يوحنا فعند ذلك كتب الانبا يوحنا بطريرك انطاكية رسالة طويلة الشرح كثيرة المعنى وارسلها مع قاصد الى الانبا توما مطران الموارنة الى كفرطاب بلد كورة حلب وهو يحتج عليه فيها ويقول ان كل من لا يعتقد ان لربنا يسوع المسيح مشيئتين فهو ضال في مذهبه ولما وصلت الرسالة الى الانبا توما تاملها فوجد فيها تعاليم كثيرة مخالفة قوانين المجامع وكنيسة الله الجامعة الرسولية فحزن انبا توما حزناً شديداً ... وجعل ينقض رسالة انبا يوحنا كلمة كلمة في تبطيل المشيئتين واثبات المشيئة الواحدة » الى ان يقول لما وصلت هذه الرسالة الى انبا يوحنا عجز عن جوابها والقاها في الناركيلا ينتشر خبرها وعاد توما وكتبها ثانية احسن مما كانت اولاً كل هذا من كلام الكفرطابي الذي اثبتنا مرات انه لم يكن مارونياً وان لم يكن موارنة حينئذٍ في كفرطاب بل سمى نفسه مارونياً ليخدع الموارنة ثم اخبر توما عن نفسه انه سار بعد ذلك الى جبل لبنان وكان يظن انه لا يقيم به الا نصف سنة فحدث ان الافرنج حاصروا طرابلس حينئذٍ فلم يمكنه العود فسار الى جبة يانوح فاقام اربع سنين وعاد الى جبة بشري واقام بها سنتين وانه اتاه ذات يوم خوري ماهر قديس من اهل قرية فرشع وساله ان يجدد له تلك الرسالة التي كتبها الى يوحنا بطريرك انطاكية فجددها له وكتابه المقالات العشر يشتمل على

تلك الرسالة ويظهر من كتابه المذكور انه كتب رسالة الى ارسانيوس مطران العاقورة سماها رسالة العدل ليبين له فيها ان القديس مارون وقدماء الموارنة كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة مستنداً الى اقوال سعيد بن البطريق وانه يلزم الموارنة ان يعودوا الى معتقد اجدادهم فاجابه المطران ارسانيوس ناقضاً زعمه ومبيناً ضلاله وكذلك قاومه البطريرك يوسف الجرجسي بطريرك الموارنة حينئذ حتى لم ينخدع بضلاله الا خوري فرشع او كفرشع ونفر قليل مع انه اقام بلبنان ست سنين جائلاً في جبة بشري وعملي البترون وجبيل ومحرفاً كتب الموارنة او زائداً عليها ما يوافق مقصده ويساعده على خدعة الموارنة وقد صنع مثل ذلك خاصة في كتاب ايضاح الايمان للقديس يوحنا مارون وفي كتاب الهدى للمطران داود الماروني (كما ابنا في الكلام على يوحنا مارون وعلى المطران داود المذكور) ومع ذلك عصم الله الموارنة من احبولة خداعه وقد صرح بانه اراد تصحيح مذهب الموارنة ولم يذعن لزعمه الا خوري فرشع ونفر قليل فعاد بخفي حنين فكلامه اذاً في كتابه المذكور وفي رسائله للمطران ارسانيوس العاقوري وغيره هو حجة قاطعة للموارنة على تشبثهم حينئذٍ بعقيدة المشيئتين بالمسيح لا حجة عليهم بهذا الضلال فلو كانوا متسكين به حينئذ ما كانت حاجة الى هذا التعب كله من قبله لتصحيح ايمانهم وردهم الى هذا الضلال ولا من قبل بطريرك الموارنة ومطرانهم لمناصبته في ذلك.

وقال فيه ابن القلاعي في قصيدة في ذوي البدع

تبعهم توما من حاران | من قصته الصدق يبان
في كورة حلب كان مطران | وكرسيه ليس هو سمعاني
قلت لي انه من ماردين | زدتني به رغبة ذا الحين
ماردين مسكن الشياطين | نسطور ويعقوب سكاني
قلت انه جاء لجبل لبنان | شهدت انه جا للطغيان

ومارون في سذاجة الان ينصت لمن هو سرياني

ومن قوله انه اتى لبنان عند حصار الفرنج لاطرابلس يظهر ان اتيانه كان سنة ١١٠٤ او سنة ١١٠٥ ومن قوله انه اقام بلبنان ست سنين يظهر ان رجوعه منه كان سنة ١١١٠ او ١١١١ ولم نعثر على ما ينبأنا ما كان من امره بعدئذ ولا متى كانت وفاته

﴿ غوليلمس الصوري ﴾

اقام الفرنج اساقفة لاتينيين لهم في كل من المدن الاسقفية وليس كبير فائدة في استقراء اسمائهم والبحث عن اعمالهم واشهر من كان منهم في هذا القرن غوليامس رئيس اساقفة صور وهو سوري مولدًا واصلاً على ما قال بعضهم منهم طاليس اسكندر وقد ولد في اورشليم نحو سنة ١١٢٧ وسار الى المغرب فتخرج هنالك في العلوم ولما عاد الى اورشليم سنة ١١٦٢ احبه اموري ملك اورشليم واعتمد عليه واقيم بعنايته رئيس شمامسة في كنيسة صور المتربوليطية سنة ١١٦٧ وعهد اليه بتربية ابنه بودوين الرابع واوفد مرات الى قسطنطينية وورومة وسعى بعقد معاهدة بين عمنوئيل ملك الروم وملك اورشليم سنة ١١٦٨ وصير اسقفاً على صور سنة ١١٧٤ وشهد مجمع لاتران الثالث سنة ١١٧٧ وابى ان يخضع لسلطة هرقل بطريرك اورشليم اللاتيني معترضاً على انتخابه وكان بينهما خلاف مشهور واختلف في سنة وفاته فقال بعضهم سار الى رومة سنة ١١٨٢ بسبب الاختلاف بينه وبين البطريرك وبقي في المغرب وقد دعا بمواعظه وخطبه الى حملة الفرنج الثالثة على سورية وتوفي سنة ١١٩٣ وعن مكمل تاريخه على ما في مجموعة تاريخ الصليبيين المطبوعة في بريس سنة ١٨٥٩ ان غوليلمس رجع من صور الى ايطاليا سنة ١١٨٠ لانه اعترض على انتخاب هرقل البطريرك الاورشليمي واغتابه فحرمه البطريرك فاستغاث بالحبر الروماني وسار الى رومة وارسل البطريرك خفية معه رجلاً رشاه بمبلغ من المال فدس له سماً مات به على ان الواضح من خلاصة تاريخ غوليلمس الملحقة في اخر المجلد الثاني من المجموعة

المذكورة ان وفاة اموري بطريرك اورشليم وانتخاب هرقل خليفته كانا في سنة ١١٨٠ وان غوليلمس عاد من رومة وقسطنطينية الى صور في ١٤ نيسان هذه السنة وان البطريرك اموري توفي في ٨ تشرين الاول من هذه السنة وان انتخاب هرقل واعتراض غوليلمس عليه كانا حينئذ في الشهر المذكور وان حرم هرقل البطريرك لغوليلمس اسقف صور كان بين سنة ١١٨٣ وسنة ١١٨٤ وانه حينئذ استغاث بالكرسي الرسولي وسار الى رومة فمات فيها تلك السنة مسموماً وقد قيل في مقدمة المجلد الثاني من المجموعة المذكورة المطبوعة في بريس بعناية جمعية الخطوط القديمة سنة ١٨٥٩ ما ترجمته « ان غوليلمس كان قد سار الى رومة ليبرئ ساحته من الشكايات التي اوردها عليه هرقل البطريرك الاورشليمي فمات هناك بغتة ضحية لبغض هرقل له فهذا ما نعتقده بعد البحث الوافي ومراجعة كثير من كتب التاريخ الموثوق بصدقها وسوف نورد في نبذة مخصوصة بينات لا ترد تثبت صحة هذا الراي »

قد كتب غوليلمس تاريخه الشهير في اثنين وعشرين كتاباً ضمن الاول منها بعض افادات تاريخية موجزة عن اخذ العرب اورشليم سنة ٦٠٦ ثم اخذ الفرس لها ونقل خشبة الصليب منها الى بلاد فارس ورد الملك هرقل لها الى اورشليم وملك الخلفاء سورية وحرق الحاكم بامر الله الخليفة العلوي كنيسة القبر المقدس وتجديد نيكوفور بطريرك اورشليم لبنائها سنة ١٠٤٨ الى غير ذلك ثم شرع في كتابة تاريخ الصليبيين من رجوع بطرس السائح الى رومة سنة ١٠٩٥ وقالوا ان ما تضمنه تاريخه في الكتاب الاول الى الكتاب الخامس عشر اعني من سنة ١٠٩٥ الى سنة ١١٤٤ لم يكن الا خلاصة ما كتبه غيره من المؤرخين واما ما كتبه من تاريخ سنة ١١٤٤ الى سنة ١١٨٤ فقد كتبه بعلم نفسه وقد قال في مقدمة مؤلفه ان اموري ملك اورشليم اقترحه عليه وانه دفع اليه بعض الكتب العربية وانه اعتمد منها على اقوال

الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريرك الملكي الاسكندري وقد اخذ عنه ما قاله في تهمته الشهيرة للموارنة التي سنردها ان شاء الله في المحث الآتي في تاريخ الموارنة في هذا القرن . ويقال ان له تاريخاً للعرب اضاعته الايام

﴿ عد ٨٥٤ ﴾

في ديوانيسيوس بن صليبا

هو من ملاطية (بارمينية الصغرى) واسم ابيه صليبا فيعزى اليه وكان اسمه قبل اسقفيته يعقوب فبدله بعدها بديونيسيوس وهو يعقوبي مذهباً وقال فيه البطريرك اسطفانس الدويهي في فصل ٧ من كتابه المنائر العشر « ديوانيسيوس بن صليبا من ميليطيني اسقف آمد له شرح على رتبة القداس ارسله الى اغناتيوس مطران بيت المقدس سنة ١٤٨٠ يونانية الموافقة سنة ١١٦٩ م ليقاوم به الفرنج الذين كانوا قد ملكوا الارض المقدسة . وقال فيه ابن العبري في تاريخه السرياني ما ملخصه « ان اثناسيوس بطريرك اليعاقبة رقاه الى اسقفية مرعش سنة ١١٥٤ ثم عقد مجمعاً في دير برصوما سنة ١١٥٥ والحق منبج باسقفية مرعش فصار ديوانيسيوس اسقف مرعش ومنبج وفي سنة ١١٦٦ نقله ميخائيل الكبير بطريرك اليعاقبة الى اسقفية آمد فدبرها خمس سنين وتوفي سنة ١١٧١ » انتهى كلام ابن العبري وبعد ان رواه السمعاني رجع عما كان دونه في اول ترجمة ابن صليبا وملخصه ان ديوانيسيوس بقي حياً الى سنة ١١٩٢ التي بها صير مخائيل الكبير بطريركاً على اليعاقبة والقى خطابة عند ترقيته بل لم يمت قبل سنة ١٢٠٧ لانه ذكر في كتابه في البدع فصل ٥٢ ارتقاء البطريرك ميخائيل الصغير ابن اخي البطريرك ميخائيل الكبير الى بطركية اليعاقبة في السنة المذكورة اي سنة ١٢٠٧ فقال السمعاني بعد ارتجاعه عن رايه ان تاريخ ترقية ميخائيل الصغير لم يذكره ابن صليبا بل مكمل تاريخه وقد اشار نيرون البساني بقوله (في كتابه سلاح الايمان) ان ديوانيسيوس هذا كان بعيد المجمع

الخلكيدوني وقد كتب ابن صليبا باللغة السريانية الفصيحة كتباً كثيرة منها كتاب في تفسير اسفار العهدين القديم والحديث اعتمد فيه على تفسيرات فم الذهب وكيرلس وموسي بركيفا ويوحنا اسقف دارا وغيرهم واورد السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ١٥٧ وما يليها) عدة فقر من تفسيره في مباحث ذات اهمية . وله كتاب في اللاهوت وكتاب في الرد على البدع وشرح في الميرون المقدس وشرح في الدرجات المقدسة ومقالة في سر الاعتراف والتوبة أثبتها السمعاني في المجلد المذكور من المكتبة الشرقية. وله نافوران فاتحة احدهما: ܐܠܗܐ ܗܘ ܕܒܚܘܒܐ ܡܬܪܥܐ ܐܢܬ اللهمّ يا من ترتضي بالمحبة وفاتحة الثاني ܗܒ ܠܢ ܚܘܒܐ ܘܫܝܢܐ ܘܗܝܡܢܘܬܐ ܫܡܠܝܬܐ اعطنا حبّاً واتفاقاً وامانا كاملاً وله نافور ثالث بدؤه ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܗܘ ܕܐܢܬ ܗܘ ܚܘܒܐ ܫܪܝܪܐ ܘܫܡܠܝܐ ايها الرب الاله الذي انت الحب الحقيقي والكامل ، وهذا النافور مثبت في كتاب في مدرسة الموارنة برومة وقد ذكر البطريرك اسطفانس الدويهي النافورين الاولين في كتابه المذكور وقال ان النافور الثاني طبع برومة سنة ١٥٥٤ وهو خطا لانه لم يطبع برومة نافور لابن صليبا بل طبع برومة تلك السنة نافور معزو الى ديونيسيوس الاروباجيتي في كتاب قداس الكلدان

ولديوانيسيوس بن صليبا ثلث صلوات تتلى الاولى في قداس اليعاقبة يوم خميس الاسرار والثانية يوم السبت العظيم والثالثة يتلوها اليعاقبة قبل كسر القربان في القداس وله كتاب في شرح رتبة القداس وهو الذي ذكرناه اولاً نقلاً عن الدويهي وقد ذكره رينودوسيوس في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٥٤ وذكره نيرون الباني في كتابه سلاح الايمان وقال ان نسخة منه في كتب الحاقلي ونسخة اخرى كانت في مدرسة الموارنة المقامة في رافنا ويشمل هذا الكتاب على عشرين فصلاً ذكرها السمعاني (في المكتبة الشرقية مج ٢ صفحة

١٧٧ الى ٢٠٨) فصلاً فصلاً مبيناً اهم ما حواه كل منها وقد ابنا في عد ٧٠٧ ان كتاب ابن صليبا هذا هو غير كتاب يوحنا مارون الموسوم بشرح القداس ايضاً وذكرنا ما بين الكتابين من الاختلاف واوضحنا ان ابن صليبا انتحل بعض كلام يوحنا مارون

الفصل الثاني

في مشاهير العلم الدينيين في القرن الثاني عشر

عد ٨٥٥

في بعض المشاهير الشرقيين في هذا القرن

لم نهتد في ما لدينا من كتب التاريخ الى ترجمة احد من المشاهير الدينيين السوريين في هذا القرن فاقتصرنا على ذكر بعض المشاهير الشرقيين في هذا الفصل وسنذكر في الفصل التالي المشاهير الغربيين في هذا القرن بما امكن من الايجاز

البطريرك ميخائيل الكبير

هو احد بطاركة اليعاقبة وقد اشتهر في اواخر القرن الثاني عشر فيوخذ عن كتاب الاناجيل القديم الموجود في المكتبة الملكية في بريس ان هذا الكتاب خط في ايام هذا البطريرك سنة ٣ ١٥ يونانية الموافقة لسنة ١١٩٢ م وقد ذكره رينادوسيوس في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٤٨ وقال في حقه ديوانيسيوس بن صليبا في جدول بطاركة اليعاقبة عد ١٠٠ انه كان راهباً في دير برصوما واشتهر في الفضائل وفي الكتاب الخامس من كتب الحاقلي التي في المكتبة الواتيكانية خطابة لابن صليبا هذا القاها يوم ترقيه الى المقام البطريركي ومن

مؤلفات هذا البطريرك نافور اي رتبة للصلوات التي تتلى في القداس ترجمه رينودوسيوس الى اللاتينية في كتابه المذكور آنفاً وهو مثبت في الكتاب الثالث من الكتب السريانية المخطوطة المأتي بها من الصعيد الى المكتبة الواتيكانية صفحة ١٢٦ وفاتحته ܐܠܗܐ ܐܚܝܕ ܟܠ ܘܡܪܐ ܕܟܠ اي اللهم الضابط كل شي وسيد كل شي وذكره البطريرك اسطفانس الدويهي في كتابه المنائر العشر في الفصل السابع في مؤلفي النوافير المراطقة فقال ميخائيل البطريرك له نافور بدؤه ܐܠܗܐ ܐܚܝܕ ܟܠ ܘܡܪܐ ܕܟܠ وله مقالة في الاستعداد الى تناول القربان الاقدس ذكرها رينودوسيوس في كتابه المذكور ووصفها بلاهوتية وعلمية وقال انه ضمن كتابه هذا الجليل الكلام في فروض الانسان المسيحي وفي الايمان وكيف يستطيع الانسان ان يكون تلميذاً كاملاً للمسيح وفي لزوم التوبة والاعتراف الى غير ذلك وعده ابو الفرج ابن العبري في جملة المولفين الذين كتبوا في القوانين البيعية وله كتاب في الرتب الحبرية والطقوس البيعية وهو مثبت في الكتاب الرابع من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية ويعزى اليه كتاب قديم وجد في الرها مشتملاً على جداول في اسماء بطاركة اليعاقبة والاساقفة الذين رقاهم كل منهم من القرن الثامن الى الثاني عشر وقد ترجمه الى الافرنسية المونسنيور شابو ونشره في المجلة الموسومة بالمشرق المسيحي وتوفي هذا البطريرك في ٧ تشرين الثاني سنة ١٢٠٠ على ما روى ابن العبري في تاريخ بطاركتهم

﴿ يوحنا زوناراس ﴾

قد استشهدنا بكلامه متواتراً وهو مؤرخ يوناني كان في قسطنطينية في هذا القرن كاتباً للملكين يوحنا وعمنوئيل كومنانس ثم ترك العالم واتخذ السيرة الرهبانية على مقتضى قانون القديس باسيليوس وانفرد في جزيرة وانكب على التاليف فصنف تاريخه المشهور ابتدأ فيه من خلق العالم الى سنة ١١١٨ للميلاد التي توفي فيها الكسيس كومنانس واثنى العلماء على هذا التاريخ ولا سيما ما كتبه في قسطنطين

الكبير والامراء آل بيته وقد طبع تاريخه مرات منها طبعة الاب مين في جملة مكتبة الاباء الشرقيين وقد ترجمه الرئيس كوزن الى الافرنسية وطبعت هذه الترجمة اولاً في بريس سنة ١٦٧٨ وله ايضاً قصائد شعرية وشروح على قوانين الرسل والمجامع المقدسة وعلى الرسائل القانونية للقديسين ديونيسيوس وبطرس الاسكندريين وغريغوريوس المعروف بذي العجائب وباسيليوس على ان العلما راوا ان هذه الشروح نفسها تعزى الى توادوس بلسامون البطريرك الانطاكي ولم يحققوا لايهما هي حقيقة

﴿ حنة كومنانس ﴾

هي ابنة الملك الكسيس كومنانس وزوجة نيقوفور القيصر وكانت فقيهة عالمة ضليعة بعدة فنون كتبت تاريخ ابيها الكسيس كومنانس في خمسة عشر كتاباً وانتقد كلامها كثير من العلماء ولا سيما اللاتينيون في مبالغتها في تعظيم ابيها وفي بغضتها للاتينيين وقد اثنى زوناراس عليها في المجلد الثالث من تاريخه صفحة ٢٤٢ وسماها القيصرة العلامة وقال نيقيطا كونياتس (في تاريخه صفحة ٧) انها كانت منصبة على الفلسفة وضليعة في كل فن

﴿ عـد ٨٥٦ ﴾

﴿ في بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن ﴾

نكتفي بان نذكر من المشاهير الدينيين الغربيين في القرن الثاني عشر القديس برنردس وبطرس اللمباردي

﴿ القديس برنردس ﴾

ولد القديس برنردس بفونتان له ديجون **Fontaine les Dijon** بافرنسة سنة ١٠٩٠ او سنة ١٠٩١ واتخذ طريقة الرهبانية وانشأ رهبانية تسمى رهبانها البرنرديين نسبة اليه واقيم رئيساً عليها سنة ١١١٥ وذاع صيت قداسته وفصاحته

حتى تقاطر اليه الرجال من كل فج طالبين الانضواء الى رهبانيته وعظمت شهرته حتى كان الاساقفة والامراء والملوك بل الاحبار الرومانيون انفسهم يحتاورونه حكماً في ما يختلفون به من المسائل ولما نازع اناكليتس اينوشنسيوس الثاني البابوية سنة ١١٣٠ استمال القديس برنردوس اوريكس الثاني ملك انكلترا وغيره من الامراء الى المدافعة عن اينوشنيوس البابا الشرعي واستدعاه هذا البابا الى رومة ثلث مرات ليتعزز به وقد دعا الى حملة الصليبيين الثالثة سنة ١١٤٦ فلبي دعوته لويس السادس ملك افرنسة وكنراد ملك المانيا وكان شديد المدافعة عن الدين الكاثوليكي فناصب من المبدعين ابايلاردوس وبطرس برديس وادنلدوس من براشيا وغيرهم واخمد ثورة الراهب راول الذي حاول ان يهيج الناس على قتل اليهود جميعاً وانشأ لرهبانيته نحو اثنين وسبعين ديرًا منبثة في انحاء اوروبا كلها حتى قال فيه بعضهم انه كان حلية عصره وزينة دهره ومعلم الباباوات والاساقفة والملوك والامراء برسائله وقداسته ومطرقة اصحاب البدع بتفنيده ضلالهم واجرى الله على يده آيات باهرة ونقله تعالى اليه سنة ١١٥٣ واحصاه البابا اسكندر الثالث في مصاف القديسين سنة ١١٧٤ وتعيد له الكنيسة اللاتينية في ٢٠ اب يوم وفاته وتعيد له طائفتنا المارونية في ذلك اليوم ، والف كتباً كثيرة نشرها مابيلون في ستة مجلدات بقطع كامل سنة ١٦٩٠ ثم طبعت بعد ذلك مرات وهي مشتملة على مقالات لاهوتية ورسائل وخطب باللغة اللاتينية وله مدائح رنانة للعذراء الكلية الطوبى وهو الذي زاد على الصلوة السلام لك ايتها الملكة ام الرحمة الفقرة الاخيرة وهي ، يا شفوقة يا راوفة يا مريم البتول الحلوة اللذيذة صلي لاجلنا يا والدة الله القديسة ،وباقي هذه الصلوة تاليف ونبر نائب البابا في حملة الصليبيين الاولى الذي صير بعد ذلك بطريركاً لاتينياً على اورشليم ومما حكي عن القديس برنردس ان البابا امره يوماً ان يلقي خطبة عليه وعلى الكرادلة والاساقفة المجتمعين للممارسات الروحية فاعتذر فلم يقبل البابا

عذره فاستمهل فامهله ثلثة ايام واتى في الوقت المعين وصعد على المنبر واجال باصرتيه بالحاضرين وقال « اعملوا بما تعلمون » ونسل عن المنبر وتوارى فكانت عبارته عظة كبرى اشغلت سامعيها بالتامل بها مدة طويلة

﴿ بطرس اللمبردي ﴾

ولد في نوفاريا بلمبرديا احد اعمال ايطاليا في اواخر القرن الحادي عشر وتخرج في العلوم برنس بافرنسة ونال رتبة الملفنة في كلية بريس وعلم فيها اللاهوت ثم رقي الى اسقفية بريس سنة ١١٥٩ وفي رواية اخرى سنة ١١٥٨ وتوفي سنة ١١٦٠ وله مولف في اللاهوت قسم الى اربعة كتب وسماها كتب الآراء جمع فيها اراء الآباء في كل مبحث من مباحث اللاهوت لكنه اهمل القطع بصحة كثير منها فيورد اقوال الآباء في ذلك المبحث وقلما يعني ببتها ولذلك كان كتابه موضعاً للجدال بين العلماء وشرحه كثير من العلماء ولا سيما القديس توما الاكويني وانتقده كثيرون منهم في عدة مسائل واكسبه هذا التأليف لقب معلم الآراء ويسمى اللمبردي نسبة الى لمبرديا مولده وله تفسير للزبور ولرسائل القديس بولس الرسول . انتهى

ذيل

لم يكن في هذا القرن بدعة حديثة في المشرق بل كان في المغرب بعض المبدعين كبطرس ابايلاردوس وارنلدوس من براشيا وبطرس فالدوس وغيرهم ولم تكن بدعهم ذات اهمية او لم تدم الا زمناً وجيزاً وقل من شايعهم عليها ولذا لم نحفل الا بالاشارة اليها

ملحق

﴿ في تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر ﴾

﴿ عد ٨٥٧ ﴾

﴿ في حالتهم الدنيوية في هذا القرن ﴾

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرن الثامن عد ٧٤٢ ان حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان وتعذر احراز الثروة فيه جعلت الموارنة سكانه في مأمن من السطو عليهم والمزاحمة لهم على ارضيه وانه يظهر ان الخلفاء كانوا يولون عليهم ولاة مسيحيين وايدنا ذلك بشهادة العلامة السمعاني في مؤلفه مكتبة الناموس (مج ٤ صفحة ٣٩٤) والآن نقول يظهر ان الموارنة سكان لبنان استمروا على ذلك الى هذا القرن وما بعده ايضاً متنعمين بنوع من الاستقلال الاداري بفضل الخلفاء ولما اتى الفرنج وملكوا السواد الاعظم من سورية لم ينزعوا عنهم هذه النعمة بل تركوهم واستقلالهم المذكور وهذا توكده لنا ادلة كثيرة قاطعة فلم نعثر في كل ما قلبناه من كتب التاريخ لاخذ تاريخ الخلفاء ما يؤذن بان الخلفاء نصبوا عاملاً على لبنان او على مدنه غير الساحلية فقد ذكروا متواتراً عمال النواحي كطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحماه وحمص وبعلبك ولكن لم نرَ ذكراً لعامل في لبنان او احدى مدنه او قراه الجبلية بل لم نجد اثراً لاقامة المسلمين في انحائه الا بعد اواخر القرن الثالث عشر ولا في سواحله او ما يقرب منها كاقامة امراء الغرب من آل تنوخ في عمل الغرب القريب من بيروت فان الملوك والامراء المسلمين اقاموا في مدة حربهم مع الفرنج هؤلاء الامراء في العمل المذكور وبعد طردهم الفرنج من هذه البلاد

اسكنوا عشائر من المسلمين في سواحل لبنان ليكونوا حاجزًا بين نصارى لبنان وبين الفرنج اذا عادوا الى سورية كما سياتي

ولما فتح الفرنج سورية وملكوا مدنها الساحلية لم يعترضوا النصارى سكان لبنان في تدبير امورهم الداخلية ولم يمسوا ما كانوا عليه من الاستقلال فلا نراهم نصبوا عاملاً على غير المدن الساحلية ولا الفينا ما يدل على انهم حاربوا سكانه او ان سكانه استسلموا اليهم او تركوا لهم تدبير شؤون بلادهم كما لا نرى ان الحكام المسلمين استعانوا بهم على حرب الفرنج او جندوا قوماً منهم لمحاربة الفرنج ولو كانوا يلونهم كغيرهم من سكان السهول والمدن البحرية لما اهملوا تكليفهم الى انجادهم في حروبهم كما كانوا يصنعون مع باقي مسوديهم بل لو كان للولاة المسلمين الولاية المطلقة على سكان الجبل لما استطاع الفرنج ان يتمكنوا في اطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا لاكتناف الجبل هذه المدن ومن عرف موقعها غني بما نحن مثبتون

وقد جاء في كتاب تاريخ الموارنة المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠ (صفحة ٢٧٩) ذكر امراء لبنان مع تعيين اسمائهم وسني ولايتهم نقلاً عن رسالة للخوري يوسف مارون الدويهي الاهدني فلا يمكن القطع بصحة هذه الرواية ولا سيما في تعيين الاسماء والسنين لان صاحب الرسالة لم يسند ما كتبه الى احد المؤرخين او احد الكتب القديمة وغموض التواريخ في تلك الحقبة معلوم مشهور فيتعذر على كاتب ان يحقق هذه الاسماء وهذه السنين واذا كان العلماء لم يستطيعوا ان يعرفوا اسماء بعض البطاركة وسني رياستهم في تلك القرون فلا يظن انه كانت وسيلة للعلم باسماء امراء منزوين في جبل وسني ولايتهم. ولكن بقاء حكام او امراء في لبنان في تلك السنين لا ريبة فيه وكل ما مر آنفاً يؤيد ان هؤلاء الامراء كانوا وطنيين ولنا شهادة قاطعة على انه كان في لبنان في القرن الثاني عشر ملك او امير ماروني

في جبيل وهذه الشهادة كتبها البطريرك ارميا العمشيتي بخط يده على كتاب الاناجيل الاربعة الذي خط سنة ٨٩٧ يونانية الموافقة لسنة ٥٨٦ للميلاد وكان هذا الكتاب في بطريركية الموارنه في ايام البطريرك ارميا المذكور ثم اتصل الى المكتبة المادينشية في فيرنسا بايطاليا وذكره العلامة المطران اسطفان عواد السمعاني في الفهرست الذي وضعه للكتب الشرقية في هذه المكتبة وقد صنع مثالاً للكلمات نفسها التي خطتها يد ارميا بالسريانية وسنذكرها عند الكلام فيه ونجتزئ الان بذكر ما خص غرضنا منها فانه بعد ان ذكر دعوة البطريرك له وتصييره اسقفاً في دير كفتون قال « وبعد مضي اربع سنين طلبني ملك (اي امير) جبيل والاساقفة ورؤساء الكنيسة والكهنة والقوا قرعة فاصابتني واقاموني بطريركاً في دير حالات » فامير جبيل الذي دعا اسقفاً مارونياً وشهد انتخابه بطريركاً لا يمتري في انه ماروني

ونرى لويس التاسع ملك افرنسة لما كان في عكا في اواسط القرن التالي كتب في رسالته الى الموارنة « الى امير الموارنة بجبل لبنان والى بطريرك واساقفة الطائفة المذكورة » وصرح في رسالته بان الامير سمعان اتى اليه وقدم له هدايا فاخرة بل قد صرح البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته في كرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤ بانه لما ملك المسلمون انطاكية وطردوا الافرنج منها ولى هولاء فارين الى جبل لبنان فقبلهم بطريرك الموارنة بالايناس والترحاب فكتب اليه البابا اسكندر الرابع يشكر له صنيعه ولم تزل براءة البابا اسكندر الرابع التي اشار اليها بناديكتس الرابع عشر محفوظة في خزانة اوراق بطريركية الموارنة حيث يوصيه بهولا الفرنج ويخوله الحق ان يسوسهم كشعبه فلو لم يكن للموارنة حينئذ نوع من الاستقلال لما هرب الافرنج اليهم ولا استطاع بطريرك الموارنة ان يقبلهم ويضمهم الى شعبه وسوف ترى شيئاً كثيرًا يثبت ذلك

﴿ عـد ٨٥٨ ﴾

في بطاركة الموارنة في القرن الثاني عشر

لما قدم الفرنج الى سورية في اخر القرن الحادي عشر كان يوسف الجرجسي بطريركاً على الموارنة ولا نعلم في اية سنة قبل ذلك رقي الى هذا المقام بل علمنا انه لما فتح الفرنج اورشليم واقاموا غودفروا ملكاً عليهم واختاروا بطريركاً لاتينياً على اورشليم ارسلوا رسائل ووفدًا الى الحبر الروماني البابا اوربانس الثاني يبشرونه بما وفقهم الله اليه وارسل يوسف الجرجسي مع وفدهم نائباً عنه ورسالة الى الحبر الروماني يحقق بهـا طاعته له وتشبثه بالايمان الكاثوليكي فبلغت هذه الرسائل الى البابا بسكاليس الثاني لان سالفه البابا اوربانس الثاني كان قد توفي قبل فتح اورشليم باربعة عشر يوماً فسر البابا بسكاليس بهذه الرسائل والوفد سرورًا عظيماً وارسل الى بطريرك الموارنة تاجاً وعكازًا روى ذلك الاسقف جبرائيل اللاحفدي المعروف بابن القلاعي في رسالة كتبها الى البطرك سمعان الحدثي سنة ١٤٩٤ ومرهج بن نيرون البني في كتابه (افوبليا) سلاح الايمان صفحة ٦٧ واورد لكويان قوليهما في المشرق المسيحي (مجلد ٣) في كلامه على بطاركة الموارنة وكان هذا البطريرك ساكناً في يا نوح من عمل جبيل

وروى لكويان في المحل المذكور ما رويناه في كلامنا على توما اسقف كفرطاب انه كان يعقوبياً وصار من اصحاب بدعة المشيئة الواحدة واتى الى لبنـان قاصدًا ان يستغوي الموارنة وانه قام لمناصبته يوسف بطريرك الموارنة وارسانيوس مطران الماقوره وفندا تعليمه برسائلهما فرذله الجميع ولم يضلل الا خوري كفرشع وبعض المغفلين الى ان قال لكويان ان هذا البطريرك بقي حياً الى سنة ١١١٩ هذا اذا كان هو الذي كتب رسالة الى البـابا جيلاسيوس الثاني يهنئه بها بارتقائه الى الحبرية العظمى ولمـا كان البابا جيلاسيوس لم يعش الا زماناً وجيزًا (سنة وخمسة

اشهر) جاوبه البابا كاليستوس الثاني على رسالته سنة ١١١٩ كما روى ابن نيرون الباني في كتابه سلاح الايمان صفحة ٦٨ وربما كان البطريرك بطرس خليفة يوسف المذكور هو الذي كتب هذه الرسالة

وصير بعد البطريرك يوسف الجرجسي البطريرك بطرس الاول ولا شك في انه كان بطريركاً على الموارنة سنة ١١٢١ لان الكتاب السابع من الكتب السريانية المخطوطة التي نقلها السمعاني الى المكتبة الواتيكانية علق كاتبه على صفحة ٢٦٢ منه هذه الحاشية بالسريانية وترجمتها « انا الحقير الراهب سمعان كتبت هذه الاسطر في هذا الكتاب الذي نسخته لابينا الطوباوي بطريركنا مار بطرس بطريرك الموارنة الساكن بدير ميفوق المقدس في وادي ايليج من عمل البترون الى ان امرني ان كون رئيساً وناظرًا على دير القديس يوحنا في ارض كوزبند بجزيرة قبرس في ايام الرهبان الساكنين في دير القديس يوحنا المذكور وهذه اسماؤهم الراهب داود القس موسى الراهب يوسف النحتومي والراهب جيورجيوس والراهب دانيال وهولاء كهنة يخدمون الله وكان ذلك سنة ١٤٣٢ يونانية (سنة ١١٢١ م) في اليوم الثاني عشر » يريد من تشرين الاول الذي كان السريان يبتداون السنة منه ذكر ذلك السمعاني في المجلد الاول من المكتبة الشرقية صفحة ٣٧٠ ثم ذكره صفحة ٦١١ و ٦١٢ من المجلد المذكور

وقد ذكر الدويهي في تاريخه البطريرك بطرس هذا فقال « وفيها (اي في سنة ١١٢١) كان البطرك بطرس قاطناً في دير سيدة ميفوق من اعمال البترون وبعث الرهبان القاطنون بدير مار يوحنا كزبند يخبرونه بوفاة رئيسهم ويسالونه ان يراس عليهم القس سمعان الذي كان كاتباً عند قدسه وله اليد الطولى في الخط وفي تزويق التصاوير كما هو واضح من كتاب ميامر مار يعقوب السروجي الذي كتبه بخط استرنكالي على رق وهو مصان عندنا بدير سيدة قنوبين» انتهى كلام الدويهي

ويظهر منه ان هذا الكتاب الذي كان في قنوبين نقله السمعاني الى المكتبة الواتيكانية

وخلف غريغوريوس الثالث من حالات بطرس الاول وقد ذكره الاسقف جبرائيل القلاعي في رسالته الى البطريرك سمعان الحدثي ومرهج بن نمرون الباني في كتابه سلاح الايمان وقال انه ارسل سنة ١١٣٠ وفدًا الى البابا اينوشنسيوس الثاني يهنئه بارتقائه الى الحبرية العظمى ولما ارسل هذا البابا الكردينال غوليلمس الى المشرق بسبب الخلاف الشهير الذي كان حينئذٍ اذ غصب البابوية بطرس لاون وسمي اناكليتس الثاني التقى البطريرك غريغوريوس الكردينال غوليلمس الى اطرابلس وقدم صك طاعته للبابا اينوشينسوس الثاني البابا الشرعي وقد ذكر ذلك البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخه فبعد ان اورد خبر هذا الخلاف ورجوع الاكثرين الى طاعة البابا الشرعي واقتداء الفرنج الذين بسورية بهم قال « وعلى شبه من تقدم ذكرهم نزل رؤساء الملة المارونية وعلماؤها الى مدينة اطرابلس وعلى يد الكردينال غوليلمس قاصد البابا زخيا (اينوشنسيوس) حلفوا له الطاعة واعطوه خطوط ايديهم انهم لا يتمسكون بغيره ولا يكرزون الا باسمه »

وصير بعد غريغوريوس الثالث الحالاتي يعقوب الاول من رامات بلاد البترون وقد روى العلامة السمعاني (في المجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٠٧) انه علق على احد كتب القديس يعقوب السروجي (وهو السابع من الكتب السريانية التي نقلها السمعاني الى المكتبة الواتيكانية) هذه الحاشية بالعربية « لما كان تاريخ سنة ١٤٥٢ يونانية (توافق سنة ١١٤١ م) في شهر تموز المبارك بعشرة ايام مضت منه حضر الى عندي انا بطرس بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الانطاكي باسم يعقوب من قرية رامات من عمل البترون الولد الراهب دانيال من رهبان دير كفتون وقد اعطيته سلطان من الله ومن حقارتي بانه يكون رئيساً ومدبرًا على دير مار يوحنا الكوزبند في جزيرة قبرس المحروسة من الله تعالى بحسب ما

وردمن الاولاد الرهبان واولهم الراهب عيسى والياوالراهب موسى الراهب يوحنا واخاه يعقوب برضاهم وخاطرهم وخط ايديهم ولربنا المجد امين • وقال البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ سنة ١١٤٠ • وفيها كانت وفاة الرجل الفاضل القس سمعان رئيس دير مار يوحنا الكوزبند بقبرس وارسل لهم بدله البطريرك يعقوب من رامات من عمل جبيل القس دانيال من رهبان سيدة كفتون الذي في كورة اطرابلس ومن بعد يعقوب الراماتي رقي الى الكرسي البطريركي يوحنا السابع سنة ١١٥١ وقد ولد في لحفد من عمل جبيل وسكن اولاً في دير مار الياس في قريته ثم انتقل الى دير السيدة بهابيل واقام هناك ديرًا ووصفه الدويهي في تاريخ بطاركة الموارنة بانه كان ذا مكارم وفصاحة كما يظهر من النافور الذي كتبه وانه في مدة اقامته بلحفد رقى اربعة اساقفة لمعاونته على تدبير الشعب فسكن احدهم في دير القديس حوشب والثاني في دير القديس سمعان والثالث في دير القديس اليشاع والرابع في دير السيدة بلحفد وانه لما كان عيد المنصرة حضر اليه شعب كثير ومعهم شمامسة وكهنة ورهبان ورؤساء كهنة فانتقل من ديره الى دير السيدة الذي فوق هابيل حيث لم يكن ماء فحفر بئرًا وانشأ ديرًا كبيرًا وقد جاء في الآثار القديمة وفي الرسالة التي كتبها جبرائيل بن القلاعي الى القس جرجس بن بشاره في الفصل الحادي عشر ان دير هابيل المذكور استمر كرسياً لبطاركة الموارنة الى ايام البطريرك ارميا الا انا لم نعثر على اسماء هولاء البطاركة الذين اقاموا به لتثبت ذكرهم انتهى كلام الدويهي وقد وجد مكتوباً على كتاب الاناجيل القديم الذي كان في بطريركية الموارنة ثم نقل الى المكتبة المديشية بفيرنسا وذكر المطران اسطفان عواد الخطوط المعلقة عليه في كتابه فهرست هذه المكتبة فقال انه كتب على صفحة ١٨ سطر ٢٣ وما يليه ما يأتي بالعربية • لما كان تاريخ سنة ١٤٦٥ يونانية توافق سنة ١١٥٤ م) ثامن يوم مضت من شهر ايلول حضر الى عندي انا طرس بطرك الموارنة الجالس على الكرسي

الانطاكي القاطن بدير سيدة ميفوق في وادي ايليج الولد الراهب اشعيا من دير قزحيا وعملته رئيس على الرهبان القاطنين في دير مار يوحنا دير الكوزبندو في جزيرة قبرس حسبما ورد من الاولاد الرهبان بخط ايديهم وهم الولد الراهب جبرائيل ورفيقه الراهب شمعون والراهب حبقوق والراهب ميخائيل وللرب المجد امين » فبطرس هذا هو يوحنا اللحفدي المذكور ويظهر ان بطاركتنا كانوا منذ تلك الايام يزيدون على اسمهم بطرس ويظهر ايضاً انه كان يقيم بسيدة ميفوق ايضاً. وقد ذكره السمعاني (في المجلد الاول من المكتبة الشرقية صفحة٥٢٢) وقال انه ولد في لحفد وانه خلف البطريرك يعقوب الراماتي وانه دبر الكنيسة المارونية من سنة ١١٥١ الى سنة ١١٧٣ وانه كتب نافوراً ذكره البطريرك اسطفانس الدويهي في كتابه المنائر العشر في الفصل الثاني في مؤلفي النوافير الكاثوليكيين فقال « يوحنا اللحفدي الذي جلس على الكرسي الانطاكي بعد الالف والماية من سني السيد المسيح له نافور بدؤه ܐܠܗܐ ܗܘ ܩܕܝܫܐ ܕܟܠ ايها الاله الكلي القداسة وهو مثبت في كتب القداس الموجودة في دير قنوبين

ان البطريرك اسطفانس الدويهي ذكر بعد البطريرك يوحنا اللحفدي البطريرك ارميا العمشيتي لكن قال ما رويناه انفاً ان دير هابيل استمر كرسياً لبطاركة الموارنة الى ايام البطريرك ارميا الا اننا لم نعثر على اسماء البطاركة الذين اقاموا هناك لنذكرهم فظهر انه كان بين يوحنا اللحفدي وارميا العمشيتي بطاركة اخرون ولكويان في كلامه على بطاركة الموارنة جعل يوحنا اللحفدي الثامن والعشرين منهم ثم وضع الاعداد ٢٩ و ٣٠ و ٣١ وبعدها بياضاً لانه لم يهتدِ الى اسماء ثلاثة بطاركة ثم ذكر لوقا ايضاً قبل ارميا . وقال المطران اسطفانس عواد السمعاني في فهرست المكتبة الماديشية صفحة ١٦ متكلماً في كراسي بطاركة الموارنة « رابعاً في دير القديس الياس بلحفد من ابرشية جبيل حيث جلس يوحنا اللحفدي خليفة

يعقوب وهو الذي نقل الكرسي الى دير القديسة مريم بهايل من ابرشية جبيل المذكورة وهنالك جلس بطرس وبطرس الاخر ولوقا المسمى بطرس • خامساً نقل الكرسي البطريركي ثانية الى دير القديسة مريم بيانوح من ابرشية البترون حيث جلس ارميا • ولا اشك البتة في انه كان بين يوحنا اللحفدي وارميا العمشيتي بطاركة اخرون وعلى ذلك دليل قاطع غير ما مر من شهادة المؤرخين فقد ذكر السمعاني وغيره ان يوحنا اللحفدي توفي سنة ١١٧٣ كما رايت وان ارميا توفي سنة ١٢٣٠ فلو كان ارميا خلف يوحنا للزم ان يكون ارميا استمر بطريركاً سبعاً وخمسين سنة وهذا لا يصدق ومما لا ريب فيه ان ارميا العمشيتي شهد المجمع اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥ وان البابا اينوشنسيوس الثالث كتب اليه براءته المثبتة في سجلات البراءات تلك السنة فلو كان قد صير بطريركاً سنة ١١٧٣ لكان له في البطريركية حينئذ اثنتان واربعون سنة فان فرضنا انه صير بطريركاً وعمره اربعون سنة فقط فيكون عمره سنة ١٢١٥ اثنتين وثمانين سنة ومن يصدق ان هرماً بهذا العمر يتحمل مشاق السفر في تلك الايام الى رومة فاذاً لا بد من ان كان بطاركة اخرون بين يوحنا اللحفدي وارميا العمشيتي افهلم نظر ما يقوله المؤرخون في ذلك

قال لكويان في المشرق المسيحي (متكلماً في بطاركة الموارنة) روى مرهج بن نيرون الباني في مقالته في اسم الموارنة واصلهم ودينهم نقلاً عن جبرائيل بن القلاعي في قصيدته في اصحاب البدع ان من اتبعوا ضلال توما اسقف كفرطاب (الذي كان قد توفى) اطغوا غيرهم من الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة وتوافر عدد المطغين حتى ان البطريرك نفسه لم يذكر اسمه جنح الى ذلك فان ابن القلاعي يقول ما معناه انه بعد توما قام ابن شمعان واخذ يكتب ويعلم الاحداث ويبذر الضلال بين الموارنة وملأ كتبهم من الزوان وقام بعده ابن حسان من حدشيت واطغى اهل كفر ياشيت وكتب وغير الصلوات وانبث سم الضلال في قرى اخرى

حتى اتصل الى الراس ايضاً اذ قال . ان البطرك ابتلع السم بقدر ما يسع الفم » ولذلك اجتمع رؤساء الموارنة واعيانهم وكثيرون من الشعب وجزموا جميعاً براي واحد على ان ينفصلوا من شركة البطريرك فلم يعودوا يؤدونه الطاعة ولا يقبلونه في البلاد بل حملتهم الحمية والغيرة الدينية على انهم حطوه عن مقامه وانتخبوا بطريركاً آخر فخنق لذلك اصحاب البطريرك المعزول وقتلوا البطريرك الجديد وبعد قتل هذا البطريرك تعاظم الخلاف والشغب بينهم فتدارك امرهم ايميريكس البطريرك الانطاكي على اللاتين وسكن روعهم وخمد جزوة غضبهم ورد المغوين عن غيهم فاتفقوا جميعاً على انتخاب بطريرك صحيح المعتقد . قال لكويان هذا ما جاء في التاريخ المذكور . ان ايميريكس ذا الذكر الصالح انتزع السم منهم وارشدهم فطاعوه واهتم بنيل البركة لهم من الكرسي الرسولي واختاروا بطريركاً سكن في هابيل وحفظ كلما في الانجيل وكان ضليعاً في تفسير الاسفار المقدسة والف اشعاراً كثيرة في الايمان . واختتم لكويان كلامه بقوله لا ريب عندي في ان هذا ما حمل غوليلمس اسقف صور على ما كتبه من ان الموارنة كلهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢ على يد ايميريكس البطريرك الانطاكي مع ان هذا لا يصدق على الملة كلها بل على بعضها فقط ويؤيد ذلك ما جاء في التاريخ المذكور . انهم ثبتوا في ايمان مارون وذل المعاندون وعاد الوفاق والسلم ثابتين بين من كانوا مختلفين . وكان لكويان قد قال في مقدمات كلامه على الموارنة كما لم يعب افرنسة اتباع كثيرين من اكليرسها واعيانها مذهب لوتارس وكاوينس هكذا لا يعب الملة المارونية اتباع بعض افرادها الضلال مدة ما

وبعد ايراد لكويان خبر هذه الاحداث ذكر لوقا الاول قائلاً ما خمدت جذوة الاضطراب بين الموارنة الا وقام رجل يسمى ابن شعبان رومي اصلاً وعاونه مطران اسمه عيسى فبثا الضلال في بعض قرى لبنان وكان البطريرك اسمه

لوقا وكان في اخر القرن الثاني عشر او بدء الثالث عشر فانحاز اليهما واستشهد لكويان لذلك نيرون الباني (في مقالته في اسم الموارنة صفحة ٩٨) الذي قال ان المطران عيسى وابن شعبان علما الناس ان يصنعوا اشارة الصليب باصبع واحدة ونبذا المجمع الرابع واوجس الشيطان الى راهبين احدهما من يانوح والاخر من دير نبوح فزعما ان المسيح لم تكن له نفس ولا تألم ولا كان يستطيع ان يشعر بالالام وان البابا ارسل قاصدًا لم يقبله البطريرك لوقا فحرم البابا اصحاب هذا الضلال ونشأ بين الموارنة شقاق بسبب ذينك الراهبين الى ان يقول لكويان ان هذا الشقاق استمر الى ان قام البطريرك ارميا خليفة لوقا المذكور انتهى

ان العلامة لكويان اعتمد في ايراد هذا الخبر وذكر البطريرك لوقا على قول نيرون الباني ونيرون اعتمد فيه على قول جبرائيل ابن القلاعي في بعض جزلياته على ان البطريرك اسطفانس الدويهي افرد الفصل التاسع من كتابه في رد التهم عن الموارنة لتفنيد قول ابن القلاعي المذكور مبيناً ان البطريرك لوقا من بنهوان لم يكن في القرن الثاني عشر او اول الثالث عشر بل في اخر القرن الثالث عشر او اول الرابع عشر وانه لم يعب بضلال وان الحكام الذين ذكر ابن القلاعي ان هذه الاحداث كانت في ايامهم لم يكونوا في ذلك العصر بل بعده بسنين كثيرة وان جل مقصد ابن القلاعي كان يبين للمقدم عبد المنعم حاكم بشري الذي زاغ عن الايمان القويم وشايع اليعاقبة ان كل من شذوا عنه انتقم الله منهم فلم يرع نظام تاريخ السنين الى غير ذلك من الادلة القاطعة فضلاً عن ان ابن شعبان الذي ذكره لكويان هنا كان ذكره قبلاً وعن انا سنبين ان ارميا العمشيتي كان بطريركاً في المدة التي عينها لكويان للبطريرك لوقا

قد افضل علينا العلامة المطران اسطفانس عواد السمعاني بنشره مثالاً لخط بيد البطريرك ارميا عثر عليه في كتاب الاناجيل القديم الموجود الان في المكتبة

المادينية بفيرنسا وكان قبلاً في بطريركية الموارنة وطبع هذا المثال في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المذكورة ومنه يتبين زمان ارتقاء ارميا الى الاسقفية وسنة انتخابه بطريركاً والخط بالسريانية والاحرف المسماة استرنكلية وهذه ترجمته بحروفه

في سنة ١٥٩٠ يونانية في اليوم التاسع من شباط أتيت انا الحقير ارميا من قرية دملصا المباركة الى دير سيدتنا القديسة مريم بميفوق في وادي ايليج من عمل البترون الى سيدنا بطرس بطريرك الموارنة ورسمني بيديه المقدستين وجعلني مطراناً على دير كفون المقدس الذي على ضفة النهر وبقيت هناك اربع سنين وكان سكان الدير المذكور الراهب حزقيال ورفيقه الراهب اشعيا والراهب دانيال والراهب يشوع ورفيقه ايليا والراهب داود واثنين وثلاثين راهباً اخرين وبعد انقضاء السنين الاربع طلبني امير جبيل والاساقفة ورؤساء الكنائس والكهنة والقوا قرعة فاصابتني وصيروني بطريركاً في دير حالات المقدس ثم ارسلوني الى رومة المدينة العظمى وتركت اخانا المطران توادورس يدبر الرعية ويهتم بشؤونها ٠

ان في هذا الخط زلة قلم اما من الذي اخذ المثال او من ارميا الذي كتب الخط فسنة ١٥٩٠ يونانية توافق سنة ١٢٧٩ مسيحية وارميا كان قبل هذه السنة بنحو قرن ويكفينا مؤنة بيان هذا الغلط براءة البابا اينوشنسيوس الثالث المنفذة اليه باسمه مؤرخة في سنة ١٢١٥ وقد اجمعوا على انه شهد المجمع اللاتراني الرابع ولا يختلف اثنان في ان هذا المجمع عقد سنة ١٢١٥ وليس بين اسماء بطاركتنا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر اسم ارميا الا ارميا هذا ولذلك روى المطران اسطفان عواد في ترجمته هذه العبارة الى اللاتينية سنة ١٤٩٠ لا سنة ١٥٩٠ وذكر موافقتها لسنة ١١٧٩ لا لسنة ١٢٧٩ وعليه فلما كان ارميا رقي الى درجة الاسقفية سنة ١١٧٩ كما في صحيح الخط وقال انه انتخب بطريركاً بعد اربع سنين كان انتخابه بطريركاً سنة ١١٨٣ اي بعد حصول الوفاق بين الحزبين المختلفين من الموارنة بسنة

واحدة او ببعض اشهر فقط لانه يحتمل ان يكون الوفاق حصل في اخر سنة ١١٨٢ وانتخاب البطريرك كان في اول سنة ١١٨٣ ولما كان راينا هذا مستندًا الى ما خطته يد ارميا قد اعتمدناه مفضلاً على غيره لهذا الاستناد

قال لكويان في المشرق المسيحي قال البطريرك اسطفانس الدويهي في الجدول الذي وضعه لبطاركة الموارنة ان ارميا ارتقى الى البطريركية سنة ١٢٠٩ وكان من عمشيت من عمل جبيل وكان رجلاً فاضلاً بارًا ذا غيرة على الدين القويم اقام بيانوح ودخل رومة العظمى بنفسه وحضر المجمع الذي انعقد بلاتران في ايام البابا اينوشنسيوس الثالث وقال نيرون البالي في مقالته المذكورة صفحة ١٠١ انه عندما صير بطريركاً مضى الى رومة اغراه بذلك امير جبيل وترك المطران توادوروس من كفرفو (بجبة بشري) نائباً له في البطريركية ليلتمس علاجاً للشؤون التي كانت في ايام سالفه وهذا يظهر ايضاً من براءة البابا اينوشنسيوس الثالث حيث يقول انه شهد المجمع اللاتراني ولما بلغ الى رومة خر على قدمي البابا وكلمه متذللاً وساله بركته له ولشعبه فعزاه البابا واجابه الى كل ما ساله وبقي هنالك مسرورًا خمس سنين وستة اشهر وروى ابن القلاعي والبطرك اسطفان الدويهي ان البطريرك ارميا كان يوماً يقدس بحضرة البابا ولما انتهى الى رفع القربان رفعه وبقي معلقاً فوق راسه فعظم البابا قداسته وامر بنقش صورة هذه الآية على جدار الكنيسة قال الدويهي بقيت هذه الصورة الى ايامنا في كنيسة القديس بطرس القديمة وبعد ان فرغ ارميا من مهامه برومة سال البابا ان يرخص له بالعود الى بلاده فخرج من رومة مبتهجاً طيب القلب لان البابا نوله كل سلطان طلبه وارسل معه الكردينال غوليلمس مفوضاً اليه ان ياخذ من شعب لبنان دستور اعترافهم بالايمان وكان خروج ارميا من رومة في ٣ كانون الثاني سنة ١٢١٥ (قال لكويان في حسابنا سنة ١٢١٦ لان المجمع اللاتراني عقد سنة ١٢١٥ وهو سافر في ٣ كانون الاخر) وبلغ الى

اطرابلس في شهر اذار ولما علم المطران توادورس نائبة بخبر قدومه جمع جماً غفيراً من الموارنة ولم يبدوا شمائر سرورهم الا بعد ما بلغهم البطريرك بركة الحبر الروماني وانشأوا صكاً اثبتوا به بايمانهم واختامهم انهم متشبثون بايمان بطرس لا يزيغون عنه وسلموا ذلك الصك الى الكردينال غوليلمس وكان عدد من وقعوا عليه ميثتين وسبعين رجلاً وفي جدول بطاركة الموارنة الذي وضعه البطريرك الدويهي ان ارميا توفي سنة ١٢٣٠ في دير السيدة بميفوق انتهت رواية لكويان

وعندي في وفاة البطريرك ارميا سنة ١٢٣٠ نظر من قبيل انه اذا كان صير بطريركا سنة ١١٨٣ وهذا ثابت بخط ارميا نفسه فيكون استمر بطريركاً سبعاً واربعين سنة وهذا يصعب القطع به ولهذا ارى صيرورته بطريركاً سنة ١١٨٣ اثبت من ان وفاته كانت سنة ١٢٣٠ لان الاول مسنود الى خط يده واما الثاني فلا سند له كهذا ويضاده طول مدة بطريركيته والله اعلم . وقد اتحف البابا اينوشنسيوس البطرك ارميا بتاج وعكاز وغيرهما من الملابس البيعية واخذ قدماؤنا منذ ذلك الحين يقتربون من عادات اللاتينية في الملابس الكهنوتية وغيرها كما حقق السمعاني في المجلد الرابع من مكتبة الناموس

عدد ٨٥٩

في ما نعرفه من اديار الموارنة وكنائسهم الى اخر القرن الثاني عشر

لانقصد ان نتكلم عن اديار الموارنة وكنائسهم القديمة مستندين الى قدمها بهيئة بنائها فهذا يستلزم معاينتها ولا حظ لنا في ذلك ويقتضي علم الاثار القديمة ولا مخبرة لنا فيه فكلامنا مقصور على ما ورد له منها ذكر في التواريخ

فاول اديار الموارنة الدير الذي بناه اهل حماة على ضريح القديس مارون بين حماه وحمص على العاصي وسمي دير البلور لحسن بنائه وكثرة الرهبان فيه حتى كان به ثمانمائة راهب وكان اول الاديرة في سورية الثانية كما يظهر من توقيع رئيسه على

العريضة التي رفعت الى البابا هرمزدا وعلى غيرها من العرائض المعلقة في ذيل اعمال المجمع الخامس وقد دك هذا الدير الملك انسطاس وقتل من رهبانه ثلثماية وخمسين راهباً لسبب مدافعتهم عن رسوم المجمع الخلكيدوني المقدس ثم جدد بناه الملك يوستنيانس الاول كما شهد بروكوب القيصري (في كته في ابنية يوستنيانس فصل ٩) وعاد مزهراً برهبانه الى ان نقضته عساكر يوستنيانس الثاني الاخرم سنة ٦٩٤ وقتلوا من رهبانه خمس مابة راهب (طالع ما ذكرناه في تاريخ الموارنة في القرون الخامس والسادس والسابع)

والدير الثاني القديم للموارنة هو الدير الذي انشأه القديس يوحنا مارون بطريركنا الاول على اسم القديس مارون في شرقي كفرحي من عمل البترون ونقل اليه هامة القديس مارون وكرس كنيسته في الخامس من كانون الثاني وامر ان يعيد للقديس مارون في ذلك اليوم واستمر الموارنة يعيدون له فيه قروناً وقد عاد البطريرك دانيال الشاماتي الى السكنى بهذا الدير في القرن الثالث عشر

والثالث دير السيدة العذراء في يانوح انشأه جبرائيل الثالث من بطاركة طائفتنا او خليفته يوحنا الثاني المعروف بمارون ايضاً واقام هناك بطاركتنا الى سنة ١١٢٠ ثم سكنوا في دير ميفوق ودير لحفد ودير هابيل الآتي ذكرها ثم عادوا الى دير يانوح حيث اقام ارميا العمشيتي والبابا اينوشنسيوس الثالث يسمي كنيسة السيدة في يانوح كنيسة البطريركية في براءته الى البطريرك ارميا المذكور ثم تركوا هذا الدير مدة وعادوا اليه فسكنه البطريرك شمعون الموجهة اليه رسالة البابا اسكندر الرابع مؤرخة في اول شباط سنة ١٢٥٦ وفيها ذكر الكنيسة البطريركية في يانوح

والرابع دير السيدة بميفوق وقد جاء في مجمعنا اللبناني (صفحة ٤٣١ من الطبعة الحديثة) انه استقر في هذا الدير البطريرك بطرس خليفة البطريرك يوسف الجرجي

وغريغوريوس الحالاتي ويعقوب الراماتي وقد ذكرنا في العدد السابق خطين مؤذنين باقامة البطريرك بطرس المذكور في هذا الدير سنة ١١٢١ وفي الدير المذكور الى الان آثار دالة على ذلك منها خط منبىء بتجديد الدير المذكور ومشير الى بنائه القديم وهو ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܐܡܝܢܐ ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܫܒܥܡܐܐ. ܘܐܪܒܥܝܢ ܘܫܬ ܐܬܚܕܬ ܒܢܝܢܗ ܕܗܢܐ ܗܝܟܠܐ ܡܢ ܬܪ̈ܝܢ ܐܚ̈ܐ ܟܗ̈ܢܐ ܐܡܘܢ ܘܡܝܢܥ ܘܗܘܐ ܒܢܝܢܗ ܡܢ ܐܪ̈ܒܥܐ ܦܛܪ̈ܝܪܟܐ ܦܛܪܘܣ ܘܐܪܡܝܐ ܘܝܥܩܘܒ ܘܝܘܚܢܢ ܒܫܢܬ ܐܠܦܐ . اي بسم الله الحي الدائم في سنة ١٧٤٦ جدد بناء هذا الهيكل اخوان كاهنان امون ومينع وكان قد انشأه اربعة بطاركة بطرس وارميا ويعقوب ويوحنا سنة ١١٢١. وهناك خط اخر ذكره البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخه (صفحة ١١٣) ولم يزل موجودًا وهو ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܠܥܠܡ ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܚܡܫܡܐܐ ܘܬܡܢܝܢ ܘܬܡܢܐ ܕܝܘ̈ܢܝܐ ܫܠܡ ܠܫܘܠܡܐ ܗܢܐ ܗܝܟܠܐ ܥܠ ܫܡ ܝܠܕܬ ܐܠܗܐ ܨܠܘܬܗ ܥܡܢ ܥܠ ܐܝ̈ܕܝ ܐܢ̈ܫܐ ܚܛܝ̈ܐ ܕܘܝܕ ܩܫܝܫܐ ܘܡܪܩܘܣ ܘܝܘܚܢܢ . اي بسم الله الحي الابدي في سنة ١٥٨٨ من سني اليونان (وهي سنة ١٢٧٧ م) كمل بناء هذا الهيكل على اسم والدة الله صلاتها معنا على يد اناس خطاة داود القس ومرقس ويوحنا . وفي وسط هذا الخط صليب كتب حوله بك نقهر اعداءنا وباسمك نذل مبغضينا والذي رواه الدويهي من هذا الخط نرى فيه كلمة ܡܫܘܡܠܐ بدلاً من كلمة ܠܫܘܠܡܐ اي كمل هذا الهيكل المنسوب الى يعقوب احد البطاركة وهو الثالث من البطاركة الاربعة المذكورين بالخط الاول وقد ترك بطاركتنا السكنى بهذا الدير ثم عادوا اليه فاستقر به البطاركة يعقوب ودانيال الحدشيتي ولوقا البنهراني وشمعون ويوحنا وجبرائيل من حجولا الذي توفي شهيدًا سنة ١٢٦٧

والخامس دير القديس الياس في لحفد من عمل جبيل استقر فيه البطريرك

يوحنا اللحفدي خليفة البطريرك يعقوب الراماتي وقد مر في كلامنا على البطريرك يوحنا المذكور انه كان في لحفد اربعة اديار اخرى : دير القديس حوشب ودير لقديس سمعان ودير القديس اليشاع ودير السيدة العذراء اقام بها اربعة اساقفة على ما في الرواية المذكورة

والسادس دير السيدة العذراء في هابيل انشأه البطريرك يوحنا اللحفدي بعد ان انتقل من لحفد الى هابيل في اواسط القرن الثاني عشر

والسابع دير القديس انطونيوس المعروف بدير قزحيا ويظهر ان هذا الدير قديم جدًا لانه جاء في براءة البابا اينوشنسيوس الثالث الى البطريرك ارميا في سنة ١٢١٥ ذكر دير قزحيا بمنزلة اول كرسي لاساقفة الموارنة لانه عند تعداده كراسي الاساقفة الخاضعين لبطريركيته ذكر دير قزحيا اولاً وكان بعض علمائنا لترجمتهم كلام هذا البابا عن اللغات الاجنبية تصحف عليهم قزحيا بمار اسيا وتابعناهم على ذلك عند ذكرنا كلام هذا البابا في بعض كتبنا الى ان راينا العلامة السمعاني يسميه في كتاب المجمع اللبناني باللاتينية **hassaya** فانتبهنا الى ان المراد قزحيا

وقد علق البطريرك بطرس وهو يوحنا اللحفدي على كتاب الاناجيل القديم الخط الذي ذكرناه في كلامنا في العدد السالف على هذا البطريرك منبئًا بانه حضر اليه سنة ١١٥٤ الراهب اشعيا من دير قزحيا ورأسه على دير الكوزبند في قبرس

الثامن دير القديس يوحنا في كوزبند بقبرس فهذا الدير قد جاء ذكره في عدة خطوط منها خط الراهب سمعان المعلق على الكتاب السابع من الكتب التي نقلها السمعاني من المشرق الى المكتبة الواتيكانية مبيناً فيه ان البطريرك بطرس الذي كان سنة ١١٢١ جعله رئيساً وناظرًا على دير القديس يوحنا في كوزبند وقد ذكرنا هذا الخط بحروفه عند كلامنا على البطريرك المذكور ومنها الخط الذي علقه البطريرك يعقوب الراماتي على احد كتب السروجي وفحواه انه قد رأس دانيال راهب

دير كفتون على دير القديس يوحنا بكوزبند سنة ١١٤١ وقد ذكرنا هذا الخط ايضاً بحروفه في كلامنا على البطريرك المذكور ومنها الخط الذي ذكرناه آنفاً المؤذن بتسمية البطريرك يوحنا اللحفدي اشعيا راهب دير قزحيا رئيساً على دير كوزبند

ومنها خط في القرن الثالث عشر علقه البطريرك يوحنا الجاجي على كتاب الاناجيل المذكور بالسريانية وهذه ترجمته « لما كانت سنة ١٥٥٠ يونانية (توافق سنة ١٢٣٩ م) انا بطرس بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الانطاكي والمسمى يوحنا من قرية جاج والساكن بالدير المبارك دير السيدة مريم بيفوق اتى اليَّ من دير الكوزبند القس المسمى متى وهو كاهن تقي بتول واخذ مني ثلث مئة دينار وحقاً للميرون للدير المذكور واخذ معه كتاب التوراة لموسى بالعربية وكتاب الناموس وكتاب الايمان ولله المجد امين »

التاسع دير كفتون وقد جاء ذكره في ما خطته يد البطريرك ارميا العمشيتي على كتاب الاناجيل المذكور مرارًا قال ان البطريرك بطرس رفاه الى الاسقفية على هذا الدير وان رهبانه حينئذٍ كانوا اثنين وثلاثين راهباً وفي الخط الذي علقه البطريرك يعقوب الراماتي المؤذن بانه راس دانيال راهب دير كفتون على دير كوزبند وهذا الدير الذي كان للموارنة انتقل في ما بعد الى يد الروم الملكيين غير الكاثوليكيين كما سوف نرى

العاشر دير القديس سرجيوس او سركيس في حردين قد استدللنا على قدم هذا الدير بخطوط علقت على كتاب الاناجيل وهو الثاني من الكتب السريانية التي ذكرها اسطفان عواد في كتابه فهرست المكتبة المادينية وقال انه كتب قبل القرن التاسع وانه كان يخص قديماً اقليمس رئيس الكهنة ثم انتقل الى وارثيه اولاده برصوما وسليمان وفيلبس وهولاء وقفوه على دير القديس سرجيوس في حردين من ابرشية طرابلس ثم انتقل الى دير القديسة مريم في يانوح ثم الى دير

القديسة مريم بقنوبين كما يظهر من الخطوط المعلقة عليه فقد كتب عليه في الصفحة الاولى ما ترجمته « بقوة الله الحي القدوس انا عبد المسيح ارميا البطريرك وقفت هذا الكتاب وما تركه داود ويوسف لديري وقفاً موبداً وكل من اخذه منه كان ملعوناً من الله ومن كهنته » فيظهر ان داود ويوسف المذكورين كانا من الاقارب الادنين لارميا واوصيا عند احتضارهما بهذا الكتاب وما يملكان من حقول وكروم وغيرهما فوقفها على ديره وقد كتب على هذا الكتاب ايضاً بخط البطريرك ارميا في الصفحة المذكورة « قد استراحت وانتقلت من هذه الحياة عالم الشرور الى العالم الاخر المفعم بالسرور الراهبة المحصنة ابنة داود يوم الجمعة في السادس من تشرين الثاني سنة ١٥١١ لاسكندر (توافق سنة ١١٩٩) ويتبين من هذا الخط ايضاً ان ارميا صير بطريركاً سنة ١١٨٣ كما روينا سنداً الى خطه الاخر لا سنة ١٢٠٩ كما روى غيرنا وجاء بعد ذلك « قد استراحت الراهبة ساره بعد عشرة أشهر من تحصنها يوم الاحد في الثامن من آب فلتكون اهلاً للذكر الصالح لانها تعبت كثيراً في دير القديس سركيس مع باقي الراهبات اولاهن الله السلام والراحة مع العذارى الحكيمات » وقال المطران اسطفان عواد بعد ايراد هذا الخط انه كان بالقرب من حردين ديران قديمان جداً حذاء كنيسة القديس سركيس احدهما كان مدة كرسياً بطريركياً ومقاماً لرهبان كثيرين من الموارنة والثاني ديراً للراهبات وبقي الديران الى سنة ١٤٥٠ وبعدئذٍ ترك الرهبان والراهبات الديرين لتوالي صروف الدهر ولم يبق الى الآن الا اطلال كنيسة القديس سركيس وقال انه كان قديماً عند الموارنة والنساطرة واليعاقبه عدا راهبات الاديرة راهبات محصنات او حبيسات فهولاء بعد ان يعشن في الدير ثلث سنوات ينقطعن في صومعة قريبة من الدير متحجبات عن معاشرة الناس والخطان المذكوران بينا انه كان عند الموارنة في ذلك العصر مثل هولاء الحبيسات قلت ومثل هولاء كورا

ومارانا راهبات القديس مارون المار ذكرها

وجاء في الكتاب المذكور ايضاً صفحة ٩٨ بسم الله الحي قد وقفت اشمونة ابنة الياس على دير القديس سركيس الكرم الذي لها عند العين ليخولها الله خلاص نفسها وصحة جسدها وكان هذا الوقف سنة ١٥٠٩ يونانية (توافق سنة ١١٩٨ م) يوم عيد القديس سركيس ونشهد بذلك نحن الكهنة تادي وجيورجيوس وبولس»

الحادي عشر كنيسة القديسين نهرا وباسيليوس في صماد جبيل قال المطران اسطفان عواد السمعاني في كتابه المذكور ان كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا التي تسميها العامة ماري نوهرا والتي يكرمها من اقدم الايام الموارنة بل الاراطقة والمشاقون وغير المؤمنين ايضاً وهي في ابرشية جبيل (تحسب الان من عمل البترون) حذا القلعة الحصينة التي بناها حكام طرابلس من اللاتينيين في القرن الثاني عشر للذب عن هذه الناحية من غارات المسلمين واطلالها الباقية الى الان دالة على عظمتها وقد اعتاد المؤمنون بل غير المؤمنين ايضاً ان يقدموا البخور والشموع وغيرها من التقادم لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا القائمة بجانب هذه القلعة توسلاً بشفاعة هذين القديسين وذكر من الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل الثاني المذكور خطاً علق على الصفحة الاولى منه بالسريانية هذه ترجمته «بسم علة كل مخلوق في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩ م) اقتسم بنو الخوري اقليمس خدمة كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا بينهم مشاهرة فاصاب برصوما كانون وكانون وحزيران وتموز واصاب اخويه سليمان وفيلبس الثمانية الاشهر الباقية» وخطاً اخر علق على صفحة ٤ بالسريانية وهذه ترجمته «بسم الله الحي في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩ م) قد وقف الشماس يوسف لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا جميع متروكات امراته المتوفاة» وخطاً علق على صفحة ٩ بالعربية الا البسملة وهذا هو ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ (بسم الله الحي) في سنة الف وسبعماية كذا كتبت ولكن

ترجمها المطران اسطفان المذكور سنة ١٥٦٥ لانه وفقها الى سنة ١٢٤٥ م) وخمسة وستين يونانية سليمان ابن توما من حردو (لعلها حردين) اوهب لكنيسة مار باسيليوس ومار نهرا حقلتين زيتون بقرب قرية بشري عن نفسه ونفس اخوه من يستخلصها يكون حظه مع يوداس الاسخريوطي ، فهذه الخطوط مؤرخة في القرن الثالث عشر لكنها مشعرة بان هذه الكنيسة اقدم من ذلك العصر . الثاني عشر كنيسة القديس ادنه في العاقورة فقد ورد مرات ذكر المطران ارسانيوس اسقف العاقورة الجالس في دير القديس ادنه في العاقورة واطلال هذه الكنيسة ما زالت في العاقورة وتعرف بهذا الاسم الان وجاء في تاريخ سنة ١٢١١ من تاريخ البطريرك اسطفانس الدويهي . في هذا الزمان اخذ ابناء ملتنا بلبنان يقرعون نواقيس من نحاس بدل الخشب للصلاة والقداس وفاضت نعم الله بين ايديهم فانشأوا كنائس واديارًا ومدارس يقصدها الناس لخدمة الله وخلاص نفوسهم وكان للخوري باسيل من بشري ثلث بنات اسماهن تقلا وصالومي ومريم نذرنَ لله عذرتهن وانفقن جميع ما يملكنَ في بناء الكنائس وتجهيزها فبنت تقلا في هذه السنة كنيسة القديس جيورجيوس والقديس دومط في بقرقاشا وكنيستين للقديس لاوي الرسول والقديس سرجيوس الشهيد في بشنين بالزاوية . وفي سنة ١١١٣ رقدت بالرب وبنت اختها مريم كنيسة القديس سابا في بشري واختها صالومي كنيسة القديس دانيال في الحدث .

واما دير قنوبين فهو اقدم من هذه الكنائس اذ يقال ان الملك توادوسيوس امر بينائه وفي رواية ان توادوسيوس الذي بناه ليس هو الملك بل سائح يسمى توادوسيوس نسك في المغارة التي هناك وبنى شيئاً حولها وسوف نتكلم عليه في ما بعد عند ما نذكر نقل الكرسي البطريركي اليه في اواسط القرن الخامس عشر ان قدرنا الله على ايصال تاريخنا الى ذلك القرن

﴿ عـدد ٨٦٠ ﴾

﴿في تفنيد زعم غوليلمس الصوري ان الموارنة ارعووا عن الضلال سنة ١١٨٢﴾

روى غوليلمس اسقف صور اللاتيني في كتابه ٢٢ في الحرب فصل ٨ ما ترجمته « لما استراحت المملكة (مملكة اورشليم) من حرب صلاح الدين سرت سرورًا موقوتًا في ان ملة من السريان تسكن في عمل من فونيقي في سفح لبنان قريب من جبيل طرأ عليها تغير مهم لانهم بعد ان كانوا اتبعوا مدة خمسماية سنة ضلال مارون المبتدع وتسموا موارنة نسبة اليه وكانوا يتمون اسرارهم منفصلين عن جماعة المؤمنين استفاقوا بالهام الله وهبوا من تقاعدهم وهلعوا الى ايميريكس بطريرك انطاكية اللاتيني وهو الثالث من البطاركة اللاتين الذين تراسوا هذه الكنيسة وارعووا عن الضلال الذي كانوا متسكمين به ورجعوا الى وحدة الكنيسة الكاثوليكية واعتنقوا الايمان القويم وحافظوا على تقليدات الكنيسة الرومانية بكل احترام واجلال ولم يكن عدد هذا الشعب يسيرًا بل كان يقال انهم يجاوزون الاربعين الفًا منتشرين في اسقفيات جبيل والبترون وطرابلس وسفح لبنان وهذا الجبل كما مر وكانوا رجالًا اشداء مدربين بالحروب وكانوا نافعين لنا جدًا في مهامنا الخطيرة وفي اغاراتهم المتواترة على الاعداء ولهذا سرّ قومنا كل السرور برجوعهم الى الايمان القويم واما ضلال مارون وتباعه فهو انه كان في ربنا يسوع المسيح مشيئة واحدة وفعل واحد كما يظهر من المجمع السادس انه عقد لنبذ ضلالهم والذي حكم عليهم بالحرم وزادوا على هذا المعتقد المرذول من الكنيسة الارثوذكسية اشياء اخرى مضرة بعد ان انفصلوا من جماعة المؤمنين ولما ندموا على هذه الاشياء جميعها كما قدمنا ارعووا الى الكنيسة الكاثوليكية مع بطريركهم وبعض اساقفتهم الذين كما تقدموهم بالضلال تقدموهم بالعود التقوي الى الاقرار بالحقيقة » انتهى مترجمًا بكل دقة عما رواه بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٢ بحروفه اللاتينية من كلام غوليلمس الصوري

ان كلام غوليلمس هذا يتضمن امرين الاول اخباره عن تسكع الموارنة خمس مئة سنة في الضلال تبعاً لمارون المبتدع وانعقاد المجمع السادس لنبذ ضلالهم وحرمه لهم. والثاني خبره عن ارتجاعهم على يد ايميريكس بطريرك انطاكية فالاول كاذب بجملته والثاني صادق في بعض الموارنة لا كلهم وهاك البيان الاول ان غوليلمس يقول ان المجمع السادس عقد ضد الموارنة (كما هي حرفية العبارة) وانه حرمهم فتراهن كل من شاء على ان يبين لنا كلمة او اشارة في النص اليوناني لهذا المجمع او في ترجمته اللاتينية القديمة تشعر بان هذا المجمع عقد ضد الموارنة او بانه حرمهم فان اتانا سلمنا طائعين بكلما يتهمنا به خصومنا من هذا القبيل وان استحال عليه ان يجد مثل هذه الكلمة او الاشارة فلينكف عن ثلبنا ويوقن بان غوليلمس اغتر باعتماده على تاريخ سعيد بن البطريق الذي جعل البابا انوريوس والملك هرقل وسرجيوس وبيروس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية وقورش بطريرك اسكندرية جميعاً موارنة وهو امر مضحك يسخر منه كل عالم وانكره على ابن البطريق كل محقق حتى بوكوك اول من ترجم تاريخه وسلدانس الذي طبعه

ان زعم غوليلمس ان الموارنة اتبعوا ضلال مارون المبتدع وتمسكوا به خمس مئة سنة لا اس له الا خرافة سعيد بن البطريق وقد ذكرناها مرارًا ولا بد الان من مراجعة خلاصتها « كان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون كان يقول ان في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحدًا ولما مات بنى له سكان حماه ديرًا واتبعوا اعتقاده سموا وموارنة » وقد اقر غوليلمس نفسه انه اعتمد على شهادة سعيد بن البطريق اذ صرح في مقدمة كتاب تاريخه ان اموري ملك اورشليم دفع اليه بعض كتب عربية في جملتها تاريخ سعيد المذكور واقترح عليه كتب تاريخ فاعتمد خاصة على تاريخ الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري وقد اشار الى ذلك البابا باديكتس الرابع عشر في منشوره الاتي ذكره بقوله « ان

شهادة غوليلمس ليست بكافية لتأييد الراي المضاد للموارنة ولربما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله ولذلك عزاه الى المجلد الثاني من تاريخ سعيد الاسكندري . واما كون حكاية سعيد هذه هي التي اعتمد عليها غوليلمس من الترهات البسابس فقد اجاد بيانه العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره في اثبات قداسة القديس مارون الذي اثبتنا ترجمته في عدد ١٧١ حيث اورد هذا البابا الجهبذ ادلة على ذلك يستحيل نقضها منها ان القديس مارون كان في اخر القرن الرابع واول القرن الخامس وبدعة المشيئة الواحدة لم تظهر الا في القرن السابع فبينه وبين ظهورها قرنان فمن المحال ان يكون مارون ابتدعها ومنها ان دير القديس مارون الذي روى ابن البطريق ان سكان حماه بنوه على اسمه كان قبل ظهور هذه البدعة بقرنين ايضاً اذ كان ديراً مشهوراً برهبانه الافاضل من القرنين الخامس والسادس كما يظهر من رسائلهم الى البابا هرمزدا وغيره المعلقة في ذيل المجمع الخامس ولما دك هذا الدير انسطاس الملك جدد بناه الملك يوستنيانس الاول الذي توفي سنة ٥٦٥ كما حقق بروكوبيوس القيصري في الكتاب الخامس في ابنية يوستنيانس وهذا المؤرخ كان من رجال دولة يوستنيانس المذكور وعليه فمن شاء ان يكابر مدعياً صحة شهادة غوليلمس المؤسسة على شهادة ابن البطريق فليرد ولو هذين الدليلين اللذين اوردهما البابا بناديكتس او يثبت ان غوليلمس اعتمد على غير سعيد في زعمه هذا عن الموارنة فنسلم طائعين

بقي ان يقال ان مارون الذى ذكره ابن البطريق وانتحل غوليلمس قوله ليس مارون الرئيس بل يوحنا مارون البطريرك الذى كان في القرن السابع . فنجيب ان هذا الزعم ايضاً باطل بل محال لان يوحنا مارون لم يكن في ايام موريق ولا بنى اهل حماه على اسمه ديراً كما قال ابن البطريق بل صير اسقفاً على البترون سنة ٦٧٥ او سنة ٦٧٦ وبطريركاً سنة ٦٨٥ وتوفي سنة ٧٠٧ فاشتهر في عصر الملك قسطنطين اللحياني ويوستنيانس الثاني الاخرم لا في عصر موريق الذى كان في اخر القرن

السادس وقد صرح البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤ ان الموارنة انما انتخبوا بطريركاً خاصاً عليهم وهو يوحنا مارون ليقوا نفوسهم من بدعة المشيئة الواحدة فما الذي بقي من القوة لزعم غوليلمس او غيره من خصومنا ان يوحنا مارون ابتدع هذه البدعة فضلاً عن الاجماع على ان يوحنا مارون توفي سنة ٧٠٧ وان ظهور بدعة المشيئة الواحدة كان سنة ٦٢٨ فلو فرضنا انه عاش ثمانين سنة لكان مولده سنة ٦٢٧ فكيف يبتدع بدعة وعمره سنة او سنتان وان قيل اتبع هذه البدعة بعداً فلمَ لا نجد اسمه بين من حرمهم المجمع السادس وغوليلمس يزعم ان المجمع السادس عقد ضد الموارنة وحرمهم ولا يستطيع هو او غيره ايّاً كان ان يحجنا بكلمة او اشارة من النص اليوناني لهذا المجمع او من ترجمته اللاتينية يتبين بها اسم مارون او الموارنة مع ان هذا المجمع عدد اسماء كل منشئي هذه البدعة ومن شايعهم عليها فلمَ صمت عن مارون او يوحنا مارون او الموارنة

ان كلما اوردناه في المجلد الخامس لاثبات براءة المارونيين والموارنة من هذه البدعة من شهادات الاحبار الاعظمين وكرادلة الكنيسة الرومانية وقصادها والعلماء المحققين والادلة القاطعة على ثبوت الموارنة في الايمان الكاثوليكي منذ ظهور هذه البدعة الى سنة ١١٨٢ كل ذلك يصلح ان يكون برهاناً قاطعاً على بطلان زعم غوليلمس ان الموارنة تشبثوا ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة وارعووا عنها سنة ١١٨٢

وقد فند هذه التهمة كثيرون من العلماء الغربيين والشرقيين وزيفها من علمائنا كثيرون نخص بالذكر منهم البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخه وفي كتابه ردّ التهم والعلامة السمعاني في مواضع كثيرة من المكتبة الشرقية ومن مكتبة الناموس وغيرهما من كتبه والمطران اسطفانس عواد السمعاني في محاماته

عن القديس يوحنا مارون وفي كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية والبطريرك يوسف اسطفان في محاماته عن قداسة القديس يوحنا مارون والخوري انطون القيالة في رده رسالة القس يوحنا عجيمه والبطريرك بولس مسعد في كتابه الدر المظوم وانا احقر هؤلاء العلماء الذي لا استحق ان اذكر في عديدهم في كتابي روح الردود وفي كتيب رفعته في السنة السالفة الى علماء مجتمع الآثار القديمة الذي التأم برومة سنة ١٩٠٠ وساذكر شهادة بعض مشاهير المؤرخين اللاتينيين

واما القسم الثاني من شهادة غوليلمس الصوري وهو ما رواه عن ارتداد الموارنة على يد ايميريكوس بطريرك انطاكية اللاتيني فلا نجحد صدقه على فريق من الموارنة فقد رايت ما ذكرناه في الكلام على بطاركة طائفتنا في هذا القرن عدد ٨٥٨ عن انخداع فريق من الموارنة لمقالة توما اسقف كفرطاب وبث بعد وفاته ابن شعبان وابن حسان ضلاله بين الموارنة حتى اطغوا سكان بعض القرى منهم اهل كفرياشيت وجنح البطريرك نفسه الى ضلالهم فنهض لمقاومته باقي رؤساء الملة واعيانها والسواد الاعظم من شعبها وحملتهم الحمية والغيرة الدينية على حطه عن مقامه واقامة بطريرك اخر صحيح المعتقد فلم يكن من الاغرار المغوين بالضلال الا انهم جسروا على قتل البطريرك الحديث فعظم الامر على الاكثرين المتشبثين بالايمان القويم وعزموا ان يهلكوا اولئك الشاذين عن اخرهم فتدارك امرهم ايميريكس بطريرك انطاكيه اللاتيني وارشد اوليك الضالين فارتدوا الى محجة الدين القويم وصالحهم مع اخوانهم وادخلهم في طاعة روسائهم فانتخبوا متفقين بطريركاً عوضاً عن البطريرك المقتول وكل منصف يرى ان التهمة بالضلال والارتداد عنه لا تصدق في هذا الحادث الا على ذلك الفريق القليل ولا تمس شان الطائفة بجملتها ولا يصدق عليها اتباع الضلال والرجوع عنه لجنوح بطريرك الى ضلال وقتل بعض الاغرار المتحمسين للضلال بطريركاً من الكبائر الفظيعة لكنها من الاعمال الفردية

المتصير دعلى فاعليها ولا تتعدى الى الملة كلها ونهوض باقي رؤسائها واعيانها وشعبها
على البطريرك المنتر وحطه عن مقامه بينة دامغة على براءة ساحة الملة بجملتها من
شائبة الضلال بل دليل قاطع على تشبثهم المتين بعروة الايمان القويم ونجتزي بان ٨
نورد اثباتاً لكل ما جئنا به في هذا الفصل شهادات باجيوس ولكويان وهما من كبار
المؤرخين المدققين فالعلامة باجيوس انتقد تاريخ الكردينال بارونيوس امام المؤرخين ٦
ونقحه سنة فسنة ولما كان بارونيوس ذكر رواية غوليلمس عن ارتداد الموارنة في
تاريخ سنة ١١٨٢ الحق باجيوس بكلامه انتقادًا وتنقيحاً هذا ملخصه « عدد ١٠
غلط غوليلمس الصوري في كل ما رواه عن ارتداد الموارنة ابنا في عدد ٤ كم انخدع
غوليلمس الصوري وما اشد بغضه للفرسان الاورشليميين اذ كتب انهم كانوا قبلا
ينتمون الى حماية القديس يوحنا الرحوم ولما ازداد مالهم استبدلوه بالقديس يوحنا
المعمدان ونبين هنا كم اخطأ بنسبته بدعة المشيئة الواحدة الى ملة الموارنة بجملتها وقد
ذكر بارونيوس كلامه بجملته فاكتفي انا بايراد ملخصه » ولخصه الى ان قال «
عد ١١ ان غوليلمس الصوري اعتمد على حكايات كاذبة لا شك في ان الصوري
انتحل في كتابة تاريخه اشياء كثيرة من تواريخ سعيد البطريرك الاسكندري وهذا
لم يكن مدققاً في تواريخه بل ادخل بها حكايات كثيرة وروى امورًا تخالف راي
الموافين وهي عن الصدق بمراحل وقد صرح غوليلمس نفسه في مقدمة كتابه «
بان اموري ملك اورشليم دفع اليَّ كتباً عربية فكتبت تاريخاً اخر يبتدئ من ظهور
الاسلام الى هذه السنة التي هي سنة ١١٨٤ للميلاد فينطوي على تاريخ خمس مئة
وسبعين سنة وقد تبعت خاصةً الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريرك
الاسكندري » ... فتاريخ الصوري هذا لم يصل الينا وما بقي منه في تاريخ الحرب
المقدسة قال هو فيه « لم يكن لديَّ في هذا القسم ما يرشدني اليه من الكتب
اليونانية او العربية فاعتمدت فيه على التقليدات وحدها الاَّ شيئاً يسيرًا كنت فيه

شاهدًا عيانيًا ونظمت سلسلة اخباره » على ان المقيدات التي اتبعها كانت غالبًا غير صحيحة ومما لا ريب فيه انه اعتمد في اكثرها على حكايات سعيد المذكور عن اصله العربي فقال « كان في ايام موريق ملك الروم راهب اسمه مارون » الى اخر كلامه المعروف الذي رواه باجيوس هنا الى ان قال « عدد ١٢ ان تاريخ سعيد مشحون بالاقاصيص لان بدعة المشيئة الواحدة لم تظهر في ايام موريق هذا ولا في عصر فوقا خليفته بل في ايام هرقل وهذا يعلمه جميعهم والدير الذي ذكره سعيد لم يكن بعد وفاة مارون هذا (اي يوحنا مارون) بل كان قبله بنحو مائتي سنة وكان مكرسًا على اسم القديس مارون الرئيس وقد استدل نيرون على هذا بشهادة بروكوبيوس القيصري في الكتاب الخامس من ابنية يوستنيانس حيث قال « جدد واصلح فندق الفقراء على اسم القديس رومانس ودير القديس مارون فوق حماه » ومما لا يمترى فيه ان . يوستنيانس توفي سنة ٥٦٥ وموريق تسنم منصة الملك سنة ٥٨٣ وتوفي سنة ٦٠٢ فتجديد بناء الدير في ايام يوستنيانس يستلزم ان يكون حينئذٍ قديمًا جدًا وتؤيد ذلك اعمال المجمع الخامس المسكوني الذي عقد سنة ٥٤٢ في عصر يوستنيانس المذكور لانه شهد هذا المجمع قصاد دير القديس مارون الذي كان طائر الشهرة وكان اول جميع اديار سورية الثانية ورئيسها وهذا بيّنٌ ايضًا من توقيع سفراء هذا الدير على اعمال المجمع المذكور ، وقد اتى ان مارون هذا » اي يوحنا مارون « كان راهبًا في الدير المذكور نفسه وكان اسمه يوحنا فزاد عليه مارون آخذًا اياه من اسم دير القديس مارون الرئيس وقد استوفينا رد هذه الحكاية باسهاب في تاريخ سنة ٦٣٥ » (نكتفي برده هنا عن رده في تاريخ السنة المذكور لئلاّ يملّ القارى)

« عدد ١٣ ان بعض الموارنة زاغوا عن الايمان » بقي لنا هنا ان نفند ما رواه بارونيوس عن الصوري من ان ملة الموارنة بجملتها ارتدت الى الايمان الكاثوليكي

فلا ريب في ان بدعة المشيئة الواحدة انسربت في جبل لبنان واتصل السم الى البطريرك نفسه كما روينا في تاريخ سنة ١١٠٩ وكان انسرابها في نحو اوائل هذا القرن بواسطة توما الحاراني اسقف كفرطاب كما قلنا في المحل المذكور

عدد ١٤ وفي هذه السنة ١١٨٢ اوقع ايميريكس البطاربرك الانطاكي الصلح في كنيسة الموارنة ان الموارنة بعد ذلك وبعد ما ذكرناه في تاريخ سنة ١١٠٩ انتخبوا بطريركاً كاثوليكيا فقتله الشاذون عن الايمان وتوافرت الانقسامات والقلق بين الموارنة على انتخاب بطريرك اخر كما روى نيرون فتسارع ايميريكس بطريرك انطاكية اللاتيني وخمد جذوة حنقهم ورد من اوجدوا الشقاق او اتبعوه الى الطاعة وحلهم بسلطان الحبر الروماني من الحرم الذي حلّ بهم لاقترافهم الجريمة الكبرى بقتل البطريرك واجتمعت كلمة الموارنة على انتخاب بطريرك حديث مشهور باستمساكه بالايمان القويم ، وايد باجيوس كلامه بما جاء في مقالة نيرون من انقياد الموارنة بواسطة ايميريكس وطلبه الحل لهم من الكرسي الرسولي وانتخابهم بطريركاً سكن في دير العذراء القديسة في هابيل وحفظ كل ما في الانجيل وكان ضليعاً في تفسير الاسفار المقدسة والف ميامر كثيرة في الايمان ولم ينبذ ايمان مارون بل ثبت وتأيد الى ان قال ، ومن ذلك ينتج نتجاً واضحاً ان الصوري لما علم ان الموارنة الذين اتبعوا شقاق توما الكفرطابي جحدوا ضلاله على يد ايميريكس واقروا بالايمان الروماني هم والبطريرك بعد وقوع الصلح ظن ان الموارنة جميعاً كانوا متلوثين ببدعة المشيئة الواحدة فنسب الى كل الملة ما لا يصدق الا على فريق يسير منها ولا اهمية له فيها وقد زاغ مدة فقط الا ان نقول ان الصوري انخدع باخبار احد من الذين ارتبكوا بشقاق توما الكفرطابي ولكن لا معذرة البتة للصوري بزعمه ان المجمع السادس عقد ضد الموارنة وانه حرمهم اذ لا كلمة واحدة في اعمال هذا المجمع تشير الى ذلك

عدد ١٥ قد اخطاء الصوري بنسبته الى الملة جمعاء الضلال فكيف حق له ان يقول ان الموارنة تمسكوا ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة واسقفهم داود الذي كان سنة ١٣٧٠ لاسكندر وهي سنة ١٠٥٩ الف كتاباً جمع فيه قوانين الكنائس الشرقية كما يظهر من رسالة الانبا يوسف اليه في طلب هذا الكتاب وقد اثبت الاسقف داود في الفصل الاول منه ان الموارنة يعترفون بمشيئتين في المسيح اذ قال « ان الروم يتفقون مع الموارنة بالاقرار بالمشيئتين والموارنة يعترفون بالمشيئتين تبعاً للطبيعتين الالهية والبشرية » فكيف يزعم الصوري انهم كانوا ملوثين ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة ولم يرعووا عنها الا سنة ١١٨٢ اجل ان بعض الموارنة سافر الى قبرص حين انقسامهم واطغى كثيرين ولكن لا ينتج من هذا الا ان كثيرين من الموارنة كانوا ضالين عن الايمان الصحيح على ان هذا لا يوجب الضلال على الامة جمعاء كما ان كثيرين من الافرنسيين والجرمانيين تلوثوا بضلال كلوينوس ولا ينتج من ذلك ان الامتين ليستا كاثوليكيتين وقد ندد بعضهم بالموارنة لانه وجد في كتبهم ما يدل على بدعة ولا سيما بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة لكن هذا ادخله مكر اليعاقبة على كتب الموارنة لانه لما كانت الملتان تستعملان اللغة السريانية في صلواتهما فعني اليعاقبة بان يدخلوا ضلالهم في كتب الموارنة محرفين لها او زائدين عليها وهذا ظاهر مما كتبه بطرس بطريرك الموارنة الى الكردينال انطونيوس كارافا في ٢٥ آب سنة ١٥٨٣ ورواه نيرون صفحة ٧٧ في مقالته المذكورة وهو « قد كتب اليكم بعض الناس ان في كتبنا بعض كلمات تخالف راس الكنيسة المقدسة فنحن لا نقبل الا ما تقبله الكنيسة المقدسة وما يوجد في بعض النسخ يمكن ان يكون ادخل على كتب الموارنة من كتب الملل المحدقة بنا من زمان مديد فدع يا اخي جانباً كل شبهة باستقامة ايماننا فاساسنا ثابت منذ القديم على ايمان الكنيسة المقدسة الرسولية الرومانية ولم نزغ عن هذا الايمان

ابتة ولا نكلمكم بفينا فقط بل بفمنا وقلبنا معاً والله الشاهد على ذلك » فصح اذا ان غوليلمس الصوري وكثيرين غيره من الحديثين الذين تساهلوا بتصديق اخباره عن ارتداد الموارنة قد انخدعوا انخداعاً كبيراً

« انتهى كلام باجيوس وقد اوردناه مطولاً لما اشتمل عليه من الفوائد في هذا المبحث

واما الكوبان فقد ذكرنا شهادته في عدد ٨٥٨ فانه بعد ان ذكر ما كان بين الموارنة حينئذ وعناية ايميريكس بارتداد الزائغين عن الايمان الى محبته القوية واذعانهم لارشاده والصلح بينهم قال « لا ريب عندي في ان هذا ما حمل غوليلمس الصوري على ما كتبه من ان الموارنة كلهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢ على يد ايميريكس البطريرك الانطاكي مع ان هذا لا يصدق على الملة كلها بل على بعض افرادها فقط » وكان قد قال في مقدمة كلامه على الموارنة « كما لم يعب افرنسة اتباع كثيرين من اكليرسها وشعبها مذهب لوتاروس وكلونيوس هكذا لا يعيب الملة المارونية اتباع بعض افرادها الضلال مدةً ما »

اني ارى هذه الادلة التي اوردتها حتى الان تجاوز حد الكفاية في دحض دعوى سعيد بن البطريق وغوليلمس اسقف صور على الموارنة الضلال اللهم الا من يحسدوننا على نعمته وفضله ان ينصفونا ولا اقل من ان يجارونا في طريق الجدال المفروضة ولا يحجونا في ما بعد باقوال سعيد وغوليلمس قبل ان يردوا الادلة الواضحة والبينات القاطعة التي جئنا بها هنا وفي مواضع اخرى

الباب الثالث عشر

﴿ في تاريخ سورية في القرن الثالث عشر ﴾

القسم الاول

﴿ في تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن ﴾

الفصل الاول

﴿ في الاحداث التي كانت في القرن الثالث عشر ﴾

﴿ عدد ٨٦١ ﴾

﴿ في استقلال الملك العادل بالسلطنة وبعض اعماله ﴾

كان الفراغ من كلامنا في تاريخ القرن الثاني عشر بذكر الهدنة بين الفرنج وصلاح الدين الايوبي وبذكر الخلاف بين الملك العادل اخي صلاح الدين وابني اخيه الملك الافضل والملك الظاهر على دمشق الى ان اختلف الملكان الافضل والظاهر فرحلا عن دمشق وعادا الملك الافضل الى مصر والملك الظاهر الى حلب ففي سنة ٥٩٤ ﻫ وسنة ١٢٠٠ م خرج الملك العادل من دمشق وسار في اثر الافضل الى مصر ولما وصل الافضل اليها تفرقت عساكره لاجل الربيع فادركه عمه العادل

فخرج الافضل بمن بقي عنده من العسكر وضرب معه مصافاً بالسائح فانكسر عسكر الافضل وانهزم هو الى القاهرة ونازل العادل القاهرة فاجاب الافضل الى تسليمها على ان يعوض عنها ميافارقين وحاني وسميساط فاجابه العادل الى ذلك ولم يف له به ودخل العادل القاهرة في ٢١ من ربيع الآخر من هذه السنة وسافر الملك الافضل الى صرخد واقام العادل بمصر على انه اتابك (امير الامراء) الملك المنصور محمد بن العزيز وبعد مدة يسيرة ازال الملك المنصور عن الملك واستقل العادل في السلطنة ولما استقرت المملكة للعادل ارسل اليه الملك المنصور صاحب حماه يعتذر اليه مما وقع منه بسبب اخذه بعرين من ابن المقدم فقبل الملك العادل عذره وامره برد بعرين الى ابن المقدم فاعتذر عنها بقربها من حماه ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضاً عن بعرين فرضي ابن المقدم بذلك وكانت له ايضاً فامية (اباميا) وكفرطاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه واشترط الملك العادل عليه ان يكون خمسمئة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة العادل كلما خرج الى البيكار والتزم صاحب حلب بذلك

وفي سنة ٥٩٧ هـ سنة ١٢٠١ م كان الملك العادل بمصر وعنده ابنه الملك الكامل محمد وهو نائبه بها وبحلب الملك الظاهر وهو مجد في تحصين حلب خوفاً من عمه الملك الظاهر وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل نائب ابيه وبميافارقين الملك الاوحد ايوب ابن الملك العادل ايضاً ومات ابن المقدم وصارت بلاده لاخيه شمس الدين فسار الملك الظاهر صاحب حلب الى منبج وحصرها وملكها وتسلمها ثم سار الى قلعة نجم فحصرها وملكها وارسل الى الملك المنصور صاحب حماه يبذل منبج وقلعة نجم على ان يصبر معه على الملك العادل فاعتذر باليمين التي في عنقه للملك العادل ولما ايس منه سار الى المعرة واقطع بلادها

واستولى على كفرطاب وكانت لابن المقدم ثم سار الى فاميا وفيها قراقوش نائب ابن المقدم وارسل الظاهر واحضر عبد الملك ابن المقدم من حلب وكان اعتقله بها مع بعض اصحابه وضربهم امامه ليسلم فامية فامتنع عن تسليمها فرحل الملك الظاهر عنها الى حماه وحاصرها طويلاً فجرح بسهم في ساقه ولما لم يحصل على غرض صالح صاحبها الملك المنصور على مال يحمله اليه ورحل الى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنازلها هو واخوه الملك الافضل الذي كان في صرخد وانضم اليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الامراء الصلاحية واتفق الاخوان الافضل والظاهر على انهما متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الافضل ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل ويتسلمها الملك الافضل وتسلم دمشق حينئذٍ الى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الافضل ويصير الشام جميعه للملك الظاهر

وبلغ الملك العادل حصار الاخوين دمشق فخرج بعساكر مصر ونزل نابلس ولم يجسر على قتالهما واشتدت مضايقة الملكين لدمشق وتعلق النقابون بسورها فلما شاهد الملك الظاهر ذلك حسد اخاه الملك الافضل على دمشق وقال له اريد ان تسلم اليَّ دمشق الان فقال له الافضل ان حريمي حريمك وهم على الارض وليس لنا موضع نقيم فيه وهب هذا البلد لك فاجعله لي الى حين تملك مصر ونأخذه فامتنع الظاهر عن قبوله ذلك وكان قتال العسكر والامراء الصلاحية لاجل الافضل فقال لهم ان كان قتالكم لاجلي فاتركوا القتال وصالحوا الملك العادل وان كان قتالكم لاجل اخي فانتم واياه فقالوا انما قتالنا لاجلك وتخلوا عن القتال وارسلوا وصالحوا الملك العادل ورحل الملك الظاهر عن دمشق في اول المحرم سنة ٥٩٨ هـ سنة ١٢٠٢ م فقدم الملك العادل اليها ثم سار منها الى حماه ونزل على تل صفرون وقام الملك المنصور صاحب حماه بجميع وظائفه وكلفه وبلغ الملك

الظاهر وصول عمه العادل الى حماه قاصدًا محاصرته بحلب فاستعد للحصار وراسل عمه ولاطفه واهدى اليه وكانت بينهما مراسلات ووقع الصلح وانتزعت منه المعرة واستقرت للملك المنصور صاحب حماه واخذت من الملك الظاهر قلعة نجم ايضاً واسلمت الى الملك الافضل وكانت له ايضاً سروج وسميساط وسلم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الاشرف موسى ولما استقرّ الصلح بين الملك العادل والملك الظاهر رجع العادل الى دمشق واقام بها وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في ملكه وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه

وفي سنة ٥٩٩ هـ سنة ١٢٠٣ م ارسل الملك العادل وانتزع ما كان بيد الملك الافضل وهي راس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك بيده غير سميساط فقط فارسل الملك الافضل والدته فدخلت على الملك المنصور صاحب حماه ليرسل معها من يشفع في الملك الافضل عند الملك العادل فوجه معها القاضي زين الدين ابن الهندي فلم يجبها الملك العادل ورجعت خائبة واقام الملك الافضل بسميساط وقطع خطبة عمه الملك العادل وخطب للسلطان ركن الدين بن قليج ارسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم وفي سنة ٦٠٤ هـ سنة ١٢٠٨ م لما استقرّ الملك العادل بدمشق ارسل اليه الخليفة الناصر التشريف صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي فبالغ الملك العادل في اكرام الشيخ والتقاه الى القصر ودخل من صاحبي حلب وحماه ذهب لينثر على الملك العادل اذا لبس الخلعة فلبسها ونثر الذهب وكان يوماً مشهودًا والخلعة جبة اطلس اسود بطراز مذهب وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر وسيف جميع قرابه ملبس ذهباً وحصان اشهب بمركب ذهب ونشر على رأسه علم اسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة ثم خلع رسول الخليفة على الملك الاشرف والملك المعظم ابني الملك العادل عمامة سوداء وثوباً واسع

الكم وكذلك على الوزير صفي الدين بن شكر ووصل الى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التي تحت حكمه وخوطب العادل فيه شاهنشاه ملك الملوك خليل امير المؤمنين وتوجه الشيخ شهاب الدين المذكور الى مصر فخلع على الملك بها وجرى فيها نظير ما جرى في دمشق من الاحتفال وفي هذه السنة ١٢٠٨ اهتم الملك العادل بعمارة قلعة دمشق والزم كل واحد من ملوك اهل بيته ببناء برج من ابراجها

وفي سنة ٦٠٥ هـ سنة ١٢٠٩ م امر الملك الظاهر صاحب حلب باجراء القناة من حيلان الى حلب وغرم على ذلك اموالاً كثيرة وفي سنة ٦٠٦ هـ سنة ١٢١٠ سار الملك العادل من دمشق وقطع الفرات وجمع العساكر والملوك من اولاده ونزل حران وسار منها فنازل سنجار وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود وحاصرها وطال الحصار ثم خامرت العساكر التي صحبة الملك العادل ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح مع عمه العادل ورحل الملك العادل عن سنجار وعاد الى حران واستولى على نصيبين وكانت لقطب الدين المذكور وعاد الى دمشق ثم الى مصر . وفي سنة ٦١٢ هـ سنة ١٢١٦ م استولى الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن وفي سنة ٦١٣ هـ سنة ١٢١٧ م توفي الملك الظاهر صاحب حلب وقبل وفاته احضر القضاة والاكابر وكتب نسخة يمين ان يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز وحلف الامراء والاكابر على ذلك وكان مولد الظاهر بن صلاح الدين بمصر سنة ٥٦٨ هـ سنة ١١٧٣ م وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها ابوه له احدى وثلاثين سنة

وفي سنة ٦١٥ هـ سنة ١٢١٩ م توفي الملك العادل في عالقبن عند عقبه افيق بفلسطين وكان يحارب الافرنج في تلك النواحي فرحل الى هناك ومرض واشتد

مرضه فات وكان مولده سنة ٥٤٠ ﻫ سنة ١١٤٦ م فكان عمره عند وفاته ثلاث وسبعين سنة شمسية وملك بدمشق ٢٣سنة ومدة ملكه لمصر نحو ١٩ سنة وخلف ستة عشر ولدًا ذكرًا غير البنات وحضر اليه منهم بعد وفاته الملك عيسى صاحب نابلس وكتم موته واخذه ميتاً في محفة الى دمشق واخذ كما كان لابيه من الجواهر والسلاح والخيول وكان في خزانته على ما قيل سبعمائة الف دينار عيناً وبعد ان حلف الناس له اظهر موت ابيه وجلس للعزآء وكاتب الملوك من اخوته وغيرهم يخبرهم بموته • وقد رثى شرف الدين بن عين الملك العادل بقصيدة مطلعها

ماذا على طيف الاحبة لو سرى وعليهم لو سامحوني بالكرى
ومنها العادل الملك الذي اسماؤهُ في كل ناحية تشرف منبرا
بين الملوك الغابرين وبينه في الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما بقى في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا

انتهى ملخصاً عن ابن الاثير في الكامل وعن ابي الفدآء في تاريخه

عدد ٨٦٢

في ما كان من الحرب بين الملك العادل والافرنج

هذا ما قاله المؤرخون العرب في سنة ٥٩٩ ﻫ سنة ١٢٠٣م سار الملك المنصور صاحب حماه الى بعرين مرابطاً للافرنج وكتب الملك العادل الى صاحب بعلبك وصاحب حمص ان ينجداه واجتمع الافرنج من حصن الاكراد واطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعرين واتفقوا معه واقتتلوا فانهزم الافرنج وقتل منهم جماعة وكان يوماً مشهودًا ثم خرج من حصن الاكراد الاسبتار وانضم اليهم جموع من السواحل واتفقوا مع الملك المنصور ببعرين فانتصر ثانيةً وانهزم الفرنج هزيمة شنيعة واسر الملك المنصور وقتل منهم عدة كثيرة ومدح سالم بن سعادة الحمصي الملك المنصور بسبب هذه الوقعة بقصيدة منها

وشنتّ منتقماً بساحل بحرها جيشاً حكى البحر الخظم عرمرما
اسدلت في الافاق من هبواته ليلاً واطلعت الاسنة انجما

وفي سنة ٦٠٠ هـ سنة ١٢٠٤ م كانت الهدنة بين الملك المنصور والفرنج وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من البحر وسهل الامر عليهم ملكهم قسطنطينية وارسوا بعكا قاصدين بيت المقدس ثم ساروا ونهبوا كثيرًا من بلاد المسلمين بنواحي الاردن وسبوا وفتكوا بالمسلمين فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر ونزل على الطور بالقرب من عكا في قبالة الفرنج ودام ذلك الى اخر السنة وفي سنة ٦٠١ هـ سنة ١٢٠٥ م كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج وسلم اليهم يافا ونزل عن مناصفات لد والرملة واعطاهم الناصرة وغيرها ولما استقرت الهدنة سار الملك العادل الى مصر فاغار الفرنج على حماه ووصلوا الى قربها الى قرية تسمى الرقيطا وامتلأت ايديهم من المكاسب واسروا من اهل حماه شهاب الدين بن البلاعي وكان فقيهاً شجاعاً وحمل الى طرابلس فهرب منها الى بعلبك فعاد الى اهله بحماه سالماً ثم وقعت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماه وبين الفرنج وسنة ٦٠٣ هـ سنة ١٢٠٧ م سار الملك العادل من مصر الى الشام فنازل في طريقه عكا فصالحه اهلها على اطلاق جمع من الاسرى ثم وصل الى دمشق وكان الفرنج الذين بطرابلس وحصن الاكراد اكثروا الاغارة على بلد حمص ونازلوا مدينة حمص فلم يكن لصاحبها اسد الدين شيركوه ان يدفعهم فاستنجد الظاهر ملك حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده احد الا الظاهر فانه سير له عسكرًا اقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته الى ان سار الملك العادل من دمشق ونزل على بحيرة قدس وجاءته عساكره من الشرق وديار الجزيرة ودخل بلاد طرابلس وحاصر موضعاً اسمه القليعات واخذه صلحاً واطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى طرابلس فنهب واحرق وسبى وغنم وعاث العسكر في بلادها

وقطع قناتها وعاد الى بحيرة قدس وترددت الرسل بينه وبين الفرنج فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء وطلبت العساكر الشرقية العود الى بلادها فنزلت طائفة من العسكر بحمص وعاد الملك العادل الى دمشق فشتى بها

وفي سنة ٦١٤ ھ سنة ١٢١٨ م قال ابن الاثير في هذه السنة وصلت امداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها في الغرب والشمال لان المتولي بها كان صاحب رومية لانه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة ولا يرون مخالفة امره ولا العدول عن حكمه فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمي الفرنج وأمر غيرهم من ملوك الفرنج ان يسير بنفسه او يرسل جيشاً ففعلوا ما امرهم فاجتمعوا بعكا وكان الملك العادل بمصر فسار الى الشام فوصل الى الرملة ومنها الى لد وقصده الفرنج من عكا فسار هو الى نابلس فسبقه الفرنج اليها فنزل على بيسان فتقدم الفرنج اليه وكان عسكره قليلاً فلم يرَ ان يلقاهم في الطائفة التي معه خوفاً من هزيمة تكون عليه ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويجمع العساكر ووصل الى مرج الصفر وتقدم الفرنج الى بيسان فاخذوا كلما فيها من ذخائر كثيرة ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس واقاموا عليها ثلاثة ايام ثم رجعوا الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والاسرى ما لا يحصى سوى من قتلوا وما احرقوا وما اهلكوا ثم جاؤا الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونهبوا صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وتجهزوا واخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهي على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها وحصروها وكادوا يملكونها فقتل بعض ملوكهم فتركوا القلعة وعادوا الى عكا فتوجه الملك المعظم ابن العادل ودك قلعة الطور الى الارض لانها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها واما الفرنج فبعد عودهم عن قلعة الطور اقاموا بعكا الى سنة ٦١٥ ھ سنة ١٢١٩ م وساروا في البحر الى دمياط وارسل الملك العادل العساكر الى ابنه الملك الكامل في مصر ليقوى على

الفرنج وفي هذه الاثناء ادركت المنية الملك العادل كما مرَّ انتهى ملخصاً عن ابن الاثير وابي الفداء

واما المؤرخون الفرنج فاهم كلامهم في تاريخ اوائل هذا القرن على حملة الافرنج الرابعة بقصد استنقاذ الارض المقدسة وخلاصة كلامهم في ذلك ان هذه الحملة دعا اليها البابا اينوشنسيوس الثالث واعظم دعاتها باصره فولك خوري نوبلي بافرنسة واعظم قادة الجيش بها بودوين التاسع كنت فلاندرا وبونيفاشيوس مركيس مونتا فراتا بايطاليا وهنري دندولو دوج (حاكم) البندقية ولما اجتمع هؤلاء مع عساكرهم في البندقية عزموا ان يسافروا الى مصر لكنهم ساروا اولاً سنة ١٢٠٢ فحاصروا زارا مدينة بدلماسيا اجابة الى طلب البنادقة لان أهل هذه المدينة كانوا قد ثاروا عليهم وبعد ان نهبوها ساروا الى قسطنطينية ووصلوا اليها سنة ١٢٠٣ وكان الكسيس الرابع ملك الروم استنجدهم فنجدوه على منازعيه واقروه في تخت الملك ولكن نهض عليه دوكاس مرسوفل (الغليظ الحاجب) واخذ ملكه سنة ١٢٠٤ وسمي الكسيس الخامس فطرده الصليبيون وملكوا قسطنطينية فاقاموا بودوين المذكور ملكاً وأخذ البندقيون اعظم الجزائر وربع القسطنطينية مع كنيسة القديسة صوفيا وهكذا اقيمت في قسطنطينية المملكة اللاتينية واقتسم امرآء الحملة اعمال البلاد التي دوخوها واستمر ملكهم في قسطنطينية من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١ حين استردها الملك ميخائيل الثامن باليولوغوس

على ان فريقاً من رجال الحملة الرابعة سافروا من مرسيليا وبروج توًا الى عكا وانضم اليهم طائفة ممن غادروا بعد حرب دارا الجيش الذي قصد قسطنطينية فأتوا الى عكا وسأمت نفوس هولاء جميعاً الاقامة بعكا دون حرب وكان ملك اورشليم مترددًا في نقض الهدنة مع المسلمين فزايل كثيرون منهم فلسطين وقصدوا الانضواء تحت راية امير انطاكية الذي كان يحارب ملك الارمن ولم يأخذوا

من يهديهم الطرق فوقعوا بيد المسلمين الذين ارسلهم عليهم امير حلب فشتتوا شملهم وقتلوا واسروا كثيرين منهم وهذه هي وقعة بعرين مع الملك المنصور التي ذكرها المؤرخون العرب وحدثت وتئيذٍ مجاعة في مصر من جرى نقص ماء النيل دامت سنين واتصلت الى سورية وعقبها امراض وبائية هلك بها جموع كثيرة في فلسطين حتى قيل انه مات بعكا من النصارى الفا نفس في يوم واحد وكانت في سنة ١٢٠٢ زلازل هائلة خربت بها مدن كثيرة ودمرت قلع حماه وبعرين وبعلبك ولم يبقَ في نابلس الا سوق السامريين وسقطت اكثر ابنية دمشق ولم يبقَ في صور الا بعض البيوت وامست اسوار عكا واطرابلس كوم انقاض ولم تخل اورشليم من الخريب وقد ذكر المؤرخون العرب ايضاً هذه المصائب بالقحط والوباء والزلازل

وفي سنة ١٢٠٥ توفي اموري الثاني ملك اورشليم ثم توفيت بعده امرأته ازبال التي كانت مزوجة قبله بالملك هنري المار ذكره ولدى اجتماع عمال المملكة واعيانها لاختيار ملك لم يتفق رأيهم على احد الفرنج المقيمين بسورية فارسلوا ايمار عامل قيصرية واسقف عكا الى المغرب فسارا الى فيلبوس اغوسطس ملك افرنسة ليختار لهم ملكاً فاختار يوحنا دي بريان ليتزوج بمريم وريثة ملك اورشليم ابنة ازبال التي ولدت لها من زوجها كنراد دي مونفراتا ووالية على اورشليم فسار يوحنا المذكور الى سورية وتزوج بمريم وريثة الملك في ١٤ ايلول سنة ١٢٠٩ في عكا ثم توّج ملكاً على اورشليم في ١٠ من الشهر المذكور فكان الثاني عشر من ملوك الافرنج في اورشليم ولم تكن له ثروة كافية لاصلاح حال مملكته وشاع حينئذٍ ان ملوك المغرب يعزمون حملة كبرى لانجاد الفرنج في سورية فوجس الملك العادل من هذه الاخبار وكادت مدة الهدنة تنقضي فعرض على الفرنج ان يسلم اليهم عشر قلاع حباً باستمرار السلم فاشار

عقلاء الفرنج بالاجابة الى ما عرضه وخالفهم بعض الجهلة ولم يات مع يوحنا الملك الحديث من افرنسة الا ثمانماية فارس ولم يكن يملك الا اربعين الف ليرة اعطاه اياها ملك افرنسة واعطاه الرومانيون اربعين الف اخرى ولما تردد الفرنج في قبول ما عرضه الملك العادل سار هو الى فلسطين في عسكر وحاصر اطرابلس وهدد عكا وبنى قلعة في جبل طابور وبث سواريه الى ابواب عكا فاتقع الملك يوحنا مع عسكر الملك العادل وابدى ايات البسالة لكنه لم يقوَ على انقاذ بلاد النصارى من عدو قدير ولما رأى الفرنج قلَّة عديدهم جبنوا وندم من لم يقبلوا المسالمة مع المسلمين وارسل الملك وفدًا الى رومة يستغيث بالبابا وملوك اوربا ليمدوه وكان بين ملوك النصارى وقتئذ حروب ومنازعات فقل من لبى دعوة ملك اورشليم وقد انبأنا كثيرون من المؤرخين المعاصرين ان جمًّا غفيرًا من الحدثان بافرنسة والمانيا تألبوا وكانوا يطوفون المدن والقرى مترنمين بقولهم يا رب رد علينا صليبنا المقدس وكانوا يقولون نسير الى اورشليم لانقاذ قبر مخلصنا وانخرط في سلكهم بعض الكهنة واخذوا بالمسير الى سورية ولكن بعضهم ردهم اهلهم عن السفر وبعضهم تشتتوا وبعضهم قتلوا ووصل بعضهم الى عكا فزادوا الفرنج قنوطًا ووجلاً ليأسهم من انجاد رجال المغرب وبلغت اخبار هؤلاء الحدثان الى البابا اينوشنسيوس الثالث فقال هؤلاء الحدثان يؤنبوننا على تقاعدنا بمسارعتهم الى الارض المقدسة وعزم سنة ١٢١٣ على عقد مجمع عام برومة لاصلاح بعض الشؤون في الكنيسة وللحض على امداد نصارى المشرق وانفذ قصادًا ودعاة الى ممالك اوربا يحضون الناس على التجند لنجدة الفرنج في سورية وكان من جملة هؤلاء الدعاة يعقوب دي فتري الذي صير بعد اسقفًا على عكا وارسل البابا رسائل الى اساقفة المعمور والرؤساء يستدعيهم الى المجمع وقد كتب حينئذ الى الملك العادل نفسه رسالة مؤرخة في السنة سنة ١٢١٤ وهي ١٦ من حبريته وقد اثبت ميشود هذه الرسالة في اخر

المجلد الثالث من تاليفه وقد ناشد البابا الملك العادل بان يترك المدينة المقدسة ومما قاله في هذه الرسالة ان الله اختار المسلمين آلة لانتقامه من النصارى وسمح لصلاح الدين بان ياخذ اورشليم لآثامهم وحرضه ان يتقي اهراق الدم ان اراد ديمومة ملكه ولم تكن هذه المرة الاولى من مكاتبة رؤساء الكنيسة الى السلاطين المسلمين فان هذا البابا نفسه كتب قبل ذلك رسالة الى امير حلب اثبتها ميشود في كتابه المذكور

وفي سنة ١٢١٥ عقد المجمع العام في لاتران فشهده نحو من خمسماية اسقف وفي جملتهم بطريركنا ارميا العمشيتي ونائب بطريرك اسكندرية ونائب بطريرك الروم الانطاكي وبطريركا اللاتين في انطاكية واورشليم وسفراء ملوك اوربا وبعد ان حرم المجمع بدعة الاليبجازيين واشياعها ونبذ كل ضلال يخالف الايمان القويم اهتم البابا والاسافقة وسفراء الملوك بما يتداركون به حال النصارى في المشرق وقرروا ان كلاً من الاكليريكيين يدفع جزءا من عشرين جزءا من دخله السنوي في سبيل النفقة على انجادهم الفرنج في سورية وان البابا والكرادلة يدفعون عشر دخلهم وان تعقد هدنة مدة اربع سنين بين ملوك النصارى وانبث الدعاة في كل فجٍ يذيعون امر المجمع بامداد نصارى المشرق ففي سنة ١١١٧ تالبت جموع كثيرة اكبر رؤسائهم اندراوس ملك المجر فكانت هذه الحملة الخامسة وعند مرورهم بقبرس صحبهم لوسينيان ملكها واجتمعوا في عكا وخرجوا منها بامرة ملك المجر وملك اورشليم وملك قبرس وساروا نحو مرج ابن عامر واتصلوا الى الاردن ولم يعترضهم احد ولكن نهبوا واسروا بعض المسلمين دون حرب وعادوا الى عكا ووقع الرعب في قلوب المسلمين فسكن الملك العادل روعهم قائلاً عما قليل سيقع الخلاف بين الفرنج وجيشهم الكثيف اشبه بسحابة تنقشع باقل ريح وعزم رؤساء جيش النصارى ان يحملوا على جبل طابور حيث تحصن المسلمون ولما دنوا الى

سفح الجبل اخذ المسلمون يقلبون عليهم الصخور الضخمة ويمطرون عليهم النبال ولم يثن ذلك عزيمة الفرنج وابدى ملك اورشليم ايات البسالة في هذه الحرب فانهزم المسلمون وتبعهم الفرنج الى باب القلعة وبينما كان المسلمون يرجفون خوفاً من الفرنج خاف هؤلاء ان يكبسهم امير دمشق ويكمن لهم فانصرفوا عن اقامة كانهم لم ياتوا الا لزيارة محل تجلي المخلص ولكي يتقي رؤساء الجيش عار الهزيمة من جبل طابور ساروا بجيشهم نحو فونيقي وكان البرد قارساً فاضر بكثير من الجيش وبينما كانوا مخيمين بين صور وصيدا ثار عليهم عاصف وبروق ورعود ومطر غزير فاقلب خيامهم وشتت متاعهم وقتل بعض خيلهم حتى ظنوا ان الله ابى الا اذلالهم وكبتهم وقل زادهم وراوا ان اقامة جيشهم في محل واحد تعود بالوبال عليهم فانقسموا الى اربعة اقسام ريثما ينتهي الشتاء فمضى ملك اورشليم ودوك النمسا ورئيس فرسان القديس يوحنا فاقاموا بسهول قيصرية وملك المجر وملك قبرس ووينتد ابن امير انطاكية اقاموا بطرابلس ورئيس فرسان الهيكل والصليبيون الذين من هولاندا حصنوا قلعة في سفح جبل الكرمل واقاموا بها وغير هولاء عادوا الى عكا ناوين ان يعودوا الى اوربا ودخلت سنة ١١١٨ فملك قبرس اعتراه مرض فمات وملك المجر يئس من الفوز وبعد ان اقام ثلثة اشهر في فلسطين عاد الى مملكته ولم يوقفه تهديد بطريرك اورشليم له بالحرم ولكنه ترك بعض عسكره في سورية

وبعد سفر ملك المجر قدم الى عكا جمع غفير من افرنسة وايطاليا وكان الاستيلاء على مصر يشغل افكار الصليبيين مدات وقد اشار به البابا اينوشنسيوس الثالث في المجمع اللاتراني فقصدها الفرنج وساروا اولاً الى دمياط وسنرى في الفصل التالي اخبار هذه الحملة

عد ٨٦٣

في اخذ الفرنج دمياط وانتزاعها من يدهم

هذا ملخص ما قاله ابن الاثير في ذلك . لما عاد الفرنج من حصار الطور اقاموا بعكا الى ان دخلت سنة ٦١٥هـ سنة ١٢١٩م فساروا في البحر الى دمياط فارسوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط نهر النيل وقد بنى فيه برج كبير منيع وجعلوا فيه سلاسل حديد مدوها في النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب ان تصعد في النيل الى ديار مصر وبنى الفرنج على عسكرهم سورًا وجعلوا خندقاً يصد من الوصول اليهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا الات ومرميات وابراجاً يزحفون بها في المراكب الى البرج المذكور ليملكوه وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده الى دمياط وادام الفرنج قتال البرج فلم يظفروا منه بشيء وكسرت مرماتهم والاتهم وبقوا كذلك اربعة اشهر ثم ملكوا البرج وقطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر في النيل ويتحكموا في البر فنصب الملك الكامل جسرًا عوض السلاسل امتنعوا به من السير في النيل وقاتلوا على الجسر قتالاً شديدًا حتى قطعوه فاخذ الملك الكامل عدة مراكب وملاها وخرقها وغرقها في النيل فمنعت مراكب الفرنج من سلوكه فقصد الفرنج خليجاً هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري عليه قديماً فحفروه وعمقوا واجروا الماء فوق المراكب التي جعلت في النيل الى البحر واصعدوا مراكبهم فيه الى مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل وقاتلوه من هناك وزحفوا اليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على اهل دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فاتفق لما يريده الله ان الملك العادل توفي في جمادي الاخرى من تلك السنة فضعفت نفوس الناس لانه السلطان حقيقة واولاده يحكمون باسمه وكان من جملة الامراء بمصر الامير عماد الدين من الاكراد

المعروف بابن المشطوب وله لفيف كثير فاتفق مع غيره من الامرآء وارادوا خلع الملك الكامل من الملك وتمليك اخيه الملك الفائز وبلغ الخبر الى الملك الكامل ففارق المنزلة ليلاً وسار مسرعاً الى قرية يقال لها اشمون طناح واصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل انسان من هوائه ولم يقف الاخ على اخيه وتركوا خيامهم وذخائرهم واموالهم ولحقوا بالكامل فعبر الفرنج حينئذٍ النيل امنين بغير منازع الى بر دمياط فغنموا ما في معسكر المسلمين واجتمع العرب على اختلاف قبائلهم ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وكانوا اشد على المسلمين من الفرنج واحاط الفرنج بدمياط وقاتلوا اهلها براً وبحراً واشتد القتال عليهم وتعذرت عليهم الاقوات فسلموا البلد الى الفرنج وخرج قوم منهم واقام آخرون لعجزهم عن الحركة

واتفق ان الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق وصل الى اخيه الملك الكامل فقوى قلبه واشتد ظهره واخرجوا ابن المشطوب الى الشام فاتصل بالملك الاشرف صاحب ديار الجزيرة وصار من جنده واما الفرنج فلما ملكوا دمياط اقاموا بها وبثوا سراياهم في كلما جاورها وشرعوا في تحصينها حتى اصبحت لا ترام ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط اقبلوا من كل فج يهرعون اليها وعاد الملك المعظم الى الشام فخرب البيت المقدس خوفاً من ان يأخذه الفرنج واشرف الفرنج على أخذ سائر البلاد بمصر والشام وظهر التتر في المشرق كما سيأتي حتى وصلوا الى نواحي العراق فخاف المسلمون واراد اهل مصر الجلاء عن بلادهم فمنعهم الملك الكامل وكتب الى اخويه المعظم في دمشق والاشرف في الجزيرة يستنجدهما ويحثها على الحضور بانفسهما وكان الملك الاشرف مشغولاً عن نجدته بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه ولما استقامت له الامور سار هو واخوه صاحب دمشق سنة ٦١٨ هـ سنة ١٢٢٢ م الى مصر وكان الفرنج تركوا دمياط

وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابلته وبينهما خليج من النيل يسمى بحر اشمون
واوقدوا الحرب عليه وسمع الملك الكامل بدنو اخيه الاشرف فلقيه واستبشر هو
والمسلمون بقدومه واما الملك المعظم فقصد دمياط وزحف الكامل والاشرف الى
الفرنج عند خليج من النيل يعرف ببحر المحلة واشتد القتال واخذ المسلمون من
الفرنج ثلث قطع من مراكبهم بمن فيها من الرجال وما فيها من الاموال فتقويت
نفوس المسلمين وترددت الرسل بين الفريقين بتقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون
لهم تسليم البيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة وصيدا واللاذقية وجميع ما فتحه
صلاح الدين الا الكرك ويسلمهم الفرنج دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلاث مئة الف
دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم امر وعادوا الى القتال وكان
الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة ايام وعبر طائفة
من المسلمين الى الجهة التي عليها الفرنج ففجروا النيل فركب الماء اكثر تلك الارض
ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة ضيقة ونصب الكامل على النيل
جسورًا عبر المسلمون عليها فملكوا الطريق الذي يسلكه الفرنج ان ارادوا العود
الى دمياط فرأى الفرنج انهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في ارض يجهلونها
واحاطتهم العساكر فاحرقوا خيامهم ومناجيقهم واثقالهم وزحفوا الى المسلمين فحيل
بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم ورأوا ان ميرتهم قد تعذر عليهم
وصولها وان المنايا كشرت لهم عن انيابها فراسلوا الملك الكامل يطلبون الامان
ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة اقبل جيش كبير فاذا هو الملك
المعظم صاحب دمشق الذي كان قد جعل طريقه على دمياط فاشتدت ظهور المسلمين
وزادوا الفرنج خذلاناً وتمموا الصلح على تسليم دمياط وارسل الفرنج قسوسهم
ورهبانهم الى دمياط في تسليمها ولما دخلها المسلمون وجدوها محصنة تحصيناً عظيماً
واعطى الله المسلمين ظفرًا لم يكن في حسابهم انتهى تلخيص كلام ابن الاثير

اما المؤرخون الافرنج فقلما كان بينهم وبين المؤرخين المسلمين من الخلاف في اخبار اخذ الفرنج دمياط ثم انتزاعها من يدهم ومما قالوه انهم عند حصارهم برج دمياط بنوا برجاً من خشب على سفينتين ربطوا احداهما بالاخرى وصفحوا البرج بالنحاس وكان فيه محل لاقامة المحاربين وجسر قلاب يلقى الى قلعة دمياط وفي اليوم المعين نزل بهذا البرج ثلث مئة محارب وسارت السفينتان بالنيل وعليهما البرج ورستا بجانب القلعة واخذ جنود النصارى يرمون السهام اولاً متحفزين للطعن بالحراب والسيوف والا امطر عليهم المسلمون تهتان نار وجدوا في احراق برج الخشب وقتل من فيه وعلقت النار بالبرج وزعزع الجسر عن اسوار القلعة واخذ المسلمون علم النصارى وضجوا مسرورين واستولت الكآبة على الفرنج وجهروا بالدعاء لله خاشعين فطفئت النار وصلحت الالة ورسخ الجسر على جدار سوار القلعة وكان لاوبلد دوك النمسا اميرًا في هذا البرج فشدد عزائم رجاله فعادوا الى القتال باشد حمية واشرفوا على اسوار القلعة وكانو يتجالدون والعدو بالسيوف والحراب وقفز جنديان الى سطح القلعة فارعبا المحصورين فتهافتوا الى السفل وحاولوا القاء النار في السقف والتحصن بسور من نار فلم يمكنهم الفرنج مما يحاولون بل باغتوهم بالطعن وضرب القلعة من كل جهة وبكل وسيلة حتى ايقنوا الهلاك فاستسلموا الى اعدائهم ورموا سلاحهم ثم فتحوا المدينة كما روى المؤرخون العرب ولكن بعد حصارهم لها سبعة عشر شهرًا وقد عاب المؤرخون الفرنج الصليبيين بابطائهم عن التقدم في الديار المصرية على فور فتحهم دمياط وعلى مغادرة كثيرين منهم ساحة القتال وعودهم الى اوطانهم على ان اخبار انتصارهم حملت كثيرين من المانيا وبيزا وجنوا والبندقية ومن اعيان افرنسة على المسير الى المشرق وكان من جملة هؤلاء كردينالان روبرتوس رئيس اساقفة كورسون وبيلاج اسقف البانو وكان من راى هذا الكردينال عند طلب الملك الكامل الصلح ان لا يجاب اليه

ولو بذل للفرنج التخلية عن القدس وعن كل ما فتحه صلاح الدين وكان يخالفه في ذلك ملك اورشليم وكثيرون من اعيان الفرنج وكان الكردينال يرى ان طلب الملك الكامل الصلح خدعة وانه من العار على الفرنج ان لا يتموا ما تعمدوه بعد ان اشتبشروا بتمامه وقبل ان يتفق رأي الفرنج على الجواب للملك الكامل اتى اخواه لنجدته فاشتد ظهره كما قيل وعاد الى حرب الفرنج فانتصر عليهم عند المنصورة وصالحهم على ترك دمياط كما ذكر ذلك المؤرخون المسلمون وكان استرداد دمياط سنة ١٢٢٢

عد ٨٦٤

في حملة فريدريك الثاني ملك المانيا على سورية وترك الملك الكامل القدس له

بعد ان استرد المسلمون دمياط سار يوحنا دي بريان ملك اورشليم الى المغرب مستصرخاً مستنجدًا ووصل اولاً الى رومة فشكا الى البابا انوريوس الثالث باكياً سوء حالة النصارى في سورية ومصر وكان بطريركا اسكندرية واورشليم قد رفعا عريضتين الى هذا الحبر الروماني يبتهلان اليه بهما ان يأخذ بناصر نصارى المشرق وفي جملة صنوف العناية التي بذلها انوريوس الثالث لامداد الفرنج في المشرق انه عرض على فريدريك الثاني عاهل المانيا ان يتزوج بيولاند ابنة ملك اورشليم ووريثة ملكه ويسمى ملك اورشليم فقبل العاهل ما عرضه البابا ووعد ان يذب عن مملكة اورشليم وارتضى ان يحرم ان اخل بوعده ووثق ذلك باليمين وطاف يوحنا ملك اورشليم مستنجدًا ملوك اوربا ومخبرًا بالمعاهدة التي جرت بينه وبين عاهل المانيا وأخذ هذا العاهل يعد ما يلزم لهذه الحملة التي ستكون بامرنه ويبني سفناً في صقلية لنقل العساكر واكثر من الوسائل للبابا ليعاونه على اعداد جنود الحملة مبدياً من الحمية اشدها ومن الغيرة معظمها فتعلقت به الآمال والاماني

ولكن طرق عليه ما ينذر بالثورة عليه في صقلية ونابولي ولمبرديا (التي كانت حينئذ خاضعة له) فطلب من البابا مهلة سنتين ليعمل ما توجب عليه يمينه فاستاء البابا من هذا التقاعد لكنه لم يرَ من السداد نبذ طلبه وكان بزواجه بوريثة ملك اورشليم ضمانة على مبرة يمينه وعقدت هذه الزيجة برومة باحتفاء وهنأ يوحنا ملك اورشليم نفسه بان عاهل المانيا صهره ونصيره وفرح الجميع بذلك ولكن لم يدم هذا الفرح لأن العاهل تغير على زوجته واهملها ونازع اباها ملك اورشليم وسمى نفسه ملك اورشليم واضطر البابا ان يغضي على ذلك حباً بمصلحة الارض المقدسة ولزم ملك اورشليم الصمت والعزلة متوقعاً سنوح فرصة ليأخذ بثاره وقد توفي البابا انوريوس الثالث سنة ١٢٢٧ فخلفه البابا غريغوريوس التاسع وصرف عنايته بامداد نصارى المشرق وكتب الى عاهل المانيا ليسرع بالمسير الى فلسطين وكانت العساكر ماهبة والعاهل يوجل سفره من وقت الى اخر وكانت ايام الحر فمات من العسكر كثيرون حتى بعض الاساقفة والشرفاء وملَّ غيرهم فرجعوا الى اوطانهم الى ان سار الملك والجيش من برنديزي فثار عاصف ومرض العاهل او تمارض ووجس مما يكون في مملكته حين غيابه فامسك في ترانت واجل سفره فساء البابا عدوله عن المسير وقد بلغه ان اربعين الفاً من الجيش وصلوا الى عكا ولما استبطأُوا العاهل اخذوا في العود الى بلادهم واعتذر العاهل فلم يصوب البابا عذره وكتب الى ملوك اوربا يشكوه بحنثه بيمينه بحجة مرضه فاستاء العاهل من ذلك ونشر اعلام الخصام للحبر الروماني واستمال اشراف رومة فثاروا على البابا واكرهوه ان يفر من رومة فانتضى سيفه الروحي واذاع حرم العاهل على نصارى الغرب مبيناً انه استنزل هذا الحرم على نفسه اذ اخلف بيمينه فضلاً عن اثارة الرومانيين على البابا ولم يكن الفرنج في سورية يفترون عن استمداد البابا فرفع اليه بطريرك اورشليم وبعض اساقفته ورؤساء الفرسان عرائض يبثون بها ما استحوذ عليهم من اليأس

عند سماعهم ان عاهل المانيا اضرب عن نجدتهم فنشر البابا هذه العرائض ليحض اهل المغرب على امداد اخوانهم ويوقفوا سوء تصرف العاهل

وكان انتصار الملك الكامل واخوته على الفرنج في مصر اوقع بينهم خلافاً على ما يأخذه كل منهم من مدن الفرنج ووجس الكامل على نفسه من قبل اخوته وكان قد اشتهر تجويز عاهل المانيا العساكر ليغزو المشرق وحصول النفرة بينه وبين البابا فدار في خلد الملك الكامل ان يراسل عاهل المانيا ويحالفه فارسل اليه هدايا ورسلاً وعرض عليه ان يأتي الى المشرق فيسلمه اورشليم فسر بذلك فريدريك وعجب منه وارسل الملك الكامل سفيراً يستوضح منه ما يريد ويحقق له صداقته فالتقى الملك الكامل السفير بالتجلة والتكريم وحقق له رغبته في موالاة العاهل ولم يكن البابا يعلم شيئاً من هذه المراسلات التي جعلت فريدريك يعزم على المسير الى المشرق فجمع عماله واعيان مملكته واقبل متشحاً بزي الصليبيين واعلن لهم خبر سفره الى سورية ولم يجهز الا عشرين سفينة وست مئة فارس ليسير فيهم فعلم البابا بذلك وارسل يلومه على هذا التهور فلم يجب رسل البابا بشيء وسافر ولما وصل الى قبرس وصاحبها هنري لوسنيان وهو قاصر وامه مدبرة الملك ادعى ان دخل قبرس يخصه ما دام الملك قاصراً لأن له السيادة على قبرص بما انه ملك اورشليم ولما لم يجب الى طلبه حاصر نيقوسية واكره الملك على الاجابة ثم وصل الى عكا ولما علم البطريرك والاكليرس ورؤساء الفرسان انه محروم ومخالف للحبر الروماني وان ليس معه من الجند مايردع الاعداء ازدروه واتفق عند وصوله الى عكا انه كان الملك المعظم صاحب دمشق قد توفي وخلفه ابنه داود وان الملك الكامل خرج الى فلسطين قاصداً دمشق ليملكها من ابن اخيه المذكور فخرج عاهل المانيا من عكا وحل بين قيصرية ويافا وارسل الى الملك الكامل والي صيدا يطالبه ويقول له انه لم يأتِ الى سورية طامعاً بان يأخذ ملكاً

فوق املاكه بل ايزور المواضع المقدسة ويضع يده على ملك اورشليم الذي انضى اليه وكانت الاحوال التي الجئت الملك الكامل الى موالاة عاهل الالمان قد تبدلت فقبل رسل العاهل بالتكريم وارسل وفدًا اليه يعتذر عن تسليم اورشليم اليه ويطلب الصلح معه وتوارت بينهما الرسائل وفي جملتها رسالة من العاهل قال فيه للملك الكامل « انا اخوك واحترم دين المسلمين احترامي لدين المسيح وانا وريث مملكة اورشليم وقد جئت لاضع يدي عليها ولا اروم ان انازعك ملكك فلنجتنب اراقة الدماء » وارسل اليه الملك الكامل درعه وسيفه ضمانــة على رغبته في المسالمة له فارسل اليه الملك خيلاً وجمــالاً وغيرها من الهدايا وكان المسلمون يشمأزون من مراسلات الملك والنصارى يعيبون العاهل بمراسلاته له بل اضمر له فرسان الهيكل والاسبتاليون الغدر به واهلاكه واخيرًا عقد الملكان هدنة بينهما الى مدة عشر سنين ونصف سنة ومن شرائطها ان الملك الكامل يتخلى لعاهل الالمان عن اورشليم وبيت لحم وجميع القرى الواقعة بين يافا واورشليم وان يبقى للمسلمين في المدينة المقدسة جامع عمر وان يباحوا ممارسة فروض دينهم وان لا يجدد النصارى بناء اسوار اورشليم وانه اذا اعتدى مسلم على مسلم اخر فيسمع دعواها قاضي المذهب وان العاهل لا يعاون افرنجياً ولا مسلماً على حرب احد من المسلمين بل عليه ان يمنع كل تعدٍ على ارض الملك الكامل وان يصد كلاً من عساكره ومرؤسيه عن مثل ذلك ومن خالف ما جرى الاتفاق عليه لزم العاهل ان يصده عن ذلك ولم تدخل امارة انطاكية وكنتية اطرابلس والكرك في هذه الهدنة بل يلزم العاهل ان يمتنع عن كل مساعدة لحكام هذه الاعمــال ووقع على المعاهدة في ٢٠ شبــاط سنة ١٢٢٩ ولم يرتض المسلمون ولا النصارى من هذه المعاهدة حتى ان الملك العاهل لما دخل كنيسة القبر المقدس لم يجد اسقفاً يضع التاج على رأسه فوضعه لنفسه ولم يمكث في اورشليم الا يومين كتب فيها رسائله الى البابا وغيره مبشرا باخذه

اورشليم واعادة ملك النصارى اليها وكتب بطريرك اورشليم رسالة الى البابا ومنشوراً الى النصارى يشكو بهما من سوء تصرف فريدريك الثاني وبعد خروج العاهل من اورشليم بيومين دخل المسلمون اليها ولم يشا ملك دمشق الذي تخصه اورشليم ان يوقع على المعاهدة التي لا ذكر فيها للكنيسة او للنصارى بل لفريدريك وحده حتى لا يمكن احداً ان يضع يده عليها او يحدث بها شيئاً الاّ هذا العاهل ومن ينوب عنه وقد بقيت القرى المجاورة لاورشليم بيد المسلمين وابيح سكانها ان يجتمعوا للصلوة في جامع عمر وعددهم يفوق عدد نصارى اورشليم فاية ضمانة تتكفل بالسلم بين الفريقين في مدة عشر سنين فضلاً عن ان العاهل اخذ على نفسه ان لا يحارب المسلمين بل ان يمنع كل حرب تقع عليهم ويمتنع عن كل مساعدة لحكام انطاكية واطرابلس وغيرها من بلاد الفرنج

ولما عاد العاهل الى عكا لم يستقبله البطريرك والاكليرس والفرسان الاّ بالازدراء والاحتقار فانتقم منهم بمنع الاقوات عن المدينة واهانة الفرسان وضرب بعض الرهبان ولم يطل الاقامة في عكا وسار منها الى قبرس سنة ١٢٢٩ ودعا الملك ومدبري المملكة الى مأدبة فقبض عليهم واخذ ملك قبرس بمنزلة اسير ليوطد ملكه على الجزيرة وكان راينآلد دوك سبولات اثار الحرب من قبل العاهل على املاك الكرسي الرسولي وكان في عسكره كثيرون من المسلمين سكان صقلية فاضطرّ البابا الى ان يدافع عن املاكه وامّر على عسكره يوحنا دي بريان ملك اورشليم فانتصرت عساكر البابا ودخلت بعض املاك العاهل ايضاً وملكت بعضاً من اعمال ايطاليا المختصة بالعاهل ووصل العاهل الى برنديزي فعاودت الشجاعة احزابه فاسترد بعض ما كان قد اخذ منه الا القلاع وعاد يوحنا دي بريان الى افرنسة ليستمد اسفره الى القسطنطينية اذ مات في تلك الاثناء روبرتس ملك هذه المدينة اللاابني وخلفه اخوه بودوين وعمره تسع سنوات فقط وقرر اقطاب المملكة ان

يتوج يوحنا دي بريان ملكاً على قسطنطينية مدة حياته وان يتزوج بودوين بابنة اخرى له فاذا بلغ العشرين من عمره كال ملكاً على كل ما يملكه السلاطين في اسيا واما عاهل الالمان فراسل البابا بالصلح وفي ٣ من شهر تموز سنة ١٢٣٠ حلف يميناً احتفالياً ان يخضع لاوامر الحبر الروماني دون شرط وحله البابا من الحرم وورد اليه ما كانت جنوده قد اخذته من مملكة صقلية فهذا ما كان من حملة فريدريك الثاني عاهل الالمان على سورية وعوده منها

وهذا ما ذكره ابن الاثير وابو الفدآء في تسليم الملك الكامل القدس الى امبراطور الالمان قالا ما ملخصه في سنة ٦٢٦ هـ سنة ١٢٢٩ م تسلم الفرنج البيت المقدس وسبب ذلك خروج الانبرور ملك الفرنج الى ساحل الشام وكانت عساكره قد سبقته واخذوا ما يجاورهم من بلاد المسلمين ومضى اليهم وهم على صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لصور واطاعوهم وصاروا معهم وقوي طمع الافرنج بموت الملك المعظم صاحب دمشق ولما وصل الانبرور نزل بعكا وكان الملك الكامل قد خرج من مصر يريد بلاد الشام وان يملك دمشق من صلاح الدين داود ابن المعظم وارسل داود الى عمه الملك الاشرف صاحب الجزيرة يستنجده على عمه الملك الكامل فسار الملك الاشرف الى دمشق وترددت الرسل بينه وبين اخيه الملك الكامل في الصلح فاصطلحا وترددت الرسل بينهما وبين الانبرور دفعات كثيرة فاستقرت القاعدة ان يسلموا اليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده وعلى ان تستمر اسواره خراباً وكان الملك المعظم قد خربها ولا يعمرها الفرنج ولا يتعرضوا الى قبة الصخرة ولا الى الجامع الاقصى ويكون الحكم في الرساتيق الى والي المسلمين ويكون لهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا الى القدس فقط واستعظم المسلمون ذلك وكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يتكن وصفه وقال في ذلك ابو الفرج الجوزي قصيدة مطلعها :

مدارس ايات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر الارجاء

عدد ٨٦٥

في بعض احداث في سورية الى وفاة الملك الكامل

في سنة ٦١٩ هـ سنة ١٢٢٣ م قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حماة ليملكها لان الملك الناصر صاحب حماه كان قد التزم له بمال يحمله اليه اذا ملك حماة فلكها ولم يفه فنزل الملك المعظم ببعرين وجرى بينه وبين الملك الناصر قتال قليل ثم ارتحل الملك المعظم الى سلمية فاستولى على حواصلها وولي عليها ثم توجه الى المعرة فاستولى عليها واقام فيها والياً من جهته وقرر امورها ثم عاد الى سلمية فاقام بها على قصد منازلة حماة ودخلت سنة ٦٢٠ هـ سنة ١٢٢٤ م وبلغ الملك الاشرف ما فعله اخوه المعظم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك واتفق مع اخيه الملك الكامل على انكار ما فعله المعظم وترحيله عن حماة فارسل اليه الملك الكامل ناصح الدين الفارسي فقال له السلطان يأمرك بالرحيل فقال السمع والطاعة ورحل مغضباً على اخويه الكامل والاشرف ورجعت سلمية والمعرة للملك الناصر وكان الملك المظفر محمود من اسرة الايوبيين مقيماً عند الملك الكامل بالديار المصرية وكان الملك الكامل يوثر تمليكه حماة لكن اخاه الملك الاشرف غير مجيب الى ذلك لانتماء الملك الناصر صاحب حماه اليه وجرى بين الكامل والاشرف في ذلك مراجعات اخرها انهما اتفقا على نزع سلمية من يد الناصر وتسليمها الى الملك المظفر فتسلمها وهو بمصر وأرسل اليها نائباً من جهته حسام الدين بن محمد بن علي الهذباني واستقر بيد الناصر حماه والمعرة وبعرين وسار الاشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من اخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب وعمره يومئذ عشر سنين واركب الملك العزيز في دست السلطة واتفق مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية فارسلوا عسكراً وهدموها الى الارض

وفي سنة ٦٢٤ هـ سنة ١٢٢٨ م توفي الملك المعظم بن الملك العادل صاحب دمشق بقلعة دمشق بالدوسنطاريا وعمره تسع واربعون سنة وكانت مدة ملكه دمشق تسع سنين وشهورًا على رواية ابي الفدآء وعشر سنين وخمسة اشهر وثلاثة وعشرين يوماً على رواية ابن الاثير وكان شجاعاً وكان يجامل اخاه الملك الكامل صاحب مصر ويخطب له ببلاده ولا يذكر اسمه معه وكان قليل التكلف جدًا لا يركب بالسناجق السلطانية ويتخرق في الاسواق من غير ان يطرق بين يديه كعادة الملوك وكان عالماً فاضلاً بالفقه والنحو واللغة وكان حنفياً متعصباً لمذهبه وخالف جميع اهل بيته فانهم كانوا شافعية وكان قد امر ان يجمع له في اللغة جامع كبير يشتمل على الصحاح الجوهري ويضاف اليه ما فات الصحاح من التهذيب للازهري والجمهرة لابن دريد وغيرهما وكان يحب العلماء ويقربهم اليه واوصى عند موته بان يكفن في البياض ولا يجعل في اكفانه ثوب فيه ذهب وان يدفن في لحد ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء وولي بعده ابنه داود ويلقب الملك الناصر وكان عمره قارب عشرين سنة

وفي سنة ٦٢٥ هـ سنة ١٢٢٩ م ارسل الملك الكامل صاحب مصر يطلب من ابن اخيه الملك الناصر داود حصن الشوبك فلم يجب الى طلبه فسار الملك الكامل من مصر ونزل على تل العجول بظاهر غزة وولي على نابلس والقدس وغيرهما من بلاد ابن اخيه المذكور وكان مع الملك الكامل الملك المظفر صاحب حماة وقد وعده الكامل ان ينتزع حماه من اخيه الناصر ويسلمها اليه ولما علم الملك الناصر صاحب دمشق بقصد عمه الملك الكامل استنجد بعمه الملك الاشرف فقدم الى دمشق ورأى الناصر يحتاط ويتجهز للحصار فامر بازالة ذلك وحلف للناصر على المساعدة والحفظ له ولبلاده وراسل الملك الكامل واصطلحا وظن صاحب دمشق انه معهما في الصلح ثم سار الملك الاشرف الى اخيه الملك الكامل الى غزة واتفقا في الباطن

على اخذ دمشق من ابن اخيهما الناصر وتعويضه عنها بحران والرها والرقة من بلاد الملك الاشرف وان تستقر دمشق للملك الاشرف ويكون له الى عقبة افيق وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للملك الكامل صاحب مصر وبلغ الناصر ذلك وهو بنابلس فرحل الى دمشق وسار الاشرف في اثره وحصره بدمشق وبعد ان عقد الملك الكامل الهدنة مع امبراطور المانيا سنة ٦٢٦ ه سنة ١٢٢٩ م كما مر سار الى دمشق لمعاونة اخيه الاشرف في حصارها واشتد الحصار فاستولى الملك الكامل على دمشق وعوض الناصر صاحبها بالكرك والبلقاء والصلت والاغوار والشوبك واخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت قد عينت للناصر وهي حران والرها وغيرها وتسلم الاشرف دمشق وسلم اخاه الملك الكامل البلاد الشرقية المذكورة

ولما سلم الملك الكامل دمشق الى اخيه الاشرف سار من دمشق الى سلمية ونازل حماة وبها الملك الناصر المذكور وكان فيه جبن فخاف وكان في العسكر الذي نازله شيركوه صاحب حمص فراسله الناصر ان يأتي اليه ليلاً ليحضره عند الملك الكامل وأتى ومضى به شيركوه الى الكامل وهو بسلميه ولما رأه الكامل شتمه وامر باعتقاله وبان يأمر نوابه في حماه ان يسلموها الى عسكر الكامل وارسل علامته الى نوابه بذلك فامتنع الطواشيان بشر ومرشد من تسليمها وكان بقلعة حماة الملك المعز اخو الناصر فملكوه حماة وارسلوا يقولون للملك الكامل لا نسلم حماة لغير واحد من اولاد تقي الدين وكان من هولاء الملك المظفر وكان من جملة عسكر الكامل فارسل الكامل يقول له اتفق مع غلمان ابيك وتسلم حماة فاتفق معهم ففتحوا له باب النصر فمضى الى دار الوزير المعروفة بدار الاكرم وهي الآن مدرسة تعرف بالخاتونية (قال ابو الفدا هذه المدرسة وقفتها عمتي مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور) وحضر اهل حماة وهنئوا الملك المظفر بملك حماة وصعد في اليوم

الثالث من دار الوزير الى القلعة وتسلمها وفوض امور تدبير حماة الى الامير سيف الدين علي الهذباني الذي كان خادماً له قبل توليته على حماه وكان يقول له اشتهي ان اراك صاحب حماة واكون بعين واحدة فاصيبت عينه في الحرب على حماة مع عسكر الكامل فحظي عند الملك المظفر بتدبير امور حماة ولما استقرّ ملك المظفر بحماة انتزع الكامل منه سلمية وسلمها الى شيركوه صاحب حمص وامره ان يعطي اخاه الملك الناصر بعرين فامتثل ولم يبقَ بيد الملك المظفر الا حماة والمعرة ثم رحل الملك الكامل عن سلمية الى البلاد الشرقية التي اخذها من اخيه الاشرف عوضاً عن دمشق فنظر في مصالحها ثم لحقه الملك المظفر فزوجه الكامل بنته غازية خاتون وهي بنت خاله لان المظفر ابن اخت الكامل ثم عاد المظفر الى حماة وعاد الملك الكامل بعد ان دبر البلاد الشرقية الى مصر :

وفي سنة ٦٢٧ هـ سنة ١٢٣٠ م استولى الملك الاشرف صاحب دمشق على بعلبك فانه ارسل اخاه الملك الصالح صاحب بصرى فنازلها وبها صاحبها الملك الامجد بهرام من الايوبيين ايضاً وطال الحصار الى ان سلم الملك الامجد بعلبك الى الملك الاشرف وعوضه عنها الزبداني وقصير دمشق الذي شماليها ومواضع اخرى وتوجه الملك الامجد واقام بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب وكان الاشرف قد حبس بعض مماليكه في داره وجلس قدام المحبس يلعب بالنرد ففتح المملوك الباب واخذ سيفاً ضرب به مولاه فقتله ثم طلع الى سطح الدار والقى نفسه الى وسطها فمات ودفن الملك الامجد بمدرسة والده التي على الشرف وكانت مدة ملك الامجد بعلبك تسعاً واربعين سنة لان السلطان صلاح الدين ملكه اياها سنة ٥٧٨ هـ وكان الامجد اشعر بني ايوب وشعره مشهور

وفي سنة ٦٢٩ هـ سنة ١٢٣٢ م سار الملك الكامل واخوه الملك الاشرف

الذي كان عنده بمصر فوصلا الى الشوبك فاحتفل لهما الملك الناصر داود ابن اخيهما الملك المعظم بالضيافات والتقادم وحصل بينهم الاتحاد التام وسافر الناصر معهما الى دمشق ثم سار الملك الكامل من دمشق الى سلمية واجتمع معه ملوك اهل بيته في جمع عظيم ثم سار معهم الى آمد فحاصرها وتسلمها من صاحبها المسعود ابن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا ارسلان الذي ملكه صلاح الدين آمد واعطى الكامل الملك المسعود اقطاعاً جليلاً في مصر ثم بدت منه امور منكرة فاعتقله الملك الكامل وبقي معتقلاً الى ان مات الملك الكامل ورتب الكامل امور آمد وعاد الى مصر

وفي سنة ٦٣٠ هـ سنة ١٢٣٣ م استولى الملك العزيز صاحب حلب على شيزر وكانت بيد شهاب الدين يوسف من ولد عثمان بن الداية من امرآء نور الدين بن زنكي وكان صلاح الدين قد اقر عثمان بن الداية على شيزر فاخذها هذه السنة الملك العزيز بامر الملك الكامل من شهاب الدين المذكور وعاونه على ذلك الملك المظفر صاحب حماة ثم اخذ الملك المظفر صاحب حماة بعرين من اخيه قليج ارسلان لانه خشي ان يسلمها الى الفرنج لضعفه وجرى ذلك باذن الملك الكامل

وفي سنة ٦٣٤ هـ سنة ١٢٣٧ م توفي الملك العزيز صاحب حلب ابن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين وتقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف وعمره سبع سنين والمرجع في امور المملكة الى جدته والدة الملك العزيز واسمها ضيفة خاتون بنت الملك العادل وفي هذه السنة قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين اخيه الملك الاشرف صاحب دمشق وسبب ذلك ان الملك الكامل قصد بلاد الروم فاتفق الملك الاشرف مع شيركوه صاحب حمص ومع صاحبة حلب ضيفة خاتون (اخت الملك الكامل) ومع باقي الملوك على مخالفة الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة فانه تمنع عن الاتفاق معهم فتهدده الملك الاشرف بانتزاع بلاده منه

فقدم خوفاً من ذلك الى دمشق ووافق الاشرف على قتال الملك الكامل وكاتب الاشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال اخيه الكامل اذا خرج اليه وارسل الاشرف يقول للناصر داود صاحب الكرك ان وافقتني جعلتك ولي عهدي واوصيت لك بدمشق وزوجتك بابنتي فلم يوافقه لسؤ حظه ورحل الى مصر وصار مع الكامل على ملوك الشام فسر الكامل به وجدد عقده على ابنته عاشور التي كان قد طلقها منه واركب الناصر بسناجق السلطنة ووعده انه ينتزع دمشق من الاشرف ويعطيه اياها ولكن في سنة ٦٣٥ هـ سنة ١٢٣٨ م توفي الملك الاشرف وتملك دمشق اخوه الصالح اسماعيل صاحب بصرى بعهد من الاشرف وكانت مدة ملك الاشرف بدمشق ثماني سنين وشهورًا ولم يكن له من الاولاد الا بنت واحدة ولما استقر الملك الصالح اسماعيل في دمشق كتب الى الملوك من اهله والى كيخسرو صاحب بلاد الروم في اتفاقهم معه على اخيه الملك الكامل فوافقوه على ذلك الا الملك المظفر صاحب حماة فانه كتب الى الكامل يعتذر عن انقياده اولاً للاشرف خوفاً منه فقبل الملك الكامل عذره ووعده بانتزاع سلمية من صاحب حمص وتسليمها اليه

ولما علم الملك الكامل وفاة اخيه الاشرف سار الى دمشق ومعه الناصر صاحب الكرك واستعدّ الملك الصالح اسماعيل للحصار ووصل اليه صاحب حمص ونجدة الحلبيين ونازل الكامل دمشق واخرج الصالح النفاطين فاحرق العقيبة جميعها وما بها من خانات واسواق وفي مدة الحصار جاء نحو خمسين رجلاً من حمص نجدة للصالح فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين وعند الحصار ارسل الكامل توقيعاً للملك المظفر صاحب حماة ليستلم سلمية فتسلمها واخيرًا سلم الملك الصالح دمشق الى اخيه الملك الكامل وتعوض عنها ببعلبك والبقاع مضافاً الى بصرى التي كانت له وكان الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فارسل اليه العسكر وأمر

صاحب حماة بالمسير اليه فاشتد خوف شيركوه وتخضع للملك الكامل واوسل اليه نساءه ودخلنّ على الملك الكامل فلم يلفت الى ذلك . وبعد ايام مرض الكامل واشتدّ مرضه وسببه انه لما دخل قلعة دمشق اصابه زكامٌ فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة الى معدته وتورمت منها وحصل له حمّى فمات سنة ٦٣٥ هـ سنة ١٢٣٨ م وكانت مدة ملكه لمصر من حين مات ابوه العادل عشرين سنة وكان نائباً بها قبل ذلك نحو عشرين سنة وكان عمره حين وفاته نحو ستين سنة وكان بين موته وموت اخيه الاشرف نحو ستة اشهر

واتفق الامرآء على تحليف العسكر للملك العادل ابن الملك الكامل وهو حينئذٍ نائب ابيه بمصر فحلفوا له واقاموا في دمشق نائباً له الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل ورجع الملك الناصر الى الكرك وسار اكثر العسكر الى مصر وتأخر بعضهم مع الجواد بدمشق وفرح شيركوه صاحب حمص بوفاة الملك الكامل واتاه فرج ما كان ينتظره وحزن الملك المظفر صاحب حماة وارسل صاحب حمص ارتجع سلمية وقطع القناة الواصلة من سلمية الى حماة فيبست بساتينها ثم سد مخرج العاصي من بحيرة قدس فبطلت نواعير حماة والطواحين وذهب الماء في اودية بجوانب البحيرة ولما لم يجد مسلكاً عاد فهدم ما عمله صاحب حمص وجرى كما كان اولاً وكذلك امن صاحب حلب وعسكره بموت الكامل انتهى ملخصاً عن ابي الفدا وابن الاثير

﴿ عـد ٨٦٦ ﴾

﴿ اخبار الافرنج بسورية بعد عود عاهل الالمان الى المغرب ﴾

ان فريدريك الثاني عاهل الالمان برح سورية في ٢٩ ايار سنة ١٢٢٩ ولم يُقِم من يدافع عن الفرنج بها ولم يحفل بتحصين اورشليم فسار بطريرك انطاكية وبطريرك اورشليم الى المغرب يستصرخان الحبر الروماني وامرآء اوروبا فعقد البابا

غريغوريوس التاسع مجمعاً في سبولاتو (بايطاليا) سنة ١٢٣٤ شهده فريدريك الثاني (وكان البابا قد صالحه) والبطريركان المذكوران وبطريرك قسطنطينية اللاتيني وقرروا انه لا لزوم لرعاية الهدنة التي عقدت مع الكامل صاحب مصر بل يلزم امداد نصارى المشرق لان المسلمين دخلوا اورشليم بعد الهدنة وارسل البابا رسائل الى الخليفة ببغداد والى صاحب دمشق وغيرهما من امرآء المسلمين واوفد دعاةً في اوروبا يحضون الناس على السلم وترك الخصومات المتفاقمة حينئذٍ في المغرب وانفذ رسائل الى الاساقفة ليفروا الناس بنجدة الفرنج بسورية فأخذ تيبو كنت شمبانيا وملك نافارا راية الصليب ودعا الناس الى اتباعه فاقتدى به دوك بوركونيا وكنت بريطانيا وكنت باد وكثيرون من اعيان افرنسا وعزموا على المسير الى فلسطين واجتمعوا سنة ١٢٣٦ بمدينة طور ليقرروا ما ييسر نجاح حملتهم وكانت حينئذ مملكة اللاتين في القسطنطينية شاغرة ليس من يحميها ويضبطها وهي على حافة الهلاك وتستدعي النجدة فحار المجتمعون بين ان ينجدوا الفرنج بسورية او مملكة قسطنطينية واستشاروا البابا غريغوريوس فاجابهم ان توطيد اركان مملكة قسطنطينية ييسر لهم خطتهم بسورية وكان عاهل الالمان قد عاد الى القاء الفتنة باوروبا بادعائه السيادة على سردينيا وبحملته على رومة ايضاً فعم القلق اوروبا واجتمع رؤساء الصليبيين في ليون سنة ١٢٣٩ عازمين على السفر الى سورية فارسل البابا سفيرًا يبين لهم انه يريد ان يعودوا الى مواضعهم لانه ليس من السداد ان يسافروا وهذه حالهم وهذا شأن اوروبا فاجابوا ان عودهم لايستطاع وكتب اليهم فريدريك الثاني ان يأجلوا سفرهم الى السنة القادمة فيسير في مقدمتهم فاعتقدوا ذلك خدعة وساروا الى مرسيليا ثم منها الى عكا سنة ١٢٣٩ ولكن لم يجدوا سفناً لنقل كل عسكرهم لان اهل جنوا كانوا يدافعون مع البابا واهل بيزا مع العاهل فلم يتخلَّ الفريقان عن سفنهما واهل البندقية كانوا يدافعون عن ملك قسطنطينية . ولما بلغ الصليبيون الى

عكا كان الملك الكامل قد توفي وامرآء اسرته يتنازعون ارثه ولم يعلم الفرنج ان ينتفعوا بهذا النزاع اذ لم يكن بينهم من يجمع كلمتهم ويوحد عملهم واقاموا كنت شمبانيا رئيساً عليهم فلم يعلم ان يجمعهم على طاعته وسار نحو عسقلان قاصدًا ان يجدد اسوارها فسار دوك بريطانيا بفرسانه نحو دمشق فعاد ومعه قطعان من جمال وبقر وخيل وحمير غنمها من المسلمين واراد كنت باد ودوك بركونيا ان يقتديا به فسارا نحو غزة ولما علم قصدهما سألهما اعيان الفرنج ان لا يفصلا عن عسكرهم وامرهما كنت شمبانيا الذي كانوا قد امروه عليهم ان لا يغادرا المعسكر فلم يسمعا له بل قالا اتينا سورية لنحارب لا لنلازم البطالة وسارا في من تبعهما من العسكر ولما توغلوا في البلاد وعلم امير غزة بدنوهم اوقد ليلاً النار على الاكام اشارة الى وقوع ما يكره فتألب المسلمون من كل فج وقصدوا الفرنج فتقدم كنت باد في كتيبة من فرسانه ليستطلع عدد الاعداء وحالهم فرآهم يزيدون اضعافاً على عدد الفرنج وهم يتحفزون للقتال فتشاور روساء الفرنج وكان راي كنت يافا ودوك بوركانيا ان ينسحبوا دون قتال وارتأى كنت باد وكنت مونتا فراتا ان يقاتلوا واصروا على عزمهم واشتبك القتال فزحزح الفرنج اولاً المسلمين عن مراكزهم ولكن نفد ما معهم من السهام وطمع المسلمون بهم واظهروا الانكسار امامهم الى محل اطبقوا به عليهم من كل جهة فثبت بعض رؤسائهم في القتال وابدوا آيات البسالة وتسارع من بعسقلان من الفرنج لنجدتهم فوجدوا الاعداء يغللون الاسرى وينتزعون ثياب القتلى ويغنمون بما معهم ولم يروا من الصواب الوثوب على الاعدآء او لحاقهم وكان من جملة الاسرى كنت باد وكنت مونتا فراتا وغيرهما من الاعيان وعاد من بقي من العسكر الى عكا ثم سار بعضهم الى صور وصيدا واطرابلس ولما ايقن الفرنج عجزهم عن الانتصار راسل فرسان الهيكل وبعض روساء الفرنج ملك دمشق واتفقوا معه على هدنة وعلى رد المواضع

المقدسة وارسل الاسبتاليون وكنت شمبانيا ودوك بريطانيا الى سلطان مصر وعقدوا معه معاهدة على ان يعاونوه على مخالفيه في سورية وقد ذكر ذلك المؤرخون العرب ايضاً آسفين من اتفاق امرائهم مع الفرنج كما سترى

وعاد كثيرون من رجال هذه الحملة الى المغرب واتى منه الى عكا جمع من انكلترا بامرة ريشار دي كورتويل اخي انريكوس الثالث ملكها وكان ريشار اغنى الامرآء في اوربا ولما اقبل على عكا خرج للقائه الشعب والاكايرس مرددين باعلى اصواتهم قول الانجيل « مبارك الآتي باسم الرب » وكان ريشار هذا ابن اخي ريشار الملقب بقلب الاسد المشهور في المشرق ولم يكن انقص منه شجاعة ولكن بعد ان زحف الى الاعدآء وحاز بعض الظفر غادره الفرسان الاسبتاليون تمسكا بالهدنة التي عقدوها مع سلطان مصر وتقاعد عنه الهيكليون حرمة للهدنة التي عقدوها مع ملك دمشق فلما رأى الفرنج لا يطاوعونه ترك الحرب مكرهاً واقتصر على تجديد معاهدة الصلح مع الامرآء المسلمين ولم ينل من ثمار غزوته الا مبادلة المسلمين بتخلية سبيل الاسرى والاذن بدفن عظام القتلى من النصارى في وقعة غزة ثم زار اورشليم التي كانت قد سلمت الى الفرنج ثانية وفي رواية ان ريشار اشترط في معاهدة الصلح مع سلطان مصر خروج المسلمين من اورشليم ثم سافر ريشار الى ايطاليا فوجد البابا ما زال منشغلاً بالحرب مع اعداء حكومة رومة وقد ضم المورخون الفرنج الاحداث التي ذكرناها في هذا الفصل الى اعمال الحملة السادسة التي قام بها فريدريك الثاني عاهل الالمان انتهى ملخصاً عن كثيرين

عدد ٨٦٧

في ما كان من الاحداث بين الملوك الايوبيين بعد وفاة الملك الكامل

لما بلغ الحلبيين موت الملك الكامل اتفقت اراؤهم على اخذ المعرة ثم اخذ حماة من الملك المظفر صاحب حماة لموافقته الكامل على قصده وسار عسكرهم

الى المعرة فانتزعها من يد المظفر وحاصر قلعتها فاخذها ايضاً ثم ساروا وفي مقدمتهم المعظم توران شاه ابن صلاح الدين الى حماة ونازلوها وبها الملك المظفر واستمرّ الحصار حتى انتهت هذه السنة وهي سنة ٦٣٥ هـ سنة ١٢٣٨ م ففي السنة التالية ضجرت نفوسهم من هذا الحصار ولم يجدوا بحماة مطمعاً فامرت ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها فرحلوا بعد ان نهبوا بلاد حماة وانفق الملك المظفر على هذا الحصار اموالاً كثيرة واستمرت المعرة في يد الحلبيين وسلمية في يد صاحب حمص ولم يبقَ للمظفر الاّ حماة وبعرين وخاف ان تخرج بعرين بسبب قلعتها فهدم هذه القلعة الى الارض

قد مرّ ان الملك العادل ابن الملك الكامل خلف اباه بمصر واقيم الملك الجواد نائباً له في دمشق ففي سنة ٦٣٦ هـ سنة ١٢٣٩ م اراد الملك العادل ان ينتزع دمشق من يد الملك الجواد وان يعوضه عنها اقطاعاً بمصر فلم يرد الجواد ذلك بل سلم دمشق الى الملك الصالح ايوب ابن الملك الكامل الذي كان صاحب سنجار والرقة وعانه فاستولى الملك الصالح على دمشق وكان الملك المظفر صاحب حماة معاضداً له ولما استقرّ ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه ليملك مصر فخرج من دمشق وجعل نائبه فيها ولده الملك المغيث عمر وشرع يكاتب عمه الصالح اسمعيل صاحب بعلبك ويستدعيه اليه وعمه المذكور يعتذر له ويظهر انه معه وهو يعمل عليه في الباطن وكان الملك الناصر صاحب الكرك قد سافر الى مصر واتفق مع الملك العادل على قتال اخيه الملك الصالح صاحب دمشق ودخلت سنة ٦٣٧ هـ سنة ١٢٤٠ م والملك الصالح ايوب بنابلس قاصداً الاستيلاء على مصر وقد اكتشف على ان عمه اسماعيل يضاده وكان له طبيب يثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقي فارسله الى بعلبك ليطالعه باخبار عمه ومعه قفص من حمام نابلس وعلم اسماعيل بوصول الحكيم فاستحضره واكرمه

وسرق حمام نابلس وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطيب بذلك فصار يكتب الى الصالح ان عمك اسماعيل يجمع الرجال قاصداً دمشق فيقعد الطير ببعلبك فياخذ اسماعيل البطاقة ويكتب ان عمك اسماعيل جمع الرجال ليعاضدك وهو واصل اليك ويسرحه على حمام نابلس فيعتمد الصالح على ذلك ويترك ما ورد له من غيره واتفق ان علم الملك المظفر صاحب حماة بسعي اسماعيل في اخذ دمشق فجهز نائبه سيف الدين ومعه ما يلزم من السلاح والمال ليحفظ دمشق لصاحبها الصالح واظهر انه اختصم مع نائبه وانه فارقه لأنه يريد ان يسلم حماة للفرنج كل ذلك ليخفي قصده على شيركوه صاحب حمص لئلا يعارض النائب فلم تخف هذه الحيلة على شيركوه بل التقى سيف الدين النائب المذكور على بحيرة حمص واظهر انه مصدقه وساله الدخول الى حمص ليضيفه فدخل سيف الدين وبعض جماعته الى حمص فدخل عليهم شيركوه واخذ ما كان معهم من المال والسلاح واعتقلهم وعذبهم وسار شيركوه بعيَّة اسماعيل صاحب بعلبك في عسكرهما الى دمشق وحاصروا قلعتها وتسلموها وقبضوا على المغيث ابن الصالح ونائبه بدمشق وبلغ ذلك الملك الصالح فسار من على نابلس الفور فعلم ان عمه اسماعيل استولى على قلعة دمشق واعتقل ولده المغيث ففسدت نيات عساكره عليه وشرع الامرآء ومن معه من الملوك يدخلون الى اسماعيل بدمشق ولم يبقَ عنده الا مماليكه واستاذ داره حسام الدين ابن ابي علي واصبح لا يدري ما يفعل وسمع الناصر داود صاحب الكرك بذلك فنزل بعسكره وامسك الصالح ايوب واعتقله في الكرك وارسل اخوه العادل صاحب مصر بطلبه من صاحب الكرك فلم يسلمه وتهدده العادل باخذه عنوة فلم يلتفت الناصر الى ذلك ثم افرج الملك الناصر عن ابن عمه الملك الصالح واجتمعت عليه مماليكه وكاتبه البهاء زهير وسار الناصر والصالح الى قبة الصخرة بالقدس وتحالفا على ان تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر

فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور امر اخيه الصالح عظم عليه وبرز بعسكر مصر قاصدًا الناصر والصالح وارسل الى عمه الصالح اسماعيل المستولي على دمشق ان يقصدهما من جهة الشام فسار اسمعيل بعساكر دمشق ونزل الفوار فبينا الناصر داود والصالح ايوب في هذه الشدة وهما بين عسكرين قد احاطا بهما اذ ركبت جماعة من المماليك الاشرفية ومقدمهم ايبك الاسمر واحاطوا بدهليز الملك العادل وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليه من يحفظه وارسلوا الى الصالح ايوب يستدعونه فأتاه فرج لم يسمع بمثله فسار هو والناصر داود الى مصر وكان كل يوم يلتقي الصالح ايوب فوج بعد فوج من الامرآء والعسكر فدخل مصر وزينت له البلاد وفرح الناس بقدومه وكانت مدة ملك العادل سنتين وحصل للملك المظفر صاحب حماة من السرور بملك الصالح ايوب ما لا يمكن شرحه فانه ما زال على ولائه حتى انه لما امسك بالكرك كان يخطب له بحماة وبلادها ولما استقرّ الملك الصالح ايوب في ملك مصر وصحبته الناصر داود استشعر كل منهما من صاحبه وخاف الناصر القبض عليه فاسترخص وتوجه الى بلاده الكرك

وفي سنة ٦٣٨ هـ سنة ١٢٤١ م قبض الملك الصالح ايوب على ايبك الاسمر وعلى غيره من الامرآء والمماليك الذين قبضوا على اخيه العادل واودعهم الحبوس وشرع في بناء قلعة الجزيرة بمصر واتخذها مسكنًا لنفسه وكثرت في هذه السنة وما بعدها اغارات الخوارزمية على سورية وسنفرد لذكرها الفصل التالي وفيها كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل الذي كان قد تولى دمشق ثم عوض عنها بسنجار وعانه فباع عانه للخليفة المستنصر وسار لؤلؤ صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس غائب واستولى عليها فلم يبق بيد يونس شيء من البلاد فسار الى غزة وارسل الى الملك الصالح ايوب صاحب مصر يسأله في المصير اليه فلم يجبه الى ذلك فسار يونس الى عكا واقام مع الفرنج فارسل الصالح اسمعيل

صاحب دمشق حينئذ وبذل مالاً للفرنج وسلم يونس المذكور واعتقله ثم خنقه وفيها ايضاً قوي خوف الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن اخيه صاحب مصر فسلم اسمعيل صفد والشقيف الى الفرنج ليعضدوه على ابن اخيه فعظم ذلك على المسلمين وعابوه به

وفي سنة ٦٣٩ ﻫ سنة ١٢٤٢ م اتفق الصالح اسمعيل صاحب دمشق مع المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص (الذي كان ابوه قد توفي فخلفه هو) وضيفة خاتون صاحبة حلب على عداوة الملك الصالح ايوب صاحب مصر ولم يوافقهم الملك المظفر صاحب حماة واخلص في الانتماء الى صاحب مصر وفي سنة ٦٤٠ ﻫ سنة ١٢٤٣ م توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل اخي صلاح الدين وكانت قد تزوجت بالملك الظاهر صاحب حلب ولما توفي ابنها الملك العزيز كما مرّ ملكت حلب وتصرفت بالملك تصرف السلاطين وقامت به احسن قيام وكانت مدة ملكها ست سنين ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز ثلاث عشرة سنة فملك حلب بعدها وكان مرجع الامور الى جمال الدين اقبال الاسود الخصي

وفي سنة ٦٤١ ﻫ سنة ١٢٤٤ م كانت المراسلة بين الصالح ايوب صاحب مصر والصالح اسمعيل صاحب دمشق في الصلح على ان يطلق اسمعيل المغيث بن صاحب مصر وحسام الدين بن ابي علي المدباني وكانا معتقلين عنده فاطلق حسام الدين واستمرّ المغيث في الاعتقال واتفق اسمعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضدا بالفرنج وسلما اليهم عسقلان وطبرية فعمّر الفرنج قلعتيهما وسلما اليهم ايضاً القدس بما فيها من المزارات قال القاضي جمال الدين بن واصل مررت اذ ذاك بالقدس متوجهاً الى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقربان وفي سنة ٦٤٢ ﻫ سنة ١٢٤٥ م استدعى الملك الصالح صاحب مصر

الخوارزمية ووصلوا الى غزة ووافتهم العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس مملوك الصالح صاحب مصر الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك وارسل اسمعيل صاحب دمشق العساكر مع الملك المنصور وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص وسار هذا الى عكا فاستدعى الفرنج على ما كان وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر فخرج الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك والتقى الفريقان بظاهر غزة واقتتلا فانهزم عسكر دمشق والافرنج وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً واستولى صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ووصلت الاسرى والرووس الى مصر ودقت بها البشائر عدة ايام وسار عسكر مصر والخوارزمية الى دمشق وحاصروها فتسلموها سنة ٦٤٣ هـ سنة ١٢٤٦ م على ان يستقر بيد أسماعيل صاحبها بعلبك وبصرى والسواد ويستقر بيد صاحب حمص حمص وما هو مضاف اليها ثم خرج الخوارزمية عن طاعة صاحب مصر لانهم كانوا يأملون ان يحصل لهم من البلاد ما يرضيهم فلم يعطوا شيئاً فانقلبوا الى معاضدة اسماعيل الذي اخذ بعلبك وانضم اليهم صاحب الكرك وعادوا فحاصروا دمشق وغلت الاقوات وقاسى اهلها شدة عظيمة

وفي سنة ٦٤٣ هـ سنة ١٢٤٦ م اتفق الحلبيون والملك المنصور صاحب حمص مع الملك الصالح صاحب مصر وقصدوا الخوارزمية وهم محاصرون دمشق فرحل الخوارزمية عن دمشق وساروا الى الحلبيين فالتقى الجيشان سنة ٦٤٤ هـ سنة ١٢٤٧ م في محل يقال له القصب فانهزم الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل راسه الى حلب ولما وصل خبر كسرتهم الى الملك الصالح صاحب مصر فرح فرحاً عظيماً وزال ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص وحصل بينهما التصافي واما الصالح اسمعيل فسار الى الناصر يوسف صاحب حلب واستجار به وارسل صاحب مصر يطلبه فلم

يسلمه الملك الناصر اليه ورحل حينئذٍ حسام الدين بن ابي علي الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق و'ازل بعلبك وبها اولاد اسماعيل المذكور وتسلمها بالامان وحمل اولاد اسماعيل الى صاحب مصر فاعتقلهم هناك وكذلك فعل بامين الدولة وزير اسمعيل وناصر الدين يغمور استاذ داره ودقت البشائر لفتح بعلبك ومات وقتئذ سيف الدين بن قليج صاحب عجلون فتسلمها الملك الصالح ايوب وارسل عسكرًا الى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك فاستولى على بلاده وخرب ضياعها وحاصر الكرك ولم يستولِ عليها صاحب مصر الا في سنة ٦٤٧ ه سنة ١٢٥٠ م اذ سار الناصر صاحبها الى الناصر صاحب حلب مستجيرًا به واستناب بالكرك ابنه عيسى وكان له اخوان اكبر منه الامجد والظاهر فساءهما تقديم اخيهما الاصغر عليهما فتوجه الامجد الى صاحب مصر وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولاخيه بديار مصر فاعطاهما اقطاعاً ارضاهما وتسلم الكرك وفرح بها

وقد توفي الملك المظفر صاحب حماة سنة ٦٤٢ ه سنة ١٢٤٥ م وكانت مدة ملكه في حماة خمس عشرة سنة وسبعة اشهر وعمره ثلثاً واربعين سنة وخلفه ابنه الملك المنصور محمد وفي سنة ٦٤٣ ه ١٢٤٦ م تسلم سلمية التي كانت قد اخذت من ابيه وسلمت الى صاحب حمص وفي سنة ٦٤٤ ه سنة ١٢٤٧ م توفي الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص بن شيركوه بدمشق ونقل الى حمص فدفن فيها وخلفه ولده الملك الاشرف موسى

وفي سنة ٦٤٥ ه سنة ١٢٤٨ م استرد صاحب مصر عسقلان وطبرية من يد الفرنج بعد محاصرتهما مدة وكان قد جرى تسليمهما الى الفرنج سنة ١٢٤٤ م فعمروها وحصنوها الى ان اخذهما صاحب مصر منهم سنة ١٢٤٨ وفي سنة ٦٤٦ ه سنة ١٢٤٩ م ارسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرًا مع شمس الدين لؤلؤ الارمني فحاصروا الملك الاشرف موسى بحمص مدة شهرين فسلم اليهم حمص

وتعوض عنها بتل باشر مضافاً الى ما في يده من تدمر والرحبة ولما بلغ ذلك الملك الصالح صاحب مصر شق عليه وسار الى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين وكان قد حصل له مرض ووصل الى دمشق فارسل عسكراً الى حمص وحصروها ونصبوا منجنيقاً مغربياً يرمي بحجرٍ زنته ١٤٠ رطلاً بالشامي واستمر عليها الحصار الى ان وصل الخبر الى الملك الصالح بدمشق بوصول الفرنج الى جهة دمياط وكان مرضه قد اشتدَّ ووصل رسول من قبل الخليفة وسعى بالصلح بين الملك الصالح والحلبيين وان تستقر حمص بيد الحلبيين فاجاب صاحب مصر الى ذلك وامر عسكره فرحلوا عن حلب وهو عاد الى مصر في محفة لقوة مرضه انتهى ملخصاً عن ابي الفداء

عـد ٨٦٨

في غزوات الخوارزمية في سورية

ان الخوارزمية ينتسبون الى خوارزم في البلاد الشرقيـة واصلهم من التتر وكان ملوكهم يسمون خوارزم شاه اي ملك خوارزم ولما خرج التتر في هذا القرن سطوا على خوارزم ونكلوا باهلها واخرجوهم من بلادهم فأتوا العراق ثم توطنوا الجزيرة في حران وما جاورها ففي سنة ٦٣٥ هـ سنة ١٢٣٨ م خرج الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح ايوب صاحب سنجار ونهبوا البلاد فاسترضاهم وبذل لهم حران والرها فعادوا الى طاعته وفي سنة ٦٣٨ هـ سنة ١٢٤١ م كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة صاحب مصر البلاد الشرقية وساروا الى قرب حلب فخرج عليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورنشاه بن صلاح الدين ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الافضل واسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور واستولى الخوارزميون على اثقال الحلبيين واسروا منهم عدة كثيرة ثم نزلوا بعد ذلك على جيلان وكثر عبثهم ونهبهم

في بلاد حلب وجفل اهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب واستعد اهلها للقتال وارتكب الخوارزمية من الفواحش ما ارتكبه التتر ثم ساروا الى منبج وهجموها بالسيف وفعلوا من القتل والنهب مثلما فعلوا بغيرها ثم رجعوا الى حران ثم عادوا من حران وقطعوا الفرات من الرقة ووصلوا الى الجبول ثم الى تل اعزاز ثم الى سرمين ثم الى المعرة وهم ينهبون ما يجدون ووصل الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص ومعه عسكر الصالح اسمعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبيين فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص وقصدوا الخوارزمية وقد كانوا على شيزر فنزل عسكر حلب على تل السلطان ورحل الخوارزمية الى جهة حماة ولم يتعرضوا لنهب لانتماء صاحبها الملك المظفر الى صاحب مصر ثم ساروا الى سلمية ثم الى الرصافة طالبين الرقة ولحقهم عسكر حلب وهجم عليهم العرب فارموا ما كان معهم من المكاسب وسيبوا الاسرى ووصلوا الى الفرات ووقع القتال هنالك بينهم وبين عسكر حلب وصاحب حمص الى الليل فقطع الخوارزمية الفرات وساروا الى حران فسار عسكر حلب الى البيرة وقطعوا الفرات والتقوا مع الخوارزمية قريب الرها فانهزم الخوارزمية وركب الحلبيون اقفيتهم يقتلون ويأسرون الى ان حال الليل بينهم

ثم سار عسكر حلب الى حران فاستولوا عليها وهرب الخوارزمية الى بلد عانه وبادر بدر الدين صاحب الموصل فاستولى على نصيبين ودارا وكانتا للخوارزميين وخلص من كان بهما من الاسرى منهم الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين وقدم له صاحب الموصل ثياباً وتحفاً وبعث به الى عسكر حلب واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج وراس عين وغيرها واستولى صاحب حمص على بلد الخابور ثم سار عسكر حلب وقد وصلت اليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك الصالح صاحب مصر بآمد وتسلموها منه

وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم وبقي ذلك بيده حتى توفي ابوه في مصر

وفي سنة ٦٤٠ هـ سنة ١٢٤٣م كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم صاحب حمص مصاف قريب المابور فولى المظفر والخوارزمية منهزمين اقبح هزيمة ونهب عسكر حلب شيئًا كثيرًا حتى نساءهم ونزل صاحب حمص في خيمة الملك المظفر واحتوى على خزانته ووطاقه وعادوا الى حلب وفي سنة ٦٤٢ هـ سنة ١٢٤٥ م اتى الخوارزمية الى غزة دعاهم صاحب مصر فانتصروا مع عسكره على عسكر دمشق والفرنج كما قدمنا في الفصل السابق ثم خرجوا عن طاعته وحاصروا دمشق مع الملك الصالح اسمعيل فردهم عنها الحلبيون وصاحب حمص سنة ٦٤٣ هـ سنة ١٢٤٦ م ثم نازلوهم سنة ٦٤٤ هـ سنة ١٢٤٧ م فشتتوا شملهم وقتلوا رئيسهم كما مر في الفصل السابق هذا ما ذكره ابو الفداء

واليك ما رواه المؤرخون الفرنج ولا سيما متى باري (وهو مؤرخ انكليزي من رهبنة القديس عبد الاحد كان في هذا القرن) ان ملوك دمشق وحلب وحمص والكرك وافقوا او هادنوا الفرنج في فلسطين على سلطان مصر فاستدعى هذا لنجدته الخوارزمية الذين كان التتر قد اخرجوهم عن بلادهم فاتوا فلسطين وقد علمنا ما كان منهم من رسالة رفعها روبرتس بطريرك اورشليم وانريكس مطران الناصرة وغيرهما من رؤساء الفرنج بفلسطين الى اساقفة افرنسة وانكلترا مؤرخة في ٢٣ تشرين الاخر سنة ١٢٤٤م هذه خلاصتها ان التتر اخربوا بلاد فارس وطردوا الخوارزميين من بلادهم فلم يبقَ لهم مقر ثم استدعاهم سلطان مصر ليقيموا في فلسطين واعدًا لهم بمساعدته فأتوا بنسائهم وعيالهم بغتة فلم يكن لنا وقت لصدهم ودخلوا الى عمل اورشليم من جهة صفد وطبرية واتفق راى الفرسان واعيان البلاد على ان نستنجد ملكي دمشق وحمص حليفينا ومن جملة اعداء الخوارزمية ولما ابطاء

مدد هؤلاء ولم تكن اسوار لاورشليم رأى سكانها ان لا قدرة لهم على الدفاع عنها فزايلوها وعددهم نحو ستة الآف وساروا في الجبال معتمدين على الهدنة التي كانت بينهم وبين صاحب الكرك فوثب بعض المسلمين عليهم فقتلوا بعضاً واسروا بعضاً وهرب الباقون الى صحرآء الرملة فهجم عليهم الخوارزمية وقتلوهم ولم يبقَ منهم الا ثلث مئة نفس ثم دخل الخوارزميون اورشليم وهرع من بقي منها الى كنيسة القبر المقدس فدخل الخوارزمية اليهم وقتلوهم وقطعوا روس الكهنة الذين كانوا يقدسون وخربوا القبر وازالوا الرخام الذي كان بالكنيسة وهدموا مدافن ملوك الفرنج ودنسوا جبل صهيون وكنيسة وادي يوشافاط حيث مدفن العذراء ثم ساروا الى بيت لحم وفعلوا الفظائع في كنيستها وفي مغارة المولد فعيل صبرنا على تحمل هذه المصائب وجزمنا على محاربة الخوارزمية مع ملكي دمشق وحمص وزحف عسكرنا من عكا بطريق قيصرية وكان الخوارزمية مجتمعين في جازر منتظرين عسكر سلطان مصر ولما وصل اشتبك القتال يوم الاثنين ١٧ تشرين الاول فانكسر المسلمون الذين كانوا معنا وانهزموا وبقي النصارى صابرين على القتال ولما كان عددهم قليلاً ذعروا وقتل منهم كثيرون حتى لم يبقَ من الهيكليين الا ثلثة وثلاثون فارساً ومن الاسبيتاليين خمسة وعشرون فارساً ومن فرسان القديس يوحنا ثلثة

وقد سألنا بعد هذه المصيبة ملك قبرس وامير انطاكية ان ينجدانا بعسكر للذب عن الارض المقدسة ولا نعلم ما يصنعان اجل ان مصيبتنا الماضية عظيمة لكننا نخشى اعظم منها فيما بعد لان بلاد النصارى لا معين لها من الناس والاعدآء مجتمعون على ميلين من عكا ويبثون سراياهم في كل البلاد حتى الناصرة وصفد ويجبون من الاهلين الخراج الذي كان النصارى ياخذونه فان كل هؤلاء الاهلين انقلبوا علينا وصاروا مع الخوارزمية فلم يبقَ للنصارى الاّ بعض القلاع ويتعذر

عليهم الدفاع عنها واختتموا هذه الرسالة بقولهم ان الفرنج خسروا الارض المقدسة ان لم ينجدوا من الآن الى شهر اذار القادم ٠ انتهى تلخيص هذه الرسالة التي اثبتها ايضاً رايلدوس في تاريخ سنة ١٢٤٤

وكان في جملة من اسرهم الخوارزميون كوتيا دي بريان كنت يافا ابن اخي يوحنا دي بريان ملك اورشليم ومن بعد هذه الحرب الهائلة استولى المصريون على اورشليم وطبرية وغيرهما من المدن التي تخلى عنها ملك دمشق للفرنج وسار الخوارزمية فحاصروا يافا واخذوا معهم كوتيا اسيرًا آملين ان يامر ان تفتح لهم ابواب مدينة تخصه فعلقوه على صليب تجاه الاسوار وهددوه بالقتل ان صنع اهل مدينته اقل حركة للمدافعة عنها اما هو فاخذ يصرخ باعلى صوته على قومه دافعوا الى النفس الاخير فهذا هو المفروض علي وعليكم ان اموت حباً بكم وبالخلاص فلم يقوَ الخوارزميون على فتح المدينة وارسلوا كوتيا الى القاهرة فوثب عليه حشد سكران بخنقه فاماتوه بالضرب ولم يكن منجد للفرنج ومنجٍ لفلسطين من شر الخوارزمية الا تقلبهم وعدم ثبوتهم فان سلطان مصر ارسل اليهم خلعاً وهدايا نفيسة ورغب اليهم ان يمضوا الى دمشق ويحاصروها فساروا اليها وافتتحوها وكان قد وعدهم بان يملكهم فلسطين فبعد انتصارهم على دمشق خاف مجاورتهم واخلف وعده لهم فانقلبوا عليه وحصروا دمشق ثانيةً لياخذوها من سلطان مصر وطال الحصار وغلت الاقوات في المدينة وارسل سلطان مصر سنه ١٢٤٧ نجدة لدمشق واتفق مع صاحبي حلب وحمص وغيرهما فظفروا على الخوارزمية في موقعتين كما روينا نقلاً عن المؤرخين العرب فتشتت الخوارزمية وذهبت سطوتهم وصولتهم انتهى ملخصاً عن كثيرين من مؤرخي الفرنج

عدد ٨٦٩

في حملة الفرنج السابعة على سورية بامرة الملك لويس التاسع

قد بلغ الى المغرب ما صنعه الخوارزمية باورشليم واستيلاء سلطان مصر عليها بعد ان تخلى عنها للفرنج صاحب دمشق وكان التتر يهددون اوروبا ايضاً باجتياحهم لها وكانوا قد دخلوا المجر واذاقوا اهلها الامرين وكانت مملكة اللاتين في قسطنطينية على حافة الانقراض وفريدريك الثاني عاملاً بما عاد الى السطو على الكرسي الرسولي وكان اينوشنسيوس الرابع الحبر الروماني قد فرّ من رومة الى ليون فعقد هنـاك مجمعاً عاماً سنة ١٢٤٥ وشهده فاليريان اسقف بيروت اللاتيني فابان حالة اليأس التي كان عليها الفرنج في سورية وشهده ايضاً بودوين الثاني ملك القسطنطينية ومعه بطريركها اللاتيني فاسهب في بيان الخطر الملم بمماكه من قبل الروم ولم يجسر فريدريك الثاني ان يمضي بنفسه الى المجمع فارسل نواباً عنه قد تعهدوا باصلاح ما فرط منه ونجدته لنصارى سورية فلم يثق الحبر الروماني بوعوده وقد اخلف مراراً مرات بل قد حكم بحطه عن منصة ملكه ووافقه المجمع على ذلك وفي جملة رسوم هذا المجمع استئنـاف الحملة لامداد الفرنج في سورية والقسطنطينية وان يدفع الاكليريكيون واحداً من عشرين والبابا والكرادلة العشر من دخلهم لنفقة الحرب في سورية ومصر ومن كان لهم جعل دون نفقة لزمهم ان يدفعوا نصف هذا الجعل في نجدة ملك القسطنطينية وكان لويس التـاسع ملك افرنسة قد مرض مرضاً عضالاً فنذر ان يتجند للدفاع عن الارض المقدسة واخبر بنذره نصارى فلسطين ولمـا بلغ دعاة البـابا لهذه الحملة الى بريس جمع الملك لويس القديس اعيـان مملكته وكاشفهم بعزمه على السفر الى المشرق ودعاهم الى مشاركته فلبى دعوته كثيرون منهم اخوته الثلاثة روبرتس كنت ارتو والفونس كنت بواتو وشرل كنت انجو فافرغت بلانش دي كاستيل والدة الملك ورئيس اساقفة بريس وكثيرون من

وزرائه قصارى جهدهم في أثناء الملك عن عزمه على السفر فلم ينثنِ واخذ يتجهز لهذه الحملة وكان القلق مستحوذًا على اوروبا فلم يتجند من انكلترا الاَّ بعض الاعيان مقدامهم غوليلموس دي سالسبوري وكانت في المانيا حرب اهلية بسبب حط العاهل عن منصة ملكه وفي ايطاليا انقسامات داخلية فقل من تجند منهما وفي سنة ١٢٤٨ جمع الملك عماله واعيان مملكته مرة اخرى واستحلفهم على حفظ الامانة لاولاده ان نزلت به مصيبة في غربته وهم باصلاح كل ظلم اوقعه عماله واحتاط للوقاية من مثل ذلك وابدى جوده على الكنائس والاديار وعهد بتدبير مهام المملكه الى امه بلانش دي كستيل فقامت بما عهد اليها به احسن قيام وسافر الملك لويس من افرنسة في ٢٥ آب سنة ١٢٤٨ والملكة مرغريتا معه وكان اسطوله مؤلفًا من مئة وعشرين مركبًا كبيرًا ومن الف وخمسمائة سفينة صغيرة وبلغ الى قبرس في ٢١ ايلول من تلك السنة فاستقبله انريكس لوسنيان ملك الجزيرة باحتفاء في لمسون وسار به الى نيقوسية قصبة الجزيرة وكان في عزمه ان يسافر للوقت الى مصر فالح عليه ملك الجزيرة ان يصرف فيها مدة الشتاء ففعل واصلح في هذه المدة بين الاكايرس اللاتيني والاكايرس الرومي في قبرس وبين الفرسان الهيكليين والاسبيتاليين وبين اهل جنوا واهل بيزا المقيمين بعكا وسافر الملك في عسكره من قبرس في ٢١ ايار سنة ١٢٤٩ فرده عاصف الى المورة ولم يبلغوا ساحل مصر الا في ٤ حزيران وكان صاحب مصر حصن دمياط واقام فيها جيشًا كبيرًا مقدمه الامير فخر الدين فحلت جنود الملك لويس على ارض دمياط رغمًا على مقاومة عسكر مصر وقبل ان تدنو سفينة الملك لويس من البر قفز في البحر فعمه الماء الى كتفه وخرج منه مستلاً سيفه متحفزًا للوثوب على الاعداء فساله ذووه ان ينتظر اكمال صفوفه فجثا شاكرًا لله لوصوله الى مصر ثم هبَّ للقتال وكان للمصريين اسطول في مصب النيل فذعر وتشتت عسكر فخر الدين وكان السلطان مريضًا

مرضاً عضالاً فانقص في بسالة المسلمين وسار فخر الدين اليه وهو في محل بين المنصورة ودمياط تاركاً دمياط وقد انهزم منها المسلمون والحامية الذين كانوا بها بعد ان قتلوا من كان بينهم من النصارى والقوا النار في الدور وقتل من الافرنج كنت مرش في جانب الملك وفارسان اخران واستولى الفرنج على دمياط واطفوا النار من الدور وغنموا ما بقي فيها وما كان بغيرها ودخل الملك المدينة حافياً مكشوف الراس واقتدى به الاكليرس روساء الجند ورقى سفير البابا احد الكهنة الى اسقفية دمياط ووزع الملك البيوت والارضين على الفرسان الذين كانوا يحاربون معه هذا ما ذكره المورخون الفرنج

وقال ابو الفدا في ذلك « في هذه السنة (اي سنة ٦٤٧ هـ سنة ١٢٤٩ م) سار ريد افرنس وهو من اعظم ملوك الفرنج وريد بلغتهم هو الملك اي ملك افرنس (يظهر ان ابا الفدا لم يكن يعلم الافرنسية فظنّ ان الملك يسمى ريد ولم يعلم ان الدال من آخر الكلمة ليست منها بل هي حرف دال على الاضافة الى ما بعدها) وافرنس امة عظيمة من امم الفرنج وكان جمع ريد افرنس نحو خمسين الف مقاتل وشتى في جزيرة قبرس ثم سار ووصل في هذه السنة الى دمياط وكان الملك الصالح قد شحنها بالآت عظيمة وذخائر وافرة وجعل فيها بني كنانة وهم مشهورون بالشجاعة وارسل فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط ولما وصل الفرنج عبر فخر الدين من البر الغربي الى البر الشرقي ووصل الفرنج الى البر الغربي فهرب بنو كنانة واهل دمياط منها وتركوا ابوابها مفتوحة فتملكها الفرنج بغير قتال واستولوا على ما بها وكان هذا من اعظم المصائب وعظم ذلك على الملك الصالح وامر بشنق بني كنانة فشنقوا عن آخرهم ووصل الملك الصالح الى المنصورة ونزل بها وقد اشتدّ مرضه وهو السل والقرحة التي كانت به وقد أيس منه »

عد ٨٧٠

ذكر وفاة الملك الصالح وخلافة ابنه ووقعة المنصورة

قال ابو الفدا ما ملخصه . في هذه السنة اي سنة ٦٤٧ هـ سنة ١٢٤٩ م توفي الملك الصالح ايوب ابن الملك الكامل ابن الملك العادل وكانت مدة ملكه لمصر تسع سنين وثمانية اشهر وعشرين يوماً وكان عالي الهمة طاهر اللسان والذيل وقوراً كثير الصمت وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من اهل بيته حتى كان اكثر عسكره مماليكه وجمع جماعة منهم حول دهليزه سماهم البحرية وكان له ثلاثة اولاد فتح الدين عمر توفي في حبس الصالح اسمعيل وكان له ولد آخر قد توفي ايضاً ولم يكن قد بقي له غير الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيفا ولم يوصِ الصالح بالملك لاحد ولما توفي احضرت شجرة الدر جارية فخر الدين ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه والطواشي جمال الدين محسناً وعرفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج وجمعت شجر الدر الامرآء وقالت لهم السلطان يأمركم ان تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم وللامير فخر الدين باتابكية العسكر فحلف الامرآء والاجناد والكبرآء بالعسكر وبمصر وكانت بعد ذلك تخرج الكتب والمراسيم وعليها علامة الملك الصالح وكان يكتبها خادم يقال له السهيلي فلا يشك احد في انها خط السلطان وارسل فخر الدين قاصداً لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا فشاع بين الناس موت السلطان ولا يجسر احد من ارباب الدولة ان يفوه بذلك

وتقدم الفرنج من دمياط الى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة ومات فيها جماعة من كبار المسلمين ونزل الفرنج بحر مساح ثم قربوا من المسلمين وكبسوهم على المنصورة وكان الامير فخر الدين المذكور في الحمام بالمنصورة فركب مسرعاً وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه ثم حمل المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على اعقابهم واستمرت بهم الهزيمة واما الملك المعظم فوصل الى

المنصورة في آخر السنة المذكورة واشتد القتال بين المسلمين والفرنج برًا وبحرًا ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج واخذوا منهم اثنين وثلاثين مركبًا فضعف الافرنج وارسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وان يسلموا دمياط الى المسلمين فلم تقع الاجابة الى ذلك • انتهى تلخيص كلام ابي الفدا • وهذه خلاصة ما قاله المؤرخون الافرنج في ذلك ان الملك لويس لم يشا ان يتقدم من دمياط قبل وصول اخيه كنت بواتو الذي كان قد تخلف في افرنسة ونشأت في هذه المدة اختلافات بين الافرنسيين والكنت سالسبوري الانكليزي فخمدها الملك لويس بوداعته وقد عقد ديوان مشورته فكان من رأي بعض اركان الحرب ان يزحفوا الى اسكندرية ويتملكوها لان مرفاها اوسع وأرحب لسفنهم وكان من رأي آخرين ان يسيروا توًا الى القاهرة وكان كنت ارتوا اخو الملك يرى ما رأى هولاء فاستمال الملك الى العمل برايهم فساروا نحو المنصورة وسفنهم سارت في النيل شاحنة الازودة والسلاح والآلات الحصار فخلوا في فارسكور في ٧ من كانون الاول سنة ١٢٤٩ وهناك علموا بموت الملك الصالح وذكروا ما ذكره المؤرخون العرب من اخفاء شجر الدر خبر موته وتولية فخر الدين على الجيش واستدعاء الملك المعظم من حصن كيفا وبلغ عسكر النصارى بعد وقعة بين طلائع العسكرين الى قناة اشمون مقابلة المنصورة في ١٩ كانون الاول ولم تكن القناة الفاصلة بين العسكرين عريضة لكنها كانت عميقة لا يمكن عبورها دون جسر وحاول المهندسون اقامة جسر فتعذر عليهم وارسل فخر الدين عسكرًا عبر القناة من محل آخر وباغت الافرنج من ورائهم فكان له بعض النجاح واستمر الفرنج يحاولون اقامة معبر على الترعة والمسلمون لا يمكنونهم من ذلك واستمروا على ذلك شهرًا الى ان هداهم بدوي الى معبر قريب منهم بعد ان رشوه بمبلغ من المال وسار الملك في جيشه الى هذا المعبر فاول من عبر به روبرتس كنت ارتوا اخو الملك وقد حلف له ان ينتظر على ضفة النهر الاخرى

وصول العسكر اليه وتبع الكنت الفرسان الهيكليون والاسبيتاليون وكنت سالسبوري ورجاله الانكليز ولما رأى روبرتس الاعدآء تركوا معسكرهم وانهزموا امامه نسي يمينه ولم يقف عند نصائح الفرسان الذين عبروا معه ووثب على الاعدآء متعقباً لهم حتى دخل وراءهم الى المنصورة وكان فخر الدين في الحمام وخرج فركب جواده على عجل فاصابته ضربة كانت القاضية فاضطرب العسكر المصري وتسارع بعضهم الى داره فنهبها واحرقها وهموا بالهزيمة فحملهم بيبرس البندقداري (... ...) الذي اشتهر كثيراً بعد ذلك كما ترى) على الصبر والثبات في الدفاع واقفل ابواب المدينة كي لا يبقى للافرنج مفر او مناص وصبر الكنت روبرتس على القتال مبدياً آيات البسالة الى ان قتل واستمر وطيس القتال حامياً من الساعة السادسة قبل الظهر الى الساعة الثالثة بعده فلم ينجُ من الالف وخمسمائة فارس الذين دخلوا المنصورة من الافرنج الا ... القليلون وكان غوليلموس كنت سالسبوري في جملة القتلى واسر رئيس فرسان القديس يوحنا وفلت ابن رئيس الهيكليين اما باقي الجيش فعبر القناة ولم يعلموا ما حلَّ بطلائعهم فتقدم دوك بريطانيا وفريق من الجيش نحو المنصورة ليرى ما حلَّ بالكنت روبرتس وارفاقه فالتقاهم بعض المماليك واشتدَّ القتال بينهم حتى ارغم الدوك المذكور ان يعود وهو يتقأى الدم من فيه ولما بلغ الملك القديس خبر هذا المصاب حزن جداً وبكى كثيراً ورفع عينيه الى السماء قائلاً لتكمل مشيئة الله وليكن اسمه مباركاً وجمع اعيان جيشه وقال ما رأيكم يا احباءي ورفقاءي في مساعي ومخاطري آلعود الى الورآء بعد هذه الخسارة الجسيمة فيطمع بنا اعداؤنا ويسرهم انهزامنا كسرورهم بقتل اخواننا ويتبعون آثارنا ويعملون سيوفهم بنا اما انا فأرى ان نبتهل الى الله اولاً ليغفر آثامنا التي هي علة انكسارنا ثم نحارب واثقين بعونه لنأخذ بثار اخي واصدقائنا الذين اريقت دماؤهم فلما سمع الجيش كلام الملك هذا تحفزوا جميعاً للقتال كرجل واحد واشتبك الفريقان

في القتال ونزل الملك في وسط المعمعة ولم يكن من يرمي سهماً او يرسل نشاباً بل كانوا متجالدين بالسيوف والحراب متلاحمين ووثب على الملك ستة من المماليك واحدقوا به وضبطوا عنان جواده فشردهم عنه ببسالته وتملص منهم بضربات سيفه وفي آخر الامر ازاح الفرنج المصريين عن مراكزهم واستولوا على معسكرهم بما كان فيه من عدة الحرب والذخر

عد ٨٧١

أخذ الملك لويس اسيرًا ونجاته من الاسر

هذه خلاصة ما قاله ابو الفداء في ذلك . لما قام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فنيت ازوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط فان المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط اليهم فلم يبقَ لهم صبر على المقام فرحلوا ليلة الاربعاء لثلث مضين من المحرم سنة ٦٤٨هـ (سنة ١٢٥٠ م) متوجهين الى دمياط وركب المسلمون اكتافهم وعند الصباح خالطهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم الا القليل وبلغت عدة القتلى منهم ثلاثين الفاً على ما قيل وانحاز ريد افرنس ومن معه من الملوك الى بلد هناك وطلبوا الامان فامنهم الطواشي محسن الصالحي ثم احتيط عليهم واحضروا الى المنصورة وقيد ريد افرنس وجعل في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشآ فخر الدين ابن لقمان ووكل به الطواشي صبيح المعظمي ورحل الملك المعظم بالعساكر من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب له بها برج خشب فيوم الاثنين في آخر المحرم قتل الملك المعظم وسبب ذلك انه اطرح جانب امرآء ابيه ومماليكه وابلغ كل واحد منهم تهديده ووعيده فنفرت قلوبهم منه وهو اعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا وكانوا اطرافاً اراذل فاجتمعت المماليك البحرية على قتله وهجموا عليه بالسيوف وكان اول من ضربه ركن الدين بيبرس الذي صار سلطاناً في ما بعد فهرب الملك المعظم الى برج الخشب فاطلقوا في البرج

النار فخرج الملك هاربًا طالبًا البحر ايركب في حراقته فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فادركوه وأتموا قتله وكانت مدة ملكه من حين وصوله الى مصر شهرين واياماً واجتمع الامرآء واتفقوا على ان يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة ويكون عز الدين ايبك الصالحي المعروف بالتركماني اتابك (اي امير الامرآء) العسكر وحلفوا على ذلك وخطب لشجر الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وسميت والدة خليل وكان توقيعها كذلك اذ كان لها ولد اسمه خليل مات صغيرًا ولما استقرَّ الامر على ذلك جرى الحديث مع ريد افرنس في تسليم دمياط بالافراج عنه فسلمها وصعد اليها العلم السلطاني يوم الجمعة لثلاث مضينَ من سفر سنه ٦٤٨ هـ (سنة ١٢٥٠ م) واطلق ريد افرنس وركب في البحر نهار السبت غد الجمعة المذكورة واقلعوا الى عكا

وهذا ملخص ما قاله المؤرخون الفرنج « ان المصريين لم يفكوا مدة الليل عن مهاجمة الفرنج ليزيحوهم عن المعسكر الذي كانوا قد اخذوه في النهار وفي الغد الذي كان صباح اربعا الرماد اقاموا جسرًا على قناة اشمون فعبر عليه الرجالة واميرهم دوك بوركانيا وانضموا الى الفرسان وفي نهار الجمعة التالي زحف المصريون بصفوفهم الى الفرنج وتسعرت نار القتال وكان في مقدمة الجيش كنت انجو فلم يستطع جنوده ان يقووا على النار الصناعية التي كان الاعدآء يلقونها اليهم وقتل جواده وهو راكب عليه فاستصرخ الملك فهب اليه مستلاً سيفه واخترق الصفوف الى ان بلغ المحل الذي كان به اخوه واعمل سيفه بالاعدآء بشجاعة عظيمة وبراعة غريبة غير مبالٍ بخطر حتى انقذ اخاه ونجاه الله وقتل في هذه الوقعة رئيس الهيكليين وكثير من اعيان الفرنج ومشاهيرهم وكان كنت بواتو اخو الملك متوليًا قيادة الجناح الأيمن في الجيش فحاق الخطر به وكاد يقع اسيرًا واليك ما كتبه القديس لويس في رساله عامة الى اهل مملكته عن هذه الوقعة قال « يوم الجمعة جمع الاعدآء

رجالهم من كل جهة وقصدوا ان يهلكوا جيش النصارى برمته ووثبوا على صفوفنا بقحة وعددهم لا يحصى وكانت الخسائر من الفريقين عظيمة ويقال انه لم يكن قط وقعة كهذه في هذه البلاد وبعون الله ثبتنا في الدفاع في كل جهة وتقهقر الاعدآء وقتل منهم كثيرون • وجل ما يظهر من ذلك ان الفرنج لم ينكسروا في هذا اليوم واوقعوا باعدائهم خسائر وخسروا مثلها

واصابهم وباء تصحبه الدنستريا والحمى الخبيثة مسبب من نتانة جثث القتلى ومن طرح بعض هذه في القناة ومن اكلهم ايضاً السمك المتغذي بها فمات منهم كثيرون وكان لهم على مصابهم هذا ايضاً الصبر الجميل ولم يستحلوا الافطار في الصيام او اكل اللحم فيه وكان الملك لويس يعزى المرضى ويبذل جل العناية بهم الى ان اصابه ايضاً المرض والزمه خيمته واتى الملك المعظم الى المنصورة بعد تسعة عشر يوماً من الوقعة التي كانت فيها وكانت مون الفرنج تأتيهم من دمياط فاول ما باشره الملك قطع الطريق عليهم حتى لا تكون مواصلة بينهم وبين دمياط فعازهم الزاد وكان ذلك مصيبة اخرى وروى بعض المؤرخين العرب ان الفرنج بذلوا للملك المعظم دمياط ان تخلى لهم عن فلسطين واورشليم ووعد الملك لويس ان يسلم اخويه رهينة على ذلك فاجاب الملك المعظم الى ذلك ولكن طلب ان يكون الملك لويس نفسه رهينة ورضي هذا القديس بذلك على ان اعيان جيشه ابوا ذلك كل الاباء وقالوا احب الينا ان نتحمل الموت جميعاً ولا نحمل مثل هذا العار فرأى الملك لويس حينئذٍ انه لم يبقَ وسيلة للنجاة الا العود بطريق دمياط

وامر الملك لويس ان يعبر الجيش القناة ويسير بطريق دمياط فأخذوا بالمسير ليلاً في ٥ نيسان سنة ١٢٥٠ ونزل سفير البابا والنساء والاولاد والمرضى بسفن والحوا على الملك لويس ان يسير معهم فابى الا ان يرافق جنوده وقال احب اليَّ ان اموت معهم من ان انفصل عنهم وسار في ساقتهم وركب المصريون ظهورهم

فكان الملك يبدي ايات البسالة بالدفاع وغادره اكثر فرسانه فادرك المصريون الفرنج من جهات كثيرة واكثروا من القتل والاسر فيهم ولم يكن من ساروا بحرًا احسن حظاً ممن ساروا برًّا واضنى التعب والجهاد الملك فانحاز بنفر قليل من خدامه الى قرية تسمى المنية ودخل بيت امرأة افرنسية هناك ودافع عنه خدامه الى ان فارقتهم الحياة فدخل احد المماليك على الملك واوثقه بيديه ورجليه واخذه بسفينة حربية الى المنصورة وقبض المصريون على اخويه ايضاً وكان عدد القتلى من الفرنج نحو ثلاثين الفاً واقام المصريون الملك في بيت يدل عليه الى الآن في المنصورة وهو مشرف على النيل

كان من رأي الملك المعظم ان يطوف ملك افرنسة في كل بلاد المسلمين تذليلاً للفرنج وتعزيزًا وتشجيعاً للمسلمين فلم يوافقه اهل مشورته على رأيه اذا كان يهمهم استرداد دمياط ويخشون موت ملك افرنسة فتفوتهم فرصة استردادها فاجمع رأيهم ان يطلقوا الملك على شريطة ان يسلم دمياط اليهم ويبذل لهم خمس مائة الف دينار (قالوا انها توازي تسعة ملايين ونصف من الفرنكات) ولما رأى الملك لويس ان دمياط لا بدَّ من اخذها في هذه الحال ولا يمكن ان تمتنع على المسلمين رضي بما شرطه المصريون ولكن لما كان لا يليق بمقام الملوك ان تفتدى حريتهم بمال جعل دمياط فدية له والخمس مائة الف دينار فداء لرفقائه في الاسر فسر الملك المعظم بذلك وحط خمس المبلغ المتفق على ادائه وعقد الصلح بين المسلمين والنصارى على هدنة عشر سنين وبقاء المدن التي ملكها الفرنج قبل هذه الحمله على ملكهم بعد هذا الصلح وكان حينئذٍ ما ذكره المؤرخون العرب من قتل الملك المعظم وتولية شجر الدر فبقي ملك افرنسة والاسرى في سجونهم ولما استقرت الحال في مصر عاد الامرآء الى انجاز المعاهدة مع ملك افرنسة فطلبوا تسليم دمياط قبل تخلية سبيله وان يدفع نصف المبلغ قبل ارتحاله عن مصر فلم يشا ان يوقع على المعاهدة قبل اطلاقه

ولا ان يخاف عليها الا بما لاق به من اليمين فاضطرّ الامرآء ان يكتفوا بكلامه وحده وكتب الملك الى بطانته بتسليم دمياط ودفع نصف المبلغ الذي استقرّ الراي عليه فردت دمياط الى المسلمين في ٦ ايار سنة ١٢٥٠ واطلق بعض الاسرى الذين بقوا احياء وسافر الملك لويس والفرنج الى عكا فبلغوا اليها في ١٤ ايار سنة ١٢٥٠ انتهى ملخصاً عن جوانفيل وغيره ممن كانوا في هذه الحملة

عد ٨٧٢

في باقي اخبار الامرآء الايوبيين الى انقراض دولتهم

لما ملّك المصريون شجر الدر موضع الملك المعظم ارسلوا رسولاً الى الامرآء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا اليه بل كاتبوا الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز فسار اليهم وملك دمشق ودخلها يوم السبت لثمانٍ مضينَ من ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ سنة ١٢٥٠ م ولما استقرّ في دمشق خلع على جمال الدين بن يغمور وعلى الامرآء القمرية واحسن اليهم واعتقل جماعة من الامرآء مماليك الملك الصالح وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميمس مدة مديدة ثم سلمت جميعها اليه فصار الملك الناصر متولياً حلب ودمشق ولما ورد الخبر بذلك الى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية وعلى كل من اتهم بالميل الى الحلبيين ورأوا انه اذا استمرّ أمر المملكة في امرأة على ما هو عليه بتمليك شجر الدر تفسد الامور فاقاموا عز الدين ايبك الذي كان اتابك العسكر ملكاً عليهم وركب بالسناجق السلطانية واقب بالملك المعز وابطلت السكة والخطبة التي كانت باسم شجر الدر ثم اجتمع الامرآء واتفقوا على ان لا بدّ من اقامة شخص من بني ايوب في السلطنة واختاروا الملك الاشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وقرروا ان يكون ايبك المذكور اتابك واجلس موسى المذكور في دست السلطنة

وكان بغزة حينئذٍ جماعة من عسكر مصر فسار اليهم عسكر دمشق فاندفعوا

عن غزة الى الصالحية بالسايح واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية واتفق كبرآء الدولة بمصر ونادوا بالقاهرة ومصر ان البلاد للخليفة المستعصم العباسي وجددوا الايمان للملك الاشرف موسى بالسلطنة ولايبك بالاتابكية وسار فارس الدين اقطاي الصالحي مقدم المماليك البحرية الى غزة بنحو الفي فارس ولما وصل الى غزة وافقه من كان بها من جهة الملك الناصر فوجس الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب من ذلك فسار من دمشق قاصدًا مصر وصحبه كثيرون من الامرآء الايوبيين ولما بلغ المصريين ذلك اهتموا لقتاله ودفعه وبرزوا الى السايح وتركوا الاشرف المسمى بالسلطان بقلعة الجبل بمصر والتقى العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية فكانت الكسرة اولاً على عسكر مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز ايبك في جماعة قليلة من البحرية وانضاف اليهم من خامروا من المماليك العزيزية وكان صاحب دمشق لا يشك بنصرة عساكره وكسرة المصريين فبقي مع جماعة يسيرة تحت الساجق السلطانية فحمل عليه المعز ايبك بمن كان معه فولى منهزماً الى جهة الشام ثم حمل ايبك على عسكر الشاميين فهزمهم واخذ شمس الدين لؤلؤ قائد العسكر اسيرًا وضرب عنقه واسر عدة من الامرآء الايوبيين الذين كانوا مع صاحب دمشق ولما علم باقي العسكر الشامي بهروب صاحب دمشق اختلفت اراؤهم فمنهم من اشار بالدخول الى القاهرة وتملكها ولو فعلوا لتملكوها ومنهم من اشار بالرجوع الى الشام فعملوا برايه وعاد ايبك الى القاهرة مظفرًا منصورًا وحبس بني ايوب بالقلعة وشنق بعض الامرآء الذين اسرهم وسار بعد ذلك فارس الدين اقطاي بثلثة الاف فارس الى غزة فاستولى عليها وعاد الى مصر وبقي الامر على ذلك الى سنة ٦٥١ ﻫ سنة ١٢٥٤ م حين ارسل الخليفة العباسي فاصلح بينهم على ان يكون للمصريين الى نهر الاردن وللملك

الناصر صاحب دمشق وحلب ما وراء ذلك

وكان المعز ايبك اتابك مصر طموحاً الى الاستبداد والى خلع الاشرف وتبوي منصته وكان اقطاي الجامدار من امراء البحرية يدافعه عن ذلك ويغض من عنانه منافسة وغيرة فارصد له ايبك ثلاثة من المماليك فاغتالوه سنة ٦٥٢ هـ سنة ١٢٥٥ م وكانت جماعة المماليك البحرية ملتفة عليه فانفضوا ولحقوا بصاحب دمشق واستبدَّ ايبك بمصر وخلع الملك الاشرف وقطع الخطبة له فكان اخر امراء بني ايوب بمصر وخطب ايبك لنفسه وتزوج شجر الدر التي كانوا قد ملكوها قبلاً ولما وصل البحرية الى دمشق اطمعوا صاحبها في ملك مصر واستحثوه فتجهز وسار الى غزة وبرز ايبك بعساكره الى العباسية ودخلت سنة ٦٥٣ هـ سنة ١٢٥٦ م واستراب المعز بالعزيزية المقيمين معه فابعدهم عنه ولحقوا بصاحب دمشق وترددت الرسل بين صاحب دمشق وايبك صاحب مصر فاصطلحوا على ان يكون التخم بينهم العريش وفي سنة ٦٥٥ هـ سنة ١٢٥٨ م قتل المعز ايبك قتلته شجر الدر غيلة في الحمام غيرة من خطبته بنت لؤلؤ صاحب الموصل فنصبوا مكانه ابنه علياً ولقبوه بالمنصور وثأروا به من شجر الدر اي قتلوها بثار المعز

وفي هذه السنة اي سنة ١٢٥٨ نقل الى الملك الناصر صاحب دمشق ان المماليك البحرية الذين كانوا مقيمين عنده بعد مقتل اقطاي يريدون ان يفتكوا به فاستوحش خاطره منهم وطلب انتزاحهم عن دمشق فساروا الى غزة والتموا الى الملك المغيث صاحب الكرك وارسل صاحب الشام عسكراً في اثرهم فكبسهم فانهزموا الى البلقاء ملتجئين الى صاحب الكرك فانفق فيهم اموالاً جزيلة واطمعوه في ملك مصر فجهزهم وساروا الى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والتقى الفريقان بالعباسية فانهزم البحرية وعسكر صاحب الكرك وكان في جملة البحرية بيبرس البندقداري الذي صار بعد ذلك ملكاً وبعد ان انهزم البحرية عن مصر

عادوا الى الكرك وما زال صاحب الشام واجساً منهم ومن صاحب الكرك فبعث اليهم عسكره عن دمشق فظفروا به واستفحل امرهم بالكرك فسار الناصر صاحب الشام اليهم بنفسه سنة ٦٥٧ هـ سنة ١٢٦٠ م ومعه صاحب حماه فنزلوا على الكرك فحاصروها فارسل صاحبها الى الناصر في الصلح فشرط عليه ان يحبس البحرية فاجاب الى شرطه ونمى الخبر الى بيبرس اميرهم فهرب في جماعة منهم ولحق بالناصر صاحب الشام وفي هذه الاثناء قدمت عساكر التتر الى الشام وتملكوها كما ترى في الفصل التالي وهرب الناصر صاحبها الى مصر اولاً ثم الى تيه العرب ثم حسن له اصحابه ان يقصد هولاكو ملك التتر فاقبل عليه ووعده برده الى ملكه وابقاه عنده ثم اجتمعت عساكر المسلمين وساروا الى الشام مع صاحب مصر وهو حينئذ الملك المظفر قطز الذي كان قد قتل المنصور علياً بن ايبك واستبد بالسلطة وقاتلوا التتر فانهزم التتر وقتل اميرهم النائب عن هولاكو فاحضر هولاكو الناصر ولامه على ما كان منه من تسهيله عليه امر الشام فاعتذر الناصر له فلم يقبل عذره ورماه بسهم فانفذه ثم اتبعه باخيه الظاهر وبالصالح بن الاشرف صاحب حمص فانقرض بذلك ملك بني ايوب من الشام كما انقرض ملكهم من مصر كما رأيت قبلاً ولم يبقَ منهم بالشام الا المنصور ابن المظفر صاحب حماة وكان ذلك سنة ٦٥٩ هـ سنة ١٢٦٢ م وعند عود المظفر قطز ملك مصر من الشام الى مصر بعد انتصاره على التتر قتله بيبرس البندقداري وتبوأ تخته انتهى ملخصاً عن ابي الفدا وابن خلدون

وكان بدؤ دولة الايوبين بصلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ١١٧٢ وتولى ملوك هذه الدولة سورية ومصر تارةً معاً وتارةً بانفصال المملكة الواحدة عن الاخرى وكان في سورية كحلب ودمشق وحمص وحماة وبعلبك نوع من الاستقلال لكل عمل على حدة وان كان الولاة عليها من الامرآء الايوبيين الى ان

انقرض ملك الايوبيين في مصر سنة ١٢٥٥ بقتل الملك الاشرف قتله المعز ايبك احد المماليك البحرية واستبدَّ بملك مصر وانقرض ملكهم بسورية بقتل هولاكو ملك التتر الملك الناصر كما رأيت فكانت مدة ملك الايوبيين في سورية ومصر نحو تسعين سنة وخلفتهم دولة المماليك البحرية ويسمون المماليك الترك

﴿ عـد ٨٧٣ ﴾

تتمة الكلام في حملة القديس لويس وعوده الى افرنسة

ذكرنا قبلاً ان القديس لويس ملك افرنسة سار من دمياط وبلغ الى عكا في ١٤ ايار سنة ١٢٥٠ فالتقاه النصارى باحتفاء عظيم ثم عقد ديوان مشورته للبحث ايبقى في المشرق ام يعود الى مملكته فرأى الاكثرون لزوم عودهِ اما هو فاعلن انه لا يشاء ان يغادر مملكة اورشليم ووعد ان ينفق على جميع الذين يبقون معه وعاد اخواه الى اوروبا وفشا الوباء في عكا فمات كثيرون من جنوده وصرف الملك عنايته الى تحصين المدن والقلاع التي كانت بيد الافرنج وكان الامراء المسلمون منشاغلين بمنازعاتهم الاهلية عن محاربة الفرنج فلم يشا امراء سورية ان يولوا على السلطنة امرأة هي شجر الدر التي اقامها المصريون سلطانة عليهم فانضم السوريون الى الملك الناصر صاحب حلب ونادوا به سلطاناً عليهم وكان بين الفريقين ما ذكرناه من الحروب وكان كل منهما يراسل الملك لويس ليتفق معه ويتقي مناواة الفرنج له والملك لويس يقترح ما يعنُّ له من الشروط ثم عقدت بينه وبين امراء مصر معاهدة من شروطها ان المماليك المصريين يخلون سبيل الاسرى النصارى الذين كانوا باقين بمصر واولاد النصارى الذين كانوا قد اسلموا ويرسلون رؤوس القتلى التي كانوا قد علقوها على اسوار القاهرة وان يتخلَّى المسلمون للافرنج عن اورشليم وسائر مدن فلسطين ما عدا غزة وقلعة داروم وقلعتين اخرين وانهم لا يحاربون اورشليم مدة خمس عشرة سنة وان الفريقين المتعاهدين يجمعان عساكرهما ويحاربان

معاً وكل ما يغنمانه يقسم مناصفة بين الفرنج والمماليك وعزم رؤساء المماليك ان يسيروا الى غزة ومنها الى يافا لاثبات المعاهدة ومفاوضة ملك افرنسة بما يتخذون من الوسائل للحرب وعرف السلطان صاحب دمشق بهذه المعاهدة فارسل عسكراً عشرين الفاً خيموا بين غزة وقلعة الداروم ليمنعوا الاتصال بين المصريين والفرنج فلم يحضر مفوضو المصريين في الاجل المعين الى يافا اما خوفاً من عسكر الشام واما لاختلافات اهلية طرأت عليهم لكنهم شرعوا يتممون بعض الشروط المتفق عليها فارسلوا الاسرى ورؤوس القتلى وزادوا عليها فيلاً اهداه ملك افرنسة لملك انكلترا وكانوا يكررون وعدهم بان يأتوا الى يافا والملك لويس ينتظرهم حتى انقضت سنة ولم يحضر احد منهم وكان لملك افرنسة ان يعدل عن هذه المعاهدة التي لم يوقعوا عليها ويعقد مثلها بل احسن منها مع سلطان دمشق فلم يفعل ولم يتقدم الامراء المصريون الى الملك لويس بهذه المعاهدة الا لحاجتهم اليه ولأملهم ان نصارى المغرب يمدونه بالعساكر ولما راوا عسكره قليلاً وان اتفاقهم مع النصارى يهيج المسلمين عليهم تباطئوا عن التوقيع على المعاهدة وارسل الخليفة من بغداد من يسعى في الصلح بين سلطان الشام وامراء مصر على ان يتناسى السلطان سوء صنيع الامراء ويظهر الامراء ندامتهم على ما مضى وطلبهم السلم ولما كان كل من الفريقين قد ملّ من الحرب وانتصر المصريون مدة والسوريون مدة اخرى دون الوصول الى وقعة فاصلة تقارب كل من الفريقين الى الاخر وامتثلوا امر الخليفة ووقع الصلح بينهم والاتفاق على محاربة الفرنج وسار الناصر صاحب الشام بعسكر حتى بلغ اسوار عكا وتهدد ان يقطع اشجار الجنات ويعطل الحقول الاّ ان يدفعوا له خمسين الف دينار فاكره الفرنج ان يدفعوها اذ لم تكن لهم طاقة حينئذٍ على الحرب فعاد الناصر الى دمشق والمماليك الى مصر عازمين ان يعودوا في وقت اخر

وضاعف الملك لويس عنايته بتحصين مدن الفرنج وأخذ في تجديد اسوار

صيدا التي كان المسلمون قد اخربوها لما كان الملك لويس في مصر واوشكت هذه الاسوار ان تكمل فاذا بجماعة كثيرة من التركمان كبست صيدا وفيها قليل من الحامية وقتلوا من فيها من النصارى ودكوا ما بنى من الاسوار وكان الملك في صور لما بلغته هذه الاخبار فسار مسرعاً الى صيدا وجهز عسكراً ارسله في اثر التركمان الى بانياس وكان يريد ان يسير به فنعه ذووه من المسير ضناً براحته وحياته ولما بلغ الفرنج الى بانياس انهزم المسلمون منها وملك الفرنج المدينة ولكن انحاز بعض الفرسان الى قلعة قريبة من المدينة فحاصروها فردهم عنها من كان فيها من المسلمين وتتبعوا اثرهم فاوقعوا باقي عسكر الفرنج في الضيق ومع ذلك مكنتهم شجاعتهم من كسرة المسلمين لكنهم لم يقووا ان يحفظوا بانياس فنهبوها وتركوها وعادوا الى صيدا ولما اتى الملك من صور الى صيدا رأى بعض جثث القتلى لم تدفن بعد فنزل عن جواده وحمل بيده مع غيره جثة منتنة لتدفن فاخذت الغيرة جنوده فدفنوا بالاكرام كلما وجد بها من الجثث

وقد روى بعض علمائنا وكثيرون من مؤرخي الفرنج انه لما كان الملك لويس التاسع في عكا ارسل الموارنة اليه هدايا مع الامير سمعان وجماعة من رجالهم فرحب بهم الملك القديس واكرمهم وسوف نذكر في الملحق المعلق على آخر تاريخ هذا القرن رسالة هذا الملك الى امير الموارنة وبطريركهم واساقفتهم وارسل ايضاً مقدم الاسماعيلية او النصيرية المعروف عند الافرنج بشيخ الجبل الى الملك لويس وفداً ورسالة يزدلف بها اليه فاجابه الملك على رسالته وارسل اليه كاهناً عالماً يعرف اللغة العربية ليرشدهم الى الايمان بالمسيح وعن بعضهم انهم تظاهروا حينئذٍ بالنصرانية وكانوا يمارسون بعض فروضهم منها تعييدهم بعض الاعياد السيدية التي روي بعضهم انهم يمارسونها حتى الآن

وفي سنة ١٢٥٣ م بلغ الملك لويس خبر وفاة امه بلانش دي كستيل مدبرة

الملك في مدة غيابه فوجد لذلك كثيرًا ورأى انه اصبح متحتماً عليه ان يترك
الارض المقدسة ويعود الى مملكته ومع ذلك امر باقامة صلوات وممارسات
روحية ليلهمه الله الى ما يشاؤه واجتمع اعيان الفرنج الى الملك فاطراوا غيرته
وادوه فرض الشكر على كل ما عمله وقاساه حباً بهم وسألوه ان يعود الى مملكته
التي لا تستغني عنه بغيره بعد وفاة والدته وابدوا املهم بان لا ينفك عن مساعدتهم
في اوروبا بعد بلوغه اليها وابحر في ٢٤ نيسان من سنة ١٢٥٤ وصحبته الملكة
مرغاريتا وثلاثة اولاد رزقهم في المشرق وترك في عكا مئة فارس من فرسانه
بامرة جفروا دي سارجين وقد أخذ هذا الملك راية الصليب وسار الى المشرق
مرة اخرى كما سوف ترى :

عدد ٨٧٤

في اغارات التتر على سورية

1 منشاء التتر تركستان الصينية وتركستان الروسية وقد ظعنوا الى ما جاورهم
من البلاد ونكلوا باهلها او اخرجوهم منها كما صنعوا باهل خوارزم وفي اوائل
هذا القرن قد تملكوا بلاد فارس وكان اول ملوكهم فيها جنكز خان الشهير وتأويل
هذه الكلمة في لغتهم الملك الكلي القدرة او ملك الملوك فجنكز خان قد اجتاح
البلاد الشرقية وانزل بها الويل والدمار واتصل الى الصين والى روسية الجنوبية
والى العراق والجزيرة وعند موته قسم ملكه بين اولاده الاربعة وكان الخامس
من ملوك التتر اسمه هولاكو وهو الذي اغار على سورية كما سنذكر هنا في سنة
٦٥٧ ﻫ سنة ١٢٦٠ م قدم هولاكو الى البلاد التي شرقي الفرات ونازل حران
وملكها واستولى على البلاد الجزرية وارسل ولده سموط الى الشام فوصل الى
ظاهر حلب وكان الحاكم في حلب الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح
الدين نائباً عن ابن اخيه الملك الناصر يوسف فخرج عسكر حلب لقتال التتر ولكن

التتر في الباب المعروف بباب الله ولما وصل العسكر قاتلوه قليلاً واندفعوا قدامه حتى خرجوا عن البلد ثم عاد التتر على الحلبيين فهربوا طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنق في الابواب جماعة من المنهزمين ثم رحل التتر الى اعزاز فتسلموها بالامان

وبلغ الملك الناصر صاحب دمشق وحلب ما صنعه التتر بحلب فسار من دمشق الى برزه واتى اليه الملك المنصور صاحب حماة واجتمع عنده امم عظيمة من العساكر وممن جفلوا من بين ايدي التتر وعلم حينئذٍ ان جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله فهرب الى قلعة دمشق سنة ٦٥٨ هـ سنة ١٢٦١ م وتعذر عليه ان يناوى التتر الذين عادوا من اعزاز الى حلب واحاطوا بها وهاجموها من عند حمام حمدان في ذيل قلعة الشريف وبذلوا السيف في المسلمين فقتل منهم جماعة كثيرة وصعد الى القلعة خلق عظيم ودام القتل والنهب من يوم الاحد الى يوم الجمعة حين أمر هولاكو برفع السيف ونودي بالامان ولم يسلم من اهل حلب الاَّ من التجاؤا الى بعض دور قيل لفرمانات كانت بايدي اصحابها وان عددهم يزيد على خمسين الف نفس ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم المذكور واشتدت مضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالامان وجعل هولاكو النائب بحلب عماد الدين القزويني ووصل اليه الى حلب الملك الاشرف صاحب حمص فاكرمه هولاكو واعاد اليه حمص وكان الملك الناصر صاحب حلب قد اخذها منه وعوضه عنها تل باشر كما مر فاقره هولاكو بها ووصل الى هولاكو ايضاً محيي الدين بن الذكي من دمشق فاقبل عليه وولاه قضاء الشام ولما عاد الى دمشق لبس خلعة هولاكو وكانت مذهبة وجمع الفقهاء وغيرهم من اكابر دمشق وقراء عليهم تقليد هولاكو . وجاء اكابر حماة الى حلب ومعهم مفاتيح مدينتهم سلموها الى هولاكو وطلبوا منه الامان لاهل حماة وشحنة يكون عندهم فامنهم وارسل

اليهم شحنة خسروشاه فتولى المدينة وأمن اهلها وكان صاحب حماة الملك المنصور توجه الى الملك الناصر بدمشق وصحبه بفراره

ثم سار هولاكو الى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا ان يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب فاحضره هولاكو وسلموها اليه فغضب هولاكو وامر بهم فقتلوا عن آخرهم وسبي النساء وعاد هولاكو الى المشرق لدواعٍ حملته على العود وامر عماد الدين القزويني الذي كان قد جعله نائباً بحلب ان يرحل الى بغداد فرحل اليها وجعل مكانه بحلب رجلاً اعجمياً وأمر هولاكو بخراب اسوار قلعة حلب واسوار المدينة فخربت عن آخرها وامر الاشرف صاحب حمص ان يعود اليها ويخرب في طريقه سور قلعة حماة فخربه ولم يخرب اسوار المدينة لقرب الفرنج اليها بحصن الاكراد فاذا خربت اسوارها يتيسر للفرنج اخذها واناب هولاكو عنه على جيشه كتبغا فسار بالجيش الى دمشق فملكها بالامان ولم يتعرض العسكر الى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق فحاصرها التتر وجرى على اهل دمشق بسبب هذا العصيان شدة عظيمة واقاموا المناجيق على القلعة وضايقوها ثم تسلموها بالامان ونهبوا جميع ما فيها وخربوا اسوارها واخذوا بعلبك وعجلون واخرجوا نقيب قلعة دمشق وواليها من الاعتقال وضربوا اعناقهما بداريا

واجتمعت العساكر الاسلامية في مصر واشتهر عند اهل دمشق خروجها لقتال التتر فاوقعوا بالنصارى وكانوا قد استطالوا بدق النواقيس وادخال الخمر الى الجامع فنهبهم المسلمون وخربوا كنيسة مريم العظيمة وكانت في جانب دمشق الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف فبقيت بيد المسلمين وكان في الجانب الذى فتحه ابو عبيدة بالامان كنيسة ملاصقة للجامع فبقيت بيد النصارى فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة خرب الكنيسة الملاصقة للجامع واضافها اليه ولم يعوض النصارى عنها فلما ولي عمر بن عبد العزيز عوضهم بكنيسة مريم عن تلك الكنيسة فعمروها عمارة

عظيمة وبقيت كذلك حتى خربها المسلمون في التاريخ المذكور (ابو الفدا وابن خلدون)

وسار الملك المظفر قطز ملك مصر بالعساكر الاسلامية لقتال التتر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة ولما بلغ ذلك كتبغا نائب هولاكو على الشام جمع من في الشام من التتر وسار الى لقاء المسلمين وتقارب الجمعان في الغور واقتتلا فانهزم التتر هزيمة قبيحة واخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه وفر من بقي الى رؤوس الجبال وتبعهم المسلمون فافنوهم وهرب من سلم منهم الى المشرق وكان في صحبتهم الاشرف صاحب حمص ففارقهم وطلب الامان من المظفر قطز فامنه ووصل اليه فاكرمه واقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها وضرب عنق الملك السعيد صاحب الصبيبة اذ كان مع التتر واخذ اسيرًا واعاد الملك المنصور صاحب حماة الى ملكه واعاد اليه المعرة وكانت في يد الحلبيين واتم المظفر قطز سيره الى دمشق فابتهج المسلمون بقدومه وتضاعف شكره لله تعالى على هذا النصر العظيم وامر بشنق جماعة المنتسبين الى التتر فشنقوا وقال بعض الشعراء بذلك

هلك الكفر بالشام جميعاً ... واستجد الاسلام بعد دحوضه
ملك جاءنا بعزمٍ وحزمٍ ... فاعتززنا بسمرهِ وبيضه
اوجب الله شكر ذاك علينا ... دائماً مثل واجبات فروضه

وهنى الشيخ شرف الدين شيخ المشائخ الملك المنصور صاحب حماة بنصره وعود المعرة اليه بابيات منها

رعت العدى فضمنت ثَلَّ عروشها ... ولقيتها فاخذت ثَلَّ جيوشها
نازلت املاك التتار فازلت ... عن خلها قسرًا وغن اكديشها
فغدا لسيفك في رقاب كماتها ... حصد المناجل في يبيس حشيشها

فقت الملوك ببذل ما تحويه اذ   ختمت خزائنها على منقوشها

وجهز قطز عسكرًا الى حلب لحفظها وجعل شمس الدين اقوش البرلي اميرًا بالسواحل وغزة وفوض نيابة السلطنة بدمشق الى الامير علم الدين سنجر الحلبي وفوض نيابة السلطنة بحلب الى الملك السعيد صاحب الموصل وسار الملك المظفر قطز من دمشق عائدًا الى مصر فقتله في طريقه ركن الدين بيبرس البندقداري واخذ السلطنة وكان قطز قد استناب علم الدين سنجر الحلبي بدمشق كما مر فبعد مقتل قطز جمع علم الدين الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة فاجابه الناس الى ذلك ولقب نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وعرف التتر بذلك فعادوا الى الشام مرة أخرى فساروا الى البيرة وكان قطز قد قرر بحلب الملك السعيد واقام معه حامية فابغضته وخلعته واقامت مكانه حسام الدين الجوكندار وسار التتر من البيرة الى حلب فاندفع حسام الدين وعسكره بين ايديهم وانهزموا الى جهة حماة فملك التتر حلب واخرجوا اهلها الى محل اسمه قرنبيا (اي مقر الانبيا) وبذل التتر فيهم السيف فافنوا اغالبهم وسلم قليل منهم ووصل حسام الدين وعسكره الى حماة فضيفهم صاحبها وهو خائف من غدرهم ثم وصلوا من حماة الى حمص وقارب التتر حماة ففر صاحبها ايضاً الى حمص ولحقهم التتر اليها فاقتتل الفريقان على حمص قتالاً شديدًا كان آخره ان انهزم التتر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاؤا ورجع الى حماة الملك المنصور صاحبها وانضم من سلم من التتر الى باقي جماعتهم وكانوا نازلين قرب سلمية فنزلوا على حماة يومًا واحدًا ثم رحلوا عنها وكان ذلك سنة ٦٥٩ هـ سنة ١٢٦١ م وقد عاد التتر بعد ذلك الى الشام كما سترى (انتهى ملخصاً عن ابي الفداء وابن خلدون)

﴿ عـد ٨٧٥ ﴾

في بعض الاحداث في ايام الملك الظاهر بيبرس البندقداري

بعد ان قتل ركن الدين بيبرس البندقداري قطز سنة ٦٥٨ هـ سنة ١٢٦٠ م استقر في السلطنة وتلقب بالملك القاهر ثم غير هذا اللقب وتسمّى الملك الظاهر لانه قيل له ان لقب القاهر غير مبارك ما تلقب به احد وطالت مدته وكان قطز قد استناب علم الدين سنجر الحلبي بدمشق فلما قتل قطز حلف الحلبي الناس لنفسه واستقل بدمشق كما مر ففي سنة ٦٥٩ هـ سنة ١٢٦١ م جهز الملك الظاهر بيبرس عسكرًا مع علاء الدين البندقداري وهو استاذ الملك الظاهر لقتال علم الدين فخرج علم الدين اليهم واقتتلوا في ظاهر دمشق فولى علم الدين واصحابه منهزمين ودخلوا قلعة دمشق الى ان جنه الليل فهرب الى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل الى الديار المصرية فاعتقل ثم اطلق واستقرت دمشق في ملك الملك الظاهر بيبرس واقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحمص وحلب واستقرّ ايدكين البندقدار الصالحي في دمشق لتدبير امورها وورد عليه مرسوم الملك الظاهر بالقبض على بهاء الدين الاشرفي وشمس الدين اقوش البرلي وغيرهما من العزيرية والناصرية وتوجه بهاء الدين الى علاء الدين امير الجيش فقبض عليه فاجتمع العزيرية والناصرية الى اقوش البرلي وخرجوا من دمشق ليلاً وارسل علاء الدين الى البرلي يطيب قلبه ويحلف له فلم يلتفت الى ذلك وسار الى حمص وطلب من صاحبها الاشرف ان يوافقه على العصيان فلم يجبه الى ذلك ثم توجه الى حماة وارسل يقول للملك المنصور صاحبها لم يبقَ من البيت الايوبي غيرك قم لنصير معك وتملك البلاد فرده ردًا قبيحاً فاغتاظ البرلي ونزل على حماة واحرق زرع بيدر العشر وسار الى شيزر ثم الى جهة حلب وكان فيها فخر الدين الحمصي قد ارسله علاءَ الدين نائب دمشق للكشف عن البيرة من التتر الذين نازلوها فقال

البرلي لفخر الدين نحن في طاعة الملك الظاهر فنمضي اليه ونسأله ان يتركني ومن في صحبتي مقيمين بهذا الطرف ولا يكلفني وطأ بساطه فسار فخر الدين الى مصر ليودي هذه الرسالة فاستبدّ البرلي في حلب وجمع العرب والتركمان واستعد لقتال عسكر مصر وكان الملك الظاهر قد ارسل جمال الدين المحمدي الصالحي لقتال البرلي وأمر فخر الدين المذكور بالانضمام اليه ورضي الملك الظاهر عن علم الدين المذكور وارسله معهما لقتال البرلي فساروا الى حلب وطردوه منها وبقيت البيرة في يده ففي سنة ٦٦٠ ﻫ سنة ١٢٦٢ م دخل في طاعة الملك الظاهر فاكثر من الاحسان اليه والعطا له وسأله البرلي ان يقبل البيرة منه فلم يفعل وما زال يعاوده حتى قبلها ثم تغير الملك الظاهر عليه سنة ٦٦١ ﻫ سنة ١٢٦٣ م فقبضه وكان آخر العهد به وكان التتر قد قتلوا الخليفة المستعصم العباسي سنة ١٢٥٨ ففي سنة ١٢٦١ قدم الى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص اسمه احمد شهدوا انه ابن الظاهر محمد ابن الامام الناصر فيكون عم المستعصم فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه من اكابر العلماء وشهد اوليك العرب كما تقدم واثبت القاضي نسب احمد المذكور وبايعه الملك والناس بالخلافة ولقب المستنصر بالله وانفق الملك الظاهر مالاً جسيماً في عمل الات الخلافة لاحمد المذكور وفي استخدام عسكر له ثم توجه به الى دمشق ثم جهزه الى بغداد طمعاً في انه يستولي عليها ويجتمع عليه الناس فسار الخليفة بعسكره من دمشق وعاد بيبرس الى مصر فوصلت اليه فيها كتب الخليفة انه استولى على عانة والحديثة وان كتب اهل العراق وصلت اليه يستحثونه على المسير اليهم وقبل ان يصل الى بغداد وصلت اليه التتر وقتلوه وغالب اصحابه وكان في حلب رجل من العباسيين هو احمد ابو العباسي ابن علي نجا مختفياً من بغداد فاستقدمه الملك الظاهر الى مصر وبويع له بالخلافة ولقب الحاكم بامر الله وطالت خلافته وتوفي سنة ٧٠١ ﻫ سنة ١٣٠٢ م واستمر هولاء الخلفاء في مصر على

الخلافة الدينية ولا ولاية لهم الى سنة ١٥١٧ حين تخلى الخليفة الاخير منهم عن الخلافة الى السلطان سليم الاول العثماني فكان عدد العباسيين في مصر ١٥ خليفة وعددهم في العراق ٣٧ خليفة

وفي سنة ٦٦٠ هـ سنة ١٢٦٢ م جهز الملك الظاهر عسكرًا الى حلب مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي فامنت بلاد حلب ثم أمر سنقر المذكور والملك المنصور صاحب حمص والاشرف صاحب حماة ان يغيروا على انطاكية فساروا ونهبوا بلادها وضايقوها واخذوا ما ينوف على ثلث مية اسير

وفي سنة ٦٦١هـ سنة ١٢٦٣ م سار الملك الظاهر من مصر الى الشام فلاقته والدة الملك المغيث صاحب الكرك فوثقها بالامان لابنها واحسن اليها وكان في قلبه غيظ عظيم على المغيث وحلف لوالدته وكان يجتهد على حضوره اليه فاغراه الامجد رسول المغيث الى الملك الظاهر حتى حضر وكان الخوف في قلبه شديدًا ونصحه ابن مزهر ناظر خزانته ان يفر قبل ان يصل الى الملك الظاهر ويعود الى الكرك فلم يمتثل نصيحته وسار حتى وصل الى بيسان حيث كان الملك الظاهر ولاقاه الملك الظاهر وجامله خدعة ولما قرب من دهليز الملك قبض عليه واعتقله وارسله الى مصر فكان آخر العهد به ثم قبض على جميع اصحابه وفي جملتهم ابن مزهر المذكور وكان للمغيث ولد يقال له الملك العزيز اعطاه الملك الظاهر اقطاعاً في مصر وسار الملك الظاهر الى الكرك فتسلمها ورتب امورها وعاد الى مصر وفي السنة المذكورة توفي الملك الاشرف صاحب حمص فكان آخر الملوك على حمص من بيت شيركوه الايوبي وانتقلت حمص الى مملكة الملك الظاهر (انتهى ملخصاً عن ابي الفدا وابن خلدون)

﴿ عدد ٨٧٦ ﴾

في حروب الملك الظاهر مع الفرنج الى حين وفاته

نلخص اولا ما قاله المؤرخون المسلمون ولا سيما ابو الفدا وابن خلدون قالا : في سنة ٦٦٣ ﻫ سنة ١٢٦٥ م سار الملك الظاهر بيبرس من مصر بعساكره المتوافرة الى جهاد الفرنج بالساحل ونازل قيسارية الشام في تاسع جمادي الاول وضايقها وفتحها بعد ستة ايام وامر بها فهدمت ثم سار الى ارسوف ونازلها وفتحها في جمادي الاخرة من السنة المذكورة وعاد الى مصر وفي سنة ٦٦٤ ﻫ سنة ١٢٦٦ م خرج الملك الظاهر من مصر ثانيةً وسار الى الشام وجهز عسكرًا الى ساحل طرابلس ففتحوا القليعات وحلبا وعرقا ونزل هو على صفد وضايقها بالزحف وآلات الحصار ولاصق الجند القلعة وكثر القتل والجراح في المسلمين ثم فتحها بالامان وقتل اهلها عن آخرهم وسير عسكره الى الارمن ووصلوا الى بلاد سيس فانتصروا على صاحبها وقتلوا احد اولاده واسروا الاخر ورجعوا وايديهم ملأى من الغنائم وخرج الملك الظاهر للتقاهم فنزل على قارا بين دمشق وحمص فأمر بنهب اهلها وقتل كبارها فنهبوا وقتل منهم جماعة لأنهم كانوا نصارى وكانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم للفرنج واخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في مصر فصار منهم اخيار وامرآء

وفي سنة ٦٦٦ ﻫ سنة ١٢٦٨ م توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة الى الشام ففتح يافا وأخذها من الفرنج ثم سار الى انطاكية ونازلها وزحفت العساكر الاسلامية اليها فملكوها بالسيف وقتلوا اهلها وسبوا ذراريهم وغنموا منهم اموالاً جليلة وكانت انطاكية للبرنس بيمند بن بيمند وله معها طرابلس وكان مقيماً بطرابلس لما فتحت انطاكية ولما سمع اهل قلعة بغراس بفتح انطاكية هربوا وتركوا الحصن خالياً فارسل الملك الظاهر من استولى عليه وشحنه بالرجال والعدد وصار من

الحصون الاسلامية

وفي سنة ٦٦٨ هـ سنة ١٢٧٠ م عاد الملك الظاهر الى الشام واغار على عكا فرأى ان لا مطمع له فيها وقتيئذ فتوجه الى دمشق ثم الى حماة وجهز عسكرًا الى بلاد الاسماعيلية فتسلموا مصياف وعاد من حماة الى دمشق ثم الى مصر

وفي سنة ٦٦٩ هـ سنة ١٢٧١ م عاد الملك الظاهر من مصر الى الشام ونازل حصن الاكراد وهو للفرنج وجد في حصارهِ واشتدّ القتال عليه وملكه بالامان ثم رحل عنه الى حصن عكار ونازله وجد في قتاله وملكه بالامان فقال محيي الدين بن عبد الظاهر مهنئاً له بفتوح عكار

يا مليك الارض بشرا لكَ فقد نلت الاراده (ويروى السعادة)
ان عكار يقيناً هو عكا وزياده (ويروي لعمري موضع يقيناً)

ثم تسلم قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية ونازل حصن القرين وضيق عليه الى ان استلمه بالامان وأمر به فهدم ثم جهز ما يزيد على عشرة شواني لغزو قبرس فتكسرت في مرسى الليماسوس واسر الفرنج من كان في تلك الشواني فاهتم بعمار شوانٍ آخر فعمل في المدة اليسيرة ضعف ما تكسر

وفي سنة ٦٧٦ هـ سنة ١٢٧٨ م توفي السلطان الملك الظاهر بيبرس ابو الفتح الصالحي النجمي بدمشق ودفن فيها قرب الجامع الاموي وكتم مملوكه بدر الدين تتليك المعروف بالخزندار موته وارتحل بالعساكر ومعهم المحفة مظهرًا ان الملك فيها وانه مريض وكان الملك الظاهر حلف العسكر لولده بركة ولقبه الملك السعيد ولما وصل بدر الدين بالعسكر الى القاهرة اظهر موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك السعيد للتعزية واستقر في السلطنة وكانت مدة ملك الملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة

واما ما قاله المؤرخون الفرنج عن حروب الملك الظاهر معهم فهذا خلاصته

كان التتر يأمنون احياناً الفرنج عند غزواتهم لسورية كيلا يتجشموا حرب المسلمين والنصارى معاً ولم يكن الفرنج المقيمون بسورية على وفاق بينهم بل كانت عداوة شديدة بين اهل جنوا واهل البندقية المتوطنين بعكا ولما كان القديس لويس ملك افرنسة بسورية اصلح بينهم ومنعهم من العود الى الخلاف وبعد ان رجع الى المغرب عادت العداوة بينهم حتى اتصلت الى سكان بلادهم في اوروبا ولم يكن لاورشليم ملك الا بالاسم فقط وكانت اوروبا في اسوأ حال من جرى تهديد البربر لها ايضاً ومن الاختلافات بين ملوكها والانقسامات الداخلية ايضاً في بعض ممالكها وزاد في الطين بلة وفي الطنبور نغمة سقوط مملكة اللاتين في قسطنطينية لأن الملك ميخائل باليولوغوس طرد منها الملك بودوين الثاني سنة ١٢٦١ ففي هذه الحال السيئة قام في السلطة الاسلامية الملك الظاهر بيبرس الذي لقبوه عماد دين الاسلام وكنوه بابي الفتوحات ففي سنة ١٢٦٣ بعد ان اخرب بلاد انطاكية سار بعساكره المتوافرة الى فلسطين فارتاع الفرنج من دنوه اليهم وارسلوا يطلبون منه الامان فارسل وحرق كنيسة الناصرة ونهبت عساكره كل البلاد التي بين نايين وجبل طابور واتوا تخلوا تجاه عكا ومن الغريب ان الملك الظاهر استطاع ان يغري امير صور الافرنجي ليعاونه على عكا فوعده بالاجابة الى ذلك واتفق مع اهل جنوا وحاصر عكا بحراً حين كان بيبرس يحاصرها براً ومما يؤيد ذلك رسالة انفذها البابا اوربانوس الرابع الى الجنويين الذين بفلسطين يونبهم ويلومهم على سؤ عملهم بسورية على ان امير صور ارعوى عما وعد به بيبرس وكف عن حصار عكا فاستشاط بيبرس من اخلاف الامير وعده له وجاهر بانه سوف ينتقم من الفرنج فاخرب القرى والمزارع وقام سكان المدن على اسوارها ينتظرون يوماً فيوماً قدوم الاعداء اليهم

وقصد بيبرس قيسارية سنة سنة ١٢٦٥ فدافع اهلها شديد الدفاع ولما يئسوا تركوا المدينة وامتنعوا بالقلعة لكنها على مناعتها لم تقوَ على مهاجمات عسكر بيبرس

فافتتحوها وساروا منها الى ارسوف فصبر اهلها بالجهاد والقى المسلمون اخشاباً واشجاراً في خنادق المدينة ليعبروا الى اسوارها فحرقها الفرنج واخذ كل فريق منهم يلغم ليقتتلوا تحت الارض ايضاً ولم يكن ما يبرد حمية الفرنج ولا ما يخمد جذوة غضب بيبرس واستشهد المؤرخون الفرنج بقول المقريزي ان كثيرين من الاغنياء والزهاد والفقهاء المسلمين انضووا الى جيش بيبرس ليفتحوا ارسوف وان عساكر المسلمين لم يروا حينئذ الفرنج يشربون خمراً او ياتون منكراً بل كانوا يرون بعض السيدات يحملن الماء والزاد الى المحاربين ويلزمنهم عند اتقاد وطيس الحرب ايضاً ويساعدنهم في نقل آلات الحصار وقد استمر الحصار اربعين يوماً واخيراً خفقت اعلام بيبرس على ابراج ارسوف ودخل المسلمون اليها فصلوا في كنائسها التي حولوها جوامع وقتلوا الكثيرين من سكانها واستعبدوا الباقين منهم ووزعهم بيبرس على روساء جيشه وأمر بارسوف وهدمت واكره الاسرى ان يهدموا منازلهم بايديهم وقسم ارضها على امرائه وعاد بيبرس الى مصر ثم سار ثانيةً الى سورية سنة ١٢٦٦ فنهبت عساكره بلاد صور وعكا واطرابلس وكانت غنيمة عساكره عظيمة حتى روى المقريزي انه لم يبقَ من يشتري البقر والغنم وغيرها من الدواب ولو بابخس الاثمان واتى لحاصر قلعة صفد وكانت تخص الفرسان الهيكليين وشد الحصار عليها حتى كان يشاطر جنوده الجهاد في فتحها وعرض نفسه اكثر من مرة للخطر ودافع من فيها من الحامية مدافعة الابطال وروعت بسالتهم المسلمين ولم يجدِ على بيبرس تشجيع جنوده ولا عقابه من فرّ منهم ولا حبسه بعض امرائه لانهم تركوا مواقفهم ولا وعده من صبر على القتال باعظم المجازات بل نفعته حيله ودهاه فانه اكثر من المراسلات اليهم والوعود الكاذبة لبعضهم والوعيد لغيرهم حتى مكن الانقسام بينهم فصار بعضهم يرى المصلحة في الاستسلام اليه وغيرهم يراها بالمدافعة حتى الموت واخذ بعضهم يشكو بعضاً بالخيانة ويوقع الشبهة على صدق امانته فضعفت عزيمتهم

وتفرقت كلمتهم فنقصت قوتهم واكثر جنود بيبرس من الهاجمات لهم وكادت منجيقاتهم تخرق الاسوار فاستسلموا على شرط ان يتوجهوا حيث شاءوا ولا ياخذوا معهم سوى ملابسهم فبذل لهم بيبرس الامان على ذلك لكنه لما رآهم خارجين من القلعة شكاهم بانهم حملوا نقودًا واشياء نفيسة فقبض عليهم جميعاً وكانوا ست مئة مقاتل وعلى رواية بعض المؤرخين العرب كانوا الفين فامر بقتلهم ولم يستبقِ الاَّ اثنين منهم احدهما ارسله الى عكا ليخبر الفرنج بما كان في صفد والثاني أسلم فسلم وعاد بيبرس بعد أخذ صفد الى مصر ثم رجع الى سورية وجهز الحملة على ملك الارمن مدعياً عليه انه دعا التتر الى سورية فانتصر عليه كما روى المؤرخون العرب وفرض ضريبة على المسلمين لنفقة الحرب التي كان يسميها الحرب المقدسة وحاول نخبة من الفرنج ان يغيروا على جهة طبرية فالتقاهم المسلمون فشتتوا شملهم وقتلوا كثيرين منهم وقد أخذ المؤرخون الفرنج هذا الخبر عن المقريزي . وارسل الفرنج يسألون هدنة فلم يجبهم اليها بل اسرع بنفسه الى ظاهر عكا فرأوه ممتطياً جوده منتضياً سيفه ينادي بخراب عكا وقتل سكانها واستمرَّ محاصرًا للمدينة اربعة ايام ورحل عنها بغتةً الى يافا وكان من دابه ان يشغل اعداه في مواضع كثيرة بوقت واحد ليتقي تالبهم عليه وكان القديس لويس ملك افرنسة حصَّن يافا ولكن لم يصبر سكانها على الدفاع فملكها بيبرس ودك اسوارها وكان ذلك سنة ١٢٦٧ ثم سار الى طرابلس ولما ساله بيومند لِمَ اتيتَ اجابه اتيت الآن لاحصد زرع ارضك وسوف اتى فاحصر مدينتك .

وكان من مدة طويلة ينوي فتح انطاكية ففي سنة ١٢٦٨ ساق اليها جنوده وكان بيومند في طرابلس التابعة لولايته والبطريرك يدبر شؤون الحكومة مدة غيابه وكان كثيرون من سكانها قد ارتحلوا عنها لجبن الفرنج في الدفاع عنها واكثروا من التضرع والاسترحام للغاذي فلم ينعطف الى الاجابة وقد اسكره ظفره وهام

بتدمير مدن الفرنج عن اخرها فدخل المسلمون المدينة عنوةً فلم يبقوا على احد ممن وجدوا من سكانها واستحلوا دم الفرنج وعرضهم واموالهم وكتب بيبرس حينئذٍ رسالة لبيومند صاحب انطاكية وهو بطرابلس ومما قاله فيها وهو مترجم عن الافرنسية اذ لم نعثر على النص العربي « فاجاء الموت قومك من كل جهة وفي كل طريق فقد قتلنا كل من اخترتهم لحراسة مدينتك والدفاع عنها فلو رأيت فرسانك تطأهم ارجل خيلنا او رأيت اعمالك منهوبة واموالك موزونة بالقنطار ونساء رعاياك مباعة بالحرج او رأيت الصلبان مطروحة على الارض واوراق الانجيل ممزقة وملقاة في الجو للرياح ومدافن البطاركة منجسة او رأيت اعداءك المسلمين يذبحون الرهبان والكهنة والشمامسة على المذابح ورأيت الدور محروقة وكنيسة القديس بولس وكنيسة القديس بطرس مدكوكتين لعمري لو رأيت كل ذلك اصحت يا ليتني كنت غباراً »

وقسم بيبرس الغنائم على جنوده واقتسم المماليك النساء والبنات والاولاد وكان يباع الولد الصغير باثني عشر درهماً والبنت بخمسة دراهم فهلك سكان انطاكية جميعهم في يوم واحد واحرق بيبرس بيوتها ومساكنها وقال اكثر المؤرخين ان عدد القتلى من النصارى بلغ الى سبعة عشر الف قتيل وعدد الاسرى مئة الف اسير وكان فتح انطاكية في اول ايار سنة ١٢٦٨ وقد فتحها الفرنج سنة ١٠٩٨ فتكون مدة ملكهم لها مئة وسبعين سنة : وبعد ان بعث بيبرس رسالته الى بيومند ارسل اليه وفداً وسار مع الوفد متنكراً ليكتشف على تحصينات اطرابلس وينظر في الوسائل اللازمة لفتحها وكان الوفد يسمون بيومند كنتاً وهو يريد ان يسمى اميراً فاشار اليهم بيبرس ان يدعوه اميراً ورجع مع وفده يسخر من بيومند بقوله أتت الساعة التي يلعن الله بها الامير والكنت وبعد ذلك عقد هدنةً مع بيومند ناوياً ان يخفي ما يكنه ضميره ومتى حان الوقت لا تعوزه حيلة لنقض الهدنة ولما امسى

الفرنج بسورية بهذه الحال السيئة الحرجة سار رئيس اساقفة صور اللاتيني ورئيس الفرسان الهيكليين والاسبيتاليين الى المغرب يستصرخون الكرسي الرسولي والملوك والشعوب لانجادهم فكان جل من لبى دعوتهم القديس لويس ملك افرنسة وفي سنة ١٢٧٠ سافر وبلغ الى صقلية وكان اخوه شرل دانجو صار ملكاً على صقلية فاقنع الملك لويس ان يتوجه بعسكره اولاً الى تونس فيدوخها ويمنع سطو التونسيين على الفرنج الذين يأتون الى فلسطين فسار الملك لويس الى تونس وحاصرها ولكن دهمته المنية هناك فذهبت نفسه الصالحة تنال اجر برها ومبراتها في الاخدار السموية في ٢٥ آب سنة ١٢٧٠ وقد احصاه في مصاف القديسين الحبر الروماني البابا بونيفاشيوس الثامن سنة ١٢٩٧ وكان البابا غريغوريوس العاشر قد بداء في الفحص عن دعوى تطويبه مذ سنة ١٢٧٣ ثلث سنين بعد وفاته وبعد وفاة الملك لويس انتصر ابنه الملك فيليب وعساكره على امير تونس وارغموه على معاهدة مع الفرنج مذلة له ومشرفة للفرنج وفي جملة موادها اباحة النصارى مباشرة امور دينهم وبناء المعابد والاديار لهم بل عدم التعرض لمن شاء من المسلمين ان يتنصر وكان ادوار ابن انريكس الثالث ملك انكلترا لحق بالقديس لويس ملك افرنسة الى تونس وبعد وفاته سار الى عكا اما توًا اما بعد ان رافق جثة القديس لويس الى صقلية على رواية اخرى وكان صحبته نحو ثلثمائة فارس والف راجل وانضم اليهم فرسان الهيكل والاسبيتال وجماعة من الفرنج حتى صار عسكرهم نحو سبعة الاف مقاتل فزحفوا اولاً الى فونيقى لاعادة الاتصال بين مدن النصارى وكان المسلمون قد قطعوه فعانوا مضض الحرّ وافرط بعضهم في اكل الفواكه والعسل فمات بعضهم ثم توجهوا الى الناصرة فملكوها وتذكروا تدمير بيبرس كنيسة العذرآء الشهيرة بهذه المدينة فقتلوا من وجدوا فيها من المسلمين ونهبوا بيوتهم وبعد هذا الانتصار لم يشأ الامير ادوار ان يستانف الحرب اما لانه لم يرَ قوة كافية للثبات في القتال اما لانه رأى الفرنج المقيمين

بسورية لا يرغبون فيه واما لانه انخدع بمراسلة امير يافا المسلم له واعداً بان يتنصر وان يسلم اليه هذه المدينة التي كان يأبها من قبل بيبرس وكثرت المراسلات بينهما وكان رسول امير يافا رجلاً اسماعيلياً فدخل يوماً على الامير ادوار وهو مضجع على فراشه فحمل عليه بمدية جرحته في ذراعه فرفسه الامير فالقاه على الارض واراد اخذ المدية منه فجرح في جبهته ولما تناولها منه طعنه في بطنه وسمع الحجاب الصوت فدخلوا ووجدوا الاسماعيلي صريعاً ولكن خافوا ان تكون المدية مسممة وروى بعض المؤرخين ان الاميرة اليونارا زوجة ادوار اخذت تمتص جرح زوجها لتخرج السم منه وروى آخرون ان رئيس فرسان الهيكل ارسل اليه للحال دواء لا يشك بنفعه ولكن لم ينجع هذا الدواء ولا غيره من العلاجات وخيف على حياة الامير فحضر طبيب انكليزي وتعهد بشفائه على شرط ان يبعد عنه الاميرة وحاشيته فابعدوا . فقطع الطبيب كلما كان يراه اسود من لحم الامير حول جرحه فبرى بعد خمسة عشر يوماً ولم يشا ادوار بعد ذلك ان يبقى في فلسطين فعقد هدنة مع الملك بيبرس الى مدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة ايام وعشر ساعات وبعد التوقيع عليها عاد الى انكلترا سنة ١٢٧١ وهكذا انتهت هذه الحملة التي هي الثامنة والاخيرة من حملات الفرنج على سورية

عـد ٨٧٧

في خلافة ولدي الملك الظاهر له ثم خلعهما وتمليك قلاوون الصالحي

قد مرّ ان الملك الظاهر بيبرس توفي بدمشق وكتم نائبه ومملوكه بدر الدين موته الى ان عاد بالعسكر الى القاهرة فاظهر موت الملك وجلس ابنه بركة في دست السلطنة سنة ٦٧٦ ﻫ سنة ١٢٧٨ م ولقب الملك السعيد واستمر بدر الدين بيليك الخزندار في نيابة السلطنة على ما كان عليه مع والده لكنه مات بعد ذلك في مدة يسيرة وتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين القارقاني ولم يكن الملك السعيد

يسمع له بل خبط واراد تقديم الاصاغر وابعد الامراء الاكابر وقبض على سنقر الاشقر والبيسرى وكانا من كبار قومه فسدت نية الامرآء عليه وفي سنة ٦٧٧ هـ سنة ١٢٧٩ م سار الملك السعيد الى الشام بعسكره ووصل الى دمشق وجرد منها عسكرًا أمر عليه الامير سيف الدين قلاون الصالحي وارسلهم للاغارة على سيس في بلاد الارمن فشنوا الاغارة وعادوا غانمين واتفقوا على الخلاف على الملك السعيد وخلعه وعبروا على دمشق ولم يدخلوها فارسل اليهم الملك السعيد يستعطفهم ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا الى ذلك واتموا السير الى مصر فركب الملك السعيد وسبقهم الى القاهره ودخل الى قلعة الجبل فوصلت العساكر بعده في ربيع الاول سنة ٦٧٨ هـ سنة ١٢٨٠ م فحاصروا الملك السعيد بالقلعة وخامر عليه من كانوا معه وأخذ احدهم يهرب بعد الآخر وينضم الى عسكر المحاصرين ولما رأى الملك السعيد ذلك طاوعهم على الانخلاع من السلطنة وطلب ان يعطى الكرك فاعطوه اياها فسار اليها وتسلمها بما فيها من الاموال

واتفق اكابر الامرآء الذين خلعوا الملك السعيد على اقامة اخيه بدر الدين سلامش في المملكة ولقبوه الملك العادل وكان عمره اذ ذاك سبع سنين وشهورًا واختاروه صغيرًا ليكون الامر طوع ايديهم وصار الامير سيف الدين قلاون الصالحي اتابك العسكر (اي امير الامرآء) فجهز الامير شمس الدين سنقر الاشقر وارسله الى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد قد قبضوا على عز الدين ايدمر نائب السلطنة بدمشق وولوا بعده بدمشق اقوش الشمسي نائب السلطنة بحلب فسار سنقر الاشقر الى دمشق وتولاها على ان هولاء الامرآء قد انقلبوا في السنة المذكورة نفسها على سلامش الذي ملكوه فخلعوه واجلسوا الامير قلاون الصالحي اتابك المذكور على منصة الملك ولقبوه الملك المنصور ولما علم بذلك سنقر الاشقر الذي كان الامير قلاون قد ارسله الى

دمشق خرج عن طاعته بعد سلطنته وحلف له الامرآء والعسكر الذين عنده بدمشق واستبد بالملك وتلقب الملك الكامل شمس الدين سنقر فجهز عليه الملك المنصور قلاون عساكر مصر مع علم الدين سنجر الحلبي الذي تقدم ذكر سلطنته بدمشق بعد موت قطز ولما قاربت عساكر مصر دمشق برز اليهم سنقر الاشقر بعساكر الشام واقتتل الفريقان في ظاهر دمشق فولى الشاميون وسنقر الاشقر منهزمين ونهبت العساكر المصرية أثقالهم وكتب سنجر الحلبي الى الملك المنصور يخبره بالنصر وكان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق فاعتقله سنقر الاشقر عند خروجه فلما انهزم جعله قلاوون نائب السلطنة بالشام واما سنقر الاشقر فانه هرب الى الرحبة وكاتب ابغا بن هولاكو ملك التتر واطمعه في البلاد وسار من الرحبة الى صهيون واستولى عليها وعلى برزنه والشغر وبكاس وعكار وشيزر وفامية وصارت هذه الاماكن له وتوفي اقوش الشمسي المذكور نائب السلطنة بحلب فولى الملك المنصور سنجر الحلبي المذكور وكثرت الاخبار ان التتر قادمون الى حلب بجموعهم فصار قلاون من مصر ووصل الى غزة قاصداً دفع التتر عن البلاد وكان التتر قد وصلوا الى حلب فعاثوا ثم عادوا فلما علم الملك المنصور بعودهم عاد هو ايضاً الى مصر لكنه رجع الى الشام ثانيةً سنة ٦٨٠ ﻫ سنة ١٢٨٢ م ووصل الى بيسان وقبض على جماعة من الظاهرية ودخل دمشق واعدم منهم جماعة وارسل عسكراً الى شيزر وهي لسنقر الاشقر كما مرَّ وجرى بين العسكرين مناوشة وترددت الرسل بين السلطان قلاون وبين سنقر الاشقر واحتاج السلطان الى مصالحته ليقوى على التتر فكان الصلح بينهما على ان يسلم سنقر شيزر الى السلطان ويسترد سنقر الشغر وبكاس وكانتا قد اخذتا منه فتسلم نواب السلطان شيزر وتسلم سنقر الشغر وبكاس وحلفا على ذلك واستقر الصلح • وكان الملك السعيد بن بيبرس الذي ذكرنا خلعه من

الملك وتوليته الكرك قد مات واتفق من بالكرك واقاموا موضعه اخاه نجم الدين خضر ابن بيبرس ولقبوه الملك المسعود وكان من المخالفين للملك المنصور قلاون فاحتاج الى مصالحته فصالحه ايضاً سنة ٦٨٠ هـ سنة ١٢٨٢ م ليجمع كلمة المصريين والشاميين على مدافعة التتر (عن ابي الفدا وابن خلدون)

عـد ٨٧٨

وقعة حمص بين الملك المنصور قلاوون والتتر

في سنة ٦٨٠ هـ سنة ١٢٨٢ م حشد ابغا بن هولاكو ملك التتر عساكره وسار بها قاصدًا الشام وانفرد عن جيشه فنزل وسار الى الرحبة وسير جيوشه الى الشام وقدم عليهم اخاه منكوتمر بن هولاكو فساروا الى جهة حمص وكان الملك المنصور قلاوون بدمشق فالتقاهم بالجيوش الاسلامية الى حمص وارسل يستدعي سنقر الاشقر ومن عنده من الامرآء والعسكر بحكم ما استقر بينهما من الصلح فسار سنقر من صهيون الى عسكر الملك المنصور ووصل اليه ايضاً صاحب حماة الملك المنصور ورتب السلطان عساكره فكان في رأس الميمنة الملك المنصور محمد صاحب حماة وكان رأس الميسرة سنقر الاشقر ومن معه وكان بر الميمنة العرب وبر الميسرة التركمان وكان في القلب حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة ومن اضيف اليه من الامرآء والعساكر والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة من يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد وانزل الله نصرته على القلب والميمنة فهزموا من كان قبالتهم من التتر وركبوا اقفاهم يقتلونهم وكان اخو ابغا قبالة القلب فانهزم ايضاً واما ميسرة المسلمين فانكشفت عن مواقفها وانهزم بعض رجالها الى جهة دمشق وسافر التتر في اثرهم حتى وصلوا الى تحت حمص ووقعوا في السوقية وغلمان العسكر والعوام فقتلوا منهم خلقاً كثيرًا ثم علموا بنصرة المسلمين في القلب والميمنة وهزيمة جيشهم فولى هؤلاء ايضاً على اعقابهم وتبعهم المسلمون يقتلون

ويأسرون وكان عدد التتر ثمانين الف فارس منهم خمسون الفاً من المغول والباقي حشود وجموع من امم مختلفة مثل كرج وارمن وعجم وغيرهم ولما وصل خبر هذه الكسرة الى ابغا وهو على الرحبة يحاصرها رحل عنها على عقبه منهزماً وصرف الملك المنصور قلاوون العساكر الاسلامية فرجع كل منهم الى محله وعاد هو الى دمشق والاسرى والرووس بين يديه ثم عاد الى الديار المصرية ومات بعد ذلك منكوتمر اخو ابغا المذكور ابن هولاكو مكموداً عقيب كسرته على حمص وفي سنة ٦٨١هـ سنة ١٢٨٣ م مات ابغا ايضاً ابن هولاكو بن خبكز خان ملك التتر ولما مات ابغا ملك بعده اخوه احمد بن هولاكو ولما جلس في الملك اظهر دين الاسلام وتسمى احمد سلطان وكان اسمه بيكدار وارسل رسلاً الى السلطان الملك المنصور قلاوون فاحترز عليهم السلطان ولم يمكن احداً من الاجتماع بهم وكان مضمون رسالتهم اعلام السلطان باسلام احمد وطلب الصلح بين المسلمين والتتر فلم ينتظم ذلك

ثم خرج ارغون بن ابغا بخراسان على عمه احمد سلطان المذكور سنة ٦٨٢ هـ سنة ١٢٨٤ م واقتتلا فانهزم ارغون واخذه عمه اسيراً وسأله الخواقين اطلاق ابن اخيه ارغون واقراره على خراسان فلم يجب الى ذلك وكانت خواطر المغل اي التتر قد تغيرت على احمد بسبب اسلامه والزامه لهم بالاسلام فاتفقوا على قتله وقصدوا ارغون بالموضع الذي هو معتقل فيه فاطلقوه وقتلوا نائب احمد ثم ساروا لقتل احمد فاحس بهم فهرب فتبعوه وقتلوه وملكوا ارغون (انتهى ملخصاً عن ابي الفدا وابن خلدون وغيرهما)

عدد ٨٧٩

وفاة صاحب حماة وفتح قلعة المرقب وصهيون

في سنة ٦٨٣ هـ سنة ١٢٨٥ م توفي الملك المنصور صاحب حماه وهو من الايوبيين وكانت مدة ملكه على حماة احدي واربعين سنة وخمسة اشهر واربعة

ايام وكان قد اوصى بان يخلفه في الملك ابنه الملك المظفر وكتب في ذلك الى السلطان الملك المنصور قلاوون فلم يرد الجواب منه الا بعد وفاة الملك المنصور وبه يدعو السلطان الملك المنصور لصاحب حماة بطول البقاء والبرء من المرض ويعده باقرار ابنه الملك المظفر على حماة اذ لم يفسح الله باجله وبعد وفاة الملك المنصور ارسل السلطان قلاوون الى ابنه الملك المظفر التشاريف ومرسوم اقراره في مملكة حماة وفي سنة ٦٨٤ هـ سنة ١٢٨٢ م سار الملك المظفر صاحب حماة الى دمشق حيث كان السلطان قلاوون يشكر له فاكرمه السلطان اكراماً كثيرًا

وفي السنة المذكورة اي سنة ١٢٨٦ م سار السلطان قلاوون بالعساكر المصرية والشامية ونازل حصن المرقب وكان هذا الحصن لفرسان الاسبيتال وكان في غاية العلو والحصانة لم يطمع احد من الملوك الماضين في فتحه ولما زحفت عساكر قلاوون اليه نصبت عليه عدة مجانيق كبارًا وصغارًا واخذ الحجارون ينقبون فيه وقال ابو الفدا الماخوذ هذا الكلام عن تاريخه اني حضرت حصار الحصن المذكور وعمري اذ ذاك اثنتا عشرة سنة وهو اول قتال رأيته وكنت مع والدي ولما تمكنت النقوب من اسوار القلعة طلب اهلها الامان فاجابهم السلطان اليه رغبة في ابقاء عمارتها فانه لو اخذها بالسيف وهدمها كان حصل التعب في اعادة عمارتها واعطى اهلها الامان على ان يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح وصعدت السناجق السلطانية على حصن المرقب المذكور وحمل اهله الى مأمنهم ورحل السلطان عنه الى الوطأة بالساحل واقام بروج بالقرب من موضع يقال له برج القرقيص ثم سار ونزل تحت حصن الاكراد ثم نزل على بحيرة حمص

وقد ذكر المؤرخون الافرنج حصار قلعة المرقب وفتحها فقالوا شكا المسلمون من فرسان الاسبيتال الذين كانت هذه القلعة تخصهم بانهم يغيرون على ارض المسلمين وربما لم تكن هذه الشكوى كاذبة فقصدها السلطان قلاوون بعساكره

وكانت هذه القلعة اشبه بمدينة وكانت ابراجها اعلى من ابراج تدمر فلم يكن يطمع في اخذها ومع ذلك نصبت عساكر قلاوون مناجيقها عليها واخذت في حصارها في اول نيسان من السنة المذكورة وأخذ الحجـارون ينقبون في اسوارها ففتحوا فيها نافذة وهجموا عليها فردّتهم بسالة الفرنج عن القلعة فلم ينفك المسلمون عن الوثوب عليها واتصلوا بلغم تحت القلعة الى داخلها فاضطر الفرنج اهلها الى ان يستسلموا الى السلطان قلاوون وهرب من كان فيها من الفرنج الى اطرابلس وملك المسلمون قلعة المرقب

وفي سنة ٦٨٦ ﻫ سنة ١٢٨٨ م كان السلطان قلاوون قد جهز عسكرًا كثيفاً مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطـاي وامرهم بالمسير الى قلعة صهيون وكان صاحبها حينئذٍ شمس الدين سنقر الاشقر كما مرَّ فنصبت العساكر عليهـا المجانيق وضايقوها بالحصار فاضطر سنقر الى تسليمها بالامان وحلف له حسام الدين قائد الجيش بان السلطان سيكرمه وسار حسام الدين الى اللاذقية وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته فالقى حجارًا في البحر عبر عليهـا الى البرج فحصره وتسلمه بالامان وهدمه وتوجه بعد ذلك وصحبته سنقر الاشقر الى الديار المصريه ولما وصلا الى قرب قلعة الجبل في القاهرة ركب السلطان قلاوون نفسه والتقاهما واكرمهما ووفى بالامان الذي اعطاه حسام الدين لسنقر المذكور (انتهى ملخصاً عن ابي الفدا وابن خلدون وغيرهما)

﴿ عـد ٨٨٠ ﴾

ذكر فتوح اطرابلس

هذا ما رواه المؤرخون المسلمون في سنة ٦٨٨ ﻫ سنة ١٢٨٩ م خرج السلطان الملك المنصور قلاوون بالعساكر المصرية في المحرم من هذه السنة وسار الى الشام ثم سار بالعساكر المصرية والشامية وناازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل

ربيع الاوّل ويحيط البحر بغالب هذه المدينة وليس عليها قتال في البر الاّ من الجهة الشرقية ونصب السلطان عليها عدة كثيرة من المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثا رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف ودخلها العسكر عنوةً فهرب اهلها الى المينا فنجا اقلهم في المراكب وقتل اكثر رجالها وسبيت ذراريهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة قال ابو الفداء المأخوذ هذا الكلام عن تاريخه وحصار اطرابلس هو ايضاً مما شاهدته وكنت حاضرًا فيه مع والدي الملك الافضل وابن عمي الملك المظفر صاحب حماه ولما فرغ المسلمون من قتل اهل اطرابلس ونهبهم امر السلطان فهدمت ودكت الى الارض وكان في البحر قريباً من اطرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطوماس (اي القديس توما) وبينها وبين اطرابلس المينا فلما اخذت اطرابلس هرب الى الجزيرة المذكورة والى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنسا فاقتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة المذكورة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا من بها من النساء والصغار وبعد فراغ الناس من النهب عبرت انا الى هذه الجزيرة في مركب فوجدتها ملأى من القتلى بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيها من نتن القتلى ولما فرغ السلطان من فتح اطرابلس وهدمها عاد الى الديار المصرية واعطى صاحب حماة الدستور فعاد الى بلده وكان الفرنج قد استولوا على اطرابلس سنة ٥٠٣ هـ سنة ١٢٩٩ م فتكون مدة مكثها مع الافرنج نحو ماية وخمس وثمانين سنة (قمرية وماية وتسع وسبعين شمسية)

وهذا ما قاله المؤرخون الافرنج في ذلك ان بيوमند السادس امير انطاكية وكنت طرابلس توفي سنة ١٢٧٥ وخلفه ابنه بيومند السابع وكان صغيرًا وكان تدبير الامارة لوالدته واسقف طرسوس وكان هوغس الثالث ملك قبرس من انسباء امير انطاكية فاتى الى اطرابلس حيث الامير الصغير ناوياً ان يأخذ تدبير الامارة فمانعته

من ذلك والدة الامير واسقف طرسوس فاعتزل ملك قبرس واقام في عكا وكان عند بيومند السادس رجال رومانيون سلم اليهم بعض مهام امارته فاسناء من ذلك شرفاء المدينة فكان سبباً للقلق في اطرابلس بعد موت الامير وقتل من الرومانيين ثلاثة رجال وكان اسقف اطرابلس رومانياً ايضاً فكان يؤيد جانب الرومانيين المذكورين وتحزب اسقف طرطوس للشرفاء فكان هذا الاختلاف بين الاسقفين ايضاً علة لشرور كبيرة وادى الى الخلاف بين الامير والفرسان الهيكليين واسقف اطرابلس واتصل الامر الى ان طرد الامير اسقف اطرابلس من كنيسته وضبط املاكه فلجأ الاسقف الى دار الهيكليين في اطرابلس فكبسه الامير فيها واراد هدمها وبعد ان طرد الاسقف منها نهبها واقام خفراً من المسلمين على حفظها فحرم اسقف اطرابلس الامير ومن اشترك معه في هذا التعدي وقد عثر على رسالة من البابا نيقولاوس الثالث الى هذا الامير مؤرخة في اول حزيران سنة ١٢٧٩ يؤنبه فيها على هذا التعدي ومما قاله بها حذار ايها الابن العزيز أ ينطبق ما صنعته على صنع رجل مسيحي ام هذه بواكير ملكك فكيف يمكننا ان نقنع الملوك والمؤمنين في المغرب بان يسيروا لنجدتكم وقد اشتهر عنكم انكم تضطهدون النصارى وكنيسة اطرابلس فاقتدين بمثل اجدادك فما دام امرآء انطاكية يكرمون الكرسي الرسولي وفقت امارتهم ولما اخلوا في طاعته خسروا انطاكية

وكان التحاسد بين الافرنج عظيماً وقد اتفق فرسان الهيكل مع حاكم جبلة على ان يستولوا على اطرابلس وقال ميشود في تاريخ الصليبيين ان لدينا تقريراً مخطوطاً مسجلاً في سجل اطرابلس ومشهوداً عليه من كثيرين ففي هذا التقرير يبين حاكم جبلة اتفاقه مع الهيكليين على خيانة بيومند ومن بعد ان كشفت هذه الخيانة أمر الهيكليون حاكم جبلة ان يحارب الافرنج الذين من بيزا في سورية وان ينهبهم فلم يحاربهم واكرهته مناخز ضميره او خوفه من بيومند ان يقر بذنبه ويسترضي هذا الامير

ومما قاله انه مستعد لترك املاكه في جبلة وذهابه الى جهة اخرى يعيش بهما ولم يشا الهيكليون ان يشفعوا به ويسعفوه بامر وقال بعض المؤرخين العرب ان بيومند أمر بقتل حاكم جبلة واخذ املاكه فاضطر ابنه للأخذ بثار ابيه ان يلتجي الى المسلمين ثم مات بيومند فتعاظم الخلاف والقلق واخذت اخته وامه تتنازعان ملكه ففي هذه الحال السيئة سار السلطان قلاوون لحصار اطرابلس سنة ١٢٨٩

ولما عرف الفرنج استعداد السلطان قلاوون لحصار اطرابلس عادوا الى نوع من الاتفاق واستمدوا ملك قبرس وفرسان عكا فارسل ملك قبرس اربعة مراكب وعدة من الجنود فرساناً ورجالة بامرة اخيه وسارع فرسان الاسبيتال والهيكل وغيرهم من الفرسان حتى من اهل بيزا والبندقية المقيمين في فلسطين لانجاد الاطرابلسيين والدفاع عن مدينتهم وكان امير اسطول جانوى اتى الى اطرابلس يطلب من اهلها ترضية عما كانوا جنوه على بعض الجانويين فلم يأب هذا ايضاً مساعدة الطرابلسيين في هذه الحال . وقد اقام السلطان قلاوون سبعة عشر منجيقاً كباراً ترمي اسوار اطرابلس واشغل الف وخمسماية جندي بالنقب تحتها ومن بعد ان حاصرها المسلمون خمسة وثلاثون يوماً دخلوا اليها واوقعوا بها ما ذكره المؤرخون العرب ولجاء بعض المنهزمين النصارى الى مراكب جنوا وغيرها فحملتهم هذه المراكب الى قبرس وذكروا ان عدد القتلى في وقت الحصار كان سبعة الآف رجل ولما كانت خسائر المسلمين لا تقل عن ذلك لم يبقوا بعد دخولهم المدينة على احد ممن وجدوه من الرجال واخذوا النساء والاولاد اسرى وذكر المورخون الافرنج ما ذكرناه عن ابي الفدا من هرب بعضهم الى الجزيرة وعبور المسلمين اليهم وقتلهم

عدد ٨٨١

ذكر فتوح عكا

بعد ان فتح الملك المنصور قلاوون اطرابلس أخذ يتجهز لفتح عكا وخرج في سنة

٦٨٩هـ سنة ١٢٩٠ م من الديار المصرية بالعساكر المتوافرة فاصابه مرض في طريقه واخذ يتزايد حتى توفي يوم السبت سادس ذي القعدة بدهليزه بعد ان ملك نحو احدى عشرة سنة وثلاثة اشهر وخلف ولدين هما الملك الاشرف صلاح الدين خليل والسلطان الاعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد وفي صبيحة اليوم الذي توفي فيه جلس في الملك ابنه الملك الاشرف صلاح الدين خليل وفوض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيدرا بعد ان قتل حسام الدين طرطناي نائب السلطنة في ايام ابيه وعهد بالوزارة الى شمس الدين محمد بن السلعوس ثم سار بالعساكر المصرية سنة ٦٩٠ هـ سنة ١٢٩٠ م الى عكا وارسل الى العساكر الشامية ان يحضروا وصحبتهم المجانيق فتوجه الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الافضل وسائر عسكر حماة معه الى حصن الاكراد وقال ابو الفدا الماخوذ هذا الكلام عن تاريخه قد تسلمنا من حصن الاكراد منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري حمل مائة عجلة ففرقت في العسكر الحموي وكان المسلم اليّ منه عجلة واحدة لأني كنت اذ ذاك امير عشرة وكان مسيرنا بالعجل في اواخر فصل الشتاء فاتفق وقوع الامطار والثلوج علينا بين حصن الاكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة وسرنا بسبب العجل من حصن الاكراد الى عكا شهرًا وذلك مسير نحو ثمانية ايام للخيل على العادة وكذلك أمر السلطان الملك الاشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غير عكا وكان نزول العساكر الاسلامية عليها في اوائل جمادى الاول من هذه السنة واشتد عليها القتال ولم يغلق الافرنج غالب ابوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم فكنا على جانب البحر والبحر عن يميننا اذ واجهنا عكا وكان يحضر الينا مراكب مقبية بالخشب الملبس جلود الجواميس وكانوا يرموننا بالنشاب والجروح وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من جهة

البحر واحضروا مركباً فيه منجنيقاً يرمي علينا وعلى خيامنا من جهة البحر فكنا منه في شدة حتى اتفق في بعض الليالي هبوب ارياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج فانكسر المنجنيق الذي كان فيه ولم ينصب بعد ذلك وخرج الفرنج في اثناء الحصار بالليل وكبسوا العسكر واتصلوا الى الخيام وتعلقوا بالاطناب فتكاثرت عليهم العساكر فولوا منهزمين الى البلد وقتل عسكر حماة عدة منهم ولما اصبح الصباح علق الملك المظفر صاحب حماة عدة من رؤوس الافرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم واحضر ذلك الى السلطان الملك الاشرف واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الاخرة بالسيف ولما هجم المسلمون هرب جماعة من اهلها في المراكب وكان في داخل البلد عدة ابرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر لكثرته ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالابرجة ولم يتأخر منهم أحد وأمر بهم فضربت اعناقهم عن آخرهم حول عكا ثم أمر بمدينة عكا فهدمت الى الارض ودكت دكاً ومن عجائب الاتفاق ان الافرنج استولوا على عكا واخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة السابع عشر جمادي الاخرة سنة ٥٨٧ هـ واستولوا على من بها من المسلمين وفتحت في هذه السنة يوم الجمعة سابع عشر جمادي الاخرة على يد السلطان الملك الاشرف صلاح الدين فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه وكذلك كان لقب السلطانين واحداً

وهذا ما قاله المؤرخون الافرنج في ذلك كانت عكا حينئذٍ عاصمة الجاليات النصرانية واعظم مدن سورية واكثر الفرنج الذين طردهم المسلمون من مدنهم لجأوا الى عكا وكانت مرسى كل السفن الآتية من المغرب وقد اجتمع فيها التجار من كل صقع وحلَّ بها اكابر الفرنج ونواب بعض الملوك والعمال الذين أخذ

المسلمون اعمالهم وقد شكا المؤرخون الذين كانوا في ذلك العصر من ترف سكان عكا وخلاعتهم وانصبابهم على الملاهي والملاذ وزادوا في الشكوى من التحاسد الذي كان بين هولاء الجاليات وتعصب كل منهم لابناء وطنه وعدم وجود شريعة عامة يخضع لها جميعهم او سلطة فعالة يتهيبونها فتوقف كلاً على حد حقه وتروعه عن هضم حق غيرهِ فكان لكل جالية من بلاد رئيس وشريعة ولا جامعة بينهم وسلطة ملك اورشليم اسمية لا فعلية وقد كشفت لنا الايام الحاضرة عن سرٍ كان مجهولاً في ذلك العصر وهو ان الفونس الثالث ملك اراكون واخوه يعقوب ملك صقلية راسلا سلطان مصر وارسلا اليه هدايا واطلقا تزلفاً اليه سبعين مسلماً كانوا اسرى عندهما ورغبا اليه ان يعامل من كان من رعاياهما في ملكه كما كان الملك الكامل يعامل رعايا فريدريك الثاني ملك المانيا وعقدا معاهدة مع السلطان قلاوون في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٢٩٠ من فحواها اولاً ان يبذل الملكان جدهما في ايقاف البابا والملوك النصارى وجمهوريتي جنوا والبندقية والروم والفرسان الهيكليين والاسبتاليين عن كل معاداة للسلطان وعن السطو على ارضه ثانياً ان يحاربا براً وبحراً من يشهر من النصارى الحرب على السلطان ثالثاً ان يعلما السلطان بكل ما يكاد عليه في المغرب رابعاً اذا انقضت مدة الهدنة الموجودة حينئذ او جرى الاخلال بها فلا ينجد الملكان نصارى سورية بسلاح او مال او باي شي كان ولا يعاونان البابا او ملوك النصارى او الروم او التتر اذا حارب أحد هولاء السلطان ولم يكن للملكين في مقابلة ذلك الاَّ اباحة رعاياهم ان يحجوا الى القبر المقدس وسائر الاماكن المقدسة دون معارض اذا كانوا مصحوبين بأذن الملك والا الرخصة لسفن اراكون وصقلية ان تدخل المرافي المختصة بالسلطان وتقبل فيها كما تقبل سفن رعاياه في المرافيء المختصة بالملكين (كل هذا مأخوذ عن ترجمة قلاوون التي نشرها دي ساسي)

وكان السلطان قلاوون يتحين الفرصة لفتح عكا ويتوقع حجة لنقض الهدنة التي لم تكن انقضت مدتها واختلف في ذكر الحجة التي تسول بها حينئذ واصح الاقوال فيها ان شاباً مسلماً عشق امراة مسيحي غني ومضى بمعشوقته الى جنة في ظاهر عكا وعرف زوجها فلحقها وقتل المعشوقة والعاشق وقد اضاعه حمقه الرشد فعاد الى عكا وخنجره بيده فقتل من التقى به من المسلمين فارسل السلطان قلاوون يطلب الجانين من عكا واذا حصل التاخر عن ارسالهم حصر عكا فارسل النصارى من عكا وفداً يعرض عليه جزا المجرمين بالحبس والنفي فأبى هذه الترضية واعلن الحرب وسار بالجيش المصري فباغتته المنية كما مرّ

وقام ابنه الملك الاشرف بالامر وباتمام وصية ابيه بحصار عكا فسار اليها باربعين الف فارس وميتي الف رجل من مصر وانضم اليه من دمشق وحماه وحلب والبلاد الشرقية والعربية نحو من ميتي الف آخرين ولم يكن رجال الحرب في عكا في اول الامر اكثر من عشرين الف وكانت عساكر الملك الاشرف تزداد كل يوم ورجال الفرنج تنقص وبدي في الحصار في الخامس من نيسان سنة ١٢٩١ وكان رئيس فرسان الهيكل صديقاً للسلطان فسار اليه يطلب توقيف الحرب فاجابه السلطان الى ذلك على شرط ان يدفع كل من سكان عكا النصارى ديناراً بندقياً وعاد رئيس الفرسان يخبر الشعب وهم مجتمعون في كنيسة الصليب بما وفق اليه ويشير عليهم بقبول الشرط فازدروه وصاحوا انه خائن يستحق الموت وصمموا على الدفاع

وكان رجال الحرب من الفرنج اشداء متحمسين على ما اوقعه بينهم الانقسام من الوهن غير مبالين بقلة عددهم واختلاف ارائهم فصبروا في الدفاع عدة اسابيع وابواب المدينة مفتوحة ليلاً ونهاراً يخرجون منها كل يوم للسطو على الاعداء وقد اوقعوا بهم خسائر جسيمة بعدة خرجات وكانت العساكر الاسلامية تتقدم بالغم

الارض نحو الاسوار حتى حكموا مناجيقهم من المدينة واقتربوا منها وامطروا عليها مدة عشرة ايام متتالية سيولاً من نبال وحجارة فاستحوذ الوهن على الفرنج وخمدت حميتهم وانزل الاغنياء منهم نساءهم واولادهم في سفن وسيروهم الى قبرس بل أبقى بعض الفرسان والرجالة ايضاً وغادروا عكا وكانوا اولاً عشرين الفاً فامسوا بعد هذه الايام العشرة اثني عشر الفاً منهم ثمان مئة فارس وترك ملك قبرس واورشليم القتال في الليلة الواقعة في الخامس عشر والسادس عشر من ايار بحجة اراحة جنوده وكانوا مئتي فارس وخمس مئة راجل وانسحب ليلاً من عكا ولحقه ثلاثة آلاف من اوجهها

وفي صبيحة السادس عشر من ايار رأى جيش المسلمين ان عدد الرجال على الاسوار اقل مما كانوا قبلاً فهجموا المدينة فدافع سكانها وابدوا معجزات البسالة وارغمتهم كثرة الاعداء على التقهقر ودخل بعض المسلمين المدينة وكان فرسان الهيكل والاسبيتال قد توقفوا ذلك اليوم عن القتال لانه لم يكن برأيهم فلما رأوا تقهقري الفرنج اخذتهم الحمية فركب مرشال الاسبيتال متى من كارمون بفرسانه واسرع الى لقاء المسلمين ورد من كان هارباً من الفرنج فوثب على المسلمين الذين دخلوا المدينة فقتل احد روسائهم وجرح كثيرين وانتزع سلاحهم فاقتدى غيره بشجاعته فطردوا من المدينة من دخل اليها فعاودت الشجاعة قلوب الفرنج وخرج من الابرجة من كانوا تحصنوا بها وعاونوا الباقين ليلاً على سد الثلمة التي فتحها المسلمون في الاسوار وقبل الصباح عقدوا مجلس مشورة في دار الاسبيتاليين فرأى بعضهم ان الدفاع اصبح مستحيلاً اذ قتل في الامس الفا رجل من الفرنج وان احسن وسيلة لنجاة من بقي من الشعب ترك المدينة على ان هذه الوسيلة غير ممكنة اذ لم يكن هنالك الاّ مركبان لا يسعان الا مئتي رجل فنهض بطريرك اورشليم والقى فيهم خطبة بين فيها ان لا وسيلة في شدة هذا الضيق لجنود نصارى كما هم

الا الاتكال على الله والتجلد في الدفاع ولا مطمع في رأفة الاعدآء او في شفقتهم على النساء والاطفال ولا مندوحة للهرب فلا مناص اذًا من القتال ومن اراد الله موته مات شريفًا مجاهدًا في الدفاع عن نفسه وعن دعوى عادلة صالحة ابى الله الأَّ ان يثيبها وبسالة رجال الحرب تاتي بالآيات والعجائب اذا كان مصدرها الاتكال على قدرة الله فيموا اذًا دمكم غاليًا ما استطعتم ولا تكونوا اوغادًا جبناء واذا كان لا بدَّ من الموت في كل الاحوال فلا يبقى لكل منا الأَّ ان يختار اسعيدًا ومجيدًا يموت او ذليلاً ووغدًا فكان لخطاب البطريرك وقعٌ شديدٌ في قلوبهم فسمعوا القداس واعترفوا بخطاياهم وقبل بعضهم بعضاً قبلة السلام وتناولوا القربان الاقدس وتسارعوا الى الاسوار والى مواقفهم الحربية

ولما اصبح صباح الثامن عشر من ايار سنة ١٢٩١ هاجمهم المسلمون ودخلوا المدينة مرتين من ثلمة الاسوار ومن باب كنيسة القديس انطونيوس فردهم الفرنج ومقدمهم متى (سماه بعضهم غوليلموس) من كلرمون ماريشال الاسبيتاليين في المرتين فجمع السلطان جيشه كله على المنفذين المذكورين فانهزم حينئذٍ يوحنا دي كراتي نائب ملك افرنسة واوتون دي كرانديزون نائب ملك انكلترا وجنودهما واسرعا الى مركب هربا به وصبر باقي الفرنج على القتال صبرًا عزَّ له النظير واتى حينئذٍ رئيس الفرسان الهيكليين بفرسانه يدافع عن الدخول في الباب المعروف بباب القديس انطونيوس فاصابه سهم صرعه عن جواده ومات وكان رئيس الاسبيتاليين يقاتل على الثلمة التي فتحوها في السور فجرح جرحاً مميتاً فحمل الى سفينة واما المرشال متى فيش والقى بنفسه في وسط المسلمين وأخذ يقتل ممن كان عن يمينه او شماله حتى وقع به جواده واصيب هو بعدة سهام واما البطريرك نيقولاوس بطريرك اورشليم المذكور فآثر الموت مع شعبه على الفرار فانزلوه مكرهاً في قارب يوصله الى مركب فأخذ الراعي الصالح صحبته كثيرين حتى اثقلوا القارب فغرق بهم جميعاً

وهكذا كانت نهاية آخر بطريرك اورشليمي لاتيني اقام بهذه البلاد

وكان في عكا دير شهير يسكنه راهبات القديسة كلارا ولما علمت رئيستهنّ بدخول المسلمين الى المدينة جمعت الراهبات فقالت بناتي لا تاسفنّ على هذه الحياة الزائلة وليكن همكنّ ان تمتنَ طاهرات بجسمكنَ وقلبكنَ واصنعنَ ما ترينني صانعة واخذت جارحة وقطعت انفها وغطى دمها وجهها واقتدت الباقيات بها فشوهنّ وجوههنّ ولما دخل المسلمون الدير اشمأزوا من هذا المشهد وحملهم الاشمئزاز على الحنق فقتلوا اوليك الراهبات عن آخرهنّ

وبعد دخول المسلمين الى عكا كان في شوارعها وعلى قلاعها وحصونها ما ترتعد له الفرائص من المذابح والفظائع حتى روى احد فرسان القديس يوحنا الذي كان شاهدًا هذه الحرب انه كان يعبر على الجثث من محل الى آخر كانها جسور وكانت جماعات من المنهزمين لا يعلمون اين يمضون ودخل بعضهم الى الكنائس فاحترقوا بها او ذبحهم الاعداء بجانب المذابح وبقي في المدينة بعض قلاع وحصون وفيها بعض الفرنج فدافعوا حتى قتلوا وسلاحهم بايديهم وبقيت قلعة الفرسان التي كان لجاء اليها من نجا منهم من سيوف المسلمين فارسل السلطان يعرض عليهم ان يستسلموا اليه فاستسلموا وارسل السلطان ثلثماية جندي ليخرجوهم بالامان ودخلوا برج رئيس الفرسان فوجدوا بعض النساء اللواتي فررنَ الى هناك فسطوا عليهنّ فلم يتحمل الفرسان هذا التعدي على نساء لجأنَ اليهم فوثبوا على الجنود الذين دخلوا البرج فقتلوهم عن آخرهم فسخط السلطان وأمر باعادة الحصار عليهم فدافع الفرسان ومن معهم عن نفوسهم شديد الدفاع واقاموا على ذلك اياماً واخيرًا نقب جنود السلطان اساس القلعة فتداعت وسقطت والجنود مهاجمون لها فقتل تحت انقاضها الفرسان ومن صحبهم ولجأ اليهم والجنود المهاجمون لهم وأمر السلطان اخيرًا بهدم كل القلاع والحصون والابرجة والدور والكنائس

المشهورة وامست عكا قاعاً صفصفاً وكوم انقاض (انتهى ملخصاً عن اقوال المورخين الفرنج عمن كانوا شهوداً عيانيين في هذه الحرب)

﴿ عـد ٨٨٢ ﴾

في فتح صور وصيدا وبيروت وغيرها

هذا ملخص ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك لاسيما ابو الفدا لما فتحت عكا القى الله تعالى الرعبة في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام فاخلوا صيدا وبيروت وتسلمها الشجاعي نائب السلطنة بدمشق في اواخر رجب وكذلك هرب اهل صور فارسل السلطان وتسلمها ثم تسلم عثليت في مستهل شعبان ثم تسلم انطرطوس في خامس شعبان جميع ذلك في هذه السنة اعني سنة ٦٩٠ هـ سنة ١٢٩١ م واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب وامر بها فخربت عن آخرها وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للاسلام وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام وبعد ذلك رحل السلطان الملك الاشرف ودخل دمشق واقام مدة ثم عاد الى الديار المصرية ودخلها في هذه السنة وعن صالح بن يحيي في تاريخ بيروت انه لما وصل سنجر الشجاعي اليها نزل بقلعتها وامر الفرنج ان ينقلوا اولادهم وحريمهم واثقالهم اليها وظنوا انه مشفق عليهم فقبض على الرجال وقيدهم والقاهم في الخندق وشرع في هدم اسوار المدينة وقلعتها وجهز اهلها الى دمشق ثم الى مصر فهلك منهم العاجز والنساء ولما وصلوا الى مصر خيرهم السلطان بين العود الى بيروت او التوجه الى قبرس باجمعهم

وهذا ملخص ما قاله المؤرخون الفرنج ان سكان صور تركوا مدينتهم وانهزموا بحراً وكان الفرسان الذين انهزموا من عكا ساروا الى صيدا وتجهزوا للدفاع عنها ولكن لما بلغهم ان أحد امرآء المسلمين يتجهز لقتالهم في صيدا ضعفت

عزائمهم وولوا هاربين اولاً الى طرطوش ثم الى قبرس ثم سار الامير وهو الشجاعي نائب السلطنة بدمشق فأخذ صيدا ودك قلعتها ثم سار هذا الامير الى بيروت فاستسلم اهلها اليه دون قتال وكان اهل هذه المدن يظنون ان الملك الاشرف يحفظ لهم حقوق الهدنة فلم ينجدوا عكا ولما رأوا ما حلّ بها يئسوا واستسلموا او انهزموا ولم ينجُ من بقي منهم من القتل والاسر والنهب واتصلت قسوة الملك الاشرف الى بيوتهم فاحرقها والى معابدهم فدكها فضلاً عن تدمير القلاع والحصون فاتم الملك الاشرف طرد الفرنج من سورية ومن سلم منهم وهو اقلهم هرب الى قبرس ثم الى المغرب او اختبأ عند النصارى بلبنان فكانت مدة مقام الفرنج بسورية من حين اخذهم انطاكية سنة ١٠٩٨ الى حين طردهم من عكا سنة ١٢٩١ماية وثلثاً وتسعين سنة شمسية واقام السلطان الملك الاشرف حينئذٍ في سواحل لبنان من زاوية اطرابلس الى صيدا بعض عشائر التركمان والمسلمين تحوطاً من عود الافرنج الى هذه الجهة واستئناسهم بنصارى لبنان فتكون تلك العشائر فاصلة بين الفرنج والنصارى الوطنيين

ولما بلغت الى المغرب اخبار ما حلّ بالفرنج بسورية وفتح الملك الاشرف ما كان باقياً بيدهم من المدن وقسوته عليهم وحرق كنائسهم واديارهم او دكها عمت الكآبة القلوب واستعظموا المصيبة ويئسوا من الانتصار والاخذ بالثار وندموا على اهمالهم بني اوطانهم ودينهم وليست ساعة مندم واراد الحبر الروماني الذي كان حينئذٍ نيقولاوس الرابع ان يدعو نصارى المغرب الى حملة اخرى الى سورية وابرز منشوراً عاماً يرثي به نصارى المشرق ويندب سوء الحال وارسل دعاة الى الممالك وعقدت لجن في مواضع كثيرة للاهتمام بما يرغب فيه الحبر الروماني وكان ادوار ملك انكلترا (الذي كان قد سار قبلاً الى سورية كما ذكرنا) عزم على العود اليها على انه بعد طرد الفرنج منها اعتذر بان حالة مملكته لا تمكنه من العود الى سورية

وكان رودلف عاهل المانيا ايضاً قد وعد البابا بالمسير الى سورية لكنه مات حينئذٍ منشغلاً بهام مملكته اكثر من نصارى المشرق وفيلبوس ملك افرنسة الذي كان يرجى ان يكون قدوة لغيره كان له من العوائق ما يبطئه عن تلبية دعوة الحبر الروماني وادركت المنية البابا نيقولاوس الرابع في ٤ نيسان سنة ١٢٩٢ فكان الله قيض للفرنج هذا الانخذال بغامض حكمته واسرار عنايته المتعالية عن مدارك الناس وهو يرفع من يشآء ويذل من يشآء ومن كان له وزيرًا او مستشارًا ليدرك كنه مقاصده الرفيعة

﴿ عدد ٨٨٣ ﴾

في ذكر بعض الاحداث في ايام الملك الاشرف الى مقتله ومقتل قاتليه

في سنة ٦٩١ هـ سنة ١٢٩٢ م سار السلطان الملك الاشرف من مصر الى الشام وجمع عساكره المصرية والشامية ثم سار الى حماة فاحتفى به صاحبها الملك المظفر كل الاحتفاء ووصل الى حلب وتوجه منها الى قلعة الروم وهي حصن على جانب الفرات في غاية الحصانة ونازلها وكان ابو الفدا معه في حصاره لهذه القلعة كما قال عن نفسه ففتحها عنوة وقتل اهلها ونهب ذراريهم وكانت للارمن وفيها كيناغيلوس والياً من قبلهم فاعتصم بقلة القلعة فضايقه عساكر الاشرف حتى طلب الامان فعفا السلطان عن دمهم واخذهم أسرى وأمر السلطان سنجر الشجاعي بتحصين القلعة واصلاح ما خرب منها فحصنت الى الغاية القصوى وعاد السلطان الى حلب ثم حماة ثم دمشق ثم سار الى الديار المصرية واستناب بدمشق عز الدين ايبك الحموي وعزل علم الدين سنجر الشجاعي المذكور وعزل قراسنقر المنصوري عن نيابة السلطنة بحلب واستصحبه معه وولى موضعه سيف الدين بلبان المعروف بالطباخي وبعد وصوله الى مصر قبض على سنقر الاشقر وجرمك وطقصو وكان اخر

العهد .

وفي سنة ٦٩٢ هـ سنة ١٢٩٣ م عاد السلطان الاشرف الى الكرك ثم الى دمشق وخرج متصيدًا في البرية ووصل الى القرقلس في طرف بلد حمص من جهة الشرق وحضر اليه مهنا بن عيسى امير العرب واخواه محمد وفضل وولده موسى فقبض عليهم وارسلهم الى مصر فحبسوا في قلعة الجبل ثم عاد الى مصر وفي هذه السنة توفي الملك الافضل عم الملك المظفر صاحب حماة ووالد ابي الفدا المؤرخ وسبب موته ان السلطان الاشرف دعاه اليه تلطفاً فسار وحده ووصل الى دمشق فاعترته حمّى مات بها

وفي سنة ٦٩٣ هـ سنة ١٢٩٤ م كان مقتل السلطان الملك الاشرف خليل بن قلاوون فانه سار الى تروجه للصيد وركب في نفر يسير من خواصه للصيد فقصده مماليك والده وهم بيدرا نائب السلطنة المذكور قبلاً ولاجين الذي كان السلطان قد عزله عن نيابة السلطنة بدمشق واعتقله مرة بعد الاخرى وقراسنقر الذي عزله عن نيابة السلطنة بحلب وانضم اليهم جماعة من الامرآء ولما قاوموا السلطان ارسل اليهم اميرًا ليكشف خبرهم فامسكوه معهم ووصلوا الى السلطان واول من ضربه بالسيف بيدرا ثم لاجين حتى مات وتركوه مرمياً على الارض فحمله ايدمر الفخري والي تروجه الى القاهرة واتفق القاتلون على سلطنة بيدرا فنادوا به وتلقب بالملك القاهر وسار نحو قلعة الجبل ليملكها واجتمع مماليك السلطان المقتول وانضم اليهم غيرهم وساروا في اثر بيدرا ومن معه فلحقوهم على الطرانة واقتتلوا وانهزم بيدرا وتفرق اصحابه وتبعوا بيدرا فقتلوه ورفعوا رأسه على رمح واستتر لاجين وقراسنقر واتفق امرآء السلطنة على سلطنة الملك الناصر اخي الملك الاشرف القتيل وان يكون الامير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعي وزيرًا وتتبعوا الامرآء الذين قتلوا الاشرف فقبضوا على جماعة منهم

وقتلت اقاربهم وبعضهم قطعوا ايديهم وارجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وبقي لاجين وقراسنقر مستترين واتفق كتبغا نائب السلطنة والشجاعي وزيرها فقبضوا على شمس الدين محمد بن السلعوس الذي كان وزير الاشرف وكان له عنده منزلة رفيعة وتمكن واحضر اقاربه من دمشق الى مصر وبقي منهم واحد في دمشق فكتب اليه

تنبه يا وزير الارض واعلم بانك قد وطئت على الافاعي
وكن بالله معتصماً فاني اخاف عليك من نهش الشجاعي

وبعد القبض على ابن السلعوس تولاه الشجاعي واستصفى ماله وقتله ثم حصلت الوحشة بين كتبغا نائب السلطنة وبين الشجاعي الوزير ونزل كتبغا من القلعة واستمر الشجاعي واصحابه بها فحضر كتبغا وغلب عليه وقطع رأسه وطيف به بالبلد وظهر لاجين وقراسنقر من الاستتار وأخذ كتبغا لهما من السلطان الامان واقر لهما الاقطاعات الجليلة وكان ذلك لغرض سياسي عند كتبغا لانه في سنة ٦٩٤هـ سنة ١٢٩٥ م حجر على السلطان الملك الناصر في قاعة بقلعة الجبل وحجب الناس عنه واستحلف الناس على سلطنته وجلس على سرير السلطنة ولقب نفسه الملك العادل وخطب له بمصر والشام ونقشت السكة باسمه وجعل لاجين المذكور نائباً له في السلطنة وافرج عن مهنا بن عيسى واخويه وولده الذين كان الاشرف قد حبسهم كما مرّ

وفي سنة ٦٩٥ هـ وسنة ١٢٩٦ م خرج الملك العادل كتبغا من مصر وسار الى الشام فوصل الى دمشق وتوجه الى جهة حمص وقدم الى جوسية وهي قرية على طريق بعلبك من حمص وكانت خراباً فاشتراها وعمرها فوصل اليها ورآها وعاد الى دمشق وعزل عز الدين ايبك الحموي عن نيابة السلطنة بالشام وولّى موضعه سيف الدين غرلو مملوكه

وفي سنة ٦٩٦ هـ سنة ١٢٩٧ م خرج الملك العادل كتبغا من دمشق متوجهاً الى مصر ووصل الى نهر العوجا فركب لاجين نائبه وانضم اليه جماعة وبغت الملك العادل في دهليزه وقتل اثنين من مماليكه وولى كتبغا هارباً راجعاً الى دمشق فالتقاه مملوكه غرلو ودخل العادل قلعة دمشق واهتم بجمع العسكر لقتال لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق على ذلك فخلع نفسه عن السلطنة واقام في قلعة دمشق وارسل يطلب الامان من لاجين وموضعاً يأوي اليه فاعطاه صرخد فسار اليها واما لاجين فبعد تهزيمه كتبغا نزل بدهليزه على نهر العوجا واجتمع معه الامراء الذين وافقوه على ذلك وشرطوا عليه شروطاً فالتزمها منها ان لا ينفرد عنهم براي ولا بسلطة مماليكه عليهم كما فعل بهم كتبغا فاجابهم لاجين الى ذلك وحلف لهم عليه وحلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين ثم رحل بالعساكر الى مصر واستقر بقلعة الجبل وارسل الى دمشق سيف الدين قبجق المنصوري وجعله نائب السلطنة بالشام موضع غرلو مملوك كتبغا

وفي سنة ٦٩٧ هـ سنة ١٢٩٨ م جرد الملك المنصور لاجين جيشاً كثيفاً من مصر سيره الى الشام وارسل الى عماله في الشام ان يجردوا عسكرهم وتحمل العساكر الشامية والمصرية على بلاد الارمن فساروا الى حلب ثم اجتمعوا على نهر جيحان وشنوا الاغارات على بلاد سيس وغنموا وعادوا فأمر لاجين ان يجتمعوا ثانيةً بحلب ويسيروا الى سيس ايضاً فساروا الى حموص وضايقوها وكان قد اجتمع فيها من الارمن عالم عظيم ليعتصموا بها وقطع العسكر عنهم الماء فهلك اكثرهم بالعطش واخرج اهل حموص نحو الف ومائتين من النساء والصبيان فغنمهم العسكر قال ابو الفدا وفي هذه الحملة كان قسمي جاريتين ومملوكاً وكان بين اولاد ليفون ملك الارمن خلاف على الملك ادى الى الحرب بينهم والى انتصار دندين احدهم وملكه فيهم ولما تملك ارسل الى العساكر الاسلامية يبذل الطاعة الى ما

يرسمه سلطانهم فطلب منه العسكر ان يكون نهر جيحان حدًا بين المسلمين والارمن وكل ما كان جنوبيه من البلاد والحصون للمسلمين فاجابهم الى ذلك فتسلم المسلمون مدنًا وحصونًا كثيرة وجعل السلطان لاجين بعض الامرآء نائبًا فيها

وفي سنة ٦٩٨ ﻫ وسنة ١٢٩٩م وثب على الملك المنصور لاجين جماعة من المماليك الصبيان الذين اصطفاهم لنفسه فقتلوه وهو يلعب بالشطرنج بعد ان ملك سنتين وثلثة اشهر واول من ضربه منهم شخص اسمه سيف الدين كرجي وضربه الباقون بعده وساروا ليقتلوا نائبه ومملوكه منكوتمر فاستجار بسيف الدين طفجي مقدم هولاء المماليك فاجاره وحبسه في بئر ليخفيه عنهم فمضى كرجي ومعه جماعة فاخرجوه وقتلوه وفي الصباح جلس طفجي مقدم هولاء المماليك القاتلين في موضع النيـابة فأمر ونهي وهناك جماعة اكبر منه فاتفقت ارأوهم على الوقيعة به واعادة الملك الناصر ابن قلاوون الذي كانوا قد خلعوه وارسلوه الى الكرك كما رأيت واتفق حيئذٍ رجوع باقي الامرآء من حملة سيس فوافق رأيهم راي الاولين فوثبوا على طفجي بالسيوف وهرب منهم فادركوه وقتلوه وقصدوا كرجي القاتل فهرب وتبعوه فقتلوه وتوجه بعض الامرآء الى الكرك فاحضروا الملك الناصر واجلسوه على سرير ملكه الذي كانوا قد ابعدوه عنه ولما استقر بالسلطنة ثانيةً اتفق معه الامرآء ان يكون سيف الدين سلار نائب السلطنة وفوض نيابة السلطنة بالشام الى جمال الدين الافرم وافرجوا عن شمس الدين قراسنقر من الاعتقـال وكان له نحو سنة وبعثوه الى الصبيبة

وفي هذه السنة اي سنة ١٢٩٩ توفي الملك المظفر صاحب حماة بعد ان ملك فيها خمس عشرة سنة وهو من البيت الايوبي ولم يبقَ من هذا البيت حاكم الا في حماة وانقطعت الحكومة منه بوفاته ولكن عادت اليه بعدًا كما سترى لان قراسنقر الذي كان قد توجه الى الصبيبة كما مرَّ كتب منهـا الى الامرآء بمصر يتضود من

المقام بها وهي مكان وخم واتفق ذلك عند وصول خبر وفاة الملك المظفر فاعطى قراسنقر نيابة السلطنة بحماة فسار اليها قال ابو الفدا الذي كان يحق له هذا المنصب لان الملك المظفر عم ابيه فقنا بوظايف خدمته واخذ من تركة صاحب حماة ومنا اشياء كثيرة حتى اجحف بنا ووصلت المناشير من مصر الى امرآء حماة وجندها باستقرارهم على ما بايديهم من الاقطاعات فاستمرينا على ما كان بايدينا (انتهى ملخصاً عن ابي الفدا وابن خلدون وغيرهما)

عـد ٨٨٤

في حملة التتر على سورية مرةً اخرى

في سنة ٦٩٩ هـ سنة ١٣٠٠ م حمل التتر على سورية مرة اخرى وهذا ملخص ما قاله المؤرخون العرب في ذلك : في هذه السنة سار قازان بن ارغون ملك التتر بجموع عظيمة من المغل والكرج وغيرهم وعبر الفرات ووصل الى حلب ثم سار الى حماة ثم نزل على وادي مجمع المروج بين حمص وحماة وسارت العساكر الاسلامية صحبة الملك الناصر حتى وصلوا الى ظاهر حمص وساروا نحو مجمع المروج وكان سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير استاذ الدار هما المتغلبين على المملكة فداخل الامرآء الطمع ولم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيرًا مع سؤ التدبير ونحو ذلك من الامور الفاسدة والتقى العسكران عند العصر من نهار الاربعا ٢٧ من ربيع الاول من سنة ٦٩٩ هـ الموافق ٢٣ كانون الاول سنة ١٣٠٠ م في شرقي حمص على نصف مرحلة منها فانكسرت ميمنة المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب واحاطت به التتر وجرى بينهم قتال عظيم وتأخر السلطان الى جهة حمص وادركه الليل فولت العساكر الاسلامية تبتدر الطريق وتمت بهم الهزيمة الى ديار مصر وتبعهم التتر واستولوا على دمشق وساقوا في اثر الجفال الى غزة والقدس وبلاد الكرك وكسبوا وغنموا من المسمين الجفال شيئاً عظيماً وكان قبجق نائب

السلطنة بالشام والبكي الظاهري نائب السلطان بصفد ويكتمر السلحدار قد هربوا من حمص خوفاً من الملك المنصور لاجين واتصلوا بقازان ملك التتر ولما اتى الى سورية اتيا معه واخذ قبجق منه الامان لاهل دمشق وعصت عليه القلعة فحاصرها وكان النائب بها الامير سيف الدين ارحواش المنصوري فقام في حفظها اتم قيام واقام قازان بمرج دمشق المعروف بمرج الزنبقية الى ان دعاه داع فعاد الى بلاده وقرر في دمشق قبجق وجرد صحبته عدة من المغل ولما بلغ العساكر المصرية مسير قازان عن الشام خرجوا من مصر وخرج السلطان الى الصالحية ثم اتفق الراي ان يبقى السلطان بمصر ويسير سلار نائب السلطنة وبيبرس استاذ الدار بالعساكر الى الشام فكاتب قبجق ورفيقاه المسلمين سرّا ولما خرجت العساكر المصرية هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا التتر ولما راى ذلك التتر المجردون بدمشق خافوا وساروا الى بلادهم وخلا الشام منهم ووصل قبجق ومن معه الى الابواب السلطانية فاحسن السلطان اليهم ووصل سلار وبيبرس بالعساكر الى دمشق وقررا امور الشام ورتبا في نيابة السلطنة بدمشق الامير جلال الدين اقوش الافرم على عادته وجعلا قراسنقر نائب السلطنة بحلب ورتبا في نيابة السلطنة بحماة الامير كتبغا زين الدين المنصوري الذي كان سلطاناً ثم خلع واعطى صرخد

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك كان التتر من زمان مديد يشنون الاغارات على سورية وقد توفي ارغون ملكهم وهو يتجهز لحملة كبرى على سلطان مصر وسورية وكان تجهيزه اوقع الرعبة في قلوب المسلمين فحسبوا موته آية سموية ولطفاً من الله بهم وكان في جملة خلفاء ارغون رجل هيام بالحروب عشاق للمعالي والسودد اسمه قازان مشهور بذكائه وبسالته وكان قازان يعتد النصارى اخلص حلفائه واكثرهم امانة لملكه وكان في عسكره كثيرون من الجراكسة النصارى وعلم الصليب يسير بجانب علمه الملكي وكان له طمع كبير بامتلاك شواطي النيل والاردن

ولما كان يحدث مدناً في بلاده كان يسميها باسماء مدن مصر وسورية واليهودية الى ان سار بجيش كثيف الى سورية ولما علم بقصده ملك الارمن وملك قبرس وفرسان الهيكل وفرسان القديس يوحنا ساروا اليه وانضوا الى لوائه فكانت لهم وقعة مع عساكر المسلمين في جانب حمص انتصر بها عسكر قازان على عسكر سلطان مصر وقتل منهم كثيرين وانهزم الباقون فتتبعهم فرسان الارمن حتى البرية وملك قازان حلب ودمشق وروى هيتون المورخ الارمني ان النصارى عادوا حينئذٍ الى اورشليم وزار قازان معهم القبر المقدس وارسل عندئذ وفداً ورسائل الى الحبر الروماني وملوك اوروبا يطلب المحالفة معهم ويعد ان يسلمهم الارض المقدسة وقد ذكر مرسلة قازان هذه كثيرون من المورخين الفرنج فاحسن الحبر الروماني قبول وفد ملك التتر واكرم مثواهم ولكن لم يتمكن من الاجابة الى طلبهم بل اجله الى حين متعجباً من ان يرى في ملك تتري ما لا يراه في ملوك النصارى من الحمية والغيرة على ان قازان اضطر ان يعود الى بلاده ولم يستطع من خلفه في سورية من عسكره ان يقوى على مهاجمات عسكر السلطان لهم فعادوا على اعقابهم

ثم ان قازان تجهز لحملتين اخريين على سورية ففي الاولى منهما وهي الثانية من حملاته ارسل نائبه كوتولوسا وامره باعداد الجند لجمع العسكر وانضم اليه القبرسيون وروساء فرسان الاسبتال والهيكل وملك الارمن ولكن اصاب قازان مرض فاجل هذه الحملة وانصرف كل من محالفيه الى محله ثم تجهز قازان لحملة ثالثة سنة ١٣٠٣ لجمع على الفرات جيشاً كثيفاً منتشراً في مسافة ثلثة ايام على الطريق ولكن سطا على بلاده اعداء يخافهم فاكره ان يعود على عقبه وابقى مع كوتولوسا نائبه اربعين الف رجل وامره ان يدخل سورية ويملك دمشق ويقهر المسلمين فدخل وقتل كثيرين واحرق البيوت والزروع وحاصر حمص املاً ان يجد فيها العسكر المصري كما كان في الحملة الاولى فملك هذه المدينة عنوة وقتل من

وجد فيها من المسلمين ثم سار وحاصر دمشق وحول سكانها ماء النهر ليلاً الى معسكر التتر فاهلك كثيرا من الرجال والخيل واثقال العسكر وخسر ملك الارمن كثيرين من رجاله فانهزم التتر وعادوا الى الفرات فاحتملوا مشقة كبرى في عبوره من قبل اعدائهم روى كل ذلك هيتون المؤرخ الارمني الذي كان في جملة رجال هذه الحملة وتوفي قازان سنة ١٣٠٤ انتهى

الفصل الثاني

﴿ في بعض مشاهير العلم الدنيويين بسورية في القرن الثالث عشر ﴾

﴿ عـد ٨٨٥ ﴾

﴿ في المشاهير السوريين ﴾

نرعي سنة وفاتهم في ترتيب اسمائهم

﴿ ابن السأعاتي ﴾

وهو دمشقي الاصل وقال فيه ابن خلكـان هو ابو الحسن علي بن رستم المعروف بابن الساعاتي الملقب بهـاء الدين وهو شاعر مبرز في حلبة المتاخرين له ديوان شعر يدخل في مجلدين اجاد فيه كل الاجادة وديوان آخر لطيف سماه مقطعات النيل نقل عنه قوله

لله يوم في سيوط وليلـة   عمر الزمان باختها لا يغلط
بتنا بها والليل في غلوائه   وله بنور البدر فرع اشمط
والطل في سلك الغصون كلؤلؤ   رطب يصـافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة   والريح يكتب والغمام ينقط

وقد توفي سنة ٦٠٣ هـ سنة ١٢٠٧ م

﴿ فتيان الشاغوري ﴾

هو الشهاب فتيان بن علي الاسدي الحنفي الدمشقي المعروف بالشاغوري كان فاضلاً وشاعرًا ماهرًا خدم الملوك ومدحهم وعلم اولادهم وله ديوان شعر فيه مقاطيع حسان واقام مدة بالزبداني وله فيها اشعار لطيفة فمن ذلك قوله في جنة الزبداني وهي تتراكم عليها الثلوج في زمان الشتاء وتنبت انواع الزهور في زمن الربيع وقد احسن كل الاحسان

قد اجمد الخمر كانون بكل قدح ... واخمد الجمر في الكانون حين قدح
يا جنة الزبداني انتِ مسفرة ... بحسن وجهٍ اذا وجه الزمان كلح
فالثلج قطن عليك السحب تندفه ... والجو يحلجه والقوس قوس قزح

وله وقد دخل الى حمام مأوها شديد الحرارة وكان قد شاخ

أرى ماء حمامكم كالحميم ... نكابد منه عناءً وبؤسا
وعهدي بكم تسمطون الجدي فـ ... ما بالكم تسمطون التيوسا

وتوفي بالشاغور وهي عمارة بظاهر دمشق ودفن بمقابر باب الصغير سنة ٦١٥ هـ سنة ١٢١٩ م

﴿ الشيخ علي الطرابلسي ﴾

لم نعثر على اسمه في ما لدينا من كتب المؤرخين العرب لكن عثرنا عليه في فهرست الكتب الشرقية التي في المكتبة المادينشية للعلامة المطران اسطفان عواد السمعاني وهو الكتاب ٢٣٧ من تلك الكتب فقال ما ملخصه مقالة طبية كيماوية عنوانها زينة الحكيم لمؤلفها الشيخ علي الطرابلسي نسبة الى اطرابلس الشام وقد فرغ من تاليفه هذا الكتاب سنة ٦١٦ هـ سنة ١٢١٩ م كما يظهر من الحاشية المعلقة باخر هذا الكتاب وهو مقسوم الى اربع مقالات الاولى في المعادن وتهيئتها

لاستعمال الطيب الثانية في ماهية الحجر الذي يسمونه حجر الفلسفة وكيفية تركيبه الثالثة في السيميا وتفسير اسرارها وهي صناعة استعملها العرب ليعرفوا امزجة الاجسام وكيفيتها زاعمين انهم يحصلون معرفة اكيدة بالمستقبلات بواسطة تركيب بعض الحروف وقلب الاسماء الرابعة في استعمال العقاقير الحيوانية على مذهب جالينوس وقد خط الكتاب المذكور سنة ١٥٥٣ رجل اسمه الشيخ صالح

﴿ رشيد النابلسي ﴾

لم يذكره ابن خلكان بل ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات فقال هو عبد الرحمن بن بدر ... رشيد الدين النابلسي الشاعر المجيد مدح الناصر واولاده واولاد العادل قال شهاب الدين القوصي في معجمه انشدني رشيد الدين النابلسي وقد رأى مليحاً بديع الصورة بين عبدين اسودين قبيحي الصورة

لله من عاينت عيني محاسنه   يوماً فعوذته بالله من عيني
يختال كالغصن تيهاً في شمائله   ما بين عبدين لون الليل مجلين
فقلت والشوق يطويني وينشرني   لم الق قبلك صبحاً بين ليلين
فمرّ يضحك من قولي وقال بلى   كم قد رأى الناس سعدًا بين نحسين

وكانت وفاته سنة ٦١٩ هـ سنة ١٢٢٣ م

﴿ ياقوت الحموي ﴾

ذكره ابن خلكان في الوفيات فقال هو ابن عبد الله ياقوت ابن عبد الله الرومي الجنس والمولد الحموي المولى اسر من بلاده صغيرًا وابتاعه ببغداد رجل تاجر يعرف بعسكر بن ابي النصر الحموي وجعله في الكتاب ينتفع به في تجارته وكان عسكر لا يحسن الخط ولما كبر ياقوت قرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالاسفار في تجارته وكان يعود الى الشام وجرت بينه وبين مولاه نبوة اوجبت عتقه وابعاده عنه فاشتغل بالنسخ بالاجرة وحصلت له بالمطالعة فوائد ثم

الوى عليه مولاه بعد مدة واعطاه شيئاً وسفره الى كيش ولما عاد كان مولاه قد توفي وكان ياقوت قد حصل شيئاً مما كان بيده فارضى اولاد مولاه وزوجته بشيء وبقيت بيده بقية جعلها راس ماله وجعل بعض تجارته كتباً وتوجه الى دمشق وكان متعصباً على علي وناظر بعض من يتعصب له فذكر علياً بما لا يسوغ فثار عليه الناس وكادوا يقتلونه فانهزم الى حلب ثم توصل الى الموصل ثم الى خراسان واستوطن مدينة مرو ثم تجول في كثير من البلاد وقد تقطعت به الاسباب واعوزه دني المآكل وخشن الثياب لكنه عكف على التصنيف والتأليف فصنف كتاباً سماه ارشاد الالباء الى معرفة الادباء يدخل في اربعة جلود كبار ذكر فيه اسماء كثيرين من النحويين واللغويين والنسابين والقرآء المشهورين والاخباريين والمؤرخين واصحاب الرسائل وارباب الخطوط الى غيرهم مع ايثار الاختصار والاعجاز في نهاية الايجاز وقال قصدت صغر الحجم وكبر النفع وقال انه جمع كتاباً في اخبار الشعرآء المتاخرين والقدماء ومن تصانيفه ايضاً كتاب معجم البلدان وكتاب معجم الشعرآء وكتاب معجم الادباء وكتاب المشترك وضعاً المختلف صقعاً وهو من الكتب النافعة وكتاب المبدأ والمآل في التاريخ وكتاب الدول . ومجموع كلام ابي علي الفارسي وعنوان كتاب الاغاني والمقتضب في النسب يذكر فيه انساب العرب وكتاب اخبار المتنبي وكتاب من له همة عالية في تحصيل المعارف وله رسالة بديعة مسهبة الى جمال الدين ابي الحسن علي ابن يوسف الشيباني وزير صاحب حلب يصف فيها حاله ويقص ما جرى له نثرًا وشعرًا وقد اثبت ابن خلكان هذه الرسالة برمتها في ترجمة ياقوت هذا واحجمنا طولها عن نشرها وقد ولد ياقوت في سنة ٥٧٤ هـ او سنة ٥٧٥ هـ (سنة ١١٧٩ او سنة ١١٨٠ م) ببلاد الروم على ما قاله هو وتوفي سنة ٦٢٦ هـ سنة ١٢٢٩ م في الخان بظاهر حلب

وجاء في كتاب اكتفاء القنوع بما هو المطبوع ان كتاب ياقوت معجم البلدان

ني الجغرافية طبعه روستنفلد الالماني في لايبسك في ستة مجلدات من سنة ١٨٦٦ الى سنة ١٨٧٣ وكتابه المشترك وصفاً والمختلف صقعاً في الجغرافية عني بطبعه العالم المذكور ايضاً في مدينة غوتنغن سنة ١٨٤٦

﴿ ابن عنين ﴾

هو ابو المحاسن محمد بن نصر ابن عنين الانصارى الملقب بشرف الدين الكوفي الاصل الدمشقي المولد الشاعر المشهور ولم يكن في آخر عصره من يقاس به ولم يكن شعره مع جودته مقصوراً على اسلوب واحد بل تفنن فيه وكان غزير المادة من الادب مطلعاً على معظم اشعار العرب وكان مولعاً بالهجاء وثلب اعراض الناس وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من روساء دمشق سماها مقراض الاعراض وكان السلطان صلاح الدين قد نفاه من دمشق لوقوعه في الناس فلما خرج منها قال

فعلامَ ابعدتم اخا ثقة　　لم يجترم ذنباً ولا سرقا
انفوا الموذن من بلادكمُ　　ان كان ينفى كل من صدقا

وطاف البلاد من الشام والعراق حتى دخل الهند واقام بها مدة ثم رجع على طريق الحجاز والديار المصرية وعاد الى دمشق وقد كتب من الهند لاخيه

سامحت كتبك في القطيعة عالمًا　　ان الصحيفة لم تجد من حامل
وعذرت طيفك في الجفاء لانه　　يسري فيصبح دوننا بمراحل

والبيت الثاني لابي العلاء المعري استعمله مضمناً فكان احسن تضمين ولما مات صلاح الدين وملك اخوه الملك العادل دمشق عاد الى دمشق من سفرته وكتب الى الملك العادل قصيدته الرائية المشهورة واولها

ماذا على طيف الاحبة ان سرى　　وعليهم لو سامحوني بالكرى

وبعد ان وصف في هذه القصيدة دمشق وبساتينها وانهارها ونفيه عنها قال

في الغربة وما قاساه فيها

اشكو اليك نوى تمادى عمرها حتى حسبت اليوم منهـا اشهرا
لا عيشتي تصفو ولا رسم الهوى يعفو ولا جفني يصافحه الكرى
ومن العجائب ان يقيّل ظلهم كل الورى ونبذت وحدى بالعرا

وكان له في عمل الالغاز وحلها اليد الطولى ولم يكن له غرض في جمع شعره فلذلك لم يدونه وقد جمع له بعض اهل دمشق ديواناً صغيرًا لا يبلغ عشر ما له من النظم ومع هذا ففيه اشياء ليست له وكان من اظرف النـاس واخفهم روحاً واحسنهم مجوناً وكانت ولادته بدمشق يوم الاثنين تاسع شعبـان سنة ٥٤٩ هـ سنة ١١٥٥ م وتوفي عشية الاثنين والعشرين من ربيع الاول سنة ٦٣٠ هـ سنة ١٢٣٣ م بدمشق ودفن بمسجده الذي انشاه بارض المزة وهي بكسر الميم قرية على باب دمشق

بهآء الدين ابن شداد

ابو المحاسن يوسف بن رافع الاسدي قاضي حلب الملقب بهاء الدين والمعروف بابن شداد الفقيه الشافعي توفي ابوه وهو صغير فنشاء عند اخواله بني شداد فنسب اليهم خدم صلاح الدين الايوبي وولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف وكان حاضرًا لما توفي صلاح الدين وتوجه الى حلب بجمع كلمة الاخوة اولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض فطلبه الملك الظـاهر صـاحب حلب من صـاحب دمشق وهو الملك الافضل فاجابه الى ذلك فولاه الملك الظاهر قضاءها ووقوفها وكانت حلب حينئذٍ قليلة المدارس وليس فيها من العلماء الا نفر يسير فاعتنى بترتيب امورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في ايامه المدارس الكثيرة وكان بيده حل الامور وعقدها في حلب ولم يكن لاحد معه في الدولة كلام وقد توفي يوم الاربعا رابع عشر صفر سنة ٦٣٢ هـ سنة ١٢٣٥ م بحلب ودفن في تربة انشأها لنفسه قال ابن

خلكان حضرت الصلاة عليه ودفنه وصنف كتاب ملجا الحكام عند التباس الاحكام وكتاب دلائل الاحكام تكلم فيه عن الاحاديث المستنبطة منها الاحكام في مجلدين وكتاب الموجز الباهر في الفقه وكتاب سيرة صلاح الدين الايوبي وغير ذلك وجعل داره خانقاه للصوفية لانه لم يكن له وارث

﴿ عبد الرحمن العسقلاني ﴾

لم يذكره ابن خلكان بل ذكره صاحب فوات الوفيات فقال عبد الرحمن بن ابي القاسم الكناني العسقلاني ابن المسجف ولد سنة ٥٨٣ ﻫ سنة ١٢٨٨ م وتوفي سنة ٦٣٥ ﻫ سنة ١٢٣٨ م وكان اديباً ظريفاً خليعاً واكثر شعره في الهجو ومن شعره في مدح الكمال القانوني

لو كنت عاينت الكمال وجسه　　اوتار قانون له في المجلس
لرأيت مفتاح السرور بكفه اليسرى　　وفي اليمنى حياة الانفس

وله ايضاً في قوم اغنياء بخلاء

يا رب كيف بلوتني بعصابة　　ما فيهم فضل ولا افضال
متنافري الاوصاف يصدق فيهم الهاجي　　وتكذب فيهم الآمال
غطى الثراء على عيوبهم وكم　　من سوءة غطى عليها المال
جبناً اذا استنجدتهم لملمة　　لؤما اذا استرفدتهم بحال
فوجوههم غرف على اموالهم　　واكفهم من دونها اقفال
هم في الرخاء اذا ظفرت بنعمة　　آل وهم عند الشدائد آل

﴿ عبد المحسن التنوخي ﴾

ذكره صاحب فوات الوفيات قال عبد المحسن بن حمود ... امين الدين التنوخي الحلبي الكاتب المنشى البليغ ولد سنة ٥٧٥ ﻫ سنة ١٢٧٥ م وتوفي سنة ٦٤٣ ﻫ سنة ١٢٤٦ م رحل وسمع بدمشق من حنبل والكندي وغيرهما وعنى بالادب

وجمع كتاباً في الاخبار والنوادر في عشرين مجلدًا روى فيه بالسند وله ديوان شعر وديوان ترسل وكتاب مفتاح الافراح في امتداح الراح ومن شعره

اشتغل بالحديث ان كنت ذا فهمٍ ففيه المراد والايثار
وكن بما قد علمته عاملاً فالعلم روح تجني منها الثمار
واذا كنت عاملاً وعليماً بالاحاديث لم تمسك نار

وله ايضاً : اقول لنفسي حين نازل لمتي مشيبي ولم يبق غير رحيلي
ايا نفس قد مرَّ الكثير فاقصري ولا تحرصي لم يبقَ غير قليل
ولا تأملي طول البقاء فانني وجدت بقاء الدهر غير طويل

﴿ ابن النجار الدمشقي ﴾

ذكره صاحب فوات الوفيات ايضاً قال هو ابراهيم بن سليمان ... بن النجار الدمشقي المجود ولد بدمشق سنة ٥٩٠ هـ (سنة ١١٩٤ م) وتوفي سنة ٦٥١هـ (سنة ١٢٥٤ م) وحدث وكتب في الاجازات وله نظم وادب وسافر الى حلب وبغداد وكان كاتباً للامجد صاحب بعلبك وتولى نقابة الاشراف بالاسكندرية ومن شعره ما قاله في اسود شائب

يا رب اسود شائب ابصرته وكأن عينيه لظى وقادُ
فحسبته فحماً بدت في بعضه نار وباقيه عليه رمادُ

وله في تفضيل العلم على المراتب

اين المراتب في الدنيا ورفعتها من الذي حاز علماً ليس عندهمُ
لا شك ان لنا قدرًا رأوه وما لمثلهم عندنا قدر ولا لهمُ
هم الوحوش ونحن الانس حكمتنا تقودهم حيثما شئنا وهم نعمُ
وليس شيء سوى الاهمال يقطعنا عنهم لانهم وجدانهم عدمُ
لنا المريحان من علمٍ ومن عدمٍ وفيهمِ المتعبان الجهل والحشمُ

﴿ ابن ابي اليسر الدمشقي ﴾

هو تقي الدين ابن ابي اليسر اسماعيل تفرد باشياء كثيرة وكان جده كاتب الانشاء لنور الدين وكتب هو للناصر داود وكان جيد النظم حسن القول وولي بدمشق نظارة المارستان ومشيخة ام الصالح ومشيخة الزاوية بدار الحديث الاشرفية وكتب على لسان سيف الدين بن مقلد الى الملك الاشرف وكان يصل اليه عطاوه رقعة مضمونها يقبل الارض بين يدي الملك الاشرف اعز الله نصره وشرح ببقائه نفيس الدهر وصدره وينهي انه وصل الى باب مولانا كما قال المتنبي

حتى وصلت بنفس مات اكثرها ... وليتني عشت منها بالذي فضلا

ويرجو ما قاله في البيت الآخر

ارجو نداك ولا اخشى المطال به ... يا من اذا وهب الدنيا فقد بخلا

فاعطاه صلة سيئة ومن شعره

ليلي كشعر معذبي ما اطوله ... اخفى الصباح بفرقه اذ اسبله

ان ابعدته يد النوى عن ناظري ... فله بقلبي ان ترحل منزله

بالعاديات قد اعتدى عني ضحى ... وبدا له في كل قلب زلزله

لخصنا هذا عن صاحب الفوات ولم يذكر سنة مولده ولا سنة وفاته ولا شك انه في هذا القرن الثالث عشر

﴿ عون الدين الحلبي ﴾

هو سليمان بن عبد المجيد ... الاديب البارع عون الدين بن العجمي الحلبي ولد سنة ٦٠٦ ھ سنة ١٢٥٩ م بدمشق وكان مناهلاً للوزارة كامل الرياسة لطيف الشمائل ومن شعره

لهيب الخدّ حين بدا لعيني ... هوى قلبي عليه كالفراشي

فاحرقه فصار عليه خالاً ... وها أثر الدخان على الحواشي

ومن شعره

يا سائقاً يقطع البيداء معتسفاً بضامرٍ لم يكن في سيرهِ واني
ان جزت بالشام شم تلك البروق ولا تعدل بلغت المنى عن دير مراني
وعج على دير متى ثم حي به الـسـربان بطرس فالربان رباني
واعبر بدير حنانيا وانتهز فرص اللذات ما بين قسيس ومطرانِ
واستجل راحاتها تحي النفوس اذا دارت براح شماميس ورهبانِ
حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت بشهبها من همومي كل شيطانِ
سألت توماس عمن كان عاصرها اجاب رمزًا ولم يسمح بتبيانِ
وقال اخبرني شمعون ينقله عن ابن مريم عن موسى بن عمرانِ
بانها سفرت بالطور مشرقة انوارها فكنوا عنها بنيرانِ
وهي المدام التي كانت معتقة من عهد هرمس من قبل ابن كنعانِ
وهي التي عبدتها فارس فكني عنها بشمس الضحى في قومه ماني

﴿ ابن ابي اصيبعه ﴾

ولد في دمشق وكان ابوه بدمشق وكان عمه رئيس المستشفى لامراض العين وكان من اصدقاء ابن البيطار الاتي ذكره وكان يخرج معه الى بادية الشام في طلب النبات وتوفي في صرخد سنة ٦٦٦ هـ وسنة ١٢٦٩ م وله عيون الانباء في طبقات الاطباء ذكر فيه مشاهير الاطباء والطبيعيين من كل الامم وطبع في القاهرة في جزئين سنة ١٣٠٠ هـ

﴿ ابن الحموي ﴾

هو عبد الرحمن بن ابراهيم ... الحموي الشافعي المعروف بابن البارزي قاضي حماة وابن قاضيها ولد بحماة سنة ٦٠٨ هـ سنة ١٢١٢ م وتوفي سنة ٦٨٣ هـ سنة ١٢٨٥ م وكان اماماً فاضلاً فقيهاً اصولياً خيرًا وكان مشكور الاحكام وافر

الديانة محباً للفقراء درس وافتى وصنف وخرج اصحابه في المذهب وتوفي في طريق الحج وحمل الى المدينة ودفن في البقيع · ومن شعره في القلم

ومشقق كاللحظ يحكي فعل سمر الخط الا ان هذا اصفرُ
في رأسه المسود ان اجروه في البيض للاعداء موت احمرُ

ومنه ما كتبه الى الملك المنصور صاحب حماة

خدمتك في الشباب وها مشيبي اكاد احل منه اليوم رمسا
فراع لخدمتي عهدًا قديماً وما بالعهد من قدم فينسى

﴿ بهاء الدين ابن النحاس الحلبي ﴾

قال فيه صاحب الفوات هو محمد بن ابراهيم الامام العلامة حجة العرب بهاء الدين بن النحاس الحلبي النحوي شيخ العربية بالديار المصرية ولد بحلب سنة ٦٢٧ هـ ١٢٣٠ م وتوفي بالقاهرة سنة ٦٩٨ هـ سنة ١٢٩٩ م وأخذ العربية عن جمال الدين بن عمرون ودخل مصر لما خربت حلب وتخرج به جماعة من الايمه وكان من اذكياء بني ادم وله خبرة بالمنطق واقليدس مشهورًا بالدين والصدق والعدالة وكان له صورة كبيرة في صدور الناس معروفاً بحل المشكلات واقتنى كتباً نفيسة ولم يتزوج قط وقيل فيه انه كان كثير التلامذة كثير الذكر كثير الصلاة يسعى في مصالح الناس وكان لا يكلم احدًا الا بلغة العوام لا يراعي الاعراب ولا يكاد يأكل شيئاً وحده وكان ينهي عن الخوض بالعقائد وولي التدريس بجامع ابن طولون وبالقبة المنصورية ولم يصنف شيئاً الا املاءً على كتاب المغرب لابن عصفور من اول الكتاب الى باب الوقف

ومن شعره يخاطب رضي الدين الشاطبي وقد كلفه ان يشتري له قطرًا

ايها الاوحد الرضيُّ الذي طال علاء وطاب في الناس نشرًا
انت بحر لا غرو ان نحن وافيناك راجين من نداك قطرًا

ومن شعره ايضاً

انّي تركت لدى الورى دنياهم وظللت انتظر الممات وارقبُ
وقطعت في الدنيا علائق ليس لي ولد يموت ولا عقـال يخربُ

﴿ علاء الدين ابو الحسن الدمشقي ﴾

انبأنا شيئاً من ترجمته العلامة المطران اسطفانوس عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية عند ذكره كتاباً له (هو ٢٢٩ من تلك الكتب) عنوانه شرح الاصول العامة في صناعة الطب وقال انه كان قريشياً من دمشق وتوفي سنة ١٢٩٦ وان كتـابه يشتمل على اربعة اقسام الاول في اصول الطب النظري والعملي الثاني في اعداد المأكل والادوية البسيطة والمركبة والثالث في امراض كل من الاعضاء الخـاصة وعلل هذه الامراض واعراضها وعلاجها الرابع في الامراض التي لا تصيب جزءًا واحدًا من الجسد وعللها واعراضها وعلاجها وقد بين مؤلف هذا الكتاب في فاتحته انه اعتمد على علي ابن العبـاس المعروف بالمجوسي وهو طبيب مشهور كان في اواخر القرن العـاشر وقد شرح الكتاب الموسوم بالملكي وعني علاء الدين بان يطبق بين اراء ابن العباس المذكور واراء الرئيس ابن سينا حاذياً حذو ابن سينا وكان ابن العباس وابن سينا طبيبان مشهوران وكانت اراوهما غالباً متضاربة ويظهر من تاريخ الاطباء لابن جلجـال ومن اقوال غيره ان العرب كانوا يرون ان اراء ابن العباس اصلح للعمل وكلام ابن سينا افصح واحكم وهذا ما حمل علاء الدين على شرح اصول صناعة الطب على موجب راي الاثنين معاً

﴿ محمد ابن مالك ﴾

ذكره الصلاح الكتبي صاحب فوات الوفية فقال ما ملخصه محمد بن عبد الله بن مالك الامام العلامة الاوحد جمـال الدين الطـاي الشـافعي النحوي نزيل

دمشق ولد سنة ٦٠٠ هـ سنة ١٢٠٤ م بالاندلس وصرف همته بدمشق وحلب الى اتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية واربى على المتقدمين وكان إماماً في قرآءات القرآن وصنف فيها قصيدة دالية وكان اماماً في العادلية بدمشق فكان اذا صلى فيها شيعه قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان الى بيته تعظيماً له واما النحو والتصريف فكان فيهما بحرًا لا يشق لجه واما اطلاعه على اشعار العرب التي يستشهد بها فكان عجيباً وكان الائمة الاعلام يتحيرون في امره واما الاطلاع على الحديث فكان فيه غاية وكان اكثر ما يستشهد بالقرآن فان لم يجد فيه شاهدًا عدل الى الحديث فان لم يكن فيه شاهد عدل الى اشعار العرب هذا معما كان عليه من الدين والعبادة وكثرة النوافل وكمال العقل وانفرد عن المغاربة بشيئين الكرم ومذهب الشافعي واقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية وصنف خلا الفيته المشهورة التي كثر شراحها كتابه لتسهيل الفوائد قد مدحه سعد الدين بن عربي بقوله

ان الامام جمال الدين جمله ... رب العلاء لنشر العلم اهلهُ
املى كتاباً له يُسمى الفوائد لم ... يزل مفيدًا لذي لب تامله
فكل مسئلة في النحو يجمعها ... ان الفوائد جمع لا نظير لهُ

ومن تاليفه سبك المنظوم وفك المختوم وكتاب الكافية الشافية ثلاثة الاف بيت وشرحها والخلاصة ومختصر الشافية واكمال الاعلام بتثلث الكلام وفعل وافعل والمقدمة الاسدية وصنفها باسم ولده الاسد وعدة اللافظ وعمدة الحافظ والنظم الاوجز في ما يهمز والاعتضاد بالظاء والضاد واعراب مشكل النجادي وقال شرف الدين الحصني يرثيه بابيات منها

يا شتات الاسماء والافعالِ ... بعد موت ابن مالك المفضالِ
وانحراف الحروف من بعد ضبط ... منه في الانفصالِ والاتصالِ

عدم النعت والتعطف والتو م كيد مستبدلاً من الابدالِ
الم اعتراه اسكن منه حركات كانت بغير اعتلالِ
يالها سكنة كانت لهمز فضا اورثت طول مدة الانفصالِ
ورفعوه في نعشه فانتصبنا نصب تمييز كيف سير الجبالِ
ارغموه في الترب من غير مثل سالماً من تغير الانتقالِ
ومددنا الاكف نطلب قصرًا مسكناً للنزيل من ذي الجلالِ
يا لسان الاعراب يا جامع ال اعراب مفهماً لكل مقالِ
يا فريد الزمان في النظم والنثر وفي نقل مسندات العوالي

وقد طبعت الفية ابن مالك في بريس سنة ١٨٣٣ بعناية العلامة دي ساسي ثم طبعت في لا بسك سنة ١٨٥١ بعناية العلامة ديتريسي الالماني وقد طبعت في المشرق مرارًا كثيرة وقد ترجمها الى الايطالية منذ عهد قريب المستشرق العالم فينو قنصل دولة ايطاليا العام الان في سورية وشرحها شرحاً وافياً ولها في العربية عدة شروح منها شرح ابن الناظم وشرح ابن عقيل وشرح الاشموني وغيرها وقد طبعت هذه الشروح مرات ايضاً

جمال الدين الحموي

ذكره ابو الفدا في تاريخه سنة ٦٩٧ فقال جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضي القضاة الشافعي بحماة وكان مولده سنة ٦٠٤ هـ سنة ١٢٠٨ م وتوفي السنة ٦٩٧ المذكورة ١٢٩٨ م وكان فاضلاً اماماً مبرزًا في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة واصول الدين والفقه والهيئة والتاريخ وله مصنفات حسنة منها مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ومنها الامبرورية في المنطق صنفها للانبرور ملك الفرنج صاحب صقلية لما توجه رسولاً اليه في ايام الملك الظاهر بيبرس واختصر الاغاني اختصارًا حسناً وله غير ذلك من المصنفات قال ابو الفدا ولقد ترددت

اليه بحماة مرارًا كثيرة وكنت اعرض عليه ما احله من اشكال كتاب اقليدس واستفيد منه وكذلك قرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب في العروض فانه شرحها شرحًا حسنًا مطولاً وصحت اسماء من له ترجمة في كتاب الاغاني

وكان في سورية غير هولاء من المشاهير اضربنا عن ذكرهم خشية ملل القرآء ولانهم اقل شهرة ممن ذكرنا

﴿ عدد ٨٨٦ ﴾

في من عاصر هولآء من المشاهير غير السوريين

﴿ فخر الدين الرازي ﴾

قال في حقه ابن خلكان ابو الفضل محمد بن عمر .. الطبرستاني الاصل الرازي المولد الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي فريد عصره فاق اهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الاوائل وله التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن جمع فيه كل غريب وغريبة وهو كبير جدًا لكنه لم يكمله وشرح سورة الفاتحة في مجلد ومنها في علم الكلام المطالب العالية ونهاية العقول وكتاب الاربعين والمحصل وكتاب البيان والبرهان في الرد على اهل الزيغ والطغيان وكتاب المباحث العمادية في المطالب المعادية وكتاب تهذيب الدلائل وعيون المسائل وكتاب ارشاد الانظار الى لطائف الاسرار وكتاب اجوبة المسائل التجارية وكتاب تحصيل الحق وكتاب الزبدات وغير ذلك وله في الفقه المحصول والمعالم وفي الحكمة الملخص وشرح الاشارات لابن سينا وشرح عيون الحكمة وغير ذلك وفي الطلسمات السر المكتوم وشرح اسماء الله الحسنى ويقال ان له شرح المفصل في النحو للزمخشري وشرح الوجيز في الفقه للغزالي وشرح سقط الزند للمعري وله مختصر في الاعجاز ومواخذات جيدة في النحاة وله طريقة في الخلاف وله في الطب شرح الكليات لقانون ابن سينا وصنّف في علم الفراسة

وله مصنف في مناقب الامام الشافعي وانتشرت تصانيفه في البلاد ورزق منها سعادة عظيمة وهو اول من اخترع هذا الترتيب في كتبه وأتى فيها بما لم يسبق اليه وكان له في الوعظ اليد البيضاء ويعظ باللسانين العربي والعجمي ويروون عنه ملحاً ونوادر غريبة ومناقبه اكثر من ان تعدَّ وكان له مع هذه العلوم شيء من النظم ومن ذلك قوله

نهاية اقدام العقول عقال   واكثر سعي العالمين ضلالُ
وارواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانا أذًى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى ان جمعنا فيه قيل وقالُ
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ   فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبالٍ قد علت شرفاتها   رجال فزالوا والجبالُ جبالُ

وكانت ولادته سنة ٥٤٤ هـ سنة ١١٥٠ م بالري وتوفي سنة ٦٠٦ هـ سنة ١٢٠٩ م بهراة انتهى ما لخصناه عن ابن خلكان

وقد ذكره المطران اسطفان عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المادیشية بمعرض ذكر كتاب له في الحكمة قال انه مقسوم الى اربعة ابواب الاوّل في السماء والعالم والثاني في التولد والنساء والثالث في ماهية النفس الناطقة والرابع في سعادتها وتعاستها وقال في حقه انه كان فيلسوفاً وطبيباً وفقيهاً ماهرًا وذكر تقريض الجوزي المؤرخ له وروى عن قبريشيوس عدة كتب له فقال ان له من الكتب الكتاب الاول في طريقة اللاهوت (الذين يسميه المسلمون علم الكلام) العامة ٢ احكام اللاهوت ٣ مصباح او مشكاة اللاهوت ٤ شرح كتب ارسطوه ٥ شرح القرآن ٦ ايجاز كتاب ابن سينا في ما وراء الطبيعة مع شرح عليه ٧ حلّ الف مشكل في اللاهوت ٨ طريقة في ترتيب المجادلات ٩ السر المكتوم وذكر له هربيلوتيوس في مكتبته الشرقية

الكتب الاتي ذكرها ١ً ارشاد الابصار في لطائف الاسرار وهي شرح للاسرار الدقيقة اعتنى بان يثبت به مبادي دين الاسلام ويفسرها ٢ً محصل الافكار في علم ما وراء الطبيعة واللاهوت الجدلي وقد شرحه علماء كثيرون ٣ً اصول الدين وهو مقسوم الى خمسين مبحث موضوعه فلسفي لاهوتي والمبحث الاوّل يضاد به من قالوا بازلية العالم ومنه يظهر ان عقيدته لم تكن فاسدة كما تجنى عليه اعداوه وله كتاب سماه اختيارات النجومية وكتاب آخر عنوانه الاربعين في اصول الدين وكتاب اخر عنوانه المحصول هذا ما ذكره له العالم المذكور

وجاء في اكتفاء القنوع بما هو المطبوع ان كتاب الرازي مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير طبع في بولاق في ستة اجزاء من سنة ١٢٧٨ الى سنة ١٢٨٩ ﻫ ثم طبع بالقاهرة في ثمانية اجزآء سنة ١٣٠٩ ﻫ وعلى الهامش التفسير المسمى بارشاد العقل السليم لابي السعود العمادي وطبع في قسطنطينية في عدة اجزآء سنة ١٣٠٧ والرازي فخر الدين هذا هو غير ابي بكر محمد بن ذكريا الرازي وغير احمد بن فارس بن ذكريا الرازي وغير قطب الدين محمود بن محمد الرازي وغير السيد الرازي الشيعي

﴿ مجد الدين ابن الاثير ﴾

قال في حقه ابن خلكان ابو السعادات المبارك بن ابي الكرم محمد ... الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري الملقب مجد الدين قال فيه ابو البركات ابن المستوفي اشهر العلماء ذكرًا واكبر النبلاء قدرًا واحد الافاضل المشار اليهم وفرد الاماثل المعتمد عليهم وله المصنفات البديعة والرسائل الوسيمة منها جامع الاصول في احاديث الرسول ومنها كتاب النهاية في غريب الحديث في خمسة مجلدات وكتاب الانصاف في الجمع بين الكشف والكشاف في تفسير القرآن الكريم اخذه من تفسير الثعلبي والزمخشري وله كتاب المصطفى والمختار في الادعية والاذكار وله كتاب

لطيف في صنعة الكتابة وكتاب البديع في شرح الفصول في النحو لابن الدهان وله ديوان رسائل وكتاب الشافي في شرح مسند الامام الشافعي وغير ذلك من التهاليف وكانت ولادته بجزيرة ابن عمر فوق الموصل سنة ٥٤٤ هـ سنة ١١٥٠ م واتصل بخدمة الامير مجاهد الدين قايماز وبعد وفاته خدم عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل وتولى ديوان رسائله وله شعر يسير فمن ذلك ما انشده للاتابك صاحب الموصل وقد زلت به بغلته وهو

ان زلت البغلة من تحته فان في زلتها عذرا
حملها من علمه شاهقاً ومن ندا راحته بحرا

وكانت وفاته بالموصل سنة ٦٠٦ هـ سنة ١٢١٠ م وعن اكتفاء القنوع بما هو المطبوع ان كتاب مجد الدين الموسوم بالنهاية في غريب الحديث طبع في طهران سنة ١٢٤٩ هـ في جزء واحد كبير الحجم وهو معجم في الحديث وطبع ايضاً بالقاهرة سنة ١٣٠٨ واما كتابه جامع الاصول في احاديث الرسول فلم يطبع كاملاً الى الآن ولكن لخصه ابن الربيع بكتاب وسمه بتسيير الوصول الى معرفة الاصول طبع في كلكته سنة ١٢٥٢ هـ

﴿ عز الدين ابن الاثير المؤرخ ﴾

قال في حقه ابن خلكان هو ابو الحسن علي بن ابي الكرم ... الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري الملقب عز الدين ولد في الجزيرة ونشاء بها ثم سار الى الموصل مع والده واخويه مجد الدين السابق ذكره وضيا الدين الاتي ذكره وسكن الموصل وسمع بها وببغداد من اعلام العلماء حينئذ ورحل الى الشام والقدس وسمع فيهما من كثيرين ثم لزم بيته في الموصل منقطعاً الى التوفر في النظر في العلم والتصنيف وكان بيته مجمع الفضل لاهل الموصل والواردين اليها وكان اماماً في حفظ الحديث ومعرفه وما يتعلق به وحافظاً التواريخ وخبيراً بانساب العرب

واخبارهم وايامهم ووقايعهم وصنف في التاريخ كتاباً كبيرًا سماه الكامل ابتداء به من اول الزمان الى آخر سنة ٦٢٨ ه (سنة ۱۲۳۱ م وهو الذي استشهدنا به واعتمدنا عليه مرارًا) وهو من خيار التواريخ واختصر كتاب الانساب لابي سعد عبد الكريم بن السمعاني واستدرك عليه في مواضع ونبه على اغلاط وزاد اشيا اهملها ابو سعد واكثر ما يوجد اليوم من هذا التصنيف المختصر وهو في ثلثة مجلدات والاصل في ثمانية وهو عزيز الوجود ولم اره الا مرة واحدة بمدينة حلب ولم يتصل الى الديار المصرية سوى المختصر المذكور وله كتاب اخبار الصحابة في ستة مجلدات كبيرة وقال ابن خلكان انه كان يتردد اليه كثيرًا اذ كان في حلب وان ولادته كانت سنة ٥٥٥ ه سنة ۱۱٦۱ م بجزيرة ابن عمر وهو من اهلها وتوفى سنة ٦۳۰ ه سنة ۱۲۳۳ م بالموصل واما جزيرة ابن عمر مولده فقال فيها ابن خلكان لا ادري من هو ابن عمر وقيل انها منسوبة الى يوسف بن عمر الثقفي امير العراقين ثم اني ظفرت بالصواب في ذلك وهو ان رجلاً من اهل بر قعيد من اعمال الموصل بناها وهو عبد العزيز بن عمر فاضيفت اليه ورأيت في بعض التواريخ انها جزيرة ابني عمر اوس وكامل ولا ادري ايضاً من هما ثم رايت في تاريخ بن المستوفي في ترجمة ابي السعادات المبارك ابن محمد انه من جزيرة اوس وكامل ابني عمر بن اوس التغلبي والله اعلم

وقد ذكر ابو الفدا عز الدين ابن الاثير ووصفه بما وصفه به ابن خلكان وقال « وهو المنقول منه غالب هذا المختصر . اي تاريخه المشهور وقد طبع كتاب ابن الاثير الموسوم باسد الغابة في معرفة الصحابة في القاهرة في ٥ مجلدات سنة ۱۲۸٦ه وطبع كتابه الكامل فى التاريخ فى ١٤ مجلدًا فى لايدن ولايبسك من سنة ۱۸٥۱ الى سنة ۱۸۷٦ عني بطبعه العلامة نور نبرغ ثم طبع في بولاق وفي القاهرة في اثني عشر جزءًا من سنة ۱۲۹۰ الى سنة ۱۳۰۳ ه وعلى هامش هذه الطبعة كتب

عجائب الآثار في التراجم والاخبار للجبرتي وطبع كتاب ابن الاثير في انساب العرب في غوتنغن سنة ١٨٢٥ م عني بطبعه روستنفلد الالماني هذا ما رواه صاحب كتاب اكتفاء القنوع بما هو المطبوع وهو ادوار بن الدكتور فان ديك وقال لابن الاثير هذا ايضاً كتاب تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل ذكر فيه الحروب الصليبية طبعت منه اجزاء مع ترجمة افرنسية بعناية العلامة جان جنس والعلامة رينود في بريس سنة ١٨٢٩

﴿ ضياء الدين ابن الاثير ﴾

هو اخو مجد الدين وعز الدين السابق ذكرهما ولم يكن اقل منهما علماً واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٧ ثم طلبه منه ولده الملك الافضل فخيره صلاح الدين بين المقام في خدمته والانتقال الى خدمة ولده فاختار خدمة ولده ومضى اليه فاستوزره وحسنت حاله عنده ولما توفي صلاح الدين واستقل ولده الملك الافضل بمملكة دمشق استقل ضياء الدين بالوزارة وصار الاعتماد في جميع الاحوال عليه ولما اخذت دمشق من الافضل وانتقل الى صرخد وكان ضياء الدين اساء السيرة مع اهل دمشق همّ اهل دمشق بقتله فاخرج مستخفياً في صندوق وسار الى الافضل ثم صحبه الى مصر لما استدعى لنيابة ابن اخيه الملك المنصور كما تقدم ولما اخذ الافضل البلاد الشرقية خاف ضياء الدين ان يصحبه اليها لكنه عاد الى خدمته بعدئذٍ ثم فارقه واتصل بخدمة اخيه الملك الظاهر صاحب حلب ثم فارقه وتجول في البلاد الى ان جعل دار اقامته الموصل كاتباً لصاحبها نصر الدين محمود ارسلان شاه ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله كتابه الذي سماه المثل السائر في اداب الكاتب والشاعر وهو في مجلدين فتصدى عز الدين ابو حامد المدايني لمواخذته والرد عليه وسمى كتابه الفلك الدائر على المثل السائر ولضياء الدين ايضاً كتاب الوشي المرقوم في حل

المنظوم وهو مع وجازته في غاية الحسن والافادة وله كتاب المعاني المخترعة في صناعة الانشا وله مجموع اختار فيه شعر ابي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبي وهو في مجلد واحد كبير وله ديوان ترسل في عدة مجلدات والمختار منه فى مجلد واحد وكانت ولادة ضياء الدين بالجزيرة سنة ٥٥٨ ﻫ سنة ١١٦٣ م وتوفى ببغداد سنة٦٣٧ ﻫ سنة ١٢٤٠ م

وقد طبع كتابه الوشي المرقوم فى حل المنظوم فى بيروت سنة ١٢٩٨ ﻫ وطبع كتابه المثل السائر فى مصر سنة ١٢٨٢ ﻫ وقد انتقد هذا الكتاب الصفدي ايضاً

﴿ عثمان ابن الحاجب ﴾

قال فيه ابن خلكان هو عمر ابو عثمان بن عمر ... المصرى الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين كان والده حاجباً للامير عز الدين موشك (ويروى موسك بالسين) الصالحي وكان كردياً فاشتغل عثمان اولاً بالقرآن الكريم ثم بالفقه على مذهب الامام مالك ثم بالعربية والقرات وبرع في علومه واتقنها غاية الاتقان ثم انتقل الى دمشق ودرس بجامعها واكب الخلق على الاشتغال عليه وكان الاغلب عليه علم العربية وصنف مختصرًا في مذهبه ومقدمة وجيزة في النحو (وهي المعروفة بالكافية واخرى مثلها في التصريف وسماها الشافية) وشرح المقدمتين وصنف في اصول الفقه وكل تصانيفه في نهاية الحسن والافادة وخالف النحاة في مواضع واورد عليهم اشكالات تبعد الاجابة عنها وعاد الى القاهرة والناس ملازمون له للاشتغال عليه ثم انتقل للاسكندرية للاقامة بها فلم تطل مدته هناك وتوفى بها في ٢٦ شوال سنة ٦٤٦ ﻫ سنة ١٢٤٩ م وذكر ابو الفدا انه اختصر كتاب الاحكام للآمدى في اصول الفقه فطبق ذكر هذين الكتابين اي الكافية ومختصره في اصول الفقه جميع البلاد خصوصاً بلاد العجم

واكب الناس على الاشتغال بهما الى زماننا هذا وله غيرهما عدة مصنفات

وعن اكتفاء القنوع ان لحسين ابن احمد الشهير بريني زاده من اهل القرن الثاني عشر للهجرة شرحاً بصفة اعراب الكافية سماها الفوائد الشافية على اعراب الكافية فرغ من تبيضه سنة ١١٦٨ﻫ سنة ١٧٥٤م وطبع بالقسطنطينية سنة ١٢٣٥ ﻫ سنة ١٢٥١ ﻫ دون ذكر محل الطبع وطبعت الكافية مع الاعراب في القاهرة وللنلاجامي الذي توفي سنة ٨٩٨ ﻫ بهرات شرح مطول على الكافية سماه الفوائد الضافية طبع في الهند سنة ١٢٨٢ﻫ وفي القسطنطينية سنة ١٢٨٧ وللرضي الاستربادي الذي توفي سنة ٦٨٦ ﻫ شرح مطول على الكافية يعرف بشرح الرضي طبع في جزئين في الهند سنة ١٢٨٠ ثم في القسطنطينية سنة ١٢٧٥ مع حواش على الهامش وطبعت الشافية في التصريف في الهند سنة ١٢٧٨ مع شروح لها ثم في القسطنطينية سنة ١٣٠٣ وروى المطران اسطفانس عواد في فهرست المكتبة الماديشية ان فيها كتاب الكافية مطبوعاً بالعربية برومة سنة ١٥٩٢ ونسخة اخرى مع ترجمتها الى اللاتينية اتي وضعها توما اورباتيوس وطبعت في لايد سنة ١٦١٧ ثم بريس سنة ١٦٣٨

﴿ ابن البيطار ﴾

هو ابو محمد ضياء الدين عبد الله ابن احمد المعروف بابن البيطار الاندلسي اشتهر كثيراً بعلم النبات وجال في كثير من الافاق للبحث عن النبات والاستطلاع على خواصه حتى عدوه من احسن مواقي العرب في علم النبات واقام مدات في مصر وسورية وكان من اصحاب ابن ابي اصيبعة صاحب طبقات الاطباء ولابن البيطار عدة مصنفات في الطب منها المغني وهو مرتب على احرف الهجاء وكتاب مداواة الاعضاء وله في النبات كتاب الادوية المفردة المعروف بمفردات ابن البيطار وهو معجم في النبات وهو اشهر كتبه وطبع في جزئين ببولاق سنة ١٢٩١ﻫ معنوناً الجامع لمفردات الادوية والاغذية وقد اخذ ابن البيطار عن مصنف

ديوسقوريدس اليوناني العين ذربي وتوفي بدمشق سنة ٦٤٦ هـ سنة ١٢٤٨ م وقد ذكر المطران اسطفانس عواد السمعاني كتاب مفردات ابن البطار في فهرست الكتب الشرقية بالمكتبة المادينشية وقال في حقه انه كان فيلسوفاً ماهراً جداً بعلم النبات وطاف اربع قارات العالم للبحث عن النبات واختبار خواصه لكنه قال انه توفي في ملاكا مدينة مولدهِ في التاريخ الذي ذكرناه لا في دمشق كما مر ونحن نعول على هذه الرواية اكثر من الرواية التي ذكرناها قبيل هذا

﴿ البهآء زهير ﴾

ذكر ترجمته ابن خلكان فقال هو ابو الفضل زهير بن محمد بن علي ... المهلبي المتكي الملقب بهاء الدين من فضلاء عصره واحسنهم نظماً ونثراً وخطاً واكثرهم مروَّة اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح ابن الملك الكامل بالديار المصرية وتوجه بخدمته الى البلاد الشرقية ولما ملك الملك الصالح دمشق انتقل اليها في خدمته ولما خرجت عنه دمشق وخانه عسكره وهو على نابلس وقبض عليه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك استمر البهاء زهير بنابلس ولم يتصل بغيره ولما ملك الملك الصالح الديار المصرية عاد البهاء زهير الى خدمته قال ابن خلكان كنت اتشوق ان اجتمع به واسمع منه فاجتمعت به بالقاهرة ورايته فوق ما سمعته عنه وانشدني كثيراً من شعره ومن ذلك قوله

يا روضة الحسن صلي فما عليك ضيرٌ فهل رأيت روضة ليس لها زهيرُ

ومنه ايضاً كيف خلاصي من هوى مازج روحي واختلط

وتايه افيضُ في حبي لهُ وما انبسط

يمرُّ بي متلفتاً فهل رأيت الظبي قط

وقد توفي البهاء زهير سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨ م

﴿ عمر ابن الفارض ﴾

قال فيه ابن خلكان هو ابن حفص وابو القاسم عمر بن ابي الحسن علي الحموي الاصل المصري المولد والدار والوفاة المعروف بابن الفارض له ديوان شعر لطيف واسلوبه فيه رائق ظريف وله قصيدة مقدار ست مئة بيت مشتملة على اصطلاح الصوفية ومنهجهم وما الطف قوله من جملته قصيدة طويلة

اهلاً بمن لم اكن اهلاً لموقفه ... قول المبشر بعد اليأس بالفرج
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ... ذكرت ثم على ما فيك من عوج

وله من قصيدة اخرى

لم اخلُ من حسدٍ عليك فلا تضع ... سهري بتشنيع الخيال المرجفِ
واسأل نجوم الليل هل زار الكرى ... جفني وكيف يزور من لم يعرفِ
وعلى تفنن واصفيه بوصفه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصفِ

وله ذو بيت ومواليا والغاز . جاور بمكة زماناً وكان حسن الصحبة محمود العشرة وكانت ولادته في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ هـ سنة ١١٨١ م بالقاهرة وتوفي في الثاني من جمادي الاولى سنة ٦٣٣ هـ سنة ١٢٣٥ م ودفن بصفح المقطم

وقد طبع ديوانه المشهور مرارًا منها في بولاق في جزئين سنة ١٣١٠ هـ مع شرحين عليه الاول شرح لغوي للبوريني الذي توفي سنة ١٠٣٤ هـ والاخر شرح صوفي لعبد الغني النابلسي الذي توفي سنة ١١٤٣ هـ وطبع ايضاً في بريس مع الشرحين المذكورين سنة ١٨٥٥ م وطبع في بيروت مرارًا وطبعه في مرسيليا الكنت رشيد الدحداح سنة ١٨٥٣ مع خلاصة من الشرحين

﴿ ابن خلكان ﴾

هو احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان البرمكي الملقب شمس الدين صاحب وفيات الاعيان الذي اعتمدنا عليه غالباً في تراجم المشاهير الدنيويين قال عن نفسه

في ترجمة زينب بنت الشعري ، مولدي يوم الخميس بعد صلوة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨ هـ (سنة ١٢١٢ م) بمدينة اربل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر الدين ابن زين الدين رحمهما الله تعالى وكان فاضلاً عالماً تولى القضاء بمصر والشام وله مصنفات جليلة منها وفيات الاعيان في التاريخ وغيره وتوفي سنة ٦٨١ هـ سنة ١٢٨٢ م بدمشق وقد طبع كتابه وفيات الاعيان العلامة روستنفلد الالماني في ثلاثة عشر جزءا في غوتنغن من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٥ وهذه الطبعة هي التي اعتمدنا عليها وطبع ايضاً في بريس من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٤٢ وطبع مرة اخرى في بريس سنة ١٨٦٨ وطبع في بولاق سنة ١١٧٥ هـ وسنة ١٢٩٩ م ثم في القاهرة سنة ١٢١٠ وقد ذكر له صاحب فوات الوفيات كثيرًا من مقاطيع الشعر منها

يا رب ان العبد يخفي عيبه ... فاستر بحلمك ما بدا من عيبه
ولقد اتاك وما له من شافع ... لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه

ومنها يا معرضاً عني بغير جناية ... اما تستحي من فرط تيهك والعجب
ومنها سلوتك فاصنع ما تشاء فانه ... محا كثرة التقبيح حبك في قلبي

﴿ البيضاوي ﴾

هو ناصر الدين عبد الله الاشعري العقيدة ولد في البيضا ببلاد فارس وتولى القضا في شيراز والقى دروساً في عدة مدن وتوفي في تبريز سنة ٦٨٥ هـ سنة ١٢٨٧م وفي رواية اخرى سنة ٦٩٢ هـ سنة ١٢٩٢ م وله في التوحيد كتاب طوالع الانوار طبع مع شرح له بمطبعة حجرية في القسطنطينية واشهر كتبه تفسير القرآن الذي سماه انوار التنزيل واسرار التاويل اعتنى بطبعه العلامة فلايشر الالماني في سبعة اجزاء في لايبسك سنة ١٨٤٨ ووضع فل الالماني لهذه الطبعة فهرستاً وافياً طبع في لايبسك سنة ١٨٧٨ م ولشهاب الدين الخفاجي (الذي توفي سنة ١٠٢٩ هـ) حاشية

على هذا الكتاب عنونها عناية القاضي وكفاية الراضي طبعت في ٨ اجزاء ببولاق سنة ١٢٨٣ ولشيخ زاده الحاشية على البيضاوي طبعت في ثلثة اجزاء ببولاق سنة ١٢٦٣ وله حواشٍ اخرى

وذكر العلامة المطران اسطفانس عواد السمعاني في فهرست المكتبة المادينشية تصانيف البيضاوي فقال الاول تفسير القرآن عنونه انوار التنزيل واسرار التاويل جمع فيه في مجلدين تفاسير كثيرين ممن تقدموه الثاني مقالة في اركان دين الاسلام وعقائده والثالث كتاب في التاريخ سماه نظام التواريخ والرابع كتابه المسمى طوالع الانوار وهو فلسفي ديني وقد شرحه شمس الدين الاصفهاني ومنه نسخة في مكتبة بريس الملكية في عد ٢١٠ وهذه النسخة خطت سنة ١٣٤٨ كما يظهر من الذيل المعلق باخرها

القسم الثاني

﴿ في تاريخ سورية الديني في القرن الثالث عشر ﴾

الفصل الاول

﴿ في بطاركة انطاكية واورشليم من الشرقيين والغربيين ﴾

﴿ عــد ٨٨٧ ﴾

﴿ في بطاركة انطاكية في القرن الثالث عشر ﴾

فرغنا من تاريخ بطاركة انطاكية في القرن الثاني عشر بذكر تاودورس بلسامون وارى تاريخ هولاء البطاركة في القرن الثالث عشر سقيماً غامضاً ولذلك

تلجئني الحال الى الاكتفاء بتلخيص ما رواه لكويان في مصنفه الموسوم بالمشرق المسيحي عن بطاركة انطاكية في هذا القرن قال كان بعد توادورس بلسامون في كرسي انطاكية يواكيم الاول ثم هياروتاوس ثم سمعان الثالث ثم داود فقد رأيت في الجدول الواتيكاني الذي ارسلت اليّ خلاصته ان يواكيم خلف توادورس بلسامون ثم خلف هياروتاوس يواكيم ثم خلف اتناسيوس هياروتاوس وقد صرح كاتب الجدول المذكور بأنه لا يعلم متى جلس هولاءِ البطاركة على كرسي انطاكية مع بذله قصارى الجد للاطلاع على ذلك ولهذا اظن ان اتناسيوس الذي ذكره صاحب الجدول الواتيكاني هنا ليس هو الا اتناسيوس الذي ذكرناه قبلاً في جملة بطاركة انطاكية في القرن الثاني عشر ورأيت في الجدول العربي الذي وضعه السمعاني ان يواكيم خلف بلسامون ودوروتاوس خلف يواكيم (واظن ان دوروتاوس هذا الذي ذكره السمعاني انما هو هياروتاوس الذي ذكرناه نقلاً عن الجدول الواتيكاني) وكان بعد دوروتاوس سمعان يوليانوس واتناسيوس انتهى كلام السمعاني ثم قال لكويان واما داود الذي ذكرته انفاً فقد يكون له اسمان ولا اشك في انه جلس على كرسي انطاكية بعد بلسامون وقبل اوتيميوس الاتي ذكره ثم ارتقى الى كرسي انطاكية بعد هولاءِ اوتيميوس الاول ثم توادوسيوس الخامس ثم ارسانيوس ثم كيرلس الثاني ثم ديوانيسيوس الاول ثم كيرلس الثالث ثم ديوانيسيوس الثاني ثم صفرونيوس ومما يبعث على العجب ان مؤلف الجدول الواتيكاني لم يذكر هولاء البطاركة الثمانية ولم يذكر خلفاً لاتاسيوس المذكور آنفاً الاَّ اغناطيوس الذي كان في القرن الرابع عشر مع انه قد حقق علماء ركن الى روايتهم ان هولاء البطاركة الثمانية جلسوا على كرسي انطاكية ومن هولاء العلماء نيكوفور كاليستس فانه اورد اسماءهم في الكتاب الرابع عشر من تاريخه وقال ان اربعة بطاركة من هولاء نقلوا من كراسي اسقفية الى الكرسي البطريركي الانطاكي اي ان اوتيميوس نقل من كرسي

اطرابلس وكيرلس الثاني نقل من كرسي صور ثم خلفه ديوانيسيوس الأول متنقلاً من كرسي بومبايوبلي وخلف كيرلس الثالث ديونيسيوس الثاني وكان اسقفاً على المصيصة وكان شهيراً وروى جيورجيوس باخميرس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٥) ان اوتيميوس الاول لم يخلفه ارسانيوس كما روى بعضهم بل خلفه توادوسيوس وكان راهباً فان اوتيموس لما علم بدنو وفاته اوعز الى توادورس اسقف عين زربة ان يجمع الاساقفة ويقترعوا بحياته على من يخلفه بعد مماته ففعلوا ولذلك لم يكن بعد وفاة اوتيميوس من مخالف لانتخاب ديونيسيوس الثاني وهذا البطريرك قد ساعد على اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية في ايام الملك ميخائيل باليالوغوس ثم يقول باخميرس ان ديوانيسيوس هذا تنزل عن البطريركية فاختار اكايرس انطاكية ارسانيوس وبعد وفاة ارسانيوس انقسم الاساقفة فاختار اساقفة كيليكة ديونيسيوس اسقف بامبا يابولي واختار اساقفة سورية كيرلس الثاني رئيس اساقفة صور واختتم لكويان كلامه بقوله واما كيرلس الثالث وديونسيوس الثاني وصفرونيوس الذين ذكرهم نيكوفور كاليستوس فلم اجد لهم ذكراً في ما طالعته من الكتب ويظن ان هذا القرن انقضى في مدة هولاء البطاركة

عدد ٨٨٨

في بطاركة اورشليم في القرن الثالث عشر

فرغنا من الكلام على بطاركة اورشليم في القرن الثاني عشر بذكر توافان الاول ويظهر ان كرسي اورشليم لم يقم عليه بطريرك بعد وفاة توافان المذكور في اوائل القرن الثالث عشر الى نحو سنة ١٢٦٠ فلا نرى لكويان ذكر بعد توافان الا غريغوريوس الثاني وقال ان هذا صير بطريركاً في ايام الملك ميخائيل باليولوغوس والموكد ان هذا الملك جلس على منصة الملك في نيقية سنة ١٢٦٠ واسترد قسطنطينية من الملك بودوين الثاني اخر ملوك اللاتين فيها سنة ١٢٦١ وعني باقامة غريغوريوس

المذكور بطريركاً على اورشليم واباً انا لكويان ان لهذا البطريرك كتاباً يرد به رأي يوحنا بكخوس الذي كان يدافع عن تعليم الكنيسة الغربية واللاتين وان هذا الكتاب في المكتبة الملكية في بريس

ثم توفي غريغوريوس الثاني في ايام الملك ميخائيل ايضاً ولا نعلم باية سنة كانت وفاته لان الملك ميخائيل استقر على منصبة الملك الى سنة ١٢٨٢ وخلفه ابنه اندرونيكوس الثاني وبعد وفاة غريغوريوس صير باسيليوس الثالث بطريركاً على اورشليم ولما كان باسيليوس في القسطنطينية عاون على اصلاح الروم مع الكنيسة اللاتينية ولما عاد الى كرسيه في اورشليم قتل في مدة الحروب التي كانت وقتئذٍ بين المسلمين والفرنج روى ذلك الاتيوس في كتاب رده على هوتينجاروس صفحة ٤٧٥

وبعد مقتل باسيليوس صير بطريركاً على اورشليم تادي القرمي فان في المكتبة الملكية ببريس كتاب مخطوط عنوانه تادي القرمي بطريرك اورشليم ردًا على اليهود كتبه نحو سنة ١٢٩٨ في ايام الملك اندرونيكوس الثاني

عد ٨٨٩

في بطاركة انطاكية واورشليم من اللاتين في القرن الثالث عشر

اما انطاكية فقد صير بطرس الاول بطريركاً عليها سنة ١٢٠٠ ولما تولى ريموند كنت اطرابلس انطاكية كان خصام شديد بينه وبين هذا البطريرك فسجنه وتوفي في السجن كما يظهر من رسالة كتبها البابا اينوشنسيوس الثالث في ١٢ تموز سنة ١٢٠٨ وخلفه بطرس الثاني واثبته البابا اينوشنسيوس الثالث المذكور واوصى بطاعته واحترامه وقد اعاقه المرض عن ان يشهد المجمع اللاتراني الرابع الذي عقده البابا اينوشنسيوس الثالث سنة ١٢١٥ فارسل نائباً عنه ثم توفي سنة ١٢١٧ كما يظهر من رسالة انفذها البابا انوريوس الثالث الى مجمع كنيسة انطاكية وفرغ كرسي

انطاكية من بطريرك الى سنة ١٢١٩ وكان يديره كاهن اسمه بطرس من كابوا فرقاه البابا المذكور الى مقام الكردينالية واقام على الكرسي الانطاكي ديناريوس احد كهنة الكنيسة الرومانية ثم توفي ديناريوس سنة ١٢٢٦ . وخلفه على الاظهر روبرتوس فدبر مهام هذا الكرسي من سنة ١٢٢٦ او سنة ١٢٢٧ الى سنة ١٢٤٦ وتوفي برومة وخلفه ايليا من رهبانية القديس عبد الاحد وبعد وفاته صير كويستيانوس من هذه الرهبانية بطريركاً على انطاكية واستمر على كرسيها الى سنة ١٢٦٨ حين قتله عسكر الملك الظاهر بيبرس وهو على المذبح لابس حلة التقديس عند امتلاكهم انطاكية في شهر ايار سنة ١٢٦٨ المذكورة واستمر الكرسي الرسولي الى اليوم يسمي على انطاكية بطاركة شرفاً يقيمون برومة فلا محل لذكرهم في تاريخ سورية

اما اورشليم فيظهر انه بعد وفاة مونوماكوس بطريركها سنة ١٢٠٢ كما ذكرنا في تاريخ القرن الثاني عشر أختير بطريركاً لها البرتس سنة ١٢٠٤ وكان اسقفاً بايطاليا وبنه البابا اينوشنسيوس الثالث ولهذا البابا عدة رسائل الى هذا البطريرك الذي كان محبوباً موقرًا حتى كان المسلمون انفسهم يحبونه ولكن اغتاله رجلٌ شرير كان البطريرك يونبه على فظائع ارتكبها بينما كان في طواف حافل يوم عيد ارتفاع الصليب سنة ١٢١٤ وانتخب بعده كوتاروس ويسمَّى لوتاروس وكان اسقفاً على عكا وروى بعضهم ان الذي انتخب بعد البرتس انما هو رودولفوس وصحح لكويان ان المنتخب هو كوتاروس لكنه لم يكن اسقفاً على عكا بل كان اسقفاً على بيزا اتى مع جماعة من ابناء ابرشيته لنجدة الفرنج بفلسطين فانتخب بطريركاً لاورشليم سنة ١٢١٥ ثم توفي فخلفه رودولفوس واستمر على البطريركية الى سنة ١٢٢٥ فخلفه جيرالدوس وفي ايامه اتى فريدريك الثاني عاهل المانيا الى فلسطين فشكا البطريرك الى الحبر الروماني بانه كان يعيبه بعقده الهدنة مع سلطان المسلمين فاستدعاه البابا

وبهه ان لا يتداخل باعمال هذا الملك ورفع عنه قصادة الكرسي الرسولي بفلسطين وعهد بها الى البطريرك الانطاكي ثم توفي رودولفوس سنة ١٢٣٩ وبعد وفاته طلب مجمع كنيسة اورشليم الى البابا ان يرسل اليهم الكردينال يعقوب دي فتري الذي كان قبلاً اسقفاً على عكا وهو صاحب التاريخ المشهور فلم يجب البابا غريغوريوس التاسع الى طلبهم ونصب بطريركاً على اورشليم سماه بعضهم روبرتس وبعضهم كويدن وتوفي سنة ١٢٥٤ وخلفه يعقوب وكان افرنسياً اختاره البابا اسكندر الرابع وعهد اليه بالقصادة في سورية وروى مكمل تاريخ غوليلموس انه اتى الى عكا سنة ١٢٥٦ وعاد الى المغرب سنة ١٢٦١ وتوفي الحبر الروماني فانتخب يعقوب بابا وسمي اوربانوس الرابع وتوفي سنة ١٢٦٤ وكان قد انتخب لبطريركية اورشليم برتلماوس من رهبانية القديس عبد الاحد فأبى قبول البطريركية فانتخب امبرتوس الرئيس العام لهذه الرهبانية فاستعفى ايضاً فعدل عنه الى غوليلموس وكان اسقفاً على اجان فسار الى عكا سنة ١٢٦٣ ومضى الى قبرس سنة ١٢٦٧ فتوج اوغوس لوسنيان ملكاً عليها ثم توفي سنة ١٢٧٠ وخلفه توما وكان من الرهبانية المذكورة وكان البابا اسكندر الرابع قد جعله قاصداً في سورية كلها فجعله غريغوريوس العاشر بطريركاً على اورشليم سنة ١٢٧٢ وقاصداً في اصقاع المشرق وروى مكمل تاريخ غوليلموس انه توفي عند وصوله الى عكا سنة ١٢٧٢ وقيل بل بقي حياً الى سنة ١٢٧٧ فانتخب خلفاً له ايكلاريوس رئيس اساقفة نابولي فلم يثبته البابا نيقولاوس الثالث بل انتخب مكانه يوحنا رئيس الرهبانية المذكورة فاستعفى فعدل البابا الى انتخاب ايليا سنة ١٢٧٩ ونرى كوفريدوس اسقف حبرون (الخليل) يسمي نفسه نائب ايليا بطريرك اورشليم في رسالته الى ادوار الاول ملك انكلترا وتوفي ايليا سنة ١٢٨٧ او سنة ١٢٨٨ فاختار البابا نيقولاوس الرابع نيقولاوس الافرنسي من رهبانية القديس عبد الاحد بطريركاً على اورشليم وعهد اليه بالقصادة في سورية وفلسطين وقبرس

ولما حاصر السلطان الملك الاشرف عكا وفتحها سنة ١٢٩١ والحّ الفرنج على البطريرك ان يفر بسفينة واكرهوه ان ينزل بها وراى كثيرين يرمون بانفسهم في البحر فأخذ منهم معه من لا تطيق السفينة حملهم فغرقت السفينة بهم جميعاً واختار حينئذٍ البابا شالستينوس الخامس رودولفوس الثاني بطريركاً على اورشليم وكان رئيساً اقليمياً في الارض المقدسة وتوفي سنة ١٣٠٤ (انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للكويان مجلد ٣) واستمر الكرسي الرسولي يسمى بطاركة شرفاً على اورشليم الى هذا القرن حين حسن للبابا بيوس التاسع ان يقيم بطاركة اورشليم فيها ويدبرون اللاتين سكان هذه البطريركية فسمى السيد يوسف فالركا بطريركاً مقيماً في اورشليم سنة ١٨٤٧ واتى اليها سنة ١٨٤٨

الفصل الثاني

﴿ في المشاهر الدينيين في القرن الثالث عشر ﴾

﴿ عدد ٨٩٠ ﴾

﴿ في غريغوريوس ابن العبري المعروف بابي الفرج ﴾

ولد غريغوريوس ابن العبري سنة ١٥٣٧ لاسكندر الموافقة سنة ١٢٢٧ للميلاد في ملطية حاضرة ارمينيا الصغرى على ضفة الفرات وكان ابوه يسمى اهرون او هرون وروى رنودوسيوس (في كتابه في الليتورجيات صفحة ٤٦٩) انه وجد في نسخة لاحد كتب ابن العبري في بريس انه كان ابن اخي البطريرك ميخائيل الكبير بطريرك اليعاقبة الذي ذكرنا ترجمته وكان ابوه طبيباً ماهراً وله خبرة بالفلسفة

فلقن ابنه مبادي العلوم ثم دفعه الى عالم بارع في مدينته فقراء عليه اللغات السريانية والعربية واليونانية فبرع فيها ثم انكب على درس الفلسفة واللاهوت فحاز قصبات السبق على اقرانه ثم عكف على درس الطب آخذًا عن ابيه وغيره وفي سنة ١٢٤٢ لما فتح التتر اسيا الصغرى واقبلوا نحو ملطية همَّ ابوه ان يهرب باهل بيته فعدل التتر حينئذٍ عن الدخول الى ملطية لكنهم عادوا اليها سنة ١٢٤٣ وخربوها فرحل هرون واولاده الى انطاكية فسكنوها كما روى ابن العبري نفسه في كتابه تاريخ الدول (صفحة ٤٤١) واستأذن ابن العبري اباه بهجر العالم وانقطع الى التنسك والانفراد في مغارة بجبل انطاكية فاقام على ذلك سنة ثم خرج الى طرابلس الشام قاصدًا يعقوب احد مشاهير النساطرة الذي كان يدرس العلوم الادبية والرياضية والطبية فتتلمذ له وتعارف هناك بصليبا وجيه ابن يعقوب من ملته فاشتغلا مدة على العالم النسطوري وبرعا واستقدمهما اغناتيوس سابا بطريرك اليعاقبة ورقاهما الى درجة الاسقفية سنة ١٢٤٦ وجعل صليبا اسقفًا على اليعاقبة بعكا وابن العبري اسقفًا على جوباس (مدينة صغيرة من اعمال ملطية) الا انه لم يقم هناك سوى سنة واعتزل هرون اسقف لاقابين الاسقفية فنقل البطريرك اغناتيوس المذكور ابن العبري الى اسقفية لاقابين وهي في جوار جوباس واستمر في هذه الاسقفية خمس سنين ومات البطريرك اغناتيوس سابا سنة ١٢٥١ فكان في الملة اليعقوبية شقاق فاختار بعضهم خليفة له ديونيسيوس عنجور اسقف ملطية واختار آخرون المفريان يوحنا بن المعدني وكان ابن العبرى من مريدي ديونيسيوس واستمرَّ الشقاق الى سنة ١٢٦١ حين قتل ديونيسيوس وكان في كرسي حلب في تلك المدة باسيليوس صليبا (وهو صليبا وجيه رفيق ابن العبري في اطرابلس سمي بعد تسقفه باسيليوس) فرقاه ابن المعدني الى مقام المفريان وسمى اغناتيوس واقام خلفاً له في حلب متى الجومي فارسل ديونيسيوس البطريرك ابن العبري الى حلب فصار اسقفان لكرسي

واحد وسمع المفريان اغناتوس المذكور بذلك فقدم الى حلب واخذ يعاكس ابن العبرى واعتضد عليه بالملك الناصر صاحب حلب حتى اضطر ابن العبرى ان يتنزل الى بيت ابيه الذى كان قد نقل سكنه الى حلب ثم سار ابن العبرى الى السلطان في دمشق فاخذ براءة لديونيسيوس عنجور بطريركه وامرًا لصاحب حلب ليأخذ بناصر ابن العبرى فسلمه صاحب حلب كنيسة اليعاقبة في هذه المدينة فاستبد في رعاية ملته فخرج المفريان من حلب واتي فسكن اطرابلس متعاطياً فن الطب الى ان توفي سنة ١٢٥٨

ولما قتل ديونيسيوس البطريرك سنة ١٢٦١ كما مر ادى ابن العبرى فروض الطاعة الى يوحنا بن المعدني وحظي عنده وهم بترقيته الى مقام المفريان فعاجله الموت سنة ١٢٦٣ وانتخب مكانه يشوع رئيس دير الجويقات وسمي اغناتيوس وهو الثالث من بطاركتهم بهذا الاسم فرقى ابن العبرى الى مقام المفريان سنة ١٢٦٤ وهذه الكلمة سريانية معناها المثمر او المصدر اشارة الى ما يصدره من الثمار الروحية فلما انتشرت شيعة اليعاقبة في المشرق وكان بطاركتهم يقيمون بانطاكية رأوا انه لا بد لهم من نائب يقوم مقامهم في العراق والجزيرة فاوجدوا رتبة مفريان وهي بمعنى الجاثليق او الكاثوليكس اى الاسقف العام او كبير الاساقفة وقد ذكر ابن العبرى ترقيته الى رتبة مفريان المشرق في القسم الثاني من تاريخه السرياني صفحة ٣٣٥ ثم ذكر في القسم الرابع من هذا التاريخ ما عمله وما كان من الاحداث وهو مفريان من سنة ١٢٦٤ الى سنة ١٢٨٦ التي توفي بها وقد نقل السمعاني في مكتبته الشرقية (مجلد ٢ صفحة ٢٤٨ الى ٢٦٤) كلام هذا المفريان في القسم الرابع المذكور ولخص ذلك الاب شيخو اليسوعي في ترجمته ابن العبرى التي نشرها في المجلة المشرق في سنة ١٨٩٨ الا انه وقع غلط من منظمي الحروف المطبعية فذكروا ان ترقية ابن العبرى الى رتبة مفريان كانت سنة ١٢٧٤ والمؤلف يريد ان يقول سنة ١٢٦٤ وقد

روى خبر وفاة ابن العبري اخوه برصوما وعدد مؤلفاته ونقل ذلك العلامة السمعاني في المحل المذكور من مكتبته الشرقية من صفحة ٢٦٤ الى ٢٧٤ فكان عدد مؤلفاته التي ذكرها اخوه واحدًا وثلاثين مؤلفاً وقال السمعاني انه فاته ان يذكر لاخيه ثلثة كتب ايضاً

فنذكر اخص هذه الكتب فاولها كتابه المعنون بالسريانية ܐܘܨܪ ܐܪ̈ܙܐ وبالعربية كنز الاسرار قال العلامة السمعاني (في كلامه على هذا الكتاب صفحة ٢٧٧ من المجلد ٢) كانت نسخة منه معارضة بنسخة بخط المؤلف في مدرسة الموارنة برومة وهذا الكتاب يشتمل على تفسير الاسفار المقدسة واعتمد فيه على الترجمة السريانية المعروفة بالبسيطة منبهاً الى ما بينها وبين غيرها من النصوص والترجمات من اختلاف الروايات كالعبرانية والسامرية والسبعينية وترجمتي اكويلا وسيماخوس وروايات اوريجانس وعن الاب لويس شيخو اليسوعي الذي كتب ترجمة هذا العلامة مطولة ان اقساماً كثيرة من هذا الكتاب قد طبعها كثيرون من علماء اوروبا الثاني كتابه الموسوم بمنارة الاقداس وبالسريانية ܡܢܪܬ ܩܘܕ̈ܫܐ قال العلامة السمعاني في المحل المذكور ان منه نسخة بالعربية في مكتبة بريس الملكية ومنه بالسريانية نسختان احداهما في المكتبة المادينشية والثانية في المكتبة الواتيكانية وهو في اللاهوت ترجمه الى العربية دانيال بن الخطاب (كتبه الاب شيخو بالخاء ورواه السمعاني بالحاء) اليعقوبي من المعاصرين للمؤلف وعربه بعده الشماس سركيس بن يوحنا الدمشقي وقال الاب شيخو ان في مكتبة الاباء اليسوعيين نسخة منه اخذت عن نسخة في دير الشرفة

الثالث كتاب الاشعة وبالسريانية ܟܬܒܐ ܕܙܠܝ̈ܓܐ وهو في اللاهوت ايضاً مقسوم الى عشرة اقسام الاول في ما خلقه الله في الايام الستة والثاني في الله الوحيد الذات المثلث الاقانيم والثالث في التجسد الخ ومما قاله في هذا القسم

« فيقول لك الماروني من الضرورة ان يكون للاهوت طبيعة فان كانت الطبيعة الواحدة التي تقرُّ انها في المسيح طبيعة اللاهوت فاين هي طبيعة الناسوت » وقال العلامة السمعاني باثر ذكره هذا الكلام (مج ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٩٨) « هذا يؤيد ما ذكرته مرارًا ان اتهام البعض للموارنة ببدعة الطبيعة الواحدة هو كاذب وباطل والحق بذلك حاشية قال فيها ان النسخة التي لدينا من كتاب ابن العبري هذا كان مكتوبًا فيها الخلكيدوني مكان الماروني فضرب عليها كاتب هذه النسخة وكتب مكانها الماروني وعلق على هامش الكتاب حاشية قال فيها « هكذا وُجِدَ بخط هذا العلامة (اي ابن العبري) بيده » اي انه اعاد الكلمة الى ما كانت عليه بخط المؤلف

والكتاب الرابع من كتب ابن العبري هو كتاب الهدايات وبالسريانية ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ جمع فيه القوانين البيعية ليكون دستورًا بيد الاساقفة وقسمه الى قسمين يشتمل الاول منهما على ما يختص بامور الكنيسة والثاني على ما يتعلق بالمؤمنين وضمنه اربعين بابًا ذكر السمعاني عنواناتها ومنه نسخة في المكتبة الماديشية ذكرها المطران اسطفان عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب الشرقية في هذه المكتبة في عدد ١١ من هذه الكتب صفحة ١٠١ وذكر ما في كل منها من الفصول وروى ان هذه النسخة خطت سنة ١٤٥٧ م وقد شرى نسخة منه لمكتبة الفاتيكان اندراوس اسكندر الماروني وقد افادنا الاب شيخو ان هذا الكتاب عربه دانيال بن الخطاب المار ذكره في حياة مؤلفه وان العلامة السمعاني الطائر الشهرة قد ترجمه الى اللاتينية فطبعت ترجمته في هذا العصر تولى طبعها الكردينال ماي الشهير

والكتاب الخامس كتاب الاداب وتهذيب الاخلاق وبالسريانية ܟܬܒܐ ܕܐܝܬܝܩܘܢ وهو مقسوم على ما روى السمعاني الى اربعة اقسام وفي كل منها عدة فصول ومنه نسخة في المكتبة الواتيكانية في جملة الكتب التي شراها اندراوس

اسكندر لهذه المكتبة وترجمه من اللغة السريانية الى العربية القس يوحنا بن الجرير الدمشقي كما يظهر من حاشية معلقة على هذا الكتاب خطت سنة ١٦٤٥ وعن الاب شيخو ان في مكتبة الاباء اليسوعيين في بيروت نسخة منه استنسخوها عن كتاب في دير الشرفة وظن الاب شيخو المذكور ان معربها ابن الخطاب المذكور

والكتاب السادس هو كتاب تاريخه السرياني المعنون بالسريانية ܡܟܬܒܢܘܬ ܙܒܢܐ بدأ فيه من خلق العالم الى ايامه وقسمه الى ثلثة اقسام القسم الاول في تاريخ الاباء والملوك روى فيه ما كان من الاحداث من ادم الى ملك الكلدان في ايام بختنصر ثم من ايام الكلدان الى ايام الماديين والفرس ثم من ايام هولاء الى ملك اسكندر الكبير والبطالسة ملوك مصر ثم روى اخبار الملوك الرومانيين في المغرب والمشرق الى ايام هرقل الملك ثم اخبار ما كان من ظهور الاسلام الى اجتياح التتر الذين يسميهم المغول اي الى سنة ١٦٠٠ لاسكندر وهي سنة ١٢٨٩ للميلاد وضمن ذلك في ٣٣٢ فصلاً

والقسم الثاني من هذا المؤلف ضمنه تاريخ بطاركة انطاكية واليعاقبة وقسمه الى جزئين عنون الاول سلسلة الاحبار العظام في العهد القديم وبدأ فيه من هرون حتى انتهى الى حنان في ايام المخلص والجزء الثاني عنونه تاريخ الكهنة العظام في العهد الجديد فتكلم في المقدمة في رياسة بطرس الرسول وفي الكراسي البطركية التي انشاها ثم اردف ذلك بسلسلة بطاركة انطاكية وما كان في عهد كل منهم مبتدئاً باوديوس خليفة بطرس في انطاكية الى افرام الامدي الذي كان يدبر كنيسة انطاكية لما طُرد منها ساويروس ولطخ مصر وسورية ببدعة الطبيعة الواحدة وقد اجاد كثيرًا بذكر هولاء البطاركة واستشهدنا مرارًا في تاريخنا هذا بكلامه عليهم ثم روى تاريخ بطاركة اليعاقبة بعد وفاة ساويروس ودقق فيه مبتدئاً من سرجيوس الذي راس امة اليعاقبة بعد وفاة ساويروس الى نمرود المسمى فيلوكسيسوس الذي

توفي سنة ١٥٩٦ لاسكندر وهي سنة ١٢٨٥ للميلاد ثم زاد بعضهم على تاريخه فاوصله الى نوح البقوفاوي اللبناني الذي رقي الى بطريركيتهم سنة ١٤٩٣ م وقد نقل السمعاني عن هذا القسم صفحات مطولة في بطاركة اليعاقبة وجثالقتهم في مكتبته الشرقية ثم اهتم السيدان الفاضلان المستشرقان ابالوس ولامي بطبع هذا القسم مع ترجمته الى اللاتينية وتذييلها بحواش كثيرة الفائدة وذلك سنة ١٨٧٢ وسنة ١٨٧٣ في لوفان (بلجيكا) وقد اتم السيد لامي جداول البطاركة والجثالقة الى زماننا مع ذكر بطاركة النساطرة بعد زمان ابن العبري وختمه بملخص تاريخ بطاركة الكلدان الكاثوليكيين من عهد يوحنا سلاوقا وفي مكتبة مدرستنا مدرسة الحكمة نسخة من كتاب اباولوس ولامي هذا وقد استشهدنا بكلامهما مرارًا

والقسم الثالث من تاريخ ابن العبري ضمنه تاريخ الجثالقة والبطاركة ومفريانات المشرق عند الكلدان الكاثوليكيين وغير الكاثوليكيين اي النساطرة واليعاقبة من توما الرسول وتلميذيه ادى وماري الى يهب الله الذي راس امة النساطرة سنة ١٥٩٣ لاسكندر وهي سنة ١٢٨٢ ومن ماروثا المفريان الاول لليعاقبة الذي رقي الى هذا المقام سنة ٦٢٨ م الى سنة ١٢٨٦ التي توفي بها ابن العبري مفريانهم وزاد بعضهم على تاريخ هولاء ذكر خلفائهم الى سنة ١٨٠٧ لاسكندر التي هي سنة ١٤٩٦ للميلاد قال العلامة السمعاني ان كتاب ابن العبري هذا اكثر افادة من جميع كتبه ولا سيما قسماه الثاني والثالث لانه ابان فيهما بيانًا جليًا تاريخ النساطرة واليعاقبة اليبي وكان اليونان واللاتين لا يعرفون منه شيئًا وليس القسم الاول من هذا الكتاب وهو الآتي ذكره اقل نفعًا من القسمين المذكورين

ثم ان القسم الاول من تاريخ ابن العبري السرياني المذكور قد ترجمه مؤلفه نفسه الى اللغة العربية وسماه مختصر تاريخ الدول وزاد عليه عدة افادات نقلها عن مشاهير مؤرخي العرب كالطبري وابن الاثير وقد طبع اصله السرياني مع ترجمته

الى اللاتينية سنة ١٧٨٩ على ان هذه الطبعة وجدها العلماء مشوهة بكثير من الخطا وقد جدد طبعه بدقة واتقان الاب بدجان العازاري الكلداني اصلاً سنة ١٨٩٠ واما ترجمته العربية فقد طبعها اولاً موجزة العالم ادوار بوكوك مع ترجمته لها الى اللاتينية معنونة مختصر تاريخ العرب لابن العبري في اكسفرد سنة ١٦٥٠ ثم طبع الكتاب كاملاً بالعربية واللاتينية سنة ١٦٦٣ في المدينة المذكورة ثم ترجم هذا الكتاب الى الالمانية وطبع سنة ١٧٨٣ ثم طبع الاب صالحاني اليسوعي النسخة العربية وحدها في مطبعة اليسوعيين ببيروت من عهدٍ قريب وطبعته اكمل واحسن من باقي طبعاته

ولابن العبري في الفلسفة كتابه الموسوم بزبدة الحكمة وبالسريانية ܚܐܘܬ ܚܟܡܬܐ وسماه بعضهم حكمة الحكم وقسمه الى قسمين ضمن الاول ترجمة فلسفة ارسطو وشرح في الثاني ما يختص بعلم الطبيعة كالعالم والسماء والمعادن والنبات والحيوان ثم علم ما وراء الطبيعة كاصول الفلسفة والعلم بالخالق والادبيات الخ ثم اختصر هذا المؤلف وسماه تجارة التجارات وبالسريانية ܬܐܓܪܬ ܬܐܓܪܬܐ وقد ذكره المطران اسطفانوس عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المادينشية وفصل ما اشتمل عليه من المقالات والفصول وقال ان الكتاب الموجود بالمكتبة المذكورة خطه سنة ١٣٤٠ الكاهن نجم وعليه تعليقات عربية على الهامش كتبها دانيال الربان اي العالم او الملفان الذي كان الكتاب ملكاً له

وله ايضاً كتاب في النفس البشرية كتبه بالعربية ونشره الاب شيخو في آخر ترجمته المعلقة في مجلة المشرق وله ايضاً ترجمة كتابين في الفلسفة احدهما كتاب الاشارات والتنبيهات لابن سينا سماه ܟܬܒܐ ܕܪܡܙܐ ܘܡܥܝܪܢܘܬܐ والثاني كتاب زبدة الاسرار لاثير الدين الابهري احد معاصريه الذي توفي سنة ١٢٦٢ وفي ديوانه عدة قصائد فلسفية

وله في الرياضيات حل كتاب اقليدس في الهندسة وله كتاب في علم الهيئة اي الفلك سماه بالسريانية ܟܬܒܐ ܕܣܘܠܩܐ ܗܘܢܝܐ اي كتاب الارتفاع العقلي وله كتاب في تفسير المجوسطي لبطليموس وهو في النجوم وحركات الافلاك وكتاب في استخلاص التقويم السنوي وتعيين الاعياد المتنقلة ليسهل به معرفة الاعياد المذكورة وله في الطب شرح فصول ابقراط فاق به من تقدمه بشرحه لكنه مفقود لم نهتدِ اليه الا بذكر اخيه برصوما له في جملة مصنفاته وله ايضاً بهذا الفن شرح كتاب حنين بن اسحق المتطبب النصراني المشهور وعاجله الموت قبل ان ينجز هذا الكتاب وترجم الى السريانية كتاب ديوسقريدس اليوناني في المفردات الطبية وكتاب القانون للشيخ الرئيس ابن سينا في الطب

وله في اللغة السريانية ܟܬܒܐ ܕܙܠܝܩܐ اي كتاب الاشعة او اللمع ضمنه كل ابواب النحو في اللغة السريانية على انه سلك به مسلك العرب في نحو لغتهم وحذا خاصةً حذو الزمخشري في كتابه المفصل وقد طبع هذا الكتاب الاب مرتين المستشرق الافرنسي بباريس سنة ١٨٧٢ على مطبعة حجرية وقلما تخلو مدرسة من مدارس طائفتنا من هذا الكتاب وله كتاب اخر في نحو هذه اللغة مقتطف من كتابه السابق ومعقود بالشعر بالوزن الافرامي وعندي نسخة منه نسختها لنفسي بمدة تعلمي بمدرسة عين ورقة وله قصيدة تزيد على ست مئة بيت مرتبة على احرف المعجم جمع فيها الالفاظ المتشابهة بالحروف في اللغة السريانية على طريقة الجناس اللفظي في علم البديع بالعربية والحق بها تفسيرًا لتلك الالفاظ وله ديوان شعر سرياني طبع برومة سنة ١٨٧٧ حاوياً ثمانين قصيدة وقد وقف على طبعه الاب اغوسطينوس الشبابي الراهب الحلبي اللبناني الماروني وله قصائد اخرى كثيرة لم تطبع بهذا الكتاب ومن المشهور من شعره قصيدته في الحكمة الالهية على طريقة الصوفيين تغزل بها بالكمالات الالهية كعمر بن الفارض مشبهاً اياها

فتاة بهية المنظر فريدة الخصال استهلها بقوله

ܦܘܠܐ ܚܡ ܕܟܠܟܠܐ ܠܟܠܡܐ ܘܡܥܝ ܠܥܘܡܐ ܐܡܥ وقد طبعها العلامة جبرائيل الصهيوني الماروني بباريس سنة ١٦٢٦ ثم جدد طبعها القس يوحنا نطين الراهب الحلبي اللبناني الماروني برومة سنة ١٨٨٠ وشرحها بالعربية ونظمها بالشعر الغزلي احد شعراء هذه الايام فمطلعها

بدت تجلو بعالمنا سناها ⁂ فنور الشمس يخجل من ضياها

فتاة راق منظرها ورقت ⁂ سهام ارسلتها مقلتاها

بتول كاعب ام عجوز ⁂ صفاتٌ ليسْ يجمعها سواها

وله ايضاً نافور اى رتبة قداس ذكره له الاهدني في المنائر العشر والسمعاني في المكتبة الشرقية الى غير ذلك من الكتب التي عني بتأليفها هذا النابغة في عصره وقد أخذ العلماء على ابن العبري اغلاطاً كثيرة عدا متابعته على بدعة الطبيعة الواحدة في المخلص في عقائد الايمان ونقتصر على ذكر ضلالين له الاول زعمه في كتابه منارة الاقداس ان الروح القدس ينبثق من الاب دون الابن وهذا مخالف لمعتقد امته ايضاً والثاني ضلاله الذى صرح به في قانون الايمان الذى كتبه بقوله ان في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحدًا وهذا بدعة المونوتوليتين ونعذره بهذا الضلال لانه نتيجة لازمة من مقدمات اعتقاد اليعاقبة بان في المسيح طبيعة واحدة فمن قال بطبيعة واحدة لزمه ضرورة ان يقول بمشيئة واحدة وفعل واحد لكننا لانعذر من يعلم ان علماء اليعاقبة وابن العبرى نفسه يسمون مذهب الموارنة بدعة ومع ذلك يتهمونهم ببدعة المشيئة الواحدة التي لا تفترق الا بالاسم عن تعليم اليعاقبة انتهى ملخصاً عن العلامة السمعاني في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية وعن الاب شيخو اليسوعي في ترجمة ابن العبرى المثبتة في مجلة المشرق

عـد ٨٩١

في ابن العسال ويعقوب اسقف تكريت ويوحنا ابن المعدني

اما ابن العسال فهو ابو اسحق المصري موطناً اليعقوبي مذهباً قال في حقه المطران اسطفانس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية اشتهر شهرة كبرى بعلمه في القرن الثالث عشر حتى كناه النصارى الشرقيون ابا الفضائل وله كتاب جمع فيه قوانين الكنيسة وقسمه الى قسمين وعلق عليه مقدمة ذكر فيها الكتب التي اخذ عنها وهي اسفار العهدين القديم والحديث وقوانين الرسل والقوانين المعزوة الى اكليمنضس الحبر الروماني ومجمع انقوره ومجمع انطاكية وغيرهما من المجامع وضمن القسم الاول اثنين وعشرين فصلاً واشتمل القسم الثاني على ثلثين فصلاً وله كتاب في تفسير الاسفار المقدسة عنونه مجموع اسس الدين وهو كثير الفائدة ابان فيه صحة الدين المسيحي ورد فيه على الوثنيين واليهود وزيف اقوال الفلاسفة غير المسيحيين واثبت بادلة جلية سري التثليث والتجسد وسائر اسرار الدين المسيحي التي تتفق عليها ملل النصارى وزعم رينودوسيوس في كتابه تاريخ بطاركة الاسكندرية ان كتاب مجموع اسس الدين ليس لابن العسال صاحب كتاب مجموع قوانين الكنيسة بل لاخ له لكن زعم رينودوسيوس هذا غير صحيح لان جميع نسخ الكتابين التي في المكاتب الشهيرة ولا سيما المكتبة الواتيكانية تراها باسم ابي اسحق ابن العسال ابي الفضائل وقد شهد ابن العسال المجمع الذي عقده كيرلس لقلق بطريرك اليعاقبة في الاسكندرية سنة ١٢٣٩ وادخل قوانينه في مجموعته فظهر من ذلك انه توفي بعد هذا المجمع

يعقوب اسقف تكريت

كان راهباً في دير القديس متى القريب من نينوى ثم رقي الى اسقفية تكريت واشتهر سنة ١٢٣٠ وله من التآليف كتاب سماه كتاب الكنوز وقسمه الى اربعة

اربعة اقسام تكلم في الاول منها على الله الواحد الذات المثلث الاقانيم في ثلثةعشر فصلاً وفي الثاني على تجسد المخلص وقسمه الى واحد واربعين فصلاً وفي الثالث على عناية الله وضمنه احد عشر فصلاً وفي الرابع على خلق العالم والملائكة والنفس وقيامة الموتى والدينونة وجعل فيه اربعين فصلاً وهو يعقوبي المذهب وله كتاب اخر في شرح الفروض الالهية وتفسير الرتب والصلوات وله كتاب آخر في دستور الايمان

واما يوحنا ابن المعدني الذي اشرنا اليه في ترجمة ابن العبري فكان من بلدة اسمها معدن في الجزيرة وصير اولاً اسقفاً لماردين على اليعاقبة ثم رقي سنة ١٢٤٩ الى رتبة مفريان ولما توفي اغناتيوس سابا بطريركهم سنة ١٢٥١ انتخب بعض اساقفتهم ديونيسيوس عنجور بطريركاً فجمع ابن المعدني الاساقفة المخالفين لديونيسيوس في حلب فانتخبوه بطريركاً سنة ١٢٥٢ وبقي البطريركان معاً الى سنة ١٢٦١ حين قتل ديونيسيوس فاستبد ابن المعدني بالبطريركية ثم توفي سنة ١٢٦٣ ذكر كل ذلك ابن العبري في تاريخه السرياني ولابن المعدني من المؤلفات نافور ذكره الدويهي في كلامه على مؤلفي النوافير غير الكاثوليكية عد ٧ حيث قال . ܘܝܘܚܢܢ ܒܪ ܡܥܕܢܝܐ (يوحنا ابن المعدني) له نافور بدؤه ܐܠܗܐ ܕܡܬܩܪܐ ܠܐܒܐ ܐܝܬܝܐ ܩܕܡܝܐ اي ايها الاله الاب الازلي السرمدي الكائن ضرورة وترجم رينودوسيوس هذا النافور في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجات صفحة ٥٢٤ وقال لا نعلم من هو يوحنا هذا ولا في اي زمان كان فكل ما نعلمه انما هو انه كان بطريركاً على اليعاقبة فان تاريخ بطاركة اليعاقبة على انطاكية غامض جداً قال العلامة السمعاني عند ذكره ذلك (في المكتبة الشرقية مج ٢ صفحة ٢٤٣) انما الفضل للحبر الروماني اكليمنضوس الحادي عشر الكلي القداسة فبامره وعنايته جمعت في المكتبة الواتيكانية الكتب الوافرة العدد بلغات جميع الشرقيين فظهرت حقائق تواريخ

جميع هذه الملل •

ولابن المعدني مقالة في النفس منظومة في عدة قصائد تضمنها الكتاب الخامس من الكتب السريانية التي جابها اندراوس اسكندر الماروني الى المكتبة الواتيكانية وله ايضاً اثنان وعشرون خطبة باللغة العربية قد خطت بالاحرف السريانية كتبها سنة ١٥٠٥ نوح البقوفاوي اللبناني الذي صير بعدًا بطريركاً على اليعاقبة وهي مثبتة في الكتاب ٣٠ من كتب اندراوس اسكندر المذكور في المكتبة الواتيكانية واولى هذه الخطب في ميلاد الرب والثانية في ظهوره للعالم الخ انتهى ملخصاً عن ترجمتي يعقوب اسقف تكريت ويوحنا ابن المعدني في المكتبة الشرقية مجلد ٢

﴿ عــد ٨٩٢ ﴾

في بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن

انا جرياً على مساق تاريخنا ورغبة في زيادة الفوائد نخص بالذكر من مشاهير الغرب في هذا القرن من تساموا بالقداسة والعلم وطبق ذكرهم الآفاق وهم القديسون العظام البرتس الكبير وشمس المدارس توما الاكويني وبوناونتورا ونذكر ترجماتهم بما يمكن من الايجاز لانها خارجة عن دائرة عرضنا

﴿ القديس البرتس الكبير ﴾

ولد هذا القديس سنة ١١٩٣ في مدينة لوينجان من بفيارا وتخرج بالعلوم في بادوا وانضوى الى رهبانية القديس عبد الاحد سنة ١٢٢٢ وصير رئيساً اقليمياً فيها سنة ١٢٤٥ وعلم العلوم المقدسة في كولونيا وعظمت شهرته حتى لقب بالكبير وهو حي واستحق هذا اللقب لسامي علمه وعظمة قداسته ثم انتقل الى بريس يعلم فيها فتقاطر الطلبة اليه حتى لم تعد تسعهم قاعة فصار يعلم في ساحة فسيحة وقد رقاه البابا اسكندر الرابع الى اسقفية راتيسبون سنة ١٢٥٩ فلم يقبلها الا مكرهاً بامر الطاعة واعتزلها بعد سنين مستعفياً من هذا الحمل الثقيل وعاد الى كولونيا باذلاً

همه في تدبير المدارس اللاهوتية وتوفي سنة ١٢٨٠ وعمره سبع وثمانون سنة وله كثير من المؤلفات منها ثمانية مجلدات في تفسير علم الطبيعيات ومقالة في الكيمياء وهو الذي اوجد الاكسيد نتريك وقد طبعت مولفاته في لايد سنة ١٦٥١ فكانت احد وعشرين مجلدًا

﴿ القديس توما الاكويني ﴾

هو اللاهوتي الشهير والفيلسوف المبرز ولد سنة ١٢٢٧ وقيل سنة ١٢٢٥ بالقصر المعروف بقصر رُوكّا ساكا في مملكة نابولي من اسرة شريفة تعرف بكنت اكوين ودخل رهبانية القديس عبد الاحد جبرًا على مقاومة آله فآثر التفرغ للعلم واكتساب الفضيلة على مرضاة ذويه واشتغل في العلم على البرتوس الكبير المار ذكره في كولونيا ثم لحق باستاذه الى بريس ونولته كلية هذه العاصمة لقب دوكتور اي ملفان سنة ١٢٥٥ وانكب على الوعظ والتعليم فنبغ في ذلك وعظمت شهرته واقر الجميع بسمو قدره وعلو مداركه وتلألات فضائله واحبه القديس لويس التاسع ملك افرنسة وكان يدعوه متواترًا الى مائدته واحب الاحبار الاعظمون اينوشنسيوس الرابع واكليمنضوس الرابع وغريغوريوس العاشر ان يرقوه الى المراتب الرفيعة في الكنيسة فأبى كل مرتبة واكتفى ان يلقب في رهبانيته بمدبر او معلم وكان اعلم اهل عصره واعظم لاهوتي وفيلسوف في ايامه فاكسبه ذلك القاباً مشرفة كالملفان العام والمعلم الملكي وشمس المدارس وملاك العلم حتى استحق ان يُحصيه البابا بيوس الخامس في مصاف اباء الكنيسة وجهابذتها وقد صرف العشرين سنة الاخيرة من عمره في التعليم والتصنيف والوعظ والصلوة حتى قال فيه البابا يوحنا الثاني والعشرون في براءة تثبيت قداسته « انه لم يصرف ساعة من زمانه بغير عمل من اعماله المبرورة ولا يستثنى من ذلك الا ساعات رقاده او ما تضطره الطبيعة اليه » وقد ارسله روساؤه سنة ١٢٧٢ الى نابولي ليعلم فيها اللاهوت واستدعاه البابا غريغوريوس العاشر الى

المجمع المسكوني الذي كان قد عزم على عقده في ليون فلبى الدعوة وساد فرض في الطريق ومضى الى لقاء ربه لينال اكليل جهاده في ٧ اذار سنة ١٢٧٤ وهو في بدء الخمسين من عمره او الثامنة والاربعين منه بحسب الاختلاف في سنة مولده واحصاه البابا يوحنا الثاني والعشرون في مصاف القديسين سنة ١٣٢٣ وتعيد الكنيسة لذكره كاعاظم ملافنتها في اليوم السابع من اذار في الكنيسة اللاتينية وفي ٣ منه في كنيستنا المارونية

واما مؤلفاته فهي كثيرة واخصها خلاصة الايمان الكاثوليكي رداً على الوثنيين والخلاصة اللاهوتية الشهيرة التي شرح بها المباحث اللاهوتية والفلسفية والادبية بطريقة القياس المنطقية وله ايضاً شرح كتاب ارسطو الفلسفي وتفسير الاسفار المقدسة وشرح لكتاب اللمبردي الملقب بعلم الاراء وله خطب ومباحث ومقالات حتى اشعار ادخلت الكنيسة بعضها في رتبها وفروضها وقد طبعت مؤلفاته في رومة سنة ١٥٧٠ وسنة ١٥٧١ في ثمانية عشر مجلدًا ثم طبعت في بريس سنة ١٦٣٦ الى سنة ١٦٤١ في ثلثة وعشرين مجلدًا ثم طبعت في البندقية سنة ١٧٤٥ في عشرين مجلدًا ثم في برم بصقلية سنة ١٨٥٧ وما يليها في اربعة وعشرين مجلدًا وقد ترجمت الخلاصة اللاهوتية احد مؤلفاته الى اللغة الافرنسية عدة ترجمات وترجمت الى العربية ومن هذه الترجمة نسخة مخطوطة بمكتبة اسقفية طائفتنا في حلب ويعنى الآن السيد العالم العامل المطران بولس عواد النائب البطريركي بترجمتها الى العربية واكمل الى الآن من ترجمته اربعة مجلدات وهي اصح كثيرا من الترجمة العربية المذكورة

القديس بوناونتورا

وُلِدَ بانيا ريا (توسكانا من اعمال ايطاليا) سنة ١٢٢١ وانضوى الى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٢٤٣ وعلم الفلسفة واللاهوت في كلية بريس سنة ١٢٥٣

ونال فيها مرتبة ملفان سنة ١٢٥٥ ثم اقيم رئيساً عاماً على رهبانيته سنة ١٢٥٦ وكان محبوباً موقرًا من كل احد وحائزًا ثقة الجمهور وكفاه بينة على ذلك ان الكرادلة اتفقوا بعد وفاة البابا اكليمنضوس الرابع على ان يختاروا خليفة له من يعينه لهم بوناونتورا فسمى لهم الكردينال تهيبو فانتخبوه وسمي غريغوريوس العاشر فرفعه هذا الحبر الروماني الى مقام الكردينالية مكافاة له سنة ١٢٧٣ وكان حار العبادة لوالدة الله وبذل قصارى جهده في نشر عبادتها وقد دعاه البابا غريغوريوس العاشر الى مجمع ليون العام واجلسه في المحل الاول بعده فتوفي في هذا المجمع سنة ١٢٧٤ وله مؤلفات كثيرة منها شرح كتاب الاقتداء بالمسيح وشرح على كتاب الارآء ابطرس اللمبردي وكتاب تأملات بحياة المسيح ترجم الى الافرنسية عدة ترجمات وكتاب تفسير للاسفار المقدسة وعدة كتب لارشاد الشعب وتثقيفه سماها كتاب الفقرآء وله عدة ترانيم روحية مشهورة وجميع كتبه موعبة بعواطف التقوى العميقة حتى اكسبته لقب المعلم الساروفيمي وقد طبعت كتبه برومة سنة ١٥٨٦ الى سنة ١٥٩٦ في ثمانية مجلدات ثم طبعت بباريس سنة ١٨٦٦ في اربعة عشر مجلدًا واحصاه البابا سيستوس الرابع الى مصاف القديسين سنة ١٤٨٢ ثم رتبه البابا سيستوس الخامس في سلك ملافنة الكنيسة وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ١٤ حزيران والكنيسة المارونية في ١٤ تموز



ملحق

﴿ في تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر ﴾

﴿ عـد ٨٩٣ ﴾

﴿ في فتح المسلمين جبة بشري ﴾

قال البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ سنة ١٢٨٣ « قد وقفنا على كتابين للصلاة كتب احدهما سنة ١٥٩٤ لاسكندر (الموافقة لسنة ١٢٨٣ للميلاد) في قطين الرواديف في ارض الحدث بقرب دير القديس يوحنا بدير مار ابون الذي كان الاسقف ابراهيم الحدثي مقيماً به والثاني كتب بعد الاول بمئتين واحدى وعشرين سنة اي سنة ١٨١٥ لاسكندر وهي سنة ١٥٠٤ وقد كتب في كلا الكتابين انه في شهر ايار سارت العساكر الاسلامية الى فتح جبة بشراي وصعدت الى وادي حيرونا شرقي اطرابلس وحاصروا قرية اهدن حصارًا شديدًا وملكوها بعد اربعين يوماً في شهر حزيران وسلبوا ما وجدوا فيها وخربوا القلعة التي كانت في وسطها والحصن الذي على راس الجبل (ان هناك الآن كنيسة تسمى سيدة الحصن) ثم انتقلوا الى بقوفا ففتحوها في شهر تموز وقبضوا على اكابرها واحرقوهم بالبيوت ودكوها الى الارض واكثروا من النهب والسلب وبعد ان اعملوا السيوف باهل حصرون وكفرسارون وذبحوهم في الكنيسة زحفوا في ٢٢ آب الى الحدث فهرب اهلها الى العاصي وهي مغارة منيعة فيها صهريج ماء فقتلوا من ادركوه وخربوا الحدث وبنوا برجاً قبالة المغارة وابقوا حامية من العسكر ثم هدموا جميع الاماكن الحصينة ولم يستطيعوا سبيلاً الى فتح قلعة حوقا التي قبالة الحدث فاشار عليهم ابن

الصبحا من كفرسقاب ان يجروا اليها الماء الذي فوق بشراي ففعلوا وملكوها بقوة الماء لانها كانت داخل الصخر واذنوا لابن الصبحا ان يلبس عمامة بيضاء وان تقوم العبيد بخدمته ولما تراجع العسكر ندم ابن الصبحا على ما كان منه وبنى دير سيدة حوقا لسكن الرهبان وهو بالقرب من البرج الذي كان في الصخر. لا نشك في صحة هذه الرواية لان الدويهي خير ثقة وقد صرح بانه نقلها عن كتاب خط تلك السنة اي سنة ١٢٨٣ التي كانت فيها هذه النكبة فيظن ان الاسقف ابراهيم الحدثي الذي كان يسكن دير مار ابون هو الذي كتب خبر هذه الحادثة باثر وقوعها على كتاب الصلوة طبق عادة اسلافنا التي نعلم لها امثالاً كثيرة ويويد ذلك تفصيل الخبر وتعيين الاماكن على ما نعلمها الآن مع الايام التي فتحت بها كل قرية وقد جاء في كتاب الغرر الحسان خبر هذه الواقعة كما ذكرناه الا بناء ابن الصبحا دير حوقا ولم ياتِ ذكر بشراي في هذا الفتح مع انها واقعة بين بقوفا وحصرون فلا يخلو اهمال ذكرها من احد امرين اما انها لم تكن ذات اهمية حينئذٍ اما ان المسلمين نكبوا عنها لانها كانت منيعة كثيرة السكان والاظهر عندنا الثاني لاننا نعلم انها كانت قبل هذه النكبة وبعدها ماهولة بخلق كثير وينسب العمل كله اليها وكان فيها مقدمون اصحاب بطش وصولة كما سترى فالاولى ان نقول ان المسلمين نكبوا حينئذٍ عنها على ان فتح هذه البلاد حينئذٍ لم يكن الا غزوة عابرة على عادة تلك الايام ولم يتوطن المسلمون فيها بل قصدوا التنكيل باهلها ربما لانهم نجدوا الفرنج في حروب المسلمين الاخيرة لهم كما يظهر من اخبار حربهم الاتي ذكرها مع اهل كسروان ونرى بقوفا واهدن والحدث بعد مدة وجيزة عامرة ماهولة بالنصارى الموارنة

عـد ٨٩٤

في حروب كسروان

الحرب الاولى كانت في اواخر القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر نروي اخبار هذه الحروب عن المؤرخين المسلمين اولاً ثم نردفها باخبار المؤرخين النصارى جاء في كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحيي الذي نشره الاب لويس شيخو اليسوعي في المجلة العربية الموسومة بالمشرق قال صالح « في شهر شعبان سنة ٦٩١هـ سنة ١٢٩٢ م توجه الامير بيدرا (من مماليك الملك المنصور قلاوون) قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجه بصحبته من الامراء الاكابر شمس الدين سنقر الاشقر والامير قراسنقر المنصوري والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي والامير بدر الدين العلائي وغيرهم واتاهم من جهة الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا والامير عز الدين ايبك الحموي وغيرهما والتقوا بالجبل وحضر الى الامير بيدرا من ثنى عزمه وكسر حزمه فحصل الفتور في امرهم حتى تمكن الكسروانيون في بعض العسكر في تلك الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع فيهم اهل تلك الجبال حتى اضطر الامير بيدرا ان يطيب قلوبهم ويحسن اليهم وخلع على جماعة من اكابرهم فاشتطوا في الطلب فاجابهم الى ما التمسوه من الافراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم وحصل للامراء والعسكر من الالم ما اوجب تسريح بعضهم لسؤ تدبير الامير بيدرا ونسبوه الى اهمال امرهم واتهموه بالفتور عن قتالهم حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه واشاعوا انه تبرطل منهم واخذ رشوة كبيرة واحتج الناس بذلك » هذا ما قاله صالح بن يحيي وذيله الاب شيخو بحاشية قال فيها « ورد خبر غزوة الامير بيدرا لكسروان في تاريخ المماليك للمقريزي وتفاصيله لا تختلف عما ذكره المؤلف هنا »

وقال صالح المذكور بعد ما مر . ثم توجه الامير بيدرا بالعساكر الى دمشق فتلقاه السلطان واقبل عليه وترجل عند ترجله للسلام عليه ولما انكر عليه سوء اعتماده وتفريطه في العسكر عمل كلام السلطان فيه حتى مرض لذلك وشيع الناس انه سقي السم ثم عوفي... وكان الذي اخبر السلطان ان بيدرا ارتشى من الكسروانيين بيبرس طقصوا فاسرّ بيدرا الامر في نفسه وتربص له ولما قبض السلطان على لاجين خاطب بيدرا السلطان في القبض على بيبرس طقصوا فقبض عليه مع لاجين لانه كان قد تزوج ابنته .

والذي رواه البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخه ان الكسروانيين والجرديين كانوا قد نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج عند حصار اطرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً فبرز امر حسام الدين لاجين نائب دمشق الى قراسنقر ان يجمع العساكر الشامية ويزحف بها لاستئصالهم واستشهد الدويهي ابن سباط فقال . قال ابن سباط وكتب ايضاً الى اثنين من امراء غرب بيروت جمال الدين حجي بن محمد التنوخي وزين الدين بن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة الى جهة الجرد وكسروان يتوجهان اليه بعساكرهما وان من نهب امرأة كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً ومن احضر منهم راساً فله دينار وان سنقر المذكور متوجه لاستئصال شأفتهم وسبي ذراريهم هذا ما رواه الاهدني في تاريخ سنة ١٢٨٧ ولا شك في انه مقدمة لما ذكره صالح ولم يعد يذكر حرباً في كسروان الا في سنة ١٣٠٢ انتصر بها الكسروانيون كما سياتي فنظن انه فاته العلم بما كان من الامر الذي ابرزه حسام الدين لاجين فلم يذكر الدويهي حرب سنة ٦٩١ هـ وسنة ١٢٩٢ م التي ذكرها صالح ابن يحيى وكان قايدها بيدرا نائب السلطان بالشام بل ذكر الحرب التي كانت سنة ١٣٠٢ ويؤيد حصول هذه الحرب قول صالح بن يحيى ان العساكر الشامية توجهت سنة ٧٠٥ هـ الى جبال

كسروان » وهي النوبة الثانية في ايام السلطان الملك الناصر محمد ابن المنصور »
فالحرب الاولى التي ذكرها سنة ٦٩١ كانت في ايام الملك الاشرف خليل بن
قلاوون لا في ايام الملك الناصر وحرب سنة ٧٠٥ هي النوبة الثانية في ايام الملك
الناصر الذي ولي الملك سنة ٦٩٣ ثم خلعه كتبغا سنة ٦٩٤ ثم رد اليه سنة ٦٩٨
وعهد حينئذٍ بنيابة السلطنة بالشام الى جمال الدين الافرم الاتي ذكره كما مرَّ في
تاريخنا هذا وهذا ما قاله الاهدني في هذه الحرب الثانية

« سنة ١٣٠٢ م (سنة ٧٠٢ هـ) نزل الفرنج على نهر الدامور ليلة الاربعا
ثامن جمادي الاوَّل فقتل هناك فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التوخي واسر
اخوه شمس الدين عبد الله فافتداه ناصر الدين الحسين بن خضر بثلاثة آلاف
دينار فرفعت الشكاوى الى نائب دمشق الافرم من الجرديين واهل كسروان
قال ابن الحريري انه في هذه السنة اجتمع النواب جمال الدين اقوش الافرم نائب
دمشق وسيف الدين استدمر نائب اطرابلس وشمس الدين سنقر المنصوري
وحشدوا جيوش الشام الى مقاتلة الجرديين واهل كسروان فاجتمع مقدمو الجبال
واستعدوا للقاء الجيش فهزموه وقتلوا كثيرين وغنموا غنيمة كبيرة قال الاسقف
جبرائيل ابن القلاعي ان الوقعة كانت عند مدينة جبيل وان المقدمين الذين نزلوا من
الجبال كانوا ثلاثين مقدماً والمشهورون منهم خالد مقدم مشمش وسنان واخوه
سليمان مقدما ايليج وسعادة وسركيس مقدما لحفد وعنتر مقدم العاقورة وبنيامين
مقدم حردين ورتبوا الفي مقاتل كمنوا على نهر الفيدار والفين على نهر المدفون
ثم انحدروا بثلاثين الف مقاتل لقتال الجيش فوقعوا بحمدان القائد على الطريق
منفردًا فقتلوه وحملوا على الجيش فهزموه واهلكوا اكثره وغنموا امتعتهم
وسلاحهم واخذوا اربعة الآف راس خيل من خيلهم وقدم الاكراد لنجدتهم
فصدهم المكمنون في الفيدار والمدفون فلم يخلص منهم الا القليل وقتل من الامراء

التنوخية (اصحاب غرب بيروت) نجم الدين محمد واخوه شهاب الدين احمد ولدا جمال الدين حجى ثم غزا الجرديون بلادهم واحرقوا منها عين صوفر وشلمك وعين زوينة وبحطوش وغيرها من بلاد الغرب وقتل (في وقعة جبيل) من المقدمين بنيامين مقدم حردين ودفنوه عند باب الاركان في جبيل ثم صعدوا الى معاد واقتسموا الغنائم •

اما الحرب الثالثة فاليك ما قاله فيها صالح ابن يحيي « ومما نقلناه عن النويري والصلاح الكتبي في فتوح كسروان ما رويا من جملة حوادث سنة ٧٠٥ ﻫ (سنة ١٣٠٥ م) وذكرا توجه العساكر الشامية الى جبال كسروان وابادة اهلها وتمهيدها وهي النوبة الثانية في ايام السلطان الملك الناصر محمد بن المنصور فقالا « كان اهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وتطاولوا الى اذى العسكر عند انهزامه من التتر في سنة ٦٩٩ ﻫ (سنة ١٣٠٠ م) واغضى السلطان عنهم وتمادى في عقابهم فزاد طغيانهم واظهروا الخروج من الطاعة (ربما اشارا بهذا الى ما ذكرناه من الحرب الثانية) واعتزلوا بجبالهم المنيعة ووثقوا بجموعهم الكثيرة وعللوا النفس بانه لا يمكن الوصول اليهم » انتهى ما نقله صالح عن النويري والصلاح الكتبي

ثم اخذ صالح في تفصيل الخبر فقال « ففي ذي الحجة سنة ٧٠٤ ﻫ (سنة ١٣٠٤ م) جهز جمال الدين آقش الافرم نائب الشام زين الدين عدنان ثم توجه بعده تقي الدين قراقوش وتجدثا معهم في الرجوع الى الطاعة فابوا فامر عند ذلك بتجريد العساكر اليهم من كل جهة ومن كل مملكة من ممالك الشام وتوجه آقش الافرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الاثنين الثاني من محرم سنة ٧٠٥ ﻫ (سنة ١٣٠٥ م) وجمع جمعاً كثيرًا من الرجالة نحو خمسين الفاً وتوجهوا الى جبال الكسروانيين والجرديين وتوجه سيف الدين اسندمر نائب اطرابلس وشمس الدين سنقر جاه المنصوري نائب صفد وطلع اسندمر المذكور من جهة اطرابلس وكان

قد نسب اليه مباطنتهم فجرد العزم واراد ان يفعل في هذا الامر ما ينفي عنه هذه التهمة فطلع الى جبل كسروان من اصعب مسالكه واجتمعت على اهله العساكر واحتوت على جبالهم ووطئت ارضاً لم يكن سكانها يظنون احدًا يطأها وقطعت كرومهم واخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرقوا في البلاد واستخدم اسندمر جماعة منهم في اطرابلس بجامكية وجازاهم من الاموال الديوانية فاقاموا على ذلك سنين واقطع بعضهم املاكاً . انتهى كلام صالح بن يحيى

وهذا ما جاء في تاريخ البطريرك اسطفانوس الدويهي . في سنة ١٣٠٤ م (سنة ٧٠٤ هـ) ارسل اقوش الافرم نائب دمشق الى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين بن عدنان يامرهم ان يصلحوا شؤونهم مع التوخية ويدخلوا في طاعتهم ثم ارسل اليهم تقي الدين بن التيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش (تامل المطابقة بين الدويهي وصالح باسماء هولاء المنذرين) فلم يحصل اتفاق فافتى العلماء حينئذٍ بنهب بلادهم لاستمرارهم على العصيان ولذلك جردت العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل الجموع تزداد من كل ناحية الى سلخ (آخر) هذه السنة

وسنة ١٣٠٧ م (سنة ٧٠٧ هـ) نرى هنا زلة قلم من الناسخ بتعيين هذه السنة والصواب سنة ٧٠٥ لانه اذ كان اقوش امر بجمع العساكر واجتمعت سنة ٧٠٤ الى اخرها فلا يظن انه اخر مسيره الى سنة ٧٠٧ بل سار في اول سنة ٧٠٥ وقد اتفق كلاما صالح والدويهي على تعيين يوم الاثنين ثاني محرم) ذكر ابن الحريري وابن سباط انه في يوم الاثنين ثاني محرم سار اقوش الافرم نائب دمشق بخمسين الفاً بين فارس وراجل الى جبال الجرد وكسروان التي حول بيروت فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة امراء بعشرة آلاف مقاتل والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال شديد وكانت الدائرة على الامراء فهربوا بحريمهم واموالهم واولادهم ونحو ٣٠٠ نفس واختبوا في غار غربي كسروان يعرف بمغارة نيبيه فوق

انطاس بالقرب من مغارة البلانة فدافعوا عن انفسهم ولم يقدر الجيش ان ينال منهم ثم بذلوا لهم الامان فلم يقبلوا فأمر نائب دمشق ان يبنوا على الغار سدًا من الحجر والنحاس وهالوا عليه تلاً من التراب وجعلوا الامير قطلو بك حارساً عليهم مدة اربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار

ثم احاط العسكر بتلك الجبال (اي جبال كسروان) ووطئوا ارضاً لم يكن اهلها يظنون ان احدًا من خلق الله يصل اليها فخربوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا الكنائس وقتلوا واسروا جميع من صادفوا من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعة بعد عزتها وفي ١٨ جمادي الاخرى ركب بالشرابيش علي الدين البعلبكي وسيف الدين بكتمر وبكر الدين بكناش وحسام الدين لاجين وعز الدين خطاب العراقي وتوجهوا لاجل عمارة الجبل (اي تأمين السكان الذين لم يستطيعوا الفرار واسكان عشائر من المسلمين في السواحل كما سيأتي) وحفظ مينا البحر مع الجماعة الذين ساروا من دمشق الى بيروت ... وامر الملك الناصر محمد بن قلاوون تركمان الكورة ان ينزلوا في ساحل كسرون ليحافظوا عليه من الفرنج وهم اهل عساف . وسوف نأتي على ذكر هولاء

واما من هم الذين سماهم صالح بن يحيي الجرديين وسماهم الدويهي في اول كلامه الجبليين فلا شك في انهم غير الكسروانيين لذكر المؤرخين المذكورين فريقين لا فريقاً واحدًا ونرى انهم سكان العمل المسمى الى الان الجرد ومن قراه رشميا وشارون وبتاتر وبحمدون وانهم كانوا دروزًا ويظهر ان هولاء لم يكونوا في طاعة الامراء التنوخيين حكام الغرب وكانوا يسطون على بلادهم وقد صرح الدويهي بان نذير اقوش امرهم ان يصلحوا شؤونهم مع التنوخية وكان قتل الاميرين التنوخيين عند الدامور يعزى الى هولاء الجرديين والكسروانيين معاً اذ روى الدويهي انه بعد وقعة الدامور رفعت الشكوى الى نائب دمشق من

الجرديين والكسروانيين ويظهر ان الدروز الجرديين والموارنة الكسروانيين كانوا حينئذٍ متفقين ويؤيده هرب الجرديين بعد ان دارت عليهم الدائرة في عين صوفر الى غربي كسروان الى نبيه وانطلياس التي كانت حينئذٍ من كسروان وكان تخمه من الغرب والجنوب نهر الجماني

﴿ عـد ٨٩٥ ﴾

في بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر

فرغنا من الكلام على هولاء البطاركة في القرن الثاني عشر بذكر وفاة البطريرك ارميا وخلفه بعد وفاته دانيال الاول قال الدويهي في سلسلة البطاركة انه كان من شامات من عمل جبيل وقطن اولاً في دير القديس قبريانوس بكفيفان ثم انتقل الى دير القديس مارون بكفرحي وانه انتخب سنة ١٥٤١ يونانية اي سنة ١٢٣٠ م على ما كتب يعقوب بن يوحنا البتروني (وفي نسخة اخرى البشراوي) على كتاب فرض القديسين الصيفي الذي طالعناه في كنيسة القديس سابا ببشري وكتب هنالك ايضاً ان هذا البطريرك كان ساكناً سنة ١٢٣٦ في دير القديس جيورجيوس في الكفر وهي من عمل جبيل

قال الدويهي يظهر من سلسلة البطاركة التي ذكرناها اولاً ان بطريركاً اسمه يوحنا كان بين ارميا وسمعان الاتي ذكره وروى لكويان ان الدويهي قال بعد ذلك انه لم يتوصل الى معرفة البطريرك الذي صير بعد يوحنا فامسى الامر غامضاً لا يهتدى الى وجه بيانه والذي اراه بفكرتي القاصرة انه ربما كان يوحنا هذا بعد ارميا وقبل دانيال الشاماتي المار ذكره وقد ابنا في كلامنا على ارميا العمشيتي ترددنا في القطع بان ارميا بقي في البطريركية من سنة ١١٨٣ الى سنة ١٢٣٠ اى سبعاً واربعين سنة فلا اري مانعاً من ان نفترض ان يوحنا هذا الذى لم يهتد الدويهي ولكويان الى زمانه كان في المدة التي انقضت من بعد عود ارميا من رومة سنة ١٢١٦ الى سنة

١٢٣٠ التي قالوا ان دانيال الشاماتي صير فيها بطريركاً ويكون هذا وجه التوفيق وازالة الغموض الحاصل في هذا المبحث والله اعلم

وصير بعد ذلك سمعان وقد ذكره الياس من معاد في حاشية علقها على كتاب فرض سبة الالآم الذي نسخه سنة ١٢٤٥ قال فيها « كان النجاز منه في ايام ساداتنا البطريرك سمعان صاحب الكرسي الممدوح مدينة الله انطاكية والمطران سمعان بجبل لبنان في سنة ١٥٥٦ لليونان » وهي سنة ١٢٤٥ للميلاد وقال لكويان ان كان سمعان هو الذي خلف يوحنا فيكون هو الذي روى بياجيوس ترسي في كتابه الموسوم بسورية المقدسة المطبوع برومة سنة ١٦٩٥ صفحة ٥٢ انه لما اخذت انطاكية من يد الفرنج التجأ اليه كثيرون من الكاثوليكيين سكانها فقبلهم واكرم مثواهم في لبنان وكتب الى البابا اسكندر الرابع يخبره بحالتهم وشديد تعلقهم بالكرسي الرسولي فاجابه البابا مثنياً على اهتمامه وغيرته ومسمياً اياه بطريركاً انطاكياً قال الدويهي ان نسخة هذه الرسالة ما برحت مصانة عندنا الى الان في دير قنوبين (وهي الى اليوم ايضاً في خزانة بطريركيتنا) وفي كتاب الفنقيط الصيفي الذي وقع بيدنا في كنيسة القديس سابا في بشرى وجدنا مكتوباً انه كان بعد حياً في سنة ١٢٧٧ ولم نجد له خبرًا ولا اثرًا بعد ذلك ولا علمنا من خلفه ولكن وجدنا مكتوباً على صخر في الحائط الغربي من دير ميفوق عند تجديد بناء هذا الدير

ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܚܡܫܡܐܐ ܘܬܡܢܝܢ ܘܬܡܢܐ ܕܝܘܢܝܐ ܫܠܡ ܝܥܩܘܒ
ܗܢܐ ܗܝܟܠܐ ܕܝܠܕܬ ܐܠܗܐ ܡܪܝܡ وترجمه انه في سنة ١٥٨٨ لليونان (سنة ١٢٧٧) تمم يعقوب هذا هيكل والدة الله مريم وقال فمن يكون يعقوب هذا الذي جدد هذا الدير ونسب اليه لا نستطع ان نقول الا انه كان بطريركاً لانه قبل هذا التجديد وبعده كان هذا الدير مأوى للبطاركة وقيل انه اندفن فيه سبعة بطاركة قلنا وقد ذكرنا هذا الخط في الكلام على دير ميفوق ولكن النسخة المحضرة

انا كتب فيها مكان ܫܘܟܠܠܐ ܕܗܝܟܠܐ اي كمل بناء هذا الهيكل فربما شوشت الايام حروف الكلمة وكانت في ايام الدويهي اثار للقراءة او ان الناسخ لنا توهم من كتابة ܫܘܟܠܠܐ انها تكون دالة على اسم اليمانية فكتب سوخ ... ܕܗܝܟܠܐ

وصار بعد ذلك دانيال الثاني وجاء في الكتاب الموسوم بدرج بالمقدسة ان دانيال هذا خلف سمعان سنة ١٢٨١ وقال الدويهي انه كان من حدشيت من عمل بشرى ، وقد كتب القس يوحنا الراهب الذي من حجولا في اخر كتاب تكريس الميرون ما يأتي ، كمل هذا الكتاب في سنة ١٥٩٢ لاسكندر (توافق سنة ١٢٨١) في ايام ابينا المختار البطريرك دانيال من حدشيت ، ونرى صورته الى الان في كنيسة القديس رومانوس بالتربة المذكورة وقد وردت اليه براءة تثبيت من البابا نيقولاوس الثالث (الذي كان على السدة البطرسية من سنة ١٢٧٧ الى سنة ١٢٨١) ومما تضمنته الامر اليه بان يكون الميرون من زيت الزيتون والبلسم لا غير

وانتخب بعد دانيال الحدشيتي لوقا وكان من نهران بسفح لبنان من عمل بشري وروى الدويهي ان انتخابه كان في سنة ١٢٨٣ التي فيها فتحت العساكر الاسلامية جبة بشري كما صرح وند وهم جبرائيل اسقف لافنسية بتبرس المعروف بابن القلاعي ان هذا البطريرك مال الى قول راهبين تنبئا بضلال ابو لينار ان المسيح لم تكن فيه نفس بشرية بل ناب عنها اللاهوت وزاغا عن الايمان الصحيح فارسل الحبر الروماني ينذرهم فلم يلبث البطريرك قبول قصاد البابا ومما قاله ابن القلاعي

والبطريرك ما راد يقبلهم يسمى لوقا من بنهران
كثر السر وصاروا غرضين وثار الانشقاق من اجل اثنين
في ذا السبب ابنوا برجين وقسموا الملك في ذاك الان
سمع بذلك السلطان برقوق وانفتح له باب كان مغلوق
ارسل عساكر تحت وفوق تحاصر في جبل لبنان

على ان الدويهي افرد الفصل التاسع من كتابه في رد التهم لتفنيد قول ابن القلاعي هذا مثبتاً ان هذا الضلال لم يكن بلبنان قط وان ايام هذا البطريرك كانت موعبة بالحروب على الموارنة في جبة بشرى وكسروان فلم يكن وقت لاشتغال الشعب او روسائه بالمباحث الدينية وقد اتهمه بياجيوس صاحب الكتاب الموسوم بسورية المقدسة انه اتبع بدعة المشيئة الواحدة فقام عليه الروساء والشعب وعقدوا مجمعاً حطوه فيه عن مقامه البطريركي واقاموا مكانه البطريرك جبرائيل من حجولا سنة ١٢٩٠ وتهمة البطريرك لوقا بهذا الضلال باطلة ولا مسند لها ولو افترضت صحيحة لتبين منها غيرة الموارنة على الايمان القويم بحطهم بطريركهم

وقد روى الدويهي على ما ذكر لكويان في كلامه على بطاركة الموارنة انه بعد لوقا انتخب البطريرك جبرائيل من حجولا سنة ١٢٩٠ وهذا هو الظاهر من كلام بياجيوس في كتابه سورية المقدسة كما رويناه قبيل هذا وانه نال التثبيت من الحبر الروماني (البابا نيقولاوس الرابع) وانه نال اكاليل الشهادة في خارج مدينة اطرابلس سنة ١٢٩٦ وان مدفنه يعرف اليوم بالشيخ مسعود في جانب المحل المسمى تل الرمل في هذه المدينة واحصاه الموارنة في عدد شهدائهم هذا ما رواه لكويان وعقبه بقوله « على انه يظهر من الكتاب القديم الذي هو الثامن عشر من كتب الحاقلي بالمكتبة الواتيكانية ان جبرائيل هذا كان بعد هذا العصر فقد ذكر السمعاني الكتاب المذكور في فهرست الكتب المعلق على المجلد الاول من مكتبته الشرقية صفحة ٥٧٧ وهو كتاب لابن القلاعي وقال ان في جملة ما حواه قصيدة لابن القلاعي « في البطريرك جبرائيل من حجولا الذي قضى شهيداً للايمان الكاثوليكي في اطرابلس سنة ١٣٦٧ الا ان يكون وقع غلط في تعيين تلك السنة وادع الحكم في ذلك لعلماء الموارنه » انتهى كلام لكويان

وجاء في سلسلة بطاركة الموارنة التي اخذها العلم رشيد الشرتوني عن

الدويهي ونشرها في المجلة الموسومة بالمشرق ان هذا البطريرك نال اكليل الشهادة في اطرابلس سنة ١٣٦٧ وهذا يوافق ما رواه السمعاني كما ذكرنا قبلاً لكنه يخالف ما رواه لكويان عن الدويهي كما قدمناه في هذا المحل وكثيرًا ما وجدنا ما رواه لكويان عن سلسلة الدويهي يخالف نسختها العربية ولا شك في ان ترجمتها اللاتينية التي اعتمد عليها لكويان هي اصح واسلم من التحريف والغلط ومن جهة اخرى لا نعلم اذا كان السمعاني عين سنة ١٣٦٧ براي نفسه او نقلها على سبيل الحكاية عن ابن القلاعي الذي كشف له المتأخرون كثيرًا من الخطا في تعيين السنين والذي يظهر لنا مرجحاً ان البطريرك جبرائيل هذا رقي الى البطريركية سنة ١٢٩٠ ونال اكليل الشهادة سنة ١٢٩٦ اعتمادًا على ترجمة سلسلة الدويهي اللاتينية التي هي اصلح واسلم من النسخة العربية التي كانت بيد المعلم رشيد المذكور ويؤيد ذلك ما نعلمه حق العلم من ان المسلمين لم تسبق لهم العادة بان يسطوا على النصارى ولا سيما رؤساء الدين جهارًا وتصميماً الا في وقت الحرب وقد رأيت ان المدة من سنة ١٢٨٣ الى سنة ١٣٠٥ كانت موعبة بالحروب في جبة بشري وكسروان فضلاً عن الحروب مع الفرنج ولا نعلم حصول شيء من هذه الحروب في لبنان سنة ١٣٦٧ ولذلك نرجح استشهاد هذا البطريرك كان في اواخر القرن الثالث عشر لا بعد نصف القرن الرابع عشر

وقام بعد البطريرك جبرائيل البطريرك سمعان ونرجئ الكلام عليه الى تاريخ القرن الرابع عشر

﴿ عدد ٨٩٦ ﴾

في رد ما يحتج به على الموارنة من كلام البابا اينوشنسيوس الثالث

ان خصوم الموارنة يحجونهم بفقرة وردت في رسالة انفذها اينوشنسيوس الثالث سنة ١٢٥١ الى البطريرك ارميا والمطارنة والاساقفة وروساء الاديار

والاكليرس والشعب الموارنة وقد أثبت العلامة البطريرك اسطفانس الدويهي ترجمة هذه الرسالة برمتها في الفصل الثامن من كتابه في رد التهم فالعبارات التي يحج الموارنة بها من هذه الرسالة هي قوله في من افاض الله عليهم سوابغ نعمه فارعووا عن الضلال « كما بلغنا وسرّنا انه جرى لكنيسة الروم ولكم في هذه المدة فانكم سابقاً كنتم كالخراف الضالة غير عالمين ان خطيبة المسيح واحدة ... وان الراعي الصالح واحد وهو السيد المسيح ... ولما ارسلنا قبلاً الى نواحيكم المرحوم الكردينال بطرس كاهن كنيسة القديس مرشلوس رجعتم بالهام الرب الى راعيكم واسقف نفوسكم وفهمتم اننا نحن رأس الاحبار ونائب المسيح على الكنيسة الجامعة ... ولما كان الكردينال المذكور علم انكم تحتاجون الى بعض امور اجتهد في ايضاحها لكم حسب مآل الامر الرسولي واوصاكم بان تقروا بمعزل عن كل ريب بما تمسكت به الكنيسة الرومانية وهو ان الروح القدس ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب ... وان تحفظوا في المعمودية هذه الصورة اي ان الثالوث الاقدس يذكر مرة واحدة في التغطيسات الثلث لا اكثر وان سر التثبيت يتصرف به روساء الكهنة دون غيرهم ... وان تومنوا ان في المسيح طبيعتين ومشيتين الهية وانسانية وهذه الوصايا ولو كنتم قبلتموها في ما سلف قبول الطائعين الخاضعين الا ان اعادتها عليكم الان لاجل تاكيدها واثباتها » فهذه هي العبارات المحتج بها

وقد رد العلامة الدويهي في الفصل المذكور زعم من حجوا الموارنة بهذه العبارات واثبت ان الموارنة براء من التهمة بالضلال وان هذه العبارات لا تصلح ان تكون حجة عليهم به وصنع كذلك المرحوم البطريرك بولس مسعد في عدة مواضع من كتابه الموسوم بالدر المنظوم اي صفحة ١٢١ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٦ فوان لم اقس بهذين العلامتين فقد حذوت حذوهما في كتابي الموسوم بروح الردود واسهبت برد زعم خصومنا باحتجاجهم علينا بكلام البابا المذكور

والان اقول ان في رسالة البابا اينوشنسيوس الثالث هذه نفسها فقرتين اخريين يتبين منهما جلياً ان الموارنة لم يكونوا على ضلال وارعووا عنه حينئذٍ الفقرة الاولى هي قوله « وانت ايها الاخ البطريرك لما كنت قبلاً في مدينة اطرابلس مع قوم من مطارنتك اعني يوسف مطران فزحيا وتاوادورس اسقف كفرفو وجمع كبير من الكهنة وجمهور وافر من الخاضعين لك حلفت انت وهم عن نفوسكم وعمن يتعلق بكم بحضره بعض اساقفة ورهبان وشمامسة في المدينة المذكورة اليمين على مثال الصورة التي يتعهد بها المطارنة بالطاعة للكرسي الرسولي » فحلف يمين الطاعة على مثال الصورة التي يتعهد بها الاساقفة بالطاعة للكرسي الرسولي ليس هو ارعواء عن ضلال ولا يكتفى لمن كان ضالاً بحلف مثل هذا اليمين بل الاكتفاء بها دليل بين وبينة قاطعة على ان من ابرزها لم يكن من ذوي البدعة والضلال

والفقرة الثانية هي قوله « ثم انا نثبت لك بسلطاننا الرسولي كراسي المطارنة والاساقفة الاتي ذكرها ونامر اصحابها بالخضوع لكرسي كنيستك كنيسة السيدة في يانوح ايها الاخ البطريرك الذي ولاك الله رياستها وان يكونوا طائعين لك ولخلفائك اعني مطارنة فزحيا وجبة بشري واساقفة المنيطرة ورشعين وكفرفو وعرقا .. ونثبت لك النعم المعتادة الحاصل عليها انت واسلافك في الكنيسة الانطاكية الى هذا الآن وبالسلطان الرسولي نمنحها لك وللذين يتخلفون بعدك » ومما لا ريب فيه ان من خرج عن الكنيسة او زاغ عن ايمانها خسر بزيغانه نفسه الحقوق والنعم وما اعتاد ان يكون له فيها فان كان بطريرك الموارنة واسلافه قد تمسكوا بالبدعه كيف يثبت اينوشنسيوس الثالث النعم او الحقوق او الاستعمالات الحاصل عليها لا البطريرك ارميا وحده بل اسلافه ايضاً في الكنيسة الانطاكية الى الان ولو كان هولاء الاسلاف اصحاب بدعة لما بقي لهم حقوق ولا اثبتها البابا لهم وقد ابنا ان البطريرك ارميا الموجهة اليه هذه الرسالة قد انتخب بطريركاً سنة ١١٨٣

اي بعد سنة واحدة من الارعواء المدعى به على الموارنة واعتمدنا في هذا على ما خطه ارميا نفسه بيده. واسلاف ارميا الذين أثبت لهم اينوشنسيوس حقوقهم او عوائدهم في الكنيسة الانطاكية هم يوسف الجرجسي الذي ارسل قصاده مع قصاد الملك غودفروا الى رومة سنة ١٠٩٩ بطلب التثبيت فانعم عليه به البابا بسكاس الثاني سنة ١١٠٠ ثم غريغوريوس الحالاتي الذي ارسل اليه البابا اينوشنسيوس الثاني الكردينال غوليلموس سنة ١١٣١ يخبره انه هو البابا الشرعي لا بطرس دي لاون الذي تدخل على الكرسي الروماني فحلف البطريرك واساقفته يمين الطاعة لاينوشنسيوس كما حلف روساء الفرنج الذين كانوا حينئذٍ بسورية الى غير هولاء من بطاركة الموارنة والحادثان المذكوران هنا رواهما لكويان في كلامه على بطاركة الموارنة في المجلد الثالث من المشرق المسيحي

فالبابا اينوشنسيوس الثالث اثبت اذًا بالفقرتين اللتين ذكرناهما ان الموارنة لم يكونوا هراطقة فكيف يخرج قوله في الفقرة الاولى « انكم كنتم ضالين وان الكردينال امركم ان تعتقدوا ان في المسيح طبيعتين ومشيتين » ان لذلك مخرجين الاول ان البابا تكلم في هذه الفقرة على بعض الموارنة الذين كان اتباع توما الكفرطابي قد اغووهم ببدعة المشيئة الواحدة حتى استمالوا البطريرك نفسه اليهم فاجتمع الاساقفة واعيان الامة فحطوا البطريرك عن مقامه وانتخبوا غيره فقتله اصحاب البطريرك المنحط واصلح اموري بينهم فانتخبوا حينئذٍ ارميا الموجهة الرسالة اليه فاشار البابا الى هذه الاحداث التي ذكرنا تفصيلها في عدد ٨٥٨ وعدد ٨٦٠ واراد بمن كانوا ضالين تلك الفيئة من الموارنة التي كانت قد ضلت مدة ثم ارعوت عن ضلالها الى جادة الصواب على يد اموري بطريرك انطاكية وهذا لا يبعد عن الصواب وهو لازم للتوفيق بين قولين متضادين في رسالة واحدة

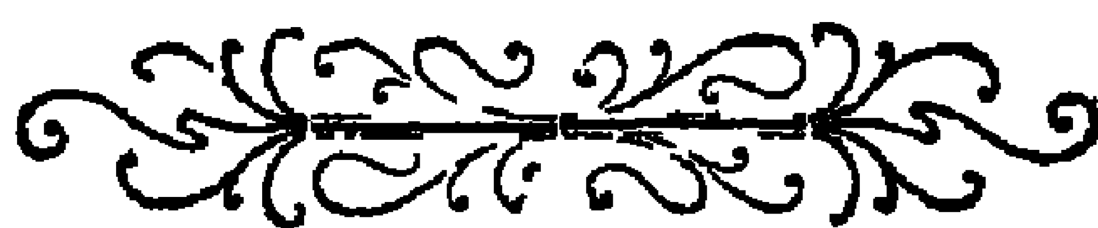
والمخرج الثاني ان الحبر الروماني تكلم في الفقرة الاولى على الموارنة والروم

معاً وهذا ظاهر من كلامه الذي قدمناه وهو «كما بلغنا وسرّنا انه جرى لكنيسة الروم ولكم في هذه المدة فانكم كنتم سابقاً كالخراف الضالة» الخ ثم من قوله الاخر ان الكردينال الذي ارسله امرهم بان يعترفوا «بان الروح القدس ينبثق من الابن كما ينبثق من الاب وان يحفظوا في المعمودية الصورة التي يدعى بها الثالوث الاقدس مرة واحدة لا اكثر وان سر التثبيت يتصرف به روساء الكهنة لا غيرهم» ومن المؤكد ان الروم انما هم الذين ينكرون انبثاق الروح القدس من الابن وكانوا يوجبون ذكر الثالوث ثلثاً عند تلاوة صورة المعمودية وهم الى الان يمنح كهنتهم سر التثبيت وليس بمحفوظ للاساقفة وما من احد من العلماء المحققين عزا الى الموارنة هذه الاغلاط وينتج من ذلك نتجاً جلياً ان البابا تكلم بهذه الرسالة على الموارنة والروم معاً

وقد قال بهذا المخرج كثيرون من العلماء اللاتينيين منهم الاب ايرونيموس دنديني في فصل ٢٨ من كتاب بعثته الى الموارنة في اواخر القرن السادس عشر وهذه قوله «ان هذه البرآء (اي براة اينوشيسيوس الثالث) لا يتكلم بها البابا عن الموارنة وحدهم بل عن الروم ايضاً اذ رجعوا في اطرابلس حينئذٍ الى طاعة الكنيسة الرومانية ارتجاعاً حافلاً بحضرة كردينال كنيسة القديس مرشلوس القاصد الرسولي في هذه الجهات من المشرق وبهذا يتيسر فهم السبب الذى اوجب نسبة اغلاط طائفة الى اخرى» ومنهم ايضاً الاب توما باقي الكرملي الذى قال في الكتاب السابع الفصل ٢٢ من مولفه الموسوم بلزوم الاهتمام بخلاص جميع الامم ما ترجمته «ان بطريرك الموارنة قد احتفظ غاية الاحتفاظ على برآءات الاحبار الرومانيين من اينوشنسيوس الثالث الى غيره من الباباوات الذين انفذوا اليهم قصاداً كردينال كنيسة القديس مرشلوس وغيره ولما كان الاحبار الرومانيون يأمرون برسائلهم الموارنة ان يتحاشوا عن اغلاط الروم وينبذوها حصل من ذلك ان بعض

المرسلين من رومة توهموا ان الموارنة تابعوا اكثر الروم على اغلاطهم كانبثاق الروح القدس من الاب وحده وانكار المطهر وما اشبه على ان الموارنة اثبتوا انهم بمعزل عن هذه الاغلاط وبينوا ان في كتبهم ونوافير قداسهم بينات كثيرة ناطقة بدفاعهم كل حين عن العقائد الكاثوليكية • ونقتصر على ايراد شهادة هذين الشاهدين من العلماء اللاتينيين ونضرب صفحاً بالايجاز عن ايراد اقوال علمائنا

على اننا لا نعدل عن قول العلامة البابا بناديكتوس الرابع عشر في رسالته الموجهة في ٢٨ ايلول سنة ١٧٥٣ الى نيقولاوس لركاري وهذا قوله • قد اثبت الموارنة انهم ينتسبون في اصلهم الى القديس مارون الانبا وانهم لم يرتفعوا البتة عن الايمان الكاثوليكي ولا انفصلوا قطعاً عن وحدة الكنيسة وزادوا على ذلك انهم اذا كانوا قد جددوا احياناً اتحادهم بالكنيسة الرومانية فلا ينبغي بتة ان يفهم ذلك بمعنى انهم شذوا عن الدين الكاثوليكي ثم رجعوا اليه • ومن ذلك بلا بد تجديد اتحادهم بالكنيسة الرومانية بحضرة قاصد البابا اينوشنسيوس الثالث المذكور هنا والذي على تقريره المرفوع للحبر الروماني بنيت رسالته وربما لم يتميز كما ينبغي بين من حجدوا الضلال كروم اطرابلس ومن جددوا اتحادهم بالكنيسة الرومانية وحلفوا ١
يمين الطاعة للحبر الروماني كالموارنة وقد صرح البابا اينوشنسيوس الثالث بان بطريرك الموارنة واساقفه ومن حضر في اطرابلس من كهنته وشعبه حلفوا هذه اليمين على هذه الصورة كما رأيت في كلامه الذي اوردناه آنفاً



الباب الرابع عشر

في تاريخ سورية في القرن الرابع عشر

القسم الاول

في تاريخها الدنيوي

الفصل الاول

في من تولوا سورية بهذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم

عدد ٨٩٧

في تتمة اخبار الملك الناصر وما كان في ايامه

فرغنا من كلامنا في تاريخ القرن الثالث عشر بذكر اعادة الملك الناصر الى السلطنة بمصر وسورية وحملة التتر على سورية واندفاعهم عنها فنعود الى تكملة اخبار هذا الملك وما كان في ايامه من الحوادث من ذلك وفاة زين الدين كتبغا نائب السلطنة بحماة سنة ٧٠٢ هـ سنة ١٣٠٢ م الذي كان قد تسلطن فخلعه نائب لاجين واعطاه صرخد ثم تولى حماة كما مر وتوفي في السنة المذكورة وكان ابو الفدا صاحب التاريخ المشهور يرجو ان يسمى نائب السلطان في حماه بلده كما كان

اهله قبله وهم من الايوبيين وارسل يعرض على السلطان ذلك فوجد الامر قد فات وقررت النيابة بحماة لسيف الدين قبجق نائب الشوبك قبلا ووعد السلطان ابا الفدا الوعود الجميلة واعتذر له بان كتابه وصل بعد خروج قبجق الى حماة روى ذلك ابو الفدا نفسه في تاريخ السنة المذكورة وقال انه كان فيها زلزلة عظيمة هدمت بعض اسوار قلعة حماة وغيرها من الاماكن بسورية ومصر

وفي سنة ٧٠٥ هـ سنة ١٣٠٥ م ارسل قراسنقر نائب السلطنة بحلب مع قشتمر مملوكه عسكر حلب للاغارة على بلاد سيس فدخلوها وكان قشتمر المذكور ضعيف العقل قليل التدبير مشتغلاً بالخمر فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من التتر وانضم اليهم الارمن والفرنج ووصلوا على غرة الى عسكر حلب فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولوا يبتدرون الطريق وتمكن التتر والارمن منهم فقتلوا واسروا اكثرهم واختفى من سلم في تلك الجبال ولم يصل الى حلب منهم الا القليل عرايا بغير خيل

وفي هذه السنة اي ١٣٠٥ سار جمال الدين اقوش الافرم بعسكر دمشق وغيره من عساكر الشام الى جبال الظنيين وكانوا عصاة مارقين في الدين فاحاطت لعساكر الاسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا واسروا جميع من بها من النصيرية والظنيين وغيرهم من المارقين وطهرت تلك الجبال منهم وهي جبال شاهقة بين دمشق واطرابلس وامنت الطريق بعد ذلك منهم فانهم كانوا يقطعون الطريق ويتخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار هذا ما ذكره ابو الفدا في تاريخ هذه السنة ويظهر ان اقوش الافرم بعد ان افتتح كسروان كما مر في عدد ٨٩٤ سار في تلك السنة نفسها الى جبال الظنيين (وهي المعرفة اليوم بجبل الظنية شرقي زاوية اطرابلس) فدوخ اهلها والنصيرية ومما لا ريب فيه ان هذه الجبال غير جبال كسروان واهلها غير الكسروانيين لأن صاحب تاريخ بيروت الذي اشهره الاب شيخو اليسوعي سمى من حاربهم اقوش اولاً الجرديين

والكسروانيين فهم غير الظنيين والنصيرية الذين ذكر ابو الفدا ان اقوش حاربهم ثانياً وظفر بهم ويؤيد قولنا تعيين ابي الفدا موقع جبال الظنيين بين دمشق وطرابلس وموقع جبال الجرديين والكسروانيين بين دمشق وبيروت ويزيده تأييداً تسمية صاحب تاريخ بيروت من حاربهم اقوش جرديين وكسروانيين وتسمية ابو الفدا من حاربهم اقوش ايضاً ظنيين ونصيرية فليست الحرب واحدة بل حربين وان كانتا في سنة واحدة

وفي سنة ٧٠٨ هـ سنة ١٣٠٨ م استبد سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير بالامور وتجاوزا الحد في الانفراد بالاموال والامر والنهي ولم يتركا للسلطان الا الاسم فسئمت نفس السلطان الملك الناصر هذا التطاول واظهر انه يريد المسير الى الحجاز وقام من مصر ومعه عدة من الامراء ووصل الى الكرك فامر الامرآء الذين حضروا بخدمته ان يعودوا الى مصر وكشف لهم انه جعل السفر الى الحجاز وسيلة للمقام بالكرك ولما وصل الامرآء الى مصر واعلموا من بها باقامة السلطان بالكرك اشتوروا فيما بينهم واتفقوا ان تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير وان يستمر سلار على نيابة السلطنة كما كان وحلفوا على ذلك وركب بيبرس بسعار السلطنة الى قلعة الجبل بالقاهرة وجلس على سرير الملك وتلقب بالملك المظفر ركن الدين وارسل الى نواب السلطنة بالشام فحلفوا له عن اخرهم وكتب تقليداً للملك الناصر بالكرك ومنشوراً بما عينه له من الاقطاع وارسلهما اليه

وفي سنة ٧٠٩ هـ سنة ١٣٠٩ م سار من مصر جمال الدين اقوش الموصلي غير اقوش الافرم ولاجين الجاشنكير ومعهما نحو الفي فارس الى حلب وسار معهم من الشام جماعة من جملتهم ابو الفدا مع عسكر حماة وكان نائب السلطنة بحلب قراسنقر المنصوري فأخذ يستميل الناس في الباطن الى طاعة السلطان الملك الناصر ويقبح عندهم طاعة بيبرس وسار جماعة من المماليك في مصر مفارقين طاعة بيبرس

ووصلوا الى الملك الناصر بالكرك واعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبته فاعاد خطبته بالكرك واستدعاه عسكر دمشق مبينين انهم باقون على طاعته ووصلت اليه من حلب المكاتبات فسار بمن معه من الكرك واحتال اقوش الافرم عليه باخبار كاذبة توجب عوده الى الكرك فعاد اليها واستمرت العساكر على طاعته وجاهر الناس بالخلاف لبيبرس وانحلت دولته وبلغ ذلك العساكر المقيمين بحلب فانصرفوا من غير دستور ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية له عاود المسير الى دمشق فالتقاه عسكر دمشق وانهزم اقوش الافرم نائب السلطنة فيها ودخل الملك الناصر دمشق ونزل بالقصر الابلق وطلب الافرم وامنه وقدم اليه نواب السلطنة بحلب وحماة وصفد وغيرها فامرهم بالتجهيز للمسير الى مصر

ولما تكاملت العساكر سار بهم من دمشق قاصدًا مصر وبلغ بيبرس الجاشنكير ذلك فاستعدَّ للقتال وجمع عسكرًا ضخماً وساروا الى الصالحية ولما وصل الملك الناصر الى غزة قدم الى طاعته عسكر مصر اولاً فاولاً ولما تحقق ذلك بيبرس خلع نفسه من السلطنة وارسل يطلب الامان وان يتصدق عليه ويعطيه اما الكرك او حماة او صهيون فاجابه السلطان الملك الناصر الى اعطائه صهيون واتم السلطان السير فهرب بيبرس الى الصعيد وخرج سلار نائب السلطنة لملتقى السلطان متذللاً وبقى السلطان سائرًا بالعساكر الشامية والمصرية الى قلعة الجبل واستقر على سرير ملكه فكانت سلطنته الثالثة ووزع عماله واعطى اقوش الافرم صرخد ونفى سلار من مصر وقبض على بيبرس الجاشنكير واسترد منه ما كان اخذه من الاموال والخيول واعتقله في قلعة الجبل وكان اخر العهد به وكانت سلطنته احد عشر شهرًا واستقر السلطان الملك الناصر على سلطته

وفي سنة ٧٠٨ هـ سنة ١٣٠٨ م مالك الفرسان الاسبيتاليون جزيرة رودس اخذوها من الاشكري صاحب قسطنطية وصعب بسبب ذلك على التجار الوصول

في البحر الى هذه الديار لمنع الفرسان من يصل الى بلاد الاسلام هذا ما رواه ابو الفدا في تاريخ السنة المذكورة والذي نعلمه من تاريخ هولاء الفرسان الذين يسمون فرسان القديس يوحنا الاورشليمي وفرسان رودس وفرسان مالطة ان جمعيتهم انشئت بعد ان اخذ الفرنج اورشليم سنة ١٠٩٩ وكان غرضها استقبال الحجاج وقضاء حاجاتهم والعناية بالمرض منهم ثم أخذ اعضاؤها على انفسهم سنة ١١٢١ ان يذبوا عن الزائرين بالسلاح ايضاً فاصبحت جمعيتهم دينية جندية وكانوا يستسيرون بقانون القديس اغوسطينوس وبعد ان فتح صلاح الدين اورشليم سنة ١١٨٨ انتقلوا الى عكا وبعد ان اخذ المسلمون عكا ساروا الى قبرس وفي سنة ١٣٠٨ على ما ذكر او في سنة ١٣١٠ على رواية اخرى اخذوا رودس وتحصنوا بها مدة قرنين ونيف الى ان طردهم منها السلطان سليمان سنة ١٥٢٢ بعد حصار شديد ودفاع مديد فساروا الى كريت ثم الى صقلية ثم استقروا في مالطة سنة ١٥٣٠ واستمروا بها الى سنة ١٧٩٨ اذ اخذها منهم نابوليون الاول بونابرت عند عبوره الى مصر وفي تقليدات امتنا المارونية انه كان في جملة هولاء الفرسان كثيرون من رجال الموارنة وساروا معهم الى قبرس ورودس وبقي اولادهم في هذه الجمعية عند اقامتهم برودس ومالطة

وفي سنة ٧١٠ هـ سنة ١٣١٠ م ولي ابو الفدا نيابة السلطنة بحماة موطنه وقد روى هو خبر توليته فقال انه كان قد زائل حماة خشية من عداوة اسندمر الذي كان السلطان قد ولاه حماة وسال السلطان ان يمكنه من القيام بدمشق فتصدق عليه بخلعة ورسم له بغلة من حواصل دمشق وان يكون خبزه بحماة مستقراً عليه وكذلك اجناده ووصل اسندمر الى دمشق متوجهاً الى حماة فافرغ جهده في ان يسير ابو الفدا معه اليها فتمنع واتفق ان مات نائب السلطنة بالسواحل الشامية فاعطى السلطان النيابة بها لاسندمر وتصدق على ابي الفدا بالنيابة بحماة فلم يحب اسندمر

المسير الى السواحل وامتنع من قبول التقليد والخلعة ومات حينئذٍ سيف الدين قبجق نائب السلطنة بحلب فنصب السلطان اسندمر موضعه واستقرت حماة للعبد الفقير الى الله تعالى اسماعيل بن عليّ مؤلف هذا الكتاب وكان استقراري في دار ابن عمي الملك المظفر بحماة بعد الظهر نهار الاثنين ٢٣ من جمادي الاخرة سنة ٧١٠ هـ سنة ١٣١٠ م الموافق لسادس عشر كانون الثاني كل هذا من كلام ابي الفدا وقال بعده كان خروج حماة عن البيت التقوي الايوبي من سنة ٦٩٨ وعوده اليها سنة ٧١٠ فكانت مدة خروجها احدى عشر سنة وخمسة اشهر وسبعة وعشرين يوماً وفي السنة المذكورة جرد السلطان عسكرًا مع كراي المنصوري وشمس الدين سنقر الكمالي الى حلب للقبض على اسندمر الذي كان السلطان قد جعله نائب السلطنة فيها كما مر ولم يكن يثق بطاعته وسار ابو الفدا والي حماة معهم فكبسوا اسندمر في دار النيابة بحلب وقبضوا عليه واعتقلوه بقلعة حلب ثم ارسلوه الى مصر فاعتقل بها ثم نقل الى الكرك وكان اخر العهد به واحتيط على موجوده من الخيل والقماش والسلاح وكان شيئاً كثيرًا وحمل جميع ذلك الى بيت المال

وفي سنة ٧١١ هـ سنة ١٣١١ م بعد القبض على اسندمر جعل السلطان قراسنقر نائب السلطنة بدمشق نائباً لها بحلب وانعم بنيابة السلطنة بالشام على سيف الدين كربه المنصوري ثم قبض عليه ورتب في نيابة السلطنة بالشام اقوش الذى كان نائباً في الكرك واما قراسنقر فبعد استقراره بحلب استأذن السلطان بان يسير الى الحجاز لقضاء حجة الفرض فاذنه فسار في غير الطريق المعتاد حتى وصل الى بركة زيزا فحصل عنده التخيل والخوف من الركب المصرى لئلا يقبضوا عليه فعاد على البرية الى بر حلب واجتمع مع مهنا بن عيسى امير العرب واتفقا على المشاققة والعصيان وقصد قراسنقر حلب ليستولي عليها مستقلاً فمنعه الامراء الذين بها والعسكر من الدخول اليها وارسل السلطان الى قراسنقر ومهنا امير العرب ما

يطيب خاطرهما فلم يرجعا عن ضلالهما فجرد السلطان عسكرًا مع المقر السيفي اوغون الدوادار الناصري والامير حسام الدين قرا لاجين حتى اذا رجع قراسنقر عن الشقاق والنفاق قرر امره في مكان يختاره وان لم يرجع يقصده العسكر حيث كان وسار ابو الفدا بصحبتهم فاندفع قراسنقر الى الفرات واقام هناك وافترقت مماليكه فبعضهم سار الى التتر وبعضهم قدم الى الطاعة ثم توجه قراسنقر الى جهة مهنا حليفه

وفي سنة ٧١٢ هـ سنة ١٣١٢ م قصد اقوش الافرم نائب السلطة بالفتوحات ان يحدث شقاقًا وانضم اليه حموه ايدمر الزردكاش من دمشق ومن يلوذ به وقصدوا عسكر الساحل فلم يوافقهم على ضلالهم فهرب الافرم الى قراسنقر في البرية واقاما بقرب سلمية فاجتمعت العساكر من حمص وحماة وحلب ونزلوا بظاهر سلمية وقصد قراسنقر والافرم كبس العسكر ليلاً لظنهما ان فيهم مخامرين يوافقونهما على ضلالهما فلم يوافقهما احد فرجعا عن قصدهما وسارا بمن معهما الى الرحبة فجهز الامراء عسكرًا في اثرهما فتبعوهما الى الرحبة فاندفع قراسنقر ومن معه الى عانة والحديثة ولم يرد العسكر لحاقهما الى هناك بغير مرسوم من السلطان وعادوا الى حمص وكثر ترداد الرسل الى قراسنقر والافرم في اطابة خواطرهما وهما لا يردادان الا عتوًا حتى سارا الى التتر واتصلا بخربندا ملكهم مع ايدمر الزردكاش ومن انضم اليهم . وقرر السلطان سيف الدين سودي في نيابة السلطنة بحلب مكان قراسنقر . وحمل قراسنقر والافرم خربندا ملك التتر على اخذ الرحبة وكان الافرم هو الذي قد سعى لبدر الدين بن ادكشي الكردي بنيابة السلطنة بالرحبة فاغرى خربندا باخذها طامعاً بان بدر الدين ربما يسلم قلعة الرحبة اليه جزاء صنعه اليه فحاصرها خربندا فصبر بدر الدين على الحصار وقاتل شديد القتال حفظًا لعهد امانته للسلطان ووقع الغلاء والفناء في عسكر خربندا وتعذرت عليه الاقوات ولم يجد صحة لما اطمعه به قراسنقر والافرم فرحل عن الرحبة راجعاً على عقبه بعد حصار الرحبة

نحو شهر ، انتهى ملخصاً عن تاريخ ابي الفداء

عد ٨٩٨

في العشائر الاسلامية التي اقيمت في سواحل لبنان في هذه الاثناء

روى العلامة المدقق البطريرك اسطفانوس الدويهي ان الملك الناصر بعد ان فتح المسلمون كسروان سنة ١٣٠٥ امر تركمان الكورة ان ينزلوا في ساحل كسروان ليحافظوا عليه من الفرنج وهم اهل عساف وكان دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد وجسر المعاملتين تحت غزير وكانوا لا يدعون احدًا يمر في دربند نهر الكلب الا بورقة اجتياز من الوالي او من امرآء الغرب التوخية (الاتي ذكرهم) واقام التركمان المذكورون ثلاثة ابدال كل بلد مئة فارس يقوم بالدرك شهرًا وكانوا ينزلون بانطلياس وبيوت اليزك (كلمه فارسية يراد بها رئيس العسس ومن يراقب من مضى فيتبعه) على نهر الكلب وفي البرج الذي يليه جنوباً وفي برج جونية وكانت اذواقهم (منازلهم) من حولهم وهي المعروفة بالعامرية وزوق الخراب وزوق مصبح وزوق مكائيل باسماء مقدمي الازواق وبنوا لهم منازل وغرسوا جنات وبساتين بعين طورا وعين شقيق لاقامة امرائهم شتآء وصيفاً

وجاء في كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحي مصداقاً لذلك ما نصه ، واما ارباب الا يراك (م تفسير كلمة اليزك) فكانوا جنود حلقة بعلبك يتجردون الى بيروت ابدالاً يبقى كل بلد شهر وفي سنة ٧٠٦ ﻫ اقروا التركمان بكسروان وتداركوهم بثلث مئة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستنكرونه ان يتعدى دربند (كلمة تركية معناها مضيق) نهر الكلب الاَّ بورقة طريق من المتولى او من امراء الغرب كما يفعلون بقطية (قرية على التخوم بين مصر والشام) على درب مصر وجعلوا التركمان المذكورين ثلاثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهرًا وموجب استقرارهم بكسروان انه لما

فتح كسروان كما ذكرنا اقطعوه لاناس لم يكفوه فانزلوا فيه التركمان لكثرتهم ولحفظ الموانى والدروب »

وقد جاء في تاريخ صالح بن يحيى المذكور قبل ما مر ما نصه « وعاد نائب الشام (بعد فتح كسروان) الى دمشق بالعساكر في رابع شهر صفر من السنة المذكورة (سنة ٧٠٦ هـ سنة ١٣٠٦ م) وجعل الناظر في بلاد بعلبك والجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش فقهر ما كان تأخر بجبال كسروان وقتل من اعيانهم جماعة ثم اعطوا اماماً لمن استقر في غير كسروان ثم اقطعوا علاء الدين خطاب وسيف الدين نكر الحسامي وابن صبح اراضي في كسروان ثم ابطلوها عنهم واقطعوها التركمان فادركوا مواني البحر ودروب البر من ظاهر بيروت الى عمل طرابلس واستمروا الى وقتنا هذا وشهروا بتركمان كسروان وعرفوا به »

وجاء في هذا التاريخ ايضاً « وكان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب (ابن اخي صلاح الدين الايوبي) صاحب حماة قد اوقف وقفاً على جماعة خيالة ورجالة برسم الجهاد واشرط عليهم ان يكونوا في اقرب المواني الى دمشق فلما استوطن المسلمون بيروت بعد الفتوح الاخير استقر اقامة المجاهدين المذكورين بها لقربها من دمشق وفي ايام السلطان الملك الظاهر برقوق عمر البرج الكبير ببيروت على قاعدة برج من ابراج القلعة الخربة فقرروا به المجاهدين المذكورين » الى ان يقول « اما امراء بني الغرب فاستقر دركهم على بيروت سنة ٦٩٣ هـ (سنة ١٢٩٤ م) وهي ثالث سنة الفتوح الاخير وذلك في ايام الامير زين الدين صالح بن علي بن بحتر وايام الامير سعد الدين خضر بن محمد واخيه جمال الدين حجي بن محمد ... وفي ايام ناصر الدين حسين استقر امراء الغرب تسعين فارساً وانقسموا ثلثة ابدال في كل شهر يقيم منهم ببيروت ثلاثون فارساً وفي انقضاء الشهر يحضر ثلاثون بدلهم وفي ذلك يقول بعض شعراء زمانهم

ايا ابن امير الغرب شرقاً ومغرباً ومن كلّ عرف غير عرفهم نكر
باحسانك المشهور بيروت بلدة على الساحل المعمور صار لها ذكرُ
الى ان يقول
هو الناصر المعروف بالجود والتقى له الفضل والاحسان والعطف والبرُّ ٠

وقد فصل لنا العلامة الدويهي كيف كانت هذه المراقبة والدرك بعد اخراج الفرنج من بيروت سنة ١٢٩٣ فقال جعلوا لبيروت مراقبة البحر وجعلوا فيها رهجية وحمام بطاقة (البطاقة الرسالة ورقيعة توضع في الثوب فيها ذكر الثمن سميت بذلك لانها تشد بطاقة من هدب الثوب) مدرج الى دمشق وخيل بريد فكانت النار (المعبر عنها بالرهجية) للحوادث في الليل وحمام البطاقة للحوادث في النهار والبريد لما يتجدد من الاخبار كل ذلك فعلوه خوفاً من رجوع الفرنج فجعلوا في الطريق من بيروت الى دمشق اربعة برد احدها في الحصين والثاني في قرية ايدل والثالث في خان ميسنون والرابع في دمشق ثم رتبوا ايضاً انوارًا تصل الى دمشق في ليلة واحدة فكانوا يشعلون نارًا في ظاهر بيروت في مكان معلوم فيجاوبها نار في راس بيروت العتيقه (لعلها دير القلعة حيث يسمى المحل بيروت العتيقة) ومنها الى جبل بوارش ومنه الى بيرس (في الجبل الشرقي) ومنه الى جبل الصالحية ومنه الى قلعة دمشق

واما امراء الغرب الذين مرّ ذكرهم فنلخص اخبارهم عن احدهم صالح ن يحيى الذي كان في اواسط القرن الخامس عشر وهو صاحب الكتاب تاريخ بيروت الذي افضل الاب لويس شيخو اليسوعي على العلم بنشره في المجلة المشرق سنة ١٨٩٨ منقولاً عن نسخة بخط المؤلف في مكتبة باريس الكاية فهذا المؤلف نص على ان جد امرآء الغرب انما هو الامير بحتر الملقب بناهض الدولة والمكنى بابي العشائر وهو ابن شرف الدولة علي واوصل نسبه الى تنوخ بني قحطان الى

المندر بن ماء السماء وانه اعتمد في هذا النسب على احمد بن عبد ربه وعلى الملك المؤيد صاحب حماة . واثبت صورة منشور من الاتابك الظهيري يذكر به امارته بالغرب من جبل بيروت وتاريخ هذا المنشور سنة ٥٤٢ هـ (توافق سنة ١١٤٧ للميلاد) في ايام الامير مجير الدين آبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملك بورى بن ظهر الدين طغتكين ويتحصل من ذلك ان هولاء الامراء استدعاهم اتابكة دمشق من جهات حلب الى الغرب في القرن الثاني عشر لمقاومة الفرنج ببيروت ثم اثبت المؤلف ايضاً منشوراً عاماً من الملك العادل نور الدين ذكر فيه كرامة بن بحتر المذكور وقال انه « الامير النجيب امير الغرب كرامة من اطاعه فقد اطاعنا ومن عاونه في الجهاد فقد عمل برضانا وكان شكوراً منا ومن خالفه فقد خالف امرنا وتاريخ هذا المنشور سنة ٥٥٢ هـ (سنة ١١٥٧ م) ثم اثبت منشوراً اخر من الملك العادل ايضاً موجهاً الى كرامة المذكور من مضمونه ان الامير كرامة بن بحتر التنوخي لاذ بالخدمة وقصد الدولة العادلة فاجيب الى ملتمسه وعين جهاته غالب قرى الغرب ومن غير الغرب القنيطرة من البقاع ظهر حمار من وادي التيم تغلبايا من البقاع المعاصر التحتى واتموقا والدامور وشارون ومجد لبعنا وكفرعميه . وتاريخ هذا المنشور ٧ رجب سنة ٥٥٦ هـ سنة ١١٦١ م

وكان ابناء كرامة اربعة اصغرهم حجي فهادنهم صاحب بيروت الفرنجي وكان يحسن اليهم واستدعاهم يوماً الى عرس في بيروت فحضر الثلاثة الكبار منهم فقتلهم غيلة وركب بعسكر الى حصن سر حمور فنهبوه وهدموه والقوا حجارته في الوادي واحرقوا القرى المجاورة له واسروا من تخلف عن الهرب وهربت ام حجي بولدها الصغير الذي كان باقياً عندها ثم حضر الملك الناصر بن ايوب لفتح بيروت سنة ٥٨٣ هـ سنة ١١٨٨ م فلاقاه حجي الى قرية خلدا ولما فتح السلطان بيروت قال لحجي ها قد اخذنا ثارك من الفرنج وكتب له منشوراً ورد عليه ما كان لابيه

واخوته وفي هذا المنشور ذكر سر حمور وعين كسور والدوير وطردلا وعين درافيل وذكر المؤلف المذكور مناشير من السلاطين لحجي مؤرخة بعد سنة ست ماية للهجرة ولم يذكر في اية سنة توفي بل ذكر بعده ابنه محمد الملقب نجم الدين واثبت منشورًا له من الملك الصالح ايوب ابن الملك الكامل محمد سلطان مصر والشام به يطيب خاطره ويامره ان يتاهب للقائه لانه قادم عن قرب الى البلاد وتاريخ هذا المنشور ١٦ ذي الحجة دون ذكر السنة وقال ان اولاده واولاد اخيه شرف الدين علي قتلوا في ثغرة الجوزات بكسروان في ١٦ ربيع الاخر سنة ٦٤٠ هـ سنة ١٢٤٣ م ومن اولاد نجم الدين محمد المذكور جمال الدين حجي الثاني وذكر له منشورًا من الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز سلطان دمشق وذكر جهاته عرامون وعين درافيل وطردلا وعين كسور ورمطون وقدرون ومرتعون والصباحية وسر حمور وعيناب وعين عنوب والدامور والدوير وتاريخ هذا المنشور ٢٥ صفر سنة ٦٥٥ هـ سنة ١٢٥٣ م وله منشور من الملك الظاهر بيبرس يذكر جهاته المذكورة وزيد عليها شملال وبتاتر وبيصور وكفر عميه وعيتات وتاريخه في رجب سنة ٦٥٩ هـ سنة ١٢٦١ م ولما تولى التتر على الشام اجتمع جمال الدين بكتبغا نائب هولاكو في الشام فكتب هولاكو له منشورًا يثبته في اقطاعه ومما كان في ايامه ان قطب الدين عيدي استقطع قرية كفرعميه من الامرآء التوخيين فوجد مقتولاً في القرية واتهم بعض هولاء الامرآء بقتله وكان بعضهم معتقلين بمصر فوجهت العساكر الى الغرب من بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت فاحرقوا بلادهم وكان ذلك سنة ١٢٧٨ ثم امنهم الملك السعيد ذكر هذا البطريرك الدويهي ايضاً في تاريخ السنة المذكورة وقد ذكر المؤلف رسالة له ولاخيه زين الدين من ملك الامراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون يأمرهما ان يتوجها مع سنقر المنصوري بجموعهما الى جهة كسروان والجرد وان من

سبي امرأة منهم كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً ومن احضر منهم راساً فله دينار وتاريخ هذه الرسالة سنة ٦٨٦ ﻫ (سنة ١٢٨٢ م) وجمال الدين هذا هو اول من سكن اعبيه من هولاء الامراء وكانوا قد سكنوا قبلاً عرامون الغرب وسرحمور وطردلا وقد ولد جمال الدين سنة ٦٣٣ ﻫ (سنة ١٢٣٦ م) وتوفي سنة ٦٩٧ ﻫ (سنة ١٢٩١ م)

فهذا ما لخصناه عن الكتاب المذكور في تاريخ هولاء الامرآء الى مبادي القرن الرابع عشر وقد بقي ابناء جمال الدين المذكور وابنا اخوته واعمامه يتولون عمل الغرب وما تبعه من اقطاعهم وسنأتي على ذكر ما كان مهماً من تاريخهم باوقاته ومن شاء زيادة تفصيل في اخبارهم فليطالع كتاب صالح بن يحيي المذكور في المجلة المشرق

عـد ٨٩٩

في احداث اخرى في ايام الملك الناصر الى حين وفاته

في سنة ٧١٢ ﻫ (سنة ١٣١٣ م) رخص السلطان الملك الناصر لرهبان الفرنج بان يسكنوا في جبل صهيون بوساطة روبرتس ملك صقلية وفيها اوصل سيف الدين سودي نائب السلطنة بحلب نهر الساجور الى نهر قويق وانفق عليه ثمان مئة الف درهم تبرع بالنصف من ماله والنصف الاخر من مال السلطة . ذكر ذلك البطريرك الدويهي في تاريخ هذه السنة

وفي سنة ٧١٤ ﻫ سنة ١٣١٤ م توفي سيف الدين سودي نائب حلب المذكور فولى السلطان مكانه الامير علاء الدين الطنبغا الحاجب . وفي سنة ٧١٥ ﻫ سنة ١٣١٥ م بنى الامير ناصر الدين حسين بن خضر بن محمد التنوخي دارًا جميلةً في قرية اعبيه وزينها ببرج وحمام وجنينة جر الماء اليها وفي هذه السنة سخط السلطان على سيف الدين تمر نائب اطرابلس الذي وليها بعد اقوش الافرم وسيق معتقلاً الى مصر

وولي مكانه سيف الدين كستاي ثم توفي فولي مكانه شهاب الدين قرطباي نقله اليها من نيابة حمص وولي نيابة حمص سيف الدين اقطاي ثم قبض سنة ٧١٨ هـ (سنة ١٣١٨ م) على طغاي الحسامي من الجاشنكير وصرفه نائباً الى صفد مكان بكتمر الحاجب ثم سخطه فاحضره معتقلاً وحبسه بالاسكندرية وبث على صفد سيف الدين اقطاي نقله اليها من حمص وبث على حمص بدر الدين بكتوت (عن ابن خلدون)

وفي سنة ٧١٦ هـ سنة ١٣١٦ م ظهرت سحابة في شرقي بعلبك وعظم الرعد والبرق والمطر وجرت المياه في الاودية بغزارة لم يعهد لها من نظير واجتمعت على السور حتى كادت تبلغ اعلاه فثلمت السور واخذت برجاً برمته طوله خمسة عشر ذراعاً وعرضه كذلك فحملته كما كان واخربت البيوت والحوانيت وتوجه بدر الدين بن معبد من دمشق الى بعلبك لروية الحاصل وكتب محضراً كان فيه عدد البيوت التي اقلبها السيل ٨٩٥ وعدد الحوانيت ١٣١ وعدد الجوامع والمساجد والمدارس ٣ غير ما هلك من الناس والماشية ذكر ذلك الدويهي سنة ١٣١٦ م وذكره ابو الفدا في تاريخ سنة ٧١٧ هـ وفيها ثار ايضاً من جهة اطرابلس ريح زعازع وهب عاصف من جهة البحر ونكون شبه تنين وهطلت الامطار على بيوت التركمان فلم تترك شيئاً من البيوت او سكانها سوى ثلثة عشر رجلاً هشمتهم الحجار والاخشاب وحملت الريح جمالاً والقتهم في البحر ووقع برد على هيئة اشطاف الحجارة ذكر ذلك العلامة الدويهي في تاريخ السنة المذكورة وروى ابو الفدا انه في اواسط نيسان من السنة المذكورة ترادفت الامطار وحصل سيول عظيمة في بلاد حلب وحماة وحمص وغرق اهل ضيعة من بلاد حمص مما يلي جوسية . وفي هذه السنة ايضاً رد السلطان على ابي الفدا قصبة المعرة وكان انبعها بطلب ابي الفدا الى ولاية حلب بعد ولاية ابي الفداء فرد المعرة الى ولايته في هذه السنة

وفي سنة ٧١٧ هـ سنة ١٣١٧ م ظهر في جبال بلاطنس انسان نصيري وادعى انه محمد ابن الحسن العسكري ثاني عشر الايمة عند الامامية الذي دخل السرداب فاتبعه من النصيرية جماعة كثيرة نحو ثلثة الاف نفر وهجم على مدينة جبلة ونهب اموال اهلها وسلبهم ما عليهم فجرد اليه عسكر من طرابلس ولما قاربوه تفرق جمعه وهرب واختفى في تلك الجبال فتبعوه وقتلوه وباد جمعه روى ذلك ابو الفدا في تاريخ سنة ٧١٧ هـ ورواه البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٣١٦ م

وفي سنة ٧٢٠ هـ سنة ١٣٢٠ م انعم السلطان على ابي الفداء بلقب سلطان فاستعظمه واستصغر نفسه عن ان يشارك السلطان بوصفه الشريف فندبه السلطان الى ذلك وارسل اليه شعار السلطنة واقام الامراء بين يديه ولما مثل امام السلطان قبل الارض مرات واتحفه السلطان بهدايا نفيسة وامره بالعود الى بلاده وقد توفي ابو الفداء سنة ٧٣٢ هـ سنة ١٣٣١ م وهو السلطان الملك المؤيد اسماعيل ابن الملك الافضل علي الايوبي وولى السلطان الملك الناصر ابنه الملك الافضل محمد برغبة ابيه الى السلطان في ذلك ولما مات الملك الناصر سنة ٧٤١ هـ سنة ١٣٤٠ م وقام بالامر بعده ابنه الملك المنصور ابو بكر محمد عزل الافضل عن حماة ونصب مكانه طغردمر فسار الملك الى دمشق فمات بها سنة ٧٤٢هـ سنة ١٣٤١ م وانقرضت ايالة بني ايوب من حماة (عن ابن خلدون)

وفي سنة ١٣٣٣ قدمت الى بيروت مراكب الافرنج من جنوا وكان الوالي فيها عز الدين اليسري من قبل تنكز نائب السلطنة بدمشق ونزلوا الى المدينة وقاتلوا اهلها يومين ودخلوا برجها واخذوا الاعلام السلطانية . ولما بلغ ذلك تنكز امير الامراء دعا امراء الغرب الذين بعرامون والتركمان الذين بكسروان وبكتهم واهانهم لتقصيرهم في المحافظة

وفي سنة ١٣٣٩ م وقعت نار في دمشق بشرقي الجامع الاموي فاحرقت سوق

اللبادين والوراقين ثم وقعت مرة اخرى فاهلكت مالاً وخلقاً كثيرًا فاتهم النصارى بذلك لانه كان قد جرى تعدٍ على كنائسهم فقبضوا على روساء النصارى وطوفوهم على الجمال وسمروا اربعة عشر شخصاً منهم واخذوا منهم مالاً جزيلاً ورسم تنكز نائب السلطنة ان لا يستخدم المسلمون النصارى في الدواوين وبلغ ذلك مسامع السلطان فارسل نائب السلطنة بصفد فقبض على تنكز واعتقله واخذه الى القاهرة ثم اعتقل في الاسكندرية وتوفي في السجن

وارسل السلطان علاء الدين طنبغا الى دمشق نائباً بها فقبض على اولاد تنكز وعاق بعضهم على الخشب وضبط اموالهم وكانت وافرة جدًا وارسلها الى مصر (عن تاريخ البطريرك اسطفانس الدويهي)

عد ٩٠٠

في وفاة الملك الناصر وتعاقب ابنائه في الخلافة

قد توفي السلطان الملك الناصر في ذي الحجة اخر سنة ٧٤١ ﻫ سنة ١٣٤٠م بعد ان جلس على منصة السلطنة ثلث مرات واستمر في السلطنة الاخيرة من حين استبد وصفا له الملك ثنتين وثلاثين سنة ولما اشتد المرض به اراد ان يعهد بالملك الى قوصون اعظم امرائه فامتنع فعهد لابنه ابي بكر ومات فمال يشتك احد امرائه العظام الى تولية ابنه الاخر احمد الذي كان ابوه قد ولاه الكرك فأبى قوصون الا الوفاء بعهد السلطان فانقاد يشتك اليه فبويع ابو بكر بالخلافة ولقب الملك المنصور وقام قوصون بامر الدولة وقطلوبغا الفخري فولوا على نيابة السلطان طقردمر وبعثوا على حلب طشتمر وعلى حمص اخضر عوضاً عن طغراي واقروا كبغا الصالحي على دمشق ثم استوحش يشتك من استبداد قوصون وقطلوبغا دونه وطلب نيابة دمشق فاعتذروا له ولما جاء للوداع قبض عليه قطلوبغا الفخري وبعث به الى الاسكندرية فاعتقل بها ثم اقبل السلطان ابو بكر على لذاته ونزع عن الملك وصار

يمشي في سكك المدينة متنكرًا مخالطاً السوقة فنكر الامراء ذلك وخلعه قوصون وقطلوبغا ولم يبق في السلطنة الا سبعة وخمسين يوماً من بيعته (وعن البطريرك الدويهي انه ملك ثمانية اشهر) وبعثوا به الى قوص فحبس بها

وبعد خلع ابي بكر ولوا اخاه كجك ولقبوه الملك الاشرف وعزلوا طقردمر عن نيابة السلطنة وقام قوصون بها وبعثوا طقردمر نائباً على حماة وعزلوا عنها الافضل بن الملك المؤيد اسماعيل ابي الفدا (وقد مر ان عزله كان في ايام ابي بكر والقولان لابن خلدون) وبعثوا بقتل يشتك في محبسه بالاسكندرية

ولما بلغ الى الامرآء بالشام الخبر باستبداد قوصون على الدولة غصوا من مكانه واعتزموا على البيعة لاحمد ابن الملك الناصر اخي ابي بكر وكجك وكان مقيماً بالكرك منذ ولاه ابوه امارتها وكاتبه طشتمر نائب حمص واخضر نائب حلب وحاه على الملك وبلغ الخبر الى مصر فخرج قطلوبغا الفخري في العساكر لحصار الكرك وكتبوا الى طنبغا الصالحي نائب دمشق فسار في العساكر للقبض على طشتمر نائب حمص واخضر نائب حلب وكان قطلوبغا قد استوحش من صاحبه قوصون وغص باستبداده عليه فلما سار بالجند من مصر بعث ببيعته الى احمد بن الملك الناصر بالكرك وسار الى الشام يستدعي الناس الى مبايعة احمد المذكور ودعا اليه طقردمر نائب حماة فاجابه وقدم عليه وانتهى الخبر الى طنبغا نائب دمشق وهو يحاصر حلب فافرج عنها ودعاه قطلوبغا الى بيعة احمد فابى فانتقض عليه اهل دمشق وسار الى مصر فاستولى قطلوبغا على الشام اجمع بدعوة احمد وبعث الى الامرآء بمصر فاجابوه اليها وهيجوا الشعب لخذل قوصون فنهبوا بيوته وخربوها واقتحموا القلعة وقبضوا على قوصون وبعثوا به الى الاسكندرية فمات في محبسه . وقدم السلطان احمد من الكرك الى مصر في رمضان سنة ٧٤٢ هـ (سنة ١٣٤١ م) ومعه طشتمر نائب حمص واخضر نائب حلب وقطلوبغا الفخري فاستوى على عرش

السلطنة ولقب الملك الناصر وولى طشتمر نيابة السلطنة بمصر وبعث قطلوبغا الفخري الى دمشق وقبض على اخضر والي حلب وولى عليها مكانه ايدغمش وبلغ الخبر الى قطلوبغا الفخري قبل وصوله الى دمشق فعدل الى حلب وقبض على ايدغمش وبعث به الى مصر فاعتقله السلطان واعتقل معه طشتمر نائب السلطنة لريبة فيه فاستوحش الامرآء من السلطان وارتاب بهم فارتحل الى الكرك بعد ثلثة اشهر من بيعته واخذ معه طشتمر وايدغمش معتقلين واستوحش بيبرس الاحمدي نائب صفد وسار الى دمشق فتلقاه العسكر وما لأوه وبعث السلطان في القبض عليه فابى ان يسلم وقال انما الطاعة لسلطان مصر لا لصاحب الكرك واضطرب الشام فبعث اليه الامراء بمصر بالرجوع الى دار ملكه فامتنع وقال هذه مملكتي انزل من بلادها حيث شئت وعمد الى طشتمر وايدغمش فقلهما فاجتمع الامرآء بمصر وخلعوه وبايعوا لاخيه اسماعيل في محرم سنة ٧٤٣ ﻫ (سنة ١٣٤٢ م) ولقبوه بالملك الصالح

فولى الملك الصالح اقسنقر السلاري نيابة السلطنة وسرح العساكر سنة ٧٤٤ﻫ (سنة ١٣٤٣ م) لحصار الكرك مترادفة للقبض على اخيه الملك الناصر احمد ونزع عن الملك الناصر بعض العساكر ولحقوا بمصر وكثر القتال بالكرك الى ان اقتحمت عساكر الملك الصالح الملك الناصر وقتلوه سنة ٧٤٥ ﻫ (سنة ١٣٤٤ م) واستبد الملك الصالح بالملك لكنه ارتاب بكثير من الامرآء وقبض على نائبه اقسنقر السلاري وبعث به الى الاسكندرية فقتل هناك . وولى مكانه انجاح الملك ثم توفي الملك الصالح حتف انفه سنة ٧٤٦ ﻫ (سنة ١٣٤٥ م) واستمر بالملك ثلاث سنين وثلاثة اشهر

وبويع بعده بالخلافة لخوه زين الدين شعبان ولقب بالملك الكامل وجعل النيابة بمصر لارغون العلاوي وارسل انجاح الملك ليكون نائباً بصفد ثم استرده

من طريقه وبعثه معتقلاً الى دمشق وتوفي بعد ذلك في محبسه وارهف السلطان الكامل حده في الاستبداد على اهل دولته فرارًا مما يتوهم فيهم من الحجر عليه فتراسل الامرآء بمصر والشام وانتقض عليه طنبغا اليحياوى ومن معه بدمشق سنة ٧٤٧ ﻫ (سنة ١٣٤٦ م) وبرز في العساكر يريد مصر وبعث السلطان منجو اليوسفي يستطلع اخبارهم فحبسه اليحياوى فجرد الكامل العساكر الى الشام واعتقل حاجي وحسين اخويه بالقلعة وثار الامرآء بمصر وركبوا الى قبة النصر فركب السلطان اليهم في مواليه واقتتلوا فقتل ارغون العلاوي نائبه فرجع السلطان الى القلعة منهزماً ودخل من باب السر مختفياً وقصد محبس اخويه ليقتلهما فحال الخدام دونهما واغلقوا الابواب ودخل الامرآء القلعة من بعده فاخرجوا حاجي اخا السطان من معتقله فبايعوه ولقبوه بالملك المظفر وافتقدوا الكامل فوجدوه واعتقلوه مكان حاجي اخيه وقتل في اليوم الثاني في السنة المذكورة وكان ملكه سنةً وشهرًا واياماً

اما لملك المظفر حاجي فعهد بالنيابة له بمصر الى ارغون شاه والحجازي وولوا طقتمر الاحمدي النيابة بحلب والصلاحي النيابة بحمص وحبس المظفر جميع موالى الكامل اخيه ونزع الى الاستبداد فقبض على الحجازي والناصري وقتلهما لاربعين يوماً من ولايته وارسل ارغون شاه نائبه الى صفد للنيابة بها وجعل مكان طقتمر الاحمدي في حلب تدمر البدري وارهف في الاستبداد فاستوحش الامرآء بمصر والشام وانتقض اليحياوي المذكور انفاً بدمشق وادخله نواب الشام في الخلاف وبلغ الخبر الى مصر فتواعد الامرآء بها للوثوب على المظفر ونمى الخبر اليه فاستدعاهم من الغد الى القصر وقبض على كل من اتهمه منهم بالخلاف وهرب بعضهم فادركوا واعتقلوا جميعاً فقتل بعضهم وبعث بعضهم الى الشام فقتلوا في الطريق وولى من الغد مكانهم خمسة عشر اميرًا ووصل الخبر الى دمشق فلاذ

اليحياوي بالمغالطة وقبض على جماعة من الامرآء وكان الملك المظفر قد ارسل احد خاصته الى دمشق يستطلع الاخبار فحمل الناس على طاعة المظفر واغراهم بقتل اليحياوي فقتلوه وبعثوا برأسه الى مصر وسكنت الفتنة واستوسق الملك للمظفر ثم تجددت الثورة بمصر وخرج الامرآء الى قبة النصر فركب المظفر في مواليه اليهم وبعض الامرآء الذين معه يرون ما يراه خصومه من خلعه و لما تورط في الزحف اليهم اسلمه من كان معه الى بيقاروس احد الامرآء المخالفين له فقتله على تربة امه في خارج القلعة ودفن هناك في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ ﻫ (سنة ١٣٤٧م) بعد ان ملك سنة وثلثة اشهر

وبعد مقتل المظفر اقام الامرآء عامة يومهم يتشاورون في من يولونه واجمعوا على مبايعة حسن ابن الملك الناصر ايضاً ولقبوه الناصر بلقب ابيه وقام ستة من الامرآء بامور الدولة وكان المستبد عليهم جميعاً بيقاروس القاسمي قاتل الملك المظفر فقتل الحجازي واقسنقر اللذين كانا قائمين بدولة المظفر اخيه وقبض على رفيقه احمد شادي من اوليك الامراء الستة وغربه الى صفد وابعد الجبقا منهم ايضاً الى اطرابلس ليكون نائباً بها وبعث ارغون الاسماعيلي منهم ليكون نائباً بحلب اما الجبقا المذكور فسار صحبة اياس الحاجب الى اطرابلس ولما انتهيا الى دمشق فبلغ الجبقا ان ارغون شاه نائب دمشق تعرض لبعض حرمه فطرقه في بيته ليلاً فذبحه وصنع مرسوماً سلطانياً دافع به الناس والامراء عن نفسه واستصفى امواله ولحق بطرابلس ولما عرض الامر للسلطان انكر المرسوم وامر باتباعه فزحفت العساكر الى الجبقا بطرابلس فقبضوا عليه وعلى اياس الحاجب وجاؤا بهما الى مصر فقتلا

ثم شرع السلطان حسن الناصر بالاستبداد على عادة اخوته وقبض على منجك اليوسفي استاذ داره وعلى السلحدار واعتقلهما من غير مشورة بيقاروس واصحابه فارتاب بيقاروس واستاذن السلطان في الحج هو وطاز فاذن لهما ودس الى طاز

ان يقبض على بيقاروس ولما نزلا بالينبع قبض طاز على بيقاروس ورغب اليه في ان يتركه يحج مقيدًا فتركه ولما رجعوا من الحج حبسه طاز بالكرك بامر السلطان ثم افرج عنه وولاه نيابة حلب كما سياتي ولما بلغ حبر اعتقاله الى احمد شادى نائب صفد انتقض على السلطان فجهز السلطان اليه العساكر فقبضوا عليه وجاءوا به الى مصر فاعتقل بالاسكندرية واستوحش اهل دولة الناصر منه لقبضه على بيقاروس وحبسه ورفعه عليهم مغلطاي احد الامرآء فتفاوضوا في خلعه وداخل طاز المذكور وهو كبيرهم جماعة من الامراء في الثورة فاجابوه اليها فركبوا ودخلوا القلعة من غير ممانع فقبض طاز على الناصر واعتقله واخرج اخاه حسينًا من اعتقاله فبايعه ولقبه الملك الصالح وكان ذلك سنة ٧٥٢ ه (سنة ١٣٥١ م) بعد ان اقام بالملك ثلث سنين ونحو عشرة اشهر

وقام طاز بحمل دولة ملكه الصالح وابعد بيقوا الشمسي الى دمشق وبيقرا الى حلب اسيرين وانفرد بالامر فنافسه امرآء الدولة واجتمعوا على الثورة وكان كبراوهم مغلطاى ومنكلي وبيبقا العمرى وركبوا في من اجتمع اليهم الى قبة النصر للحرب فركب طاز وسلطانه الصالح في جموعه ففض جمعهم واثخن فيهم وقبض على مغلطاى ومنكلي وحبسهما بالاسكندرية وقبض على الشمسي المحمدى نائب دمشق ونقل اليها لمكانه ارغون الكاملي من حلب وافرج عن بيقاروس بالكرك وبعثه مكانه الى حلب

فتذكر بيقاروس قبض طاز عليه وادركته المنافسة والغيرة من استبداده بالدولة فحدثه نفسه بالخلاف وكاشف نواب الشام فوافقه في ذلك بلكمش نائب اطرابلس واحمد شادى نائب صفد وخالفه ارغون الكاملي نائب دمشق وتمسك بالطاعة ودعا بيقاروس العرب والتركمان فاجابه جبار بن مهنا من العرب وقراجا بن العادل من التركمان في جموعهما وبرز بيقاروس من حلب قاصدًا دمشق فاجفل عنها ارغون

نائبها الى غزة ووصل بيقاروس فلكها وامتنعت القلعة فحاصرها وكثر العيث من عساكره في القرى فسار السلطان وامرآء الدولة من مصر في العساكر وبلغ بيقاروس خروج السلطان فاجفل عن دمشق وثار العوام بالتركمان فاثخنوا فيهم ووصل السلطان الى دمشق ونزل بالقلعة وجهز العساكر في اتباع بيقاروس فجاؤا بجماعة من الامرآء الذين كانوا معه فقتل السلطان بعضهم وحبس الباقين وولى على دمشق الامير علياً الماردانى ونقل منها ارغون الكاملي الى حلب وسرح العساكر في طلب بيقاروس مع مغلطاى الدوادار فقبض على بيقاروس واحمد وقطلمش من امرايه وقتلهم وارسل روسهم الى السلطان وكان ذلك في سنة ٧٥٣ وسنة ٧٥٤ ﻫ (سنة ١٣٥٢ سنة ١٣٥٣ م)

وكان شيخو اتابك العساكر قد ارتاب بصاحبه طاز فداخل الامرآء بالثورة وتربص الى ان خرج طاز الى البحيرة متصيداً فركب شيخو الى القلعة فخلع الملك الصالح وقبض عليه والزمه بيته وبايع لحسن الناصر اخيه واعاده الى كرسيه بعد ان كان معتقلاً كما مر وكان ذلك سنة ٧٥٥ ﻫ (سنة ١٣٥٤ م) فدامت ولاية الصالح ثلث سنين

وبعد ان اجلس شيخو الناصر على كرسيه ثانية قبض على طاز وبعثه الى حلب نائباً وعزل ارغون الكاملي فاتى الى دمشق ثم قبض عليه سنة ٨٥٦ ﻫ (سنة ١٣٥٥ م) وسيق الى الاسكندرية فحبس بها وتوفي الشمسي الاحمدي نائب اطرابلس فولي مكانه منجك واستبد شيخو بالدولة وتصرف بالامر والنهي واعتمده الملوك من النواحي شرقاً وغرباً بالمخاطبات وكان سرغتمش رديفه بالولاية الى ان وثب يوماً بعض الموالي سنة ٧٥٨ ﻫ (سنة ١٣٥٧ م) على شيخو بمجلس السلطان وضربه بالسيف ثلاثاً اصاب بها وجهه وراسه وذراعيه فحمل الى منزله وامر السلطان بقتل المملوك الذي ضربه ثم مات شيخو وهو اول من سمى بالامير الكبير بمصر

واستقل سرغتمش رديفه بتدبير مهام المملكة وقبض على طاز بحلب وحبسه بالاسكندرية وولّى مكانه الامير علياً الماردانى نقله من دمشق وولى مكانه بدمشق منجك اليوسفي ثم قبض على سرغتمش سنة ٧٥٩ هـ (سنة ١٣٥٨ م) وعلى جماعة من الامراء وحبسهم بالاسكندرية ثم قتلهم واستبد السلطان بملكه

وجعل السلطان مملوكه بيبقا (كذا سماه ابن خلدون وسماه غيره يلبغا) امير الف واقام في الحجابة الجاي اليوسفي ثم بعثه الى دمشق نائباً واستقدم منجك نائب دمشق فاستتر واختفى وكان هذا السلطان يأنس بالعلماء والقضاة ويجمعهم في داره مبتذلاً ويفاوضهم في مسائل العلم ويصلهم ويحسن اليهم الى ان ثار عليه بيبقا الذي اكثر من احسانه اليه وهو في خيامه خارجاً عن داره فانهزم السلطان منه ليلاً وتسرب في المدينة واختفى وركب الامراء لمدافعة بيبقا فالتقاهم ببولاق وهزمهم مرات وتقبض على السلطان وكان اخر العهد به وانتهى به ملك ابناء السلطان الناصر الثمانية سنة ٧٦٢ هـ (سنة ١٣٦٠ م) انتهى ملخصاً عن ابن خلدون في الجزء ٥ وعن تاريخ الدول لعبد الحارث الشريف الشافعي نقلاً عما رواه المطران اسطفان عواد السمعاني عن كتابه فهرست المكتبة المادیشية

عـد ٩٠١

في بعض احداث غير ما ذكر في ايام هولاء الملوك

روى البطريرك اسطفانوس الدويهي عن ابن سباط انه في سنة ١٣٤٥ م اجفل الناس في السواحل لانه بلغهم ان ملك قبرس سيحمل على بيروت وما جاورها فارسل يلبغا نائب السلطنة بدمشق بيدمر الخوارزمي وامر ببناء شواني ومراكب وان امراء الغرب وتركمان كسروان يسكنون في بيروت مع العساكر الشامية ويحتاطون ليلاً ونهاراً لئلا يباغتهم العدو

وفي سنة ١٣٤٨ كان طاعون شديد الوطأة عم البلاد الحلبية والشامية ولم

يعهد ببلاد الشام مثله حتى روى صلاح الدين الصفدي انهم صلوا احياناً بدمشق على مئتين وثلاث وستين جنازة وانقرض سكان بعض الضياع وكانت شدة وطأة الطاعون من غلاء ثمن المون ولكثرة عدد الموتى رخصت الاسعار وثارت ارياح شديدة وهطلت امطار غزيرة فاستبشر النـاس بزوال الوباء لكنه لم يزل بل ازداد حتى صُلّي بدمشق على مئة وثلاثين ميت في يوم واحد

وروى الدويهي عن ابن سباط ايضاً انه في سنة ١٣٥٥م قصدت مراكب بعض الافرنج صيدا وقتلوا جماعة من اهلها واسروا جماعة وقتل ايضاً خلق كثير من الفرنج وكسر مركب من مراكبهم ووصل الصراخ الى دمشق فاجتمعت العساكر من دمشق وصفد وبادروا الى استفكاك الاسرى واخذوا من ديوان الاسرى مبلغ ثلاثين الف درهم واعطوا الفرنج على كل راس خمس مئة درهم

وقد روى صالح بن يحيي هذا الخبر في كتابه تاريخ بيروت الذي نشرته المجلة المشرق باكثر تفصيل فقال جاز على بيروت تعميرة (يريد عمارة او اسطول) للفرنج ولم يتعرضوا لها بل توجهوا الى صيدا واخذوها وقتلوا من اهلهـا جماعة واسروا جماعة ونهبوا منها شيئاً كثيرًا وكذلك المسلمون فانهم قتلوا من الفرنج جماعة وبعثوا رؤوسهم الى دمشق فعلقوها على القلعة وكانت بضعاً وثلاثين راساً وحضر الى صيدا الامير شهاب الدين بن صبح نائب صفد وسبق العسكر الشامي ولحق التعميرة على جزيرة صيـدا بعد فوات الامر فاشترى الاسرى جميعهم كل نفر بخمس مية درهم واخذ من ديوان الاسرى ثلاثين الف درهم ؛

عـد ٩٠٢

في الملك المنصور والملك الاشرف وما كان في ايامهما

بعد وفاة الملك الناصر نصب بيبغا نائب السلطنة المذكور محمد ابن المظفر ولقبه الملك المنصور وقام بكفالته وتدبير دولته وجعل طنبغـا الطويل رديفه وافرج عن

طاز الذي كان معتقلاً كما مر لكنه كان قد عمي فبعثه الى القدس بسوأله ثم الى دمشق ومات فيها وولى عرب الشام جبار بن مهنا وامسك جماعة من الامراء وحبسهم

ولما اتصل بالشام ما فعله بيبقا وانه استبد بالدولة وكان اسندمر نائباً بدمشق امتعض لذلك وعول على الانتقاض ووافقه عليه بعض اصحابه فاستولى على قلعة دمشق وخبر بيبقا بذلك فسار في العساكر من مصر ومعه السلطان المنصور ووصلا الى دمشق فاعتصم المخالفون بالقلعة وترددت بينهم القضاة بالشام حتى نزلوا من القلعة على الامان بعد ان حلف لهم بيبقا فلما نزلوا بعث بهم الى الاسكندرية فحبسوا بها وولى الامير الماردانى نائباً بدمشق وقطلوبغا الاحمدي نائباً بحلب وعاد السلطان وبيبقا الى مصر

وبدا لبيبقا استرابة في الملك المنصور فخلعه سنة ٧٦٤ هـ (سنة ١٣٦٢ م) ونصب مكانه شعبان ابن الناصر حسن وكان عمره عشر سنين ولقبه الملك الاشرف وتولى كفالته وفي سنة ٧٦٥ هـ (سنة ١٣٦٣ م) عزل الماردانى من دمشق وولى مكانه منكلي بغا نقله من حلب الى دمشق وولى مكانه بحلب قطلوبغا الاحمدي فتوفي قطلوبغا المذكور فولى مكانه غشقتمر الماردانى ثم عزله سنة ٧٦٦ هـ (سنة ١٣٦٤ م) وولى مكانه سيف الدين فرجي

وفي سنة ٧٦٧ هـ (سنة ١٣٦٥ م) قصد ملك قبرس الاسكندرية في اسطول عظيم يقال بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدة والعدد وانزل عسكره الى البر وزحفوا الى المدينة وحاميتها قليلة حينئذٍ واسوارها خالية من الرماة ونائبها غائب ووصل الفرنج الى الباب فاحرقوه واقتحموا المدينة فاضطرب اهلها وماج بعضهم في بعض واجفلوا الى جهة البر بما امكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليه من اموالهم وشعر بهم الاعراب اهل الضاحية فتخطفوا الكثير منهم وتوغل الفرنج في المدينة فنهبوها وملأُوا سفنهم من المال والمتاع والبضائع وسبوا واسروا كثيرين

وكثر اليهم الصريخ من العرب وغيرهم فانكفأوا الى اساطيلهم واقلعوا من الغد وطار الخبر الى كافل الدولة بيبغا فخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعهم ابن عوام نائب الاسكندرية فبلغهم الخبر في طريقهم باقلاع العدو فلم يثنهم ذلك عن المسير الى الاسكندرية وشاهد بيبغا ما وقع بها من معرة الخراب وآثار الفساد وقد امتلأت جوانحه غيظاً وحنقاً على اهل قبرص فامر بانشاء مئة مركب واعتزم على غزو قبرص بعساكر المسلمين واحتفل في الاسعداد لذلك واستكثر من السلاح والآت الحصار فكمل ذلك فلم يقدر على اتمام غرضه من الجهاد لما وقع من العوائق كما سيجي هذا ملخص ما رواه ابن خلدون

وجاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحي ان انشاء هذه المراكب كان في بيروت واليك ما جاء في هذا الكتاب « وفي يوم الجمعة ١٣ من محرم سنة ٧٦٧ھ (سنة ١٣٦٥م) اخذت الاسكندرية وكان الامير الكبير يلبغا (هو الذي يسميه ابن خلدون بيبغا) العمري المتكلم عن السلطان لحداثة سنه فرسم للامير بيدمر الخوارزمي بالتوجه الى بيروت ليعمر من غاباتها مراكب كثيرة حمالات وشواني للدخول الى قبرس فحضر الى بيروت واحضر صناعاً كثيرين من سائر الممالك فكانوا جماً غفيراً وقيل انه لم يعهد قط عمارة مثلها عظماً وسرعة وكثرة صناع وقوة عزم وعمر بيدمر بظاهر بيروت مسطبة وعرفت به الى الآن وكانت المراكب تعمل بها على بعد من البحر وحضر عسكر الشام متجرداً فنازلوه بين البحر والمراكب حذراً من ان مراكب قبرس تحضر على حين غفلة فيحرقوا ما يعمل من المراكب وكان نائب الشام في ذلك الوقت اقستمر عبد الغني ولما توفي يلبغا العمري في ليلة الاحد ١٠ من ربيع الاخر سنة ٧٦٨ ھ (سنة ١٣٦٦ م) ابطلت العمارة المذكورة ولم ينزل من المراكب الى البحر سوى حمالتين كبيرتين ... وكان الامير بيدمر قد استعجل القوم على عمارتهما ليجهزها فتحضرا صوارى ومقاذيف لباقي الشواني التي يعمرونها

ثم بقيتا بعد ذلك في ساحة بيروت حتى تلفتا وكذلك تلفت باقي الشواني التي لم تنزل في البحر وكان قد صرف عليها مالاً جزيلاً فذهب سدى لم يستفد منها سوى الحديد بعد ما اخذ الناس منه شيئاً كثيرًا ٠

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في هذه الاحداث روى ميشود في تاريخ الصليبين (عدد ٥ صفحة ٢٥٣) ان بطرس لوسنيان ملك قبرس سار الى المغرب يستصرخ النصارى لاسترداد الارض المقدسة فلبي دعوته بعض المتبطلين المتعطلين وساعدته جمهورية البندقية لما ترجوه من رواج تجارتها في المشرق وعاونه بعض فرسان رودس وبعد عوده الى قبرس سار منها في عسكر يبلغ عشرة الاف رجل الى الاسكندرية وكانت حاميتها قليلة فاستولوا عليها ورغب ملك قبرس في ان يحصنها ويعتصم بها منتظرًا وفود عسكر مصر لقاتله اما جنوده واعوانه فآثروا ان ينهبوا هذه المدينة الثرية فنهبوها وخافوا ان يهاجمهم بها عسكر مصر فاحرقوها وارتحلوا عنها في اليوم الرابع بعد استيلائهم عليها فحنق المسلمون من ذلك شديد الحنق واذاقوا النصارى بمصر مر العذاب والاضطهاد ٠ اما الفرنج المذكورون فاحتلوا بعد مدة سواحل سورية فاستحوزوا على اطرابلس التي كانت قد جددت بعد خرابها واحرقوها وكذلك صنعوا بطرطوس واللاذقية وغيرهما من مدن فونيقى فلم يكن نفعٌ من هذه الحملة سوى اثارة حنق المسلمين على النصارى

ولما كان الملك الاشرف يخشى غير الفرنج من الاعداء لم تكن له مراكب تعادل مراكبهم فهادنهم على الشروط الآتية اولها ان يخلي سبيل الاسرى من الفريقين والثاني ان يكون لملك قبرس نصف الدخل من المكوس المضروبة على ما يدخل الى صور وبيروت واورشليم والاسكندرية ودمشق والثالث ان يباح النصارى الفرنج الحج الى اورشليم وجرى الاتفاق على ضريبة يؤديها الزائرون ورد السلطان على فرسان القديس يوحنا الدار التي كانت لهم في اورشليم ورخص للنصارى ان

يجددوا بناء كنيسة القبر المقدس وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة وغيرها على ان ملك قبرس والفرنج لم يتمتعوا زماناً طويلاً بما وافقهم سلطان مصر وسورية عليه لانه بعد ان تفرق جنود هذه الحملة اخلف وعده ولم يشاء ان يعمل بشي مما جرى الاتفاق عليه

وفي سنة ٧٦٨ هـ (سنة ١٣٦٦ م) كان استبداد يبقا على السلطان قد طال وثقلت وطاته على الامرآء واهل الدولة وخصوصاً على مماليكه وارهف حده في التاديب لهم حتى بجدع الانوف واصطلام الاذان وكان كبير خواصه اسندمر واوقع في بعض الايام مثل هذه العقوبة باخي اسندمر فاستوحش له وداخل سائر الامرآء في الثورة على يبقا وكاشفوا السلطان في ذلك فسرّح يبقا الى البحيرة واخذ الامرآء يتشاورون في نكبته فنما الخبر اليه فعاد الى القاهرة وجمع من كان بها من الامرآ والحجاب فخلع الاشرف ونصب اخاه توك ولقبه الملك المنصور واستعد للحرب وكان السلطان غائباً عن دار ملكه واراد العود اليها فالتقاه يبقا واصحابه يرشقونه ومن معه بالسهام ويرسلون عليهم الحجارة من المجانيق فاجتمعت العساكر على السلطان وهاجوا الخونة فانفض اصحاب يبقا عنه وتركوه اوحش من وتد في فلاع فولى منهزماً الى بيته فاستحضره السلطان وحبسه بالقلعة ثم ضربه بعضهم وهو مقبل للتضرع فقطع رأسه وقام بالدولة اسندمر الناصري وردفه يبقا الاحمدي وغيرهما من الامرآء وابدوا الاستهتار بالسلطان والرعية ونادوا بخلع السلطان فركب في مماليكه وبعض الجند والعامة فهزم هولاء المتقضين وجيء باسندمر اسيرًا وشفع به الامرآء فاطلقه السلطان باقياً على اتابكيته ثم استأنفوا الانتقاض فركب اليهم السلطان والامرآء فهزمهم وقتل كثيرين منهم وارسل بعضهم الى الحبس بالاسكندرية واستبد السلطان بامره واستدعى سنكلي بغا من حلب وجعله اتابكاً واستأتى الامير علي الماراني من دمشق وولاه النيابة وكان

ذلك سنة ٧٦٩ هـ (سنة ١٣٦٧ م)

وفي سنة ٧٧٤ هـ (سنة ١٣٧٢ م) توفي سنكلي بغا الاتابك وكان الجائي اليوسفي امير سلاح عند السلطان فجعله اتابكاً ايضاً فاسخط السلطان وغمط نعمته وانتقض فلاطفه السلطان فبطر فارسل اليه مماليكه واذنهم بقتاله فقاتلوه وانهزم امامهم حتى غرق في البحر واستدعى السلطان ايدمر القري وكان نائباً بطرابلس فولاه اتابكاً مكان الجائي المذكور ورفع رتبته وولى في نيابة السلطنة منجك اليوسفي نائب السلطنة بالشام واستقر السلطان الاشرف في دولته على اكمل حالات الاستبداد واذعان الناس لطاعته واراد قضاء فرض الحج فخرج اليه سنة ٧٧٨ هـ (سنة ١٣٧٦م) وانتهوا الى عقبة ايله فانتقض عليه بعض مماليك يبقا الذين كان قد ردهم الى خدمة الدولة وجاهروا بالخلاف فركب السلطان في خاصته يظن انهم يرعوون او يجنح اليه بعضهم فابوا الا قتاله ولما عاينوه نضحوا موكبه بالنبل فرجع الى خيامه منهزماً وركب البحر في لفيف من خواصه قاصدًا العود الى القاهرة وكان عند سفره عنها استخلف ابنه علياً ولي العهد واوصى نائبه اكتمر عبد النبي بالانتهاء الى مراسيمه وترك جماعة من الامرآء والمماليك في وظائفهم وكان منهم قرطاي الطازي كفيل ولي العهد وايبك البدري فسولت لقرطاي نفسه الانتقاض وداخل بعض الامرآء به وحضر بجم غفير الى القلعة فحمل الامير على ابن الاشرف وولى عهده وبايعه واستدعى الامراء القايمين بالقاهرة فبايعوه واخذ هو كفالة السلطان وجعل ايبك المذكور رديفاً له

واما السلطان فعرف في طريقه بواقعة القاهرة وما فعله قرطاي فاشار بعضهم عليه بقصد الشام واخرون بالوصول الى القاهرة فساروا اليها وانتهوا الى قبة النصر ليلاً وغشيهم النعاس فناموا وانفرد السلطان عنهم واختفى وعرف بهم اهل الثورة فوثبوا عليهم وقتلوهم وجاءت امرأة الى ايبك فدلته على السلطان في بيت

جارتها فاستخرجوه من ذلك البيت ودفعوه الى ايبك فامتحنه حتى دلهم على الخزينة وقتلوه خنقاً سنة ١٣٧٦ وكان بويع سنة ١٣٦٢ فتكون مدة ملكه اربع عشر سنة (انتهى ملخصاً عن ابن خلدون وغيره)

﴿ عـد ٩٠٣ ﴾

في المنصور بن الاشرف واخيه الصالح وما كان في ايامهما

فبعد مبايعة الامير علي ابن السلطان الاشرف ومقتل والده لقبوه بالملك المنصور وقام بالدولة قرطاي الطازي وقسم الوظائف كما شاء وكان ايبك البدري العزي المذكور رديفاً لقرطاي في حمل الدولة من اول ثورتهم وكان يعرف من قرطاي عكوفه على لذاته فعمل قرطاي ضيافة في بيته سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) وجمع اليها ندماءه فاهدى اليه ايبك نبيذا اذيب فيه بعض المرقدات فباتوا يتعاطونه حتى غلبهم السكر ولم يفيقوا فركب ايبك من ليلته واركب السلطان المنصور معه واختار الامر لنفسه واجتمع الناس عليه وفاق قرطاي ورأى اجتماع الناس على ايبك فارسل اليه يستأمنه فامنه ايبك ثم قبض عليه فسيره الى صفد واستبد ايبك بالدولة

ثم انتقض طشتمر بالشام ووافقه على الانتقاض كثيرون من الامرآء فنادى ايبك في الناس بالمسير الى الشام فتجهزوا وسرح مقدمتهم مع ابنه احمد واخيه قطلوبغا ثم خرج هو بالساقة مع السلطان والامرآء والعساكر فثار الامرآء الذين كانوا في المقدمة مع اخيه فرجع اليه منهزماً فاجفل ايبك راجعاً الى القلعة ومعه السلطان والعساكر فخرج اليه ساعة وصوله جماعة من الامرآء فسرح اليهم العساكر مع اخيه فاوقعوا به وقبضوا عليه فسرح ايبك اليهم من بقي معه من الامرآء ولما تواروا عنه فرّ هارباً مختفياً ثم ظهر من الاختفاء وجاء الى بلاط احد الامرآء فبعثوا به الى الاسكندرية فحبس بها واقام الامراء بيبغا الناطري مكانه لكنهم لم يعضوا له الطاعة وبقي امرهم مضطرباً وآراؤهم مختلفة فاستدعوا طشتمر من الشام

ووضعوا زمام الدولة فى يده فصار اليه التولية والعزل والحل والعقد ثم انتقضوا عليه واستدعوه الى القلعة فقبضوا عليه وعلى جماعة من اصحابه وبثوا بهم الى الاسكندرية وقام بالدولة من بعده الاميران برقوق وبركة ثم وقع الخلاف بينهما وتغلب برقوق على بركة وبعثه الى الاسكندرية فحبس بها ثم قتل واستبد برقوق بالامر اما السلطان المنصور علي بن الاشرف فكانوا قد اجلسوه على سرير السلطة وعمره ثنتا عشرة سنة وكان نواب السلطنة يتداولون الامر من دولة الى دولة كما رأيت الى ان توفي السلطان في صفر سنة ٧٨٣ ﻫ (سنة ١٣٨١ م) بعد خمس سنين من ولايته

لما توفي الملك المنصور استدعى برقوق نائب السلطنة الامراء واتفقوا على نصب اخيه الامير حاج ولقبوه الملك الصالح وقلده الخليفة على العادة وجعل برقوق كافله في الولاية لصغره عن القيام بهذه العهدة وافتى العلماء يومئذ بذلك وجعلوه من مضمون البيعة فولى برقوق كثيرين من الامراء اصحاب بيبقا الذين كانوا انصاره لانه منهم فطمعوا في الاستبداد وظفروا بلذة الملك والسلطان ووقعوا في ظل الدولة والامان وسمت احوالهم الى ان يستقل اميرهم بالدولة ويستبد بها وانس برقوق الرعية بحسن سياسته وجميل سيرته فامتعض جماعة من الامرآء المختصين بالسلطان وتفاوضوا في الغدر به ونما الخبر الى برقوق بذلك فقبض عليهم وغرب بعضهم الى دمشق وبعضهم الى قوص فاعتقلوا بها حتى انفذ الله فيهم حكمه وتفاوض غيرهم من الامراء في قيام برقوق بامرهم مستقلاً فجمعهم لذلك في ١٩ رمضان سنه ٧٨٤ ﻫ (سنة ١٣٨٢ م) فحضر الخاصة والعامة من الجند والقضاة والعلماء وارباب الشورى والفتيا واجمعوا على بيعة برقوق وعزل السلطان الصالح وبعث برقوق اميرين من الامرآء فادخلا السلطان الى بيته وتناولا السيف من يده واحضراه الى برقوق فلبس شعار السلطنة وخلعة الخلافة ودخل الى القصور

السلطانية وجلس على التخت واتاه النـاس بيعتهم ولقب الملك الظاهر وقرعت الطبول وانتشرت البشـائر وخلع على امراء الدولة وانتظمت الدولة وسر الناس بدخولهم في ايالة هذا السلطان (انتهى ملخصاً عن تاريخ ابن خلدون) .

فكان الملك الصـالح اخر ملوك دولة المماليك البحرية واصلهم من الاتراك خدموا الملوك الايوبيين ثم خلفوهم في الملك ويسمون المماليك البحرية نسبة الى البحر ويريدون به النيل او لانهم اتوا من البحر ويسمون ايضاً المماليك البرجية نسبة الى ابراج كانوا يسكنونها وابتداء ملكهم بمصر سنة ١٢٥٥ بالملك المعز ايبك الذي قتل الملك الاشرف الايوبي وابتداء ملكهم بسورية ومصر معاً سنة ١٢٦٢ بالملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي قتل قطز ملك مصر من هولاء المماليك واستبد بالملك بمصر وسورية معاً كما رأيت وقد انقرضت دولتهم سنة ١٣٨٢ بخلع الملك الصـالح وتمليك برقوق الذي كان اول الملوك من المماليك الجراكسة الذين تولوا مصر وسورية فتكون مدة الملوك من المماليك البحرية مذ تولوا مصر سنة ١٢٥٥ الى انقراض دولتهم سنة ١٣٨٢ مئة وسبعاً وعشرين سنة شمسية وعدة ملوكهم خمسة وعشرون ملكاً

عـد ٩٠٤

في دولة المماليك الجراكسة واولهم الملك الظاهر برقوق

ان اصل هولاء المماليك من الجركس وهم قبيلة مواطنها في نواحي قوه قاف وهم من الترك ويقال ان جبلة بن الايهم الغساني لما ارتحل في صدر الاسلام الى ملك الروم مع جماعة من قومه خالطوا الجركس بالنسب والصهر واندرجوا فيهم اما برقوق فهو مملوك منهم ملكه بيبقا المذكور لما كان ضابطاً زمام الملك وربي في اطباق بيته وتعلم اداب الملك واتقن الرماية والثقافة ولما نكب مماليك بيبقا سجن برقوق في الكرك خمس سنين مع بعض اصحابه ولمـا خلي سبيلهم انطلقوا الى الشام

واستخلصهم الامير منجك نائب الشام يومئذٍ والقى محبته وعنايته على الامير برقوق لما رأى عليه من علامات القبول والسعادة ثم استدعاه الملك الاشرف واستضافه لولده الامير علي ولما ثار الجائي على السلطان الاشرف دفعه برقوق واصحابه حتى غرقوه فاختص الاشرف برقوق وبركة من اصحابه باحسانه ورفع مكانتهما الى ان القى الامراء زمام الملك اليهما ثم استبدَّ برقوق وحده بالملك وخلع الملك الصالح وجلس على تخته كما مرّ بك فكان برقوق اول الملوك من دولة المماليك الجراكسة

ومن اعماله حبسه بيبقا الناصري الذي قدمنا انه كان كافلاً الدولة بعد ايبك ثم استبدلوه بطشتمر نائب السلطان بالشام وولوه على حلب فهذا كان من عشراء برقوق ورفقائه في تقلب الاحوال عليه وكان لما له من الدالة عليه يتوقف عن انفاذ اوامره ويعدل عنه الى ما يراه للمصلحة والسلطان ينكر عليه ذلك ويحقده عليه ثم خرج بيبقا من حلب بالعساكر الى التركمان اخر سنة ٧٨٥ هـ (سنة ١٣٨٣م) دون اذن السلطان فانهزم واحقد السلطان عليه هذه ايضاً فاستقدمه سنة ٧٨٧ هـ (سنة ١٣٨٥ م) وقبض عليه وارسله الى الحبس بالاسكندرية وولى مكانه بحلب الحاجب سودون المظفر وكذلك ابعد السلطان الطنبغا الجوباني الى الكرك ثم ولاه على الشام وكان الطنبغا هذا من انصار السلطان وكان معتقلاً معه بالكرك ايام النحوسة ثم نصبه ايام السعادة امير مجلسه اي صاحب الشورى بالدولة وهو ثاني الاتابك ثم دبّت عقارب الحسد بينهما وارتاب السلطان به فقبض عليه واودعه احدى حجر القصر يوماً ثم اقصاه الى الكرك وتنازعته عواطف الرحمة والوفاء فجعله نائباً له بالكرك وكان بندمر (ويروى بيدمر بالياء مكان النون) الخوارزمي نائباً بدمشق فسخط السلطان عليه وولى الطنبغا مكانه سنة ٧٨٧ هـ (سنة ١٣٨٥ م) وكان للطنبغا مماليك اوغاد قد ابطرتهم النعمة واستهواهم الجاه وشرهوا الى الاضرار بالناس وهو يزجرهم فكادوا عليه حتى قبض السلطان عليه وارسله الى

الاسكندرية فسجن بها سنة ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) وولي مكانه بدمشق طرنطاي الحاجب

وروى صالح بن يحيي في تاريخ بيروت ما ملخصه انه في سنة ٧٨٤ هـ (وسنة ١٣٨٢ م) حضر اسطول من جنوا الى صيدا فاخذوهـا وجاءوا الى بيروت وبلغ الخبر في ذلك الى دمشق فارسل امير الامرآء بيدمر نائب السلطنة بدمشق العساكر الشامية الى بيروت فلم يتعرض اصحاب الاسطول للنزول الى البر وساروا الى جهة قبرس والماغوصة ولما رجع العسكر الى دمشق عاد الجنويون الى بيروت في اثني عشر غراباً كبيرًا ودخلوا المينا وكان فيها قرقورتان (اسم لنوع من السفن) للبنادقة فاخذوهما وشحنوهما بالرجال حتى تمكن الرماة منهم من الرمي على برج بيروت الصغير البعلبكي ولم يكن في ذلك الحين بني البرج الكبير وكان مكانه خرائب قديمة فرمى الفرنج المسلمين فتنحى المسلمون من قبالتهم واستتروا بالحيطان فتقدمت شواني العدو الى البر ما بين البرج والخرائب التي كانت مكان البرج الكبير ونصبوا صقائلهم من الشواني الى البر ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدم من كبارهم وبيده سنجق وصعدوا الى جهة الخرائب لينصبوا السنجق على علوة اشارة الى أنهم ملكوا البلد وشرعوا ينزلون من الشواني شرذمة بعد شرذمة فهجمت فرقة من المسلمين على الذين معهم السنجق فقهروهم ورموا السنجق فلما رأى الفرنج وقوع السنجق وقف عزمهم وقويت قلوب المسلمين وحمل منهم اصحاب النخوة على الفرنج فانهزم منهم من كان نزل الى البر وازدحموا على الصقائل فانقلب بعضها بهم فغرق منهم جماعة وقتل جماعة وانكسروا شر كسرة وقتل من المسلمين نفر وجرح جماعة وكانوا اكتشفوا الاصطول عشية يوم وصوله فاشعلوا النار ليلاً اشارة الى وصول الفرنج الى بيروت فوصل الخبر تلك الليلة تدريجاً الى دمشق فحضر بيدمر نائب الشام الى بيروت عشية يوم الواقعة وتبعته عساكر

الشام فكان وصولهم بعد فوات الامر ولم يروا غير الشواني في البحر على بعد وهي راجعة الى بلادهم انتهى

وكان السلطان برقوق قد ولى احمد منطاش من موالي الملك الناصر محمد بن قلاوون على ملطية فاستبد بالسلطنة عليها وبدت منه علامات الانتقاض على السلطان ثم عاد يتنصل منه ويبري ساحته من الخلاف وشفع به بعض اصحابه فابقاه السلطان في عمله لكنه لم يزل ناوياً على الخلاف وداخل بعض الامراء التركمان في ذلك وراسل صاحب سيواس قاعدة بلاد الروم وسار اليها وكان ملك سيواس صبياً يقوم بكفالته قاضٍ عنده فقبض على منطاش وحبسه تزلفاً الى السلطان وارسل السلطان سنة ٧٨٩ ﻫ (سنة ١٣٨٧ م) عساكره الى جهة سيواس وافتحموا تخومها على حين غفلة فبادر القاضي الى اطلاق منطاش لوقته لان منطاش كان حمله على الرجوع عن موالاة السلطان وسار منطاش الى احياء التتر واستجاشهم على عسكر السلطان واتي بهم الى سيواس وعسكر السلطان محاصر لها فلم يقو عسكر السلطان على فتحها بل ملوا وضجروا وعادوا عنها الى بلاد الشام وبقي منطاش باحياء التتر الى ان انتقض الناصري بحلب على السلطان ودعا منطاش اليه فلبى دعوته وناصره في الانتقاض، كما ترى في الفصل الآتي انتهى ملخصاً عن تاريخ ابن خلدون وغيره

﴿ عد ٩٠٥ ﴾

انتقاض الناصري واستيلاؤه على الشام ومصر واعتقال السلطان برقوق بالكرك

قد مرَّ ان السلطان كان قد سخط على يبقا الناصري وسجنه بالاسكندرية ثم افرج عنه فسار الى حلب ولما عاد العسكر عن سيواس داخل الناصري بعض امرائه بالانتقاض على السلطان وبلغ ذلك الى السلطان فاعتقل هولاء الامراء فاستراب الناصري واضطرب وشرع في اسباب الانتقاض وعاد اليه سماسرة الفتن

من الامرآء وغيرهم فاطاعوه وافتتح امره بالانحراف عن الامير سودون المظفري الذي كان السلطان قد ولاه على حلب مكان الناصري وتفاقم الامر بينهما فارسل السلطان من يصلح بينهما ويسكن الثائرة وبينا كان وافد السلطان قد جمع الناصري والمظفري للصلح بينهما وثب قوم على المظفرى الوالى وفتكوا به واجتمع الامرآء الى الناصري واعصوصبوا عليه ودعاهم الى خلع الطاعة فاجابوه الى ذلك سنة ٧٩١هـ (سنة ١٣٨٩ م) واتصل الخبر بطرابلس وبها جماعة من الامرآء يرومون الانتقاض فعمدوا الى الايوان السلطاني وقبضوا على نائب السلطان بها وحبسوه وفعل مثل ذلك اهل حمص وغيرها فسرح السلطان العساكر لقتال هولآء وارسل الناصرى من حلب يستدعي منطاش من احياء التتر فاتاه ومالأه وجمع طوائف التركمان والعرب ونهض في جموعه يريد دمشق ونائبها طرنطاى الحاجب المذكور انفاً يواصل تعريف السلطان بالاخبار ويستحث العساكر من مصر

ثم بلغت عساكر السلطان الى دمشق واختاروا من القضاة وفداً اوفدوه على الناصري وعلى اصحابه بحلب فلم يجيبوا وامسكوا الوفد عنهم وساروا للقاء عساكر السلطان ولما ترای الجمعان التحم القتال بينهما ودارت الدوائر على عساكر السلطان ولجا ايتمش الاتابك الى قلعة دمشق فدخلها وذهب عسكره شعاعاً واخذ كثيرون منهم اسرى ودخل الناصرى واصحابه دمشق واستولوا عليها وعاثت عساكرهم في نواحيها واوعزوا الى نائب القلعة بحبس ايتمش عنده واظهر ابن باكيش بغزة طاعته للامرآء ومرّ به أيال اليوسفي من امرآء الالوف بدمشق ناجياً من الوقعة فقبض عليه وحبسه بالكرك

واستعد السلطان برقوق للمدافعة واقام روسآء لعساكره مكان من خسرهم بدمشق واقام الناصرى واصحابه اياماً بدمشق ثم عمدوا على المسير الى مصر ونهضوا اليها بجموعهم وخفيت اخبارهم حتى اطلت مقدمتهم على بلبيس ثم تقدموا الى

بركة الحاج وبرز السلطان في مماليكه ووقف امام القلعة بقية يومه والناس من العساكر والعامة يتقاطرون الى الناصرى حتى غصت بهم بسائط البركة واستأمن اكثر الامرآء الذين مع السلطان الى الناصرى فامنهم واطلع السلطان على شأنهم وسارت طائفة من العساكر وناوشوهم القتال وعادوا منهزمين الى السلطان وارتاب السلطان بامره وعاين انحلال عقدته فدس الى الناصرى بالصلح وبعث اليه بالملاطفة فاشار عليه الناصرى بان يتوارى بشخصه مخافة ان يصيبه احد بسوء فلما غشيه الليل صرف من بقي من مماليكه وخرج متنكرًا وباكر الناصرى واصحابه القلعة فاستولوا عليها ودعوا امير حاج ابن الاشرف المار ذكره فاعادوه الى التخت كما كان ولقبوه المنصور واستدعوا الجوباني والامراء المعتقلين بالاسكندرية فاتوا وركب الناصرى واصحابه للقائهم واشرك الناصرى الجوباني في تدبير الدولة واخذوا ينادون بطلب السلطان الظاهر حتى دلّ عليه بعض مماليك الجوباني وجاؤا به الى القلعة واشتوروا في امره وكان منطاش وغيره يطلبون قتله وابى الناصرى والجوباني الاّ الوفاء بعهد الناصرى له وترددوا في مستقره بين ان يكون بالكرك او قوص او الاسكندرية واجمعوا على الكرك ولما دنا وقت مسيره قعد له منطاش عند البحر (اى النيل) ليقتاله فركب الجوباني مع السلطان من القلعة واركب معه صاحب الكرك في جماعة من قومه يوصلونه الى الكرك فنجا السلطان من منطاش ووصل الى الكرك سالمًا في قليل من غلمانه ومواليه ووكل الناصري به حسن الكشكي من خواصه وولاه على الكرك واوصاه بخدمته ومنعه ممن يريده بسؤ

واما الامرآء الثائرون فجعلوا الجوباني اتابك السلطان المنصور والناصري راس النوبة الكبرى اي مدبر السلطة ثم بعثوا بذلار نائبًا على دمشق واخرجوه اليها وبعثوا كمشيقا البيقاوي على حلب وكان السلطان قد عزله من طرابلس واعتقله بدمشق ولما جاء في حملة الناصري بعثه على حلب وقبضوا على جماعة من الامرآء

الذين كانوا مع السلطان برقوق منهم النائب سودون والطرنطاي نائب دمشق فحبسوا بعضهم بالاسكندرية وبعضهم بالشام وتتبعوا مماليك السلطان برقوق فحبسوا اكثرهم واشخصوا بقيتهم الى الشام يستخدمون عند الامرآء وقبضوا على محمود قهرمان الدولة فصادروه على الف الف درهم واودعوه السجن انتهى ماخصاً عن تاريخ ابن خلدون

عد ٩٠٦

ثورة منطاش ونكبة الجوباني وحبس الناصري

كان منطاش منذ دخل مع الناصري الى مصر متربصاً بالدولة طاوياً جوانحه على الغدر برجالها لانهم لم يوفروا حظه من الاقطاع ولم يجعلوا له اسماً في الوظائف حين اقتسموها ولا راعى الناصري له حق خدمته ومقارعته الاعدآء بل أثر الجوباني عليه وكان مماليك الجوباني لما حبس اميرهم وانتقض الناصري بحلب لحقوا به وبمنطاش وكان منطاش موانساً لهم ومصافياً اياهم فداخل بعضهم في الثورة وابدى للجوباني المخالصة بغشيان مجلسه وملابسة ندمائه وحضور مائدته وكان البيقاوية جميعاً ينضمون على الناصري ويرون انه مقصر في الرواتب والاقطاع فدعاهم منطاش الى التوثب فكانوا اليه اسرع ونما الخبر الى الناصري والجوباني فعزموا على اشخاص منطاش الى الشام فتمارض واقام في بيته اياماً يطاولهم ليحكم التدابير عليهم ثم عدا على الجوباني وكان قد اكمن في بيته رجالاً للثورة فقبضوا على الجوباني وقتلوه لحينه وركب منطاش الى الرميلة (محل بالقاهرة) فنهب مراكب الامرآء بباب الاصطبل واجتمع اليه من داخله بالثورة ومن كان قد بقي من مماليك الملك الظاهر برقوق وركب الامرآء البيقاوية من بيوتهم ووقفوا ينظرون مآل الحال وبرز الناصري فيمن حضر وامر الامرآء بالحملة على اصحاب منطاش فوقفوا ولم يجيبوه الى ذلك فاحجم الناصري عن الحملة في ذلك النهار

وفي الغد تزايدت جموع منطاش فاقتحم الناصري فانهزم وانفض اصحابه عنه فذهب حيران واتى الامراء البيبقاوية مجلس منطاش فقبض عليهم وبعث بهم الى الاسكندرية ثم جدد البيعة لامير حاج الملك المنصور المذكور وقبض على جماعة من مماليك السلطان الظاهر برقوق وفر الباقون واستقل بتدبير الدولة ونصب في وظائفها من شآء من اصحابه

ولما بلغ الخبر الى بذلار بدمشق باستقلال منطاش بالدولة انف من ذلك وارتاب على نفسه وداخلته الغيرة فعزم على الانتقاض وكاتب نواب الممالك بالشام في حلب وغيرها يدعوهم الى الوفاق معه فاعرضوا عنه وتمسكوا بطاعتهم وكان الامير الكبير بدمشق جنتمر اخو طاز المذكور قبلاً يداخل الامرآء هناك بالتوثب على بذلار نائب السلطنة بدمشق وبالتوثق منهم للدولة وبلغ الخبر الى بذلار فركب في مماليكه وشيعته يروم القبض عليهم فلم يتمكن من ذلك واجتمعوا عليه وظاهرهم عامة اهل دمشق فقاتلوه ساعة فايقن بالانقلاب والهلكة وقبضوا عليه وطيروا بالخبر الى منطاش فامر باعتقاله فاعتقل وهلك مريضاً في محبسه وولى منطاش جنتمر المذكور نيابة دمشق واستقرت الاحوال على ذلك

وكتب منطاش الى حسن الكشكي نائب الكرك بان يقتل السلطان برقوق وكان الناصري اوصاه كما مرّ ان يمنعه ممن يريده بسوء فاستشار الكشكي خواصه فاشاروا بالتحرز من قتل السلطان جهد الطاقة فكتب الى منطاش معتذراً بالخطر الذي في قتله دون اذن السلطان المنصور والخليفة فاعاد عليه الكتاب مع كتاب من السلطان والخليفة وبالاذن بقتله واستحثه على الاجهاز عليه واهلاكه فمطله الكشكي بالوعد وطاوله يرجو التخلص من ذلك وكانوا يكتمون الامر عن السلطان برقوق شفقة عليه واجلالاً له لكنه شعر بذلك واخلص بالالتجاء الى الله وهم بما ياتي انتهى ملخصاً عن تاريخ ابن خلدون ايضاً

وروى البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٣٨٨ انه كان قتال بين امرآء الغرب التنوخية وهم من حزب السلطان برقوق وبين تركمان كسروان والامرآء ابناء الاعمى وهم من حزب منطاش مع ارغون نائبه في بيروت فاستظهر التركمان على امرآء الغرب وقتلوا منهم نحو تسعين رجلاً ونهبوا ما وجدوا بدورهم ببيروت واحرقوا من قراهم عيناب وعين عنوب وشملال وعيتات وغيرها

عد ٩٠٧

خروج السلطان برقوق من الكرك وظفره بعساكر الشام وحصاره دمشق وعوده الى كرسيه

لما بلغ السلطان برقوق استقلال منطاش بالدولة وحبسه الامرآء البيقاوية جميعاً ونصبه مكانهم اصحابه اهمه ذلك وخشي غائلته ثم شعر ان منطاش يروم اغتياله فارسل غلمانه في الكرك فظفروا برجال داخلوهم في حسن الدفاع عن السلطان فاجابوهم الى ذلك وتعهدوا به واتعدوا لقتال البريدي الذي كان في قلعة الكرك وكان منزله بازآء السلطان فهجموا عليه وقتلوه ودخلوا براسه الى السلطان وشفار سيوفهم دامية وكان الكشكي نائب السلطنة يفطر على سماط السلطان تأنيساً له فلما راهم دهش وهموا بقتله فمنعهم السلطان من ذلك وملك السلطان القلعة وبائعه النائب المذكور وصعد اليه اهل المدينة وبايعوه ووفد عليه عرب الضاحية من بني عقبة وغيرهم فاطاعوه وفشا الخبر في النواحي فتسارع اليه مماليكه من كل جهة وبلغت اخباره الى منطاش فاوعز الى ابن باكيش نائب غزة ان يسير في العساكر الى الكرك وتردد السلطان بين لقائه والنهوض الى الشام وعزم على المسير الى دمشق فسار من الكرك في الف رجل او يزيدون من العرب والترك فسرح جنتمر نائب دمشق العساكر لدفاعه فالتقوا بمحل يسمى شقحب وكانت بينهم وقعة عظيمة اجلت عن هزيمة اهل دمشق وقتل الكثيرين منهم واتبعهم السلطان الى

دمشق ثم احس بان ابن باكيش وعساكره يتبعونه فكر اليهم ليلاً وصبحهم على غفلة فانهزموا ونهبت عساكر السلطان ما معهم واستفحل امر السلطان ورجع الى دمشق ونزل بالميدان واغلق الدمشقيون ابواب المدينة فاقام يحاصرهم الى محرم سنة ٧٩٢هـ (سنة ١٣٩٠ م) كما سيأتي

وكان كمشيقا الحموى نائب حلب قد اظهر دعوته للسلطان في عمله وكاتبه بذلك عندما نهض من الكرك الى الشام ولما بلغه حصاره لدمشق تجهز للقائه ووصل اليه بكثير من المال والسلاح والخيل والات الحصار وكان جماعة من الامرآء اصحاب السلطان محبوسين بصفد وكان قوم من مماليكه يستخدمون عند نائب صفد فغدروا به واطلقوا من كان من الامرآء في السجن ولحقوا بالسلطان وبلغ الخبر الى الامرآء المحبوسين بقوص (بالصعيد) فقبضوا على واليها واخذوا من مودع القاضي ما كان فيه من المال وعزموا ان يسيروا من هنالك الى الكرك ويلحقوا بالسلطان ولكن تدارك منطاش امرهم فقبضت عساكره عليهم واتوا بهم الى مصر

وعزم منطاش على المسير الى الشام فنادى في العسكر واخرج السلطان المنصور والخليفة والقضاة والعلماء في اخر سنة ٧٩١ هـ (سنة ١٣٨٩ م ولما بلغ خبر مسيرهم الى السلطان برقوق وهو محاصر دمشق ارتحل في عساكره الى لقائهم ونزل قريباً من شقحب ولما تراءى الجمعان كانت بينهما وقعة هائلة اجلت عن استيلاء السلطان برقوق على الملك المنصور والخليفة والقضاة ودخولهم في حكمه وتهزيم منطاش وجموعه ولحوقه بدمشق ولما وصل منطاش اليها اوهم نائبها جنتمر ان الظفر له وان الملك المنصور موافٍ على اثره فركب السلطان برقوق في عساكره من شقحب فهزم منطاش وجمعه واثخن فيهم ثم عاد الى شقحب وحمل الملك المنصور على التبرى من الملك والعجز عنه واحضر الخليفة والقضاة فشهدوا عليه بالخلع وعلى الخليفة بالتفويض الى السلطان برقوق والبيعة له والعود الى كرسيه

واقام السلطان بشقحب تسعة ايام ورحل الى مصر وبلغ الخبر الى منطاش فركب لاتباعه لكنه لم يجسر ان يناويه وعاد الى دمشق

وكان منطاش قبل مسيره من مصر الى الشام استخلف على القلعة بكا الاشرفي ووكله بالمعتقلين بها فهولاء المعتقلون عثروا على منفذ الى سرب تحت الارض يفضى الى حائط الاسطبل مقام نائب القاهرة والاتابك ووجدوا في ذلك السرب الة النقب فنقبوا الحائط وافضوا الى أعلى الاسطبل وهجموا على الحراس فقتلهم وهرب الباقون واجتمع اليهم بعض اصحاب السلطان برقوق الذين كانوا مختبئين ومالاهم بكا وكيل القلعة وهجموا على بيت سراى تمر الذي كان منطاش قد استخلفه بالقاهرة فنهبوا ماله وسلاحه وركبوا خيله واستولوا على الاسطبل وبينا هم على هذه الحال وصل كتاب السلطان باعداد الميرة والعلوفة في منازل السلطان على العادة وتتابع الواصلون في عسكر السلطان الى ان اصبح السلطان يوم الثلثا رابع صفر سنة ٧٩٢ هـ (سنة ١٣٩٠) في ساحة القلعة بالقاهرة وقلده الخليفة الملك وعاد الى سريره

ثم افرج السلطان الظاهر برقوق عن الامراء الذين كان منطاش قد حبسهم بالاسكندرية وفيهم الناصري وابن بيبغا الجوباني (ذكر ابن خلدون قبل هذا قتل الجوباني ثم ذكره هنا في جملة المحبوسين بالاسكندرية فرأينا ان المراد بالمحل الثاني ابنه اي ابن الجوباني فاثبتناه كذلك خلافاً للاصل) وسودون الطرنطاي وغيرهم وولى ايسال اليوسفي اتابكاً والناصري امير سلاح الى غير ذلك من المراتب والوظائف وانتظم امر دولته في مصر واستوثق ملكه وصرف نظره الى الشام وتلافيه من فساد منطاش انتهى ملخصاً عن ابن خلدون ايضاً

﴿ عـد ٩٠٨ ﴾

ذكر احداث اخرى في ايام السلطان الظاهر الى مقتل منطاش

بعد ان استقر السلطان على كرسيه في القاهرة عين ابن بيبقا الجوباني لنيابة دمشق ورياسة العساكر والناصري لنيابة حلب وكان قد عاهد كمشبغا نائب حلب على اتابكية مصر وعين قراد مرداش على طرابلس ومامونا القلحطاوي على حماة وسير العساكر معهم الى الشام في ٨ جمادي الاولى سنة ٧٩٢ هـ (سنة ١٣٩٠ م) وكان منطاش افرغ جهده في كتم اخبار السلطان عن امرائه حتى ولما شاعت وفشت انصرف هواهم الى السلطان وبعث منطاش الامير يعاز تمر نائباً على حلب فحاصر كمشبغا بالقلعة نحواً من خمسة اشهر وبعث العساكر الى طرابلس مع ابن ايعاز التركماني فحاصروها وملكوها من يد سندمر حاجبها وكان مستولياً عليها من قبل السلطان الظاهر ولما ملكوها ولي منطاش عليها قشتمر الاشرفي ثم بعث العساكر الى بعلبك واوعز الى قشتمر نائب اطرابلس بالمسير الى حصار صفد. فسار اليها فقاتله جنودها وهزموه فجهز اليها العساكر مع انقبا الصفدي كبير دولته لكن هذا لما تيقن استيلاء السلطان على كرسيه بمصر جنح الى الطاعة وارتحل من الغد الى مصر فاقبل السلطان عليه وجعله من امرآء الالوف فاضطرب منطاش وتبين له نكر الناس وارتاب باصحابه فقبض على جماعة منهم وقتل بعضهم فاستوحش الناس منه واستامنوا الى السلطان وشرع منطاش في الفتك بالمتمين الى السلطان من المحبوسين بقلعة دمشق وذبح جماعة من الجراكسة فسير السلطان العساكر من مصر الى الشام ولما دخلوا حدودها ارتبك منطاش في امره واستقر به الخوف والهلع والاسترابة بمن معه فخرج هارباً من دمشق في خواصه ولحق بيعبر امير العرب آل فضل مستجيرًا فاجاروه ونزل معهم

ولما خرج منطاش من دمشق خرج اشمس من محبسه وملك القلعة

واعصوصب مماليك السلطان عليه وارسل الى ابن الجوباني الخبر فتسارع الى دمشق وجلس بموضع نيابته وقبض على من بقي من اصحاب منطاش وخدمه وبلغ خبر فرار منطاش الى ايماز تمر وهو يحاصر حلب فاجفل ولحق بمنطاش وقتل كمشيقا من اصحابه اكثر من ثماني مئة رجل وبعث ابن الجوباني العساكر الى اطرابلس وملكوها من يد قشتمر الاشرفي الذي كان منطاش قد ولاه عليها وكذلك ملكوا حماة وحمص

ثم بعث ابن الجوباني الى يعبر امير العرب آل فضل باسلام منطاش واخراجه من احيائهم فامتنع واعتذر فسار الجوباني عليه بالعساكر فكانت بين الفريقين حرب شديدة وحملت العساكر على منطاش والعرب فهزموهم الى الخيام وانفرد الجوباني عن العساكر فاسره العرب وسيق الى يعبر اميرهم فقتله وعاد الناصري بالعساكر الى دمشق وباكر من الغد آل علي من العرب في احيائهم فكبسهم وقتل منهم جماعة فثار منهم بما فعلوه في الواقعة من نجدتهم لآل فضل وولى السلطان الناصري على دمشق مكان ابن الجوباني فقام بامرها واحكم التصرف في حمايتها

واما منطاش ويعبر امير العرب فارتحلا الى حلب فحاصراها وضيقا عليها وكان نائبها كمشيقا المذكور ثم راجع يعبر نفسه وراسل كمشيقا في الطاعة للسلطان واعتذر عما وقع منه وسأل الامان وكاشف كمشيقا السلطان بذلك فاجابه الى سوأله وشعر منطاش بذلك فارتاب وخادع يعبر بانه يريد الاغارة على التركمان وسار معه من العرب سبع مئة فارس ولما دنا من التركمان رجلهم عن الخيل واخذها ولحق بالتركمان فصافاهم ونزل بمرعش بلد اميرهم ورجع العرب مشاة الى يعبر وسار منطاش الى عنتاب من قلاع حلب فملكها واعتصم نائبها بالقلعة اياماً فاثخن منطاش في اصحابه وقتل جماعة من امرائه ثم جاءته العساكر من حلب وحماة وصفد فهرب الى مرعش وسار منها الى بلاد الروم وفارقه جماعة من اصحابه واضمحل امره حينئذٍ

ولما انتظم امر حلب ارسل السلطان يستدعي كشيقا نائبها ليجعله اتابكاً كما كان قد وعده جزاء لخدماته المذكورة للسلطـان وولى مكانه بحلب قراد مرداش نقله اليها من اطرابلس وبلغ كشيقا مصر سنة ٧٩٣ ﻫ (سنة ١٣٩١ م فاهتز له السلطان واركب الامرآء للقائه وبالغ في تكرمته ورفع مجلسه فوق الاتابك واستقر بمصر في اعلى مراتب الدولة

واستمر منطاش شريدًا الى منتصف سنة ٧٩٣ ﻫ (سنة ١٣٩١ م) ثم قصد دمشق ويقال ان الناصري اغراه بذلك خدعة ليقبض عليه فسار منطاش من مرعش ولما بلغ خبره الى حماة هرب نائبها الى طرابلس فدخل منطاش حماة ونادى فيها بالامان ثم سار منها الى حمص ثم الى بعلبك وهرب نائبها الى دمشق فخرج اليه الناصري نائب دمشق في العساكر على طريق الزبداني وسار منطاش بطريق اخر ونزل بالقصر الابلق وشرع في مصادرة الناس والفريضة عليهم واذا بالناصري قد عاد في عساكره فاقتتلوا عشية ذلك اليوم وبقي القتـال متصلاً بينهما سائر رجب وشعبان وبلغ الخبر الى السلطان فارتاب بالناصري واتهمه بالمداهنة وتجهز لقصد الشام وقتل اهل الخلاف من الامرآء المحبوسين وارسل غيرهم الى الاسكندرية ودمياط واستخلف بالقاهرة كشيقا الحموي الاتابك المذكور ولما علم منطاش بمسيرة السلطان من مصر هرب من دمشق وخرج الناصرى من الغد في اتباع منطـاش فهزمه ووصل السلطان الى دمشق فاكرم الناصري وجامله ووفد اليه آل مهنا وآل عيسى من العرب في طاعة السلطان والمظاهرة له على منطاش ويعبر فاكرم وفادتهم وسار الى حلب فاتاه الخبر بان منطاش فارق يعبر ومر ببلاد ماردين فواقعته عساكر هناك وقبضوا على جماعة من اصحابه وخلص هو من الواقعة واتى الى احد امرآء التركمان يسمى سالم فقبض عليه وارسل الى السلطان يطالعه بشانه ويطلب بعض امرائه ليسلمه اليهم فارسل السلطان قراد مرداش نائب حلب واتبعه بالنـاصرى فوصل قراد

مرداش الى سالم وبقي اربعة ايام يطالبه بمنطاش وهو يماطله فوثب قراد مرداش عليه ونهب احياءه وفتك بقومه فهرب سالم ومنطاش الى سنجار ثم وصل الناصري وانكر على قراد مرداش ما اتاه وتنازعا ورجعا الى السلطان في العساكر صفري اليدين وكتب سالم الى السلطان يعتذر ويقول ان الناصري كتب له وامره بالمحافظة على منطاش فسخط السلطان على الناصري وامر بقتله وولى على دمشق مكانه بطا الدوادار وارتحل السلطان الى دمشق وقتل بها جماعة من اهل الفساد يبلغون خمسة وعشرين رجلاً ثم عاد الى مصر فبلغها في منتصف محرم سنة ٧٩٤ هـ (سنة ١٣٩١م)

اما منطاش فبعد فراره مع سالم الى سنجار اقام معه اياماً ثم فارقه وعاد الى يعبر فاقام في احيائه وتزوج بنتاً من آل فضل واقام معهم ثم سار سنة ٧٩٤ هـ (سنة ١٣٩١ م) وعبر الفرات الى نواحي حلب فاوقعت به العساكر واسروا جماعة من اصحابه ثم زحف يعبر ومنطاش الى سلمية فلقيهما نائب حلب ونائب حماة فهزموهما وتسارع نائب حلب الى احياء يعبر فنهب اموالها واستاق نعمها ومواشيها واضرم النار في ما بقي منها واكمن ليعبر ومنطاش وبلغ يعبر ومنطاش الخبر فاسرعا بمن معهما الى الكرّ على احيائهم فخرج عليهم الكمناء واثخنوا فيهم وهلك من الفريقين خلق كثير

ثم وفد على السلطان عامر بن ظاهر اخي يعبر طائعاً للسلطان ومنابذاً لعمه وواعداً ان يسلم منطاش متى طلب منه فاقبل السلطان عليه واثقل كاهله بالاحسان والمواعيد فرجع عامر وتفاوض مع آل فضل جميعهم فاجابوه الى ما يرغب وخيروا يعبر بين ان يمكنهم من امساك منطاش او يخلي سبيلهم ليدخلوا في طاعة السلطان ويفارقهم هو الى حيث شاء فجزع يعبر لذلك واذن لهم في القبض على منطاش فقبضوا عليه وبعثوا الى نائب حلب في من يستلمه فبعث اليهم بعض امرائه فسلموه اليهم وارسلوا معه الفرسان والرجالة حتى اوصلوه الى حلب وبعث

السلطان اميرًا من القاهرة فاحتز رأسه وطاف به في ممالك الشام وجاء به الى القاهرة سنة ٧٩٥ هـ (سنة ١٣٩٢ م) فعلق على باب القلعة ثم دفع الى اهله فدفنوه هذا ملخص موجز مما رواه ابن خلدون في فصول كثيرة

عـد ٩٠٩

في بقية اخبار الملك الظاهر برقوق وابنه الى نهاية هذا القرن

في سنة ٧٩٦ هـ (سنة ١٣٩٣م) فر احمد ابن اويس صاحب بغداد الى الملك الظاهر تيمورلنك التتري الذي كان قد ملك اكثر البلاد الشمالية واثخن فيها وحاصر بغداد فانهزم احمد المذكور الى الرحبة ثم الى حلب ومصر مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوه فاجاب السلطان الى صريخه وجهز عساكره وسار فيها الى الشام ومعه احمد بن اويس المذكور وكان تيمورلنك بعد ان استولى على بغداد وزحف في عسكره الى تكريت وحاصرها اربعين يوماً وملكها وانتشرت عساكره في ديار بكر الى الرها فملكوها وكتب السلطان الظاهر الى جليان نائب حلب بالخروج الى الفرات واستيعاب العرب والتركمان للاقامة هنالك رصدًا للعدو ثم ارسل اليه العساكر من دمشق مع كمشيغا الاتابك وغيره وكان تيمور لنك قد شغل بحصار ماردين فاقام عليها اشهرًا ثم ملكها وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها الى ناحية بلاد الروم ومرَّ بقلاع الكراد فاغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها وبقي السلطان الى شعبان من السنة المذكورة متربصاً ليرى ما يكون من تيمور لنك فهذا ختام كلام ابن خلدون في هذه الاحداث . والظاهر من كتاب عجائب المقدور في اخبار تيمور للقاضي شهاب الدين الدمشقي ان تيمور بدا له حينئذٍ ان يقصد الهند فقصدها وشغل بتدويخها مدةً فعاد السلطان الظاهر الى مصر ولا نعلم من اخباره الهامة بعد ذلك الاَّ ورود رسالة تيمور لنك اليه سنة ٨٠١ هـ (سنة ١٣٩٨ م) وبها يهدده ويردعه وجواب الملك الظاهر عليها مزدرياً بتهديداته ومبدياً العزم على

قتاله وقد اثبت القراماني الرسالة والجواب عليها وذكرهما شهاب الدين في كتابه المذكور لكنه ارتاب بصحتهما وقال انه وجد صورة هذا الكتاب من انشاء نصر الدين الطوسي على لسان هولاكو التتري مرسلاً ذلك الى سلطان مصر وصورة الجواب بعينه انشاء من كان في ذلك العصر وصورتا الخطاب والجواب مشهورتان فنغتني بشهرتهما عن اثباتهما هنا ثم توفي الملك الظاهر برقوق في اثر ذلك في ١٣ شوال سنة ٨٠١ ھ (سنة ١٣٩٨ م)

وروى البطريرك الدويهي انه تولى بعده ولده عبد العزيز ولقب الملك المنصور لكنه خلع قبل ان تطول مدة ولايته واجمعوا على تولية اخيه زين الدين فرج ولقبوه الملك الناصر وله من العمر اثنا عشرة سنة ولم يذكر القراماني الملك المنصور كانه لقصر مدة ولايته ولا ذكره الاسحاقي في كتابه اخبار الاول ولا حسن عبدالله في كتابه آثار الاول في ترتيب الدول بل نص ابن اياس في تاريخ مصر ان الملك الظاهر برقوق اوصى بان يخلفه ابنه فرج بل ذكروا الملك فرج وقالوا ان عمره كان عشر سنين وان الناس ظنوا انه ستكون فتنة عظيمة بعد موت والده فلم يتحرك ساكن وانشد ابن الاوحدي في ذلك

مضى الظاهر السلطان اكرم مالكٍ الى ربه يرقى الى الخلد في الدرجِ
وقالوا ستأتي شدة بعد موته فاكذبهم ربي وما جاء سوى فرجِ

وفي سنة ٨٠٣ ھ وهي سنة ١٤٠٠ للميلاد ختام القرن الرابع عشر برز تيمورلنك الى حلب بجحافله الجرارة ونرجيء الكلام في ذلك الى تاريخ القرن الخامس عشر ليكون كلامنا متسقاً ولا نجزّئ اخبار هذه الحملة الشهيرة على سورية في تاريخ قرنين



الفصل الثاني

﴿ في بعض مشاهير العلم في القرن الرابع عشر ﴾

﴿ عـد ٩١٠ ﴾

﴿ في المشاهير السوريين في هذا القرن ﴾

﴿ ابن منظور ﴾

ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات وسماه محمد بن مكرّم وقال انه ابن علي بن احمد الانصارى الرويفعي ثم المصري القاضي جمال الدين بن المكرم من ولد رويفع بن ثابت الانصاري ويعرف بابن منظور ولد اول سنة ٦٣٠ هـ (سنة ١٢٣١ م) وكان فاضلاً وعنده تشيع بلا رفض مات في شعبان سنة ٧١١ هـ (سنة ١٣١١ م) خدم في الانشاء بمصر ثم ولي نظر طرابلس اختصر كتباً كثيرة وله النظم والنثر واعظم مؤلفاته لسان العرب وهو من اشهر المعجمات العربية وطبع ببولاق في عشرين جزءاً سنة ١٣٠٨ م وقد جمع فيه كلما ورد في المعجمات التي تقدمته ورتبه على احرف اواخر الكلم كالصحاح الجوهري وهو ثقة وله ايضاً كتاب نثار الازهار في الليل والنهار تكلم فيه على الليل والنهار والاغتباق والاصطباح والهلال وكماله والفجر ونسيم السحر الى غير ذلك وقد طبع كتابه هذا في القسطنطينية سنة ١٢٩٨ م

﴿ فخر الدين الحموي قاضي حلب ﴾

ذكره ابو الفدا فقال في سنة ٧٣٠ هـ (سنة ١٣٣٠ م) توفي قاضي القضاة فخر الدين عثمان بن كمال الدين البارزي الحموي الجهني قاضي حلب فجأة وكان

يعرف كتاب الحاوي في الفقه وشرحه في ست مجلدات وكان يعرف الحاجبيه والتصريف وكان فيه دين وصداقة

﴿ شمس الدين الدمشقي ﴾

هو شمس الدين ابو عبدالله محمد بن ابي طالب الانصارى الدمشقي الصوفي المعروف باسم شيخ الربوة ولد سنة ٦٥٤ هـ (سنة ١٢٥٧ م) وتوفي بصفد سنة ٧٢٨ هـ (سنة ١٣٢٨ م) وله كتاب سماه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر اعتنى بطبعه العلامة فدان والعلامة مهرن في بطرسبرج سنة ١٨٦٦

﴿ الملك المؤيد اسماعيل ابو الفدا ﴾

ذكر مكمل تاريخه ترجمته بايجاز فقال مات السلطان الملك المؤيد اسماعيل ابن الملك الافضل علي صاحب حماة مؤلف هذا التاريخ وله تصانيف حسنة مشهورة منها اصل هذا الكتاب ونظم الحاوى في الفقه وشرحه شيخنا قاضي القضاة شرف الدين بن البارزي (المار ذكره) شرحاً حسناً وله كتاب تقويم البلدان وهو حسن في بابه تسلطن بحماة في اول سنة ٧٢٠ هـ (سنة ١٣٢٠ م) بعد نيابتها رحمه الله تعالى وكان سخياً محباً للعلم والعلماء متفنناً يعرف علوماً ولقد رأيت جماعةً من ذوي الفضل يزعمون ان ليس في الملوك بعد المأمون افضل منه ، وكانت وفاته سنة ٧٣٢ هـ (سنة ١٣٣١ م) وذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات وزاد على ما تقدم ان السلطان الناصر جعله سلطاناً بحماة يفعل فيها ما يشاء من اقطاع وغيره وليس لاحد من الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم واركبه في القاهرة بشعار الملك وابهة السلطنة ومشى الامراء والناس في خدمته حتى الامير سيف الدين ارغون النائب وكانت فيه مكارم وفضيلة تامة من فقه وطب وحكمة وغير ذلك واجود ما كان يعرفه علم الهيئة لانه اتقنه وان كان قد شارك في باقي العلوم مشاركة جيدة ونظم الحاوي في الفقه وله تاريخ كبير وكتاب الكناش مجلدات

كثيرة (لا نعرف هذا الكتاب حتى الان) وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله واجاد فيه ما شاء وله كتاب الموازين وهو صغير ومات وهو في الستين رحمه الله تعالى وله شعر ومحاسنه كثيرة واثبت الصلاح الكتبي بعض اشعاره منها

اقرأ على طيب الحيا م ة سلام صبٍّ مات حزنا
واعلم بذاك احبّةً بخلَ الزمانُ بهم وَضنا
لو كان يشرى قربهم بالمال والارواح جدنا
متجرّع كاس الفراق يبيت للاشجان رهنا
صبٌّ قضى وجدًا ولم يقضى له ما قد تمنى

وقد رثاه الشيخ جمال الدين بن نباتة بقصيدة اولها

ما للندى لايلبي صوت ناديه اظن ان ابن شادي قام ناعيه
ما للرجاء قد استدّت مذاهبه ما للزمان قد اسودّت نواحيه
نعى المؤيد ناعيه فيا اسفي للغيث كيف غدت عنا غواديه
يا ال ايوب صبرًا ان ارثكم من اسم ايوب صبر كان يرجيه
هي المنايا على الاقوام دائرة كل سيأتيه منها دور ساقيه

وقد طبع كتابه في تقديم البلدان في الجغرافية بربس سنة ١٨٣٧ الى سنة ١٨٤٠ بعناية العلامة رينود ثم طبع في درسدن سنة ١٨٤٢ الى سنة ١٨٤٥ م وله ايضاً وصف جغرافية مصر طبع سنة ١٧٧٦ م في غوتنغن واما كتاب تاريخه فقد طبع سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٧٩٤ بمدينة كوبنهاغن بعناية العلامة دايسكه مع ترجمة لاتينية وشروح ثم طبع بالقسطنطينية في اربعة اجزاء سنة ١٢٨٦ هـ وهذه الطبعة هي التي بيدنا ٭ ملخص عن كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع وقد ذكر المطران اسطفان عواد السمعاني كتابي ابي الفدا التاريخ وتقويم البلدان في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المادينشية واثبت فهرست كتاب تقويم البلدان كاملاً وقال انه

علق عليه مقدمات لازمة لفهم فن الجغرافية كتبيانه اولاً اغلاط بعض الكتاب في تعيين درجات طول الاماكن وعرضها وكبحثه عن الارض هل هي مدورة او مستوية وهل في وسطها قطب او محور الى غير ذلك

﴿ بدر الدين محمد الكناني الحموي ﴾

ذكره مكمل تاريخ ابو الفدا في تاريخ سنة ٧٣٣ هـ (سنة ١٣٣٢ م فقال كان له معرفة بفنون وله عدة مصنفات درس بدمشق ثم ولى قضاء القدس ثم قضاء الديار المصرية ثم قضاء الشام ثم قضاء مصر وولي مشيخة الحديث بالكاملية ومشيخة الشيوخ وتنزه عن معلوم القضاء لغناه مدة ومحاسنه كثيرة ومن شعره

لم اطلب العلم للدنيا التي ابتغيت ... من المناصب او للجاه والمال
لكن متابعة الاسلاف فيه كما ... كانوا بقدر ما قد كان من حالي

﴿ هبة الله الحموي ﴾

ذكر ترجمته مذيل تاريخ ابي الفدا وهو ابن الوردي فقال ما ملخصه انه في سنة ٧٣٨ هـ (سنة ١٣٣٧ م) توفي شيخي المحسن اليَّ ابو القاسم هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين ابي محمد عبد الرحيم البارزي الجهني الحموي الشافعي علم الائمة وعلاَّمة الامة تعين عليه القضاء بحماة فقبله وتورع عن معلوم الحكم من بيت المال ولم يتخذ عمره درة ولا مهمازًا ولا مقرعة ولا عزَّر احدًا بضرب ولا اسقط شاهدًا هذا مع نفوذ احكامه وقبول كلامه افنى شبيبته في المجاهدة والتقشف وانفق كهولته في تحقيق العلوم وقضى شيخوخته في تصنيف الكتب الجياد ودعي مرات للقضاء في الديار المصرية فأبى واجتمع له من الكتب ما لم يجتمع لاهل عصره واشتهرت مصنفاته في حياته بخلاف العادة فمنها في التفسير كتاب البستان في تفسير القرآن مجلدان وكتاب روضات جنات المحبين اثنا عشر مجلدًا وفي الحديث كتاب المجتبى مختصر جامع الاصول وكتاب الوفا في احاديث المصطفى

وكتاب المجرد من السند وكتاب المنضد شرح المجرد اربعة مجلدات وفي الفقه كتاب شرح الحاوي المسمى اظهار الفتاوي من اعوار الحاوى وكتاب تيسير الفتاوى في تحرير الحاوي وهما اشهر تصانيفه وكتاب شرح نظم الحاوى اربعة مجلدات وكتاب المغني مختصر التنبيه وكتاب تمييز التعجيز الى غير ذلك وله نظم قليل منه ما كتب به الى صاحب حماة يدعوه الى وليمة

طعام العرس مندوب اليه ... وبعض الناس صرح بالوجوب
فجبرًا بالتناول منه جريًا ... على المعهود في جبر القلوب

ومنه نثره الذي يقرأ طردًا وعكسًا «سور حماه بربها محروس»

وقد رثاه واضع الترجمة المذكورة بقصيدة منها

برغمي ان بنكم يضام ... ويبعد عنكم القاضي الامامُ
سراج للعلوم اضاء دهرًا ... على الدنيا لغيبته ظلامُ
تعطلت المكارم والمعالي ... ومات العلم وارتفع الطغامُ
عجبت لفكرتي سمحت بنظمٍ ... ايسعدني على شيخي نظامُ
حشا اذني دررًا ساقطته ... عيوني يوم حم له الحمامُ
ويا شرف الفتاوى والدعاوى ... على الدنيا بغيبتك السلامُ
لكم مني الدعاء بكل ارض ... ونشر الذكر ما ناح الحمامُ

﴿ عمر ابن الحسام الدمشقي ﴾

ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات فقال هو الشاعر زين الدين ابو حفص الدمشقي الشافعي سالته عن مولده فقال سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٢ م) وكانت وفاته في رمضان سنة ٧٤٩ هـ (سنة ١٣٤٨ م) اجتمعت به مرةً وقد انشدني كثيرًا من شعره منه لنفسه

قد اثقلتني الخطايا ... فكيف اخلص منها

يارب فاغفر ذنوبي واصفح بفضلك عنها

وقال ايضاً يامن عليه اتكالي ومن اليه مآبي

جد لي بعفوك عني اذا اخذت كتابي

وقال ايضاً

يا سائلي كيف حالي في مراقبتي وما العقيدة من سري واعلاني

اخاف ذنبي وارجو العفو عن زللي فانظر فبين الرجا والخوف تلقاني

﴿ ابن الوردي ﴾

مما ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفية في حقه هو القاضي الاجل الامام الفقيه الاديب الشاعر زين الدين بن الوردي المعري الشافعي احد فضلاء العصر وادبائه وشعرائه تفنن في العلوم واجاد في المنثور والمنظوم نظمه جيد الى الغاية وفضله بلغ النهاية ومن مصنفاته البهجة الوردية في نظم الحاوي وكتاب فوائد فقهية منظومة وكتاب شرح الفية ابن مالك وكتاب ضوء الدرة على الفية ابن معطي وكتاب قصيدة اللباب في علم الاعراب وشرحها وكتاب اختصار ملحة الاعراب نظماً وكتاب مذكرة الغريب نظماً وشرحها وكتاب المسائل المذهبية في المسائل الملقبة وكتاب ابكار الافكار وتمة تاريخ ابي الفدا صاحب حماة وارجوزة في تعبير المنامات وارجوزة في خواص الاحجار ومنطق الطير نظماً وقد درس على هبة الله الحموي كما رأيت وتوفي بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ (سنة ١٣٤٨ م)

وقد ذكر الصلاح كثيرًا من اشعاره منها ما كتبه الى فخر الدين قاضي حلب وقد عزله وعزل اخاه

جنبتني واخي تكاليف القضا وشفيتنا في الدهر من خطرينِ

يا حي عالم دهرنا احييتنا فلك التحكم في دم الاخوينِ

ومنها بالله يا معشر اصحابي اغتنموا علمي وآدابي

فالشيب قد حل براسي وقد اقسم لا يرحل الابي
ومنها سبحان من سخر لي حاسدي يحدث لي في غيبتي ذكري
لا اكره الغيبة من حاسدٍ يفيد في الشهرة والاجرِ

ولابن الوردي ايضاً كتاب في الجغرافية سماه خريدة العجائب وفريدة الغرائب الفه في حلب وذكره له صاحب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع وقال انه طبع في اسوج سنة ١٨٢٤ م مع ترجمة لاتينية وطبع ايضاً في اوبسالا سنة ١٨٣٥ م وطبع في القاهرة سنة ١٢٩٢ هـ ويشتمل كتابه هذا على خريطة عامة لا تزال محفوظة في المكتبة الملكية بباريس وقد وقع الشك باذهان بعض المحققين في ان ابن الوردي صاحب الخريدة الجغرافية هو ابن الوردي الذي نكتب ترجمته او غيره يسمى ابن الوردي ايضاً وقد ترجم هذا الكتاب الى الافرنسية وقد طبعت ارجوزته في النحو على الحجر بمدينة برسلار من بروسيا

﴿ صلاح الدين الكتبي الحلبي ﴾

هو صلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي الحلبي صاحب كتاب فوات الوفيات وهو تتمة وملحق لكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان جمع فيه خمس مئة واثنتين وسبعين ترجمة ممن فات ابن خلكان ذكرهم او كانوا بعد وفاته الى وفاة صلاح الدين المذكور التي كانت سنة ٧٦٤ هـ (سنة ١٣٦٢ م) وقد طبع كتابه ببولاق سنة ١٢٨٣ هـ وقد ذكر له صاحب الكشف من التآليف كتاب عيون التواريخ في ستة مجلدات

﴿ صلاح الدين الصفدي ﴾

هو خليل بن ايبك بن عبد الله الصفدي الشافعي توفي بدمشق سنة ٧٦٤ هـ (سنة ١٣٦٢ م) له كتاب الوافي بالوفيات انتهى فيه الى اخر سنة ٧٦٠ قبل وفاته باربع سنين وهو كتاب حافل جمع فيه تراجم الاعيان ونجباء الزمان ممن وقع عليه

اختياره فلم يغادر احدًا من اعيان الصحابة والتابعين والملوك والامرآء والقضاة والعمال والمحدثين والفقهاء والمشايخ والاولياء والصلحاء والنحاة والشعراء والاطباء والحكماء واصحاب الملل والنحل والبدع واعيان كل فنٍّ ممن اشتهر او اتقن الا ذكره (عن كتاب كشف الظنون) وله كتاب دمعة الباكي ولوعة الشاكي نظم ونثر طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٠ ثم سنة ١٣٠٢

﴿ صدر الدين الدمشقي ﴾

هو صدر الدين ابي عبد الله محمد بن عبد الرحمان الدمشقي اشتهر سنة ٧٨٠ هـ (سنة ١٣٧٨ م وله كتاب رحمة الامة في اختلاف الايمة طبع ببولاق سنة ١٣٠٠

﴿ محمود القدسي ﴾

ذكره المطران اسطفانس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية (صفحة ١٣٢) وقال انه ابن الشيخ فخر الدين وانه اشتهر سنة ٧٨٠ هـ (سنة ١٣٧٨ م) وان له في هذه المكتبة كتاباً في طريقة الصلاة قسمه الى مقدمة وعشرة فصول اولها في طهارة النفس والجسد

﴿ عد ٩١١ ﴾

﴿ في من عاصر هولاء المشاهير من امثالهم غير السوريين ﴾

﴿ قطب الدين محمود الشيرازي ﴾

ذكره ابو الفدا قال كان مولده بشيراز سنة ٦٣٤ هـ (سنة ١٢٣٧ م) وتوفي سنة ٧١٠ هـ (سنة ١٣١٠ م) وكان اماماً مبرزًا في عدة علوم مثل العلم الرياضي والمنطق وفنون الحكمة والطب والاصولين وله عدة مصنفات منها نهاية الادراك في الهيئة وتحفة السامي في الهيئة ايضاً وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه ومصنفاته وفضائله مشهورة

﴿ شهاب الدين احمد ابن الوهاب ﴾

ذكره ابن الوردي في تمة تاريخ ابي الفدا فقال في تاريخ سنة ٧٣٣ ﻫ (سنة ١٣٣٢ م) مات الامام المؤرخ شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب الشافعي بالقاهرة وله تاريخ في ثلاثين مجلداً كان ينسخ باليوم ثلثة كراريس وفضيلته تامة وعاش خمسين سنة انتهى ما قاله ابن الوردي واظن ان شهاب الدين هذا هو الذي ذكره المطران اسطفان عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية بالمكتبة المادينشية (صفحة ٤١) وسماه شهاب الدين احمد الامام الشافعي الذي تسميه العامة ابن النويري وانه توفي سنة ٧٣٢ ﻫ (سنة ١٣٣١ م) وله تاريخ عمومي قسمه خمسة اقسام قال وقد رأيت نسخة منه في مكتبة بريس الملكية في عشرة مجلدات وان في المكتبة المادينشية المذكورة كتاباً جامعاً خلاصات من كتبه مقسوماً الى اربعة وثمانين فصلاً مداوها في امور سياسية وادبية وطبيعية وتاريخية وفصاحية يؤيدها المؤلف بشهادات فلاسفة العرب واشعار شعرائهم ووضع فهرستاً لفصول الكتاب المذكور الاربعة والثمانين وجاء في كتاب اكتفاء القنوع ان النويرى توفي سنة ٧٣٢ ﻫ (سنة ١٣٣١ م) وله كتاب نهاية الارب في فنون الادب وهو تاريخ كبير في ثلاثين جزءًا لم يطبع الى الآن ومنه جزء محفوظ في الكتبخانه المصرية

﴿ الصنهاجي صاحب الاجرومية ﴾

هو ابو عبد الله محمد بن داود الصنهاجي الاجرومي ولد سنة ٦٨٢ ﻫ (سنة ١٢٨٤ م) وتوفي سنة ٧٢٣ (سنة ١٣٢٣ م) كذا ذكره المطران اسطفان عواد السمعاني في كتابه المذكور وهو مؤلف كتاب المدخل في النحو المعروف بالاجرومية نسبة اليه وطبع هذا الكتاب مرارًا منها برومة سنة ١٥٩٢ وقد شرحه كثير من العلماء منهم خالد ابن عبد الله الازهري وحسن الكفراوي وغيرهما

والاجرومي نسبة الى اجروم بلده

﴿ أثير الدين ابي حيان النحوي المغربي ﴾

ممن ذكروه ابن الوردي في تمة تاريخ ابي الفدا فقال انه توفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ (سنة ١٣٤٤ م) وكان بحرًا زاخرًا في النحو وكان يستهزي بالفضلاء من اهل القاهرة ويحتملونه لحقوق اشتغالهم عليه وكان يقول عن نفسه انا ابو حيات بالتاء يعني بذلك تلاميذه وله مصنفات جليلة منها تفسير القرآن العظيم وشرح التسهيل وارتشاف الضرب من السنة العرب مجلد كبير جامع ومختصرات في النحو وله نظم ليس على قدر فضيلته فمن احسنه قوله

وقابلني بالدرس ابيض ناعم واسمر لدن اورثا جسمي الردى
فذا هزّ من عطفيه رمحاً مثقفاً وذا سلّ من جفنيه عضباً مهندا

ورثاه الصلاح الصفدي بقصيدة طويلة منها

مات اثير الدين شيخ الورى فاستعر البارق واستعبرا
يا عين جودي بالدموع التي يروي بها ما ضمه من ثرى
مات امام كان في علمه يرى اماماً والورى من ورا

عن كتاب حسن المحاضرة لجلال الدين السيوطي

﴿ صفي الدين الحلي ﴾

هو عبد العزيز بن سرايا الحلي الملقب صفي الدين الحلي من شعراء المسلمين ولد سنة ٦٧٧ هـ سنة ١٢٧٨ م وهاجر من العراق بسبب الحروب والمحن الى نادي الملوك آل ارتق اصحاب ماردين في الجزيرة ونظم في مدح السلطان نجم الدين ابي الفتح تسعاً وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرين بيتاً على حرف من حروف المعجم كل بيت يبتدي وينتهي بذلك الحرف ووسمها بدر النحور في مدائح الملك المنصور وبديعته مشهورة وقد توفي سنة ٧٥٠ هـ سنة ١٣٤٩ م وطبع ديوانه في

دمشق سنة ١٣٠٠ مع قصائده الارتقيات التي نظمها في مدح بني ارتق الاكراد (عن اكتفاء القنوع)

﴿ابن هشام الانصاري﴾

هو عبد الله ابن يوسف بن هشام الانصارى المصري له كتاب مغني اللبيب عن كتب الاعاريب في عوامل الاعراب طبع بالقاهرة جزئين سنة ١٢٩٩ ﻫ وعليه حاشية لمحمد الامير (الذي توفي سنة ١٢٣٢ ﻫ) ثم طبع هذا الكتاب ثانية بالقاهرة سنة ١٣٠٢ ويطالعه الطلبة بمدرسة الجامع الازهر وعن مغني اللبيب اخذ المطران جرمانوس فرحات الشهير اكثر ما تضمنه كتابه الموسوم باقصل المعقود في عوامل الاعراب والذى طبعه الشيخ الكنت رشيد الدحداح في اخر كتاب احكام باب الاعراب عن لغة الاعراب للمطران المذكور وللمغني ايضاً شرح اخر وضعه تقي الدين احمد الشمني (الذى توفي سنة ٨٧٢ ﻫ سنة ١٤٦٧ م) وسمى شرحه المصنف من الكلام على مغني ابن هشام طبع بالقاهرة جزئين سنة ١٣٠٥ﻫ وعلى هامشه تحفة الغريب بشرح مغني اللبيب لمحمد بن بكر الدماميني على ان شرح الدماميني هذا انتهى الى حرف الفاء فقط وقد توفي الدماميني سنة ٨٢٨ ﻫ سنة ١٤٢٤ م ولمحمد غرفة الدسوقي ايضاً حاشية على مغني اللبيب طبعت جزئين بالقاهرة سنة ١٣٠٥ و بهامشها متن مغني اللبيب ولابن هشام ايضاً كتاب شذور الذهب في معرفة كلام العرب في النحو وهو مختصر وعليه شرح له طبع ببولاق سنة ١٢٨٢ ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وحاشية على شرح لمحمد عبادة العدوى (توفي سنة ١١٩٣ ﻫ) طبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٣ وهي مطولة وحاشية اخرى لمحمد الامين طبعت على هامش كتاب شذور الذهب بالقاهرة سنة ١٣٠٥

ولابن هشام ايضاً كتاب قطر الندا وبل الصدا في النحو مع شرح له عليه طبع ببولاق سنة ١٢٥٣ ﻫ ثم سنة ١٢٨٢ ﻫ وهو مختصر سهل العبارة وللسجاعي

توفي سنة ١١٩٧ هـ) حاشية عليه طبعت ببولاق سنة ١٢٩٩ وبالقاهرة سنة ١٣٠٦ وله شرح معلقة كعب بن زهير بانت سعاد وله شرح الفية ابن مالك سماه اوضح المسالك الى الفية ابن مالك ويعرف بالتوضيح طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ وللخالد الازهري شرح على التوضيح سماه التصريح بمضمون التوضيح وقد توفي ابن هشام سنة ٧٦١ هـ (سنة ١٣٥٩ م)

﴿ ابي الضيا خليل بن اسحق المالكي ﴾

توفي سنة ٧٦٧ هـ (سنة ١٣٦٥ م) وله كتاب المختصر في الفقه على مذهب المالكية طبع بباريس مرات اخرها سنة ١٨٨٣ وهي احسن طبعاته بباريس وطبع بمصر مرارًا وشرحه كثيرون واحسن هذه الشروح الشرح الكبير على مختصر سيدى الخليل لاحمد الدردير الذي توفي سنة ١٢٠٢ هـ طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣ م مع حاشية عليه لمحمد الدسوقي الذي توفي سنة ١٢٣٠ هـ ثم طبع ثانية سنة ١٣١٠ هـ ولاحمد الدردير شرح اخر على متن له حذا به حذو متن ابي الضياء وسماه اقرب المسالك الى مذهب مالك ويعرف بالشرح الصغير تميزًا له عن الشرح الكبير لابي الضياء وطبع الشرح الصغير بالقاهرة سنة ١٢٩٩ هـ مع حاشية عليه لاحمد الصاوي المتوفى (سنة ١٢٤١) سماها بلغة السالك لاقرب المسالك ولابي عبد الله محمد الخرشي الذى توفي سنة ١١٠٢ هـ شرح على كتاب ابي الضياء طبع ببولاق سنة ١٢٩٩ ثمانية اجزاء ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٧ هـ خمسة اجزاء وعلى هامش الطبعتين حاشية لعلي العدوى الذى توفي سنة ١١٨٩ هـ

﴿ ابن عقيل ﴾

هو ابو محمد عبدالله بن عقيل المصرى الهاشمي قاضي القضاة العلامة الناحي ولد سنة ٦٩٧ هـ (سنة ١٢٩٧ م) وتوفي سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م اشهر مصنفاته شرح الفية ابن مالك وهو من اشهر كتب النحو واقربها تناولاً وقد طبع مرارًا

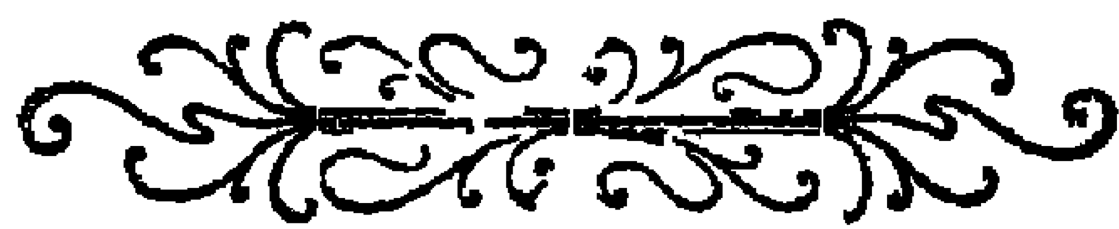
بالقاهرة وبيروت وقد ترجم العلامة ايتريسي الالماني الالفية مع شرح ابن عقيل لها الى اللغة الالمانية وطبع ترجمته في لايبسيك سنة ١٨٥٢ م وقد وضع كثيرون شروحاً لشرح ابن عقيل ولابيات الشواهد التي ضمنها شرحه منهم احمد الخضرى الدمياطي (الذى توفي سنة ١٢٨٨ ﻫ) وله حاشية على شرح ابن عقيل طبعت ببولاق سنة ١٣٠٢ ﻫ وسنة ١٣٠٥ ﻫ ولعبد المنعم الجرجاوى المصرى شرح شواهد ابن عقيل طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٥ ﻫ وللسجاعي (الذى توفي سنة ١١٩٧ ﻫ) شرح آخر لهذه الشواهد طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٨ واعيد طبعه سنة ١٣٠٦ وللسجاعي ايضاً حاشية على شرح ابن عقيل برمته طبعت بالقاهرة سنة ١٢٩٨ ﻫ وطبع محمد قطة العدوى الفية ابن مالك وشرح ابن عقيل لها وابيات الشواهد مرتبة على حروف المعجم ببولاق سنة ١٢٦٤ وطبع خليل سركيس نزيل بيروت شرح ابيات الشواهد عن محمد قطة المذكور وطبعه بمطبعة المعارف ببيروت سنة ١٨٧٢ م

ابن بطوطة

هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي الملقب شمس الدين ابن بطوطة الرحالة المشهور ولد بطنجة من اعمال مراكش سنة ٧٠٣ ﻫ سنة ١٣٠٣ ولما بلغ من العمر أثنين وعشرين سنة اخذ يطوف ببلاد العراق ومصر والشام واليمن والهند والاقطار الصينية والتترية واواسط افريقيا والاندلس ثم انتهى الى المغرب وفيه اخذ يملي على ابن جزى رحلته وسماها تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار وهي مشهورة وقد عني الافرنج بترجمتها الى اكثر لغاتهم وتوفي ابن بطوطة سنة ٧٧٩ ﻫ (١٣٧٧ م) وقد طبع رحلته من الافرنج المستشرقان ديفرمري وسنغوينتي اربعة اجزاء بباريس سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٧ مع ترجمة افرنسية لها وطبعت هذه الرحلة بمصر جزئين سنة ١٢٨٨ ﻫ وطبع مختصر لها بالقاهر بمطبعة حجرية سنة ١٢٨٧ ﻫ

﴿ السعد التفتزاني ﴾

توفي سنة ٧٩٢ هـ (سنة ١٣٩٠ م) له شرح على الايساغوجي بالمنطق وكتاب تهذيب المنطق والكلام طبع في لكناو بالهند دون ذكر لسنة الطبع وطبع مع شرح له في كلكته سنة ١٢٤٣ ولعبد الله اليزدي شرح وحاشية على كتاب التهذيب هذا طبع في كانفور بالهند ايضاً سنة ١٢٩١ هـ وطبع بلكناهور بالهند بمجموع بالمنطق اوله شرح للجلال الدواني على متن التهذيب للسعد وله شرح عقائد النسفي في التوحيد طبع بكلكته سنة ١٢٦٠ هـ وله كتاب سماه النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ في اللغة طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٦ والكلم النوابغ هو للزمخشرى وله كتاب في التصريف شرح لكتاب التصريف العزى الذى هو للزنجاني طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٣ وله شرح تلخيص المفتاح الذى لمحمود القزويني في المعاني والبيان سماه المطول وطبع في القسطنطينية سنة ١٢٦٠ م سنة ١٣٠٤ م (اكثر ما رويناه في هذه التراجم الاخيرة ملخص عن اكتفاء القنوع بما هو مطبوع لادوار فان ديك)



القسم الثاني

في تاريخ سورية الديني في القرن الرابع عشر

الفصل الاول

في بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

عدد ٩١٢

في بطاركة انطاكية

فرغنا من الكلام على بطاركة انطاكية في القرن الثالث عشر بذكر قول لكويان ان هذا القرن انقضى وعلى كرسي انطاكية اما كيرلس الثالث واما ديونيسيوس الثاني واما صفرونيوس وقال هذا العلامة بعد ذلك ذكر السمعاني في جدول بطاركة انطاكية يوحنا السادس ومرقس الاول قبل اغناطيوس الاتي ذكره ولم اجد لهما ذكرًا في كتب غيرهِ ولم ارَ من السداد ان اترك اسميهما

ويظهر ان اغناطيوس الثاني خلف مرقس الذي ذكره السمعاني وانه كان على كرسي انطاكية سنة ١٣٤٤ حين كان شقاق البالاميين عند الروم وحرم ايسيدورس محدث هذا الشقاق في كتاب فاتحته اغناطيوس برحمة الله بطريرك مدينة الله انطاكية وسائر المشرق وقد اشهر هذا الكتاب الاتيوس في مؤلفه في الكتب البيعية عند الروم وعقد حينئذٍ مجمع التأم فيه اثنان وعشرون اسقفاً ورأسه البطريرك القسطنطيني وهذا البطريرك الانطاكي فنبذوا ضلال هولاء المحدثين

وحرموهم فتحاملوا على البطريرك اغناتيوس واودعوه السجن واذاقوه مرّ العذاب بعد ان اخذوه من الدير الذي كان مقيماً به وحبسوه في محل خفي حيث توفاه الله ويقال ان خصومه تركوا جثته فريسة للكلاب والخنازير روى ذلك يوحنا شيبرسياتوس في كتابه فظائع البالاميين ويظهر مما مر ان اغناتيوس لم يمت في انطاكية بل في نواحي القسطنطينية

جاء في الجدول الواتيكاني ان بخوميوس الاول خلف اغناتيوس المذكور وكان بخوميوس مطربوليطاً على دمشق ثم حط عن كرسيه وانتخب مكانه ميخائيل الاول سنة ١٣٧٠ ويظهر ان كرسي انطاكية كان فارغاً سنة ١٣٦٧ لان البابا اوربانوس الخامس انفذ هذه السنة رسالة الي البطاركة القسطنطيني والاسكندري والاورشليمي يستحثهم بها على الاتحاد بالكنيسة الرومانية ولا ذكر فيها للبطريرك الانطاكي فينتج انه لم يكن في تلك السنة بطريرك على انطاكية . ثم توفي ميخائيل الاول الذي انتخب مكان بخوميوس فعاد بخوميوس ثانية الى كرسي انطاكية لكنه لم يمكث فيه طويلاً اذ روى بعضهم ان خليفه مرقس الثاني توفي سنة ١٣٧٨

والذي في جدول السمعاني ان اغناتيوس الثاني المذكور خلفه ميخائيل الاول وميخائيل هذا خلفه مرقس الثاني ثم بخوميوس ثم نيلوس ثم ميخائيل الثاني الذي كان في ايام تيمورلنك في مبادى القرن الخامس عشر انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي . ولا حاجة الى القول ان تاريخ هولاء البطاركة في هذا القرن ايضاً سقيم غامض ولا وسيلة لنا لازالة غموضه والكشف عن حقيقته

عد ٩١٣

في بطاركة اورشليم في القرن الرابع عشر

فرغنا من الكلام على بطاركة اورشليم في القرن الثالث عشر بذكر البطريرك تادى القرمي ويظهر ان الذي خلفه في اوائل القرن الرابع عشر انما هو صفرونيوس

الثالث فقد روى نيكوفور كاليستوس (في المجلد الثاني من تاريخه فصل ٣٩ في نقل الاساقفة) ان صفرونيوس (الذي يظهر انه خلف تادى القرمي) توفي فخلفه اثناسيوس اسقف قيصرية فيلبس (بانياس) فاقتحم على كرسيه جبرائيل برولا ثم ترك جبرائيل هذا الكرسي طائعاً او مكرهاً وعاد اثناسيوس وهو الرابع بهذا الاسم الى كرسيه وروى بخميرس (في ك ٧ في اندرونيكوس الملك الذى كان ملكاً سنة ١٣٠٨) ان اثناسيوس الاول البطريرك القسطنطيني عزل اثناسيوس بطريرك اورشليم عن كرسيه لشكايات اوردها عليه جبرائيل برولا اسقف قيصرية فيلبوس فارجع البطريرك القسطنطيني برولا مع قصاد من قبل الملك للتحقيق على تلك الوشايات في اورشليم فعزل الفاحصون اثناسيوس واقاموا جبرائيل برولا الشاكي مكانه ولم يذكر بخميرس رجوع اثناسيوس ولكن ذكره نيكوفور كاليستوس كما رأيت

وقد روى يوحنا نتكوزان (ك ٤ من تاريخه فصل ١٤) انه بعد وفاة اثناسيوس اجتمع الاساقفة في اورشليم فانتخبوا العازر فاتى الى القسطنطينية ليثبته الملك اندرونيكس الثاني وجاء في اثره جراسيموس الراهب وبعض مشايعيه فشكوا البطريرك فلم يقبل الملك شكاياتهم ولا برّاء ساحة البطريرك بل امره ان يبقى بالقسطنطينية ووجه وفدًا الى اورشليم ليستقصي جلية الامر من الاساقفة وعرض حينئذٍ موت اندرونيكوس الملك سنة ١٣٣٢ فعزل يوحنا البطريرك القسطنطيني العازر المذكور عن بطريركيته ونصب جراسيموس عدوه وارسله بطريركاً الى اورشليم فشكاه الاورشليميون الى السلطان بمصر فعزله وسار جراسيموس الى مصر ليبرد نفسه مما تجنوا عليه به فعاجلته المنية في الطريق وعاد العازر الى كرسيه في اورشليم . واثبت رايلدوس رسالة من البابا اوربانوس الخامس انفذها سنة ١٣٦٧ الى العازر البطريرك هذا والى البطريرك القسطنطيني والبطريرك الاسكندري

يستحثهم بها على الاتحاد بالكنيسة الرومانية وقد مرَّ آنفاً ذكر هذه الرسالة ومنها يظهر ان العازر بقي حياً في بطريركيته اورشليم الى سنة ١٣٦٧ وقد قام بها منذ سنة ١٣٣٢ او سنة ١٣٣١ ويظهر ايضاً من هذه الرسالة ان هذا البطريرك كان يرغب في الاتحاد بالكنيسة الرومانية ولا علم لنا بغير ذلك من اخبار هذا البطريرك

وقام بعد العازر صفرونيوس الرابع ذكره دوزيتاوس في جدوله بعد العازر ثم قال في الكتاب السابع من تاريخ بطاركة اورشليم انه استمر في البطريركية ستاً واربعين سنة فقال لكويان لا اعلم كيف يصح ذلك لان العازر سالفه بقي حياً الى سنة ١٣٦٧ كما علمت من رسالة البابا المذكورة ودوروتاوس خليفة صفرونيوس هذا يقال ان الملك يوحنا بالالوغوس اقره في البطريركية وهذا الملك تسنم منصة الملك سنة ١٣٨٤ وفي رواية اخرى سنة ١٣٨٧ وتوفي سنة ١٣٩١ فكيف يصح القول انه دبرَّ بطريركية اورشليم ستاً واربعين سنة وهو كان بعد العازر وقبل دوروتاوس الآتي ذكره

وكان بعد صفرونيوس الرابع دوروتاوس الاول ذكره دوزيتاوس في جدوله بعد صفرونيوس الرابع وقد اقره في البطريركية الملك الذي يقال انه كان يوحنا بالالوغوس وقدمنا نقلاً عن لكويان انه صير ملكاً سنة ١٣٨٤ او سنة ١٣٨٧

وصير بعد دوروتاوس بطريركاً ابنه توافيلوس الثاني لأنه كان مزوجاً قبل ارتقائه الى الدرجات المقدسة فخلفه ابنه بعد وفاته وكان في ايام الملك عمانوئيل الثاني بالالوغوس الذي رقي الى سدة الملك سنة ١٣٩١ وفي ايام ابنه الملك يوحنا السابع بالالوغوس الذي شارك اباه في الملك سنة ١٣٩٩ فقد قال دوزيتاوس (في ك ٧ في تاريخ بطاركة اورشليم فصل ٢٢) انه قراء في كتاب الميناوون المحفوظ باورشليم ما ملخصه « ان ذلك الكتاب خط في ايام البطريرك دوروتاوس والآن يدبر البطريركية توافيلوس ابنه على عهد الملك عمانوئيل بالالوغوس الشيخ

وابنه الملك يوحنا ،

الفصل الثاني

﴿ في بعض المشاهير الدينيين في القرن الرابع عشر ﴾

﴿ عـد ٩١٤ ﴾

﴿ في محبوب بن قسطنطين مطران منبج اليعقوبي ﴾

ذكره المطران اسطفانوس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية (كتاب ٣٣٢ صفحة ٢١٣) فقال انه له تاريخاً عاماً ابتداء فيه من سنة تجسد المخلص واوصله الى ايامه اي الى القرن الرابع عشر وضمنه ما جاء في التاريخ المشهور الذي يستشهده متواتراً العلماء من اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة بالمسيح وهو حاوٍ تاريخ اليعاقبة من السريان والقبط والاحباش والارمن وزاد عليه ما يأتي

اولاً تاريخ اعمال الملوك الرومانيين وفهرست اسمائهم من اغوسطوس قيصر الى اندرونيكوس الثاني بالالوغوس الذي خلف اباه ميخائيل بالالوغوس سنة ١٢٨٣

ثانياً تاريخ الملل الشرقية اعني الروم الملكية والنساطرة والموارنة وقد سمى جميع هولاء هراطقة لخضوعهم للكنيسة الرومانية او لمخالفتهم بدعته التي هي اليعقوبية

ثالثاً تاريخ سبعة مجامع عامة وهي النيقوي والقسطنطيني والافسسي الاول الذي عقد لنبذ تعليم نسطور ثم الافسسي الثاني الذي عقد خلافاً لاوطيخا فان

القبط اصحاب الطبيعة الواحدة يسلمون بهذا المجمع وينبذه سائر اليعاقبة وتحرمه الكنيسة الرومانية ثم المجمع الخلكيدوني الذي ذكره محبوب المذكور ونبذه وذكر بدلاً منه المجمع الافسوسي الثاني وسماه المجمع الرابع ثم ذكر القسطنطيني ووصفه بالخامس ثم القسطنطيني ونعته بالسادس ثم القسطنطيني ووسمه بالسابع وقال انه التئم خلافاً لمحاربي الصور مع ان هذا المجمع عقد بنيقية لا بالقسطنطينية

رابعاً مختصر تاريخ المسلمين العرب والفرس والافريقيين والاسياويين والسوريين من تاريخ سنة ٩٣٣ لاسكندر اي سنة ٦٢٢ للميلاد الى سنة ٧١٢ هجرية وهي سنة ١٣١٢ للميلاد التي بها كان ختام ما كتبه محبوب بن قسطنطين مطران منبج المذكور

وقال المطران اسطفانس المذكور لا علم لي بنسخة اخرى لهذا الكتاب الا هذه النسخة التي في المكتبة المادينشية فهو اثر جليل جدير بالتعظيم وينبغي الاحتفاظ عليه وقد خط على رق في ١٢٧ صفحة بالعربية الفصحى والاحرف العربية وقد نسخه سعيد بن يوحنا ابن ابي البدر بن عبد المسيح اليعقوبي الرهاوي كما هو مدون في اخره

عد ٩١٥

في عبد يشوع مطران صوبا

هو عبد يشوع الصوباوي النسطوري الذي استشهدنا مرات في هذا التاريخ باقواله وقد وضع العلامة السمعاني ترجمته في صفحة ٣٢٥ وما يليها من المجلد الثالث من مكتبته الشرقية الذي افرده لقصيدته الشهيرة الآتي ذكرها واشرحها وتذييلها فقال ما ملخصه ان عبد يشوع المذكور اسم ابيه مبارك وقد رقي اولاً الى اسقفية سيغارا والعربية نحو سنة ١٢٨٥ ثم رقاه يهب الله بطريرك النساطرة الى مطربوليطية صوبا وهي نصيبين نحو سنة ١٢٩٠ وكانت وفاته في شهر تشرين الثاني

سنة ١٣١٨ في ايام تيموتاوس خليفة يهب الله المذكور وقد بين السمعاني اغترار ابراهيم الحاقلي ورينودوسيوس ومرهج بن نيرون البـاني وغيرهم بعدم التفرقة بين عبد يشوع الصوباوي هذا الذى كان في اواخر القرن الثـالث عشر ومبادى الرابع عشر وبين عبد يشوع الاخر الذى كان في ايام البابا بيوس الرابع في القرن السادس عشر وسار الى رومة فجحد بدعة النسـاطرة واقر بالايمـان الكاثوليكي وصير بطريركاً على الكلدان الكاثوليكيين فبين الاثنين ما يزيد على قرنين وقد اقام السمعاني على ذلك براهين قاطعة وبينات دامغة • وكان الصوباوي الذي نكتب ترجمته طائر الشهرة بقلمه حائزًا اعلى مرتبة بين قومه وسائر السريان حتى يقال انه لا يضاهيه احدٌ في فصاحة الخطب التي كتبها بالسريانية نظماً ونثرًا وهو اشبه بملافنة السريان افرام واسحق ويعقوب لولا ان تلوثه باضاليل النساطرة يحط من قدر غزارة اقواله وطلاوة نسقه وسعة اطلاعه وعلمه بالمباحث المقدسة

واما الكتب التي الفها وصنفها فكثيرة وقد عددها هو بنفسه في آخر قصيدته التي جمع فيها اسماء المؤلفين ومصنفاتهم فقال واما الكتب التي الفتها انا الحقير عبد يشوع مطران صوبا فهي كتاب تفسير نصوص الاسفار المقدسة في العهدين القديم والجديد قال السمعاني في شرح ذلك زعم هوتنجاروس ان تفسير الصوباوى هذا بالمعني المجازى وقد فاته ان توادوروس المصيصي ومن تبعه من النساطرة يأنفون من تفسير الاسفار المقدسة بالمعني المجازى ومن العدول عن المعنى الحقيقي اليه وقد ذكر عبد يشوع ان توادوروس المذكور الف خمسة كتب ردًا على من يفسرون الكتاب بالمعنى المجازى وهو اى عبد يشوع لم يشر في تفسيره البتة الى انه بالمعنى المجازى وقد اغترّ هوتنجاروس بكلمة ܦܘܫܩܐ ܕܟܬܒ من كلام الصوباوى مع ان هذه الكلمة عند السريان بمعنى نص الكتاب لا بمعنى مجاز والكتاب الثاني من الكتب التي عزاها الصوباوى الى نفسه الكتاب الجـامع في التدبير العجيب اى في

تجسد المسيح واعماله والثالث كتاب قصائد يسميه فردوس عدن وترجم ابراهيم الحاقلي هذا الاسم بفردوس اللذات وقال السمعاني من هذا الكتاب نسخة في المكتبة الواتيكانية اخذت عن نسخة مدققة كانت في مكتبة الرهبان الموارنة الساكنين برومة حذا كنيسة القديسين بطرس ومرشلينوس وقد قسم الصوباوى هذا الكتاب المنطوى على خمسين قصيدة الى قسمين سمى الاول الحاوى خمساً وعشرين قصيدة احنوخ وسمى الثاني ايليا وادعى في المقدمة ان يرد على من قال ان اللغة العربية افصح من السريانية وانسب منها لنظم لشعر فرد كلامه السمعاني في شرحه له قائلاً لا يقول بتفضيل السريانية على العربية الا من كان قليل الخبرة باللغتين فالعربية اوسع واغنى من السريانية بل من اليونانية ايضاً وهي افصح من جميع اللغات الشرقية وربما كان المقام الاول للسريانية في ايام الملوك الاشوريين والكلدان واما الان فان هي من اللغة العربية وضمن كلامه في هذه القصائد انواعاً كثيرة من البديع كما يقراء طرداً وعكساً وما التزم في قوافيه لزوم ما لا يلزم وغير ذلك من انواع البديع اللفظي كالتزامه في قصيدته الاخيرة حرف التاء في كل كلمة منها ونهاية كل بيت بتاء والف والكتاب الرابع من كتبه يتضمن مختصر القوانين وقال السمعاني ان من هذا الكتاب في المكتبة الواتيكانية نسختين احداها كتبت سنة ١٥٥٧ م والثانية خطت سنة ١٣٣٢ بعد وفاة المؤلف باربع عشرة سنة وهو مقسوم الى قسمين يتضمن الاول ما يتعلق بعامة الناس كالقوانين التي موضوعها الخطبة والزيجة وتقسيم الميراث والاحكام الشرعية والايمان والآداب الخ والثاني ما يتعلق باصحاب المراتب البيعية كالانتخابات والوظائف البيعية الخ وذكر السمعاني عنوانات كل من فصول هذا الكتاب

والكتاب الخامس من كتبه في اعمال الشاه اى الملك مروان في خراسان وقد كتبه باللغة العربية والسادس كتابه الذي وسمه ܛܘܟܣܐ ܕܕܝܢܐ ܥܕܬܢܝܐ اى

كتاب الدرة او الجوهرة في حقيقة الايمان وقد ذكر الحاقلي هذا الكتاب في فهرست اسماء المؤلفين الذين استشدهم في كتابه الانتصار لافيتشيوس وقال ان لديه منه نسختين الاولى في مكتبة كنيسة الصليب الاورشليمي والثانية في جملة كتب ابراهيم الحاقلي وقسم الصوباوي كتابه هذا الى خمسة اقسام وفي كل منها عدة فصول القسم الاول في الله وصفاته الثاني في الخليقة او في خلق العالم ومعصية آدم وسنن الله والانبياء كابراهيم وموسى ثم في النبوات المبشرة بتجسد المخلص والثالث بتجسد المخلص في حشاء العذراء وفي صحة الايمان المسيحي وحقيقته ثم في البدع ورد ما يعترض به اصحابها وفي ان العذرآء تسمى والدة المسيح بحسب زعم اصحاب بدعته لا والدة الله ثم في الكنيسة والقسم الرابع في اسرار الكنيسة وعدهـا سبعة اسرار الكهنوت والمعمودية ومسحة الميرون اي سر التثبيت والقربان جسد المسيح ودمه ومغفرة الخطايا اي سر التوبة وادخلوا مكان سر المسحة رسم اشارة الصليب ومكان الزيجة الخمير المقدس ثم تكلم على كل منها في فصل على حدة ثم القسم الخـامس وضمنه الكلام في ما يتعلق بالحياة الاخرى كتكريم ايام الاحاد والاعياد والصوم والصلاة والصدقة والقيامة والدينونة

والسابع من كتبه ܟܬܒܐ ܕܐܪ̈ܙܐ ܒܝܡ̈ܝܐ ܘܦܠܣܘܦܘܬܐ ܝܘܢ̈ܝܬܐ ارتأى الحاقلي وهو تنجاروس ان المعنى كتاب الاسرار المحجوبة في فلسفة اليونان واصح من ذلك ما قاله السمعاني من ان المقصود بالكلام المذكور كتابان كتاب في اسرار اليمة وكتاب في فلسفة اليونان لان عنوان النسخة الموجودة في المكتبة الواتيكانية من هذا الكتـاب ܟܬܒܐ ܕܐܪ̈ܙܐ ܕܝܡܐ ܘܦܝܠܘܣܘܦܘܬܐ ܝܘܢ̈ܝܬܐ اي كتاب اسرار اليمة وفلسفة اليونان واسقاط واو العطف في الشعر مباح والثامن كتابه في الجدل ودحض البدع والتاسع كتاب نظام الاحكام والسنن البيعية اسهب به ما اوجز في كتابه مجموع قوانين المجامع المار ذكره

والعاشر من كتبه حوى اثني عشرة قصيدة ضمنها شروحاً في بعض العلوم حاذياً حذو ابن العبري بشرحه بعض العلوم في قصائده والحادي عشر مقالات في تفسير بعض الايات المقدسة وخطب والثاني عشر ديوان قصائد في موضوعات كثيرة ذكر منها السمعاني قصيدة في التغرب وقصيدة في الالفاظ المترادفة وبعض هذه القصائد اخذ عن كتابه فردوس عدن المار ذكره . والثالث عشر قصيدته التي بسط بها اسماء الكتاب مبتدياً بموسى والانبياء الى ايامه ولا سيما المؤلفون النساطرة وقد شرح هذه القصيدة كثيرون منهم ابراهيم الحاقلي المارُوني ثم العلامة السمعاني في المجلد الثالث من مكتبته الشرقية وامبد يشوع ايضاً تفسير رسالة ارسطو الى اسكندر الكبير في الصناعة العظمى وهي الكيميا وله ايضاً رسائل متنوعة وذكر له عمرو بن متى رسالة عربية في التثليث والتوحيد والتجسد وله مقالة في بعض المباحث المشكلة ومقالة اخرى في الالغاز والمعميات والامثال (انتهى ملخصاً عن السمعاني في المجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٢٥ الى ٣٦١)

عد ٩١٦

في دانيال الكاهن وخامس بن القرداحي

اما دانيال فهو كاهن سرياني يعقوبي كان في هذا القرن الرابع عشر وله كتاب مجموعة القوانين حذا به حذو ابن العبري وقد ذكره ابراهيم الحاقلي المارُوني في كتابه الموسوم بالانتصار لافتيشيوس فقال هو العالم دانيال السرياني اليعقوبي المذهب الف كتاباً موجزاً في قوانين كنيسة اليعاقبة باللغة العربية يشتمل على سبعة عشر فصلاً ١ في الكنيسة ٢ في العماد ٣ في القربان ٤ في الاصوام والاعياد ٥ في الصلوات ٦ في تجنيز الاموات ٧ في مراتب الكهنوت ٨ في الوصايا ٩ في قسمة المواريث ١٠ في البيع والشراء ١١ في الرهن ١٢ في الشركة ١٣ في الوديعة ١٤ في العارية ١٥ في الهبات ١٦ في الوقف ١٧ في الكبائر اي الخطايا ويظهر انه

اختصر كتاب موجز القوانين لابن العبرى لان دانيال اختتم كتابه بقوله « فهذا ما سمح به الخاطر من اختصار بعض ابواب القوانين البيعية والاحكام العالمية ومن اراد الاستقصاء فى ذلك فعليه بمطالعة كتاب الهدايا لشيخنا المفريان » يريد غريغوريوس بن العبرى وقد ترجم دانيال او اختصر غير كتاب الهدايا من تآليف ابن العبرى وقد شهد بذلك داود الحمصي فى حاشية علقها على كتابه فى القوانين الذى كان قبلاً لابراهيم الحاقلي ثم اتصل الى السمعاني وهذا قوله في تلك الحاشية « قال داود الحمصي ان ملة السريان كان قد فني عملها وعلومها الى ان ظهر المطران يوسف بن غريب وله كتب مصححة وكذلك الربان يشوع بن حبرون وبعدهم الشيخ المرحوم دانيال وله من المصنفات عدة كتب وهي كتاب ايتيقون (اي في الادبيات) وكتاب اوصر رازى (كنز الاسرار) وكتاب اصول الدين وكتاب صحي مختصر (اي مختصر صحي ابن العبرى) وكتاب ايساغوجي مختصر وكتاب هدايا وهو هذا وغيرها » وقد زيد على كتاب القوانين لدانيال المذكور ستة وعشرون قانوناً من تاليف يوحنا بطريرك اليعاقبة ذكرها داود الحمصي المذكور

اما خامس بن القرداحي او الحداد فهو شاعر نسطوري كان في اواخر القرن الثالث عشر ومبادي هذا القرن وكان بعد ابن العبري الذي توفي سنة ١٢٨٦ م لانه شطر او خمس بعض قصائده وله ديوان بالسريانية في المكتبة الواتيكانية وهو الثاني والثلاثون من الكتب السريانية نسخ سنة ١٧٨٩ لاسكندر الموافقة سنة ١٤٧٨ للميلاد وفي اول صفحة منه قصيدة لابن العبري في الامور الالهية وكمال سيرة المجتهدين بالحكمة شطرها خامس بن القرداحي وقد اشتمل هذا الكتاب من صفحة ٦٢ الى صفحة ٢٤٨ على اغاني وقصائد كثيرة ثم على قصيدة في الدينونة العامة روى ذلك العلامة السمعاني في مجلد ٣ في المكتبة الشرقية صفحة ٥٦٦ وذكر في المجلد الثاني صفحة ٤٨٩ قصائد العالم خامس بن القرداحي فقال له من القصائد

الادبية ست عشرة قصيدة وله في موضوعات مختلفة خمس عشرة قصيدة وفي الصوم قصيدتان وفي الاستعداد لتلاوة الانجيل قصيدة وللاباء عند زيارة الابرشية قصيدة وعدة قصائد لتتلى في احاد السنة

عد ٩١٧

في تيموثاوس الثاني بطريرك النساطرة واغناتيوس بن وهيب بطريرك اليعاقبة

اما تيموثاوس فصير بطريركاً على النساطرة في سنة ١٣١٨ وكان قبل ذلك مطران الموصل واربل ومن اول اثاره اثباته القوانين البيعية في كنيسته ذكر ذلك عبد يشوع الصوباوي في كتابه في القوانين وله كتاب في اسرار الكنيسة اتى يوسف الثالث بطريرك الكلدان بنسخة منه الى مجمع نشر الايمان المقدس كتبت باورشليم سنة ١٦١٣ م وفصل السمعاني (في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية ٥٧٢ وما يلي) ما اشتمل عليه هذا الكتاب وبدؤه الفصل الاول في الكهنوت والفصل الثاني في تكريس الكنيسة والثالث في المعمودية والرابع في جسد المسيح ودمه المقدسين وقال فيه ان الامثل فيه تقديس الخبز خميرًا وان الرسل استعملوه كذلك وان مزج الماء بالخمر لازم الخامس في الكمال الرهباني والسادس في تجنيز الموتى والسابع في الخطبة والزواج وفي كل هذه الفصول عدة اجزاء (عن المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٥٦٧)

واما اغناتيوس وهو يوسف بن وهيب فكان اولاً اسقفاً على ماردين ثم رقي الى المقام البطريركي على اليعاقبة سنة ١٢٩٣ وتوفي سنة ١٣٣٢ م وسمي حينئذٍ اغناتيوس وتابعه خلفاؤه على التسمية باسم اغناتيوس وله مقالة مسهبة في تفسير الحروف السريانية وكتاب مشبع في الفاظ هذه اللغة والف نافورًا منه نسخة في الكتاب الرابع من الكتب السريانية المأتي بها من الاسقيط الى المكتبة

الواتيكانية يبتدي في صفحة ٦١ منه وفي الكتاب الخامس منها ايضاً في صفحة ٢١ وفاتحة هذا النافور ܐܠܗܐ ܟܣܝܐ ܘܠܐ ܡܬܕܪܟܢܐ ايها الاله المحتجب وغير المدرك وترجمه رينودوسيوس الى اللاتينية في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٥٢٨ وقد ذكره البطريرك اسطفانس الدويهي في كتابه المنائر العشر عد ٨ في مؤلفي النوافير غير الكاثوليكيين فقال اغناتيوس وهو يوسف بن وهيب له شرح على القداس ونافور بدؤه ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܚܝܠܬܢܐ ܘܠܐ ܡܬܕܪܟܢܐ ايها الرب الاله القوي والذي لا يدرك واستدرك السمعاني على الاهدني بان النافور الذي هذا بدوه ليس لاغناتيوس المذكور بل هو اغيلوكسينوس المنبجي كما يظهر من الكتاب الرابع من الكتب الماتي بها من الاسقيط صفحة ٢١٦ ومن الكتاب الخامس منها صفحة ١٨٥ ومن المجلد الثاني من كتاب رينودوسيوس المذكور صفحة ٣١٠ (عن المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفسة ٤٦٤)

عد ٩١٨

في عمرو بن متى

هو عالم نسطوري اشتهر نحو سنة ١٣٤٠ ويظهر من احد اقواله انه بقي حياً الى سنة ١٣٤٩ وقد ذكره عبد يشوع الصوباوي الذي توفي سنة ١٣١٨ وظنه بعضهم ماري بن سليمان وهو عالم اخر نسطوري كان في القرن الثاني عشر والف كتاباً عربياً سماه المجدل وذكر فيه سلسلة بطاركة النساطرة والف عمرو بن متى كتاباً اخر سماه المجدل ايضاً وذكر سلسلة البطاركة المذكورين عن ماري مع شرح لها وزيادة عليها فنشأ الوهم بعدم التفريق بين هذين العالمين مع ان كتاب المجدل لماري بن سليمان قسمه الى سبعة ابواب وثلاثين فصلاً وكتاب المجدل لعمرو بن متى قسمه الى خمسة اجزاء وكان العلامة السمعاني اغتر بشهادة ابي البركات فعزا في فهرست المجلد الثاني من المكتبة الشرقية كتاب المجدل لماري بن سليمان الى

بن متى وبين ابوابه السبعة ثم انتبه الى اغتراره في المجلد الثالث عند كلامه على عمرو
بن متى فاصلح ما فرط منه وذكر خلاصة كل من الكتابين معدداً الابواب والاجزاء
والفصول فيهما وعنواناتهما

ومما ذكره في خلاصة كتاب عمرو المسمى المجدل وهو خمسة اجزاء الجزء
الاول ساقط من نسخته التي في المكتبة الواتيكانية الجزء الثاني فيه خمس مقدمات
وثمانية فصول المقدمة الثانية في تعريف امر المشارقة كيف صاروا يلقبون نساطرة
ومن الذي رمى عليهم اسم نسطور فطرك القسطنطينية وهو رجل يوناني وهم
سريان ولم يكونوا راوه البتة ولا طرق بلادهم المقدمة الخامسة في معنى الاتحاد
والبنوة الفصل الاول في ان المشرق اشرف الجهات الفصل الثاني في بيان ان مبدا
البناء والعمارة في الدنيا كان في المشرق ومنه امتد الى سائر الجهات الاخر الفصل
السادس في بيان ان الاصل الاول في معرفة الله تعالى والايمان به وظهور الناموس
والكهنوت والميعاد بالمسيح انما كان من المشرق الفصل السابع في بيان ان من
المشرق كان ابتداء ظهور البشارة بسيدنا يسوع المسيح والايمان به الفصل الثامن
في تلماذ الرسل الاطهار للافاق والبلدان الجزء الثالث في ذكر البطاركة والملوك
وما كان في ايامهم منذ صارت المملكة للنصارى مبتدئة من الملك قسطنطين ثم في
معنى الصور واكرامها ثم في ترتيب بعض الصلوات بالترتيل والالحان الجزء الرابع
ويشتمل على ذكر الملل والاراء والاعتقادات وعدد المجامع وفيه سبعة فصول الاول
في ذكر الملة اليهودية والانبياء والملوك وما كان في ايامهم الثاني في ذكر الملة
السامرية الثالث في ما حدث قديماً في بلاد الروم واليونان من الاراء والاعتقادات
الرابع في ذكر المذاهب والاراء الكائنة ببلاد الروم واليونان بعد تلماذ الرسل
الخامس في ذكر الهيكل المبني على اسم ميكائيل مما ذكره الانبا اوتيشيوس الملكي
بطرك الاسكندرية المعروف بسعيد ابن البطريق السادس في ذكر ان المشارقة

من قديم الزمان الى الان كانوا غير محتاجين الى جمع مجمع لاجل اصلاح ما تغير من قواعد الدين السابع في عدد المجامع. الجزء الخامس يشتمل على سبعة اصول وخاتمة واخص ما ذكره في هذا الجزء الكلام في الرسل الاثني عشر وبعض التلاميذ السبعين وبطاركة المشرق ومطارنهم وكراسيهم وما وضعه الاباء الشرقيون ولا سيما ما ذكره ايليا بطرك المشرق في كتابه البرهان في تصحيح الايمان وجيورجيوس مطران الموصل في كتابه امانة المشارقة ومكيخا بطرك المشرق في مقالته وميخائيل اسقف امد ومياقارقين وعبد يشوع مطران نصيبين (هو الصوباوي) في مقالته في التوحيد والتثليث وفي الحلول والاتحاد وفي توبيخ اليهود على ما يتدعونه واظهار بهتهم ووجوب نسخ الشرائع القديمة وامتناع نسخ شريعة المسيح وما ذكره في الاصل الرابع من هذا الجزء ما اتفق عليه فرق النصارى في الاتحاد والرد على من يقول ان النساطرة يقولون بابنين فهذه خلاصة كتاب المجدل اي البرج لعمرو بن متى (عن السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية ٥٨٠ وما يليها) وقد انتقد السمعاني كلام عمرو في كتابه هذا في عدة مواضع في المكتبة الشرقية

﴿ عـد ٩١٩ ﴾

في مشاهير اخرين في هذا القرن

﴿ جبرائيل اسقف الموصل ﴾

ذكره السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية صفحة ٥٦٦ فقال انه كان مطراناً على النساطرة في الموصل سنة ١٢٨٢ م وتوفي سنة ١٦٢٩ يونانية الموافقة سنة ١٣١٨ للميلاد وله قصائد سريانية نظمها وهو راهب في دير سبريشوع تكلم فيها على خلق العالم وعلى التجسد والفدا وتبشير الرسل وضمن بعضها تقاريظ للاباء والعلماء البيعيين وكتب ترجمة سبريشوع صاحب الدير المذكور وديوان مثبت في الكتاب الثاني والثلاثين من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية صفحة ٣٣ وفي

الكتاب السابع منها

﴿ نيقوفور كاليستوس ﴾

هو راهب يوناني كان في هذا القرن الرابع عشر وتوفي سنة ١٣٥٠ وله تاريخ ابتدأ فيه من سنة ميلاد المخلص وضمنه في ثلاثة وعشرين كتاباً ولما كان من الروم غير المتحدين انكر في كتبه انبثاق الروح القدس من الاب والابن وقد انتقد العلماء كتبه في مواضع كثيرة وبينوا ان فيها بعض الحكايات والاقاصيص

﴿ توادورس القاري ﴾

كان هذا قارئاً في كنيسة القسطنطينية وكتب تاريخاً بيعياً املاه عليه نيقوفور كاليستوس وابتداء فيه من تاريخ وفاة توادورس الصغير وانتهى في تاريخ سنة ٥١٨ وقد اشتهر توادورس هذا سنة ١٣٢٠

﴿ نيقوفور كراكوراس ﴾

كان في هذا القرن ايضاً وكتب تاريخ بيزنطية اي القسطنطينية في احد عشر كتاباً وابتدأ تاريخه من سنة اخذ الفرنج القسطنطينية الى سنة ١٣٦١ وقد ترجم تاريخه هذا الى اللاتينية العالم ارونيموس فوفليوس

ملحق

﴿ في تاريخ الموارنة في القرن الرابع عشر ﴾

﴿ عـد ٩٢٠ ﴾

﴿ في ما نعلمه من حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن ﴾

كانت في السنين الاولى من هذا القرن الحروب التي فتح بها عمل كسروان

وقد الحقنا اخبارها بتاريخهم في القرن الثالث عشر متابعة لئلا نقسم الكلام على هذه الحروب في تاريخ قرنين فليطالعها هناك من شاء

وقل ما علمنا من تاريخ حالهم الدنيوية في هذا القرن لجل ما علمناه انهم شرعوا يسمون حكام اعمالهم او قراهم الكبيرة مقدمين بدلاً من تسمية حكام الاعمال امراء وجاء في اخبار الاعيان (ص ١٠٩) للمرحوم طنوس الشدياق انه في سنة ١٣٧٥ م توفى غزال القيسي الماروني مقدم العاقورة ولم يخلف ولدًا ذكرًا فورثته ابنته زوجة جرجس الملقب بالشدياق ولم يذكر المؤلف مسندًا لهذا الخبر ولم يروهِ البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخه فيتعذر علينا القطع بصحته

وروى البطريرك الدويهي عن ابن سباط انه في سنة ١٣٨٨ جهز الملك الظاهر برقوق العساكر المصرية لمقاتلة الناصري ومنطاش فجمع هذان عساكر الشام والعرب والتركمان واهل كسروان والجرديين وجرت بينهم حروب فانتصر منطاش والناصري على عساكر مصر وهزموها وفي اثناء ذلك انتشب القتال بين امراء الغرب وبين عشران (فسر بعضهم هذه اللفظة بمعنى المتطوعين للقتال ونظن انها جمع العاشر وهو من يؤمن المارة من اللصوص) البر اهل كسروان والامراء اولاد الاعمى من تركمان كسروان وكان امراء الغرب من حزب الملك الظاهر برقوق والكسروانيون من جهة ارغون نائب منطاش ببيروت فاستظهر اهل كسروان على امراء الغرب وقتلوا منهم نحوًا من تسعين شخصاً وامسكوا جماعة منهم وقتلوا بعضهم ونهبوا ما وجدوا لامراء الغرب في بيروت واحرقوا عدة قرى من الغرب منها عين عنوب وعيناب وشملال وعيتات وغيرها وبعد ان عاد الملك الظاهر الى السلطنة (كما مر) وجه عساكره الى تركمان كسروان (ويروى قصدت العساكر طومان شيخ التركمان حاكم كسروان) وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل في جورة منطاش بزوق مكائل فقتل من التركمان الامير علي واخوه الامير عمر ابنا

الاعمى وجماعة كثيرة ونهبوا زوق مكائيل

فذكر اهل كسروان والجرديين بعد ذكر التركمان يدل دلالة صريحة على ان الكسروانيين المذكورين هنا ليسوا من التركمان سكان سواحل كسروان بل من الموارنة الذين كانوا قد استمروا بكسروان بعد الفتح او كانوا قد رجعوا اليه بعد خرابه اذ كان قد مضى بعد الفتح اكثر من ثمانين سنة

وروى الدويهي في تاريخ هذه السنة ان الملك الظاهر لما كان معتزلاً عن السلطنة اقام الشدياق يعقوب بن ايوب مقدماً على بشري وكتب له ذلك بصفيحة من نحاس وقد ذكر هذا الخبر صاحب الغرر وروى العبارة الاخيرة « وكتب له صفيحة بختمه ان يكون شيخاً » ثم حل الملك الظاهر بدير قنوبين وكان رئيسه كاهناً اسمه القس بطرس فاحسن استقباله فعفا الدير من الاموال الاميرية وجعل له التقدم على جميع اديار تلك النواحي وكتب ذلك على صفيحة نحاسية وفي كتاب الغرر اعطاه بذلك خطاً « ولما عاد الملك الظاهر الى الكرك وكان البطريرك داود الذي دعي يوحنا مقيماً بدير مار سركيس القرن بارض حردين فجعل القس بطرس المذكور اسقفاً واسكنه دير قنوبين

عد ٩٢١

في بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر

ان اخر من ذكرناهم من بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر هو سمعان الخامس الذي صير بطريركاً في اواخر القرن المذكور واستمر على السدة البطريركية زماناً طويلاً حتى سنة ١٣٣٩ م فقد علمنا انه كان بطريركاً سنة ١٣٢٢ من حاشية علقها الشماس سابا بن سليمان ابن الخوري جرجس شامات (وفي تاريخ الموارنة المطبوع وفي سلسلة بطاركتهم المذاعة في المشرق قنات بدلاً من شامات) على كتاب الانجيل الذي نسخه بالاحرف السطرنكلية على رق سنة ١٣٢٢ م قال فيها

«كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب في ايام ابينا البطرك سمعان الجالس على كرسي انطاكية وفي ايام بطرس رئيس اساقفة بشري سنة ١٦٣٣ يونانية» توافق سنة ١٣٢٢ م قال الدويهي هذا الكتاب محفوظ في دير مار ميخائيل شاريا بقرية عينتورين وعلمنا من حاشية اخرى علقها القس يعقوب رئيس دير مرت مورا باهدن على كتاب الانجيل الذي بكنيسة بجة من بلاد جبيل انه كان الفراغ منه سنة ١٣٣٩ في ايام البطرك شمعون (سمعان) وبطرس مطران اهدن

وبعد وفاة البطريرك سمعان انتخب مكانه يوحنا وهو التاسع بهذا الاسم روى ذلك لكويان نقلاً عن الدويهي سندًا الى ما كتب على كتاب قديم بكنيسة القديس سركيس بحدشيت بالسريانية وهذه ترجمته «كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب سنة ١٣٥٧ للتاريخ المسيحي في ايام سيدنا المختار يوحنا بطريرك انطاكية وجبل لبنان وسواحل البحر وفي ايام يوحنا مطران قبرس»

وروى البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٣٦٧ ان يعقوب اسقف اهدن كتب في ذيل كتاب الانجيل الذي خطه سنة ١٦٧٧ لاسكندر (توافق سنة ١٣٦٧م المذكورة) «في هذه السنة قصد ملك قبرس الاسكندرية بجيشه فقتل رجالها واسر صغارها ونهب اموالها فغضب سلطان المسلمين على النصارى وامسك روساء الكنيسة وحبسهم بدمشق وكان الاسقف المذكور في جملتهم فتمكن من الهرب وكتب هذا الكتاب وهو مستتر وقال الدويهي ان هذا الكتاب محفوظ بدير قنوبين وهو سبعة وعشرون كراساً بالخط السرياني والكرشوني وقد ذكر الدويهي هذا توطاة لقوله التالي «وفي هذه السنة كان على الكرسي الانطاكي البطريرك جبرائيل واستتر حين الاضطهاد بقريته حجولا من عمل جبيل فكتب نائب دمشق بسببه الى نائب اطرابلس وعند ما علم انه في حجولا قبض على اربعين رجلاً من هذه القرية وامرهم باحضاره فاحضروه وامر بحريقه في اول نيسان خارج

اطرابلس عند جامع طيلان » انتهى كلام الدويهي في تاريخه على ما في النسخة التي عندنا وفي النسخة التي اخذ عنهـا المعلم رشيد الخوري الشرتوني تاريخ الموارنة مقتطفاً عن تاريخ الدويهي ثم في سلسلة بطاركة الموارنة التي نشرها في المجلة المشرق

على انا قد روينا في تاريخ بطاركـة الموارنة في القرن الثالث عشر نقلا عن لكويان في مؤلفه المشرق المسيحي وعن صاحب الكتاب الموسوم بسورية المقدسة ان البطريرك جبرائيل من حجولا صير بطريركاً سنة ١٢٩٠ واستشهد بطرابلس سنة ١٢٩٦ ولكويان اعتمد في سلسلة بطاركة الموارنة على الدويهي لكنه قد استدرك كلامه في هذا البطريرك بذكر ما يظهر انه يخالف ذلك وهو ما رواه السمعاني عند ذكره (في المكتبة الشرقية مج ١ صفحة ٥٧٧) كتاباً لجبرائيل القلاعي روى فيه استشهاد هذا البطريرك وقيل هنـاك انه كان سنة ١٣٦٧ وترك لكويان حل هذا المشكل لعلماء الموارنة فنحن عند كلامنا في هولاء البطاركة في القرن الثالث عشر رجحنا صحة رواية لكويان وصاحب سورية المقدسة ان جبرائيل هذا كان في آخر القرن الثـالث عشر خاصة لعلمنـا باعتماد لكويان على سلسلة بطاركة الموارنة للدويهي مترجمة الى اللاتينية وهي اصح من نسخها العربية واسلم من التحريف ونرى الآن لكويان فى كلامه على بطاركة الموارنة في هذا القرن لم يذكر جبرائيل بل ذكر داود المسمى يوحنا خليفة ايوحنا التاسع الذي قدمنا ذكره وعزا ذلك الى الدويهي ايضاً فلم يكن لنـا حتى الآن يدان فى حل هذا المشكل افي آخر القرن الثـالث عشر كان جبرائيل ام بعد نصف القرن الرابع عشر ويزيد المسألة ارتباكاً قول الدويهي فى الفصل التاسع من رد التهم « ان البطـاركة مثل البطرك لوقا من بنهران والبطرك جبرائيل من حجولا ونظـائرهما بتلك السنين ما استطعنا ان نقف لهم على خبر فى كتـاب ولا نعرف باية سنة كانوا لعدم وجود تاريخ وانشغال الناس فى تلك الايام بالحروب فاكتفينا بايراد ما علمناه من الاقوال

في هذه المسالة دون القطع بصحة احدهـا ولا مرية في ان جبرائيل من حجولا كان بطريركاً على الموارنه وقتل في اطرابلس والاختلاف على الزمان فقط

روى لكويان انه بعد وفاة يوحنا التاسع خلفه داود الثاني ويسمى يوحنا ايضاً وكان ساكناً بدير القديس سركيس في حردين وهذا يظهر مما علقه الخوري دانيال من قرية بان على الكتاب الذي نسخه سنة ١٢٩٧ وهو «كان النجاز منه سنة ١٧٠٨ يونانية (توافق سنة ١٣٩٧ م) على يد الخوري دانيـال ابن الحاج سمعان من قرية بان على زمان البطريرك داود المكنى يوحنـا القـاطن بدير مار سركيس القرن بارض حردين وكان بطرس مطراناً على دير قنوبين» ويستفاد من خط آخر كتبه كيرلس مطران حاج والخوري اليشاع الناسك والشماس موسى الماردينى ان هذا البطريرك استمر الى سنة ١٤٠٤ التي كان فيها بطرس مطراناً على اهدن

وقد زعم جبرائيل بن القلاعي ان هذا البطريرك اطغاه حبيس اسمه اليشاع جال في بلاد اليعاقبة وعند عودته ادخل في جبل لبنان رتبة جديدة وخلط الزيت بالقربان المقدس فاغتر البطريرك بهذا الضلال حتى ابدى قسوة زائدة على روساء الكهنة الذين خالفوه فوقع الخلف في الرعية وانقسموا حزبين ذكر ذلك البطريرك الدويهي في الفصل العاشر من كتابه رد التهم عن الموارنة وقال ان البطريرك الذي كان في عصر اليشاع الحبيس المذكور هو البطريرك داود المسمى يوحنا ايضاً الذي سكن في دير القديس سركيس بحردين وكنا قبلاً نظن فيه انه بسبب تعليم اليشاع الحبيس وبسبب مجاورته لبعض اليعاقبة المقيمين بحردين تبع راى يعقوب وغير اسمه ودعا نفسه يوحنا وانشا الاضطهاد على الملة المارونية وعلى روساء كهنتها فقاومه اهل جبة بشري وبلاد جبيل وروساء الاساقفة ولم يزيغوا عن الايمان القديم ولكن لما بحثنـا بحثاً شافياً عن هذه الامور تحققنا ان ظننا كان بعيداً عن دائرة الصواب وتاكدنا ان الحبيس اليشاع كان رجلاً ناسكاً واتضح لنـا من الكتب التي عثرنـا

عليها بخطه انه كان من قرية الحدث وانه درس على فرح خوري قرية موسي ثم صار حبيساً وكاهناً في محبسة القديس سركيس بقرية الحدث ولم نجد له في الكتب التي شرع في كتابتها منذ سنة ١٧٠٢ لاسكندر (سنة ١٣٩١ م) تعليماً جديداً ولا قولاً محدثاً وان صح ما رواه عنه ابن القلاعي من خلطه الزيت بالقربان فيكون ذلك خطا محرماً لكنه ليس بضلال يخالف الايمان لانه لم يعلم ان ذلك لازم بل كان مقصوراً على عمله والذي يتبادر الى الفهم انه كان يدهن القالب بالزيت لئلا يلتصق به خبز القربان كما ندهنه الآن بالشمع وهذا لا لوم عليه بعمله وكانت القوالب في ذلك الحين مجوفة

ثم قد وقفنا على كتب كثيرة كتبت في ايام البطريرك داود المذكور فتحققنا منها انه سمي يوحنا منذ صير بطريركاً وقال الخوري دانيال الباني في الكتاب الذي خطه سنة ١٣٩٧ في ايام البطرك داود المسمى يوحنا وقدمنا هذا الخط وكذلك ذكر المطران كيرلس الجاجي هذا البطريرك في الكتاب الذي نسخه سنة ١٧١٢ لاسكندر (سنة ١٤٠١ م) ودعاه الاب البطريرك يوحنا ولم يطعن به وذكره ايضاً المطران يعقوب الحفدي في ذيل كتاب الناموس الذي نسخه للمطران داود الحدشيتي فقال « وكان الفراغ من كتاب الناموس هذا سنة ١٧١٣ من ملك اسكندر بن فيلبس اليوناني (وهي سنة ١٤٠٢ م) وهو برسم الاخ المغبوط المنتخب لله تعالى المطران داود بن جوسلين من قرية حدشيت وفي ايام ابينا ومعلمنا وسيدنا مار يوحنا المنتخب لله تعالى المؤيد بالمسيح والقاطن في دير مار سركيس القرن بقرب حردين رحمنا الرب ببركة صلواته المقدسة بشفاعة السيدة ام النور وجميع القديسين آمين »

وقال الدويهي وهذا الكتاب هو محفوظ الي الآن عندنا بدير قنوبين وهو برسم اخينا المطران يوسف الحصروني

واختم الدويهي كلامه بقوله يتبين من هذه الشهادات وغيرها اضربنا عن ذكرها ان هذا البطريرك كان يسمى وقتاً يوحنا واخر داود يوحنا وانه كان ذا ايمان قويم ولو كان قد زاغ عن محجة الايمان الصحيح ما كان ذكره المطران كيرلس والمطران يعقوب وسمياه ابانا وما كان وصفه المطران يعقوب بانه بار ومنتخب لله ومؤيد بالمسيح ولا طلب من الله ان يرحمه ببركة صلاته المقدسة ولو كان البطريرك المذكور قد عامل على قتل روساء كهنته كما تجنوا عليه ما كان قرظه هولاء الاساقفة الذين كانوا في ايامه وفي جملة اساقفة بهذه المدائح والنعوت السامية على ان الاضطهاد الذي جرى على بعض روساء الكهنة لم ينزله بهم بطريرك بل هو ما قدمنا ذكره في هذا الفصل بسبب حملة ملك قبرس على الاسكندرية وقتل اهلها ونهب اموالهم

عد ٩٢٢

في من عرفناهم من اساقفة الموارنة بهذا القرن

الاول بطرس اسقف بشري ذكره البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٣١٥ قال انه كان قاطناً ومتراساً على دير مار اليشاع بوادي نهر قديشا ومن ذلك يظهر ايضاً ان هذا الدير قديم وكان يسكنه رهبان واساقفة قبل ان يأخذ السكنى به الرهبان الحلبيون موسسوا الرهبنة اللبنانية ثم ذكر الدويهي المطران بطرس المذكور في تاريخ سنة ١٣٢٢ سنداً الى ما كتبه الشماس سابا بن سليمان ابن الخوري جرجس من قنات على كتاب الانجيل الذي كان محفوظاً في دير مار ميخائيل شاريا بعنطورين

الثاني بطرس اسقف اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٣٣٩ فقال ان الاحداث التي ذكرها في تاريخ تلك السنة كانت في ايام رياسة بطرس اسقف اهدن والقس سركيس رئيس دير مورت مورا باهدن ويظهر من هذا ايضاً ان

دير مورت مورا باهدن هو اقدم كثيرًا من سكني الرهبان الحلبيين موسي الرهبنة اللبنانية به وجا ذكر المطران بطرس الاهدني المذكور في الخط المار ذكره الذي علقه القس يعقوب رئيس دير مورت مورا المذكورة على كتاب الانجيل الذي كان بكنيسة بجه سنة ١٣٣٩

الثالث جيورجيوس مطران قبرس ذكره العلامة السمعاني (في المجلد ٤ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٣٣) نقلاً عن اعمال مجمع نيقوسية بقبرس الذي عقده اليا رئيس اساقفة الكلدان بهذه الجزيرة سنة ١٣٤٠ حيث يعد في جملة من شهدوا هذا المجمع جيورجيوس مطران الموارنة ويصرح بان كل من شهدوا هذا المجمع اقروا بان الكنيسة الرومانية هي ام جميع الكنائس ومعلمتهن وان الاب الاقدس البابا بناديكتوس الثاني عشر هو خليفة بطرس الطوباوي نائب المسيح في الارض

الرابع يوحنا اسقف قبرس ايضاً وقد مر ذكره في الخط الذي نقله الدويهي عن الكتاب القديم الذي كان في كنيسة القديس سركيس بحدشيت وقد علق عليه انه نسخ سنة ١٣٥٧ في ايام البطريرك يوحنا ويوحنا اسقف قبرس وقد ذكره الكوبان ايضاً في جملة من ذكرهم من اساقفة الموارنة والخامس يعقوب اسقف اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٣٦٦ وقال انه كان في جملة الاساقفة الذين قبض عليهم نائب السلطنة بدمشق وانه فر واستتر وكتب في استتاره سنة ١٦٦٧ كتاب الانجيل الذي كان باقياً الى ايام الدويهي في دير قنوبين وهو سبعة وعشرون كراساً بالسرياني والكرشوني وذكره ايضاً المطران اسطفان عواد السمعاني في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المادينشية في جملة التعليقات التي نقلها عن كتاب الانجيل الذي كان في بطريركية الموارنة ونقل الى المكتبة المذكورة وقد كتب عليه في صفحة ٢٢ « نهار السبت في ١٥ من ايار سنة ١٦٧٢ يونانية (توافق سنة ١٣٦١م) يوحنا ابن سركيس من قرية بلوزا اوقف لدير قنوبين عن نفسه الكرم الفوقاني

عند العين شهد بذلك يعقوب مطران اهدن والخوري سمعان » وجاء بعد ذلك خط اخر هذا هو بحروفه « القس سمعان ابن الخوري عبد المسيح من داريا ذو الذكر الصالح اوقف لدير قنوبين اربعة عشر عرق زيتون بقرب قرية كفرشخنا في حقل الزهرة سنة ١٦٧٣ يونانية (توافق سنة ١٣٦٢ م) شهد بذلك بخط يده المطران يعقوب

السادس الاسقف حنين ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب رد التهم فقال انه بسبب حملة ملك قبرس على الاسكندرية وبسبب حريق وقع في دمشق صدر الامر بالقبض على روساء النصارى فوقع من روساء كهنة الموارنة بيد نائب السلطنة بدمشق منهم يعقوب مطران اهدن المار ذكره والبعض الاخر فروا هاربين كما ذكر عن الاسقف حنين فانه سار في البحر الى قبرس والبعض اختفوا ولم ينبئنا الدويهي من اين كان حنين واين كان اسقفاً

السابع المطران يعقوب اللحفدي ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب رد التهم وقال انه نسخ كتاب الناموس للمطران داود الحدشيتي وذيله بالحاشية التي ذكرناها في الكلام على البطريرك داود في الفصل السابق

الثامن المطران بطرس في دير قنوبين ذكره الدويهي مرات منها في تاريخ سنة ١٣٨٨ حيث روي ان الملك برقوق لما كان معتزلاً عن الملك زار قنوبين واحسن القس بطرس رئيس الدير استقباله فرقاه البطريرك داود الى الاسقفية واسكنه دير قنوبين ومنها في الخط الذي نقله عن الكتاب الذي نسخه الخوري دانيال الباني سنة ١٣٩٧ وكتب انه فرغ من نسخه في ايام البطريرك داود واذ كان بطرس مطراناً في دير قنوبين ثم ذكره الدويهي في مقدمة المطارين الذين كانوا سنة ١٤٠٠

التاسع كيرلس اسقف جاج ذكره الدويهي في تاريخه في جملة الاساقفة الموارنة الذين كانوا سنة ١٤٠٠ وفي سلسلة بطاركة الموارنة اذا استشهد خطاً موقعاً عليه من

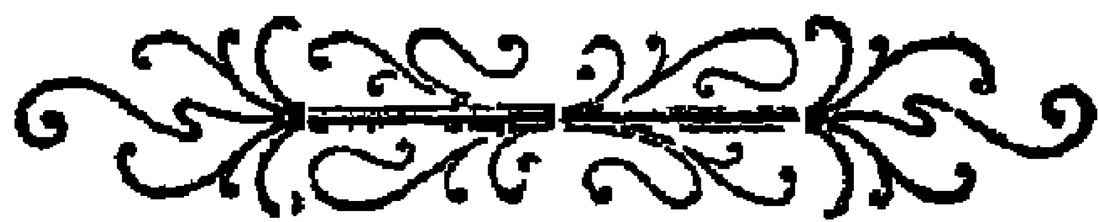
هذا المطران وغيره يتبين منه ان البطريرك داود بقي حياً الى سنة ١٤٠٤ كما مر

العاشر يعقوب من قنية اسقف لحفد ذكره الدويهي في جملة مطادين الموارنة الذين كانوا في سنة ١٤٠٠ وقال فيه في تاريخ هذه السنة انه كان من قنيا وكان قاطناً بلحفد بدير السيدة المعروف بدير المرج وانه اخذ عنه اخبار المجاعة التي كانت بسورية تلك السنة

الحادي عشر بطرس ابن القس سمعان (وقال في تاريخ سنة ١٤٠٣ ابن الخوري سمعان) اسقف اهدن ذكره الدويهي في جملة الاساقفة الذين كانوا سنة ١٤٠٠ ويظهر انه بقي حياً سنة ١٤٠٤ اذ روى الدويهي ايضاً في سلسلة بطاركة الموارنة الخط الذي دونه كيرلس اسقف جاج والخوري اليشاع الناسك ومما قيل فيه انه في هذه السنة كان بطرس مطراناً على اهدن

الثاني عشر داود بن جوسلين الحدشيتي وقد جاء ذكره في جملة اساقفة الموارنة سنة ١٤٠٠ وفي الذيل الذي كتبه المطران يعقوب اللحفدي على كتاب الناموس الذي نسخه للمطران داود بن جوسلين الحدشيتي وقد روى الدويهي في تاريخ سنة ١٤١٩ ان هذا الاسقف توفي في السنة المذكورة في ١٦ شباط

هذا ما امكن التوصل الى معرفته من اسماء هولاء الاساقفة الموارنة في القرن الرابع عشر



الباب الخامس عشر

﴿في تاريخ سورية في القرن الخامس عشر﴾

القسم الاول

﴿في تاريخها الدنيوي في هذا القرن﴾

الفصل الاول

﴿في السلاطين الذين تولوا سورية في هذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم﴾

﴿ عد ٩٢٣ ﴾

﴿في حملة تيمور لنك على سورية﴾

افرد شهاب الدين احمد بن محمد بن عبدالله الدمشقي الانصاري المعروف بابن عرب شاه كتاباً برمته لتاريخ تيمور سماه عجائب المقدور في اخبار تيمور وقد طبع هذا الكتاب مراراً واخر طبعاته كان بمصر سنة ١٣٠٥ وحيث ان هذا المؤلف كان معاصراً لتيمور فيحسب ثقة في نقل اخباره وان ضمن كتابه بعض اقاصيص عن مولد تيمور ونشأته وتوصله الى الملك وان جعل كتابه كتاب ادب في الفاظ

اللغة فيوردها غالباً مسجعة مرصعة بانواع البديع اللفظي والمعنوي والذي نعلمه من هذا الكتاب وغيره من مؤلفات المحققين ان تيمور بالتركية معناه الحديد ولنك الاعرج فتيمور لنك معناه تيمور الاعرج وقد ولد في الكش وهي مدينة قريبة من سمرقند على ما في رواية المحققين لا بعيدة عنها بنحو ثلثة عشر شهرًا كما في الكتاب المذكور ويتصل نسب تيمور من جهة النساء الى جنكيزخان اول ملوك المغول وكانت ولادته سنة ١٣٣٥ م وخلف عمه سيف الدين في امارة الكش ورياسة القبيلة سنة ١٣٦١ خاضعاً لاحد خانات التتر الى ان سمى نفسه خان سنة ١٣٧٠ واخضع لسلطته ما جاوره من البلاد وملك خراسان واصفهان واجتاح بلاد فارس والعراقين والجزيرة وغيرها وملك كثيرًا من نواحيها وقصد الهند سنة ١٣٩٧ وانزل بها الوبال واذاق اهلها الامرين وعاد سنة ١٤٠٠ نحو سورية وبلغت اخباره الى الملك النـاصر زين الدين فرج بن السلطان برقوق فكتب الى نائب الشام وسائر النواب والحكام ان يتوجهوا الى حلب ويجتهدوا في دفعه فتجهز نائب الشام سودون مع النواب والعساكر ورحلوا الى حلب وبلغ تيمور الى عين تاب وكان نائبها اركماس حصنها واستعد للقتـال لكنه اجفل عند اقامة تيمور الحصار على مدينته فهرب الى حلب وارسل تيمور من عين تاب الى النواب بحلب مرسوماً ان يطيعوا اوامره ويذلوا لسلطته ويكفوا عن القتال ويخطبوا باسمه فلم يردوا عليه جواباً وقتل سودون نائب السلطنة بالشام رسول تيمور وحصنوا حلب ما استطاعوا ورحل تيمور من عين تاب فوصل في اليوم السابع الى حلب وبرز من عسكره طائفة فالتقـاها جماعة من عسكر حلب فبددوا اصحاب تيمور وطردوهم ثم التحم الفريقان القتال في اليوم التالي واستمرت الحرب سجالاً لم يظهر النصر لاحدهما وفي الغد كان القتال الشديد في حيلان فانكسر الحلبيون وولوا الادبار فتبعهم اصحاب تيمور يثخنون فيهم بمعنى ما قال ابن عرب شاه المذكور

جعلنا ظهور القوم في الحرب اوجهاً   وقمنا بها ثغرًا وعيناً وحاجبا

وازدحم الحلبيون في باب المدينة وتكردسوا وداس بعضهم بعضاً حتى قتل كثيرون منهم وتشتت الباقون منهزمين شر هزيمة حتى بلغ بعضهم دمشق وحاصرت عساكر تيمور المدينة فذلت قلوب اهلها وقويت شوكة التتر فملكوها وعظمت بها الاهوال واكثر التتر من الفتك باهلها ولم يشفقوا على رضيع او شيخ او امراة وتحصن النواب بالقلعة فشد تيمور لنك الحصار عليها فاستأمنوا اليه وقبض على سودون نائب الشأم وعلى نائب صفد ونائب غزة وغلاهم بالقيود وخلع على تمرداش نائب حلب الذي سعى بتسليم القلعة اليه وشرع في استخلاص الاموال وضبط الاثقال ثم قتل جماً غفيرًا من الحلبيين بثأر الرسول الذي كان قد ارسله الى حلب فقطع عنقه سودون نائب الشام وبنى برؤسهم قبة ونهب كل ما كان في القلعة والمدينة وهو شيء لا يوصف ثم قصد تيمور دمشق وبلغ المعرة بجيشه العرمرم فجفل اهل دمشق وشتتوا فبعضهم قصدوا قلعة ارسون وبعضهم قلعة شقيف تيرون وغيرهم الى غيرها من المواضع الحصينة البعيدة وارسل تيمور ابنيه مهران شاه ومارديں شاه الى حماة فلقيهما اهلها مرحبين طائعين واخذا الهدايا التي قدموها لهما واقاما عليهم نائباً من قبل ابيهما وبعد ان رحلا عن حماة وثب اهلها على النائب فقتلوه فرجع ابنا تيمور الى حماة فقتلا ونهبا واحرقا اكثر البيوت وحاصر القلعة ونجدهما تيمور بعشرين الف مقاتل فملكوا القلعة واهلكوا من كان فيها ولما بلغ تيمور الى حمص خرج اليه رجل يسمى عمر بن الرواس فاستجلب خاطره وقدم له تقدمة فاخرة فعفا عن اهل حمص ووهبها لخالد بن الوليد المدفون بها وولى عمر المذكور عليها

ثم نزل تيمور على بعلبك فخرج اهلها دخلاء عليه فلم يلتفت الى مقالهم ولم يرث لتذللهم بل ارسل فيهم جوارح النهب والاستئصال وورد الخبر الى الشام

بخروج الملك الناصر بن برقوق من مصر وقدومه الى الشام فسكن جاش بعض الناس وزال استيحاشهم واما اصحاب العزم والراي السديد فلم يثقوا بالنجاة وانتظروا ما يتولد من حادثات الزمان وبلغت عساكر السلطان الى دمشق وبلغ تيمور اليها بجيشه الجرار العرمرم واقام في غربي المدينة بداريا وما يليها وكانت اولاً بين الجيشين مناوشات ومهارشات ليست بذات بال ودخل الخلف بين عساكر السلطان فعاد فريق منهم الى مصر ودخل على السلطان احد خواصه فخوفه من بطش تيمور ومن انه لا بد من ان يملك دمشق فتفوت السلطان مصر وربما اسره تيمور او قتله فاثر هذا الكلام في السلطان فخرج ليلاً من القلعة قاصداً الرجوع الى مصر ومر بالبقاع العزيز وبات في سفح لبنان بين قريتي نيحا وجباع الحلاوة لئلا يعلم به احد وسار في طريق الساحل الى مصر

ولما علم تيمور بهرب السلطان احتاط دمشق بالعساكر فملكها وقتل اعيانها وسبى نسأها واحرقها مع الجامع الاموي وكان فيه جم غفير من النساء والاطفال فهلك جميعهم واخرب المساجد والمدارس والمعابد ودك القلعة وارتكب جنوده بها الفظائع وقيل انه كان يأمر بجمع الاولاد ورميهم بالخنادق فتدوسهم الخيل والبقر ويلقون بعضهم بالاابار ويرمونها بالحجارة الضخمة واسر كثيرين من اعيانها وعذبهم اعذبة مبرحة متنوعة

ولم يخرج تيمور من دمشق حتى جاءها الجراد فغطى بكثرته الارض ووجه السماء فارتعى النبات والشجر وكان حلوله بدمشق في ٢٩ اذار وباض في ارضها وفقس بيضه في ١٧ ايار فارتعى الزحاف الكروم والاشجار حتى الغابات فلما رأى تيمور ذلك رحل عن دمشق وبعد الجراد واختطاف العساكر الاموال والغلات حصل غلاء فاحش ومجاعة كبرى حتى اكل الناس عبيدهم وجواريهم ودوابهم والجيف وجاء الوباء ثالثة الاثافي وثقلت وطأته حتى بقي موتى كثيرون دون دفن

روى الدويهي هذه الاخبار عما كتبه الاسقف يعقوب من قنيا وكان قاطنًا بالحقد بدير السيدة المعروف بدير المرج ورواه ايضاً غير الدويهي من المؤرخين

واما تيمور فسار عن دمشق لجهة ماردين وبغداد فملكها سنة ١٤٠١ وحارب بايزيد السلطان العثماني سنة ١٤٠٢ وفي هذه السنة ارسل رسلاً وهدايا نفيسة الى السلطان فرج واعتذر عما صدر منه بسورية ووقع الصلح بينهما وفي سنة ١٤٠٤ حمل على الصين في مايتي الف مقاتل فهلك في الطريق سنة ١٤٠٥ انتهى

عد ٩٢٤

في ما كان من الاحداث في ايام الملك الناصر فرج الى وفاته

بعد ان ارتحل تيمور عن سورية نصب الملك الناصر فرج الامير اقبغا (ويروى يلبغا) نائبًا بدمشق وامر الشيخ محمود الخاصكي نائب اطرابلس ان يسير الى دمشق ويعاون نائبها في عمارتها وولى على حلب الامير دقمق الخاصكي وسعى في تجديد ابنيتها

وفي سنة ٨٠٨ هـ (سنة ١٤٠٥ م) وقعت فتن بين الامرآء بمصر فخاف السلطان فرج على نفسه واختفى ولم يعلم احد اين ذهب بعد ان كان ملك ست سنين واشهرًا فاجتمع القضاة والامراء عند الخليفة واستشاروا وولوا مكانه اخاه وسمي الملك المنصور عبد العزيز وكان عمره ثمان سنين على ما في اخبار الدول للقرماني ثم ظهر الملك الناصر فرج فامسك اخاه المنصور عبد العزيز وحبسه بالاسكندرية ثم قتل فكانت مدة ولايته سبعة واربعين يوماً على رواية محمد ابن علي الاسحاقي في تاريخه اخبار الاول في من تصرف في مصر من الدول وعاماً كاملاً على رواية الشيخ عبدالله الشرقاوي في كتابه تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلاطين وعاد الناصر فرج الى عرش ملكه

وفي السنة المذكورة وثب يعبر بن مهنى امير العرب (نظنه يعبر امير الفضل

الذي قدمنا ذكره) في خلق كثير من العرب على دمشق فالتقاه نائبها في خارج المدينة والتحم بين الفريقين القتال فانهزم النائب واستولى يعبر على دمشق وشكت الناس من جوره وسطو عساكره فخرج اليه السلطان الناصر فرج من مصر في العساكر المصرية فازاحه عن دمشق وعن الامصار الشامية وجدد بناء الجامع الاموي وامن الناس ورتب امور البلاد وعاد الى مصر

وفي سنة ١٤٠٩ م كان طاعون شديد الوطأة في بلاد الشام وروى القرماني ان الامير شيخ ونوروز نائب الشام وغيرهما من الامراء اتفقوا على العصيان بالشام فخرج اليهم السلطان ووصل الى غزة فخامر عليه اعيان عسكره وقصدوا الامير شيخ ونوروز الى حمص فتوجه السلطان في طلبهم ووصل الى اللجون (بقرب الناصرة) واقتتلوا قتالاً شديدًا فانكسر السلطان وهرب الى دمشق فتتبعوه وحاصروه بقلعتها اياماً فطلب الامان فامنوه ونزل من القلعة فقبضوا عليه وسجنوه سنة ٨١٥ هـ (سنة ١٤١٢ م) وادعى عليه احدهم ابن ازدمر بقتل اخيه ظلماً فحكموا بقتله عوضه فقتلوه وبقي ثلثة ايام مرمياً على مزبلة عريان وكانت مدة ولايته سوى ايام غيبته ثلاث عشرة سنة واضيفت السلطنة الى امير المؤمنين المستعين بالله ابي الفضل العباس بن محمد العباسي وصار خليفة وسلطاناً مدة ستة اشهر ثم ان الجراكسة احبوا ان لا تخرج السلطنة منهم ورغبوا في ان يكون الامير شيخ سلطاناً فخلعوا المستعين بالله من الخلافة والسلطنة وتولى الخلافة بعده الفضل داود العباسي وتولى السلطنة السلطان الرابع من الجراكسة وهو الملك المؤيد شيخ الآتي ذكره

عد ٩٢٥

في الملك المؤيد شيخ وما كان في ايامه

كان الامير شيخ ابن عبدالله المحمودي الظاهري من مماليك الملك الظاهر

برقوق اعتقه وقدمه في المراتب الى ان صار مقدم الف في دولة الملك الناصر فرج ثم نائب السلطنة باطرابلس ثم بالشام ايضاً واسره تيمورلنك في حلب ثم نجا من الاسر وكانت له امور مع الملك الناصر فسجنه مدة ثم التف الى نوروز نائب الشام في عصيانه المار ذكره ولما قتل الملك الناصر وتسلطن الخليفة العباسي كان شيخ اتابك العسكر بمصر فخلع الخليفة من السلطنة وتسلطن مكانه سنة ٨١٥ هـ (سنة ١٤١٢ م) وتسمى الملك المؤيد ودقت له البشائر ونودي باسمه في القاهرة وضج الناس بالدعاء له وقال فيه الشيخ ناصر الدين بن كميل الشاعر

تسلطن الشيخ وزال العنا فالناس في بشرٍ وتيهٍ وفيخ (١)
فلا تقاتل بصبيٍ ولا تلقَ به جيشاً وقاتل بشيخ

وبعد استقراره بالسلطنة قبض على جماعة من الامرآء وارسلهم الى السجن بالاسكندرية وانعم على جماعة من الامرآء ايضاً ورقاهم في المراتب وارضى الجند والاقطاعات وقرب جماعة حضروا معه من الديار الشامية الى مصر منهم الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي عين اعيان الشعراء في عصره فاستقامت اموره في السلطنة واطاعه الجند

وفي سنة ٨١٦ هـ (سنة ١٤١٣ م) اتته الاخبار من دمشق بان نوروز الحافظي نائب الشام ثقلت عليه سلطنته واظهر العصيان وكدره من خيانة شيخ بالعهود التي كانت بينهما وبقي نوروز يخطب باسم الخليفة العباسي على منابر دمشق واستمر واضعاً يده على البلاد الشامية من غزة الى الفرات ففي سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) سار الملك المؤيد في العساكر من مصر الى الشام ومعه الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الاربعة فوجد نوروز قد حصن دمشق فحاصره المؤيد وطال الحصار وفي آخر الامر سلم نوروز نفسه الى الملك المؤيد فقطع رأسه وارسله الى

(١) الفيخ السكون بعد اضطراب

القاهرة فعلق على باب زويلة ثلثة ايام ثم دفن وكان مقتل نوروز سنة ٨١٨ هـ (سنة ١٤١٥ م) واقام الملك المؤيد بعد ذلك بدمشق اياماً فنظم البلاد الشامية ونصب قنباي المحمدي نائباً في الشام والامير اينال الصصلاني نائباً بحلب والامير سودون بن عبد الرحمان نائباً باطرابلس والامير جاني بك البجاسي نائباً بحماة وعاد الى مصر وكان له يوم مشهود زينت لديه القاهرة

وبعد عوده الى مصر اظهر النواب المذكورون العصيان عليه وخرجوا عن الطاعة فجرد الملك المؤيد العساكر وخرج عليهم ثانية بنفسه واتقع معهم فانتصر عليهم وقبض على قنباي المحمدي نائب الشام وقطع رأسه ثم على اينال الصصلاني نائب حلب وقتله على صدر ابيه ثم قتل الاب ايضاً وولى جماعة غير هولا ورجع الى مصر ولكن لم تمضِ مدة يسيرة حتى خامر هولاء النواب عليه واظهروا العصيان فجرد اليهم مرة ثالثة وخرج بنفسه فلما علم النواب بقدومه هربوا من وجهه وتوجهوا الى قرا يوسف امير التركمان فاقام نواباً غيرهم ممن وثق بهم وعاد الى مصر فصفا له الزمان وانشأ له مماليك وجدد له امرآء

وفي سنة ٨١٩ هـ (سنة ١٤١٦ م) كان في مصر الطاعون وفتك فتكاً فظيماً واستمر نحواً من ثلاث سنين تارة يزيد وتارة ينقص وعقبه قحط وغلاء وفي سنة ٨٢٢ هـ (سنة ١٤١٩ م) اكمل الملك المؤيد عمارة الجامع المنسوب اليه في القاهرة وقد تناهى في زخرفه ورخامه وسقوفه وابوابه فلم يبنَ في القاهرة مثله لكنه افرط في ضرب الضرائب لنفقة بنائه وانشأ مأذنتين له فتداعت احداهما للسقوط فرسم بهدمها واعادة بنائها فقال شهاب الدين بن حجر يداعب قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني

لجامع مولانا المؤيد رونق   منارته تزهو بالحسن والزيني
تقول وقد مالت عليهم ترفقوا   فليس على هدمي اضر من العيني

فاجابه بدر الدين

منارة كعروس الحسن اذ جليت وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا اصيبت بعين قلت ذا غلط ما اوجب الهدم الا خسة الحجر

وفي سنة ٨٢٤ ﻫ (سنة ١٤٢١ م) مرض الملك المؤيد واشتد مرضه واستمر على ذلك اياماً الى ان توفي يوم الاثنين تاسع المحرم من هذه السنة ودفن في جامعه المذكور وقيل ان عمره كان حينئذٍ خمساً وستين سنة وكانت مدة سلطنته بمصر والشام ثمان سنين وخمسة اشهر وثمانية ايام انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس

عـد ٩٢٦

في الملك المظفر احمد بن الملك المؤيد والملك الظاهر ططر

هو الخامس من الملوك الجراكسة تسلطن يوم وفاة ابيه المار ذكره وعمره سنة واحدة وثمانية اشهر وسبعة ايام ولما اقاموه ملكاً كان الاتابكي الطنبغا القرشي غائباً هو وجماعة من الامرآء بالشام بسبب عصيان بعض النواب فلما توفي الملك المؤيد تعصب مماليكه وقالوا لا تملك الا ابن مولانا وكانوا نحو خمسة الاف مملوك فعارض الخليفة في تمليكه وقال هذا صغير وتضيع احوال المسلمين فقال المماليك الامير ططر يكون مدبر المملكة الى ان يعود الاتابكي الطنبغا فلم يسع الخليفة الا انه بايعه على كره منه ولقبه الملك المظفر واجلسوه على سرير الملك وهو في حجر المرضعة ولما دقت الكؤوسات كالعادة اضطرب واغمي عليه وحصل له حول في عينيه ولما تم امره في السلطنة ثار مماليكه على الامير ططر بسبب الامريات والاقطاعات فلم تسعه الحال الا ان يسترضيهم بما شاؤوا من المناصب والاقطاعات وجاءت الاخبار بان جقمق الارغوني نائب الشام قد خرج عن الطاعة وكذلك يشبك المؤيدي نائب حلب وتبعهما غيرهما من النواب وكان الاتابكي الطنبغا القرشي في الشام كما

مصر وجمع العربان وعسكره وزحف بهم الى دمشق فحارب جقمق نائب الشام فانكسر جقمق وانهزم الى حلب فملك الاتابكي دمشق وحصنها والتف عليه العربان والعشائر ولما بلغ ذلك الامرآء بمصر خلعوا على ططر وجعلوه اتابكي العسكر عوضاً عن الطنبغا القرشي واتفقوا على ان ططر يأخذ السلطان بمحفة ويتوجه معه في العساكر الى دمشق فخرج ططر والملك المظفر معه في محفة تصحبه امه المسماة خوند سعادات والمرضعة ولما وصلوا الى الشام التى الله الرعب في قلب الطنبغا القرشي فحضر الى الملك وفي رقبته منديل فقبل الارض قدام الملك وهو في المحفة فقبض عليه ططر وسجنه بقلعة دمشق ثم قبض على جقمق نائب الشام وسجنه هناك ايضاً ثم امر بخنقهما فخنقا ليلاً ثم قبض على جماعة من النواب وقتلهم ثم تمارض واتى بعض الامرآء المويدية يعودونه بالقلعة فقبض على جماعة منهم حتى قيل انه قبض على اربعين اميرًا في يوم واحد وحبسهم بقلعة دمشق وامسك ايضاً نحو ثلث مئة مملوك من المماليك المويدية وحبسهم بقلعة دمشق

فصفا الوقت لططر وكثر المستقربون اليه فاقامهم في المناصب واعطاهم الاقطاعات وقويت شوكته واشتدت عصبته واخذ يمهد لنفسه حتى سولت له خلع الملك المظفر فخلعه وتسلطن مكانه بدمشق وكان الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الاربعة معه فبايعوه في ١٩ من شعبان سنة ٨٢٤ ﻫ (سنة ١٤٢١ م) وتلقب الملك الظاهر وخطب باسمه على منابر دمشق ثم عاد الى مصر ومعه الملك المظفر وامه خوند سعادات ولما وصل الى القاهرة زينت له المدينة وحملت على راسه القبة ولما جلس على منصة الملك ارسل الملك المظفر الى السجن بثغر الاسكندرية وارسل معه المرضعة فكانت مدة سلطنة الملك المظفر سبعة اشهر وعشرين يوماً فما كان اغناه عن هذه السلطنة التي اكسبته الحول وادت به الى السجن ومات بالطاعون سنة ٨٣٣ﻫ (سنة ١٤٢٩ م) ثم نقلت جثته الى القاهرة ودفن على ابيه

اما الملك الظاهر سيف الدين ططر (وكتب بعضهم تتر) الجركسي فهو السادس من الملوك الجراكسة واصله من مماليك الظاهر برقوق اشتراه ثم اعتقه ثم هرب من الملك الناصر فرج بن برقوق والتف على جكم العوضي نائب حلب ولما قتل جكم المذكور التف على شيخ ونوروز حين اظهرا العصيان بالشام كما مرَّ ولما قتل الملك الناصر بدمشق تقدم بالمناصب في دولة الخليفة العباسي وفي دولة الملك المؤيد ولما مات الملك المؤيد كان مدبرًا للمملكة في دولة ابنه الملك المظفر الى ان خلعه وتسلطن مكانه كما قدمنا وقيل ان خوند سعادات ام الملك المظفر دست له سمًّا لما خلع ابنها فاعتل بالشام وعاد الى مصر عليلاً الى ان توفي يوم الاحد ٤ من ذي الحجة سنة ٨٢٤ هـ (سنة ١٤٢١ م) فكانت مدة سلطنته ثلاثة اشهر واياماً فصح فيه ما قاله الشاعر

كان كالمتمني ان يرى فلقاً من الصباح ولما راه عُمي

انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس عن اخبار الدول وآثار الاول للقرماني ان موته لم يكن من السم بل عرض له قولنج فمات منه

عـد ٩٢٧

في الملك الصالح محمد بن ططر

وهو السابع من الملوك الجراكسة ويلقب ناصر الدين وقد بويع بالسلطنة بعد وفاة ابيه سنة ٨٢٤ هـ (سنة ١٤٢١ م) وكان عمره حينئذٍ نحو احدى عشرة سنة وخلع على المقر الاتابكي جاني بك الصوفي فكان اتابك العساكر ومدبر امور المملكة وهو صاحب الحل والعقد والابرام والنقض فاستوحش لذلك باقي الامراء ووثب الامير برسباي على الاتابكي جاني بك فهربه فقبض عليه بعض المماليك واحضروه الى الامير برسباي فقيده وارسله الى السجن في الاسكندرية وزل منزلته وتولى الحل والعقد ووقعت نفرة بين برسباي والامير طراباي حاجب الحجاب

فقبض برسباي عليه وارسله ايضاً الى السجن بالاسكندرية وقويت شوكة برسباي وتعصَّب له جماعة من الامراء فخلعوا الملك الصالح بن ططر من الملك ونادوا باسم برسباي ملكاً فكانت مدة سلطنة الملك الصالح ثلاثة اشهر واربعة عشر يوماً ولم يرسله برسباي الى السجن بالاسكندرية كعادتهم حينئذٍ بل ادخله دار الحرم واسكنه قاعة البربرية هو وامه ورخص له بان ينزل من الدار ويركب كل نهار جمعة ويزور قبر والده الى ان توفي الملك الصالح ثاني جمادي الاخرة سنة ٨٣٣ هـ (سنة ١٤٢٩م) ودفن بمدفن والده ططر انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس

﴿ عــد ٩٢٨ ﴾

﴿ في الملك الاشرف برسباي الدقاقي الظاهري ﴾

هو الثامن من ملوك الجراكسة ويكنى ابا النصر بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح وقر له بها الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الاربعة واصله جركسي جلبه بعض التجار الى البلاد الشامية فاشتراه الامير دقاق نائب ملطية فينسب اليه ثم قدمه الى الملك الظاهر برقوق فنسب اليه ايضاً فاعتقه الملك الظاهر وتقلب بالمناصب وتولى نيابة السلطنة بطرابلس وقبض عليه الملك المؤيد وسجنه بقلعة المرقب ثم اطلقه وجعله رئيس الف بدمشق ولما خامر على السلطان جقمق الارغوني نائب الشام قبض على برسباي وسجنه بقلعة دمشق ولما توجه ططر الى الشام وقهر جقمق افرج عن برسباي واحضره صحبته الى القاهرة وجعله دواداراً كبيراً ولما توفي ططر دبر برسباي المملكة في سلطنة ابنه الملك الصالح الى ان خلعه كما مرَّ وتولى السلطنة واقام اصحابه بالمناصب وجعل المقر السيفي جاني بك البجاسي نائباً بالشام وكان لا يتصرف في احوال المملكة الا براي القاضي عبد الباسط فعظم امره حتى اطلق عليه لقب عظيم الدولة في ايامه

وفي سنة ٨٢٩ هـ (سنة ١٤٢٥ م) (١) ارسل السلطان الاشرف تجريدة الى قبرس وارسل ثلاثة امرآء من مصر ونائب الشام ونائب حلب ونائب صفد ونائب اطرابلس لقتال ملك قبرس وبلغوا اولاً الى الماغوصة ثم الى الملاحة وكان قتال شديد بين الجيشين ودارت الدوائر على عسكر ملك قبرس فنهبت عساكر السلطان واسرت نحو سبع مئة اسير وملكوا حصن لامسون وانهزم القبارسة وقتل اخو الملك واسروا الملك نفسه واتوا به الى مصر بعد ان نهبوا داره واحرقوها واحرقوا دورًا اخرى كثيرة واخذوا من الغنائم شيئاً كثيرًا ولما بلغوا بملك قبرس الى القاهرة اصطفت العساكر امام باب القلعة صفين ودخل الملك بينهما مقيدًا راكباً بغلاً وامر السلطان بسجنه ثم اتفق معه على ان ملك قبرس يودي الى السلطان مائتي الف دينار يقوم بنصفها وهو بالقاهرة ويدفع النصف الثاني بعد عوده الى قبرس ثم يدفع كل سنة عشرين الف دينار فافرج السلطان عنه وعاد الى بلاده وكملت في هذه السنة عمارة المدرسة الاشرفية التي بناها الاشرف هذا عند سوق الوراقين بالقاهرة فرسم السلطان ان تعلق خودة ملك قبرس على باب هذه المدرسة لتكون ذكرًا للاشرف قال ابن اياس ان هذه الخودة لم تزل معلقة على باب هذه المدرسة الى الان اي الى ايامه في القرن العاشر للهجرة

وفي سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) بلغ السلطان ان الاتابكي جاني بك الصوفي الذي كان قد حبسه بالاسكندريه هرب من السجن فاضطرب السلطان وصار يكبس البيوت وقبض على اصهاره وعياله ومماليكه وعذبهم حتى ظهر ان جاني بك في بلاد التركمان عند اولاد قرا يوسف اميرهم وفي سنة ٨٣٣ هـ (سنة ١٤٢٩ م)

(١) وفقنا حتى الان السنين الهجرية للسنين المسيحية بتعين القاعدة العامة باسقاط ثلث سنين من كل ماية سنة هجرية اذ لم يكن لدينا كتاب في تفصيل السنين الهجرية والمسيحية وقد ظفرنا حديثاً بكتاب التوفيقات الالهامية لمحمد مختار باشا حيث بين بداة كل سنه هجريه موفقه في كل شهر للسنين المسيحيه فاخذنا في الاعتماد عليه

وقع طاعون شديد الوطأة في مصر واستمر اربعة اشهر فمات به من الناس كثيرون حتى قيل انه مات في يوم واحد نحو اربعة وعشرين الف شخص وضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضاً وقال شاعر في ذلك

قد نقص الطاعون ثلث الورى   واهلك الوالد والولده
كم منزلٍ كالشمع سكانه   اطفاهمو في نفخة واحدة

وفي سنة ٨٣٥ ھ (سنة ١٤٣١ م) قطع بعض التركمان راس جاني بك الصوفي المار ذكره واحضروه الى الملك الاشرف ليحظوا عنده فرسم السلطان ان يطاف بهذا الرأس في القاهرة فطافوا به وعلقوه في باب زويلة ثلثة ايام

وفي سنة ٨٣٦ ھ (سنة ١٤٣٢ م) اتى قصاد من قبل قرا ملك امير التركمان الى الملك الاشرف بهدية من جملتها قرص مرآة مكفتة بذهب وخروف باليتين وخلعة مخمل احمر معلمة بذهب وصقورة للصيد فلما رأى السلطان الهدية استقلها وسأته الخلعة ودعا القصاد الى البحيرة والبس تلك الخلعة لاحد الشهدارية وكان مضحكاً فرقص بها امام السلطان ثم احضر ناراً واحرق الخلعة وذبح الخروف وقال للقصاد اذا اراد استاذكم ان يعزر احداً فماذا يصنع به قالوا يرميه بالماء فامر برميهم في البحيرة وتركهم بها ساعة ثم اخرجوهم وقصوا اذناب خيلهم وقال السلطان لهم انصرفوا الى استاذكم وبلغوه ان يلاقيني الى الفرات وتاول جماعة السلطان الخروف بمعنى ان الملك الاشرف ورعيته كالغنم والمرآة بمعنى انهم كالنساء والخليعة بمعنى ان السلطان نائب استاذ التركمان ولذلك أمر السلطان بتجريد العساكر والخروج على التركمان وخرج السلطان في عساكره الى الشام وحلب وقصد أمد واقام عليها الحصار ونصب عليها عدة مجانيق فلم يقدر عليها واستوحش السلطان من مماليكه وخشي وقوع فتنة فراسل قرا ملك بالصلح وحلف قرا ملك انه لا يعتدي على املاك السلطان فعاد السلطان الى مصر وعاد قرا ملك الى العصيان

والاعتداء وقيل ان السلطان صرف على هذه التجريدة خمس مئة الف دينار ولم يظفر بطائل . هذا ما رواه ابن اياس في تاريخ مصر ولكن روى الاسحاقي في كتابه اخبار الاول في من تصرف بمصر من الدول ان الاشرف لما توجه الى أمد ظفره الله بعدوه وقتل ملكها واستأصل امواله واحضر خودته وعلقها بسلسلة في دهليز مدرسته التي انشأها بمصر براس الوراقين والخودة باقية الى الآن فتأمل والله اعلم

وفي سنة ٨٤١ هـ (سنة ١٤٣٧ م) مرض الملك الاشرف برسباي وحصل له ما ليخوليا فأمر بنفي الكلاب من القاهرة الى بر الجيزة فاتموا امره ورسم ان لاتخرج امرأة من بيتها فكانت المرأة اذا ارادت الخروج من بيتها لحاجة اخذت ورقة من المحتسب وجعلتها برأسها لتباح ان تمشي بالسوق الى غير ذلك من الاوامر التي لا طائل لها الى ان توفي في يوم السبت في ثاني عشر ذي الحجة من السنة المذكورة بعد ان ملك ١٧ سنة وثمانية اشهر وستة ايام وعمره نحو ستين سنة انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس

عـد ٩٢٩

في الملك العزيز يوسف ابن الملك الاشرف

هو التاسع من ملوك الجراكسة ويكنى ابا المحاسن ويلقب جمال الدين كان ابوه عهد اليه بالملك قبل وفاته فبويع بالسلطنة يوم وفاته في ١٢ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ (سنة ١٤٣٧ م) وكان له من العمر نحو اربعة عشرة سنة وكان الاتابكي جقمق العلائي يدبر الملك وبيده الحل والعقد وفي سنة ٧٤٢ هـ (سنة ١٤٣٨ م) دبت عقارب الفتنة بين الاتابكي جقمق وبين الامرآء الاشرفية واخذوا يعاكسون الاتابكي في ما يعمله من الامور وكان الملك العزيز بيد جقمق كاولب يحركه كيف شاء وليس له من السلطنة الأ الاسم وكتب العلامة على المراسيم وقصد

الامرآء مرات قتل الاتابكي والتف جماعة من الامرآء المويدية والناصرية عليه وتعصبوا له ووثبوا على الملك العزيز ومعهم كثيرون من المماليك السيفية وانتشب القتال بين هولاء وبين الامرآء الاشرفية فلم تكن ساعة حتى انكسر الامرآء الاشرفية وتشتتوا ومزقهم كل ممزق واتفق محازبو جقمق على تمليكه واستدعوا الخليفة المعتضد بالله داود وقضاه المذاهب الاربعة فخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا الاتابكي جقمق وسمي الملك الظاهر ولما تسلطن رسم بان العزيز يدخل الى دور الحرم ولم يسجنه بالاسكندرية كالعادة فكانت مدة ولاية الملك العزيز ثلثة اشهر وخمسة ايام كانها اضغاث احلام

ثم ان الملك العزيز يوسف الذي كان مسجوناً بدار الحرم قد تسحب من هناك ونزل بعد المغرب في هيئة صبي طباخ وعليه ثياب رثة وعلى رأسه دست طعام وقد لوث وجهه بسواد الدست وكان مماليك ابيه قد اوقعوه في هذه البلية وتخلوا عنه وتبرأوا منه فتم به ما قيل

لقساء اكثر من يلقاك اوزار | فلا تبالي اغابوا عنك او زاروا
اخلاقهم حين تبلوهنّ اوعار | وفعلهم مااثم للمرء او عارُ
لهم لديك اذا جاؤك اوطار | اذا قضوها تنحوا عنك اوطاروا

واستمر الملك العزيز مختفياً نحو شهر والوالي يكبس في كل ليلة البيوت وكان كل من له عدو يوشي عليه بان العزيز عنده فيكبسون بيته الى ان توجه العزيز الى بعض الامراء فنم عليه فقبض عليه وارسل الى السجن بالاسكندرية وكان قصد الملك الظاهر ان يزوج العزيز ويبقيه ساكناً بالقلعة فاورثته عجلته الندامة وقال في ذلك شاعر من اصحابه

ولم يدخلوه السجن الا مخافة | من العين ان تطراء على ذلك الحسن
وقلنا له شاركت في الاسم يوسفا | فشاركه ايضاً في الدخول الى السجن

واستمر العزيز في السجن مدة دولة الملك الظاهر كلها فلما كانت دولة الاشرف اينال افرج عنه وسكن بالاسكندرية وتوفي بها انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس

﴿ عـد ٩٣٠ ﴾

في الملك الظاهر جقمق العلائي الظاهري

هو العاشر من ملوك الجراكسة واصله جركسي جلبه احد التجار فاشتراه العلائي علي بن الاتابكي اينال اليوسفي فنسب اليه وقدمه الى الملك الظاهر برقوق فنسب اليه ايضاً وحبس في دولة الملك الناصر فرج ثم اطلق وترّاقى في مناصب الدولة الى ان صار اتابك العساكر في دولة الاشرف برسباي ثم مدبرًا للملك في دولة ابنه العزيز ثم خلعه كما مر وبعد تسلطنه وزع المناصب والاقطاعات كما شاء وجعل المقر السيفي قرقماس الشعباني اميرًا كبيرًا واستمر على ذلك اياماً ثم لعب الاكرة مع السلطان وقصد ان يقبض عليه وهو راكب فانجذب السلطان منه وخشي قرقماس ان يفتك السلطان به لافتضاح قصده فعاد قرقماس الى بيته ولبس آلة الحرب فالتفت اليه جماعة من الامراء والمماليك ولكن كان اكثر الامراء والعسكر مع الملك الظاهر جقمق واتفقوا معه فكسروه وشتتوا جماعته واختفى هو ثلاثة ايام ثم ارسل يطلب الامان من السلطان فارسل اليه بعض الامراء فقيدوه وارسلوه الى السجن بالاسكندرية وخمدت الفتنة وخلع السلطان على المقر السيفي اقبغا التمرازي وجعله اتابك العساكر مكان قرقماس ونائب السلطنة وهو اخر من تولى نيابة السلطنة بمصر اذ ابطلوا هذه المرتبة

وفي سنة ٨٤٣ هـ (سنة ١٤٣٩ م) خرج اينال الجكمي نائب الشام عن الطاعة واظهر العصيان وتابعه على ذلك تغرى برمش نائب حلب فارسل السلطان اليهما العساكر ونصب الاتابك اقبغا التمرازي المذكور نائباً بالشام عوضاً عن اينال

الجكمي وجعل المقر السيفي يشبك السودوني اتابك العسكر عوضاً عن التمرازي فسار التمرازي الى الشام وحارب النواب فكسرهم واسرهم وقطع روسهم وارسلها الى القاهرة فعلقت على باب زويلة ثم اثبت السلطان على قرقاس كفرًا وحكم به قاضي القضاة المالكي فقطع رأسه في السجن بالاسكندرية وكان قرقاس هو الذي قطع عنق الملك الظاهر برقوق في سجن الاسكندرية نفسه فجازاه الله بمثل ما جنى وصفا الزمان للملك الظاهر جقمق

وفي سنة ٨٤٩ هـ (سنة ١٤٤٥ م) توفي الامير عز الدين صدقة بن شرف الدين عيسي التنوخي من امرآء الغرب وكان عز الدين صدقة هماماً شجاعاً تولى الدرك في ساحل البحر من اطرابلس الى صفد ليحمي البلاد اذا قصده الفرنج وكان بينه وبين الامرآء اولاد الحمرة الذين اتوا من البقاع وتوطنوا ببيروت عداوة انشأها الحسد ذكره البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخ السنة المذكورة

وفي سنة ٨٥٧ هـ (سنة ١٤٥٣ م) توفي الملك الظاهر جقمق العلأي ولما شعر بثقل مرضه دعا الخليفة القائم بالله حمزة وقضاة المذاهب الاربعة وعهد بالملك الى ولده المقر الفخري عثمان وخلع نفسه من السلطنة وقد انشاء الملك الظاهر كثيرًا من المساجد والمعابد والقناطر والجسور وكان يكرم العلماء ويصلهم ويحب الفقراء ولا سيما الايتام منهم وكان اذا سمع ان احدًا يسكر نفاه وقطع جامكيته انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس وتاريخ محمد الاسحاقي وتحفة الناظرين للشيخ عبد الله الشرقاوي

عد ۹۳۱

في الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر والملك الاشرف اينال العلائي

اما الملك المنصور فهو ابن الملك الظاهر جقمق المار ذكره وهو الحادي عشر

من ملوك الجراكسة ويكنى ابا السعادات ويلقب فخر الدين تسلطن وعمره نحو تسع عشرة سنة وجلس على سرير الملك في حياة ابيه اذ خلع نفسه عن السلطنة كما مر سنة ٨٥٧ هـ (سنة ١٤٥٣ م) وكان اتابك العساكر اينال العلائي وبعد سلطنته قبض على الامير زين استادار الذي كان يبغضه في ايام ابيه وسلمه الى الامير جاني بك نائب جده فعاقبه وعصره في اركابه حتى كسرها واستخرج منه نحو اربعين الف دينار ولم يكن في الخزينة مال قيل ان الملك الظاهر اباه لم يخلف في الخزينة الا ثلاثين الف دينار فانقص الملك المنصور من نفقة العساكر وضرب دنانير ذهب ينقص كل دينار منها عن الاشرفي قيراطين واراد ان ينفق هذه الدنانير على العساكر فتالب المماليك الاشرفية والمؤيدية والتف اليهم جماعة من المماليك السيفية وقصدوا بيت الاتابكي اينال العلائي فاركبوه على كره منه ودعوا الخليفة حمزة وكتبوا محضرًا شهد فيه جماعة بما يوجب خلع الملك المنصور وبايعوا الاتابكي اينال العلائي بالسلطنة ووثبوا على الملك المنصور وحاصروه في القلعة واستمرت الحرب بينهم من يوم الاثنين الى يوم السبت وقطعوا الماء عنه ومنعوا الاقوات عن عسكره حتى يئس الملك المنصور وانهزم من كان معه فقبض اينال على الملك المنصور وقيده وسجنه في البحرة ثم ارسله الى السجن بالاسكندرية فكانت مدة سلطنته ثلاثة واربعين يوماً فصح به ما قيل

فلم يقم الأ بمقدار ان قلت له اهلاً اخيّ مرحبا

واستمر الملك المنصور في سجن الاسكندرية الى ايام دولة الملك الظاهر خشقدم فافرج عنه ورخص له ان يسكن في دار بالاسكندرية وبقي على ذلك الى ايام دولة الملك الاشرف قيتباي فنقله الى ثغر دمياط وقد استأذن السلطان بان يحج فاذنه به وعاد من الحج الى القاهرة فاكرمه السلطان وخلع عليه ثم رسم له بالعود الى ثغر دمياط فعاد واقام هناك الى ان توفي وله من العمر اربع وخمسون سنة

اما اينال العلائي فبعد مبايعته بالسلطنة سنة ٨٥٧ هـ (سنة ١٤٥٣ م) سمي الملك الاشرف وكني ابا النصر ولقب سيف الدين وهو الثاني عشر من ملوك الجراكسة واصله جركسي جلبه جلاء الدين علي واشتراه منه الملك الظاهر برقوق فيوصف بالعلائي الظاهري وتقلب في المناصب فكان في دولة الاشرف برسباي نائب غزة ولما توجه برسباي الى أمد جعله نائب الرها ثم استقدمه الى القاهرة وجعله نائب السلطنة بصفد واستمرّ بها الى دولة الملك الظاهر جقمق ولما توفي الاتابكي يشبك السودوني جعله الظاهر في الاتابكية عوضه سنة٨٤٩ هـ (سنة ١٤٤٥ م) ولما توفي جقمق وتولى ابنه الملك المنصور خلعه كما مر واستوى على سرير السلطنة واخذ في تدبير امره واصلاح شأنه واقامة عماله وجعل ولده احمد المقر الشهابي اتابك العسكر فاستوحش لذلك الامراء فعزل ولده واقام مكانه تاني بك البرديكي ونصب الامير خشقدم امير سلاح وارسل بعض الامراء الذين توجس منهم الى السجن بالاسكندرية مقيدين وقبض على جماعة من مماليك الملك الظاهر جقمق ونفى بعضهم الى الشام وبعضهم الى قوص في جنوبي مصر فاستقامت امور سلطنته وقرر في قضاء الشافعية بحلب القاضي تاج الدين عبد الوهاب وعزل عنه الزهري وتوفي في السنة المذكورة يبغوت بن صفر المعروف بالاعرج نائب صفد وكان قد ولي نيابة حماة ثم نيابة صفد ثم سجن ثم عاد الى صفد ومات بها وتوفي جنتوس الناصري نائب بيروت واقام السلطان في نيابة صفد اياس الطويل وكان اتابك العسكر بطرابلس وفي هذه السنة ارسل السلطان محمد بن عثمان يبشر السلطان الاشرف بفتح القسطنطينية فدقت البشائر في قلعة القاهرة ونودي بالزينة في المدينة

وفي سنة ٨٥٨ هـ (سنة ١٤٥٤ م) اقام السلطان الحافظ قطب الدين الخضيري في كتابة السر بدمشق وبعد مدة زيد على كتابة السر قضاء الشافية بدمشق ثم

قرر في اتابكية حلب اقبردي الظاهري عوضاً عن علي بك العجمي ثم جعله نائباً بحلب وفيها قدم جلبان نائب الشام الى السلطان وكان اشيع عنه العصيان وقدم للسلطان تقدمة فاخرة واضافه السلطان اياماً وخلع عليه وأمره بالعود الى الشام على عادته وفي سنة ٨٥٩ هـ (سنة ١٤٥٥ م) توفي جلبان هذا وكان قد جاوز الثمانين من عمره وتولى عدة ولايات منها النيابة في حماه وفي اطرابلس وفي حلب فعين السلطان في نيابة الشام قاني باي الحمزاوي نائب حلب قبلاً وخلع على جانم الاشرفي ليكون نائباً بحلب عوضاً عن قاني باي الحمزاوي وفي هذه السنة ايضاً قبض السلطان على يشبك النوروزي نائب اطرابلس وحمل الى قلعة المرقب فسجن بها وقرر مكانه في نيابة اطرابلس ايال البشبكي وقرر في نيابة صفد جاني بك التاجي عوضاً عن اياس الطويل وجعل في نيابة غزة خاير بك النوروزي احد الامرآء بصفد ونصب في اتابكية حلب سودون الناصري اتابك اطرابلس وقرر جمال الدين الباعوني في قضاء الشافعية بدمشق وعزل عنها سراج الدين الحمصي

وفي سنة ٨٦٢ هـ (سنة ١٤٥٨ م) توفي قاني باي الحمزاوي نائب الشام المذكور فقرر السلطان مكانه جانم الاشرفي وفي سنة ٨٦٥ هـ (سنة ١٤٦٠ م) توفي الملك الاشرف ايال بعد ان قضى مدة ملكه في ارغد عيش فكثر عليه الحزن والاسف كما قيل

هي الدنيا اذا كملت ... وتمّ سرورها خذلت
وتفعل بالذين بقوا ... كما في من مضى فعلت

بعد ان ملك ثمان سنين وشهرين وستة ايام وكان عمره عند وفاته احدى وثمانين سنة وله ابنان الاتابكي احمد الذى تسلطن بعد والمقر الناصر اخوه وله بنات ولما ثقل به المرض عهد بالملك الى ولده الاتابكي احمد المذكور فجلس على سرير السلطنة في حياة ابيه انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس

﴿ عد ٩٣٢ ﴾

﴿ في الملك المؤيد احمد ابن الملك الاشرف ﴾

هو الثالث عشر من ملوك الجراكسة وكني ابا الفتح ولقب شهاب الدين بويع بالسلطنة في حياة ابيه الملك الاشرف اينال سنة ٨٦٥ هـ (سنة ١٤٦٠ م) وكان عمره لما استوى على منصة الملك نحوًا من ثماني وثلاثين سنة واخذ في تدبير ملكه وخلع من اختارهم من الامراء وفي جملتهم المقر السيفي خشقدم الناصرى وكان امير سلاح فقرره في الاتابكية عوضاً عن نفسه واستحوذ الامن والعدل والرضاء في الرعية واحبه الناس حباً شديدًا ومالت النفوس اليه على نحو ما قيل

دولته للانام عيد باقٍ وايامه مواسم
قد اظهر العدل في الرعايا وابطل الجور والمظالم
وصير الشاة في حماه تمشيْ مع الذئب والضياغم
لو نطقت مصرنا لقالت يا ملك العصر والاقالم
ملات قلوب الملوك رعباً اغنى عن السمر والصوارم

ثم قدم الاشرفي الذى كان دوادارًا ثانياً ونفي في دولته الاشرف اينال فلما مات اينال قدم الى القاهرة من غير اذن السلطان ونزل عند الاتابكي خشقدم فشق ذلك على السلطان وامر باخراجه وسجنه فشفع به بعض الامراء فانعم عليه السلطان ان يكون مقدم الف بدمشق وخلع عليه فشق ذلك على جماعة الاشرفية وكثر القيل والقال بين الناس ولهجوا بوقوع فتنة عن قرب وشاع بين الناس ان السلطان عازم على امساك جماعة من الاشرفية ثم امر السلطان نقيب الجيش ان يبلغ الامراء ان يصعدوا الى القلعة فتوجسوا ولم يحضر احد منهم ووثب المماليك الاشرفية والظاهرية واستمالوا اليهم اكثر المماليك الاينالية وافسدوا عقولهم حتى اخذوا سلاحهم وتوجهوا الى الرملية فانشب القتال بينهم وبين العسكر ومماليك السلطان

واستمر القتال ثلاثة ايام والسلطان يجلس في محل مطل على الرملية حيث الحرب وفي اليوم الثالث وثب على الملك مماليك ابيه فتحقق انه مكسور فكان له ما قيل

كنت من كربتي افر اليهم فهمُوا كربتي فاين المفر

فانهزم الملك المؤيد الى القلعة ولما علم ذلك العسكر توجهوا الى بيت الاتابكي خشقدم فاركبوه على كره منه وساروا الى المحل المعروف بباب السلسلة ودعوا الخليفة والقضاة الاربعة فخلعوا الملك المؤيد احمد من السلطنة وبايعوا بها الاتابكي خشقدم فكانت مدة ملك الملك المؤيد اربعة اشهر وثلثة ايام

وكان المماليك قد كاتبوا جانم نائب الشام ان يحضر الى مصر ليلي السلطنة وارسلوا اليه صورة حلفهم بخطوط ايديهم على انهم ارتضوا بان يكون هو سلطاناً عليهم فابطاء جانم وما صبروا هم فولوا خشقدم السلطنة الى ان يحضر جانم ولكن اصبح الوكيل اصيلاً وتمكن خشقدم في السلطنة وارسل فقيد الملك المؤيد احمد واخاه وارسلهما الي السجن بالاسكندرية وكان الملك المؤيد اهلاً للسلطنة وبصير في مصالح الرعية ولو طالت سلطنته لكان للناس به غاية النفع ولكن خانه الزمان وغدر به مماليك ابيه كما قيل

اذا جفاك الدهر وهو ابو الورى طرًّا فلا تعتب على اولاده

انتهى ملخصاً عن ابن اياس في تاريخ مصر

﴿ عـد ٩٣٣ ﴾

﴿ في الملك الظاهر خشقدم ﴾

لم يحسبه ابن اياس في جملة ملوك الجراكسة بل قال هو اول ملوك الروم بمصر ان لم يكن ايبك التركماني من الروم ولا لاجين من الروم (والاثنان ملكا قبلاً بمصر كما مر) واصل خشقدم مملوك رومي جلبه التاجر ناصر الدين فيعرف بالناصري واشتراه منه الملك المؤيد شيخ المار ذكره واعتقه وصار جمدارًا وبقى

خاصكياً في دولة الملك المظفر احمد ابن الملك المؤيد شيخ الى ان صار مقدم الف بدمشق وبقي هناك ولما تغير خاطر السلطان على الامير قاني بك حاجب الحجاب المار ذكره ونفاه استحضر خشقدم من دمشق وانعم عليه باقطاع الامير قاني بك سنة ٨٥٤ هـ (سنة ١٤٥٠ م) ثم بقي خشقدم امير سلاح في دولة الملك الاشرف اينال ولما توفي هذا الملك وخلفه ابنه الملك المؤيد احمد اجفل خشقدم اتابك العسكر كما رأيت ثم خلع المماليك المؤيد وعهدوا بالسلطنة الى خشقدم الى ان يحضر جانم نائب الشام فتمكن خشقدم بالسلطنة وقد بويع بها في ١٧ رمضان سنة ٨٦٥ هـ (سنة ١٤٦٠ م) ويسمى الملك الظاهر وكني ابا سعيد ولقب سيف الدين

ووزع الملك الظاهر المناصب والاقطاعات على من شاء من الامراء وجعل المقر السيفي جرباش المحمدي المعروف بكرت اتابك العسكر وجات الاخبار بان جانم نائب الشام قد وصل الى خانقاه سرياقوس بحسب دعوة الامراء الاشرفية له ليسلطنوه عوضاً عن الملك المؤيد احمد كما مر وعرف جانم ان الوعد اختل والوظائف قسمت وفاته الشنب وعز الطلب فكان كما قيل

وثب الثعلب يوماً وثبةً شغفاً منه بعنقود العنب
لم ينله قال هذا حامض حصرم ليس انا فيه أرب

ولما بلغ خشقدم حضور جانم اضطرب وجميع الامراء فاتفقوا ان جانم يرجع الى الشام ليبقى نائباً بها ولا يدخل مصر ووجهوا اليه خلعة نيابة الشام وارسل السلطان اليه مع الخلعة عشرة الاف دينار فرجع جانم الى الشام بخفي حنين واسر السلطان الى نائب قلعة دمشق ان يقبض على جانم فهرب جانم بعياله واولاده الى الرها فنهب العسكر داره واظهر هو العصيان بالرها فجهز له السلطان عسكراً وامَّر عليه جاني بك نائب جده ونصب في نيابة دمشق المقر السيفي تنم المؤيدي عوضاً عن جانم

وفي سنة ٨٦٧ هـ (سنة ١٤٦٢ م) جاءت الاخبار من حلب ان جانم قتل وقيل قتله مماليكه وهو في قلعة الرها ولما تحقق الخبر دقت البشائر بالقاهرة وانكف العسكر المعين لكتبه عن المسير وفيها قبض السلطان على الامير تمراز الاشرفي وسجنه بقاعة المرقب وشكي بانه قتل رجلاً فاثبت السلطان ذلك عليه وارسل اليه رجلاً من المالكية يسمى الشارعي فضرب عنقه على باب السجن بالمرقب وكان تمراز هذا سيء الخلق مرّ اللسان وكان منفياً بالشام من اول دولة الاشرف اينال

وفي سنة ٨٧٢ هـ (سنة ١٤٦٧ م) جاءت الاخبار من حلب بان خارجياً اسمه شاه سوار مقبل الى الشام فارسل السلطان الى الامير برد بك نائب حلب بان يخرج اليه فخرج ومعه نواب صفد ودمشق واطرابلس وحماة وحمص في رجالهم فانتصر شاه سوار عليهم وغنم بخيلهم وسلاحهم فاضطرب السلطان وامر بتجريدة يرأسها خمسة امرآء من مقدمي الالوف فانتصر عليهم ايضاً وقتل واسر كثيرين من الامراء وغيرهم واخذ بعض اعمال حلب وما برح السلطان يجهز العساكر ويرسلها اليه الى سنة ٨٧٧ هـ (سنة ١٤٧٢ م) حين تمكنت العساكر من حصره في قلعة زمنوطو وتركه اكثر عسكره فاستسلم هو واخوته وبعض ذويه فاحضروهم الى القاهرة وأمر السلطان بشنقهم فشنقوا . وفي السنة المذكورة مرض السلطان الظاهر خشقدم واشتد مرضه نحو اربعين يوماً وادركته المنية في ١٠ ربيع الاول من سنة ٨٧٢ هـ (سنة ١٤٦٧ م ودفن في تربة اعدها لنفسه في الصحرآء وله من العمر خمس وسبعون سنة وكانت مدة ولايته بالديار المصرية والشامية ست سنين وخمسة اشهر وعشرين يوماً . انتهى مقتطفاً عن تاريخ مصر لابن اياس

﴿ عـد ٩٣٤ ﴾

﴿ في الملك الظاهر بلباي المويدي ﴾

هو الرابع عشر من ملوك الجراكسة عند من اسقطوا خشقـدم من عديدهم لانه رومي والخامس عشر عند من لم يسقطه واصل بلبـاي جركسي جلبه الامير اينـال من بلاد الجراكسة فاشتراه الملك المؤيد شيخ فينسب اليه ثم اعتقه وصار جداراً ثم ساقياً في دولة الملك الظاهر جقمق وتقدم بالمراتب حتى صار مقدم الف في دولة الملك الاشرف اينال ثم حاجب الحجـاب في دولة الملك الظاهر خشقدم ثم اتابك العساكر سنة ٨٧٠ هـ (سنة ١٤٦٥ م) ولمـا توفي الملك الظاهر خشقدم وقع الاتفـاق على سلطنته وحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف وقضـاة المذاهب الاربعة فبايعوه بالسلطنة وسمي الملك الظـاهر وكني بابي النصر ولقب بسيف الدين وجعل المقر السيفي تمربغا اتابك العساكر عوضاً عن نفسه ووزع باقي المنـاصب على من اراد وقبض على بعض الامرآء وارسلهم الى السجن بالاسكندرية فنفرت منه قلوب الرعية وقطع نفقة بعض الخـدام وكان السلطـان خشقدم قد ارسل بعض الامرآء الى العقبة لمنع فساد العربان فعادوا ومعهم نحو ستين شخصاً من العرب فأمر بقتلهم ونصب الامير ازبك نائب السلطنة بالشام وامره بالتوجه اليها بعد ثلاثة ايام فتوجه

وكانت فتنة بين المماليك افضت الى اجتماع الامرآء يوم السبت سابع جمادي الاؤلى من سنة ٨٧٢ هـ (سنة ١٤٦٧ م) واحضروا الخليفـة والقضـاة الاربعة وخلعوا الملك الظاهر بلباي من السلطنة واتفقوا على ان يبايعوا بها الاتابك تمربغا ثم قيدوا بلباي وقبضوا على بعض الامرآء المؤيدية وارسلوا الملك الظاهر بلباي الى السجن بالاسكندرية والامرآء المذكورين الى السجن بدمياط فكانت مدة سلطنة الملك الظاهر بلباي شهرين الا اربعة ايام فصح به ما قيل

ركب الاهوال في زورته ثم ما سلم حتى ودعا

وكان بلباي فظ الاطباع سيئ التدبير سمج الشكل فحق ان يقال فيه

وفظ غليظ الطبع لا ود عنده وليس لديه للاخلاء تأنيس
تواضعه تكبير وتقريبه جفا وترحيبه مقت وبشراه تعبيس

﴿ عـد ٩٣٥ ﴾

في الملك الظاهر تمربغا الظاهري

عده ابن اياس في تاريخ مصر الشافي من ملوك الروم بمصر ووضعه غيره بالسادس عشر من ملوك الجراكسة قال ابن اياس انه كان رومي الاصل اشتراه الملك الظاهر جقمق ورباه صغيرًا ولما تسلطن جقمق جعله خاصكيًا ثم سلاحدارًا ثم خازندارًا ثم دوادارًا ثانيًا ثم صار مقدم الف في دولة الملك المنصور بن جقمق ثم نفي الى اسكندرية وسجن بها نحو ست سنين ثم نقله الملك الاشرف اينال الى مكة فاقام بها نحو ثلث سنين ولما تسلطن خشقدم استأتاه من مكة وخلع عليه وجعله راس نوبة النواب فاقام على ذلك مدة ثم نفاه الى الاسكندرية فاقام بها مسجونًا ثلثة ايام فشفع به الاتابكي قائم التاجر الى ان صار اتابك العساكر في دولة الملك الظاهر بلباي ولما خلع هذا من السلطنة اتفق الامرآء على سلطنة تمربغا الاتابكى واحضروا الخليفة والقضاة الاربعة وبايعوه بالسلطنة يوم السبت سابع جمادي الاولى سنة ٨٧٢ هـ (سنة ١٤٦٧ م وسمى الملك الظاهر وكني ابا سعيد وكان كفوًا للسلطنة وله المام ببعض العلوم والفنون. ولما استوى على عرش السلطنة جعل المقر السيفي قانباي المحمودي اتابك العساكر عوضًا عن نفسه ووزع المناصب والاقطاعات على من شاء من الامرآء ووقعت الوحشة بينه وبين المماليك الخشقدمية ولما كانت ليلة الاثنين سادس رجب تلك السنة عمل السلطان الموكب في القصر الكبير ودخل جماعة من المماليك الخشقدمية وسيوفهم مسلولة فقبضوا على السلطان وعلى جماعة

من امرائه وسجنوهم وكان برأس هولاء المماليك الامير خير بك وقد اتفق مع المماليك الاينـالية بأنه يمسك السلطان في القصر وهم يقبضون على باقي الامراء الخارجين عن القصر ويكون هو السلطان فلما قبض على السلطان ظن انه تسلطن واخذ يوزع المناصب في تلك الليلة ولسان الحال يناديه « كلام الليل يمحوه النهار » وكان الاتابكي قايتباي غائباً ولما بلغه الخبر اسرع الى المدينة وشجع جماعة الظاهرية واستمال الاينالية على الامير خيربك وقال انه يرضيهم فاتفقوا تلك الليلة نفسها على خلع السلطان تمربغا وتولية الاتابكي قايتباي وعند الفجر اركبوه وساروا به نحو القلعة فلما رأى خير بك ذلك اضطرب وضاق به الأمر فاخرج السلطان تمربغا من السجن واجلسه على منصته وقبل الارض قدامه مستغفراً وتسطح امامه وقال اقتلني فانا كنت باغياً عليك فاجابه السلطان لا انت ولا انا بقى لنا بقاء ودافع الخشقدمية وخير بك قيتبـاي وجماعته فانكسروا وتشتتوا وقبض قيتباي على خير بك وبعض عصبته فقيدهم وسجنهم في محل بالقلعة وادخل السلطان تمربغا الى البحرة دون قيد ثم ارسله مكرماً الى ثغر دمياط ودعوا الخليفة والقضاة الاربعة وبايعوا قيتبـاي بالسلطنة وكانت مدة سلطنة تمربغا ثمانية وخمسين يوماً فصح به ما قاله الشاعر

لم أستتمّ عنـاقه لقدومه   حتى ابتدات عناقه لوداعه

وصح بالامير خير بك ما قاله الشاعر الاخر

يريد المرء ان يعطى منـاه   ويابى الله الا ما ارادوا

واستمر تمربغا في دمياط على ارغد عيش الى ان وسوس ابليس له ان ينسحب منها كما سياتي

﴿ عـد ٩٣٦ ﴾

في الملك الاشرف قيتباي المحمودي الظاهري

هو الخامس عشر من ملوك الجراكسة على رواية ابن اياس لاسقاطه خشقدم وتمربغا من عدادهم وهو السابع عشر على رواية من لم يسقطوهما واصل قيتباي جركسي جلبه الى مصر تاجر اسمه محمود فنسب اليه واتصل الى الملك الظاهر جقمق فنسب اليه ايضاً وهو الذي اعتقه وصيره جمداراً ثم خاصيكياً ثم دواداراً كبيراً ولما توفي الظاهر جقمق وتسلطن الظاهر بلباي جعله رأس نوبة النواب ولما تولى الملك الظاهر تمربغا جعله اتابك العساكر الى ان اتفق العسكر على سلطنته وبايعه بها الخليفة والقضاة الاربعة سنة ٨٧٢ هـ (سنة ١٤٦٧ م) وسمي الملك الاشرف وكني ابا النصر ولقب سيف الدين

ولما استوى الملك الاشرف على منصة الملك خلع على المقر السيفي جاني بك قلقسير وجعله اتابك العسكر وكان عمر الملك الاشرف حينئذ نحواً من خمس وخمسين سنة وقبض على اعيان الخشقدمية ونفاهم الى عدة اماكن وقرر في اتابكية دمشق شادي بك الجلباني وخلع على يشبك السيفي علي بك وقرره في نيابة قلعة دمشق وجعل في نيابة قلعة حلب تمر بك وقرر مرداش العثماني في نيابة القدس عوضاً عن محمد بن حسن بن ايوب وجعل بيبروس الاشرفي في اتابكية صفد وفي السنة المذكورة انتصر شاه سوار المار ذكره على العساكر السلطانية وقتل كثيرون من الامراء واسر كثيرون ومن سلموا دخلوا حلب مشاة عراة ودخلها ازبك نائب الشام وهو مجروح في وجهه ودخل نائب اطرابلس ونائب حلب في اسوأ حال واسر سوار اتابك العساكر جاني بك قلقسير فعقد السلطان ديوان مشورة وارتأوا ان يؤخذ من مال الجوامع والمساجد ما يجهز به عساكر لكبت شاه سوار فانكر ذلك شيخ الاسلام امين الدين الاقطراني الحنفي واثبت ان ليس للسلطان

ان يأخذ اموال الناس الا بوجه شرعي الا اذا كان ضرورياً في المنع عن المسلمين ولايفي بالحاجة ما في ايدي الامرآء والجند وحلي النساء فانفض المجلس من غير طائل وعين الاشرف تجريدة اخرى على سوار وبلغت الاخبار بانه وصل الى قرب حلب

وفي هذه السنة فرّ الظاهر تمربغا من دمياط وبلغت الاخبار الملك الاشرف فاضطرب وامر بالتحوط منه وباتباعه فقبض عليه ارغون شاه نائب غزة وتوجه الامير يشبك فحمله في محفة الى الاسكندرية دون قيد فرفق به السلطان ولم يسجنه وكتب هو الى السلطان يعتذر بانه قصد التوجه الى شاه سوار ليصلح بينه وبين السلطان وتخمد الفتنة ولم يكن الامر كذلك فصح ما قيل :

اذا كان وجه العذر ليس بواضحٍ فان اطراح العذر خير من العذرِ

وفي سنة ٨٧٣ هـ (سنة ١٤٦٨ م) نصب السلطان قانصوه اليحياوي نائباً باطرابلس عوضاً عن اينال الاشقر الذي نصبه نائباً بحلب عوضاً عن بردبك البجمقدار الذي نقله الى نيابة الشام عوضاً عن ازبك بن ططنح الذي نقله الى اتابكية العساكر عوضاً عن جاني بك قلقسيز الذي اسره سوار

وفي سنة ٨٧٤ هـ (سنة ١٤٦٩ م) خلع السلطان على قانصوه اليحياوي ليكون نائباً بحلب عوضاً عن اينال الاشقر الذي جعله مقدم الف بالقاهرة ونصب يشبك البجاسي نائباً باطرابلس وكان قبلاً نائباً بحماة وجعل مكانه بحماه بلاط اليشبكي احد مقدمي الالوف بدمشق واقام مكانه بدمشق تمراز اتابك عسكر حلب وقرر في اتابكية حلب تغرى بردى بن يونس

وفي سنة ٨٧٥ هـ (سنة ١٤٧٠ م) كان خلاف بين العلماء بالقاهرة في امر الشيخ عمر بن الفارض فتعصب عليه جماعة من العلماء وقالوا بفسقه وكفره ونسبوه الى من يقول بالحلال والاتحاد بسبب ابيات قالها في قصيدته التائية وكان اخص

المتحاملين عليه برهان الدين البقاعي ومحب الدين بن الشحنة وفي رأس المتصرين له الجلال بن الكمال الاسيوطي والشيخ ذكريا الانصاري والف الجلال السيوطي كتاباً سماه قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض وصنف غيره كتاباً سماهُ درياق الافاعي في الرد على البقاعي وكثرت المشاحنات في هذا الشان وما احسن ما قاله الشهاب المنصوري في البقاعي

ان البقاعيَّ بما   قد قاله مطالب
لا تحسبوه سليماً   فقلبه يعاقب

وهجا بعضهم ابن الشحنة لذلك فقال

اصبحت يا ابن الشحنة الحنفي في   كل القبائح أوحد الأزمانِ
في مصر علم ابي حنيفة تدعي   جهلاً وانت معرَّة النعمانِ

ومما اوردوه لتبرية ساحة ابن الفارض مذهب الحلول قوله في قصيدته التائية نفسها

ولي من اتم الرؤيتين اشارة   تنزه عن راي الحلول عقيدتي

وفي هذه السنة ايضاً توفي برد بك الجمقدار نائب الشام فنصب السلطان مكانه الامير برقوق الناصري وفيها وردت الاخبار بان حسن الطويل ملك العراقين قصد ان يستحوذ على بلاد حلب وانه اظهر العداوة للسلطان وقد طمع بعسكر مصر بسبب كسرة شاه سوار لهم فثار السلطان وقصد ان يخرج الى حلب وكان سوار ما زال يحارب السلطان ولم تنته الحرب الا سنة ٨٧٧ هـ (سنة ١٤٧٢ م) فاضطر السلطان ان يغضي على ما بلغه عن حسن الطويل ملك العراقين الا ان قبضت العساكر على سوار وشنق بالقاهرة كما مرَّ . وبعد ذلك بلغت الاخبار بان حسن الطويل جمع العساكر وهو زاحف الى بلاد السلطان فجهز السلطان عسكرًا لكبته وامَّر عليه ثلاثة من الامراء فساروا الى حلب سنة ٨٧٧ هـ المذكورة ثم

اردفهم السلطان بتجريدة اخرى لما بلغه ان حسن الطويل اخذ بعض اعمال من بلاده ولما وصلوا الى حلب ارسل اليهم حسن الطويل وفدًا يطلب من اسروا وسجنوا بحلب من جماعته ويعد باطلاق من عنده من الاسرى فلم يجبه الامير يشبك الدوادار امير عسكر السلطان الى ذلك وارسل جماعة من عسكره لقتال عسكر حسن الطويل في البيرة فرحلهم عنها وجرح ابن الطويل جراحات بالغةوقال شمس الدين القادري في الانتصار على حسن الطويل

ايا حسن الطويل بعثت جيشاً كاغنام وهنَّ لنا غنائم
فنار الحرب قد قتلت سوارًا وانت لسبكها لا شك خاتم

وقال المنصوري

هل عارف بالخارجي المعتدي يخبر الينا باسمه وصفاته
قالوا نعم حسن فقلت هلاكه قالوا الطويل فقلت ليل شتاته

وقد كاتب حسن الطويل بعض الافرنج ليعينوه على قتال سلطان مصر وان يحملوا على السلطان ابن عثمان وعلى سلطان مصر في البحر وهو يحمل عليهما في البر وارسل هذه المكاتبة مع وافد فوقع هذا الوفد بيد سفير من قبل السلطان ابن عثمان فقبض عليه واسره وأخذ الكتابة منه وقدمها للملك الاشرف

وفي سنة ٨٧٩ هـ (سنة ١٤٧٤ م) ارسل حسن الطويل سفيرًا الى الملك الاشرف وبيده رسالة يعتذر بها عما كان منه ويطلب العفو فاكرم السلطان سفيره واظهر العفو عما جرى منه وكان قد شاع ان حسن الطويل قتل فظهر كذب هذه الاشاعة وفي سنة ٨٨٠ هـ (سنة ١٤٧٥ م) جعل الملك الاشرف برد بك السيفي جدباش نائبًا على صفد عوضاً عن ازدمر بن مزيد الذي نقله الى نيابة اطرابلس ووجه الى دمشق برهان الدين النابلسي وكيلاً لبيت المال فصدرت منه قبائح حتى رجمه اهل دمشق ورموا عليه بالسهام واحرقوا داره فتلطف نائب القلعة بالعامة

وخمد جذوة غضبهم على النابلسي وفي سنة ٨٨٢ هـ (سنة ١٤٧٧ م) قبض الامير يشبك بامر السلطان على برهان الدين هذا وعاقبه واستخلص منه بعض الاموال ومات تحت العقاب وفي هذه السنة سافر السلطان الملك الاشرف قيتباي الى البلاد الشامية بغتة بنفر يسير فعرج الى طرابلس وبلغ الى حلب ثم الى الفرات فاقام هناك اياماً ثم عاد الى حلب ثم حل عنها الى حماه فتوعك مزاجه واشتد المرض فحملوه بمحفة الى دمشق وكثر القال والقيل بان السلطان توفي فاضطربت احوال الامراء في القاهرة وابدى كل منهم ما بنفسه من رغبته في السلطنة الى ان تعافى السلطان ووردت البشائر انه نصل من مرضه وعاد من دمشق وكان دخوله الى القاهرة يوماً مشهوداً

وفي سنة ٨٨٤ هـ (سنة ١٤٧٩ م) نقل السلطان قانصوه اليحياوى من نيابة حلب الى نيابة الشام عوضاً عن جاني بك قلقسير الذي توفي ونقل ازدمر احد ذوي قرابته من نيابة اطرابلس الى نيابة حلب وقرر في نيابة اطرابلس برد بك المعمار نائب صفد ونصب في نيابة صفد جاني بك احد مماليك السلطان وفي سنة ٨٨٥ هـ (سنة ١٤٨٠ م) ارسل السلطان الامير يشبك الدوادار ومعه هولاء النواب الى حلب لكبت سيف امير العرب آل فضل الذي كان ابدى العصاوة ففر سيف وتوجه الى الرها فلحقه الامير يشبك والنواب الى الرها وحاصروها قاصدين اخذها فخرج عليهم با بندر حاكمها من قبل يعقوب بن حسن الطويل فانتصر عليهم وشتت شملهم واسر الامير يشبك ثم قتله واسر نائب الشام ونائب حلب وقتل كثيرين منهم برد بك نائب اطرابلس فصح بيشبك ما قال الشاعر

وكم من طالب يسعى لشيءٍ وفيه هلاكه لو كان يدري

وعين السلطان الاتابكي اذبك نائباً بحلب عوضاً عن ازدمر الذى كان قد اسر وفوض اليه امر البلاد الشامية والحلبية ونصب تمرازا التمشي احد انسبائه نائباً

بالشام فامتنع من ذلك فاستبد له بقجماس الاسحاقي عوضاً عن قانصوه اليحياوى الذى أسر ولما وصل الى حلب اذبك واليها ارسل وافدًا الى يعقوب بن حسن الطويل فاكرمه يعقوب واطلق من كان عنده من الاسرى سنة ٨٨٦ هـ (سنة ١٤٨١ م)

وفي سنة ٨٨٨ هـ (سنة ١٤٨٣ م) خلع السلطان على مملوكه اينال الخسيف وجمله نائباً بصفد وكان اتابك العساكر بحلب ثم ولاه فيما بعد نيابة حماه وخلع على قريبه بيبرس الرحبي وجعله نائباً باطرابلس عوضاً عن اينال السلحدار الذى كان قد اسره علي دولات وعلي هذا هو اخو شاه سوار المتقدم ذكره قد اظهر العصيان والعداوة للسلطان فخرج عليه وارديش نائب حلب وجرى قتال شديد بين العسكرين فانكسر العسكر الحلبي وقتل النائب المذكور وكان السلطان بايزيد خان ابن السلطان محمد خان يمدّ علي دولات . فابتدأ مذ حينئذٍ التنافر بين سلطان القسطنطينية وسلطان مصر وبعد ان انكسر عسكر حلب استأنف العسكر المصرى الكر على عسكر علي دولات وعسكر السلطان ابن عثمان الذى كان ينجده فظفر العسكر المصرى

وفي ٨٩١ هـ (سنة ١٤٨٥ م) توفي يشبك العلائي نائب حماه فنصب السلطان مكانه سيباى الطيورى وكانت في هذه السنة وما بعدها حروب بين عسكر السلطان بايزيد العثماني والسلطان الاشرف قيتباي في جهات حلب وكان النصر فيها تارة لسلطان القسطنطينية وتارة لسلطان مصر والشام وفي سنة ٨٩٢ هـ (سنة ١٤٨٦ م) توفي قجماس الاسحاقي نائب الشام فدعا السلطان قانصوه اليحياوي الذي كان قبلاً نائباً بالشام ورده الى هذه النيابة ثانية وفي السنة التالية نصب موفق الدين الحموي في نظارة الجيش بدمشق وجعل ولده عبد الرحيم في كتابة السر وايدكي الاشرفي في نيابة القلعة بدمشق واعاد ازدمر قريبه الى نيابة حلب وتوفي

دوادار السلطان بهذه المدينة فنصب مكانه اركماس بن ولي الدين وجاءت الاخبار بان عسكر السلطان ابن عثمان وصل الى ادنه فجند الملك الاشرف عسكرًا لصده فكانت بين العسكرين وقعة قتل فيها خلق كثير من الفريقين وعاد عسكر ابن عثمان الى ادنه فتبعه العسكر المصري اليها وحاصرها واخذها اخيرًا بالامان وفي سنة ٨٩٤ ﻫ (سنة ١٤٨٨ م) جاءت الاخبار من حلب بان عسكر ابن عثمان لما بلغه رجوع العسكر المصري طمعوا باخذ البلاد الحلبية فاهتم الملك الاشرف بارسال تجريدة اخرى امر عليها قانصوه الشامي احد مقدمي الالوف فاستولوا في السنة التالية على بعض الاماكن من ملك ابن عثمان ولكن حصل في العسكر المصري قلق من قبل النفقة فعادوا الى مصر سنة ٨٩٦ ﻫ (سنة ١٤٩٠ م) وتعذر على السلطان جمع ما فرض من الضرائب وقلق الناس لذلك فارسل الملك الاشرف سفيرًا الى السلطان العثماني فعاد ومعه سفير من قبل بايزيد فوقع الصلح بينهما واطلق الاسرى من الفريقين وفي السنة المذكورة وقعت فتنة بحلب بين نائبها ازدمر وبين جماعة من اهلها فقتل سبعة عشر مملوكاً من مماليك النائب وقتل من اهل حلب نحو خمسين رجلاً فقام باخماد هذه الفتنة قانصوه الغوري الذي صار بعدًا سلطاناً وكان وقتئذٍ حاجب الحجاب بحلب

وفي سنة ٨٩٧ ﻫ (سنة ١٤٩١ م) كان بمصر طاعون شديد الوطأة ماتت به الالوف المائة وكان يموت بهذا الوباء كل يوم اكثر من الف شخص وعم الوباء الشام ولم يكن عدد الموتى بدمشق اقل من الموتى بالقاهرة واتصل الى القرى ايضاً وفي سنة ٨٩٨ ﻫ سنة ١٤٩٢ م) وقعت بدمشق فتنة حتى رجم اهلها النائب. قانصوه اليحياوي وفي سنة ٨٩٩ ﻫ (سنة ١٤٩٣ م توفي ازدمر المسرطن نائب صفد الظاهري، ثم توفي ازدمر نائب حلب من اقرباء السلطان وتولى عدة مناصب منها نيابة اطرابلس ونيابة صفد ونيابة حلب وكان اصله من مماليك الظاهر جقمق وبعد

موته نصب مكانه اينال السلحدار نائب اطرابلس وتوفي يشبك بن حيدر نائب حماه واصله من مماليك الاشرف اينال فخلع السلطـان على اقباي الطويل وجعله نائباً بحماه وفي سنة ٩٠٠ هـ (سنة ١٤٩٤ م) عين السلطـان كرتباي اخا الامير اقبردي الدوادار نائباً بصفد

وفي سنة ٩٠١ هـ وهي بدء القرن العاشر للهجرة (سنة ١٤٩٥ م) حم السلطان الاشرف قيتبـاي وزاد مرضه فاجتمع يوم السبت ١٦ من ذي القعدة الخليفة والقضاة الاربعة وخلعوه من السلطنة وهو في النزع وبايعوا ابنه محمد بالسلطة ولما كان يوم الاحد ١٧ من الشهر المذكور توفي الملك الاشرف الى رحمة الله وعمره نحو من ست وثمانين سنة وكانت مدة سلطنته بمصر والشام تسعاً وعشرين سنة واربعة اشهر واياماً ولم تتفق هذه المدة لغيره من السلاطين قبله وقد خلف كثيراً من الاثار التي تحيي ذكره منها مدرسة بمكة المكرمة وعمارة المسجد الشريف فيها ومدرسة ببيت المقدس ومدرسة بدمشق واخرى بغزة واخرى بدمياط واخرى بالاسكندرية والجامع الذي بالصحراء والجامع الذي بالروضة الى غير ذلك من معاهد الدين والعلم انتهى مقتطفاً من تاريخ مصر لابن اياس

عـد ٩٣٧

في الملك الناصر محمد ابن الملك الاشرف قيتباى

هو الثامن عشر من ملوك الجراكسة عند من لم يسقطوا خشقدم وتمربغا من عديدهم لانهما روميان بويع بالسلطنة في ١٦ من ذى الحجة بحياة ابيه ودون رضاه لانه كان في النزع وكان له من العمر عند مبـايعته اربع عشرة سنـة واشهر وكني ابا السعادات ولقب بالمنصور اولاً ثم بدله بالناصر وعين في المناصب من شاء من الامراء وامر بعود بعض من كانوا منفيين في ايام ابيه ودعا قانصوه الشامي الذى كان قد قرره بنيابة حماه ونصب مكانه اركماس احد المقدمين بدمشق وكان

كرتباى نائب صفد قد قتل احمد بن يهادر نائب قلعتها فامر السلطان الماس بن ولي الدين احد الخاصكية بالقبض على كرتباى فضرب كرتباى عنق الماس وانهزم من صفد فنصب الملك الناصر مكانه برد بك الطويل ولما كان السلطان قد جعل قانصوه خمسمائة اتابكي العسكر وكبير الامراء عظم امر قانصوه هذا وصار له الحل والعقد حتى خلع الملك الناصر كما سترى وفي سنة ٩٠٢ ﻫ (سنة ١٤٩٦ م) جاءت الاخبار بقتل عساف الحبشي نائب صيدا وبيروت وكان من مشاهير النواب وكانت له شهرة طائرة وفيها قتل قانصوه بعض الامراء غيلة وركب في احزابه من الامراء والعسكر الى باب السلسلة ودعا الخليفة والقضاة الاربعة فخلعوا الملك الناصر بصورة شرعية وبايعوا قانصوه خمسمائة بالسلطنة ولم يبق سوى ان يفاض عليه شعار الملك ويركب فرس النوبة ويصعد الى القلعة لكن صح به حينئذ ما قيل

ستقضي لنا الايام غير الذى قضت ويحدث من بعد الامور امور

فان قانصوه خمسمائة ارسل بعض الامراء للقبض على الملك الناصر وادخاله الى قاعة البحرة فتعصب له جماعة من مماليك ابنه وكانوا نحو الف مملوك فمنعوا الامراء من دخول القلعة وانتشب القتال بين الفريقين واستمد قانصوه خمسمائة الناس فلم يمدوه بل حاصره مماليك الناصر في باب السلسلة ومعه الخليفة والقضاة الاربعة واستمر الحال على ذلك يومين وفي اخر القتال جرح قانصوه خمسمائة واغمى عليه فحمله بعض غلمانه ونزل مماليك الناصر الى باب السلسلة وهزموا من كان به وانتهبوا كل ما فيه وانتصر الملك الناصر وتوجه الخليفة والقضاة الاربعة في اليوم التالي فهنأوه بانتصاره وهذا يذكرنا قول الشاعر

وبين اختلاف الليل والصبح معرك يكر علينا جيشه بالعجائب

وقد استخف قانصوه خمسمائة بالملك لصغر سنه فخذله الله وصح ما قيل

لا تحقرن كيد الصغير فربما تموت الافاعي من سموم العقارب

وقول الاخر

لاتحقرن صغيرًا في مخاصمة   ان الذبابة تدمي مقلة الاسدِ

وحاول قانصوه خمسمائة بعد ذلك ان يأخذ بثاره فازداد خذلانًا

وفي السنة المذكورة توفي قانصوه اليحياوى نائب الشام المار ذكره فنصب السلطان مكانه في السنة التالية كرتباى الاحمر وفي سنة ٩٠٣ ﻫ (سنة ١٤٩٧ م) خلع السلطان على جان بلاط بن يشبك وجعله نائبًا بحلب وكان اقبردى الدوادار اظهر العصيان وحاربه العسكر فانهزم الى الشام وقصد ان يملكها ونهب الضياع التي حول دمشق وخرب كثيرًا منها وفعل كذلك في قرى حلب وقد حاصر اقبردى دمشق نحو شهرين ولم ينل منها مأربًا وفر الى حلب وحاصر بطريقه حماه واخذ منها اموالاً كثيرة وكان اينال السلحدار نائب حلب حينئذٍ من عصبة اقبردى فاراد ان يسلمه المدينة فرجمه اهل المدينة وطردوه من حلب وحصنوا المدينة ففر اقبردى وعسكره واينال صاحب حلب وتوجهوا جميعًا الى علي دولات ابن شاه سوار المار ذكره فاتفق الامراء حينئذٍ ان يولوا على حلب جان بلاط بن يشبك وتبع كرتباى الاحمر نائب الشام اقبردى وجماعته الى عين تاب وكانت بين الفريقين هناك وقعة قتل فيها اينال نائب حلب وجماعة كثيرة وانهزم اقبردى الى جبل الصوف في من بقي معه من الامراء والمماليك وارسل العسكر المصرى الى القاهرة بعض رؤوس من قتلوا في وقعة عين تاب وفي جملتها راس اينال نائب حلب

وفي سنة ٩٠٤ ﻫ (سنة ١٤٩٨ م) سار السلطان الى بر الجيزة واقام هناك ثلاثة ايام في ارغد عيش وقد خرج عن الحد في اللهو والخلاعة والطيش وكان لسان الحال كان يقول له

تزود من الدنيا فانك لا تدري   اذا جن ليلك هل تعيش الى الفجر

فكم من صحيح مات من غير علةٍ   وكم من عليل عاش حينًا من الدهر

وكم من فتى يمسي ويصبح آمناً وقد نسجت اكفانه وهو لا يدري

وركب السلطان في اخر تلك الايام ولم يكن معه الا ابناء عمه وبعض سلحداريته ومر على الطالبية وكان هنالك طومان باي متوجهاً الى البحيرة فخرج مسرعاً للقاء السلطان وساله ان يحل عنده فابى فقدم له طومان باي جفنة فيها لبن فاخر فوقف السلطان وهو راكب على فرسه واخذ يتناول من اللبن وطومان باي ضابك لجام فرسه واذا بخمسين مملوكاً خرجوا من الخيام التي هنالك وعاجلوا السلطان بالحسام قبل الكلام فقتلوه شر قتلة وقتلوا ابني عمه واحد السلاحدارية ونسب قتله الى طومان باي ولما قتل الملك الناصر كان عمره سبع عشرة سنة وكان يوصف بالكرم والشجاعة لكنه كان جاهلاً عسوفاً سفاكاً للدماء كثير العشرة للاوباش وكانت مدة ملكه نحو سنتين واربعة اشهر واكثرها فتن وشرور انتهى مقتطفاً من تاريخ مصر لابن اياس

عـد ٩٣٨

في الملك الظاهر قانصوه الاشرفي

هو التاسع عشر من ملوك الجراكسة اذا حسبنا منهم خشقدم وتمربغا الروميين واصله مملوك جركسي اشتراه الامير قانصوه وقدمه للملك الاشرف قيتباي في سنة ٨٩٨ هـ (سنة ١٤٩٢ م) ثم ظهر انه اخو سرية السلطان اصل باي الجركسية فجعله السلطان قيتباي جمداراً ولما توفي وخلفه ابنه الملك الناصر محمد جعله خزانداراً كبيراً وبقي يسمى خال السلطان ولما وثب قانصوه خمسمائة على السلطان قام قانصوه خاله بنصرته فرقاه ابن اخته في المناصب فعظم امره وشاع بين الناس ذكره ولما عصى اقبردى الدوادار وانهزم الى الشام جعل الملك الناصر خاله في الدوادارية الكبرى عوضاً عن اقبردى ولما قتل الناصر اختلف الامراء في من يخلفه ثم اتفقوا على قانصوه خال الناصر واستدعوا الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الاربعة

فبايعه الخليفة بالسلطنة وشهد عليه القضاة الاربعة بذلك وتلقب بالملك الظاهر وكني ابا سعيد وابقى الاتابكي اذبك في اتابكية العسكر وقرر طومان باي في الدوادارية الكبرى عوضاً عن نفسه

وفي هذه السنة ايضاً توفي كرتباي الاحمر نائب الشام ويقال ان الملك الناصر رشا على قتله بالف دينار لانه كان مخالفاً له وينهاه عما لا يليق بملك فدُس له سم مات به فنقل الملك الظاهر جان بلاط بن يشبك من نيابة حلب الى نيابة الشام ونصب في حلب عوضه قصروه بن اينال وفيها عاد اقبردي الدوادار الى حلب وحاصرها اشد الحصار واحرق ما حولها من القرى واشرف على اخذ المدينة فجهز السلطان عسكرًا ضخماً امر عليه تاني بك الجمالي امير سلاح فلدى وصولهم الى حلب وجدوا اقبردي بمرعش عند علي دولات بن شاه سوار وطال مقام العسكر بحلب واسعار المون غالية وعلف الخيل قليل فارسل قصروه نائب حلب قاني باي الرماح يسأل اقبردى الصلح ولما وثق اقبردى بذلك حضر صحبته قاني باى ودخل الى حلب طائعاً فالتقاه نائب حلب وامراء العسكر وكاتبوا السلطان بذلك فارسل له خلعة فاخرة وفرساً بسرج ذهب وقلده نيابة اطرابلس الا انه بعد دخوله الى حلب واقامته بها قبل ان يتوجه الى اطرابلس اعترته آكلة مات بها ودفن بحلب ثم نقلت جثته الى القاهرة ودفن بتربة انشأها لنفسه بالصحراء ومات وعمره دون الخمسين واصله من مماليك الاشرف قيتباى ثم ظهر انه قريبه وتقلب في المناصب الرفيعة الى ان خرج وحارب عسكر السلطان مرارًا فسلم اخيرًا نفسه كما مر وبعد وفاة اقبردى نقل السلطان قصروه من نيابة حلب الى نيابة الشام ونقل جان بلاط نائبها الى الاتابكية بمصر ونصب دولات باى بن اركماس في نيابة حلب عوضاً عن قصروه وقرر بلبناى المويدى في نيابة اطرابلس عوضاً عن دولات وروى البطريرك الدويهي انه كان في هذه السنة ببيروت وباء مات به خلق كثير

وفي سنة ٩٠٥ هـ (سنة ١٤٩٩ م) عصى قصروه نائب الشام وخرج عن الطاعة واستولى على قلعة دمشق وعلى ما فيها من المال فاضطرب السلطان واظهر انه يخرج الى الشام بنفسه واخذ يستعد لذلك وكان الامير طومان باي ممالئاً قصروه على العصيان قاصدًا التمهيد لنفسه واشار الامراء على السلطان بان يبعث الى قصروه سفيرًا يقرره في نيابة الشام ولا يواخذه بما عمل اذا سلم قلعة دمشق الى نائبها ولكن جاءت الاخبار بان قصروه تولى على اطرابلس وقبض على نائبها بلباي المذكور وسجنه بقلعة دمشق وكتب السفير المرسل اليه انه مصر على العصيان فجهز الملك الظاهر جيشاً لكبت قصروه وكان في هذا الجيش نحو ثلاثين اميرًا والفي مملوك من مماليك السلطان وعاد حينئذ طومان باي من الصعيد الى الجيزة وخرج الامراء والعسكر لملاقاته واقام بالجيزة لا يريد الدخول الى القاهرة فارسل اليه السلطان الامير طراباي وصورة حلف عن لسان السلطان انه لا يهينه اذا قابله ولا يقبض عليه فلم يثق طومان بذلك الحلف واظهر العصيان فتحقق الملك الظاهر الثورة عليه واخذ يحصن القلعة ويستعد للحصار بها وفرق السلاح على مماليكه وقبض على بعض الامراء الذين وقعت له بهم الشبهة وتوجه طومان باي الى الازبكية بمن معه من الامراء وكان الاتابكي جان بلاط ساكناً هناك واتفقوا على خلع الملك الظاهر وساروا يحاصرون القلعة ولم يكن عند الملك الظاهر الا نائب القلعة وبعض الامراء ونحو الف رجل ومع ذلك استمرت الحرب بين الفريقين ثلثة ايام وبعدها دخل طومان باى باب السلسلة وانكسر الملك الظاهر وتشتت من كان معه بالقلعة ودخل الملك دار الحريم ولبس ذى امرأة وتوجه نحو الترب فاختفى ووقع الخلاف في من يملك فيهم ولم يجسر طومان باى ان يأخذ الملك وكان الاتابكي جنبلاط مقدماً عليه ورشح ثاني بك الجمالي فلم يرض به العسكر ثم رشح الاتابكي جنبلاط فلم يرضه العسكر ايضاً ولكن تعصب له طومان باى واصر عليه فكانت

السلطنة له فكانت مدة الملك الظاهر قانصوه سنة وثمانية اشهر وثلاثة عشر يوماً وكان خلعه في اخر ذي القعدة سنة ٩٠٥ هـ (سنة ١٤٩٩ م)وساس الناس احسن سياسة وخلع من السلطنة والناس راضون عنه ولم يكن له من المساوي الا قليل

﴿ عـد ٩٣٩ ﴾

في الملك الاشرف جان بلاط الاشرفي

هو العشرون من ملوك الجراكسة عند من لم يسقط من عديدهم خشقدم وتمربغا واصله جركسي اشتراه الامير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير ثم قدمه الى الملك الاشرف قيتباى فكان جمداراً ثم خاصكياً ثم دواداراً وتوجه قاصداً الى السلطان ابن عثمان سنة ٨٩٦ هـ (سنة ١٤٩٠ م) ثم صار مقدم الف في دولة الاشرف قيتباى ودواداراً كبيراً عوضاً عن اقبردي في دولة الناصر ثم قرر نائباً بحلب ثم نقله الظاهر قانصوه الى نيابة الشام كما رأيت ثم احضره الى القاهرة ونصبه اتابك العسكر عوضاً عن الاتابكي اذبك وتزوج بخوند اصلباي ام الملك الناصر ولما وثب طومان باي على الملك الظاهر قانصوه وانكسر فوقع الاتفاق على سلطنة جان بلاط بتعصب طومان باي له واستدعوا الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الاربعة فخلعوا الملك الظاهر وبايع الخليفة جان بلاط بالسلطنة وشهد على ذلك القضاة وتسمى الملك الاشرف على اسم استاذه الملك الاشرف قيتباي وكني ابا النصر وكان ملؤ العيون كفوًا للسلطنة وافر العقل سديد الرأي

ومن الاحداث في ايامه انه نصب قصروه نائب الشام اتابكاً للعسكر وكان يظن ان ذلك يدخله في طاعته وينكف عن العصيان الذي كان قد جاهر به كما مر في الفصل السابق فكان الامر مخيباً ظنه فقد ارسل السلطان اليه قصروه الصغير يبشره بسلطنته ويستدعيه الى الاتابكية فابى الا العصيان وخلع الطاعة وعاد رسول السلطان اليه فاخبره ان قصروه لم يلبس الخلعة وهو مصر على العصيان فاستاء

السلطان لذلك ونصب تاني بك الجمالي في الاتابكية التي كان قد اعدها لقصروه وخلع على طومان باي وقرره في اميرية سلاح مضافة الى ما بيده من الدوادارية الكبرى وجعله ايضاً في الوزارة والاستادارية حتى صار صاحب الحل والعقد في تلك الايام ثم جاءت الاخبار بان قصروه قد تولى غزة واعمالها والقدس وغيرها من النواحي وجأت الاخبار من حلب بان دولات باي نائبها اظهر الطاعة للسلطان وانه غير مشترك في العصيان مع قصروه نائب الشام ولم تكن تلك الاخبار الا مخادعات لفقها طومان باي تمهيدًا لسلطنته وكان قد تمادى حتى جعل السلطان جان بلاط كالمحجور عليه لا يقضي امرًا دون مشورته وكانت احوال البلاد الشامية تزداد قلقاً واضطراباً فجهز السلطان عسكرًا لكبت قصروه ورده الى الطاعة وامر ان يسرع العسكر بالخروج وعين قرقاس بن ولي الدين نائباً بحلب وبرد بك الطويل نائباً باطرابلس وقانصوه بن جركس نائباً بحماه وعين دولات باي نائب حلب في نيابة الشام عوضاً عن قصروه اذا قبض عليه وخرج هؤلاء مع العسكر الى الشام بامرة طومان باي وكان السلطان يظنه ناصحاً له وهو اكبر البغاة عليه ولما وصل العسكر الى الشام حل في مكان يسمى سعسع بالقرب من دمشق فركب قصروه نائب الشام في نفر قليل من عسكره واظهر انه طائع ودخل مع طومان باي وعسكره الى دمشق واجتمعوا في القصر الابلق بالميدان وقر رايهم ان يصعدوا الى القلعة ويقرأوا فيها مراسيم السلطان فقرأوها ولم يلتفت قصروه اليها وثارت فتنة بين الامراء فامر قصروه وطومان باي بالقبض على جماعة من الامراء الذين اتوا من مصر وفي جملتهم قرقاس بن ولي الدين المعين نائباً لحلب وقانصوه بن جركس المعين نائباً بحماة وقيدوهم وسجنوهم بالقلعة وفي تلك الاثناء وصل الى دمشق دولات باى نائب حلب وتعصب لطومان باى وطلب ان يبايع بالسلطنة واحضر قضاة الشام وكتب صورة محضر في خلع الملك الاشرف جان بلاط

وبايعوا مكانه بالسلطنة طومان باى من غير حضور خليفة وسمي الملك العادل وكني ابا النصر وافاضوا عليه شعار الملك وقبل الامراء الارض امامه واول من قبلها قصروه نائب الشام ثم باقي الامراء واخذ طومان باى يدبر مهام السلطنة فنصب قصروه نائب الشام اتابك العساكر بمصر وعين دولات باي نائب حلب نائباً بالشام وجعل مكانه في نيابة حلب اركماس بن ولي الدين وقرر برد بك الطويل في نيابة اطرابلس وسمي قانصوه الغوري دوادارًا كبيرًا وله الوزارة والاستدارية وخطب باسم طومان باي الملك العادل على منابر دمشق

واما الملك الاشرف جان بلاط فلما بلغته هذه الاخبار اضطرب لها وعين في المناصب عوضاً عن الامراء الذين عصوا بدمشق من وثق بهم من الامرآء بمصر واستحضر المصحف العثماني وحلف عليه الامرآء من كبير وصغير بحضرة الخليفة والقضاة الاربعة ايماناً مغلظة بالله والمصحف والطلاق على انهم يخلصون في الطاعة له ولا يخونون ولا يغدرون ولا يميلون الى العادل واخذ في تحصين قلعة القاهرة واصلح سورها وابراجها ونقل اليها كثيرًا من المون وفتح الزردخانة وفرق على جنوده سيوفاً ودروعاً وقسياً ونشاباً وخيولاً وفي يوم السبت رابع جمادى الاخرى سنة ٩٠٦ هـ (سنة ١٥٠٠ م) جآءت الاخبار بان العادل طومان باي خرج من الشام هو وقصروه نائب الشام ودولات باي نائب حلب وجماعة من النواب والتف اليهم الجم الغفير من العساكر وعربان جبل نابلس وقد وصلوا الى غزة فعلق السلطان جان بلاط السنجق السلطاني على باب السلسلة ونادى للعسكر بالدخول الى القلعة فدخلوا وفي اليوم الخميس تاسع جمادي الاخرى وصل العادل في من معه الى خانقا سورياقوس ودخلت طلائع عسكره القاهرة وفي يوم السبت الحادي عشر من الشهر المذكور دخل العادل طومان باي الى القاهرة من باب الفتوح فارتفعت له الاصوات بالدعاء لانه كان محبوباً فنادى بالامان والاطمئنان والبيع

والشرا ثم تسعرت نار الحرب بين الفريقين واستمرت ثلاثة ايام وظهر اخيرًا ان الدوائر سندور على الاشرف جان بلاط فاخذ الامرآء والجنود ينسحبون من القلعة ويحضرون الى الملك العادل طومان باي ولما ضاق الامر على الاشرف جان بلاط دخل الى دور الحريم واختفى ودخل الملك العادل وجماعته القلعة وقبضوا على الاشرف جان بلاط قيل وجدوه مختفياً في محل مهجور من دور الحريم وقيدوه بقيد ثقيل ثم ارسلوه الى السجن بالاسكندرية فكانت مدة سلطنته ستة اشهر وثمانية عشر يوماً وخنقوه اخيرًا بالسجن

عد ٩٤٠

في الملك العادل طومان باي

هو الحادي والعشرون من ملوك الجراكسة اذا عُدَّ منهم خشقدم وتمربغا واصله جركسي شراه قانصوه اليحياوي نائب الشام وقدمه الى الاشرف قيتباي ولذا يوصف بالاشرفي واعتقه قيتباي وتقلب بالمناصب الى ان صار دوادارًا كبيرًا في دولة الظاهر قانصوه ثم ضم اليه الاشرف جان بلاط مناصب اخرى كما مر الى ان غدر به لما امرهُ على العسكر الذي ارسله على قصروه نائب الشام وتسلطن بدمشق وعاد الى القاهرة فحارب جان بلاط وقبض عليه وارسله الى السجن بالاسكندرية سنة ٩٠٦ هـ (سنة ١٥٠٠ م) ثم استدعوا الخليفة العباسي فبايعه بالسلطنة وشهد على ذلك القضاة الاربعة وقرر قصروه نائب الشام قبلاً في اتابكية العساكر واضمر له الغدر به كما قيل

اذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليث يبتسمُ

فانه لم يمضِ زمن الا امر بعض الخاصكية ان يقبضوا عليه وهو في مجلسه فقيدوه واودعوه محبساً ثم خنقوه بامره ويظهر ان السلطان العادل علم ان قصروه يعامل عليه وانه جمع بعض الامرآء واهداهم خيولاً ومالاً فمالوا اليه وعولوا على

ان يسلطنوه فتداركه السلطان بالقتل منتهزًا الفرصة على حد قول الشاعر ...

وانتهز الفرصة ان الفرصه   تصير ان لم تنتهزها غصه

وقال ابن اياس في قصروه

كان قصروه قصيرًا عمره   خانه الدهر فولى مسرعا

طلبوا التسليم منه فابى   ثم ما سلم حتى ودعا

وكان الملك العادل باغياً على قصروه فجزاه الله على بغيه فلم يعش بعد قصروه الا اياماً قلايل وقتل كما سترى قال علي بن ابي طالب من سل سيف البغي قتل به فاغتيال طومان باي لقصروه ازال حبه من قلوب الناس واستوحشوا منه فعزل كثيرين من مناصبهم ونفى بعضهم

ثم خلع طومان باي على دولات باي وقرره في نيابة الشام ونصب ارقماس بن ولي الدين نائباً بحلب عوضاً عن دولات باي المذكور وجعل جانم بن قجماس نائباً باطرابلس عوضاً عن بردبك الطويل والامير سنبـاى نائباً بحماة وقانصوه القاجر نائباً بصفد واستحثهم للخروج بسرعة الى محل ولاياتهم ثم عزل ارقمـاس نائب حلب وولى مكانه قانصوه قرا وكان نائباً بغزة وولى على غزة علي باي السيفي بن يشبك وكان قد صادر بعض الامرآء واختفوا من وجهه فاخذ يكبس بعض البيوت والدور ويشوش على الناس ويسبي بعض عماله الحريم فهاجت الناس وعظم القلق ووثب العسكر في اخر رمضان على طومان باي الملك العادل وظهر الامرآء الذين كانوا قد اختفوا من وجهه فلما تحقق العادل ان الحملة عليه نزل الى باب السلسلة وعلق السنجق السلطاني واستدعى العسكر الى القلعة فلم يلب احد دعوته ولم يكن عنده في القلعة الا نفر يسير فكان الدفاع عن العادل لا يستحق الذكر وتسحب بعض الامرآء الذين كانوا معه فنزل الملك العادل ليلاً من القلعة واختفى وكان قد شاع انه يريد ان يقبض على بعض الامرآء يوم عيد الفطر بالجامع فوثب العسكر

عليه تلك الليلة وبعد اخفائه نهب العسكر كل ما كان في الاسطبل السلطاني والقلعة ثم ظهر من اختفائه فقبض عليه وقطع رأسه وكانت مدة سلطنته ثلاثة اشهر وعشرة ايام وقام بالسلطنة بعده قانصوه الغوري ونرجئ الكلام فيه الى تاريخ القرن السادس عشر انتهى وقد اعتمدت في ما كتبته الى الان من تاريخ ملوك الجراكسة على كتاب تاريخ مصر الموسوم ببدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن احمد بن اياس الحنفي المصري واستعنت عليه بكتاب اخبار الاول في من تصرف في مصر من ارباب الدول لمحمد عبد المعطي بن ابي الفتح الاسحاقي وبكتاب تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلاطين للشيخ عبدالله الشرقاوي وبكتاب تاريخ العلامة البطريرك اسطفان الدويهي الاهدني الماروني

الفصل الثاني

﴿ في بعض مشاهير العلم في القرن الخامس عشر ﴾

﴿ عـد ٩٤١ ﴾

﴿ في المشاهير السوريين ﴾

﴿ ابن حبيب الحلبي ﴾

هو فقيه من حلب توفي سنة ٨٠٨ هـ (سنة ١٤٠٥ م له كتاب مختصر المنار في اصول الفقه وشرح هذا المختصر ابو الثنا احمد السيواسي في كتاب سماه زبدة الاسرار في شرح مختصر المنار فرغ من وضعه سنة ٩٧٤ هـ (سنة ١٥٦٦ م) وطبعت الزبدة في كازان سنة ١٨٨٧ م واما المنار فهو لعبد الله بن احمد النسفي صاحب الكنز المتوفي سنة ٧١٠ هـ (سنة ١٣١٠ م) وقد طبع المنار بالهند بمطبعة حجر

وللشيخ جيون اللكناوي (المتوفي سنة ١١٣٠ هـ سنة ١٧١٧ م) شرح للمنار سماه نور الانوار في شرح المنار طبع في كلكوتة سنة ١٨١٩ م

﴿ علاء الدين البهائي الغزولي الدمشقي ﴾

هو عالم دمشق توفي سنة ٨٨٥ هـ (سنة ١٤١١ م) وله كتاب عنوانه مطالع البدور في منازل السرور ضمنه خمسين باباً شرح بها كيفية بناء البيت وتدبير المنزل وما يجعل المسكن محل السرور والبهجة والانشراح وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٣٠٠ هـ

﴿ ابن الشحنة الحلبي ﴾

انا نعرف عالمين يسمى كل منهما ابن الشحنة وكلاهما من حلب اولهما توفي سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) وله كتاب روض المناظر في علم الاوائل والاواخر اختصره من تاريخ ابي الفدا المشهور وزاد عليه تاريخ ما كان الى سنة ٨٠٦ هـ (سنة ١٤٠٣ م) وقد جمع هذا التاريخ للملك المويد عماد الدين نائب السلطنة بقلعة حلب وطبع هذا الكتاب ببولاق سنة ١٢٩٠ على هامش المجلد ٧ و ٨ و ٩ من تاريخ بن الاثير المسمى الكامل

واما ابن الشحنة الثاني فقال في حقه ابن اياس في تاريخ مصر هو محمود بن محمود الشقفي الحلبي ولد سنة ٨٠٤ هـ (سنة ١٤٠١ م) وكان عالماً فاضلا بارعاً في الفقه على مذهب ابي حنيفة وكان ناظماً ناثرًا تولى عدة مناصب منها كتابة السر بمصر ونظر جيشها وكان قاضي القضاة الحنفية مرارًا وتوفي سنة ٨٩٠ هـ (سنة ١٤٨٥ م) وقد قارب التسعين من عمره وله عدة تآليف جليلة انتهى كلام ابن اياس والذي عرفناه من مؤلفات بن الشحنة هذا تاريخ مدينة حلب الشهباء سماه الدر المنتخب في تاريخ حلب ولا نعلم ان هذا الكتاب طبع وله ايضاً في الفقه كتاب سماه لسان الحكام طبع على هامش كتاب معين الحكام في ما يتردد بين

الحصمين من الاحكام ببولاق سنة ١٣٠٠ هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣١٠ هـ

﴿ البدر الشتكي الدمشقي ﴾

ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة فقال البدر الشتكي محمد بن ابراهيم بن محمد الدمشقي الاصل الاديب المشهور ولد سنة ٧٤٨ هـ (سنة ١٣٤٧ م) ومات في جمادي الاخرى سنة ٨٣٠ هـ (سنة ١٤٢٦ م)

﴿ ابن حجة الحموي ﴾

هو تقي الدين ابو بكر المعروف بابن حجة ولد بحماة سنة ٧٧٧ هـ (سنة ١٢٧٥ م) وتوفي سنة ١٤٣٣ م ومن اشهر مؤلفاته كتاب خزانة الادب وغاية الارب وقد طبع على هامش رسائل بديع الزمان الهمزاني في بولاق سنة ١٢٩١ وفي مصر سنة ١٣٠٤ وطبع كتاب الخزانة ايضاً ببولاق سنة ١٢٩١ وبالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ وله كتاب اخر سماه ثمرات الاوراق في المحاضرات طبع على هامش محاضرات الادباء للراغب الاصفهاني بالقاهرة سنة ١٢٨٧هـ ثم طبع بها سنة ١٣٠٤هـ سنة ١٣٠٨ هـ وقال في حقه جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة ابن حجة رأس ادباء العصر تقي الدين ابو بكر بن علي الحموي نزيل القاهرة صاحب البديعية المشهورة وشرحها وثمار الاوراق وغير ذلك من التصانيف الادبية

﴿ علي بن خليل الاطرابلسي ﴾

هو عالم فقيه في اطرابلس توفي سنة ٨٤٤ هـ سنة ١٤٤٠ م وله كتاب في الفقه عنوانه معين الحكام في ما يتردد بين الخصمين في الاحكام وهذا الكتاب طبع ببولاق سنة ١٣٠٠ هـ وطبع بالقاهرة سنة ١٢١٠ هـ وعلى هامشه كتاب لسان الحكام لابراهيم بن محمد الشحنة الحلبي المار ذكره

شهاب الدين الرملي القدسي

هو فقيه من القدس توفي سنة ٨٤٤ ﻫ (سنة ١٤٤٠ م) له كتاب سماه صفوة الزبد في فقه الشافعي وشرحه شرحين ذكره صاحب كشف الظنون في اسماء الكتب والفنون في باب الصاد

ابن حجر العسقلاني

هو احمد بن علي بن محمد ابو الفضل شهاب الدين العسقلاني الاصل ولد بمصر سنة ٧٧٣ ﻫ (سنة ١٣٧٢م ونشأ بها يتيماً وتفقه على الانباسي والبلقيني وارتحل الى الشام والحجاز فاخذ عن جماعة وتوفي سنة ٨٥٢ ﻫ (سنة ١٤٤٨ م) وله عدة مصنفات منها كتاب نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في اصطلاح الحديث طبع بكانفور سنة ١٢٩٥ وكتاب تقريب التهذيب في اسماء رجال الحديث طبع بدهلي دون ذكر السنة وكتاب المنبهات طبع بالمدينة المذكورة على الحجر سنة ١٢٨٨ وكتاب الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة مرتباً على احرف المعجم ولم يطبع وكتاب الاصابة في تمييز اسما الصحابة طبع في كاكوتة سنة ١٨٥٦ م في عدة مجلدات وقد ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة المار ذكره فقال انه عانى اولا الادب وعلم الشعر فبلغ فيه الغاية ثم طلب الحديث وبرع فيه فلم يكن في عصره حافظ سواه والف كتباً كثيرة كشرح البخاري وتعليق التعليقا وتهذيب التهذيب وتقريب التهذيبي ولسان الميزان والاصابة في الصحابة (مر ذكره) ورجال الاربعة والنخبة وشرحها والالقاب وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه (ربما هو كتاب المنبهات الذي ذكره) وتقريب المنهج بترتيب المدرج وقد رثاه السيوطي بقوله

قد بكت السحب على قاضي القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذي كان مشيدًا من حجر

ورثاه الشيخ شهاب بن الحجازي بقصيدة طويلة مطلعها :

كل البرية للمنية صائره وقفولها شيئاً فشيئاً سائره
والنفس ان رضيت بذا ربحت وان لم ترض كانت عند ذلك خاسره

الى ان قال

لكن سئمت العيش من بعد الذي قد خلف الافكار منا حائره
قاضي القضاة العسقلاني الذي لم ترفع الدنيا خصيماً ناظره
لهفي عليه عالماً بوفاته درست دروس والمدارس دائره
قد خلف الدنيا خراباً بعده لكنما الاخرى لديه عامره

وقد ذكر السيوطي قصيدة لابن حجر رثا بها زين الدين العراقي من ابياتها

وبحر الدمع يجري باندلاق وبد الصبر يسري في المحاق
وللاحزان بالقلب اجتماع ينادي الصبر حيّ على افتراق
فيا اهل الشام ومصر فابكوا على عبد الرحيم بن العراقي
على الحبر الذي شهدت قروم له بالانفراد على اتفاق

وذكر له ملا كاتب صاحب كشف الظنون تاريخاً يسمى ابناً الغمر وذيلاً على تاريخ قضاة مصر لابي عمر محمد بن يوسف الكندي سماه رفع الاصر من قضاة مصر

﴿ شهاب الدين بن عرب شاه الدمشقي ﴾

هو احمد بن محمد بن عرب شاه الدمشقي الحنفي ولد بدمشق سنة ٧٩١ هـ سنة ١٣٨٨ م) ولما غزا تيمور لنك الشام اخذه اسيرًا مع بعض عشيرته الى سمرقند وتفقه بها في العلوم واتقن معرفة اللغتين الفارسية والتركية وطاف كثيرًا من البلاد وجاء اخيرًا الى ادرنه فاقامه السلطان محمد بن عثمان على ترجمة الكتب لابنه السلطان مراد من العربية الى الفارسية والتركية وعاد بعد مدة الى موطنه دمشق

وتوفي سنة ٨٥٤ هـ (سنة ١٤٥٠ م) واشهر مصنفاته تاريخ سيرة تيمور لنك سماه عجائب المقدور في اخبار تيمور طبع في لايدن سنة ١٦٦٣ م وفي كلكوتة سنة ١٨١٢ ثم سنة ١٨١٨ وطبع بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وله كتاب آخر كله سجع في تربية الملوك والامرآء سماه فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ورتبه على عشرة ابواب وهو على اسلوب كتاب كليلة ودمنة طبع بمدينة بوت (المانيا) سنة ١٨٣٢) ثم سنة ١٨٥٢ مع ترجمة لاتينية وشروح وطبع ببولاق سنة ١٢٧٦ هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ

﴿ محمد بن قرقاس الناصري ﴾

ذكره ابن اياس في تاريخ مصر فقال في حقه كان فاضلاً من اعيان الحنفية وكان يدعي معرفة علم الحرف وعلم الكيميا وكان قد ولي مشيخة تربة الظاهر ولد سنة ٨٠٢ هـ (سنة ١٣٩٩ م) وكان ناظماً ناثرًا وله عدة مصنفات منها كتاب زهر الربيع في شواهد البديع وله معارضة مقامات الحريري الى غير ذلك من التاآليف وكانت وفاته سنة ٨٨٢ هـ (سنة ١٤٧٧ م)

﴿ ابو حامد المقدسي ﴾

ذكره ابن اياس ايضاً فقال هو محمد بن خليل المقدسي الشافعي كان من اهل الفضل والعلم وله عدة مصنفات ولد بعد سنة ٨٢٠ هـ (سنة ١٤١٧ م) لكنه كان بليد الذهن قليل الفهم ومما وقع له ان الذيني ابا الفتح بن النحاس الشاعر كتب له بيتين ودفعهما اليه في مجلس القاضي كاتب السر ابن مزهر فلما قراهما استحسنهما ولم يفهم ما بهما من التنديد به فكتبهما بخطه في مصنفاته وهما

ابا حامد انت الذي شاع ذكره   بكثرة تأليف وجمع به انفرد
فانت الذي ما مثل حفظك في الورى   وانت الذي ما مثل ذهنك في البلد

فهم ابو حامد بالبلد المكان واراد به الشاعر البلادة

﴿ بن مزهر الدمشقي ﴾

ذكره ابن اياس ايضاً فقال هو ابو بكر محمد ... بن عثمان المعروف بمزهر الدمشقي الانصاري الشافعي وكان عالماً فاضلاً عارفاً بالفقه انتهت اليه رياسة عصره وكان وجهاً عند الملوك والسلاطين تولى عدة مناصب سنية منها نظر الاسطبل ونظر الجيش وكتابة السر واستمر فيها نيفاً وعشرين سنة حتى مات مقرراً بها ومولده سنة ٨٣٢ هـ (سنة ١٤٢٨ م وتوفي سنة ٨٩٣ هـ (سنة ١٤٨٧ م)

﴿ عـد ٩٤٢ ﴾

﴿ بعض من عاصر هولاء من المشاهير غير السوريين ﴾

﴿ ابن خلدون الاشبيلي ﴾

هو ولي الدين عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الحضرمي النسب ولد سنة ٧٣٢ هـ سنة ١٣٣١ م) اخذ الفقه عن قاضي الجماعة ابن عبد السلام وغيره وبرع في العلوم وتضلع بالفنون ومهر في الادب والكتابة وولي كتابة السر بمدينة فاس ثم دخل القاهرة فولي مشيخة البيبرسية وقضاء المالكية سنة ١٣٨٢ م ثم مضى للحج وعاد الى مصر ثم انتقل الى الشام وجاء في كشف كتاب الظنون عن اسماء الكتب والفنون لملا كاتب انه كان في وقعة تيمور قاضياً بحلب فحصل في قبضته اسيراً سميراً فكان يصاحبه وسافر معه الى سمرقند فقال له يوماً لي تاريخ كبير جمعت فيه الوقائع باسرها فخلفته بمصر وسيظفر به المجنون يشير الى برقوق واستاذنه في ان يعود الى مصر ليجيء به فاذن له فعاد فتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ (سنة ١٤٠٥ م) وكان فاضلاً رفيع القدر اصيل المجد وقور المجلس عالي الهمة واما تآليفه فاشهرها واحسنها كتاب تاريخه الذي عنونه ديوان العبر وكتاب المبتدا والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر وهو في سبعة مجلدات اولها مقدمة هي من اجل ما كتب بالعربية في فلسفة التاريخ ومن احسن المؤلفات

لغة ومعنى وانشاء حتى صارت كلمة المقدمة او المقدمات علماً لهذا الكتاب وضمن المجلدات الستة الباقية تاريخاً اسهب فيه الكلام في تاريخ العرب واوجز في تاريخ غيرهم وختمه بتاريخ قبائل البربر ودولهم وقد استعنا بتاريخه هذا مراراً كما رايت وقد طبع تاريخه ببولاق سنة ١٢٨٤ ﻫ وفي جزائر الغرب سنة ١٨٥١م وقد طبعت المقدمة وحدها طبعات فطبعت بباريس سنة ١٨٥٨ م وطبعها خليل افندي سركيس بمطبعته في بيروت سنة ١٨٧٩ ثم سنة ١٨٨٢ وقد استأنف عن قرب طبعها مرة اخرى وطبعت بالجزائر ايضاً من سنة ١٨٤٧ الى سنة ١٨٥١ م)

﴿ محمد بن موسى الدميري ﴾

هو عالم مصري كان يدرس الحديث في الجامع الازهر ولد بمصر سنة ٧٥٠ﻫ (سنة ١٣٤٩ م) اخذ العلم عن بهاء الدين السبكي وجمال الدين الاسنادي وتوفي سنة ٨٠٨ ﻫ (سنة ١٤٠٥ م) واشهر تصانيفه حياة الحيوان الكبرى مرتبة على حروف المعجم لكنها مشحونة بالاقاصيص وفي آخر هذا الكتاب جزء تكلم فيه بايجاز عن تاريخ الخلفاء الراشدين وبني امية بدمشق وبني العباس بالعراق ومصر واسماء الخلفاء الفاطميين والملوك الايوبيين واسماء الملوك من دولة المماليك وطبع كتابه هذا ببولاق سنة ١٢٧٥ وسنة ١٢٨٤ و سنة ١٢٩٢ وطبع ببلاد فارس طبعاً متقناً مع صور ورسوم جميع الحيونات وبعض الرجال الوارد ذكرها في الكتاب

﴿ علي بن محمد الجرجاني ﴾

هو عالم مصري توفي سنة ٨١٦ ﻫ سنة ١٤١٣ م له كتاب سماه التعريفات في مصطلح العلوم كالفقه والفرائض والحديث والكلام والنحو والتصريف والتفسير وهي مرتبة على حروف الهجاء وطبع هذا الكتاب بليبسك سنة ١٨٤٥ بعناية العلامة فلوغل الالماني مع تعريفات محي الدين ابن العربي الذي توفي سنة ٦٣٨ ﻫ

سنة ١٢٤٠ م بدمشق وتصريفات ابن العربي هي تفسير للاصطلاحات الصوفية الواردة في كتابه المسمّى الفتوحات المكية في معرفة الاسرار المالكية والملكية وقد طبع كتابا الجرجاني وابن العربي معاً ايضاً بالقاهرة سنة ١٣٠٦ هـ وللسيد الشريف الجرجاني ايضاً كتاب الكبرى في المنطق طبع في لكناو سنة ١٨٤٤ وله ايضاً الصغرى في المنطق طبع بلكناو ايضاً سنة ١٨٤٣ ثم طبعت الكبرى والصغرى معاً هنالك سنة ١٢٦٤ هـ وللجرجاني ايضاً شرح الفرائض السراجية طبع بكازان سنة ١٨٨٩ م والسراجية كتاب في الفرائض لسراج الدين محمد السنجاوندي الحنفي طبع ببولاق سنة ١٣٠٣

﴿ ابن الهائم ﴾

هو شهاب الدين احمد بن محمد بن عماد المعروف بابن الهائم ولد بالقاهرة سنة ٧٥٣ هـ (سنة ١٣٥٢ م) وتوفي باورشليم سنة ٨١٥ هـ (سنة ١٤١٢ م) وله كتاب سماه اللمع في علم الحساب طبع ببولاق سنة ١٢٤٢ هـ وشرحه سبط المارديني الذي ولد سنة ٨٧٦ هـ (سنة ١٤٢٢ م) وله كتاب آخر سماه المعونة في الحساب والوسيلة شرحه سبط المارديني ايضاً وسمى شرحه ارشاد الطلاب الى وسيلة الحساب ولمحمد الازهري الشافعي ابن البليسي حاشية على كتاب المعونة المذكور ولابن الهائم ايضاً كتاب سماه مرشدة الطالب لاسنى المطالب شرحه شيخ الاسلام ذكريا الانصاري المتوفى بالقاهرة سنة ٩٢٦ هـ (سنة ١٥٩١ م) وشرحها ايضاً عبدالله بن محمد الشنشوري الفرضي الخطيب بالجامع الازهر المتوفى سنة ٩٩٩ هـ (سنة ١٥٩٠ م) في كتاب سماه بغية الراغب في شرح مرشدة الطالب ولابن الهائم كتاب نزهة الاحباب في تصريف الحساب اختصره من كتابه مرشدة الطالب وللبيروني شرح على هذا الكتاب ولابن الهائم كتاب آخر شرح على الارجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة لابن الياسميني المتوفى سنة ٦٠٠ هجرية

(سنة ١٢٠٣ م) وله المنظومة بالحساب التي سماها المقنع وشرحها زكريا الانصاري المذكور في كتاب سماه الفتح المبدع في شرح المقنع وله ايضاً غاية السوأل في الاقرار بالمجهول في الجبر والمقابلة

﴿ ابن الملقّن ﴾

ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة فقال هو سراج الدين ابو حفص عمر بن علي بن احمد الانصاري ولد سنة ٧٢٣ ﻫ (سنة ١٣٣٣ م) واشتغل بالتصنيف وهو شاب حتى كان اكثر اهل العصر تصنيفاً ومن تصانيفه شرح البخاري وشرح العمدة وشرحان على المنهاج وعلى التنبيه وعلى الحاوي وعلى منهاج البيضاوى والاشباه والنظائر وغير ذلك وتوفي سنة ٨٠٤ ﻫ (سنة ١٤٠١ م) وذكره صاحب كشف الظنون وزاد على ما تقدم ان له كتاب قضاة مصر وطبقات الشافعية

﴿ محمد الفيروزابادى الشيرازي ﴾

هو مجد الدين ابو الطاهر محمد بن يعقوب ولد سنة ٧٣٠ ﻫ (سنة ١٣٢٩م) في قارسين بقرب شيراز وكان يسافر الى الجزيرة والهند وبلاد العرب طلباً لتوسيع معارفه وانشاء مدارس في مكة المكرمة والمدينة واجتمع سنة ٧٩٠ ﻫ (سنة١٣٨٨م) بتيمور لنك التتري الشهير بمدينة شيراز فاكرمه تيمور لنك وتولى قضاء اليمن سنة ٧٩٥ ﻫ سنة ١٣٩٢ م) وبقي متقلداً هذا القضاء الى وفاته التي كانت سنة ٨٢٠ ﻫ (سنة ١٤١٧ م) وعلى رواية أخرى سنة ٨١٦ ﻫ (سنة ١٤١٣ م) وقد اشتهر بمعجمه الذي سماه القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط . قال في خطبته وكنت برهة من الدهر التمس كتاباً جامعاً بسيطاً ومصنفاً على الفصح والشوارد محيطاً ولما اعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم باللامع المعلم العجاب بين المحكم والعباب غير اني ضمنته في ستين سفراً يعجز

تحصيله الطلاب فصرفت صوب هذا القصد عناني وانمت هذا الكتاب محذوف الشواهد مطروح الزوايد ولخصت كل ثلاثين سفرًا بسفر وضمنته خلاصة ما في العباب والمحكم واضفت اليه زيادات منّ الله سبحانه وتعالى عليَّ بها وانعم ولما رأيت اقبال الناس على صحاح الجوهري وهو جدير بذلك غير انه قد فاته نصف اللغة او اكثر اردت ان يظهر للناظر بادىء بدىء فضل كتابي هذا عليه واذ تأملت صنيعي هذا وجدته مشتملاً على فرائد أثيرة وفوائد كثيرة في حسن الاختصار وتقريب العبارة وتهذيب الكلام وايراد المعاني الكثيرة في الالفاظ اليسيرة ومن احسن ما اختص به هذا الكتاب تخليص الواو من الياء وذلك قسم يسم المصنفين بالعي والاعياء الخ وقد طبع القاموس لاول مرة في جزئين بكلوكته سنة ١٨١٧ م ثم طبع ثانية في جزء واحد كبير في المدينة المذكورة سنة ١٢٧٠ ﻫ وفي تبريز سنة ١٢٧٧ ﻫ وطبع في ثلاثة أجزاء باسكوادار من ضواحي القسطنطينية سنة ١٣٣٠ﻫ وطبع بمصر مرارًا احسن طبعاته هنالك الطبعة المضبوطة بالشكل ببولاق في خمسة أجزاء من سنة ١٢٧٢ﻫ الى سنة ١٣٠٣ ﻫ ضبطها نصر الهوديني وعلق على هوامشها شروحاً مفيدة اخذها عن تاج العروس وعن حاشية القاموس للقرافي وطبع اخيرًا في القسطنطينية سنة ١٣٠٤ ﻫ ووضع احمد فارس الشدياق اللبناني كتاباً سماه الجاسوس على القاموس طبع في القسطنطينية سنة ١٢٩٩ ﻫ بين به ما في القاموس من الهفوات والخطاء ولمحمد بن يحيي القرافي المشار اليه حاشية على القاموس وسمها بالقول المأنوس بتحرير ما في القاموس وله ايضاً كتاب سماه القول المأنوس بشرح مغلق القاموس والكتابان لم يطبعا بعد والقرافي هذا ولد سنة ٩٣٩ﻫ (سنة ١٥٣٢م) وتوفي سنة ١٠٠٨ ﻫ (سنة ١٥٩٩ م)

وذكر صاحب كشف الظنون كثيرين ممن انتقدوا القاموس أو شرحوه او زادوا عليه منهم جلال الدين السيوطي الذي قال في كتابه زهر اللغة ومع كثرة ما

في القاموس من الجمع للنوادر والشوارد فقد فاته اشياء ظفرت بها في اثناء مطالعتي الكتب اللغة حتى هممت ان اجمعها في جزء مذيلاً عليه. وجمع عبد الرحمان بن علي الاماسي ما كتبه استاذه سعد الله بن عيسى في هوامش القاموس ودوّنه في كتاب فصار حاشية على القاموس (وقد توفي عبد الرحمان المذكور سنة ٩٨٣ هـ (سنة ١٥٧٥ م) وكتب محمد بن مصطفى الشهير بداود زاده مختصراً سماه درّ اللقيط في اغلاط القاموس المحيط والسيوطي كتاب الافصاح في زوايد القاموس على الصحاح اي صحاح الجوهري والشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفي حاشية على القاموس سماها القول المأنوس. ومن الحواشي عليه حاشية نور الدين عليّ بن غانم المقدسي المتوفي سنة ١٠٠٤ هـ (سنة ١٥٩٥ م) وحاشية محمد بن عبد الراوف المناوي المتوفى سنة ١٠٣١ هـ (سنة ١٦٢١ م) وله حاشية أخرى تسمى القول المأنوس بشرح معاني القاموس وحاشية مختصرة عن الحاشية السابق ذكرها . انتهى تلخيص كلام صاحب كشف الظنون

﴿ البرهان البيجوري ﴾

ذكره السيوطي في كتابه حسن المحاضرة وهو ابراهيم بن أحمد ولد نحو سنة ٧٥٠ هـ (سنة ١٣٤٩ م) واخذ عن الاسنوي ولازم البلقيني ورحل الى الاذرعي بحلب وكان الاذرعي يعترف له بالاستحضار وشهد العماد الحسباني عالم دمشق بانه اعلم الشافعية بالفقه في عصره وكان يسرد الروضة حفظاً وانتفع به الطلبة ولم يكن في عصره من يستحضر الفروع الفقهية مثله ولم يخلفه من يقاربه في ذلك مات في سنة ٨٢٥ هـ (سنة ١٤٢١ م)

﴿ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ﴾

هو تقي الدين أحمد بن عليّ المقريزي البعلبكي الاصل المصري المسكن ولد سنة ٧٦٦ هـ (سنة ١٣٦٤ م) ونشأ بالقاهرة وتفقه على مذهب الحنفية ثم اتبع

المذهب الشافعي وما برح يضبط الوقائع ويكتب التاريخ الى ان توفي بالقاهرة سنة ٨٤٥ ﻫ وسنة ١٤٤١ م وعن حسن المحاضرة للسيوطي انه ولد سنه ٧٦٩ ﻫ (سنة ١٣٦٧ م) وتوفي سنة ٨٤٠ (سنة ١٤٣٦ م) . وقال ابن اياس في تاريخ سنة ٨٤٥ وفيها توفي الشيخ تقي الدين المقريزي المؤرخ والأصح انه توفي سنة ٨٤٦ﻫ لا في السنة المذكورة . وله مؤلفات كثيرة منها كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار طبع ببولاق في جلدين سنة ١٢٧٠ ﻫ وله كتاب السلوك في معرفة دول الملوك وهو تاريخ السلاطين من دولة المماليك بمصر والشام طبع في غوتنغن سنة ١٨٤٥ م وله تاريخ الاقباط طبع في المدينة المذكورة ايضاً تلك السنة وله رسالة في النقود الاسلامية طبعت في روستك سنة ١٧٩٧ م وفي القسطنطينية سنة ١٢٩٨ ﻫ وله رسالة اخرى في الاوزان والمكائيل الشرعية طبعت بروستك ايضاً سنة ١٨٠٠ م وله كتاب امتاع الاسماع في ستة مجلدات وكتاب الخبر عن البشر وكتاب تاريخ مقفى في تراجم اهل مصر والواردين اليها وكتاب مجموع الفوائد ومنبع العوائد وكتاب شذور العقود وكتاب المقاصد السنية في الاجسام المعدنية وكتاب البيان والاعراب بما بارض مصر من الاعراب طبع في غوتنغن سنة ١٨٤٧ م وكتاب التنازع والتخاصم في ما بين بني امية وبني هاشم طبع بلايدن سنة ١٨٨٨ وله ايضاً كتاب الالمام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام طبع بلايدن سنة ١٨٩٠ م وقد كتب العلامة دي ساسي الافرنسي ترجمة المقريزي بالعربية والافرنسية في كتاب سماه الانيس المفيد للطالب المستفيد طبع بباريس سنة ١٨٢٦ فهذه الكتب التي جاء ذكرها للمقريزي في كتاب اكتفاء القنوع بما هو المطبوع

وقد ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة وعزا اليه عدا بعض الكتب التي قدمنا ذكرها كتاب درر العقود الفريدة

في تراجم الاعيان المفيدة وربما كان كتاب تراجم اهل مصر والواردين اليها الذي ذكرناه آنفاً وعزا اليه ايضاً كتاب عقد جواهر الاسقاط من اخبار مدينة الفسطاط واتعاظ الحنفاء باخبار الفاطميين الخلفاء والتاريخ الكبير وغير ذلك ومما جاء في كتاب كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون صنف المقريزي المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار فاوعب واجاد .... وله تاريخ ملوك مصر وهو تاريخ كبير مقفى في تراجم اهل مصر والواردين اليها قال صاحب النجوم الزاهرة لو كمل هذا التاريخ على ما اختاره لجاوز الثمانين مجلدًا وله كتاب عقد جواهر الاسقاط من اخبار مدينة الفسطاط وكتاب اتعاظ الحنفاء باخبار الخلفاء وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر وما كان في ايامهم من الحوادث مذ فتحت الى ان زالت الدولة الفاطمية والف السلوك لمعرفة دول الملوك في ذكر من ملك بعدهم من الاكراد والاتراك والجراكسة وما وقع في ايامهم وقد وضع جمال الدين يوسف بن تغري بردي تلميذ المقريزي ذيلاً على كتابه السلوك وسماه حوادث الدهر انتهى تلخيص كلام صاحب كشف الظنون الذى اوردناه على سبيل الشرح لبعض كتب المقريزى

﴿ محمود العيني ﴾

ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة فقال هو قاضي القضاة بدر الدين محمود بن احمد ... العيني ولد في رمضان سنة ٧٦٢ ه (سنة ١٣٦٠ م) وتفقه واشتغل بالفنون وبرع ومهر ودخل القاهرة وولى الحسبة مرارًا وقضاء الحنفية وله تصانيف منها شرح البخارى وشرح الشواهد وشرح معاني الآثار وشرح الهداية وشرح الكنز وشرح المجمع وشرح درر البحار وطبقات الحنفية وغير ذلك ومات في ذى الحجة سنة ٨٥٥ ه (سنة ١٤٥١م) وذكر صاحب كشف الظنون ان له كتاب عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان وقال انه اشتمل على تسعة عشر مجلدًا وعن كتاب اكتفا القنوع بما هو

المطبوع انه جمع فيه تاريخ الناس من بدء العالم الى سنة ٨٥٠ ﻫ (سنة ١٤٤٦ م) مع وفيات الاعيان وقال ان هذا التاريخ لم يطبع بعد ولكن طبع كتابه عمدة القارى في شرح صحيح البخارى في القسطنطينية سنة ١٣١٠ ﻫ في احد عشر جزءًا وطبع كتابه شرح كنز الدقائق لعبد الله النسفي (المتوفى سنة ١٣٠١ ﻫ) ببولاق سنة ١٢٨٥ﻫ في جزئين ويعول عليه في التدريس وطبع كتابه المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية (اي الفية بن مالك) ببولاق سنة ١٢٩٩ على هوامش خزانة الادب . وله لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي وعن كشف الظنون ان كتاب معاني الآثار الذي شرحه العيني كما مر هو لأبي جعفر الطحاوي في الناسخ والمنسوخ وتأويل العلماء وكتاب الهداية لشيخ الاسلام برهان الدين المرغيناني الحنفي في الفقه ولهذا الكتاب شروح كثيرة جدًّا غير شرح العيني وكتاب المجمع هو مجمع البحرين وملتقى النهرين في الفقه للامام مظفر الدين احمد المعروف بابن الساعاتي البغدادي الحنفي المتوفى سنة ٦٩٤ﻫ (وسنة ١٢٩٤ م) واما كتاب درر البحار فهو منظومة في الفروع نظمها ابن العيني في اربعة آلاف ومائة وستة وخمسين بيتاً ثم شرحها . انتهى ما لخصناه عن كشف الظنون . وقد اشرنا قبلا الى المداعبة التي كانت بين العيني وابن حجر

﴿ ابو المحاسن ابن تغري بردي ﴾

ولد بمصر سنة ٨١٢ ﻫ (سنة ١٤٠٩ م) وتوفي سنة ٨٧٤ ﻫ (وسنة ١٤٦٩ م) وله كتاب في التاريخ سماه النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ضمنه تاريخ مصر من سنة ٣٦٠ ﻫ (وسنة ٩٧١ م) الى سنة ٨٥٧ ﻫ (سنة ١٤٥٣ م) اي من دخول ابناء عبيد الله العلويين الى مصر الى ملك آل عثمان في القسطنطينية وقد طبع كتابه هذا في لايدن سنة ١٨٥٢ م وله ايضاً كتاب سماه مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة طبع في كمبروج سنة ١٨٩٢ وذكر صاحب كشف

الظنون كتابه النجوم الزاهرة فقال بدأ فيه بولاية عمرو بن العاص الى الدولة الاشرفية وهذا تاريخ كبير مرتب على السنين الى زمانه وذكر من ولي مصر من السلاطين والنواب في كل سنة مبسوطاً وذكر ملوك الاطراف والوقائع ومن توفي من الاعيان والعلماء والملوك الخ ولما فتح السلطان سليم الديار المصرية وحبر هذا التاريخ واستحسنه فأمر بترجمته الى التركية فترجم ولخص المصنف كتابه وسماه تلخيصة الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة وذكر انه اختصره لئلا يختصره غيره على تبويبه وفصوله

❊ تقي الدين الشمني ❊

هو الامام تقي الدين ابو العباس احمد الشمني ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة وبالغ في مدحه واوصافه فقال هو قدوة عين الزمان وانسانها وواحد عصره في العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها وشجرة المعارف التي طاب اصلها فزكت فروعها واغصانها ورياض الاداب التي فاضت ينابيعها وفاحت زهورها وتنوعت افنانها وغير ذلك من الاطراء ولد بالاسكندرية سنة ٨٠١ هـ (سنة ١٣٩٨ م) وقراء الفنون على اعيان العلماء وانتفع به الخلق وصنف حاشية على المغني وحاشية على الشفاء وشرح كتابه النقاية في الفقه وشرح نظم النخبة لابيه وارفق المسالك لتادية المناسك وطلب لقضاء الحنفية فامتنع ومات في ذي الحجة سنة ٨٧٢ هـ (وسنة ١٤٦٧ م) وجاء في كشف الظنون ان كتاب المغني الذي وضع الشمني الحاشية عليه هو مغني الليب عن كتب الاعاريب لابن هشام الانصاري النحوي وسمى الشمني حاشيته عليه المنصف في الكلام على مغني ابن هشام واما كتاب الشفا فهو للامام الحافظ ابي الفضل عياض المتوفي سنة ٥٤٤ هـ (سنة ١١٤٩ م وعنوانه شفا في تعريف حقوق المصطفى وسمى الشمني حاشيته عليه مزيل الخفا في ضبط الفاظ الشفا واما كتابه النقاية فهو للامام عبيدالله

بن مسعود الحنفي المنوفي سنة ٧٤٥ ﻫ (سنة ١٣٤٤ م) وعنوانه نقاية مختصر الوقاية وقد أجاد الشمني وبالغ في ايجازها وشرحها وسمى شرح الفاظ الشفا الدراية في شرح النقاية ويظهر لي ان نظم النخبة وارفق المسالك كتابان لابيه كمال الدين محمد التميمي وقد رثى جلال الدين السيوطي تقي الدين الشمني بقصيدة طويلة من ابياتها

رزء عظيم به تستنزل العبرُ وحادثٌ جلَّ فيه الخطب والغيرُ
رزء مصاب جميع المسلمين به وقلبهم منه مكلومٌ ومنكسرُ
ما فقد شيخ شيوخ المسلمين سوى انهدام ركن عظيم ليس ينجبرُ
اذ كان في كل علم آية ظهرت وما العيان كمن قد جاءه الخبرُ
حياتك الحق في الدارين ثابتةٌ ما العالمون باموات وإن قبروا
هم الأولى تشرق الدنيا ببهجتهم لا شمسها وابو اسحق والقمرُ

﴿ محمد السخاوي ﴾

هو محمد بن عبد الرحمان السخاوي الشافعي ولد بسخا في ارياف مصر سنة ٨٣١ ﻫ (سنة ١٤٢٧ م) وتوفي سنة ٩٠٢ ﻫ (سنة ١٤٩٦ م) وهو من تلامذة ابن حجر العسقلاني وله من الكتب التبر المسبوك في ذيل السلوك وهو تتمة لكتاب المقريزي المعنون السلوك في معرفة الملوك وقد قدمنا ذكره وشرع في نشره شارل كلياردو بك ملحقاً بمجلة مصر التي هو مديرها

﴿ الشيخ شمس الدين القادري ﴾

هو محمد بن ابي بكر بن نجيب الانصادي القادري ذكره السيوطي في كتابه حسن المحاضرة واكثر من الثناء عليه ومما قاله ولد سنة ٨١٥ﻫ (سنة ١٤١٢) واشتغل بالعالم على جماعة من الشيوخ مع ذكاء مفرط وقال الشعر واكثر وبرع في فنون الادب نظماً ونثراً وهو الآن شاعر الدنيا على الاطلاق لا يشاركه في طبقته احد مات في جمادى الاولى سنة ٩٠٣ ﻫ (سنة ١٤٩٧ م) وذكر من شعره

قصيدة طويلة مطلعها

شجاك بربع العامرية معهدُ　　به انكرت عيناك ما كنت تعهدُ

وقد غالى بها بمدح جلال الدين السيوطي الى ان قال

فخذها جلال الدين بالمدح كاعباً　　لها جيدُ حسن بالنجوم مقلَّدُ

ولا تبتئس من قول واشٍ وحاسدٍ　　فما برحت اهل الفضائل تحسدُ

ومن لحظت مسعاه عينُ عنايةٍ　　فطرف اعاديه مدى الدهر ارمدُ

باخلاصهم لا الهجو يوماً يسؤهم　　ولا سرهم مدح الذي راح يحمدُ

وهذا اعتقاد المؤمنين أولي النهى　　فلا يكُ في هذا لديك تردُّدُ

وقد بالغ ابن اياس ايضاً بمدح القادري وقال انه شيخه واستاذه

القسم الثاني

﴿ في تاريخ سورية الديني في القرن الخامس عشر ﴾

الفصل الاول

﴿ في بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن ﴾

﴿ عد ٩٤٣ ﴾

﴿ في بطاركة انطاكية في القرن الخامس عشر ﴾

فرغنا من كلامنا على هولاء البطاركة في القرن الرابع عشر بذكر ميخائيل الذي كان في ايام تيمورلنك الغازي وقلنا انه يظهر من الجدول الذي وضعه العلامة

السمعاني لبطاركة انطاكية ان ميخائيل المذكور خلفه بوخوميوس ثم مرقس ثم يواكيم ولا نعلم غير ذلك من تاريخ هولاء البطاركة الذين كانوا في الثلث الاول من هذا القرن بيد انا نعلم علماً اكيداً ان دوروتاوس الاول البطريرك الانطاكي كان في ايام المجمع الفلورنسي الذي عقد سنة ١٤٣٣ واستمر الى سنة ١٤٤٣ وناب عنه في هذا المجمع ايسيدوروس مطران كيوفيه ووقع على اعمال هذا المجمع هكذا ٠ ايسيدوروس اسقف كيوفية وروسيا كلها بالنيابة عن دوروتاوس البطريرك الانطاكي الكلي القداسة ٠ وقد ادعى مرقس مطران افسس الذي اعتزل عن المجمع قبل نهايته وابدى الشغب المشهور أنه كان نائباً عن البطاركة فيلاتوس الاسكندري ودوروتاوس الانطاكي ٠ يواكيم الاورشليمي في نبذ ما تقرر في المجمع الفلورنسي على ان البطاركة الاسكندري والانطاكي والاورشليمي كانوا سنة ١٤٦ يودون الخضوع للكرسي الروماني اذ روى يوحنا كوبالنيوس في كتابه في اعمال البابا بيوس الثاني ان هولاء البطاركة اوفدوا الى هذا البابا موسى رئيس شمامسة كنيسة انطاكية المشهور بعلومه اليونانية والسريانية مقرين بسلطة الحبر الروماني العامة وبما رسم في المجمع الفلورنسي فقبل البابا سفيرهم بالتكريم واجاب البطاركة برسالة لاتينية وامر ان تحفظ نسخة عنها في خزائن الكنيسة الرومانية

وجاء في الجدول الفاتيكاني ان دوروتاوس الاول المذكور خلفه مرقس اسقف صيدنايا وسمي ميخائيل وجاء في جدول السمعاني اسم ميخائيل ومرقس فقال لكوييان ان ميخائيل ومرقس واحد فذكر السمعاني مرقس بعد ميخائيل سهواً وذكر في الجدول الفاتيكاني بعد ميخائيل توادوروس الخامس ثم ميخائيل الرابع ثم دوروتاس الثاني ثم ميخائيل الخامس ثم دوروتاوس الثالث والذي في جدول السمعاني انه بعد ميخائيل ومرقس المار ذكرهما عنه ترقى الى الكرسي الانطاكي يواكيم ثم غريغوريوس ثم ميخائيل (هو الموصوف بالرابع في الجدول الفاتيكاني)

ثم دوروتاوس (الثاني) ثم ميخائيل (الخامس) ثم دوروتاوس (الثالث) فالفرق بين الجدولين ان الجدول الفاتيكاني لم يذكر مرقس ولا يواكيم اللذين ذكرهما السمعاني ومن سمي توادروس في الجدول الفاتيكاني سماه السمعاني غريغوريوس واتفق الجدولان في باقي من ذكر فيهما من البطاركة وأما في اية سنة كان ترقي كل من هولاء البطاركة وفي اي سنة توفي كل منهم وما كانت أعمالهم واذا كانوا متحدين بالكرسي الروماني او مخالفين له كل ذلك غامض لا نعلم شيئاً منه واذا كان العلامتان لاكويان والسمعاني لم يتيسر لهما أن ينبئانا بشيء من ذلك وهما بمكاتب اوربا المفعمة بالكتب من كل نوع وبكل لغة فانى لنا نحن الذين لاتصل يدنا الاَّ الى قليل من الكتب ان نتحف قرآءنا بما عزَّ على العلامتين المذكورين التوصل اليه والذي نظنه ان البطاركة الذين اشرنا اليهم دبروا كنيسة انطاكية في هذا القرن وربما ادرك بعضهم القرن السادس عشر كما سوف ترى في تاريخ هذا القرن

عد ٩٤٤

في بطاركة اورشليم في القرن الخامس عشر

فرغنا من كلامنا على هولاء البطاركة في القرن الرابع عشر في ذكر توافيلوس الثاني ابن روزيتاوس وجاء في كتاب دوروتاوس في بطاركة اورشليم (فصل ٣٣) ان توافيلوس خلفه توافان وانه صير بطريركاً سنة ١٤٣٠ وان بلسامون البطريرك الانطاكي كتب اليه جواباً فبلسامون البطريرك الانطاكي كان قبل هذا العصر بمدة مديدة ولم يكن في هذا العصر بطريرك في انطاكية يسمى بلسامون الا ان يكون اصحابه سموه بلسامون تفاؤلاً بهذا الاسم الشهير والذي كان يدبر كنيسة انطاكية حينئذٍ انما هو دوروتاوس ونعلم ان ميخائيل بلسامون رافق البطريرك القسطنطيني الى المجمع الفلورنسي ووقع على مرسوم الاتحاد ثم نكل عنه لكن

ميخائيل هذا لم يكن بطريركاً انطاكياً وقد يكون بطريرك انطاكية حينئذٍ من اسرة بلساءون

وصير بعد توافان يواكيم بطريركاً على اورشليم وكان بطريركاً حين انعقاد المجمع الفلورنسي وناب عنه فيه مرقس الافسي وروزيتاوس اسقف بوغباسية كما يظهر من توقيع هذا الاخير على مرسوم الاتحاد ولم يقبل يواكيم ان يكون التوقيع باسمه بل نبذ كل ما كان في هذا المجمع واتفق مع بطريركي الاسكندرية وانطاكية وكتبوا الى الملك يوحنا رسالة هددوه بها بالحرم ان لم يرعوِ عن الاتحاد وقد أثبت هذه الرسالة لاون ألاتيوس باليونانية مع ترجمتها اللاتينية في ك ٣ في اتفاق الكنيستين فصل ٤

وخلف توافان الثالث يواكيم المذكور وقد ذكره لاون آلاتيوس في المحل المذكور وروى انه شهد مجمعاً عقد بالقسطنطينية لنقض الاتحاد الذي كان قد تقرر في المجمع الفلورنسي وتوقيع توافان ظاهر في اعمال هذا المجمع القسطنطيني وذكر روزيتاوس هذا المجمع (في ك ١ في تاريخه لبطاركة اورشليم فصل ٦) وقال ان توافان خليفة يواكيم شهره وصير بعد توافان ابراهيم ثم يعقوب الثالث ثم مرقس الثالث ولا ذكر في كتبَ الروم لهولاءُ البطاركة الثلاثة ربما لمتابعتهم الحبر الروماني ولكن ذكرهم بابيركيوس في مقدماته على المجلد الثالث من اعمال القديسين في شهر آيار فقال انهم كانوا في القرن الخامس عشر نقلاً عن توادوريكوس باولي الذي كان في هذا القرن وان ابراهيم كان شديد التعلق بالايمان القويم ورقى الى بطريركية اورشليم في ايام البابا بيوس الثاني وانتقل الى دار البقاء سنة ١٤٦٨ وهو على ما اظن الذي اتفق مع بطريركي الاسكندرية وانطاكية فارسلوا وفدًا الى بيوس الثاني رأسه موسى رئيس الشمامسة في كنيسة انطاكية وارسلوا اليه رسالة صرحوا بها انهم مذعنون لمراسيم المجمع الفلورنسي وسالوه ان يعنى اللاتينيون

بانقاذ نصارى المشرق وقال فيذلك يوحنا كوبالينوس (في كتابه ٤ في بيوس الثاني) ان هولاء البطاركة الاسكندري والانطاكي والاورشليمي وغيرهم من الامراء المسيحيين ارسلوا اولاً وفداً الى البابا اوجانيوس في المجمع الفلورنسي وتابعوا الكنيسة اللاتينية على الاقرار بانبثاق الروح من الاب والابن وبالمطهر الخ ولكن لما كتب مرسوم الاتحاد نكلوا عن اقرارهم وابوا قبوله بسعي زارعي الزوان ثم ارعووا وعادوا الى الصواب وتفاوضوا مع رعاياهم وارسلوا وفداً برئاسة موسى الانطاكي الى الحبر الروماني فقبلهم بالترحاب وترجم موسى المذكور رسائلهم الى البابا الى اللاتينية فامر البابا ان تحفظ في خزائن الكنيسة الرومانية وصرفهم مسرورين شاكرين انتهى ما رواه يوحنا كوبالينوس . واما يعقوب الثالث فقال في حقه توادوريكوس باولي المذكور انه كان عالماً بالاسفار المقدسة وخلف ابراهيم المذكور وجدد كنيسة القبر المقدس باجازة من السلطان الذي كان حينئذٍ وفي ايام هذا البطريرك اخذ سلطان الاتراك قسماً من بلاد العرب فارسل البطريرك راهباً الى اوروبا يجمع حسنات ليفي الجزية المضروبة على الاديار ولا سيما دير القديسة كاترينا في جبل سينا ثم توفي هذا البطريرك سنة ١٤٨٢ . واما مرقس الثالث فذكره توادوريكوس ايضاً بعد يعقوب وقال انه كان يوقع اسمه هكذا « مرقس الكاثوليكي برحمة الله مطران بيت لحم وبطريرك اورشليم المقدسة وسورية والعربية وعبر الاردن والظاهر من ذلك ان هؤلاء البطاركة الثلاثة كانوا كاثوليكيين خاضعين للكرسي الروماني

وروى دوزيتاوس (في ك ٧ من تاريخه فصل ٢٢) انه بعد ذلك صير غريغوريوس الثالث بطريركاً ودبر كنيسة اورشليم ستاً وثلاثين سنة. انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للعلامة لكويان في كلامه على بطاركة انطاكية واورشليم

الفصل الثاني

﴿ في بعض المشاهير الدينيين في القرن الخامس عشر ﴾

﴿ عـدد ٩٤٥ ﴾

﴿ في نوح البقوفاوي بطريرك اليعاقبة ﴾

وضع العلامة السمعاني ترجمة نوح هذا (في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية صفحة ٤٦٨) فقال ما ملخصه ولد نوح هذا سنة ١٤٥١ ببقوفا من قرى لبنان (ترى اخربتها بين اهدن وبشري ويظهر انه لما اضل اليعاقبة بعض الموارنة من سكان هذه القرية كما سيجي كان نوح في جملة هولاء) فصيره اليعاقبة اسقفاً على حمص وعلى سائر اليعاقبة المتوطنين بفونيقى وفي سنة ١٤٩٠ م جعله يوحنا برسيلا مفريانا (جاثليقاً) في المشرق ثم توفي يوحنا البطريرك المذكور فخلفه وصار بطريركاً على اليعاقبة سنة ١٤٩٤ م

ومن تاليفه كتاب اشتمل على ثماني وستين قصيدة سريانية مثبتة في الكتاب الخامس والاربعين من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية منها ثلث قصائد في جبل لبنان وثلث قصائد في نفسه وقصيدتان في مولده حيث يقول انه ولد سنة ١٧٦٢ لاسكندر توافق سنة ١٤٥١ كما ذكرنا وثماني قصائد في رهبان جبل لبنان

وكتب بالعربية ثلث مقالات ذكرناها في كلامنا على يعقوب البردعي عدد ٦٦٢ وابنا هناك اعتماداً على شهادة العلامة السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٦٧ ان هذه المقالات ليست ليعقوب البردعي بل هي لكاتب متأخر عنه كثيرًا ولم يبين السمعاني في المحل المذكور اسم كاتبها لكنه صرح بذلك في كلامه على نوح

هذا فقال ان هذه المقالات الثلث اولاها في تعليم اليعاقبة اي معتقدهم وثانيتها تقريظ لليعاقبة عنوانه خطبة في ايمان السريان وثالثها خطبة في بشارة العذراء الطوباوية وهي لنوح البقوفاوي والذي جعلني اعتقد ذلك انما هو ما عثرت عليه في الكتاب الثلاثين من الكتب السريانية التي اتى بها اندراوس اسكندر الكاهن الماروني الى المكتبة الواتيكانية حيث قال نوح عن نفسه في صفحة ١٣٣ منه (ما ترجمته عن السريانية) كمل كما وجدت صلوا على حقارتي في يوم الثلثا الحادي عشر من نيسان نحو الساعة التاسعة منه سنة ١٨١٩ يونانية (الموافقة سنة ١٥٠٨ م) بمدينة حلب كتبه نوح الخاطي) . وقد كتب في صفحة ١٤٢ انه هو مؤلف الخطبة في بشارة العذراء وهذا ما كتبه بالعربية (ميمر قاله نوح في الموصل سنة ١٨٠٣ يونانية (سنة ١٤٩٤ م) من اجل معاندين مريم والدة الله ولم يعملون عيد البشارة المجيد) وفاتحة هذه الخطبة (« بسم الاب البسيط والابن الوسيط والروح الفارقليط) وهذه الخطبة هي الخطبة نفسها المعزوة الى يعقوب البردعي في الكتاب الذي بمكتبة مدرسة الموارنة برومة كما تاكدت بمعارضة الخطبتين وعليه فلا صحة لنسبتها الى البردعي على ان النفس في هذه الخطبة وفي المقالتين الاخريين هو واحد والعبارة واحدة وهذا يثبت ان المقالات الثلث لنوح البقوفاوي نفسه وقد ابنت ذلك هنا لاني في كلامي على يعقوب البردعي انكرت ان تكون هذه المقالات الثلث له ولم اعين مؤلفها بل تركته نكرة فصرحت الان بما عثرت عليه حديثاً انتهى تلخيص كلام السمعاني وجاء في الكتاب الثلاثين المذكور من صفحة ١٣٨ فصاعدًا تاريخ موجز لنوح المذكور ضمنه اخبار ما كان من الاحداث في المشرق ولا سيما في الجزيرة (ما بين النهرين) الى ايامه اي الى سنة ١٨٠٧ يونانية الموافقة سنة ١٤٩٦ للميلاد وقد ذكر السمعاني في صفحة ٤٦٩ من المجلد المذكور تاريخ نوح هذا الموجز وذيل بعضه بحواش فمن شاء الوقوف عليه فليطالعه في المحل

المذكور ولم ينبئنا السمعاني فى اية سنة توفى نوح هذا ويظهر من تاريخه لكتابته تعليم اليعاقبة سنة ١٥٠٨ كما مر انه مات بعد تلك السنة

عــد ٩٤٦

الاخ (فرا) غريفون

نلخص ترجمة هذا العالم الفاضل عما كتبه الاب هنري لامنس اليسوعي الكاتب المجيد في المجلة المشرق في العدد الاول وما يليه من السنة الاولى لهذه المجلة التي هي سنة ١٨٩٧ لم يكن الاخ غريفون سورياً ولا شرقياً ايضاً لكنه كان فلمنكياً او بلجيكياً صرف سنين متطاولة في سورية ولبنان عند الموارنة خاصة وله ايادي على الدين والعلم في هذه البلاد ولا نعلم سنة مولده بالفلمنك ويقدر انها في اوائل هذا القرن الخامس عشر وقد انضوى الى رهبانية القديس فرنسيس الاسيزي في فرعها المعروف بالدريين ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره حاز في بريس رتبة الملقات في اللاهوت واقام يدرس هذا العلم السامي في مدرسة بريس الكاية سبعة اعوام فكسب من الشهرة ما راعه لاتضاعه فغادر هذه المدرسة ليتملص من المدح العالي وزار معابد رومة ثم طلب الانتقال الى فرع اخر من رهبان القديس فرنسيس المعروفين بالاصغرين المحافظين ليقضي حياته بينهم خامل الذكر بعيدًا عن العالم ولكن حامل المسك لا تخفى روائحه فلم يعتم رؤساؤه واخوته الرهبان ان كشفوا عن كنز علمه فامره روساؤه ان يدرس علم الكتاب المقدس فاذعن طائعاً واتم ما عهد اليه به مدة قائماً به احسن قيام لكنه كان هائماً بالسفر الى فلسطين ومشاطرة اخوته بها اتعابهم وجهادهم وكان في تلك المدة عقد المجمع الفلورنسي وغاية البابا اوجانيوس الرابع برد الشرقيين المنفصلين عن مركز وحدة الايمان اليه وعرف غريفون باتحاد الروم في هذا المجمع وارسال الارمن وفدًا الاعتراف بالايمان وارتجاع بعض اليعاقبة وارسال البطريرك يوحنا الجاجي بطريرك الموارنة

الاخ يوحنا رئيس رهبان القديس فرنسيس ببيروت ليطلب له التثبيت من لدن الحبر الروماني ويعرض له ان البطريرك وامة الموارنة جميعاً يقرون بكل ما يقرره المجمع فزاد هيام الاخ غريفون بالتوجه الى سورية فنال ما تمناه

وفي اواخر سنة ١٤٤٢ أو اوائل السنة التالية وصل الاخ غريفون الى فلسطين وشرع يزور معابدها التي قد وضعها بكتاب وسمه بدليل الارض المقدسة ثم اقام باورشليم بدير جبل صهيون وقد روى البطريرك اسطفانوس الدويهي مرات انه كان حينئذٍ في اورشليم جماعة من الموارنة وقد جاء في كتاب روهريش الالماني الذي زار اورشليم في تلك الايام ذكر موارنة (Rohricht) مقيمين في كنيسة القيامة (صفحة ٩٢ في كتابه المذكور) وكان الكرسي الرسولي قد عين في تلك المدة انطون طروبه من رهبان القديس فرنسيس وكيلاً او قاصدًا له عند نصارى المشرق ولا سيما اهل جبل لبنان فعاد انطون الى رومة سنة ١٤٤٤ يصحبه وفد من الموارنة رحب بهم الحبر الروماني واقام حينئذٍ الحبر الاعظم بطرس دي فرارا من دير الفرنسيسيين في بيروت وكيلاً رسولياً لدى الموارنة والسريان وفي سنة ١٤٥ نقل الاخ غريفون الى اديار رسالتهم في جبل لبنان فاقام في بيروت مدة ويظهر انه كان رئيس ديرهم الذي كان بجانب كنيسة المخلص المبنية على آثار البيت الذي حدثت به اية الصليب التي ذكرناها قبلاً ونظن ان هذا الدير هو ديرهم المعروف بهذه المدينة الذي غادروه من سنوات قليلة واقاموا حيث هم الآن في حي الجميزة ثم تخلى الاخ غريفون عن تدبير مهام الدير ليهتم بالتعليم والارشاد ثم يمم لبنان ومعه الاخ فرنسيس البرشلوني وكان بطريرك الموارنة حينئذٍ يعقوب الحدثي الذي توفاه الله سنة ١٤٥٨ وكان الاخ غريفون قد تعلم اللغتين العربية والسريانية فكلفه البطريرك ان يعظ ويعلم عند الموارنة ففانى في الاجتهاد على ذلك وقد غالى مرقس الاشبوني بذكر جهاد فرا غريفون في انذار

الموارنة حتى زعم انه صنع آية لم يصنع مثلها وهي انه رد الشمس من المغرب الى المشرق وبهذه الآية رد الموارنة الى الايمان القويم وتلك حكاية عدها العلماء بين الاقاصيص وردها البطريرك الدويهي في كتاب رد التهم والبطريرك بولس مسعد في الدر المنظوم والاب لامنس ايضاً في ترجمة فرا غريفون ولا نراها نحن تستحق العناية بالرد

وبعد وفاة البطريرك يعقوب الحدثي صير بطرس بن حسان بطريركاً على الموارنة كما سيجي فارسل فرا غريفون ومعه اثنان من رهبانه الاخ سمعان والاخ اسكندر الى رومة واصحبهم برسائل مشتملة على ابداء طاعته وطاعة امته للكرسي الرسولي وطلب تثبيته في البطريركية فوصل فرا غريفون ورفيقاه الى المدينة العظمى سنة ١٤٦٩ وكان الحبر الروماني حينئذٍ بولس الثاني ترحب بوفد الموارنة واثبت البطريرك وكتب فرا غريفون من رومة الى الموارنة رسالة سوف نثبتها بالملحق في تاريخ الموارنة الملحق باخر هذا الباب وعاد غريفون الى لبنان حاملاً براءة التثبيت للبطريرك بطرس المذكور ووهم بعض المؤرخين ان البابا صير فرا غريفون بطريركاً على الموارنة ورد الاب لامنس نفسه هذا الوهم بل انتقد ايضاً قول البطريرك الدويهي ان الاخ غريفون صير بطريركاً على اورشليم مبيناً ان الكردينال ساريون الآتي ذكره كان حينئذٍ بطريرك اورشليم شرفاً ورجح الاب لامنس ان قول القائل ببطريركية غريفون على الموارنة ليس الا مبالغة يراد بها فرط عنايته بالموارنة وهذا راى كوارسميوس (في كتابه وصف الارض المقدسة) او ان الحبر الروماني جعله نائباً رسولياً عند الموارنة وهذا هو الاظهر والامثل عندنا

ورأى غريفون بين الموارنة شابين امتازا ذكاء وفضيلة اسم احدهما يوحنا والآخر جبرائيل القلاعي اللحفدي فادخلهما في سلك رهبان القديس فرنسيس وارسلهما الى البندقية ثم لرومة لاقتباس العلوم البيعية وعاد الى المشرق ورقى

البطريرك سمعان الحدثي جبرائيل اللحفدي اسقفاً على الموارنة بقبرس واما يوحنا فاستأثرته المنية بعيد عودته واعتمد لامنس في ذلك على تاريخ الدويهي وسوف نذكر ترجمة الاسقف جبرائيل القلاعي في تاريخ القرن السادس عشر

وروى الاب لامنس ان غريفون رقي الى الاسقفية وانه بقي على ما كان عليه قبلها من الزهد والنسك والمحافظة على نذر الفقر سائرًا على مثال القديسين ولم تشغله فروض اسقفيته عن تأليف الكتب فصنف كتباً كثيرة وترجم عدة كتب ولم يبقَ من تآليفه الا كتابان الاول مدائح مريم والثاني وصف الارض المقدسة وعزا اليه الدويهي ميمر في فتوح السلطان محمد الثاني القسطنطينية ثم ان طعن غريفون بالسن لم يوهن عزيمته فلما رأى انتظام الحال في لبنان في هذه المدة عزم ان يسير الى بلاد العجم اذ سمع ما كان يومئذٍ من المخابرات بين الكرسي الرسولي ودولة العجم في شان نشر المذهب الكاثوليكي في تلك البلاد وكان الاحبار الرومانيون قد تحققوا مخبرته بحالة المشرق وعادات اهله ومعرفته بلغتهم فاوفده البابا سيستوس الرابع وسافر من بيروت بحرًا ومعه الاخ فرنسيس البرشلوني المذكور فاصابه مرض ارغمه على النزول في فاغوستا بقبرس فقضي اجله في دير رهبانه بالمدينة المذكورة في ١٨ تموز سنة ١٤٧٥

عد ٩٤٧

في الكردينال بساريون وتوادوروس غارا

ولد هذا العلامة المشهور في طرابيزند سنة ١٤٠٣ وفي رواية أخرى سنة ١٣٩٥ وكان اولاً راهباً في رهبانية القديس باسيليوس ودرس العلوم وتفقه بالفلسفة خاصة في احد اديارهم بالمورة ولما عزم الملك يوحنا باليولوغوس على العناية باتحاد الكنيسة اليونانية بالكنيسة اللاتينية استأتى بساريون من ديره وجعل بطريرك القسطنطينية يرقيه الى اسقفية نيقية فرقاه اليها سنة ١٤٣٨ واخذه الملك بصحبته

الى ايطاليا ومعه عدة من العلماء ولما حصل الاتفاق والاتحاد صير البابا اوجانيوس الرابع بساريون كردينالاً سنة ١٤٣٩ مكافاة لغيرته وعنايته بالاتحاد ولما نكث الروم عهد اتحادهم واستمر بساريون متمسكاً به ابغضه الروم شديد البغض فلم يشا العود الى بلاده بل اقام برومة حيث كان محله موعد العلماء والادباء والفضلاء واولاه البابا بيوس الثاني لقب بطريرك القسطنطينية وفي رواية اخرى لقب بطريرك اورشليم سنة ١٤٦٣ وبعد وفاة البابا نيقولاوس الخامس وبولس الثاني رشحه كثيرون من الكرادلة للحبرية العظمى وقد عهد اليه الكرسي الرسولي بمهام كبرى باوربا وقد توفي في رافنا في ايطاليا سنة ١٤٧٢ وقد الف الكردينال بساريون كتباً كثيرة حسبها العلماء في جملة الكتب التي عاونت على احياء درس العلوم بعد اندراسها وقد احيت كتبه الفلسفية بايطاليا الانصباب على درس فلسفة افلاطون فقد الف اربعة كتب رد بها مطاعن بعض العلماء بكتب افلاطون وطبعت هذه الكتب بباريس سنة ١٤٦٩ وترجم الى اللاتينية اربعة كتب لكسنوفون في سقراط طبعت بلوفان سنة ١٥٣٣ وله ترجمة لاتينية لكتب ارسطو في ما بعد الطبيعة طبعت بباريس سنة ١٥١٦ وله خطب في الانتصار لنصارى المشرق طبعت بباريس سنة ١٤٧٦ وله مقالات لاهوتية لم تطبع وقد طبعت له مقالة في سر الافخارستيا في مكتبة الابا وقد اشهر الاب مين اكثر تاليفه في جملة مكتبة الآباء الذين كتبوا باليونانية وله رسائل ردود على بعض اساقفة الروم الذين كانوا يأبون اتحاد كنيستهم بالكنيسة الرومانية او نكثوا الاتحاد بعد صيرورته وبالجملة كان بساريون من اشهر علماء القرن الخامس عشر وكان صديقاً ومحامياً عن كثيرين منهم نخص بالذكر منهم جرجس الطرابزندي وتوادوروس غاژا الاتي ذكره واندراوس التسالونيكي ومن اللاتينيين بلوندس دفالر من فيترب وليونر اداتين وغيرهم

﴿ توادوروس غازا ﴾

ولد في سالونيك سنة ١٤٠٠ وسار الى ايطاليا بعد ان اخذ الاتراك مدينتهم سنة ١٤٢٩ وعلم اللغة اليونانية في فلورنسا وفرارا وألّف هنـاك منتدى علمياً ثم استدعاه البابا نيقولاوس الخامس الى رومة فانضم الى الكردينـال بساريون ومن مؤلفاته غرامطيق اي كتاب نحو اللغة اليونانية بهذه اللغة انتشر كثيرًا في القرن الخامس عشر واذاعه اراسموس مع ترجمة لاتينية له في بال سنة ١٥٢١ ثم في باريس سنة ١٥٢٩ وله ايضاً ترجمات لكثير من كتب شيشرون الخطيب الروماني الى اليونانية الى غير ذلك من التصانيف

الفصل الثالث

﴿ في اخص الاحداث الدينية في هذا العصر اي اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية ﴾

﴿ عـد ٩٤٨ ﴾

﴿ في ما كان بهذا الشان قبل القرن الخامس عشر ﴾

ذكرنا في تاريخ القرن التاسع الخلاف الذي كان بالقسطنطينية بين القديس اغناطيوس بطريرك هذه المدينة حينئذٍ وبين فوتيوس وتغلب هذا على البطريركية خلافاً لاوامر الحبر الروماني ونبذ فوتيوس الطاعة له وتعليمه بعضما يخالف تعليم الكنيسة الرومانية وكان هذا مبدأ الانقسام البـاقي الى الآن ولمـا ترقى البطريرك ميخائيل شيرولاوس الى كرسي القسطنطينية في القرن الحادي عشر عظم الخلاف وانبسط الانقسام ولكن لما ملك بلدوين القسطنطينية وتبعه غيره من الملوك اللاتينيين

من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١ خمدت جذوة الخلاف قليلاً لكنها ما برح لها وميض وحالما استرد الملك ميخائيل بالالوغوس القسطنطينية من الملوك اللاتينيين عاد الخلاف الى ما كان عليه قبلاً بيد ان هذا الملك راى ان مملكته مشرفة على السقوط بايدي المسلمين فعزم ان يعتصم بموالاة اللاتينيين ويتفق معهم من جهة الدين ايضاً ليتحقق مناصرتهم له فاوفد الى البابا غريغورس العاشر يوحنا احد رهبان القديس فرنسيس واصحبه برسالة صرح بها للحبر الروماني بانه يرغب مع سودية في ان يرجعوا الى الاتحاد بالكنيسة الرومانية والاقرار بايمان واحد وكتب ايضاً الى القديس لويس التاسع ملك افرنسة ليعاونه على هذا الاتفاق بين الكنيستين الرومانية والرومية فالحبر الروماني لهيامه بهذا الاتحاد ارسل حالاً الى الملك اربعة كهنة من قبله ليداولوه بما يريده من طريقة الرجوع وارسل معهم دستور الايمان الذي يلزم الملك واساقفة الروم ان يعترفوا به عند حصول الاتفاق وعرض على الملك عقد مجمع لهذه الغاية وحرصه ان يشهده بنفسه او يرسل نواباً عنه ولما اجاب الملك الى ما يرغب البابا فيه اعلن الحبر الروماني سنة ١٢٧٢ عزمه على عقد مجمع في ليون سنة ١٢٧٤ ودعا اليه اساقفة اللاتينيين وبطريرك القسطنطينية وسائر روساء الروم وعقد هذا المجمع في ليون سنة ١٢٧٤ وهو الرابع عشر من المجامع المسكونية والثاني في ليون وكان فيه من الاساقفة اكثر من خمسمائة اسقف عدا الكرادلة وكان فيه بطريركان لاتينيان ويعقوب ملك راغون ونواب كثيرين من الملوك والامرآء اخصهم نواب الملك ميخائيل باليولوغوس ملك القسطنطينية ونواب فيلبس ملك افرنسة ودعا البابا اليه ملفانين من اشهر ملافنة الكنيسة في ذلك العصر وهما القديس توما الاكويني لكنه مات في طريقه ثم القديس بونا ونتورا وهذا رافق البابا في مسيره الى المجمع وشهده وافتتح المجمع في السابع من شهر ايار السنة المذكورة بعد ان صام المجتمعون ثلثة ايام وفي المجلس الاول افتتح البابا غريغوريوس العاشر المجمع

بالصلاة المعتادة ثم خطب في المجتمعين مبيناً انه تعمد بعقد هذا المجمع ثلث غايات الاولي العناية بانجاد النصارى في الارض المقدسة والثانية اتحاد الكنيسة الرومية بالكنيسة الرومانية والثالثة وضع بعض فرائض لاصلاح التهذيب البيعي وعقد المجلس الثاني في ١٨ ايار وكان فيه المفاوضة بوضع بعض فرائض دينية ثم المجلس الثالث في السابع من حزيران واشتهرت فيه بعض مراسيم تتعلق بالايمان والتهذيب وتقرر في آخر هذا المجلس ان ينتظر وصول الروم الى عقد المجلس الرابع

ووصل مفوضو الروم في الرابع والعشرين من حزيران وكانوا كثيرين ومن علية الاكايرس واعوان الملك وفي جملتهم جرمانوس الذي كان بطريركاً على القسطنطينية وتوافان متربوليط نيقية واما يوسف بطريرك القسطنطينية فكان مقاوماً للاتحاد مصرّاً على الخلاف فحبسه الملك براي الاساقفة في دير الى ان يعود المرسلون الى المجمع فان وقع الاتفاق واستمر البطريرك مصرّاً على رأيه عزله الاساقفة والملك عن البطريركية واقاموا غيره هذا ما رواه نطاليس اسكندر نقلاً عن رسالة الروساء الروم الى البابا ولما قرب وفود الروم من ليون خرج لملقاهم كل من كان في المجمع من الاساقفة والروساء والنواب وصحبوهم بالاحتفاء الى القصر الذي كان به البابا فقام لاستقبالهم وعلى جانبه الكرادلة وكثيرون من الاساقفة وبعد معانقة السلام والسلم قدموا للحبر الروماني رسالة الملك ورسائل الاساقفة وعددهم ثمانية وثلاثون اسقفاً ثم قالوا اتينا لنقدم الى الكنيسة الرومانية الطاعة المتوجبة لها ونعترف بالايمان الذي تعترف هي به ونوافقها على المسائل الثلث التي كان يعسر على اساقفة الروم الاقرار بها وهي رياسة البابا والاعلان باسمه في الصلوات ورفع الاستغاثات الى الكرسي المقدس وكان الملك يصرّح في رسالته باقراره بهذه المسائل الثلاث وبانبثاق الروح القدوس من الاب والابن وسأل الحبر الروماني ان ينعطف الى الترخيص للروم بان يتلوا قانون الايمان كما كانوا يتلونه

قبل ابتعادهم عن الكرسي الروماني وبان يحفظوا طقوسهم التي لا تخالف الايمان ولا مراسيم المجامع العامة وكان عنوان رسالة الملك الى البابا هكذا « الى الاب الاقدس الطوباوي غريغوريوس الحبر السامي للكرسي الرسولي البابا العام وابي جميع المسيحيين من ميخائيل الملك الامين بالمسيح ومدبر شعبه انجلوس كومنانوس بانيولوغوس ابن قداستكم الروحي »

وفي اليوم التاسع والعشرين من حزيران عيد القديسين بطرس وبولس اقام البابا قداساً احتفالياً في الكنيسة الكبرى بليون شهده الروم وكل اباء المجمع وتلا فصلاً من رسالة القديس بولس وفصلاً من الانجيل باللاتينية واليونانية ثم خطب القديس بوناونتورا ثم ترنموا بقانون الايمان اولاً باللاتينية مع قولهم المنبثق من الآب والابن ثم ترنم به الروم باليونانية ومعهم من كان من اللاتين يعرف هذه اللغة والفريقان كررا ذكر انبثاق الروح القدس من الاب والابن ثم ترنم الروم بمديح للبابا واستمروا منتصبين في جانب المذبح الى نهاية القداس فكان في ذلك العيد فرح لا يوصف عند اللاتين والروم

وعقد المجلس الرابع في السادس من تموز وكان مدار الكلام فيه على اتحاد الروم بالكرسي الروماني فتلوا باللاتينية ثلاث رسائل مترجمة عن اليونانية الاولى رسالة الملك ميخائيل والثانية رسالة ابنه اندرونيكوس والثالثة رسالة روساء الروم الى الحبر الروماني وقد ضمن الملك رسالته دستور الايمان الذي كان البابا قد ارسله اليه مع مرسليه المار ذكرهم واختتمها بقوله : نحن نعترف بان هذا الايمان صحيح وكاثوليكي وقويم ونعترف بذلك بقلبنا ونعلنه بفمنا ونعد بان نحفظه دون خلل فيه ولا زيغان عنه » وكانت رسالة روساء الروم على مثال رسالة الملك بالتصريح باقرارهم برياسة كنيسة رومة وانبثاق الروح القدس من الابن والآب والمطهر وجواز التقديس على الفطير والخمير الخ واختتموها بقولهم ان بطريركهم اصر على

المخالفة فاقاموه بامر الملك في دير الى عودهم فان وافقهم خضعوا له والاَّ عزلوه وانتخبوا غيره وبعد ان انتهت تلاوة الرسائل الثلاث نهض جيورجيوس الاكروبوليت اكبر اعوان الملك ونائبه في هذا الجمع وابرز اليمين التالية ، انا اجحد الشقاق نيابة عن مولاي وبالاصالة عن نفسي واعتقد بقلبي واعترف بفمي بالايمان الكاثوليكي القويم الروماني واعد بان احافظ على هذا الايمان كل وقت دون ان ازيغ عنه البتة واقر برياسة كنيسة رومة وبوجوب الطاعة لها واثبت كل ذلك بيميني وقسمي بنفس مولاي ونفسي ، ثم جثا من في المجمع مترنمين بالتسبحة المعتادة او بدستور الايمان باللاتينية ثم تلاهم بالترنم بذلك جرمانوس بطريرك القسطنطينية قبلاً وتوافان متربوليط نيقية.واعادا مرتين ذكر انبثاق الروح القدس من الاب والابن وامر البابا بعد ذلك بتلاوة رسالة كان خان التتر قد ارسلها اليه وانفذ ستة عشر مفوضاً من قبله الى المجمع لعقد معاهدة مع النصارى ضد المسلمين وعين البابا موعد عقد المجلس الآتي نهار الاثنين التاسع من تموز

قد تأجل عقد المجلس الى السادس عشر من تموز وفيه عمد احد المرسلين من خان التتر لانه آمن مع رجلين من رفقائه وتلي في هذا المجمع اربعة عشر قانوناً موضوعها الايمان والتهذيب وعين البابا اليوم السابع عشر من تموز موعدًا للمجلس الاخير من هذا المجمع

ففي اليوم المذكور عقد المجلس الاخير من هذا المجمع وتلي فيه مرسوم المجمع ومما قيل فيه عن انبثاق الروح القدس ،

نعترف اعترافاً صحيحاً تقوياً ان الروح القدس ينبثق منذ الازل من الاب والابن لا كانهما مبدآن بل مبدأ واحد فهذا ما اعترفت به وعلّمته ونشرته الى الان وهذا ما تعتقده وتعلمه وتنشره الكنيسة الرومانية المقدسة ام جميع المؤمنين وهذا هو الرأي الصحيح الثابت غير المتغير الذي علمه الاباء المستقيمو الايمان

والعلماء اللاتينيون والروم ، ثم خطب البابا خاتماً المجمع مسدياً لله الشكر على ما انعم من اتحاد الروم ومن اتخاذ الوسائل التي يرجا برحمته ان تكون نافعة للنصارى في المشرق ومن فرض رسوم تكفل باصلاح ما اختل من التهذيب وترنموا بتسبحة الشكر لله وقد تفضل البابا بهدايا نفيسة على مفوضي الملك ورؤساء الروم وكتب الى الملك ميخائيل يخبره بما كان في المجمع ويهنه بنجاح المسعي وكتب مثل ذلك الى ابنه اندرونيكوس والى رؤساء الروم وارسل مع الروم سفيرًا الى الملك وعند وصولهم الى القسطنطينية واستمرار يوسف بطريركها مصرًا على رأيه اكرهه الملك على الاستقالة من بطريركيته وعني باقامة يوحنا فيكوس احد مقدمي كهنة القسطنطينية بطريركاً مكانه وتشدد على من ابى الاتحاد من الاكليرس والعامة

ثم توفي البابا غريغوريوس العاشر وخلفه اينوشنيسوس الخامس ثم ادريانس الخامس في مدة وجيزة وقام بالحبرية العظمى يوحنا الحادي والعشرون سنة ١٢٧٦ فارسل قصادًا الى الملك ميخائيل يطالبه في ان يثبت الروم ما تقرّر في مجمع ليون واقسم عليه مفوّضوه ورؤساء الروم فعقد حينئذٍ في القسطنطينية مجمعان حيث اقرّ يوحنا فيكوس البطريرك ورؤساء الروم بالايمان على موجب الدستور المرسل اليهم من الحبر الروماني وكتب الملك ميخائيل وابنه اندرونيكوس الى البابا يهنئانه بحصول الاتحاد المبتغى على ان الملك كتب سنة ١٢٧٨ الى البابا نيقولاوس الثالث خليفة يوحنا الحادي والعشرين المذكور يقول إنّه باذل قصارى جهده في الاستدعاء الى الاتحاد وان المؤامرات المنشئة عليه لذلك كادت تحطه عن أريكة ملكه وسأل البابا ان يتسامح له اذا ابدى حسن التصرف مع مسوديه بسياسته وكان الحاصل بعد ذلك ان الروم الا قليلين منهم عادوا الى الابتعاد عن الكنيسة الرومانية والمخالفة لها في العقائد التي واثقوها عليها واضطر البابا مرتينوس الرابع خليفة

نيقولاوس الثالث ان يحرم الملك ميخائيل لنكثه عهد الاتحاد المقسوم عليه وان يبقى الروم على ما كانوا عليه نحو مئة وستين سنة الى ان عقد مجمع فرارا ثم نقل الى فلورنسا كما ترى في العملين التاليين

عدد ٩٤٩

في مجمع فرارا

لما رأى الملك يوحنا باليولوغوس مملكته متداعية للسقوط والملوك العثمانيين العظام قد استحوذوا على قسم كبير منها ويهددونه بفتح القسطنطينية عاصمة ملكه لجأ الى الحبر الروماني مبدياً شديد رغبته في الاتحاد بالكنيسة الرومانية هو وشعب الروم وكان البابا اوجانيوس الرابع هائماً بهذا الاتحاد فلبى دعوة الملك ونادى سنة ١٤٣٨ بعقد مجمع في فرارا احدى مدن ايطاليا ودعا اليه الملك يوحنا بطاركة الروم واساقفتهم واما الاساقفة اللاتينيون فكان بعضهم مجتمعين في مدينة بال (بالمانيا) فامر البابا بانتقال مجمعهم الى فرارا وحضر الملك يوحنا باليولوغوس بنفسه الى فرارا وصحبه البطريرك القسطنطيني وكثيرون من أساقفة الروم واشهرهم بساريون رئيس اساقفة نيقية ومرقس رئيس اساقفة افسس وبلغ البابا اوجانيوس الرابع الى هذه المدينة من السابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٤٣٨ واجتمع هنالك الكرادلة وكثيرون من اساقفة المغرب وارسل البابا الكردينال نيقولاوس البركاتي لاستقبال ملك الروم في البندقية فبلغ هذا الملك مع حاشيته الى المدينة المذكورة في الثامن من شباط ثم سار منها الى فرارا ووصل اليها في الرابع من اذار ووصل بعده بثلثة ايام البطريرك القسطنطيني مع المطارين والاساقفة وكانوا واحداً وعشرين اسقفاً ولكن كان معهم جم غفير من الارشيمندريطية واعيان الاكليرس لا يقل عددهم عن سبع مئة واتفق راي الفريقين على عقد المجلس الاول في التاسع من نيسان سنة ١٤٣٨ واجتمعوا ذلك اليوم في كنيسة القديس جيورجيوس الكبرى

وكان امام المذبح عرش عظيم وضعوا عليه كتاب الاناجيل ومفاتيح كنيستي القديسين بطرس وبولس اتوا بهما من رومية وجلس البابا تحت يمين المذبح على عرش ارفع من سائر العروش وبجانبه عرش لاهل المغرب فارغاً وعن شماله المذبح ويمين الداخل الى الكنيسة كان عرش ملك الروم وبجانبه كرسي البطريرك القسطنطيني وفي جانبي الكنيسة كراسي رؤساء الاساقفة والاساقفة وكان من جانب اللاتين الكرادلة ثم روساء الاساقفة والاساقفة عددهم نحو مئة وستين اسقفاً عدا روساء الرهبانيات وروساء الاديار وكثير من باقي الاكايرس ونواب بعض الامراء والملوك وكان من جانب الروم من ذكرنا انفاً من تبعة الملك والبطريرك واعدوا بالقرب من كرسي بطريرك القسطنطينية محلاً لنواب باقي البطاركة الشرقيين الذين لم يتيسر لهم ان يأتوا الى المجمع وكان اسيدوروس متربوليط كيوف بروسيا نائباً عن بطريرك انطاكية مع مرقس مطران افسس لكن اسيدوروس لم يصل الا في شهر آب مع بعض اساقفة من قبله وكان نائباً عن فيلوثاوس بطريرك الاسكندرية انطونيوس مطران هرقلية وغريغوريوس معرف الملك وعن يواكيم بطريرك اورشليم مطرانا سردومو ناميسيا في المورة على انه لم يكن في هذا المجلس الا اذاعة براءة البابا بعقد هذا المجمع في فرارا وافتتاحه برضى ملك الروم وبطريرك القسطنطينية لاتحاد الكنيستين والتنبيه للمدعوين بان يأتوا اليه بمدة اربعة اشهر او يبعثوا من ينوب عنهم ولم يشهد يوسف بطريرك القسطنطينية هذا المجلس لانه كان مريضاً وعمره نحو ثمانين سنة لكنه بعث رسالة بين فيها انه موافق على كل ما يرسم فيه

وبعد هذا المجلس الذي لا يعد الا مقدمة للمجمع لم تعقد مجالس اخرى الا الى شهر تشرين الاول لسبب عصاوة بعض الاساقفة الذين كانوا مجتمعين ببال على اوامر الحبر الروماني وتوسط بعض امراء اوروبا لردهم الى الطاعة بل كانت

مفاوضات خصوصية بحث بها عن عقيدة المطهر وظهر منها ان الروم لا يأنفون من التسليم بذلك لكنهم ينكرون ان النفوس المتقلة بالمطهر تتعذب بنار حقيقية كما تتعذب في جهنم ويسلمون بانها تكفر عن آثامها بحزنها واقصائها عن مشاهدة الله وان الصدقات وصلوات الكنيسة تفيدها بتخفيف عذابها وتقصير مدته وفي الثامن من شهر تشرين الاول عقد المجلس الاول لا بالكنيسة الكبرى بل بالمعبد الذي في القصر الخاص بالبابا به لان البابا كان متوعك الصحة وعين للخطابة من جهة الروم مرقس اسقف افسس وايسيدوروس اسقف كيوف بروسيا وبساريون اسقف نيقية والحق بهم ثلثة كهنة وعين من جهة اللاتين الكردينال يوليانوس شلزاريني والكردينال القديس نيقولاوس البركاني وايسيدوروس ورئيس اساقفة رودس ويوحنا اسقف فورلي وراهبان ملفانان باللاهوت فخطب بساريون اولا خطبة ما برحت محفوظة برمتها أعرب بها عن السرور الذي شمل المؤمنين اجمعين لاملهم ان يروا عن قريب اتحاد الكنائس بعد ان تولاها الانقسام واثنى على البابا وملك الروم وبطريرك القسطنطينية عاطر الثناء لما ابدوا من الغيرة على هذا الاتحاد وحرضهم على متابعة سعيهم المشكور المبرور الى النهاية المبتغاة واطال في كلامه واجاد واستغرق بخطبته الوقت المعين للمجلس كله وارجيء الاجتماع الى يوم السبت المقبل وكان في وسط الخطبا نيقولاوس ساكوندين يترجم ما يقال باليونانية الى اللاتينية بسرعة وامانة يتعجب منها فعقد المجلس الثاني في الحادي عشر من تشرين الاول وخطب فيه اندراوس رئيس اساقفة رودس في الموضوع نفسه الذي خطب فيه بساريون وبفصاحة اشبه بفصاحته حتى لم ينجز خطبته قبل المساء ومع ذلك بحث الاباء قبل انصرافهم في النظام اللازم حفظه في الجدال وفي المواد التي يبحث عنها وقرروا ان يكون بطريقة القياس للايجاز وبث المسائل وان يختار الروم مادة البحث في المجلس التابع

فعقد المجلس الثالث يوم الثلثا الرابع عشر من تشرين الاول وخطب فيه

مرقس اسقف افسس واحب ان يكون البحث عن زيادة كلمة والابن على قانون الايمان ولمح الى ان الكنيسة الرومانية ابطات في اتخاذ وسائل الاتحاد الذي ترغب فيه الان وان هذا الاتحاد يتعذر حصوله ان لم تزل اولاً الاسباب الداعية الى الخلاف واختتم كلامه طالباً ان تتلى مراسيم المجامع السابقة واقوال الآباء قبل الدخول في البحث والجدال فاجابه اندراوس رئيس اساقفة رودس على خطابه فقال انني لاعجب من تناسيكم اهتمام الكنيسة الرومانية لدى كل ملمة بالكنيسة الشرقية فلم تنشأ بدعة الا وهبت الكنيسة الرومانية لمناصبتها واجهاد النفس في ايجاد الوسائل اللازمة لزوالها بانفاذ رسائلها وقصادها الى غير ذلك من الوسائل ولا يفوت علمكم ان البابا سليبسترس راس مجمع نيقية وغيره من احبار رومية رأس غيره من المجامع اما بنفسه اما بقصاده ولا عجب من ان بعض ملوك القسطنطينية عاونوا الاحبار الرومانيين احياناً على ذلك وبعد ان انشقت العصا لم يفتر احبار رومية عن استدعاء الملوك والشرقيين الى الوفاق فان كنا لم نحفظ السلم فمتى طلبتموه انتم ولم نجبكم اليه او متى سألتم عود الالفة وابيناه بل كم من مرة ناشدكم الاحبار الرومانيون ان تعودوا الى الائتلاف فابيتم او وعدتم ثم اخلفتم وعدكم او ما وقع رؤساء الروم على الاتحاد في مجمع ليون ثم نكثوا عهدهم واما كون الكنيسة الرومانية تطلب الآن الاتحاد وتشتاق اليه فهذا ليس بمنكر له واما ما سألته الآن من مراجعة مراسيم المجامع السابقة واقوال الآباء السالفين فارى ان يضاف الى ذلك بالاولى مطالعة اقوال الاناجيل المقدسة ايضاً

فوافقه مرقس مطران افسس على محبة كنيسة رومة وعنايتها بالشرقيين وقال ان هذا ايضاً يحملها على ازالة سبب الخلاف وهو الزيادة على قانون الايمان فاجابه مطران رودس ليست هذه الزيادة سبب الخلاف لان الاتحاد استمر سنين متطاولة بعدها وقد حصل العود الى الاتفاق مرات دون رفع هذه الزيادة وقال انه سيبين

امرين الاول انه لم تكن زيادة والثاني انه وان سلم بالزيادة فتكون محكمة ولازمة ولا مناص منها

وعقد المجلس الرابع في الخامس عشر من تشرين الاول واستغرق وقته البحث في طريقة انبثاق الروح القدس وعهد الاباء بت هذا المبحث الى لجنة مؤلفة من ستة أعضاء ثلاثة لاتين وثلاثة روم وعقد المجلس الخامس في السادس عشر من تشرين الاول فتليت فيه مراسيم المجامع النيقوي والافسسي والخلكيدوني وغيرها وعني الروم بأن ينتجوا منها ان هذه المجامع حظرت كل زيادة على دستور الايمان فأجاب الكردينال يوليانوس على كلام الخطيب الرومي وقدم الى المجمع نسخة قديمة جداً من اعمال المجمع النيقوي الثاني صرح فيها بانبثاق الروح القدس من الاب والابن طبق معتقد الكنيسة اللاتينية

وفي المجلس السادس الذي عقد في العشرين من تشرين الاول خطب اندراوس رئيس اساقفة رودس خطبة مسهبة ابان فيها جلياً ان كلمة والابن في دستور الايمان ليست زيادة ولاتغييراً كما زعم الروم بل هي تفسير ونتيجة لازمة لاعتقاد الكنيسة بانبثاق الروح القدس من الاب والابن واثبت ذلك بشواهد كثيرة من اقول الاباء الروم ولا سيما يوحنا فم الذهب الذي قال كل ما هو للآب هو للابن ما عدا الابوة لان ابن الله صرح في انجيله بقوله كل ما هو للاب هو لي فانا نج عن ذلك نتجاً لازماً انه اذا كان الاب مبدأً لانبثاق الروح القدس فيكون الابن بلا مراء مبدا له ايضاً . ثم قال الخطيب فليست اذاً كلمة والابن الا تفسيراً كما فسر المجمع النيقوي القوانين السابقة له بقوله مساوٍ للاب جوهراً بياناً للاهوت المسيح وكما فسرت المجامع العامة المنعقدة بعد المجمع النيقوي عقائد الدين المبحوث عنها فيها بزيادة كليمات مثلاً زاد المجمع القسطنطيني الاول ما يبين لاهوت الروح القدس خلافاً لمكدونيوس وزاد المجمع الافسسي ما يبين ان في المسيح اقنوماً

واحدًا لا اقنومين خلافاً لنسطور وزاد المجمع الخلكيدوني ما بين الطبيعتين في المسيح خلافاً لاوطيخا الى ان قال الخطيب انكم تجلون غريغوريوس بالاماس وهو يقول لا يوخذ بالالفاظ بل بالمعاني فان اعتقدتم ان الروح القدس ينبثق من الاب والابن كما يتضح من الاناجيل ومن اقوال الاباء الشرقيين فما المضرة من التصريح بذلك في دستور الايمان وكلة من الابن تفسير لا زيادة فللكنيسة السلطان ان تزيد وزاها قد زادت في كل مجمع ما احتيج اليه لبيان العقيدة المبحوث عنها

وعقد المجلس السابع في الخامس والعشرين من تشرين الاول فاستكمل رئيس اساقفة رودس اثبات عقيدة انبثاق الروح القدس من الابن مفندًا كل ما اتى به مرقس رئيس اساقفة افسس من الاعتراضات على هذه الحقيقة وفي المجلس الثامن والتاسع اللذين عقدا في اول تشرين الثاني والرابع منه خطب بساريون رئيس اساقفة نيقية مدافعاً عن رأي الروم وخلاصة كلامه ان تفسير عقائد الايمان ليس محظورًا لكن المحظور ان يزاد شيء على دستور الايمان وان المجمع الافسسي نهى عن ذلك وانه ينبغي ان يجيبه اللاتينيون ايختص هذا النهي بدستور الايمان ام لا ففي المجلس العاشر الذي عقد في ٨ تشرين الثاني وقف يوحنا اسقف فورلي يرد على خطاب بساريون وبعد ان اثبت ان كلة والابن ليست زيادة بل تفسير الحقيقة مقررة قال ان الكنيسة كانت تقول في دستورها في ايام الرسل واومن بالروح القدس ثم قالت في المجمع القسطنطيني الاول المنبثق من الاب فلم يحسب ذلك القول زيادة بل هو تفسير او شرح لاعلان تقرير العقيدة واما مرسوم المجمع الافسسي بانه لا يجوز لاحد ان يستعمل او يكتب او يؤلف او يعتقد بدستور غير دستور المجمع النيقوي فمعناه الظاهر البديهي انه لا يحل لاحد ان يكتب او يعتقد بدستور مخالف للدستور النيقوي وليس معناه انه لا يحل تفسيره بكلمة وقد فهمت المجامع التابعة مرسوم المجمع الافسسي بالمعنى الذي فهمناه به اذ زادت

بعض شروح على الدستور السابق وما من شريعة في الكون ينهى عن تفسيرها بمعناها الصحيح متى مست الحاجة الى تفسير وانتم تسلمون بانه يسوغ لكل عالم ان يشرح او يفسر عقائد الايمان فكيف تسلمون لفرد بما تنكرونه على مجمع مع ان المجمع الافسسي نهى الافراد عن ان يكتبوا او يؤلفوا دستورًا غير الدستور النيقوي ولم ينه المجامع التابعة له عن ذلك بل ليس له ان ينهاها عنه لان سلطانه وسلطانها سيان واذا حق هذا التفسير فسيان ان ذكر في الدستور ام في رسوم المجمع او في غيرها بحيث ان يكون التفسير صحيحاً مطابقاً للمعتقد وزاد الخطيب بياناً فقال ان المجمع الافسسي نهى عن الاعتقاد ايضاً بغير ما في الدستور النيقوي فاذا سالكم احد اتعتقدون بان الله ازلي فتجيبون بلا بد نعم فيحق لكلٍّ ان يقول لكم على موجب رايكم انكم محرومون لان هذا ليس من الدستور النيقوي وهلمَّ جرًّا الى غير ذلك من العقائد

وعقد المجلس الحادي عشر في ١١ تشرين الثاني وخطب فيه الكردينال يوليانوس واجاد واحكم فافحم وأبكم حتى هنأه بساريون رئيس اساقفة نيقية على اجادته واصالة رأيه واعلمه ان جواب الروم سيكون في المجالس التابعة وفي ١٥ تشرين الثاني عقد المجلس الثاني عشر وخطب فيه مرقس اسقف افسس وحاول ان ينقض او يضعف بعض الحجج التي حجهم بها الكردينال يوليانوس فلم ينجح بل كشف الكردينال في جواب الروم عن تناقض ظاهر لا مفر منه وهو انهم زعموا انه بعد المجمع افسسي كان يطلق لكل فرد من الناس ان يشرح ايمانه بما شاء من الالفاظ مع استمساكهم بان هذا المجمع نهى الاساقفة والاكليريكيين والعامة عن كل شرح او تفسير فكيف يوفق هذا التناقض او كيف يسوغ ذلك لكل فرد ولا يسوغ للكنيسة جمعاء

وعقد المجلس الثالث عشر في ٢٧ تشرين الثاني وبذل مرقس الافسسي

قصارى جهده في تأييد رايه واطال كلامه كيلا يبقى وقت للرد عليه ففي المجلس الرابع عشر الذي عقد في الرابع من كانون الاول والمجلس الخامس عشر الذي عقد في الثامن منه اجاب الكردينال يوليانوس بايجاز على كل فقرة من فقرات كلام مرقس الافسسي واظهر في المجمع نسخة رسالة قديمة العهد كتبها البابا ليباريوس الى القديس اثناسيوس ومما اشتملت عليه هذه الرسالة ان المجمع النيقوى نهى عن ان يزاد او يحذف او يغير من قانون الايمان ومن جسر على ذلك فان كان اسقفاً او اكليريكياً حط عن درجته وان عالمياً او راهباً حرم ولما كان مرقس الافسسي والروم قالوا ان هذا النهي لم يكن قبل المجمع الثالث المسكوني احمرت وجوههم وكان ذلك بينة أخرى ناقضة لرايهم وقد أفحمت هذه البينة بساريون واقنعته

ولما راى الروم ان اللاتين لا يعبأون بكثرة الكلام يئسوا من النجاح واخذوا يفكرون بالعود الى اوطانهم فحرضهم الملك على البقاء فطلبوا الجزم وبت هذا البحث فاجابهم اللاتين لا بد من استقصاء كنه المسالة بالبحث هل ينبثق الروح القدس من الابن كما ينبثق من الآب لانه لا يمكن حذف كلمة من الابن من الدستور إلا ان يثبت انها غير صحيحة وانها تجديف يخالف الايمان وكان الروم يعلمون ما يحججهم به اللاتين من آيات الانجيل الواضحة ومن اقوال الآباء الشرقيين انفسهم فقال مرقس الافسسي احذفوها من القانون واثبتوها في مرسوم المجمع فاجابه الكردينال فلنفحص يا سيدي فلنفحص فان ظهر ان كلمة والابن تجديف فلا يلزم ان تكون في الدستور ولا في المرسوم وان ظهر انها مطابقة للايمان فيلزم ان تبقى ثابتة في الدستور والمرسوم وفي كل محل

وقد اثبت لاباي (مجلد ١٣ صفحة ١٢٣٩) رسالة كتبها بساريون رئيس اساقفة نيقية الى الاسكاريس تبين حالة الروم وافكارهم حينئذٍ واليك ترجمة قسم منها « قد اورد اللاتينيون هذه الحجج وما اشبهها فلم يكن لنا ما يقال فيها فما الذي

نقوله خلافاً لحقيقة ظاهرة جلياً فلزمنا الصمت اما اللاتين فبعد ان اثبتوا انه يجوز زيادة كلمة او عبارة صحيحة على الدستور استعدوا ليثبتوا العقيدة نفسها اي ان الروح القدس منبثق من الاب والابن على ان جماعتنا رأوا انهم افحموا في المبحث الاول فخافوا ان يصيبهم كذلك في المبحث الثاني وتذكروا ما قلته لهم من اول الامر ان لا يفتحوا الجدال بهذه المسألة فجبنوا وعولوا على الانتزاح من المجمع والعود الى اوطانهم واكثروا من القول فيما بينهم فلنرجع فلنرجع واذ سألتهم لماذا ترجعون فلا يمكنهم ان يجيبوك فما نقول للاتين ان سألونا لم ترجعون في وسط المباحثة او في بادىء بدئها لان كل ما جرى البحث فيه الى ذلك اليوم هو في زيادة كلمة والابن ولا يمس العقيدة بنفسها فلم تعودون قبل ان تبتدئوا في ما اتيتم له ولم يكونوا يعلمون ما يجيبون بل كانوا يقولون فلنعد ويسر بعضهم الى بعض ان اللاتين مزمعون ان يوردوا اقوالاً كثيرة من كتب الاباء الشرقيين اثباتاً لانبثاق الروح القدس من الاب والابن فبم نجيب عليها فلنعد ولم يمسكهم في المجمع الا خطاب القاه الملك فيهم •

وفي المجلس السادس عشر المنعقد في العاشر من كانون الثاني سنة ١٤٣٩ كان الوباء اشتدت وطأته في فرارا فعرض البابا اوجانيوس على ملك الروم وبطريرك القسطنطينية نقل المجمع الى فلورنسا فصرحا برضاهما فتليت في هذا المجلس براءة البابا في شان نقل المجمع من فرارا الى فلورنسا وبعد ستة ايام سار البابا الى فلورنسا لتكملة المجمع فما كان في فرارا وفلورنسا يحسب مجمعاً واحداً وقد افردنا الفصل الثاني للكلام في ما كان في فلورنسا

عد ٩٥٠

في اعمال هذا المجمع في فلورنسا

قد سار البابا من فرارا الى فلورنسا في ١٦ من كانون الثاني سنة ١٤٣٩ وسار

بعده ملك الروم وبطريرك القسطنطينية وعقد المجلس الاول في فلورنسا وهو السابع عشر من مجالس هذا المجمع في ٢٦ من شباط في قصر البابا بحضرة الملك ولم يشهد بطريرك القسطنطينية هذا المجلس لانه كان مريضا فخطب الكردينال يوليانوس نائباً عن البابا مبيناً ان الفريقين اللاتين والروم اتفقا على الاسراع بنهاية المجلس وانه يلزم عقد ثلاثة مجالس في كل اسبوع وان تكون المباحثة في كل مجلس ثلاث ساعات وان يعتمد الخطباء الايجاز بكلامهم وقال ان من رأى جلالة الملك ان يبحث الاباء في وسائل الاتحاد قبل المفاوضة في المجالس العامة ووافق البابا على ذلك لكن الروم لم يتفقوا فيما بينهم على طريقة الاتحاد وارادوا مواصلة البحث في العقائد فأمر البابا ان يختاروا الخطبا الذين يدافعون من جهتهم وان يختاروا اللاتين خطباءهم فكان كذلك

فعقد المجلس الثاني في فلورنسا في العاشر من اذار وكان الخطيب فيه من جهة اللاتين الاب يوحنا من الجبل الاسود رئيس اقليم نومنديا على رهبان القديس عبد الاحد وكان مشهوراً بعلومه الفلسفية واللاهوتية وكان موضوع كلامه عقيدة انبثاق الروح القدس من الاب والابن فسأل الروم ما تفهمون بالانبثاق اذ تقولون ان الروح القدس ينبثق من الآب فاجابه مرقس الافسسي افهم بذلك ان الروح القدس يأخذ وجوده وكل ما يعرف به من الاب فقال الخطيب احسنت واليك البرهان من اخذ الروح القدس وجوده منه انبثق منه والحال ان الروح القدس يأخذ وجوده من الابن فاذا ينبثق منه فالكبرى هي قولكم نفسه فلا مشاحنة فيها فدونك البرهان عليها فقد جاء في بشارة يوحنا (فصل ١٦ عد ٣) « اذا جاء روح الحق فهو يعلمكم كل حق وهو يمجدني لانه يأخذ مما هو لي ويبين لكم كل ما هو للاب هو لي ولهذا قلت انه يأخذ مما هو لي ويبين لكم » فلا يقال عن احد الاقانيم الالهية انه يأخذ من الاخر الا بمعنى انه ينبثق منه لمساواة الاقانيم الالهية

بالذات والقدرة والمعرفة فذلك طبق قولكم انه يأخذ منه وجوده ثم اورد الخطيب ايات الانجيل الناطقة بان الابن يرسل الروح القدس كقوله « فاذا جاء الروح البارقليط الذي ارسله انا اليكم من الاب » (يوحنا فصل ١٥ عد ٢٦) وكقوله « ان لم امض فلا يأتيكم البارقليط وان انطلقت ارسلته اليكم » (يوحنا ١٦ عد ٧) وقال لا يقال في اللاهوت ان اقنوماً يرسل آخر الا بمعنى انه ينبثق منه لتساوي السلطة والامر فيهم وعليه ترى انه ورد في الاناجيل وغيرها من اسفار العهد الجديد متواتراً ان الاب ارسل الابن وان الابن ارسل الروح القدس ولم يرد قط ان الابن ارسل الاب او ان الروح القدس ارسل الابن والحق الخطيب بذلك الايات التي يسمى بها الروح القدس روح الابن كقول الرسول (غلاطية فصل ٤ عد ٦) « ارسل الله روح ابنه في قلوبكم » وذلك على حد تسميته روح الاب بقوله في بشارة متى (فصل ١٠ عد ٢٠) « لستم انتم بالمتكلمين لكن روح ابيكم يتكلم فيكم الى غير ذلك من الايات

ثم انتقل الخطيب الى ذكر اقوال الاباء الشرقيين ومما ذكره شهادة من القديس ابيفانيوس في كتابه الموسوم بالمرسى قال فيها متكلماً في الاب « واسمى ابناً من هو منه (اي من الاب) واسمى روح قدس من هو وحده من كليهما » اي من الاب والابن ثم اورد شهادة اخرى من هذا القديس مأخوذة عن كتابه المذكور قال فيها « كما اقول انه لم ير احد الاب الا الابن ولا الابن الا الاب فكذلك اقول انه لا يعرف احد الروح القدس الا الاب والابن الذي ياخذ منه وينبثق ولا يعرف احد الاب والابن الا الروح القدس الذي يمجدهما ويعلم كل شي وهو من الاب والابن » واراد الاب يوحنا ان يستقري باقي شهادات الاباء فاعترض له مرقس الافسسي بشهادة من القديس باسيليوس فطولع كلام القديس باسيليوس فوجد في النسخ التي بيد اللاتين ان اونوميوس الذي كان

باسيليوس يرد عليه قال لما كان الروح القدس هو الثالث في نظام الاقانيم لزم ان يكون الثالث في الطبيعة فقال باسيليوس في رد زعمه « اية حاجة الى ان يكون الثالث في الطبيعة من كان الثالث في نظام الاقانيم فهو بحسب المقام الثاني بعد الابن لان له الوجود منه ويأخذ منه ويبين لنا ويتعلق تعلقاً مطلقاً بهذه العلة » فقال مرقس الافسسي نعم قال باسيليوس شيئاً بهذا المعنى لكن قوله لان له الوجود منه الى آخر الفقرة هو زيادة على كلام باسيليوس وفي القسطنطينية نسخ كثيرة من كتاب باسيليوس ولا شيء فيها من هذا الكلام الاخير وطال الجدال الى ان احضر الاب يوحنا الى المجمع نسخة يونانية من كتاب باسيليوس كان قد أتي بها حديثاً من القسطنطينية ويظهر من الرق المكتوبة عليه والحروف المكتوبة بها انها قد خطت من اكثر من ستمائة سنة ولا أثر فيها للحك او الزيادة وفيها نص باسيليوس كاملاً كما هو في النسخ التي بيد اللاتين وبعد الاطلاع عليها قال الاب يوحنا ان التاريخ واعمال المجامع انبأتنا ان ليس اللاتين هم الذين اعتادوا تحريف الكتب هذا ما راوه جامع اعمال هذا المجمع من الروم وكان حاضرا في المجمع قد اثبتناه نقلاً عن الكردينال منسي في كتابه مجموع المجامع (مج ٣١ صفحة ٧٦٧)

وقد استغرق هذا المبحث اوقات المجالس من الثالث الى الثامن التي كانت في ٥ و٧ و١٠ و١٤ و١٧ اذار وقد عثر الاب يوحنا في مدة هذه المجالس على خطبة للقديس باسيليوس في الروح القدس فوجد فيها نصاً يصرح بأن الروح القدس يأخذ اللاهوت نفسه من الابن حتى ابكم مرقس الافسسي عن الجواب واكرهه على ان يقرّ بأن كلام القديس باسيليوس يمكن ان يكون له المعنى المقصود من الاب يوحنا وفي المجلسين الثامن والتاسع اللذين عقدا في ٢١ و٢٤ من اذار اجاد الاب يوحنا بايراد شواهد كثيرة من اقوال الاباء الشرقيين وقال ان كثيرين منهم صرحوا بان الروح القدس ينبثق من الاب والابن وانه لا فرق بين القول ينبثق من

الاب والابن او ينبثق من الاب بالابن ومن قال منهم انه ينبثق من الاب لم ينف الابن ولما كان بعض الروم يظنون ان اللاتين يعتقدون ان الروح القدس ينبثق من مبدأين اي الاب والابن فاوضح الاب يوحنا لهم صراحة ان الكنيسة الرومانية تعتقد بان لانبثاق الروح القدس مبدأ واحداً او علة واحدة وهي الاب فان الابن له الوجود من الاب وله منه ايضاً بثق الروح القدس فليس لبثق الروح القدس مبدآن او علتـان لان كل ما هو للابن قد اخذه من الاب قال جامع اعمال المجمع الرومي المذكور كان لهذا الكلام عند الروم وقع حسن وخرجنا من المجلس مسرورين لاعتقـاد اللاتين ان لانبثاق الروح القدس علة واحدة ووقع الانقسام بين الروم فاحب فريق منهم الاتحـاد ومن هذا الفريق كان الملك وبساريون رئيس اساقفة نيقية وانكره فريق آخر ومنهم مرقس الافسسي واخذوا خطب الاب يوحنا ينقبون فيها فقال مرقس ان فيها بدعة وقال بساريون يلزم ان نشكر الله لاننا وجدنا تعليم اللاتين مطابقاً لتعليم الاباء الروم القدماء وامر بخطبة مثبتة في اعمال المجمع راي اللاتين في انبثاق الروح القدس وفند اعتراضات الروم واختتم كلامه بالحث على الاتحاد وتابعه على ذلك جيورجيوس سكولاريوس احد اللاهوتيين الروم وكان الملك اتفق مع البابا على تعيين لجنة من الفريقين تبحث في وسائل الاتحاد وتنشيء مرسومه وبعد مشاحنات طويلة قر رايهم على انشاء المرسوم بشان انبثاق الروح القدس كما يأتي . نحن اللاتينيون والروم نقر ونعترف ان الروح القدس منبثق منذ الازل من الآب والابن وان انبثاقه منهما منذ الازل من مبدأ واحد وبثقة واحدة ونعلن ان ما قاله بعض الملافنة والاباء القديسين من ان روح القدس ينبثق من الاب بالابن يفهم منه ان الابن هو كالاب ومع الاب مبدأ لبثق الروح القدس لان كل ما هو للاب اعطـاه للابن ما عدا الابوة التي تميزه عن الابن وعن الروح القدس وقد اخذ الابن من الاب مذ الازل قوة البثق التي بها

ينبثق الروح القدس من الابن كما ينبثق من الاب ، فتلى هذا المرسوم وأثبته الفريقان ووقعوا عليه في اليوم الثامن من حزيران الا مرقس رئيس اساقفة افسس فانه استمر مصرًّا مكابرًا وبعد التوقيع عانق الفريقان احدهما الاخر معانقة السلم والاتحاد واتفق رايهم على ان يبحثوا ايضاً في باقي المسائل المختلف فيها كالمطهر ورياسة الحبر الروماني وسعادة القديسين وجواز التقديس على الخمير والفطير

وكان البطريرك القسطنطيني يرغب في ان ينشأ للحال مرسوم الاتحاد ليرى نهاية هذا الامر الخطير قبل موته الذي كان يشعر بانه قريب فقيل له انه يلزم ايضاً ايضاح باقي المسائل وقد اعدت مواد البحث فيها بقرارا فلا تحتاج الى وقت طويل وفي ليلة التاسع من حزيران توفى البطريرك والذي رواه ذووه انه دخل بعد عشائه الى غرفته واخذ ورقاً وقلماً يكتب ثم اعتراه ارتعاش ففاضت روحه فأخذ الاساقفة الذين اجتمعوا حينئذٍ الرقعة التي كتبها فوجدوه قد خط بيده ما يلي « انا يوسف برحمة الله رئيس اساقفة القسطنطينية رومة الحديثة والبطريرك المسكوني لما رايت انقضاء حياتي وازماعي على وفاء الدين المحتوم على كل من الناس كتبت بنعمة الله ووقعت على رايي الاخير مبيناً اياه بكل ايضاح ليكون معلوماً عند جميع اولادي الاعزآء فاوضح اذا ان كل ما تؤمن به وتعلمه الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرسولية كنيسة سيدنا المسيح رومة القديمة اومن به انا واقبل كل عقائد هذا الايمان واعترف بان البابا حبر رومة القديمة هو ابو الاباء المطوب والحبر الاعظم ونائب سيدنا يسوع المسيح لتوطيد ايمان المسيحيين واومن ايضاً بمطهر النفوس وبيانًا لذلك وقعت على هذا الاقرار في ٩ حزيران سنة ١٤٣٩ » فعظم البابا حفلة جنازته وشهدها بنفسه مصلياً عليه في كنيسة دير رهبان القديس عبد الاحد

ثم اجتمع الاساقفة يتباحثون في باقي المسائل وابتدأوا بالبحث عن صحة

تقديس الخبز الفطير فلم يمتنع اساقفة الروم عن التسليم بانه يصح تقديس الخبز خميرًا كان ام فطيرًا بحيث يكون الخبز من القمح وان يكون خادم السر كاهنًا وبين الخطيب حينئذٍ افضلية تقديس الخبز فطيرًا اقتداء بالمسيح الذي قدس جسده بالفصح وكان استعمال الخمير محظورًا فيه على اليهود ولما كان قد قيل ان الروم يعتقدون ان صلوة الروح القدس التابعة كلام التقديس هي ضرورية لاتمام التقديس التى الخطيب خطبة اخرى بين بها بشهادات الاباء والعلماء ان كلام المسيح الذي يتلوه الكاهن انما هو اللازم وحده لصحة التقديس فاجابه متريبوليط روسيا محققًا ان هذا معتقد الروم ايضًا

وكان اباء هذا المجمع اقاموا وهم بفرارا لجنة تبحث في المسائل المختلف فيها فاعتمد على ابحاثهم المذكورة في الايمان بالمطهر فلم تكن صعوبة في هذا المجلس في الاتفاق على ان نفوس القديسين حازت السعادة في السماء وان نفوس الخطاة الذين لم يتوبوا قبل الموت تعذب عذابًا اليمًا في الجحيم واما نفوس من أثموا وتابوا ولم يفوا عن آثامهم او هفواتهم في هذه الحيوة فتتعذب في محل الى ان تطهر ولا يحفل ببيان نوع العذاب ابنار هو ام بظلام او بطريقة اخرى وان جميع الناس سوف يقومون باجسادهم امام منبر المسيح يوم القيامة لتجزى كل نفس بما عملت

واما في رياسة الحبر الروماني فكان بعضًا لتردد عند الروم ولا سيما ان ملك الروم كان يريد ان يقر برياسة الحبر الروماني الا ان ليس له ان يقبل الاستغاثة به من احكام البطاركة الشرقيين ولا ان يامر بعقد مجمع مسكوني دون رضى الملوك والبطاركة وبعد بيان خطباء اللاتين رياسة الحبر الروماني المطلقة على الكنيسة جماء بآيات الاسفار المقدسة وشواهد الاباء وردهم ما يحتج به على ذلك وبعد الاتفاق بين الفريقين على ان يزاد في مرسوم المجمع قيد يصرح به بسلامة الحقوق والعوائد التي كانت للبطاركة الشرقيين اذعن الروم ورضي البابا بزيادة القيد

المذكور وعقدت عدة مجالس لانشا صك الاتحاد وبعد انشائه فحص عن كل عبارة وعن كل كلمة وبعد تقريره تلي وصادق عليه الفريقان وترى فحواه في براءة البابا الاتي ذكرها

وعين الاباء ستة علماء من كل فريق لانشاء براءة البابا فاشتغل هولاء بذلك ثمانية ايام وكانوا يجتمعون لذلك مرتين كل يوم ثم تليت البراءة التي انشأوها بمجلس عام عقد في ٤ من تموز بحضرة البابا اوجانيوس وملك الروم فاثبتها جميع الحاضرين برضيً عام وقرروا ان تذاع اذاعةً احتفالية بعد يومين في آخر المجلس ولم يذكروا في البراءة شيئاً بشأن صورة كلام التقديس لاقرار الروم امام البابا اجمالاً وافراداً انهم لا يخالفون الكنيسة الرومانية في ان كلمات الرب التي يتلوها الكاهن في التقديس انما هي وحدها صورة تقديس القربان ودعوة الروح القدس بعدئذٍ ليست من الكلمات اللازمة لصحة التقديس فسر البابا لاقرارهم بذلك ايضاً وفي اليوم السادس من تموز سنة ١٤٣٩ عقد المجلس الاخير بين الروم واللاتين وقدس البابا في الكنيسة الكبرى بفلورنسا واجتمع الملك واباء المجمع في النظام الذي اشرنا اليه في الكلام على مجالس هذا المجمع بفرارا وبعد نهاية القداس جلس البابا على عرشه وتلا الكردينال يوليانوس براءة البابا باللاتينية ثم تلا ترجمتها الى اليونانية بساريون رئيس اساقفة نيقية وهذا مختصر هذه البراءة

اوجانيوس اسقف عبد عبيد الله للذكر المؤبد برضى ابننا العزيز بالمسيح يوحنا باليالوغوس ملك الروم الكلي الشرف وبرضى نواب اخوتنا المحترمين بطاركة المشرق وغيرهم من نواب الكنيسة الشرقية واطال البابا كلامه في بيان السرور الذي تولى قلبه من جرى اتحاد الكنيستين الرومية واللاتينية وفي وصف الحبور والبهجة اللذين كانا في السماء وسيكونان عند جميع المؤمنين في المعمور كله لزوال الانقسام والشقاق وتولي الاتفاق والاتحاد بين المسيحيين في كل صقع وبعد

شكره لله على هذه النعمة الكبرى والمنة العظمى قال «

« قد اجتمع اللاتين والروم في هذا المجمع المقدس العام وجرى بينهم البحث المدقق بكل ما يمكن من التحري عن عقيدة انبثاق الروح القدس فأورد الخطباء آيات الاسفار المقدسة وكثيرًا من شهادات ملافنة الكنيسة الشرقيين والغربيين فوجد ان بعضهم يقولون ان الروح القدس ينبثق من الاب والابن وغيرهم يقولون ينبثق من الآب بالابن ومرجع القولين الى معني واحد وان اختلفت الالفاظ واثبت الروم انه بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الآب لا ينفون ذلك عن الابن لكن كان يظهر لهم ان اللاتينين بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الابن يعتقدون ان لانبثاقه مبدأين او علتين فحقق لهم اللاتينيون انهم لا يعتقدون الا مبدأ واحدًا او علةً واحدة لبثق الروح القدس ولا ينكرون ان الاب مبدأ اللاهوت كله ولا ان الابن يأخذ كيانه وبثقه الروح القدس من الاب وعليه فيكون لانبثاق الروح القدس مبدا واحد وعلة واحدة وبثقه واحدة ولذلك اتفق الفريقان واجمعوا على وضع القرار الاتي» بسم الثالوث الاقدس الاب والابن والروح القدس وباثبات هذا المجمع المقدس المنعقد بفلورنسا تقرر ان المسيحيين اجمع يلزمهم ان يعترفوا بحقيقة الايمان هذه ويستمسكوا بها ونحن نعترف بها وهي ان الروح القدس ينبثق منذ الازل من الاب والابن وان له ذاته وكيانه من الاب والابن وينبثق منذ الازل من كليهما بما انهما مبدأ واحد له وببثقة واحدة مقرين ان الاباء والملافنة القديسين الذين قالوا ان الروح القدس ينبثق من الاب بالابن لم يكن لقولهم معنى غير هذا المعنى ويريدون بذلك ان الابن هو كالاب علة للروح القدس كما يقول الروم ومبدأ له كما يقول اللاتين ومن حيث ان الاب اعطى ابنه الوحيد بولادته له كل ما هو للاب ما عدا الابوة فاعطاه ايضاً ان ينبثق الروح القدس منه منذ الازل ونقرر ايضاً ان كلمة والابن زيدت بكل صواب على الدستور ايضاحاً

للحقيقة لحاجة مست الى ذلك

وتقرر ايضاً ان جسد المسيح يتقدس حقيقة بخبز القمح سواء كان فطيراً ام خميراً وانه يلزم كلاً من الكهنة ان يتبع في ذلك عادة كنيسته غربية كانت ام شرقية وان نفوس من ماتوا تائبين حقيقة وحاصلين على محبة الله ولكن قبل ان يثمروا ثماراً صالحة للتوبة للتكفير عن اثامهم التي ارتكبوها بالفعل والاهمال يتطهرون بعد موتهم بعذاب المطهر وتفيدهم في هذا العذاب افعال المؤمنين الاحياء الصالحة كذبيحة القداس والصلوات والصدقات وغيرها من المبرّات التي اعتاد المؤمنون ان يصنعوها لخير المؤمنين بحسب قوانين الكنيسة وان نفوس من لم يرتكبوا اثماً بعد المعمودية ونفوس من تابوا عن اثمهم مكفرين عنه اما في حياتهم اما بعد موتهم في المطهر تدخل الى السماء حالاً وتشاهد الله وجهاً لوجه ويقاس مجدها بقياس استحقاقها واما نفوس من برحوا من هذه الحياة وقد ارتكبوا اثماً مميتاً لم يتوبوا عنه وكانت عليهم الخطية الاصلية فتذهب للحال الى الجحيم ولا يكون عذابها متساوياً

وتقرر ايضاً ان الكرسي الرسولي المقدس والحبر الروماني الجالس عليه هو خليفة بطرس الطوباوي راس الرسول وهو نائب المسيح ورئيس الكنيسة جمعاء وابو جميع المسيحيين ومعلمهم وان سيدنا يسوع المسيح اعطاه بشخص بطرس الطوباوي السلطة التامة ليرعى ويسوس ويدبر الكنيسة كلها كما هو مصرح ايضاً في اعمال المجامع المسكونية والقوانين المقدسة وتجدد الرسم بنظام الكنائس الاخرى البطريركية المبين بالقوانين بنوع ان يكون صاحب الكرسي القسطنطيني الثاني بعد الحبر الروماني الاقدس والثالث البطريرك الاسكندري والرابع البطريرك الانطاكي والخامس البطريرك الاورشليمي مع سلامة حقوقهم واختصاصاتهم

اعطي بفلورنسا في المجلس الذي عقد باحتفال في الكنيسة الكبرى سنة ١٤٣٩ في السادس من شهر تموز وهي السنة التاسعة لحبريتنا

ثم وقع البابا هكذا انا اوجانيوس اسقف الكنيسة الكاثوليكية وقعت مقررًا كذلك ربي انت عوني وعاضدي فلا تتركني يا الهي وكانت كلمات الزبور هذه شعارًا لاوجانيوس الرابع

ويلي ذلك توقيع ثمانية كرادلة انا فلان اوقع على التقريرات السابقة وترى بعد اسماء الكرادلة توقيع الملك يوحنا باليولوغوس ثم معرفه جيورجيوس ثم ايسيدوروس متريبوليط كيوف وروسيا كلها وعدة متريبوليطية واساقفة من الروم منهم مطارنة هرقلية ودرابيزون ونيكومدية ومتلين وأما سياورودس ثم اغناتيوس مطران تورنوفو قصبة بلغاريا ودميان مطران مولدافيا والفلاخ ومن بعدهم كثيرون من الاساقفة اللاتينيين منهم ثمانية اساقفة من افرنسة وبعد ذلك تقدم الملك يوحنا والاشراف الروم ونواب ملك الايباريين والمطاورنة والاساقفة الروسيون وغير هؤلاء وكانوا نحو خمس مئة شخص وجثوا امام البابا وقبلوا يده ثم اذاع البابا أوجانيوس الرابع مرسوم الايمان والاتحاد في كل صقع وكتب رسالة عامة الى جميع الامراء والروساء في المعمور المسيحي يخبرهم بها عما اجمعت عليه الكنيسة الغربية والشرقية مبديًا سروره وآمرًا بتقدمة الصلوات الخاشعة شكرًا لله على ذلك وتاريخ هذه الرسالة ٧ تموز سنة ١٤٣٩ وقد اثبتها لاباي في مجموعة المجامع مجلد ١٣ انتهى ملخصًا عن مجموعات المجامع لمنسى ولاباي وخاصة عن أعمال هذا المجمع التي جمعها احد علماء الروم باليونانية وكان حاضرًا في هذا المجمع وقد ترجمها الى اللاتينية العلامة الكردينال يوحنا منذي في تأليفه المذكور

عد ٩٥١

في ما كان بعد اتحاد الروم في هذا المجمع

ان البابا أوجانيوس الرابع اهدى الى ملك الروم بعد تقرير الاتحاد وكل ما كان وعد به من المساعدات بل زاد عليه وسار الملك يوحنا باليولوغوس من فلورنسا

في ٢٦ آب وصحبه ثلاثة كرادلة وكثيرون من الاساقفة الى البندقية وبلغ اليها في ٦ ايلول وسافر منها ١١ تشرين الاول قاصدًا القسطنطينية ولم يبلغ اليها الا في اليوم الاول من شباط سنة ١٤٤٠ وابقى البابا المجمع مفتوحاً وبقي فيه بعض اساقفة الروم ففي ١٨ من كانون الاول سنة ١٤٣٩ رقي الى مقام الكردينالية سبعة عشر كردينالاً منهم بساريون الشهير رئيس اساقفة نيقية التي ذكرنا ترجمته ثم ايسيدوروس متربوليط كيوف رئيس اساقفة روسيا وكان قد ولد بتسالونيك وانضوى في رهبانية القديس باسيليوس وصار رئيساً على دير القديس ديمتريوس في القسطنطينية الى ان رقي الى رياسة اساقفة روسيا وباقي الكرادلة من اوروبا

وفي شهر ايلول سنة ١٤٣٩ بلغ الى فلورنسا وفد من قبل قسطنطين بطريرك الارمن وكان هذا الوفد اربعة اشخاص احدهم اسقف يسمى يواكيم وثلاثة علماء اسماؤهم سركيس ومرقس وتوما وبعد مقابلة البابا لهم مضوا الى الملك يوحنا واخبروه بعزمهم على الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية فاظهر لهم ارتياحه الى ذلك وكانت رسالة البطريرك قسطنطين الى البابا مؤرخة في ٢٥ تموز سنة ١٤٣٨ ومما قاله فيها انه مرسل وفده الى المجمع ابتغاء السلم والاتحاد بالكنيسة الرومانية كما كان بين القديس البابا سليبسترس والقديس غريغوريوس المنور وبين الملك قسطنطين الكبير وتريدات ملك الارمن وعين البابا بالاتفاق مع المجمع ثلثة كرادلة وعدة من العلماء للمفاوضة مع الارمن وكان البحث في ما يخالف الارمن به المعتقد الكاثوليكي واخصه اعتقادهم طبيعة واحدة في المسيح وانكارهم انبثاق الروح القدس من الابن وبعد اثبات هذا المعتقد بآيات الكتاب واقوال الآباء القديسين اذعن الارمن واقروا بالايمان الكاثوليكي باسمهم واسم بطريركهم وامتهم فاصدر البابا برأي المجمع براءته المعروفة بارشاد الارمن مؤرخة في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٤٣٩

وفي ٢٦ نيسان سنة ١٤٤١ اخبر البابا آباء المجمع انه سيصل الى المجمع عن قرب سفراء

من قبل ملك الحبشة ابتغاء الاتحاد وانه رغبة في تعزيز هذا المجمع ولدواع حميدة عزم ان ينقله من فلورنسا الى رومة ويعقد هناك بكنيسة لا تران وفي شهر آب من السنة المذكورة وصل اندراوس رئيس دير القديس انطونيوس بمصر وبطرس الشماس نائبين عن يوحنا بطريرك اليعاقبة الاسكندري وعن قسطنطين زاداع يعقوب ملك الحبشة وطلبا باسم الملك والبطريرك والشعب الخاضع لهما ان يقبلوا بشركة الكرسي المقدس والكنيسة الرومانية ومما كتبه البطريرك في رسالته « انا الحقير يوحنا خادم خدام يسوع المسيح ومدبر كرسي القديس مرقس اي الاسكندرية العظمى ومصر كلها وليبيه والحبشة اجثو امامك ايها الاب الاقدس انت الحائز كمال الكهنوت والراعي الصالح جدًا وامير الشرف والقداسة والقائد الورع لمن ساروا بطريق غربتنا هذه الى سبيل الخلاص السيد اوجانيوس بابا رومة العظمى الراعي الرسولي لجميع الكنائس المسيحية والامير الوحيد للكنائس الاولى وللاباء ولكهنة المسيح طبيب النفوس المعتلة » وتاريخ الرسالة ١٢ ايلول من القاهرة سنة ١٤٤٠ فقبل البابا سفير الملك ونائب البطريرك في ٣١ آب في مجلس عام ومما قاله سفير ملك الحبشة للبابا « اذا نظرت الى عظمة قداستك وحقارتي تولاني الرعب فانا انسان حقير تراب ورماد اتكلم امام نائب الله في ارضه وخليفة القديس بطرس وابي المؤمنين كافة ورئيسهم ومعلمهم الذي اعطي مفاتيح ملكوت السماء ليفتح ويغلق لمن شاء فانت ملك الملوك واعظم الاسياد واذا تاملت في هذه الامور وما اشبهها ارتعت من ان اوجه كلامي الى قداستكم ولا سيما اذا راعيت مقدرتكم وحكمة اللاتينيين الذين انصبوا من البدء الى الآن على درس الامور الالهية وتعليم يسوع المسيح فاعتقدوا واستمسكوا الى اليوم بما بلغه اليهم رئيسا الرسل بطرس وبولس الطوباويان واما الكنائس التي خلت من هذه الحكمة والنظام فاضاعت المبادي الاساسية وانفصلت عن امها ومعلمتها فاسلمها الله لخزيها الى غير المؤمنين كما نرى

في الروم والارمن وفينا نحن الاحباش اليعاقبة مذ انفصالنا من نحو تسع مئة سنة ولم تكن لنا الآن تعزية وسلوى من حزننا الا بانه كما قبلتم الروم والارمن في وحدة الايمان الكاثوليكي تقبلوننا نحن ايضاً نظيرهم »

وفي الثاني من ايلول سنة ١٤٤١ اتى الى المجمع بفلورنسا وفد آخر من الاحباش ارسله نيقوديموس المتراس من قبل ملك الحبشة على الاحباش الذين في اورشليم وتلا احدهم خطبة غرآء معظماً شأن الحبر الروماني ومبيناً تعلقهم به وسرورهم بالانضمام الى الكنيسة الرومانية ومعدداً المصائب التي اصابت من انفصلوا عن هذه الكنيسة وموضحاً ان انفصالهم لم يكن عن خبث نية بل اوجبه البعد عن مركز الايمان وحرمانهم من رسائل او قصاد من قبل الحبر الروماني الى ان قال انهم لم ياتوا ليجادلوا البابا على حقيقة بل ليذعنوا لاحكامه فاقام البابا لجنة تفاوض مع الاحباش في عقائد الايمان ثم ابرز باثبات المجمع مرسوماً يتضمن ما يلزم الاحباش ان يعتقدوا به وتلي هذا المرسوم في المجلس المنعقد في رابع شباط سنة ١٤٤٢ واثبته لابي في المجلد ١٣ من مجموعة المجامع ووقع عليه وفود الاحباش من قبل البطريرك والملك ورئيس امتهم في القدس باسمائهم وبالنيابة عن الملك والبطريرك وملتهم وارجأ البابا الجواب الى ملك الحبشة الى ما بعد وصوله الى رومة ولم يعثر احد على نسخة من هذا الجواب الى الان

وانتقل المجمع الى رومة وكانت مجالسه تعقد في كنيسة مار يوحنا لاتران وأتى اليه وفد من قبل اغناتيوس بطريرك السريان فانه ارسل باسمه واسم امته عبد الله رئيس اساقفة الرها سائلاً البابا ان يرسل اليه دستور الايمان الذي تعتقده الكنيسة الرومانية فعين البابا بعض الاساقفة للمباحثة مع المطران عبد الله المذكور في مذهب البطريرك وشعبه فوجدوا ان مذهبهم صحيح الا في اعتقادهم ان الروح القدس ينبثق من الاب فقط وان في المسيح طبيعة واحدة ومشيئة

واحدة وفعلاً واحدًا فبين اولئك الاساقفة للمطران عبد الله ما يلزم الاعتقاد به فابدى خضوعه وتسليم من قبل نفسه وقبل بطريركه وشعبه بكلما تعتقد به الكنيسة الرومانية فانشأ البابا مرسوماً يتضمن ما يلزم السريان اليعاقبة ان يؤمنوا به وتلي في المجلس الثلاثين من هذا المجمع واثبته لاباي في المجلد ١٣ من مجموعة المجامع

ومن بعد ذلك ارسل البابا اوجانيوس اندراوس رئيس اساقفة رودس الى المشرق لتثبيت الروم والارمن واليعاقبة في الاتحاد الذي جرى واتى الى قبرس ليرد الكلدان عن بدعة نسطور بان في المسيح اقنومين وان العذرأ لا تسمى والدة الله فوفق الله اندراوس المذكور الى ان رد تيموتاوس متربوليط الكلدان الى الايمان القويم مع شعبه وارسل الكلدان مطرانهم تيموتاوس الى رومة ليقرر اتحادهم بالكنيسة الرومانية وارسل ايليا مطران الموارنة كاهناً اسمه اسحق الى البابا اوجانيوس الرابع ليجدد اقرار الموارنة بالايمان الكاثوليكي واتم تيموتاوس واسحق ما عهدا اليهما به شعباهما في اول شهر آب سنة ١٤٤٤ بمجلس عقده المجمع بلاتران وابرز البابا براأة بهذا الشان مؤرخة في اليوم المذكور وقد اثبتها لاباي في المجلد المذكور من مجموعة المجامع وهذا جعل بعض المؤرخين يظنون ان نائب اسقف الموارنة ايضاً جحد ضلالاً كان الموارنة سكان قبرس ملوثين به فلم يميزوا بين من ارعوى عن ضلال ومن جدد الاقرار بايمانه وهذا بين من براأة البابا اوجانيوس المذكورة نفسها وسناتي على رد هذه التهمة للموارنة في الملحق الاتي في تاريخهم في هذا القرن

على ان هذا الاتحاد الذي عني به اوجانيوس الرابع كل هذه العناية ووقع عليه ملك الروم واساقفتهم واقسموا عليه لم يثبت ولم يقبله شعب الروم بدسائس مرقس رئيس اساقفة افسس لانه مذ عوده الى كرسيه اخذ يختلق اكاذيب ومطاعن بحق المجمع واللاتينيين مظهرًا انه كان بطل الكنيسة الرومية في مناصبتهم

وانتصاره عليهم وعدم انقياده لرأيهم ومتروفان الذي خلف يوسف بطريرك القسطنطينية الذي توفي في المجمع قد قاومه المعاندون ومات كمدًا سنة ١٤٤٣ والملك يوحنا باليالوغوس كان واهن العزيمة فلم يقوَ على مقاومة المخالفين واستمر كرسي القسطنطينية فارغاً ثلث سنوات وفي اخرها تجشم غريغوريوس خلف متروفان هذا العبء المحفوف بالمكاره وبذل مجهوده بالاتحاد ولكن مات الملك وخلفه قسطنطين الثاني عشر باليالوغوس لا ليملك بل ليشهد جنازة مملكة الروم التي قرضها السلطان محمد الثاني العثماني سنة ١٤٥٣ بفتحه القسطنطينية رغماً عن مساعدة البابا اوجانيوس الرابع والبابا نيقولاوس الخامس على حفظ مملكة الروم فان اوجانيوس الرابع جهز اسطولاً مؤلفاً من خمسين مركباً ووجهه الى نحو البصفر نجدة لملك الروم وجمع ملك بولونيا والمجر جيشاً كبيرًا بايعاز البابا وعبر الدانوب ظافرًا وبلغ الى صوفية عاصمة بلغاريا وانتصر بوقعتين على اعداء الروم وكل ذلك لم يؤثر بمكابرة شعب الروم على مخالفة الكنيسة الرومانية بل تغلب رائهم على دوام الانفصال عنها وجذبوا اليهم من كانوا وقعوا على الاتحاد فاستمر هذا الانقسام الممقوت الى اليوم .

وقد مر ان يواكيم بطريرك اورشليم قد نبذ كل ما كان في المجمع الفلورنسي واتفق مع بطريركي الاسكندرية وانطاكية وكتبوا الى الملك يوحنا رسالة هددوه بها بالحرم ان لم يرعوِ عن الاتحاد لكننا نعلم من جهة اخرى ان بطاركة هذه المدن كانوا سنة ١٤٦٠ يودون الخضوع للكرسي الرسولي واوفدوا الى البابا بيوس الثاني موسى رئيس شمامسة انطاكية مقرن بسلطة الحبر الروماني فقبل البابا سفيرهم بالتكريم واجاب البطاركة جواباً حسناً كما ذكرنا في عدد ٩٤٣ لكن هذا الاتحاد ايضاً لم يدم الا قليلاً

وقد كان نكث الروم عهد الاتحاد بالكنيسة الرومانية معثرة لغيرهم من الملل

الشرقية فان السريان اليعاقبة الذين كان بطريركهم اغناتيوس الثاني ارسل عبدالله مطران الرها لابرام الاتحاد قد عادوا الى ما كانوا عليه من البدعة واستمروا عليه الى ان اهتدى الى الايمان القويم اندراوس اخيجان الحلبي اليعقوبي على يد البطريرك يوسف العاقوري بطريرك الموارنة في اواسط القرن السابع عشر ودرس العلوم بمدرسة الموارنة برومة ورقاه يوحنا الصفراوي بطريرك الموارنة الى الاسقفية سنة ١٦٥٦ وارسله الى حلب مع القس اسطفانوس الدويهي (وهو الذي صير بطريركًا على الموارنة سنة ١٦٧٠) فرد بعض اليعاقبة الى الايمان الكاثوليكي ولما توفي اغناتوس سمعان بطريرك اليعاقبة سنة ١٦٥٩ صير اندراوس بطريركًا على السريان سنة ١٦٧٨ وبه ابتدأت سلسلة بطاركتهم

وكذلك الارمن فانهم بعد اتحادهم في مجمع فلورنسا رجعوا الى ضلالهم ولم يبقَ منهم على الايمان الكاثوليكي الا قلائل وكانوا قد اتحدوا مرات قبل ذلك فنكلوا الى ان صير عليهم بطريركًا ابرهام العتابي سنة ١٧٣٩ على كيليكيا واخذ السكنى بدير المخلص بالكريم بعمل كسروان ثم سكن خلفاؤه دير بزمار وكذلك فعل الاحباش والقبط فانهم بعد اتحادهم في المجمع الفلورنسي نكثوا عهدهم ثم اتحدوا في ايام البابا غريغوريوس الثالث عشر في اواخر القرن السادس عشر اذ ارسل هذا البابا اليهم قاصدًا فادخلهم في طاعة الكنيسة الرومانية ثم نكثوا الى ان اقام البابا بناديكتوس الرابع عشر اسقفًا عليهم اثناسيوس القبطي اسقف اورشليم بموجب برأته المؤرخة في ٤ آب سنة ١٧٤١ هذا في القبط واما الاحباش فرجع بعضهم من عهد ليس بعيد ويدبرهم نائبان رسوليان احدهما من العازاريين والآخر من الكبوشيين وينوط امرهم بمجمع نشر الايمان المقدس

اما الكلدان القبرسيون الذين اتحدوا كما مرَّ فقد غادروا الايمان الكاثوليكي ورجعوا الى غيهم واثبت لاباي رسالة من البابا نيقولاوس الخامس الى اسقف

نيقوسية ونقلها عنه بارونيوس في تاريخ سنة ١٤٥ فحواها ان ينبه الكلدان المذكورين ان يعودوا الى ما عهدوا به على انفسهم في ايام البابا اوجانيوس وان اصروا بفصلهم عن شركة المؤمنين فلم يرعووا انتهى

ملحق

﴿ تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر ﴾

﴿ عـد ٩٥٢ ﴾

﴿ في بعض مقدمي الموارنة في القرن الخامس عشر وما كان في ايامهم ﴾

كان حكام الموارنة في هذا العصر يسمون مقدمين وممن عرفنا شيئاً من اخبارهم في هذا القرن يعقوب ابن ايوب مقدم بشري فقد ذكرنا قبلاً ان الملك الظاهر برقوق نصبه مقدماً على بشري وروى البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخه انه بقي حاكماً الى ان توفي سنة ١٤٤٤ وكانت مدة ولايته ٦٢ سنة وخلفه في المقدمية اولاده المقدمون سيفا وقمر ومزهر وزين وبدر على ما في تاريخ الدويهي المطبوع ببيروت ولكن في النسخة الخطية التي لدينا من هذا التاريخ « سيفا وهو زين (اي الملقب بزين) وقمر وهو بدر ومزهر واجروا العدالة في حكومتهم فاستراح اهل البلاد في ايامهم كما كانوا في ايام والدهم

واما اولاد المقدم يعقوب فبعد وفاة احدهم سيفا خلفه في المقدمية ابنه عبد المنعم الاول ثم توفي سنة ١٤٦٩ فخلفه رزق الله ابن اخيه جمال الدين بن سيفا ابن يعقوب ثم توفي رزق الله هذا سنة ١٤٧٢ وخلفه ابن اخيه عبد المنعم الثاني ايوب بن عساف ابن جمال الدين هذا ما رايناه في النسخة التي لدينا من تاريخ

الدويهي ونرى هذه الرواية اصح مما جاء في التاريخ المطبوع من ان وفاة رزق الله كانت سنة ١٤٦٢ دون ذكر ولايته ولا ولاية عمه عبد المنعم الاول ومع ذكر وفاته مرة اخرى سنة ١٤٧٢ قال البطريرك الدويهي انه في ايام هولاء المقدمين استتبت الراحة بلبنان وكثر العمران وانشئت الكنائس والمدارس حتى كان في قرية حدشيت عشرون كاهناً وفي كنائس بشري نحو ثلثماية مذبح وكان في قرية الحدث ستماية زوج بقر وفي الحارة العليا من اهدن سبعون بغلاً وقد احصينا اسماء من كانوا من النساخ في ذلك العصر ممن وقفنا على كتبهم فاذا هم ينيفون على مئة وعشرة نساخ وفي ذلك الوقت اهملوا الخط الاسترنكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور ولما اشتهرت اخبار ما ساد بلبنان من الامن والراحة قصده كثيرون من البلاد البعيدة للسكنى فيه مثل اولاد جمعه الذين تركوا عين حليا وتوطنوا في بشري واولاد شاهين رحلوا من صدد الشرق وسكنوا في حصرون والخوري يوحنا والقس ايليا واخوهما الشدياق جرجس اولاد الحاج حسن انتقلوا من نابلس الى حدشيت والقس يعقوب ورفقاؤه هاجروا من الحبشة وترهبوا في دير مار يعقوب باهدن ولذلك سمي دير الاحباش اضافة اليهم

وفي سنة ١٤٨٧ وقع الشقاق في جبل لبنان بسبب المقدم عبد المنعم ايوب المار ذكره فان عبد المنعم هذا تعلم القراءة في ايام عمه المقدم رزق الله عند كاهن يعقوبي ولما توفي عمه وخلفه في المقدمية كان يتردد اليه تاجر اسمه موسى بن عطشه (كذا في نسخة تاريخ الدويهي التي لدينا وكانت بيد ذي الذكر الصالح البطريرك بولس مسعد مصححة بيده لاعطية كما في طبعة هذا التاريخ) وكان موسى المذكور مغويا ببدعة الطبيعة الواحدة وقد اشعر ان المقدم كان فاترًا في دينه فارسل اليه هدايا مع قسوس يعاقبة بفرصة عرسه وهم اكثروا من الهدايا له والتودد اليه فاحبهم وبنى لهم كنيسة بقرب داره على اسم برصوما واتفق حينئذٍ ان قدم من

القدس القس نوح البقوفاوي (الذي ذكرنا ترجمته وسكن في الفراديس بارض قرية بان واغوى بعض الاميين في عقائد الايمان واستهواهم الى التعلم والرهبانية عنده منهم عيسى وابن شعبان من حردين وموسى واخوه حنا ابنا ابراهيم ابن الحاج موسى من بقوفا وسميا وابنه جرجس من لحفد وموسى من قرية موسى ودس فيهم سم بدعة اليعاقبة وسعى بارتقائهم الى درجة القسوس على يد استاذه ديوسقوروس اسقف بيت المقدس فصاروا يرسمون اشارة الصليب باصبع واحدة دلالة على الطبيعة الواحدة ولا يذكرون في شملاية القداس الا ثلثة مجامع ولما بلغ خبرهم الى البطريرك بطرس الحدثي ارسل اليهم كهنة ورؤساء كهنة ينهونهم عن هذا الطغيان فلم ينتهوا وحمى جانبهم المقدم عبد المنعم والغرباء الذين قدموا من صدد وابلس والحبشة وعظم الشقاق في البلاد وتهدد المقدم عبد المنعم من اعترض لهم بالنفي من بلاده وضبط املاكه

الى انه في سنة ١٤٨٨ مل يعقوب اسقف اهدن واهلها من انذار القس يعقوب والاحباش القاطنين بدير مار يعقوب باهدن ايرعووا عن ضلالهم وعن بثه بين العامة فلم نقلعوا عن غيهم فرقوا الى درجة الاسقفية ابراهيم بن حبلص وانزلوه عليهم في الدير فلم يتحملوه ايحكم فيهم فرحلوا الى وادي حدشيت وجعلوا نفوسهم تحت حماية الشدياق جرجس ابن الحاج حسن واسكنوا في دير مار جرجس وسمي دير الاحباش اضافة اليهم فشق امرهم على الشدياق جرجس الذي كان شيخ حدشيت وعلى المقدم عبد المنعم ولما لم تكن لهم مقدرة على مناواة اهل اهدن استنجدوا باولاد زعزوع مقدم بشناتا فجمع هولاء رجال الضنية وقصدوا اهدن في صباح الاحد وعلم اهل اهدن بقدومهم فاقاموا لهم كميناً في حمينا ولما نزل رجال الضنية من الجبل وثب عليهم الكمين فاهلك كثيرين منهم وتتبع اهل اهدن من بقي منهم يقتلون فيهم الى مرجة تولا ولما علم اليعاقبة بذلك ضربتهم ايدي سبا

وشتت شملهم وفر بعضهم الى حردين وبعضهم الى كفر حورا وبعضهم ساروا الى قبرس وارتحل القس يعقوب ورفقاوه الى دير مار موسى في البرية

وفي سنة ١٤٩٣ عاد جبرائيل ابن القلاعي اللحفدي من اوروبا اذ كان قد انضوى الى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٤٧١ وارسلوه الى احد اديارهم لاقتباس العلوم وعند عودته اخذ ينصح ويعلم من كانوا على غير هدى او امينين ويخاصم من زاغوا عن الايمان ويندد بهم بخطبه ورسائله واشعاره ومنها قصيدة لاهل بشري يقول فيها مخاطباً هذه القرية

وانت من شار عليك حتى دخل يعقوب فيك
من تجديفه حل عليك غضب الله في ذاك الان
فاذا توبي يا حره واطردي الغربا الى برا
ويعقوب جسمه يتهرى ومارون اقبليه في الاحضان

ثم كتب في سنة ١٤٩٤ كتاباً سماه مارون الطوباوي وانفذه الى البطريرك سمعان الحدثي واساقفته يثبت فيه اتحاد الملة المارونية في كل وقت بالكنيسة الرومانية ويفند زعم من قال ان الموارنة فرقة من اليعاقبة

وفي سنة ١٤٩٥ توفي المقدم عبد المنعم ايوب فظهر ان الله عاجله بالمنية كيلا يتأصل الشقاق في جبل لبنان وتولى المقدمية على بشري بعده ولده جمال الدين يوسف وكان راسخاً في الايمان القويم وامرأته اصلحت كنيسة مار حوشب في بقاعكفرا عندما خربت حنيتها

وافادنا الدويهي ايضاً انه كان في العاقورة في اواسط هذا القرن خليل بن مقلد مقدماً على العاقوره وبنى القبو الذي عند عين القرية واقام فوقه برجاً

عدد ٩٥٣

في بطاركة الموارنة في القرن الخامس عشر

فرغنا من الكلام في بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر بذكر البطريرك داود المسمى يوحنا وقلنا انه توفي سنة ١٤٠٤ قال لكويان ذكر الدويهي ان داود خلفه يوحنا العاشر وكان من جاج ولا يعلم هل خلفه بعد وفاته او فرغ الكرسي البطريركي زماناً طويلاً الى ان انتخب يوحنا الجاجي المذكور والمعلوم انه لما وصلت اليه رسالة البابا اوجانيوس الرابع للدعوة الى المجمع الفلورنسي ارسل الاب جوان (يوحنا) رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت الى البابا يحقق له طاعته للكرسي الروماني وخضوعه لكل ما يسنه المجمع ويلتمس درع الرياسة وتثبيته في بطريركية انطاكية على الموارنة قال الدويهي (فصل ١١ من كتاب رد النهم) ان هذا البطريرك كان قد تولى رياسة الكرسي الانطاكي قبل انعقاد المجمع المذكور لكنه لم يستطع ان يستمد التثبيت من رومة بسبب ما كان من المخاوف والمخاطر على من يسافر بحراً ولعدم وجود من يحسن معرفة اللغات الافرنجية الى ان حضر اليه الاب يوحنا المذكور واعلمه بنهاية مدة رياسته وازماعه على السفر الى رومة فاوفده البطريرك الى الحبر الروماني ورفع اليه معه عريضة مشفوعة بعرائض اخرى من الاساقفة واعيان الملة يجاهرون فيها بتشبثهم بعرى الايمان الكاثوليكي المقدس وباذعانهم لكل ما يسنه المجمع ويلتمسون تثبيت بطريركهم قال المطران جبرائيل ابن القلاعي في الكتاب الذي رفعه الى البطريرك سمعان الحدثي سنة ١٤٩٤ « ان ايمانكم وخطوط ايديكم منذ مئتين وثمانين سنة وصاعداً محفوظة برومة وهي المرسلة على يد فرا غريفون وفرا اسكندر وفرا سمعان ومن قبلهم على يد فرا يوحنا رئيس دير بيروت ووكيل بطريرككم يوحنا الجاجي الى مجمع فلورنسة ومن قبله الخ » فثبت البابا اوجانيوس يوحنا الجاجي في بطريركية انطاكية وارسل اليه صحبة قاصده تاجاً

ودرماً وقال المطران جبرائيل ابن القلاعي في ذلك

يوحنا الجاجي كان بطرك اقتبل من البابا تاج وتبارك
بعث للمجمع ولم يتحرك وثبته لمارون في رعيان

ولما رجع قاصد البطريرك انحدر الشعب الى لقائه في اطرابلس بمسرة وابتهاج فتوهم نائب المدينة انه جاسوس من قبل الفرنج فقبض عليه وعلى رفقته واودعهم السجن وعرف البطريرك ذلك وكان قاطناً بدير سيدة ميفوق في وادي ايليج من اعمال البترون فارسل قوماً من اعيان الملة ليوقفوا النائب على الحقيقة ويزيلوا ما توهمه فاخرجوا القاصد ومن كان معه من السجن بكفالة فصعد فرا يوحنا الى دير ميفوق وبلغ البطريرك رسالة البابا والبسه درع الرياسة ثم سار الى بيروت فطلبه نائب اطرابلس فلم يجده فحنق حنقاً شديداً وارسل عسكر في جلب البطريرك والكفلاء فانهزموا فنهب العسكر الدير واحرقوا البيوت وقتلوا كثيرين واخذوا البعض مقيدين بالسلاسل الى اطرابلس ومنذ ذلك الحين هجر البطريرك دير ميفوق واقام بدير قنوبين تحت حماية يعقوب مقدم بشري المار ذكره

ثم دعا البطريرك احد رهبان القديس فرنسيس اسمه بطرس من فرارا وارسله الى البابا اوجانيوس في شهر آب سنة ١٤٤٠ وكتب اليه معه رسالة ضمنها الشكر له لتكرمه عليه بالتثبيت وتحقق طاعته وطاعة امته للكرسي الرسولي في كل وقت والخبر عما جرى لهم عند وصول قاصده الى اطرابلس وما قاسوه من الاضطهاد لذلك فارسل اليه الحبر الروماني الجواب مؤرخاً في ثاني كانون الاول من سنة ١٤٤١ وسنذكر رسالة البابا اوجانيوس هذه في محل اخر ثم توفي البطريرك يوحنا الجاجي في دير قنوبين سنة ١٤٤٥ وهو اول من سكن دير قنوبين من بطاركة الموارنة

وخلفه يعقوب الثاني الحدثي قال لاكويان نقلاً عن البطريرك اسطفانوس

الدويهي في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك يوحنا الجاجي اجتمع الاساقفة ورؤساء الاديار واعيان الشعب في دير قنوبين وانتخبوا يعقوب بن عيد من الحدث بطريركاً وكان منذ صغر سنه قد تربى في السيرة الملكية بحبسة القديس سركيس شرقي دير مار يوحنا المعروف بدير مار ابون وكان لرئيس هذه الحبسة الرياسة على جميع الحبساء في جبة بشري وبعد انتخابه ارسل قاصداً الى البابا اوجانيوس الرابع يسأله ان يمن عليه بتثبيته في البطريركية وبارسال درع الرياسة واتفق ان مات البابا اوجانيوس الرابع سنة ١٤٤٧ فارسل اليه البابا نيقولاوس الخامس براءة التثبيت وكانت محفوظة في دير قنوبين في ايام البطريرك اسطفانوس الدويهي وربما هي اليوم باقية في الكرسي البطريركي وربما كانت هي البراءة التي روى الدويهي في تاريخه ان البابا نيقولاوس الخامس ارسلها سنة ارتقائه الى الحبرية الى هذا البطريرك يطلب اليه ان يدعو له وان يوصي شعبه ليقتدوا باسلافهم في المحافظة على الاتحاد بالكنيسة الرومانية وانه اذا احتاج الى شيء فليستشر اندراوس اسقف لافقسية بقبرس فهو نائبه بهذه الجزيرة ثم توفي البطريرك يعقوب الحدثي في ٨ شباط سنة ١٤٦٨

ومن التعليقات على كتاب الاناجيل القديم الذي كان في بطريركية الموارنة وهو الان في المكتبة الماديشية ما نقله المطران اسطفان عواد السمعاني عنه في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المذكورة وهو بحروفه « لما كان تاريخ سنة ١٧٧٣ من سنين اسكندر (سنة ١٤٦٢) اوقف البطرك يعقوب العصا البلور للدير المبارك قنوبين وعن الاب البطرك بطرس اي من خرجها من الدير المبارك او قالها انها له او رهنها او بيعها يكون محروم مفروز مغضوب ومسخوط من الله ومن كرسي مار بطرس ومن جميع الكراسي ومن حقارتنا » وورد ذكر هذا البطريرك في خط اخر علق على هامش الكتاب المذكور صفحة ١٩ وهو بحروفه « لما كان

تاريخ سنة ١٧٧٢ من سنين اسكندر اليوناني سنة ١٤٦١) اوقف الخوري جرجس والخوري هلال اقساطنين في دير حوفا اوقفوا من تعبهم وعرق جبينهم للدير المبارك سيدة قنوبين الدست الكبير وجعلوه تذكاراً صالحاً عن نفسهم في الدنيا والاخرة ورحمهم الله امين ... وكان الوقف في ايام ابونا ومعلمنا ورئيسنا وتاجنا ومدبرنا البطرك مار يعقوب الحدثي رحمه الله ورحمنا في بركة صلاته آمين .

والناتج من هذين الخطين ان البطريرك يعقوب الحدثي استمر حياً الى ما بعد سنة ١٤٦٢ لانه توفي سنة ١٤٥٨ كما في تاريخ الدويهي المطبوع وفي النسخة المخطوطة التي لدينا واظن ان المرحوم البطريرك بولس مسعد اغتر لهذه النسخة حتى جعل وفاة البطريرك يعقوب الحدثي سنة ١٤٥٨ ومثله طابع تاريخ الدويهي واظن ايضاً ان ذكر وفاته سنة ١٤٥٨ في هذا التاريخ من غلط النساخ لان لكوين نقل كلامه عن الدويهي ومع ذلك عين لوفاته سنة ١٤٦٨ كما ذكرناها عنه وايد رأينا الخطان المذكوران

وفي اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك يعقوب اجتمع الاساقفة والرؤساء والاعيان فانتخبوا الاسقف بطرس بطريركاً وعرفه الدويهي في تاريخه بانه بطرس ابن يوسف بن يعقوب الشهير بابن حسان وقال في الفصل ١٣ من الاحتجاج انه كان اخا البطريرك يعقوب المتوفي وارسل البطريرك والاساقفة فرغ زون الذي قدمنا ترجمته الى البابا بولس الثاني يلتمسون اثبات البطريرك ومنحه درع الرياسة هذا ما رواه الدويهي ونقله عنه لكوين واردفه بقوله ان في كتاب وصف الارض المقدسة لكوارزميوس (في اخر المجلد ٢) رسالة من البابا بولس الثاني الى هذا البطريرك مفتتحة . بولس الاسقف عبد عبيد الله الى الاخ المحترم بطرس بطريرك الموارنة المسمى انطاكياً السلام والبركة الرسولية ان اله القوات القادر على كل شيء . الى ان يقول . ولما كنا لا نشك في انك مستعد لقبول هذه التعاليم

وغيرها من الاوامر الرسولية بدعة وطيبة خاطر قد اردنا اقتفاء بآثار اسلافنا الصالحي الذكر اينوشنسيوس الثالث واوجانيوس الرابع ان نثبت انتخابك ونسميك ونرقيك الى رياسة كنيسة الموارنة الانطاكية وان نويد كل ما كان قبلاً ونثبت جميع الحقوق والعادات الممدوحة الآئلة لنفعك ونفع اسلافك وفائدة الطائفة المارونية .... ونسلم اليك الاهتمام بهذه الطائفة في الروحيات والزمنيات

اعطي برومة حذا كنيسة القديس بطرس في شهر آب سنة ١٤٦٩ وهي الخامسة لحبريتنا

ومن الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل المذكور خط علق على صفحة ٢٠ منه وهذا هو بحروفه . لما كان تاريخ سنة ١٨٠٤ يونانية (سنة ١٤٩٣) اوقف الاب البطرك بطرس بن داود بن حسان من قرية الحدث البدلة الحمرة وايضاً العصاة والعكاز الفضة واوقفهم بعد موته عن نفسه لدير الست السيدة قنوبين فاي من يرهنهم او يبيعهم او يشتريهم او يخرجهم من الدير بغير رجعة تكون هذه الحرومات المذكوره حالة عليه وعلى هامته ويكون ممنوع محروم مفروز مغضوب مسخوط من الله تعالى ومن كرسي مار بطرس رئيس التلاميذ ومن جميع الكراسي ومن حقارتنا وشهد على ذلك الاب المطران جرجس من جاج شهد بذلك الاب الخوري سمعان ابن عميد من قرية الحدث شهد بذلك الاب الخوري يعقوب من قرية الحدث شهد بذلك العبد الحقير كاتبه دانيال

قال لكويان توفي البطريرك بطرس في ١٢ شباط سنة ١٤٩٢ والذي في تاريخ الدويهي انه توفي في ١٢ تشرين الاول سنة ١٤٩٢ ولا نعلم اي الروايتين هي الاصح والظاهر من الخط المذكور انه لم يكن حياً سنة ١٤٩٣ لان البطريرك بن داود هو البطريرك سمعان الاتي ذكره لا بطرس بن يوسف الذي كان قد توفي قبلاً

وفي اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك بطرس اجتمع الاساقفة وانتخبوا خلفاً

له الاسقف سمعان الحدثي ابن داود بن يوسف بن حسان الحدثي وهو ابن اخي البطريرك بطرس وبعد انتخابه بطريركاً ارسل يطلب تثبيته وفصل الدويهي ذلك في الفصل الخامس عشر من كتاب رد التهم عن الموارنة فقال ان هذا البطريرك لم يفتر بعد انتخابه بطريركاً من ارسال الرسائل الى رومة يطلب تثبيته على يد الاب فرنسيس سوريانوس رئيس اديار القدس ونائب الباباوات اسكندر السادس وبيوس الثالث ويوليوس الثاني ولاون العاشر وعلى يد الاب اوسان والاب اسكندر من رهبان القديس فرنسيس اللذين كانا قد حضرا الى البطريرك الا انه لم يأته الجواب بسبب ما كان حينئذٍ من اخطار السفر بحرًا والحروب في بلاد الشام وتعاقب الباباوات في مدة يسيرة ففي سنة ١٥١٣ ارسل البطريرك كاهناً اسمه بطرس الى الاب مرقس رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت يستلم منه عن وقت عود السفن الراسية في مرفأ بيروت الى اوروبا ليرسل معها رسالة يطلب بها التثبيت فعند وصول القس بطرس الى بيروت كانت تلك السفن متحفزة للسفر وقد رفعت اناجرها فاقنع الرئيس القس بطرس ان يسافر الى رومة مع تلك السفن ودفع اليه كتاباً الى البابا لاون العاشر اخبره به ان الامة المارونية هي من اقدم الايام مطيعة للحبر الروماني في كل شيء وان بطاركها ارسل عدة دفعات يطلب التثبيت فلم يتيسر له نيله وذكر له اضطرار سفير البطريرك ان يسافر بغتة وسأل قداسته ان ينعم بالتثبيت وسافر القس بطرس ورفع كتاب الرئيس الى الحبر الروماني ولما لم يستطع ان يجيب البابا وآل مشورته عما سئل عنه ارجعوه الى بيروت برسالتين احداهما الى البطريرك والثانية الى رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت ليخبروهم مفصلاً عن معتقد الموارنة وعاداتهم وكيفية تقديسهم الميرون وانتخابهم البطريرك وهل عندهم براءات او رسائل من الاحبار الرومانيين السالفين

وفي بداءة سنة ١٤١٤ عاد القس بطرس الى لبنان وارسل البطريرك خبر الاب فرنسيس سرريانوس والاب مرقس رئيس دير بيروت بما كان فساد الاب فرنسيس الى فنوبين وصحب معه ترجماناً فترجم رسالة البابا الى العربية وكتب البطريرك الجواب مشيعاً الى البابا فترجم الى اللاتينية قال الدويهي ونسخة هذا الجواب اللاتينية لم تزل مصونة عندنا الى الآن وهي تتضمن اولاً الاقرار بان الله واحد مثلث الاقانيم وان كلمة الله تجسد وتألم ومات وقام في الجسد الذي اخذه من مريم ثانياً ان انتخاب البطريرك الجديد يكون باجتماع رؤساء الكهنة واعيان الشعب ثالثاً انهم يقدسون الميرون على الطريقة القديمة رابعاً شرح الرتب البيعية والحلل الكهنوتية وما تشير اليه خامساً ان جميع البطاركة الذين سلفوا قبله كانوا خاضعين لصاحب الكرسي الروماني مع شعبهم كافةً سادساً طلب التثبيت لنفسه مع بدلة كاملة وصليب وخاتم واوجه للمذبح واربعة دروع للشمامسة على شبه التي ارسلها قديماً البابا اينوشنسيوس الثالث ثم اوجانيوس الرابع سابعاً ان يرسل حيناً بعد حين رجالاً فضلاء علماء لافتقاد الموارنة وتوثيق عرى الاتحاد بينهم وبين الكنيسة الرومانية ثامناً ان يمنع اسقف الفرنج في قبرس عن التعدي على اوقاف الموارنة في هذه الجزيرة تاسعاً ان يوصي حكام قبرس من البنادقة ان يعاملوا بالرقة واللين من لجأ اليهم من النصارى عاشراً ان يكتب رسالة الى المقدم الياس المدعو عساف بن يوسف المارونى من بشري لتكون له الغيرة على جماعته اهل لبنان حادي عشر ان يمنح بعض الغفارين الكاملة للموارنة تنشيطاً لهم وانهاضاً لهمتهم في بناء الكنائس

ثم بعث البطريرك مع قاصده الى الحبر الروماني ست براآت من البراآت التي ارسلها اسلافه الى بطاركة الموارنة اعني براءة البابا اينوشنسيوس الثالث الى البطريرك ارميا في سنة ١٢١٥ وبراءة البابا اسكندر الرابع الى البطريرك شمعون

سنة ١٢٥٦ وبراة اوجانيوس الرابع الى البطريرك يوحنا الجاجي سنة ١٤٣٩ وبرآة البابا نيقولاوس الخامس الى البطريرك يعقوب الحدثي سنة ١٤٤٧ وبرآة البابا كاليستوس الثالث الى البطريرك يعقوب المذكور سنة ١٤٥٥ وبرآة البابا بولس الثاني الى البطريرك بطرس الحدثي سنة ١٤٦٤ وكانت عريضة البطريرك مؤرخة في ٨ من اذار سنة ١٥١٥ وكتب الاب سوريانوس ايضاً الى الحبر الاعظم مصادقاً على ما عرضه البطريرك من صحة عقيدتهم وثبوتهم في الايمان الكاثوليكي

وسار القس بطرس راجعاً الى رومة ورفع الى البابا لاون العاشر ما كان معه من الرسائل فسرَّ بها واجاب البطريرك في اليوم الاول من آب سنة ١٥١٥ ومما قاله في جوابه قد سررنا وطابت نفسنا بتلاوة رسائلك وسماعها وامتلأ فوادنا طرباً لا يوصف فترتب علينا ان نمجد الله تعالى ونشكره بمجموع قوانا على ما اولاكم من نعمه وسوابغ الآئه لانه اصطفاكم من بين كنائس المشرق لتعبدوه بايمان وصانكم في بهرة الكفر والبدع كما صين الورد بين الشوك ليتمجد اسمه بين غير المؤمنين وقد تشبثتم بعادات الكنيسة الجامعة الرومانية وبرتبها بنقاوة لا ريب فيها ولم تزيغوا عن الايمان بالمسيح بسبب الضيم والضنك والاضطهاد الذي يلم بكم على ما علمنا من كتابكم ورسالة الاب فرنسيس سوريانوس ، واثبته في البطريركية وارسل اليه مع القس بطرس المذكور درع الرياسة واوصاه ان يكون للموارنة مكان الراس وهم مكان الاعضاء وامره ان لا يستعملوا في الميرون الا الزيت والبلسم كما تسلمت الكنيسة من الرسل الاطهار وكما تعهد قديماً البطريرك ارميا في ايام اينوشنسيوس الثالث ان يكون تقديس الميرون كل سنة يوم خميس الاسرار وان يعتقدوا ان الروح القدس ينبثق من الاب والابن كمن مبدا واحد وان يتناولوا القربان الاقدس ولو مرة في الفصح وارسل الى البطريرك تاجاً مرصعاً وغفارتين احداهما قرمزية والاخرى مخملية حمرآء وبطراشيلين وغطا للمذبح من مخمل احمر مزركش وسناراً

للكرسي وزنارًا من حرير وقيصاً وبعث ايضاً لشمامسته مدرعتين ممرعزتين ومدرعتين حمراوين مزركشتين

ثم كتب لاون العاشر اليه رسالة اخرى في اول ايلول من السنة المذكورة اعلمه فيها انه ارسل كتاباً الى ليوندروس امير البندقية اوصاه فيه بالموارنة القاطنين بقبرس وكتاباً اخر الى المقدم الياس الماروني المذكور يوصيه فيه بالغيرة على امور الدين وبالاجتهاد على نجاح طائفته وكتاباً اخر الى مطران الافقسية ينهاه به بامر الطاعة عن الاعتداء على املاك دير القديس يوحنا بقبرس وعلى سائر اوقاف الموارنة وكتب اعلاماً عاماً في ان الكنيسة المذكورة وسائر اوقاف الموارنة بقبرس يكون وليها بطريرك الموارنة وان من اعتدى عليها يسقط بالحرم وان كان المتعدي اسقفاً فيكون مربوطاً ثم منح غفراناً كاملاً مؤبدًا لكل من يزور كنيسة الكرسي البطريركي في عيد انتقال العذرا وعيد ميلاد يوحنا المعمدان وعيد الرسولين بطرس وبولس وعيد ارتفاع الصليب اذا اعترف وتناول القربان الاقدس واحسن بشيء الى الكرسي البطريركي وفوض المعرفين ان يحلوا من الخطايا المحفوظ حلها للروساء وان يبدلوا النذور باعمال اخرى صالحة ما خلا نذري العفة ودخول الرهبانية . وعاد القس بطرس بهذه المنح الى البطريرك فكان ذلك موجباً للسرور والابتهاج للبطريرك والملة جماء

وفي السنة المذكورة انتهت مدة رياسة الاب يوحنا من رهبانية القديس فرنسيس على دير بيروت فتوجه الى البطريرك سمعان الى قنوبين واقام عنده بضعة ايام فارسل البطريرك معه الى رومة الخوري يوسف وراهبين ليتعلما اللغة اللاتينية والعلوم وصحبهم برسالة الى البابا فبلغوا المدينة العظمى حين انعقاد المجمع اللاتراني الخامس فتليت رسالة البطريرك بالعربية ثم ترجمتها الى اللاتينية في المجمع ودونت في اعمال المجلس الحادي عشر منه وامر البابا بان ينزلوا عند الكردينال

ستاكروس عند كنيسة مار اغوسطينوس وعند ما طلب الخوري يوسف ان يقدس امر الكردينال ان يفحص كتاب القداس فلم يوجد في رومة من يحسن اللغة السريانية الا رجل اسمه تاسيوس امبروسيوس كان يعرف هذه اللغة بسبب مخالطته للعبرانيين هذا ما رواه الدويهي في كتاب الاحتجاج وكان قد روى في تاريخه ان تاسيوس المذكور درس السريانية على قصاد البطريرك والعبرانية على رجل يهودي ومنذ حينئذٍ اخذ الاوربيون يدرسون السريانية

ولما توفي البابا لاون العاشر سنة ١٥٢١ وخلفه البابا اوربانوس السادس ارسل البطريرك شمعون اليه القس موسي العكاري رئيس دير حوقا والراهب الياس بن زرزور الحدثي ناظر املاك دير قنوبين فخلا برومة عند الكردينال برنرديوس ستاكروس اسقف استيا ثم رفعا الى البابا عريضة البطريرك فتقبلهما البابا بالبشاشة والاعزاز وارسل الى البطريرك الجواب مؤرخاً في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٥٢٢ ومما قاله فيه انه تحقق صحة ايمانه وايمان شعبه ليس من رسالته فقط بل مما شهد به ايضاً القصاد الذين ارسلهم اليه البابا لاون العاشر فانهم قرروا ان الموارنة لا يختلفون بشيء عن الكنيسة الرومانية ولذلك يشكر الله على ما انعم به على الموارنة ويساله تعالى ان يباركه ويبارك مطارينه واساقفته وكهنته وشمامسته وجميع الشعب الماروني الكاثوليكي وارسل الى البطريرك مع قاصديه بدلتين واربعة دروع مزركشة وبطراشيلين وزندين مزركشين وكتونة بيضاء وكفاً وبشخوناً وتاجاً مرصعاً بلؤلؤ وغفارة ومقعداً من مخمل واوجهاً للمذابح مزركشة بتصاوير وغطا كاس مذهباً وزناراً بشماريخ وخاتماً وصليباً وكاسين وصينيتين من فضة وعصا فضة مؤلفة من خمس قطع وقالباً للبرشان وكتاب ناموس افرنجي وبعد وصول القاصدين الى قنوبين رفع البطريرك عريضة الشكر للحبر الروماني ورقى القس موسى العكاري الى الاسقفية فكان خليفته في البطريركية كما سترى ثم توفي البطريرك

سمعان الحدثي في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٥٢٤ وعمره نحو مئة وعشرين سنة

ومن الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل المذكور ونقلها عنه المطران اسطفانوس عواد في كتابه فهرست الكتب الشرقية التي في المكتبة الماديشية خط علق على صفحة ١٩ من الكتاب المذكور وهو « لما كان تاريخ سنة ١٨٢٧ يونانية (توافق سنة ١٥١٦) ارسل البطريرك بطرس ܒܪ ܕܘܝܕ ܘܡܬܩܪܐ ܒܪ ܚܣܢ ܡܢ ܩܪܝܬܐ ܡܒܪܟܬܐ ܚܕܬ ܘܫܕܪ ܠܗ ܦܐܦܐ ܕܪܘܡܝ (اي بطرس ابن داود المسمى ابن حسن من قرية الحدث المباركة وارسل له بابا رومة) على يد رهبانه فرنسيسكو رئيس القدس وترجمانه اول الحوايج وجه المذبح وثانيهم كف وحذا مزركش » ويعدد ما بقي مما ذكرناه من البدلات والغفارات والتاج الى ان يقول ان من هدايا البابا « جوختين ܠܡܩܕܡܐ ܕܡܪ̈ܘܢܝܐ ܘܡܬܩܪܐ ܠܐܠܝܐ ܒܪ ܝܘܣܦ (لمقدم الموارنة المسمى الياس بن يوسف وكذلك عشر جوخ لصبيان الدير »

وعلق على صفحة ٢٢ من الكتاب المذكور خط اخر هذا هو بحروفه « في سنة ١٨٠٦ يونانية (توافق سنة ١٤٩٥) البطريرك بطرس بن داود بن حسن اشترى بقرية حدث لدير قنوبين من يوحنا ابن يوسف ابن ابراهيم من قرية عبدين حقلة فيها خمسين عرق زيتون وحدودها من الشرق الدرب من الغرب العرقوب من القبلة كرم يوحنا المذكور من الشمال حقلة الجمال ومن يجاسر ويفسد هذا المشترى غضب والدة الله يحل عليه شهدوا بذلك المطران جرجس والخوري سمعان والخوري يعقوب » وهناك خط اخر « لما كان تاريخ سنة ١٨٣٢ يونانية (توافق سنة ١٥٢١) انقطع حجر طاحون بقرية بان وانتقل الى طاحون دير قنوبين وكاف مائة غرش بايام ابينا بطرس (سمعان) البطرك الانطاكي والمطارين يعقوب الحدثي وجرجس »

ولا يخفى على القراء ما في ذكر هذه الخطوط من الفائدة في اثبات بطريركية

البطريرك سمعان المذكور وتعيين مدتها فضلاً عن الفكاهة بذكر هذه الامور القديمة

عد ٩٥٤

في من نعرفهم من مطارين الموارنة في القرن الخامس عشر

نعرف من هولاء الاساقفة الاول المطران بطرس ابن الحوري سمعان من اهدن كان مترأساً على هذه البلدة في سنة ١٤٠٤ ذكره البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخ هذه السنة

الثاني المطران سمعان من قرية مشمش من عمل جبيل ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٤٠ وقال انه سار مع البطريرك عند انتقاله من دير ميفوق الى دير قنوبين عندما جعل هذا الدير كرسياً لبطريركية الموارنة

الثالث المطران الياس اسقف الموارنة بقبرس ذكره كثيرون منهم الدويهي وعند اتحاد الروم بالكنيسة الرومانية في المجمع الفلورنتي اوفد الكاهن اسحق نائباً عنه الى البابا اوجانيوس الرابع فسار مع تيموتاوس اسقف الكلدان الذي كان قد ارعوى عن بدعة النساطرة الى الايمان القويم فاثبت تيموتاوس ارتجاعه الى الايمان الكاثوليكي باليمين وحلف اسحق نيابة عن مطرانه الياس اليمين التي يحلفها روساء الكهنة في الكنيسة الرومانية على صحة ايمانهم وخضوعهم للكرسي الرسولي فتوهم بعضهم ان المطران الياس والموارنة الساكنين بقبرس كانوا هراطقة وارعووا عن ضلالهم وسنفرد لرد هذه التهمة الفصل التالي

الرابع المطران يعقوب نائب البطريرك بطرس بن حسان الحدثي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٥٨ وقال انه كان قائماً بمعاضدة البطريرك المذكور وهو غير المار ذكره في احد الخطوط المثبتة انفاً

الخامس المطران داود ابن المقدسي حنا ابن الاسقف داود الحدثيتي ذكره

الدويهي ايضاً في تاريخ السنة المذكورة وقال انه كان بمعاضدة البطريرك المذكور وروى عنه في تاريخ سنة ١٤٦٦ حصول قحط ومجاعة بسبب امحال الزروع مدة سنتين لطول القيظ وان ذلك كان في ايام الملك الظاهر خشقدم المار ذكره

السادس المطران بطرس مطران اهدن ذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٤٧٣ ولا نظنه المطران بطرس ابن الحوري سمعان الذي روي انه كان مترأساً على اهدن سنة ١٤٠٤ بل هو بطرس آخر توفي سنة ١٤٧٣ وخلفه المطران يعقوب ابن رئيس اهدن (كذا في النسخة المخطوطة وفي تاريخ الدويهي المطبوع) وهو السابع سكن بدير مار سركيس رأس النهر وهو الذي طرد الرهبان اليعاقبة الاحباش من دير مار يعقوب اهدن

الثامن المطران يعقوب اسقف بشري ذكره الدويهي وفاته سنة ١٤٧٣ ايضاً وخلفه للطران حزقيال تلك السنة وهو التاسع وكان رئيساً على دير السيدة بحوقا وورد اليه رسالة من البابا خسوسطوس الرابع في تاريخ ١١ ايار سنة ١٤٧٤ وتوفي سنة ١٤٨٩

العاشر المطران سمعان بن داود بن يوسف الحدثي رقاه عمه البطريرك بطرس الحدثي الى اسقفية العاقوره واليموني سنة ١٤٨٠ وسكن بدير قنوبين ثم خلف عمه البطريرك بطرس كما مر

الحادي عشر المطران سمعان بن ظريفه ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٢ وقال انه انتقل من المنيطرة الى العاقوة من جور المستراحية الذين تقووا بالمنيطرة وعزلوا اولاد قصاص من المشيخة

الثاني عشر المطران ابراهيم بن حبلص من اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٨ قائلاً ان المطران يعقوب اسقف اهدن واعيانها سعوا بترقيته الى الاسقفية وانزلوه على الرهبان الاحباش اليعاقبة المقيمين بدير يعقوب اهدن حتى

رحلهم عنه

الثالث عشر المطرن يوسف اسقف بشري روى الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٩ انه توفي حزقيال اسقف بشري الذي قدمنا ذكره وخلفه في هذه الاسقفية المطران يوسف

الرابع عشر المطران جرجس صدقني من مزرعة الحدث

الخامس عشر المطران يوحنا المسمى بالافرنجي

السادس عشر المطران نادروس العيطوري

السابع عشر المطران يوسف القبرسي ذكر الدويهي هولاء جميعاً في تاريخ سنة ١٤٩٤ وقال انهم كانوا مع المطارين يعقوب الاهدني وابراهيم بن حباص ويوسف اسقف بشري وداود الحدشيتي المار ذكرهم رجال ديوان البطريرك سمعان اذ قدم لهم جبرائيل ابن القلاعي كتابه في ثبوت الموارنة الدائم على الايمان الكاثوليكي وروى ان المطران تادروس المذكور الذي كان مقيماً بدير السيدة بمنطورين توفي في ٢٩ من شهر اذار سنة ١٥٠٠ وسلم الدير تلميذه القس وهبه

وقد عثرنا ايضاً على اسم المطران جرجس من جاج في الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل القديم المحفوظ الان في المكتبة الماديشية منها الخط الذي ذكرناه في الكلام على البطريرك سمعان الحدثي حيث ذكر من شهود وقفه لدير قنوبين المطران جرجس من قرية جاج وكذلك جاء ذكره بمنزلة شاهد في الخط المنبيء بشراء هذا البطريرك الزيتون في الحدث سنة ١٤٩٥ وفي الخط الاخر المؤرخ في سنة ١٥٢١ وجاء في الخطوط المعلقة على صفحة ٢٢ من الكتاب المذكور ذكر شهادة المطران سمعان في وقف سركيس من سرعل بستاناً لدير قنوبين سنة ١٤٩٦ ولا نعلم اهو المطران سمعان بن ظريفه المار ذكره ام هو مطران اخر

عدد ٩٥٥

في تفنيد راي من زعم ان الموارنة واسقفهم الياس مطران قبرس رجعوا الى الايمان في ايام البابا اوجانيوس الرابع

قد مر في عدد ٩٥١ ان البابا اوجانيوس الرابع ارسل اندراوس رئيس اساقفة رودس الى المشرق بعد نقل المجمع الفلورنسي من فلورنسا الى رومة لتثبيت من اتحدوا بالكنيسة الرومانية في المجمع ودعوة من لم يتحدوا الى الاتحاد وان اندراوس اتى الى قبرس فرد تيموتاوس مطران الكلدان من بدعة نسطور الى الايمان الكاثوليكي فتلا دستور ايمانه بحضرة اندراوس المذكور وان الياس مطران الموارنة في هذه الجزيرة تلا دستور ايمانه ايضاً ثم سار تيموتاوس الى رومة وارسل المطرن الياس اليها كاهناً اسمه اسحق لينوب عنه لدى البابا اوجانيوس في تقرير ايمانه الكاثوليكي وبعد وصولهما الى رومة كررا تلاوة دستور ايمانهما وحلفا على صحته سنة ١٤٤٤ بمجلس عقد في لاتران فتوهم بعض المؤرخين ان المطران الياس والموارنة سكان قبرس وقتيئذٍ كانوا ضالين ضلال مكاريوس بان في المسيح مشية واحدة وفعلا واحداً فارعووا عنه حينئذٍ وجاوز بعضهم حد كل اعتدال وصدق وتوسعوا من البعض الى الكل فزعموا ان الموارنة اجمعين اقلعوا في ذلك الحين عن بدعة المشيئة الواحدة فنفند زعم هؤلاء جميعاً مبرئين اولاً ساحة الملة المارونية من كل ضلال واقلاعهم عنه في ذلك الحين ثانياً ساحة الياس مطران قبرس الماروني وشعبه القبرسي من الضلال

تبرئة الملة المارونية من ذلك

قد رأيت في عدد ٩٥٣ ان البطريرك يوحنا الجاجي الذي عقد المجمع الفلورنسي في ايامه ارسل الى البابا اوجانيوس الاب يوحنا رئيس دير رهبان القديس فرنسيس في بيروت مصحوباً بالرسائل منه ومن اساقفته واعيان شعبه يجاهرون فيها بتشبثهم

بعرى الايمان الروماني وباذعانهم لكل ما يتقرر في المجمع المذكور ويلتمسون منح البطريرك درع الرياسة والتثبيت فتوجه بها الاب يوحنا المذكور وقدم الرسائل الى البابا اوجانيوس المذكور سنة ١٤٣٩ وهو في المجمع بفلورنسا فاثبت البابا البطريرك وارسل اليه مع قاصده درع الرياسة وتاجاً وعاد الاب يوحنا بذلك سنة ١٤٤٠ فاستقبله الموارنة باحتفال في اطرابلس فتوهم نائب المدينة ان القاصد جاسوس فحبسه ومن كان معه فكفله بعض ابناء الملة واخرجوه من السجن ثم طلبه النائب فلم يحضر فارسل عسكرًا الى ميفوق حيث كان البطريرك فقتل ونهب ونكل فدعا البطريرك الاب بطرس من فرارا من الفرنسيسين وارسله الى البابا في شهر آب سنة ١٤٤٠ مصحوباً برسالة ضمنها شكره للبابا على ما انعم عليه به من التثبيت واخباره بما كان عند وصول قاصده الاب يوحنا فاجابه البابا اوجانيوس برسالة اثبتها برمتها البطريرك اسطفانوس الدويهي في الفصل الحادي عشر من كتابه رد التهم عن الموارنة ونحن نلخصها هنا عنه

« اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله الى الاخ المحترم يوحنا بطريرك الموارنة السلام والبركة الرسولية قد اطلعنا على ما كتبتموه لنا في شهر آب الفائت صحبة الولد العزيز الراهب بطرس من الاخوة الصغار ونظرنا فاذا نعمة الهنا وسيدنا يسوع المسيح معكم لقبولكم تعاليم ايمانه بكل رضى واختيار ولكم رجاء وطيد في الكرسي الرسولي وفي كل من يتولى رياسته فالاله الضابط الكل يفيض نعمه عليكم وعلى الشعب الذي تحت طاعتكم وكما كان الخضوع سبباً لانتظام سائر الفضائل التي تمدحون عليها فلتكن طاعتكم ايضاً لكل ما نكتبه اليكم لتمتلئوا حكمة ونعمة ولا يكفي ان تسلكوا بها انتم وحدكم بل ان تقودوا ايضاً الشعب والامم الاخرى في تلك البلاد والاعمال القاصية الى الحياة الدائمة بامثال افعالكم ولما لم يمكنا ان نبين لكم كل شيء في كتابنا هذا ارسلنا اليكم الولد العزيز الراهب انطونيوس من طورية

من الرهبانية المعروفة بالاخوة الصغار (من رهبان القديس فرنسيس) وجملناه رفيقاً لولدنا الراهب بطرس من فرارا وهما يشرحان لكم كل ما تعتقد به الكنيسة الكاثوليكية ولا يكفي ان تقبلوها وان تكونوا متحدين بالكرسي الرسولي بل ان تقووا نفوسكم ايضاً على الثبات والمحاربة لاجل الايمان لتنالوا الاكايل ولم نقل ذلك لريبة لنا في ثباتكم وثبات ملتكم بل لاننا علمنا انكم استقبلتم قصادنا واظهرتم بهجة ومسرة زائدة حتى اغضبتم اعداءكم عليكم فقبضوا على البعض من روسائكم وقتلوا البعض وصبرتم على ذلك بشهامة كبرى وصح فيكم قول الرسول انكم صبرتم على نهب اموالكم بفرح عظيم ويتحتم علينا في مخاطبتنا لكم ان نبين ما تستحقون عليه الثناء والثواب الابدي واذا فعلتم ما ذكرناه وكنتم مستعدين للعمل به استشعرتم في قلبكم بفرح جزيل من اجل الهبات العظيمة المنحدرة عليكم من لدن الله

كتب بفلورنسة سنة ١٤٤١ لتجسد المخلص في اليوم الثاني عشر من كانون الاول وفي السنة الحادية عشرة من حبريتنا »

ثم ان الموارنة سكان اورشليم وفلسطين رفعوا عريضة الى البابا اوجانيوس الرابع سنة ١٤٣٨ صحبة الاب البرتس من الفرنسيسيين ايضاً يبينون بها تشبثهم بعرى الايمان الكاثوليكي وخضوعهم لكل ما يرسمه المجمع المذكور فاجابهم البابا بالرسالة الاتية وقد اثبت البطريرك الدويهي ترجمتها برمتها في الفصل الثاني عشر من كتابه في رد التهم عن الموارنة ونقلناها عنه مصلحين قليلاً العبارة العربية

« من اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله الى الابناء المحبوبين الموارنة المقيمين باورشليم وجوارها وسائر بلاد المشرق السلام والبركة الرسولية

المجد لله في العلا وعلى الارض السلام والمسرة لبني البشر ذوي الارادة الصالحة يحسن بنا ايها الابناء الاعزاء ان نهتف هتاف الفرح بنفس مبتهجة يخالط ابتهاجها بابتهاج الملائكة اذ نبشركم بالسرور غير الموصوف الذي شمل جميع المسيحيين

فان عقلنا ترطب بندى التعزية الالهية وفوادنا تهلل بالرب ونرى نفسنا عاجزة عن وصف ما نشعر به من السرور وطمأنينة الخاطر فنقتصر على ترديد اصوات التسبيح والحمد والشكر فان ما كنا نطلبه ونجدُّ في نيله من قبل ان نرقى الى ذروة هذه الرياسة قد نلناه برحمة الله الا وهو زوال ذلك الشقاق المديد المبيد الذي وقع مذ اربع مئة وخمسين سنة بين الكنيستين الغربية والشرقية ونحن مع اننا بذلنا كل ما في وسعنا لاصلاح هذه الشؤون فينبغي ان نعزو ذلك كله الى جودة الله غير المتناهية فكل ما يكون بغير امداده ومعونته فهو باطل اننا منذ ارتقائنا الى الحبرية لم نأل جهدًا بل كنا ندأب ونكد حتى يسر الله اتحاد الكنيسة الشرقية بالغربية فبعد ان وجهنا رسائل كثيرة الى جهات مختلفة قدم الينا في العام المنصرم ولدنا المحبوب بالمسيح يوحنا باليولوغوس ملك الروم واخونا ذو الذكر الصالح يوسف بطريرك قسطنطينية ونواب بطاركة الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس ورسل ملوك دربيزون وايباريا والروس والفلاخ مع روساء كهنة واكليروس داراكنه وخلق كثير وهم مقيمون على نفقتنا الى هذا اليوم ولارتياحهم الى هذا الاتحاد المقدس عرضوا نفوسهم للمشاق الباهظة ومخاطر البحر وحضروا الى هذا المجمع المسكوني وسألونا ان يكون التيامه بايطاليا ليتيسر لنا ان نشهده بنفسنا واقبلوا على البحث والجدال بغير خصومة ولا عناد ولذلك اهتممنا بان نجمع من كل صقع علماء ضليعين بالشرائع الالهية والبشرية ليبينوا الحق لطالبيه ولما حصحص الحق بمعونة الله بنصوص الكتب الالهية واقوال الاباء الاطهار الموثوق بكلامهم من اللاتين والروم ازعنوا لما ظهر من الحقايق بتمام رضاهم واختيارهم واقروا بان الروح القدس ينبثق من الاب والابن معاً وسلموا بطيبة خاطر ان سلطان الكنيسة الرومانية والكرسي المقدس الذي احتمره بعض الناس وافتروا عليه هو الاجل الاعظم واقروا ايضاً بباقي الحقائق كما هو واضح في المرسوم الموقع عليه المرسل اليكم مع

الابن العزيز وكيلكم فرا البرتوس من الاخوة الصغار وهو يخبركم عن كل ما كان مفصلاً ويحق لنا ان نفتخر بالرب ونعلن انه قد جرى في عصرنا امر لم ترَ البيعة الكاثوليكية اعظم منه ولا افضل منذ تبشير الرسل ولم تقف معجزات الله عند هذا الحد بل ان الله برحمته الغزيرة اطلع لنا سماء اخرى واسعة الارجاء ليتمكن شمس البر الذي ولد في المشرق من ان يبسط اشعته الى ظلمة الكفر لينتشر خلاص الرب الى اقصى الارض ويمجد الجميع بفم واحد وروح واحدة الهنا وابا ربنا يسوع المسيح وها نحن متوقعون يوماً بعد يوم قدوم من وجهنا اليهم رسلنا وبلغتنا البشرى ان طائفة كبرى من الارمن اشرق عليها ضياء الحق وهم مستعدون لطاعة الكنيسة الرومانية والكرسي الرسولي بكل شيء والاذعان لسنته وتعاليمه من غير تردد فالان ايها الابناء الاعزاء قد ترتب علينا ان نقدم لله سيد الجميع قربان التسبحة والابتهاج من اجل النعم الغزيرة التي نلناها من كرمه وما برحنا نرجو غيرها وكما اشتركتم معنا بالفرح فاشتركوا معنا في اداء الشكر لجودة الله والتنافس بذلك امام كل مسيحي والحمد على ما اولى من الخير واسالوه تعالى ان يتمم عمله الذي جعل بدءه على يدينا

كتب بمدينة فلورنسا سنة ١٤٣٩ في السابع من حزيران وهي التاسعة من حبريتنا *

فمن يا ترى يصدق ان البابا اوجانيوس الرابع يكتب الى الموارنة مثل هذا الكلام اذا كانوا غير خاضعين له قبلاً او رجعوا حديثاً الى طاعته حيث لا اشارة الى رجوعهم ولا الى قبولهم بل اقتصر الى تبشيرهم باتحاد الروم ورجائه باتحاد غيرهم وكلفهم ان يشكروا الله معه وان يذيعوا ذلك عند جميع المسيحيين فضلاً عن ان رسالته مؤرخة سنة ١٤٣٩ وخصماء الموارنة يزعمون انهم رجعوا الى الايمان الكاثوليكي سنة ١٤٤٢ فكيف يوفقون هذا التناقض

وقد مرَّ ان البطريرك سمعان الحدثي ارسل الى البابا لاون العاشر صحبة

قاصده ست براأت من اسلافه تبين تثبت الموارنة بعرى الايمان الكاثوليكي ومن هذه البراأت براأة من اينشنوسيوس الثالث بتاريخ سنة ١٢١٥ واخرى من البابا اسكندر الرابع مؤرخة سنة ١٢٥٦ يتبين منهما جلياً ان الموارنة كانوا خاضعين للكرسي الرسولي قبل اوجانيوس الرابع باعصر بل كانوا دائماً كذلك وهذه البراأت الست المذكورة وغيرها لم تزل الى اليوم محفوظة في خزانة بطريركية الموارنة وهي تخجل وتفحم كل مكابر عنيد ولا حاجة الى زيادة البيان في رد هذه التهمة لظهور بطلانها بما قدمناه هنا وفي مواضع كثيرة من هذا التاريخ وغيره بل ناتي الى بيان انها لا تصدق ايضاً على الياس مطران الموارنة بقبرس وعلى رعيته فيها

﴿ تبرئة الياس مطران قبرس والموارنة ساكنيها من هذه التهمة ﴾

لا ننكر ان البابا اوجانيوس الرابع كتب في براءته المفتتحة « تبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح » المؤرخة في سنة ١٤٤٥ عن كلامه في اندرواس رئيس اساقفة رودس ان اندراوس هذا هدى الى الايمان القويم تيموتاوس ومطران طرسوس الذي كان بقبرس وكان نسطورياً يعتقد ان في المسيح اقنومين وان العذرا لا تسمى والدة الله وانه رد الى الهدى الياس مطران الموارنة الذي كان مع جماعته بقبرس ملوثاً بضلال مكاريوس ان في المسيح مشيئة واحدة وانه جمع هولاء في كنيسة القديسة صوفيا كنيسة كرسي تلك الجزيرة فاقروا بالايمان الكاثوليكي جهارًا ثم ارسل تيموتاوس المذكور والقس اسحق تلميذ الياس مطران الموارنة الى رومة فجحد تيموتاوس ضلال نسطور واسحق ضلال مكاريوس في كنيسة لاتران برومة ولا ننكر ايضاً ان المطران الياس جحد تعليم مكاريوس واقر بالايمان الكاثوليكي في كنيسة القديسة صوفيا بقبرس وكذلك فعل تلميذه القس اسحق برومة لكننا نقول ان اندرارس مطران رودس عند بلوغه الى قبرس ومخاطبته تيموتاوس والياس الاسقفين ورويته انهما مستعدان للاقرار بالايمان الكاثوليكي انشأ لهما دستور

الايمان الذي يلزم كلاً منهما ان يقرا به جهارًا وباحتفال ولما كان يعلم ان تيموتاوس نسطوري ضمن الدستور الذي اعده له جحود بدعة نسطور واعلمه من كتاب غوليلموس اسقف صور ان الموارنة كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة ضمن الدستور الذي للمطران الياس الماروني جحود بدعة مكاريوس بطريرك انطاكيه الذي كان منوياً ببدعة المشيئة الواحدة فتلا كل منهما في الكنيسة الدستور الذي اعده له اسقف رودس وكتب الى البابا اوجانيوس انه هداهما الى الايمان القويم فاغتر البابا بما كتبه في براءته المذكورة على ان اقرار المطران الياس لم يكن احداثاً لجحوده بل تقريرًا او تجديدًا له

ولنا على اثبات ما قلناه ادلة بينة وحجج راهنة منها اولاً ان بدعة المشيئة الواحدة لم يبقَ لها من قرون قبل التاريخ المذكور قوام مستقل او انصار يقولون بها وحدها بل استمرت عند اليعاقبة لانها نتيجة لازمة من اعتقادهم الطبيعة الواحدة وقد صرح بذلك السمعاني في مقالته في اصحاب الطبيعة الواحدة (مجلد ٢ في المكتبة الشرقية) وكثيرون غيره وهولاء اليعاقبة يسمون مذهب الموارنة بدعة نخص منهم بالذكر ابن العبري الذي قدمنا قوله بذلك وقد صرح باعتقاده المشئة الواحدة في المسيح فلا يعلم كيف امكن موارنة قبرس واسقفهم الياس ان يجددوا بدعة المشئة الواحدة ويقولوا بقول مكاريوس ان في المسيح طبيعتين ومشئة واحدة وليس من قائل انهم كانوا يعاقبة

ثانياً انا نعلم حق العلم ان الموارنة بقبرس كانوا متحدين مذهباً باخوانهم في لبنان وخاضعين لبطريرك الملة وقد رايت تواتر المكاتبات بين الاحبار الرومانيين وبطاركة الموارنة في تلك المدة ولانجد اثرًا في تقليدات ملتنا او خبرًا في كتب المؤرخين ان موارنة قبرس او اسقفهم زاغوا عن الايمان وخلعوا طاعة بطريركهم وقد ذكرنا في تاريخ القرن الرابع عشر نقلاً عن اعمال مجمع نيقوسية الذي عقده

اليا رئيس اساقفة الكلدان في هذه الجزيرة سنة ١٣٤٠ ان جيورجيوس مطران الموارنة بقبرس كان في جملة من شهدوا هذا المجمع وكانوا جميعاً كاثوليكيين واقروا في مجمعهم ان الكنيسة الرومانية هي ام جميع الكنائس ومعلمتهن وان الاب الاقدس البابا باديكتس الثاني عشر هو خليفة بطرس الطوباوي ونائب المسيح في الارض وقد ذكرنا ايضاً هنالك يوحنا اسقف الموارنة بقبرس اعتماداً على خط نقله البطريرك الدويهي عن كتاب كان في كنيسة القديس سركيس بحدشيت وقد عاق عليه انه نسخ سنة ١٣٥٧ في ايام البطريرك يوحنا ويوحنا مطران قبرس وعليه فاسلاف اليـاس كانوا كاثوليكيين وهو لا نجد اثرًا ولا خبرًا يبين لنا انه جدد بدعة المشيئة الواحدة التي لم تبقَ الا عند اليعاقبة ولا يوخذ قطعاً من براءة اوجانيوس المذكور انه كان يعقوبياً

ثالثاً قد روى هوراس يوستنيان في كتابه في اعمال المجمع الفلورنسي ان اوجانيوس الرابع امر ان ينقش على باب كنيسة القديس بطرس في صحائف من نحاس ذكر الامور الهامة التي جرت في ايامه فنقش على تلك الصحائف . هذا لذكر اوجانيوس الحبر الاثيل ونفسه السامية وعلمه المنيف ان الروم والارمن والحبش واليعاقبة امنوا على يده ايمان رومة العظمى . وكتب على قبره بكنيسة القديس بطرس المذكورة بعد وفاته . بعنـايته اتبع الروم والاحباش والارمن اثار الكنيسة الرومانية باسرار الايمان ثم السريان والعرب الى تخوم الهند وهذه عظائم صغيرة بالنسبة الى نفسه السامية . ولا نرى في هاتين الكتـابتين ذكر للموارنة بالعموم او لموارنة قبرس واسقفهم بالخصوص مع ان الملل المذكورة فيهما لم يرجع الا قسم منها

رابعاً ان الاب غريفون الشهير كتب سنة ١٤٦٩ رسالة من رومة الى الموارنة ومما قاله فيها . ان الموارنة الذين ببلاد الفرنج ورودس وقبرس واطرابلس وبيروت والقدس الشريف ما برحوا مذ الزمان القديم الى هذا اليوم يدخلون كنائس الافرنج ويقيمون القداس على مذابحهم ويلبسون حللهم ويستعملون قربانهم ويرفعون

الجسد والدم مثلهم ويرسمون الصليب على وجوهم كما يرسمه الفرنج ويعترفون عند كهنتهم ويتناولون من يدهم القربان الاقدس ويقبلون هداياهم كالتاج وغيره » وقال مثل ذلك الاب فرنسيس سوريانوس رئيس اديار القدس المذكور انفاً وكلاهما عهد اليهما عدة من البابا وات النيابة عنهم عند الموارنة وعاشراهم وعاشا بين ظهرانيهم سنين متطاولة بأثر ما كتب عن المطران الياس وموارنة قبرس وقد صرحا ان الموارنة فيها يعملون كل ما ذكراه منذ قديم الزمان اسمح الفرنج في قبرس وكان حكامها حينئذٍ من امراء البندقية بان يقدس كهنة الموارنة وهم هراطقة على مذابحهم او جاز لكهنة الفرنج ان يتناولوا من كانوا ملطخين ببدعة مكاريوس

خامساً ان كثيرين من مشاهير المؤرخين الافرنج كبارونيوس ويوحنا مورينوس وغيرهما الذين كانوا قد انخدعوا بقول غوليلموس ان الموارنة ارعووا سنة ١١٨٢ عن الضلال اثبتوا انهم لم ينفكوا بعد ذلك البتة عن الاتحاد بالكنيسة الرومانية عامتهم وخاصتهم ونخص بالذكر من هولاء القديس انطونيوس استف فلورنسا الذي كان معاصرا للبابا اوجانيوس الرابع ولهذه الاحداث اذ توفي سنة ١٤٥٩ فانه قال « ان الموارنة جحدوا الضلال على يد ايميريكوس بطريرك انطاكية وهم الى الان متشبثون بالايمان الكاثوليكي ومتمسكون بتقليدات الكنيسة الرومانية بحرص بليغ » فلو كان المطران الياس وموارنة قبرس ملطخين في البدعة الى سنة ١٤٤٤ وعادوا الى جادة الحق في ايام هذا الاسقف القديس لما اهمل ذكرهم ولما قال ان الموارنة متشبثون الى الان بالايمان الكاثوليكي الخ

سادساً ان الامثل والاقرب الى الصواب ان نقول ما قاله كثيرون من علمائنا الافاضل وهو ان اندراوس اسقف رودس لما راى المطران الياس والموارنة القبرسيين مستعدين للاقرار بالايمان الكاثوليكي وتوهم انهم من اصحاب بدعة المشيئة الواحدة انشأ لهم دستورًا للايمان ليتلوه ويحلفوا عليه ففعل ذلك المطران اليـاس

بقبرس فكتب اندراوس كما توهم الى الحبر الروماني وما كان ادراك ما كانت تلك الايام وجهل الشرقيين لغة الغربيين وجهل الغربيين اللغات الشرقية فكتب البابا اوجانيوس الرابع ما كتبه مغترًا باخبار قاصده ولم تكن هذه الدفعة الوحيدة التي سرى بها مثل هذا الوهم بل جرى مثل ذلك مع بطرس كردينال كنيسة القديس مرشلوس عند ما رجع الروم على يده في اطرابلس وقدم الموارنة دستور ايمانهم حينئذٍ فتوهم انهم هراطقة ولم يميزهم عن الروم في ما كتبه الى البابا اينوشنسيوس الثالث فكانت براءته الى بطريرك الموارنة سنة ١٢١٥ غير مميزة بينهم وبين الروم وكذلك جرى لموارنة القدس اذ جددوا اقرارهم بالايمان على يد ايميريكوس بطريرك انطاكية الى غير ذلك

وقال الاب ايرونيموس دنديني اليسوعي في فصل ١٨ من كتاب بعثته الى لبنان سنة ١٥٩٦ « ان براآت الاحبار الاعظمين انما كتبت على النمط الذي نراها به من قبل الاخبار غير الصحيحة التي بلغتهم واذ كنت انا اعلم ذلك تحرّيت هذا الامر وامعنت فيه ودققت في فحص كتبهم (اي كتب الموارنة) فرأيتها لا تضاد العقائد الكاثوليكية البتة ولما لم يدقق غيري في فحص الكتب بالاجتهاد والامعان اللازمين كان لا بدع من ان تعزى الى الموارنة في براآت الاحبار الرومانيين اغلاط متنوعة ولبيان الحقيقة بياناً جلياً يلزم ان تلاحظ ان جميع البرآآت المعزو فيها اغلاط الى الموارنة نسخت حرفاً فحرفاً عن براآة اينوشنسيوس الثالث وكلام البابا في هذه البرآة ليس على الموارنة وحدهم بل على الروم ايضاً فانهم عادوا حينئذٍ في اطرابلس الى طاعة الكنيسة الرومانية وقدم الموارنة في ذلك الوقت صك تمسكهم بطاعتها الى كردينال كنيسة القديس مرشلوس وهو باطرابلس اذ كان قاصداً رسولياً في المشرق فكان ذلك سبباً لنسبة اغلاط طائفة الى اخرى » وقال مثل هذا المقال غير دنديني من علماء اللاتينيين ومرهج ابن نمرون الباني في مقالته في

الموارنة والسمعاني في المكتبة الشرقية ويمكن القول بمثل ذلك في براءة اوجانيوس الرابع المذكورة ويؤيد ذلك قول العلامة البابا بناديكتوس الرابع في رسالته الى نيقولاوس لركاري المؤرخة في ٢٨ ايلول سنة ١٧٥٢ وهو « قد أثبت الموارنة انهم لم ينحرفوا قط عن محجة الدين الكاثوليكي ولم ينفصلوا عن الكنيسة وزادوا على ذلك انهم اذا كانوا جددوا اتحادهم بالكنيسة الرومانية وقتاً ما فلا ينبغي ان يتاول ذلك بمعنى انهم غادروا الدين الكاثوليكي ثم عادوا اليه »

وجاء في كتاب المطران اسطفانوس عواد السمعاني في محاماته عن يوحنا السرومي وهو يوحنا مارون ان الياس مطران قبرس كان يروم التملص من سلطة بطريرك الموارنة والاستقلال بسلطته محتجاً بما خوله المجمع الافسسي (في عمل ٧ قسم ٢) لمطارنة قبرس من الاستقلال عن بطريرك انطاكية في ترقية اساقفتهم الى الاسقفية فحسب منشقاً عن بطريركه ومتحداً مع تيموتاوس مطران النساطرة فالجيء الى ان يتلو دستور ايمانه بحضرة اندراوس رئيس اساقفة رودس ومهما يكن من امره فهو فرد ورعيته في قبرس فريق يسير من الموارنة فمن لا يقنعه كاما اوردناه من الادلة لا يسوغ له ان يعيب الملة كلها بعمل بعض افرادها كما لا تعاب الكنيسة اللاتينية بالكثيرين الذين خرجوا عن طاعتها وعصوها

لا نشاء ان نختم هذا الفصل دون ان نذيله بما كتبه العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٣) متكلماً في براءة البابا اوجانيوس الرابع في شان اقرار تيموتاوس مطران الكلدان واسحق قاصد الياس مطران قبرس على الموارنة بالايمان حيث ذكر السمعاني فقرة من البراءة المذكورة قال فيها البابا « لا يجسرن احد من الشعب والاكايروس من الان وصاعداً ان يدعو مطران الكلدان واسقف الموارنة المذكورين وشعبيهما واكليروسهما هراطقة او ان يسمي الكلدان نساطرة ومن خالف امرنا هذا نأمر اسقفه ان يحرمه الى ان يصنع

الترضية الكافية او يغرم بجزاء اخر زمني يراه الاسقف • واردف السمعاني ذلك بقوله انظر الى الفرق الذي وضعه البابا بين اسمي الموارنة والنساطرة فلما كان الموارنة لم يأخذوا اسمهم عن مبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة فقط واما النساطرة فلما كانوا اخذوا اسمهم عن نسطور المبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة ونساطرة وهذا ما راعاه باجيوس اذ كتب عن الموارنة في تاريخ سنة ٦٣٥ عد ١٣ • بل ان تسمية هذا الشعب نفسها موارنة ينتج منها انهم لم يسموا بهذا الاسم نسبة الى مارون مبتدع فان العادة المستمرة في المشرق والمغرب ان الهراطقة الذين يرجعون الى الايمان الكاثوليكي ان كانوا غربيين كالالوتاديين والكلوينين دعوا كاثوليكيين وان كانوا شرقيين فان كانوا يعاقبة دعوا سرياناً وان نساطرة تسموا كلداناً ويفهم بذلك انهم سريان كاثوليكيون وكلدان كاثوليكيون ••• واما الموارنة فهذا كان اسمهم دائماً والاحبار الرومانيون يسمونهم به من ايام البابا اينوشنسيوس الثالث او يسمى بطريركهم بطريرك الموارنة الانطاكي والناتج من ذلك نتجاً لازماً ان هذا الاسم دل دائماً على شعب كاثوليكي • انتهى كلام باجيوس



الباب السادس عشر

﴿ في تاريخ سورية في القرن السادس عشر ﴾

القسم الاول

﴿ في تاريخها الدنيوي في هذا القرن ﴾

فصل

﴿ في ما كان من الاحداث الى ان فتح السلطان سليم سورية ومصر ﴾

﴿ عـد ٩٥٦ ﴾

﴿ في الملك قانصوه الغوري ﴾

ختمنا كلامنا في تاريخ سورية الدنيوي بذكر فرار طومان باي وخلعه من السلطنة وتولية السلطان قانصوه الغوري وكان الملك العادل طومان باي جعله دوادارًا كبيرًا وسمي الملك الاشرف وهو الثالث والعشرون من ملوك الجراكسة وقد اختاره امرآء مصر للسلطنة لانه كان لين العريكة سهل الازالة اي وقت ارادوا عزله عزلوه لانه كان اقلهم مالاً واضعفهم حالاً واوهنهم قوة ولما عرضوا عليه السلطنة قال لا اقبل الا بشرط ان لا تقتلوني فاذا اردتم خلعي فاخبروني وانا اوافقكم وانزل لكم عن الملك فعاهدوه على ذلك فقبل وفرح العسكر بولايته

وكان كثير الدهاء ذا فطنة وراي الاَّ انه كان شديد الطمع كثير الظلم فانه اخذ يلقي الفتنة بين الامراء ويأخذ هذا بهذا ويدس لهم السم في الطعام ونحوه حتي افنى كبرآءهم ودهاتهم الا قليلاً منهم ثم اتخذ مماليك لنفسه جلباً واعدهم جندًا فصاروا يظلمون الناس واظهروا الفساد وصار هو يصادر الناس ويأخذ اموالهم قهرًا وكثر العياث في ايامه فكانوا اذا راوا انسانًا كثير المال وشوا به الى السلطان فارسل اعوانه فاستنزف ماله وسلمه الى من يعاقبه ليأخذ ما اخفاه فجمع مالاً كثيرًا لكنه قل ما انتفع به ووقع اخيرًا بيد اعدائه وهكذا كل ما يؤخذ بمثل هذا الاسلوب

وفي سنة ٩٠٨ هـ (سنة ١٥٠٢ م) تولى نيابة حلب سيباي ونيابة دمشق قانصوه المحمدي فظهر الى البقاع وانهزم منه ناصر الدين بن محمد بن خنش مقدم البقاع وكانت بينهما مناوشات ووقعت فتنة بين اهل دمشق ونائبها فاحرق الشاغور ونكل بهم وفي سنة ٩٠٩ هـ (سنة ١٥٠٣ م) جاء سيل عظيم ومطر دام سبعة وعشرين يوماً فكانت منه مضار لا تقدر فاخرب نهر بردى في دمشق بيوتاً وحوانيت كثيرة واضر نهر العاصي بالنواعير والبساتين بحماة وكذلك الانهر الجارية في لبنان اخربت المطاحن واقلبت الجسور القديمة التي كانت عليها منها جسر نهر الكلب القديم وفي سنة ٩١٤ هـ (سنة ١٥٠٨ م) وقع ثلج لم يعهد له نظير واستمر يتراكم خمسة عشر يوماً حتى قطعت الطرق في الساحل ايضاً ولم نعثر فيما لدينا من الكتب على امور تستحق الذكر من احداث السنين التالية الى سنة ٩٢٢ هـ

ففي السنة الاخيرة الموافقة سنة ١٥١٦ للميلاد بينما كان سيباي بن بخت خجا نائب السلطنة بالشام وخاير بك بلباي نائب حلب وتمراز الاشرفي نائب اطرابلس وجان بردي الغزالي نائب حماة ويوسف نائب صفد متنقلاً اليها من نيابة القدس ودولات باي نائب غزة وقد اضيف اليه نيابة القدس والكرك بلغ الملك الاشرف

قانصوه الغوري ان السلطان سليم الاول العثماني عازم على ان يحمل على سورية ومصر لينتزعهما من ولاية ملوك الجراكسة فأخذ الملك الاشرف يستعد للخروج الى سورية ثم خرج بالعساكر ومعه الخليفة ونواب القضاة الاربعة واستخلف بالقاهرة الدوادار طومان باي ودخل الملك الاشرف دمشق يوم الاثنين ثامن جمادي الاولى من السنة المذكورة فلاقاه الامير سيباي نايب الشام بالعساكر ودخل في موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء وزينت له المدينة زينة حافلة ونزل بالمصطبة التي يقال لها مصطبة السلطان واقام بدمشق تسعة ايام ثم رحل عنها الى حمص ثم الى حماة فلاقاه نائبها جان بردي الغزالي محتفياً به ثم سار الى حلب فدخلها يوم الخميس عاشر جمادي الاخرة وكان لدخوله يوم مشهود

وعند وصول السلطان الاشرف الغوري الى حلب قدم اليه وفد من قبل السلطان سليم بن عثمان اخص هذا الوفد ركن الدين قاضي عسكر ابن عثمان وقراجا باشا احد امرائه فشرع الغوري يعتبهما على افعال ابن عثمان وما يبلغه عنه فقالا فوض الينا استاذنا أمر الصلح وقال كل ما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاوروني وكان ذلك خدعة حربية لتخمد همة الغوري عن الاستعداد للحرب وكان السلطان سليم يقول له في كتابه اليه انت والدي واسالك الدعاء لكن لا تدخل بيني وبين اسماعيل الصوفي الذي حلت عليه فخلع الملك الاشرف على وفد السلطان العثماني الخلع السنية وارسل الى السلطان سليم الامير مغلباي الدوادار للمفاوضة بامر الصلح فوردت الاخبار بان السلطان سليم قبض عليه ووضعه في الحديد وقصد شنقه فشفع به بعض وزرائه وقصد ان يحلق لحيته وامر السلطان سليم عساكره ان تسير نحو حلب فوصلوا الى عنتاب وملكوا قلعة ملطية وغيرها فلما بلغت هذه الاخبار الملك الاشرف خرج من حلب وسير امامه النواب والعساكر وعاد اليه الامير مغلباي مهاناً وقص عليه ما انزل به السلطان سليم من التعزير والتهديد ثم

خلّى سبيله وقال له قل لاستاذك ان يلاقينا الى مرج دابق فاضطرب الاشرف من ذلك ويوم الاربعا حادي عشر رجب رحل الاشرف الى مرج دابق

وفي الخامس عشر من الشهر المذكور اقبلت عليه جيوش السلطان سليم فصف الاشرف جيشه للقتال فكان في الميمنة الخليفة امير المومنين المتوكل على الله وعلى ميمنته سيباي نائب الشام وكان على الميسرة خاير بك نائب حلب والملك الاشرف في القلب اي الوسط واصطلت نار الحرب فقاتلت العساكر المصرية والشامية قتالاً شديدًا وزحزحوا اولاً عساكر السلطان عن مواقفهم واخذوا منهم سبعة سناجق وقتلوا منهم نحو عشرة الاف رجل ولكن شاع بين المماليك القرانصة ان الملك الاشرف قال للمماليك الجلبان لا تقاتلوا ودعوا المماليك القرانصة يقاتلون وحدهم ففترت عزيمة هولاء في القتال وقتل الاتابكي سودون العجمي وسيباي نائب الشام فانهزم فريق كبير من العساكر في الميمنة وانهزم خاير بك نائب حلب من الميسرة فانكسرت وظهر انه كان مخامرًا على الملك الاشرف لانه هرب قبل العسكر واصبح الاشرف واقفاً تحت السنجق في نفر قليل واخذ ينادي هذا وقت المروّة هذا وقت النجدة فلم يسمع له احد قولاً وغلت ايدي العسكر المصري عن القتال وشخصت ابصارهم وتقدم الامير تمر الزردكاش الى السنجق فطواه واخفاه وقال للاشرف مولاي ادركنا عسكر ابن عثمان فانج بنفسك وادخل الى حلب فعاجله فالج شل شفته وارخى منكبه وركب فرسه فمشى خطوتين وانقلب عنه الى الارض فخرجت روحه ومات من شدة قهره ووثب عسكر ابن عثمان على من بقي من عساكر الغوري فقتلوا من ادركوه وشتتوا الباقين شذر مذر وغنموا ما كان في معسكرهم وكان في جملة القتلى سيباي نائب الشام وتمراز نائب اطرابلس وطراباي نائب صفد واصلان نائب حمص وجماعة من امراء دمشق وحلب واطرابلس ومصر وكانت مدة سلطنة الغوري خمس عشرة سنة وتسعة اشهر

وعشرة ايام ثم دخل السلطان سليم حلب فملكها دون معارض ولا منازع واتى اليه الخليفة امير المؤمنين المتوكل على الله فاكرمه وخلع عليه ودخل عليه ثلاثة من القضاة الذين كانوا مع الغوري فوبخهم على انهم لم يمنعوا سلطانهم من ان يظلم الناس ودعا خاثر بك نائب حلب قبلاً فخلع عليه وصار من جملة امرائه واتى الخليفة والقضاة الثلاثة عنده واقام بحلب اياماً حتى دبر الملك ووضع الرسوم العادلة ثم توجه الى حماة فملكها والى حمص فاستولى عليها ثم قدم الى دمشق فخرج اهلها الى لقائه وطلبوا منه الامان فامنهم وضبط حصون المدينة ومهد امورها وسار منها نحو مصر ولما بلغ الى غزة عدل الى زيارة القدس الشريف والخليل بنفر قليل وكذا استحوذ على سورية كلها واقام بها عمالاً من خواصه

عـد ٩٥٧

في طومان باي اخر ملوك الجراكسة

بعد وفاة الغوري وعود من سلم من الامراء في وقعة مرج دابق الى مصر اجتمع الامراء في القاهرة يتشاورون في من يلي امرهم واما رأيهم ان يختاروا للسلطنة طومان باي الذي كان يدبر الملك في غيبة الغوري وقد احسن تدبيره فامتنع هو من ذلك غاية الامتناع واستمروا هم يقولون ما عندنا سلطان الا انت ومن الاسباب التي كان يوردها لتمنعه ان خزائن بيت مال المسلمين ليس فيها درهم فمن اين ينفق على العسكر ومنها ان ابن عثمان ملك البلاد الشامية وهو زاحف ليملك مصر والامراء لا يطاوعونه على الخروج اليه ومنها انه اذا تسلطن لا يبعد ان ينقلبوا عليه ويخلعوه من السلطنة ويقتلوه او يرسلوه الى السجن بالاسكندرية فاحضروا مصحفاً شريفاً وحلف الامراء عليه بانهم اذا سلطنوه لا يتآمرون عليه ولا يغدرون به ولا يثيرون فتناً فاذعن لهم فاستدعوا امير المؤمنين يعقوب والد الخليفة المتوكل على الله الذي كان ابن عثمان ابقاه عنده وحضر قضاة المذاهب

الاربعة والامرآء والعسكر واظهر والد الخليفة وكالة مطلقة عن ولده المتوكل على الله فانبتها القضاة فبايعوه بالسلطنة والبسوه حلتهـا وسمي الملك الاشرف كما كان اسم الغوري سالفه وجلس على كرسي الملك

فطومان باي هو الثاني والعشرون من الملوك الجراكسة عند من اسقطوا خشقدم وتمربغا من عديدهم والرابع والعشرون عند من لم يسقطوهما وقال بعضهم انه كان ابن اخي الغوري وقال غيرهم انه كان اخاه والذي قاله ابن اياس في تاريخ مصر ان اصله من كتابية الاشرف قايتباي اشتراه الملك الاشرف قانصوه الغوري وكان يلوذ به بقرابة ولما تسلطن قانصوه الغوري رقاه في المراتب حتى الدوادارية الكبرى ولما خرج على ابن عثمان جعله نائبه في غيبته فاحسن سياسة الرعية واطاعه العسكر الذي بقي بمصر فملكوه بعده على ان ابن اياس قال بعد ذلك ان الغوري عم طومان باي

وروى بعضهم ان جان بردي الغزالي نائب حماة كان ممن خامر على الغوري في وقعة مرج دابق وانحاز الى السلطان سليم والذي رواه ابن اياس في تاريخ مصر انه عاد الى القاهرة وجعله طومان باي نائب الشام وتوجه بفريق من العسكر قبل الجميع الى غزة لمناواة السلطان ولما لم يكن معه من الجيش ما يكفي لمقاتلة جيش ابن عثمان جمع بعض العربان وقصد ان يقطع الطريق على عسكر السلطان سليم فالتقى الفريقان على نهر الشريعة بالقرب من بيسان وكان قائد العسكر العثماني سنان باشاً واقتتلا قتالاً شديدًا فانكسر الغزالي ومن معه وقتل منهم كثيرون ومن سلم منهم عاد الى القاهرة باسوأ حال ثم وردت الاخبار بان سنان باشا العثماني انتقم من اهل غزة وقتل منهم نحو الف شخص ثم زحف السلطان سليم بجحافله وبلغوا الريدانية فكانت هناك وقعة قتل فيها كثيرون من عسكر ابن عثمان واخصهم سنان باشا ثم انقسم العسكر العثماني الى فرقتين فرقة جأت من تحت

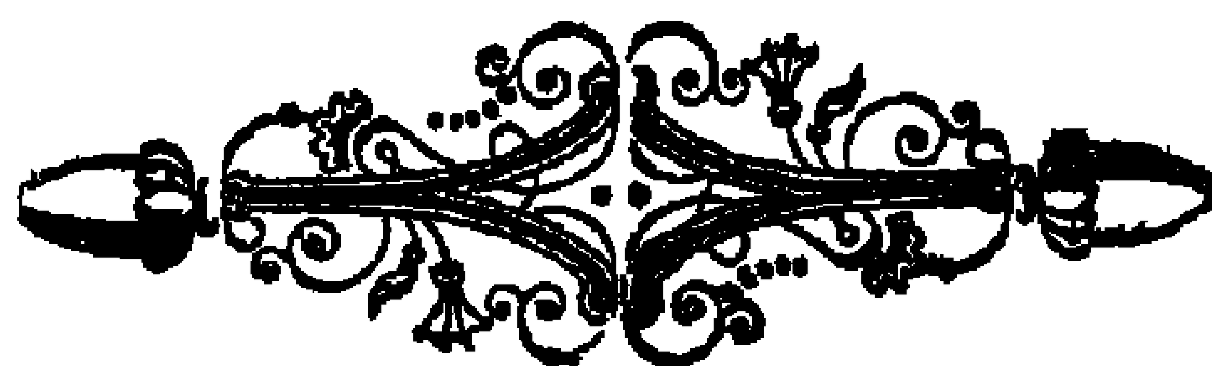
الجبل الاحمر وفرقة صدمت المصريين في الريدانية فهزموهم وشتتوا شملهم وثبت الملك الاشرف طومان باي يقاتل بنفر قليل الى ان خاف القبض عليه فولى واختفى ودخل جماعة من العثمانيين الى القاهرة مستلين سيوفهم واحرقوا بعض الدور ونهبوا بعضها وفي يوم الاثنين ختام سنة ٩٢٢ هـ (سنة ١٥١٦ م) دخل الخليفة المتوكل على الله الى القاهرة وصحبته وزرآء السلطان سليم وجم غفير من العساكر العثمانية ونادوا بالامان والاطمئنان وان لا احد من العسكر العثماني يشوش راحة الاهلين وان كل من عنده مملوك جركسي ولا يظهره يشنق ولكن لم يلتفت بعض الجنود العثمانيين لهذه المناداة بل ظلوا ينهبون في القاهرة ثلثة ايام وخطب يوم الجمعة باسم السلطان سليم خان على منابر القاهرة ومصر

وفي افتتاح سنة ٩٢٣ هـ (سنة ١٥١٧ م) امر السلطان سليم شاه بالانكفاف عن النهب واشخصوا لديه من قبضوا عليهم من الجراكسة فأمر بضرب اعناقهم واكمل عسكره حز راس كل جركسي وجدوه وفي يوم الاثنين ٣ من المحرم دخل السلطان سليم شاه القاهرة في موكب حافل فارتفعت له الاصوات بالدعاء وكان قدامه الخليفة والقضاة الاربعة وفي يوم الاربعا خامس المحرم وثب الاشرف طومان باي على محلة السلطان سليم شاه واحتاطها بالعسكر فانتشبت الحرب ودامت الليل كله الى الصباح فقتل كثيرون من الفريقين ثم زادت نار الحرب تسعرًا من الصباح الى مغرب الشمس واستشف القتال في اليوم التالي فطرد العثمانيون المصريين من بولاق وجزيرة الفيل وقبضوا على بعض المماليك وطردوا المصريين من الناصرية الى قناطر السباع وقسم طومان باي عسكره اربعة اقسام ارسل كل فرقة في جهة فلم ينجحوا واستمر القتال من يوم الاربعا الى طلوع الشمس يوم السبت ثامن المحرم ولما ظهر لطومان باي امتناع انتصاره على العثمانيين هرب وتوجه نحو الصعيد واما ما كان في هذه الحرب الطويلة من القتل والنهب واحراق

الدور والقطائع فيعجز عن وصفه القلم وهرب الى طومان باي وهو في الصعيد كثيرون من المماليك والعسكر المصري والف اليه جمع كبير من العربان وارسل يقول للسلطان سليم شاه ان شئت اجعل الخطبة والسكة باسمك واكون انا نائباً عنك بمصر واحمل اليك خراجها وارحل انت عن مصر الى الصالحية وصن دماء المسلمين والا فاخرج الى ملاقاتي في بر الجيزة ويعطي الله من شاء النصر فوجه السلطان سليم القضاة الاربعة الى طومان باي مع منشور الأمان محلوفاً عليه ان جاء طومان باي خاضعاً فارسل طومان باي فقتل سفير السلطان سليم قبل ان يصل اليه مع القضاة فتيقن السلطان سليم ان طومان باي يأبى الصلح والخضوع فنهض اليه بعسكره الى بر الجيزة وقدم طومان باي الى تلك الجهة فكانت موقعة اخرى هائلة تغلب في اولها المصريون ولكن دارت عليهم الدوائر في اخرها وولى طومان باي منهزماً فلاقاه حسن بن مرعي في ضيعة اسمها البوطة وكان حسن المذكور صديقاً قديماً لطومان باي فنزل عليه ضيفاً بعد ان حلف له ان لا يخونه ولا يدل عليه واذا بالعربان احتاطوا عليه من كل جهة وهو لا يدري واعلموا السلطان سليم فارسل جماعة من عسكره فقبضوا عليه وغللوه واتوا به اليه فاقامه مقيداً عنده اياماً وفي الحادي عشر من ربيع الاول سنة ٩٢٣ هـ (سنة ١٥١٧ م) شنقه على باب زويلة في القاهرة وكانت سلطته ثلاثة اشهر واربعة عشر يوماً وانقرضت به دولة الجراكسة وقد دامت مئة واحدى وعشرين سنة قرية واول ملوكها السلطان برقوق واخرهم طومان باي واصبحت سورية ومصر منذ ذلك الحين الى اليوم في قبضة ملوكنا العظام وسلاطيننا الفخام السلاطين آل عثمان خان ادام الله ملكهم مدى الزمان ومتع رعاياهم بالتوفيق والنجاح والامان ما تلا الملوان

وقد اقتطفنا ما في هذين الفصلين عن تاريخ مصر لابن اياس وعن تاريخ الاسحاقي وعن تحفة الناظرين للشرقاوي وعن تاريخ البطريرك الدويهي

وليكن هذا ختام هذا المجلد السادس والجزء الثالث من تاريخنا هذا
ويليه الجزء الرابع في تاريخ سورية في ايام السلاطين العثمانيين
وكان النجاز من تصنيفه في اليوم الخامس من شهر
نيسان سنة ١٩٠٢ تقبل الله سعيي فيه كفارة عن
زلاتي وجعله مخلصاً لوجهه الكريم
ونفع به قارئيه بمنه وكرمه
فهو ارحم الراحمين
امــين



فهرس الفصول والاعداد

المجلد السادس

من تاريخ سورية

الباب الثاني عشر

في تاريخ القرن الثاني عشر

القسم الاول

في تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

عـد صفحة

الفصل الثاني

في المشاهير الدينيين في القرن الثالث عشر

ملحق

في تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر

الباب الرابع عشر

في تاريخ سورية في القرن الرابع عشر

القسم الاول

في تاريخها الدنيوي

الفصل الاول

في من تولوا سورية بهذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم

القسم الثاني

في تاريخ سورية الديني في القرن الرابع عشر

القسم الثاني

في تاريخ سورية الديني في القرن الخامس عشر

الفصل الاول

في بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

عدد | صفحة

الفصل الثاني

في بعض المشاهير الدينيين في القرن الخامس عشر

الفصل الثالث

اخص الاحداث الدينية في هذا العصر اى اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية

ملحق

في تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر

عـدد صفحة

الباب السادس عشر

فى تاريخ سورية فى القرن السادس عشر

القسم الاول

في تاريخها الدنيوى في هذا القرن

فصل

فى ما كان من الاحداث الى ان فتح السلطان سليم سورية ومصر



فهرست هجائي للمجلد السادس من تاريخ سورية

ا

﴿ ب ﴾

﴿ ج ﴾

﴿ ح ﴾

﴿ ز ﴾

﴿ س ﴾

﴿ ض ﴾

﴿ طا ﴾

﴿ ظ ﴾

﴿ ع ﴾

﴿ غ ﴾

﴿ ف ﴾

﴿ ق ﴾

﴿ ك ﴾

﴿ ل ﴾

﴿ ن ﴾

وفراره من التتر وقتل هولاكو له وانقراض الايوبيين له هناك ايضاً
الملك الناصر اخو الاشرف اقامته سلطاناً ٨٨٣ حجر كتبغا عليه واخذه ملكه هناك عوده الى الملك هناك ايضاً تنحيه عن الملك وقيام بيبرس الجاشنكير به وعود الناصر اليه ٨٩٧ باقي اخباره ٨٩٩ وفاته وتعاقب بنيه الثمانية في الملك ٩٠٠
الملك الناصر فرج بن برقوق ولايته ٩٠٩ بعض اعماله واختفاوه ثم ظهوره ٩٢٤ مقتله هناك
الملك الناصر محمد بن قيتباي وما كان بايامه ٩٣٧
الناصري انتقاضه على الظاهر برقوق ٩٠٥ حبسه ٦٠٦
(دير القديس) نهرا صمار جبيل قدمه ٨٥٩
نور الدين بن زنكي حربه مع امير انطاكية وقتله له ٨٣١ اخذه دمشق من مجير الدين هناك تداخله في امور مصر ٨٣٢ وارساله شيركوه وابن اخيه صلاح الدين اليها ووفاته وذكر بعض اعماله هناك ايضاً
نوح البقوفاوي بطريرك اليعاقبة ٩٤٥
نيقية اخذ الفرنج لها ٨١٣
نيقوفور كراكوراس ٩١٩
نيكوفور كاليستوس ٩١٩

ه

هبة الله الحموي ترجمته ٩١٠
هنري كنت شمبانيا اختياره ملكاً لاورشليم بعد مقتل كونراد ٨٤٣ وفاته ٨٤٦
هولاكو ملك التتر واغارته على سوربة ٨٧٤

﴿ و ﴾

﴿ ي ﴾

اصلاح الخطا

صفحة	سطر	خطا	صواب
٠٤٤	٠٦	تولوز المسمى جان جيل	تولوز وسان جيل
٠٥٥	١٩	غزاز	عزاز
٠٥٦	١٠	متقوين	مقتدين
٠٦٩	١٨	فقالوا	فقولوا
٠٨٣	١١	القطعة	القلعة
٠٠٠	١٨	ساعد وازل الشوبك	نازل الشوبك
٠٩٦	٠٣	ان الملك بوعد	الملك بوعد
١٦٤	٢٢	انطاكية اورشليم	انطاكية او اورشليم
١٩٢	١٧	لم يعيب	لم يعب
١٩٣	١٥	كان يبين	كان ان يبين
١٩٨	١٧	ܠܡܣܘܪܕܐ	ܠܡܣܘܪܝܐ
٢٣٤	٠٨	فارسل اليه الملك خيلاً	وخيلاً
٢٤٤	٠٧	ليفروا	ليغروا
٣٣١	٢٠	المعضل	المفصل
٣٥٦	٠٢	ܐܘܟܠܐ	ܗܝܟܠܐ

صفحة	سطر	خطا	صواب
٣٦٥	٠١	كفرسفاب	كفرسفاب
٣٧٣	٢١	نستطع	نستطيع
٣٨٦	٠٨	١١٨٨	١٢٨٨
٣٨٩	١٧	بلد	بدل
٣٩٠	٠٧	اما ا	اماناً
٣٩٩	١٠	فقلهما	فقتلهما
٤٠٦	٠٢	وولى عرب	وولى على عرب
٤٠٧	٠٦	الاسمداد	الاستمداد
٤٢٩	١٠	الاسحاقي	الاسحاقي
٤٥٤	١١	صحي	صمحي
٤٥٥	٠٥	رهيب	وهيب
٤٥٨	٢١	ديوان	وله ديوان
٤٦٦	٠٧	اساقفة	اساقفته
٤٧٦	١٢	والاقطاعات	بالاقطاعات
٤٨٣	١٨	الخليمة	الخلعة
٤٨٩	٢٢	الشافية	الشافعية
٤٩٧	١٨	ارادوا	اراد
٤٩٩	٢٢	بالحلال	بالحلول
٥٠٤	٠٦	طمموا	طمعوا

صفحة	سطر	خطا	صواب
«	١٧	المانعة	المولفة
٥١٦	١٦	احد	احمد
٥١٨	٠٩	١٢٧٥	١٣٧٥
٥٢٠	١٠	وبد	وبدد
٥٢٦	١١	١٣٣٠	١٢٣٠
٥٢٧	١٥	البلقني	البلقين
٥٣٢	١٢	السنحاوى وسنحا	الستحاوى وسنحا
٥٣٦	١٤	شهره	شهده
٥٤٠	١٢	الملقات	الملقان
٥٤١	٠٥	وضعها	وصفها
٥٤٢	١٦	ساريون	بساريون
٥٤٦	٠٦	سورية	مسوديه
٥٥١	٠٣	الفملين	الفصلين
٥٦٠	٠٩	يختاروا	يختار
«	١٨	فيها فدونك	فيها واما الصغرى فدونك
٥٦٢	١٢	وامر	وايد
٥٦٩	٢١	الاتحاد وكل ما كان وعد	هدايا نفيسة وصنع كل ما كان قد وعد
٥٧١	٠٤	ذا داع	زراع
٥٨٢	٠٨	لهذه	بهذه

صفحة	سطر	خطا	صواب
٥٩٥	١١	عن	عند
»	١٢	ومطران	مطران
٦٠٢	٠٨	يتناولوا	يناولوا
٦٠٧	١٠	خش	حنش
٦١١	١٧	الثاني	العثماني



قلت في صفحة ١٩٤ عد ٨٥٨ ان في الخط الذي علقته يد ارميا بطريرك الموارنة على كتاب الاناجيل الكائن الان في المكتبة الماديشية بفلورنسا زلة قلم بتعيين سنة ارتقائه الى الاسقفية سنة ١٥٩٠ لاسكندر وهي توافق سنة ١٢٧٩ للميلاد والصحيح انها سنة ١٤٩٠ لاسكندر الموافقة لسنة ١١٧٩ للميلاد واني لا اعلم هل هذه الزلة من يد البطريرك ارميا نفسه او ممن صنع مثال هذا الخط في كتاب فهرست الكتب الشرقية التي في المكتبة المذكورة الذي الفه المطران اسطفانوس عواد

وقد تسنى لي ان اسير هذه السنة ١٩٠٢ الى رومة العظمى نائباً عن غبطة السيد البطريرك الياس بطرس الحويك الكلي الطوبى وملتي العزيزة لتهنئة قداسة البابا لاون الثالث عشر فريد هذا العصر بيوبيله الحبري فتوجهت في طريق الاستانة العلية ثم فيانا وفينيسيا الى ان بلغت فلورنسا في ١٣ حزيران وزرت المكتبة الماديشية وطالعت الكتاب المذكور الثمين والنادر المثال وحققت بعيني ان ارميا كتب بخط يده سنة ١٥٩٠ لاسكندر ولما كنا نعلم علما لا يشوبه ريب ان ارميا شهد المجمع اللاتراني الرابع بنفسه سنة ١٢١٥ وان البابا اينوشنسيوس كتب اليه رسالته الشهيرة هذه السنة والرسالة باقية في خزانة اوراق كرسي طائفتنا البطريركي تحتم علينا ان نقول ان زلة القلم المذكورة كانت من يد ارميا البطريرك المذكور ورأيت ان هذا الكتاب المنسوخ على رق من اكثر من اربعة عشر قرناً ما زال سالماً كاملاً مع الحواشي المعلقة على هوامشه بيد بعض بطاركة الموارنة واساقفتهم وكهنتهم وقد ذكرت بعضها في هذا الكتاب

لم ينجز طبع هذا الذيل الا واهدى الينا المعلم رشيد الشرتوني كتابه الحديث في سلسلة بطاركة الموارنة والفيناه ينتقد به كلامنا على خط البطريرك ارميا المار ذكره قائلاً ان الاعتماد عليه بمثابة دفع الحقيقة بالشك فكان المعلم رشيد لم يتبصر ان زلة القلم في تاريخ هذا الخط لا تبطل صحته فلا مرية في صحة الخبر لان البطريرك ارميا اخبر عن نفسه وعما جرى له فيتحتم قبول كلامه ولا شك ايضاً في ان يد ارميا كتبت هذا الخط بالسريانية لمطابقته خطوط تلك الايام ولما كتبه اسلافه وغيرهم على هوامش هذا الكتاب النادر الثمين ولانه لا يتصور ان رجلاً آخر ادخل هذا الخط اذ لا يمكن ان يكون غرض منه يجر نفعاً على احدٍ فاذاً الخط صحيح ويد ارميا كتبته وقد اعتمد عليه المطران اسطفان عواد السمعاني ونشر له مثالاً في كتابه في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية واصلح بترجمته الى اللاتينية الزلل الواقع به في تاريخ السنة ونحن رأينا بعيننا هذا الخط كما مر فاذ تقرر ذلك كان لا بد لنا اما من الحكم بصحة هذا الخط كما هو اي انه كتب سنة ١٥٩٠ لاسكندر وهي توافق سنة ١٢٧٩ واما بان فيه زللاً بتاريخ سنة كتابته فان قلنا انه صحيح كما هو ظاهري كان ذلك مخالفاً لكل قول ان ارميا صير بطريركاً في اواخر القرن الثاني عشر او في اوائل القرن الثالث عشر كما روى المعلم رشيد اقامته بطريركاً سنة ١٢٠٩ وكان مخالفاً ايضاً لبرأة البابا اينوشنسيوس الثالث الموجهة الى هذا البطريرك واساقفته وشعبه مؤرخة سنة ١٢١٥ ومناقضاً للراي العام بان هذا البطريرك شهد المجمع اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥ فيضطر لذلك المعلم رشيد وكل من طالع الخط المذكور كما اضطررنا نحن الى القول ان في التاريخ زلة قلم اي عوضاً عن ان يكتب سنة ١٤٩٠ لاسكندر التي توافق سنة ١١٧٩ كتب ١٥٩٠ التي توافق سنة ١٢٧٩ ومن الواضح ان هذا الزلل في تاريخ السنة لا يبطل صحة الخبر ولا يجعله كاذباً ويحق الاعتماد عليه ولا يكون ذلك بمثابة دفع الحقيقة بالشك كما

قال المعلم رشيد واذا طالعت ما دونته قبلاً في هذا الكتاب عن هذا الخط وارميا علمت كم ازال هذا الخط من الاشكال وكم بين من الغموض وكان الاولى بالمعلم رشيد الاعتماد على ذلك

انتقد المعلم رشيد ايضاً ترجيحنا ان مقتل البطريرك جبرائيل من حجولا كان سنة ١٢٩٦ سنداً الى ادلة ذكرناها في كتابنا تاريخ سورية في جملتها شهادة العلامة البطريرك الدويهي عن النسخة التي ذكر ترجمتها لاكويان في المشرق المسيحي فقال المعلم رشيد انه لا يمكنه ان يوافقنا على ذلك لثلاثة ادلة اولها ما ذكره الدويهي نقلاً عما كتبه المطران يعقوب من اهدن ان ملك قبرس غزا الاسكندرية فغضب السلطان وقبض نائبه في دمشق على روساء البيعة وسجنهم ليس الا وكل يرى ان كلام المطران يعقوب هذا حجة على المعلم رشيد لا حجة له فقتل البطريرك اهم من حبس الاساقفة فلو كان مقتل البطريرك تلك السنة اي سنة ١٣٦٧ ذكره المطران يعقوب لا محالة والامران اي القبض على الروساء ومقتل البطريرك كانا بموجب قوله نفسه في سنة واحدة ودليله الثاني ان البطريرك الدويهي ذكر في تاريخه مقتل البطريرك سنة ١٣٦٦ وان هذا تصحيح لما قاله في كتابه دد التهم عن الموارنة من انه ما استطاع ان يعرف في اي سنة كان البطريرك لوقا من بنهران والبطرك جبرائيل حجولا وهذا الدليل باطل ايضاً لان قول الدويهي انه ما استطاع ان يعلم في اي سنة كان البطريرك جبرائيل من حجولا هو نص صريح واما قوله في تاريخه سلسله البطاركة ان مقتله كان سنة ١٣٦٦ فلرواية له مختلفة ففي النسخة التي اعتمد عليها اكويان ان استشهاده كان سنة ١٢٩٦ ونحن نعتقد ان هذه النسخة اصح واسلم من التحريف لقربها من عهد المؤلف وتداولها بايدي علماء مشهورين ولم يكن للمعلم رشيد ان يأتي بهذا الدليل او يحتج به قبل ان يمتحن تحليل نسخة الدويهي التي بيده على كل ما هو سواها وانما هذ هو ما صح به القول

انه دفع الحقيقة بالشك ثم ان الدويهي لم يشر انه اصلح بروايته في سلسلة البطاركة ما كان كتبه في رد التهم بل ذلك تخمين من المعلم رشيد فقط فلا يعول عليه هذا وقد رأينا مؤلف كتاب سورية المقدسة نص صريحاً على ان مقتل هذا البطريرك كان سنة ١٢٩٦ واعتمدنا شهادته في ترجيحنا ذلك

ودليله الثالث ان السمعاني عند ذكره كتاب المطران جبرائيل القلاعي الذي يقال فيه ان مقتل البطريرك كان سنة ١٣٦٦ لم يخطئه فهذا باطل ايضاً لان السمعاني ذكر هذا الكتاب في فهرست الكتب المعلق في آخر المكتبة الشرقية فلا مجال للتخطئة في فهرست الكتب فلا ينتج من ذلك شيء

ولا يسعنا الا ان نذكر استطراداً اننا لا نصوب كلام المعلم رشيد الظاهر من الحكم على البطريرك يعقوب عواد بمجرد شهادة بعض خصومه فلا يقضي بشهادة الخصوم على احد وباولى حجة على بطريرك شهد الكرسي الرسولي بان حطه عن بطريركيته كان ظلماً وعدواناً فهذا ما اردنا ان نضمه الى هذا الذيل محافظة على الحقائق لا مباراة لابن عزيز عندنا ونثني على اجتهاده بنشر كتب علامتنا البطريرك اسطفانوس الدويهي

